

بيتر شوجر

ترجمة: د.عاصم الدسوقي

أوروبا العثمانية

١٣٥٤ - ١٨٠٤

(فى أصول الصراع العرقى فى الصرب والبوسنة)

دار الثقافة الجديدة

بيتر شوجر
ترجمة-عاصم الدسوقي

أوروبا العثمانية

١٨٠٤ - ١٣٥٤

أوروبا العثمانية

١٣٥٤ - ١٨٠٤

بيتر شوجر

ترجمة د. عاصم الدسوقي

الطبعة الأولى ١٩٩٨

© حقوق النشر محفوظة ١٩٩٨

دار الثقافة الجديدة

٣٢ ش. صبرى ابو علم

باب اللوق، القاهرة

ت: ٣٩٢٢٨٨٠

رقم الإيداع ٩٨/١٠٥٥٥

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-221-085-1

هذه ترجمة كتاب:

Southeastern Europe under
Ottoman Rule, 1354 - 1804

وهو المجلد الخامس من سلسلة بعنوان:

A History of East Central Europe

اشراف كل من :

Peter Sugar بيتر شوجر

Donald Treadgold دوناآلد تريديجولد

الفهرس

ص	
٩	مقدمة المترجم.....
١١	تصدير.....
١٣	مقدمة المؤلف.....

القسم الأول العثمانيون

❖ الفصل الأول: نشأة الوجود العثماني في أوروبا:

١٧	١ - الأسس الاسلامية والتركية للدولة العثمانية.....
٢٨	٢ - الامبراطورية العثمانية الأولى وولاياتها الأوربية.....
٣٨	٣ - الحرب الأهلية وقيام الامبراطورية العثمانية الثانية.....

❖ الفصل الثاني: البناء الاجتماعي والاداري العثماني

٤٧	١ - مقدمة.....
٥٠	٢ - الموظفون العثمانيون.....
٦٠	٣ - الرعايا.....
٦٧	٤ - مشكلة الارتداد عن العقائد.....
٧٣	٥ - نظام الدفشرمة.....

القسم الثاني

الحياة داخل الاقاليم، النواة، لأوروبا العثمانية

١٥٧٤-١٤١٣

❖ الفصل الثالث : اقرار الحكم العثماني ١٤٥١ - ١٥٦٦

٨١	١ - ملاحظات تمهيدية.....
٨٤	٢ - التوسع في أوروبا ١٤٥١ - ١٥٦٦.....

❖ الفصل الرابع : تنظيم المدينة العثمانية وإدارتها

- ٩١ ١ - السياسات العثمانية تجاه التجارة والطرق التجارية
- ٩٣ ٢ - تخطيط المدن فى الاقاليم «النواة» لأوربا العثمانية
- ٩٦ ٣ - نظام طوائف الحرف وحكومة المدينة
- ١٠٦ ٤ - المدينة «النواة» لأوربا العثمانية

❖ الفصل الخامس : ريف أوروبا العثمانية

- ١١٣ ١ - نظام ملكية الأرض
- ١٢٠ ٢ - الضرائب فى الريف
- ١٢٥ ٣ - التخوم
- ١٢٩ ٤ - ملحوظات ختامية

القسم الثالث

الولايات التابعة ودافعة الجزية فى أوروبا العثمانية

❖ الفصل السادس : مولدافيا وولاشيا

- ١٣٥ ١ - عصر الأمراء المحليين
- ١٤٢ ٢ - العلاقات العثمانية مع مولدافيا وولاشيا
- ١٤٨ ٣ - قرن البويار
- ١٥٤ ٤ - الحقبة الفنارية

❖ الفصل السابع - سنانيا

- ١٦٥ ١ - خلفية تاريخية
- ١٧٢ ٢ - الأساس القانونى لامارة ترانسلفانيا
- ١٧٧ ٣ - فترة حكم أسرة بالورى
- ١٨٢ ٤ - آخر الأمراء
- ١٨٧ ٥ - الخلاصة

❖ الفصل الثامن : دوبروفنيك (اراجوزا)

- ١٩١ ١ - خلفيه تاريخية

- ٢ - علاقات دوبروفنيك مع العثمانيين ١٩٥
- ٣ - الاسهامات الثقافية لدوبروفنيك ٢٠١
- ٤ - خلاصة ٢٠٥

القسم الرابع

الحياة في ولايات اوريا العثمانية ١٥٢٤ - ١٨٠٤

❖ الفصل التاسع : تغيير المصير

- ١ - تدهور الامبراطورية العثمانية ٢٠٩
- ٢ - حروب القرن السابع عشر وعصر أسرة كوبروللو ٢١٧
- ٣ - حروب ما بعد القرن الثامن عشر ٢٢٥

❖ الفصل العاشر : تغير اوريا العثمانية

- ١ - مقدمة ٢٣٣
- ٢ - القرية الجديدة ٢٣٥
- ٣ - التغيرات الديموجرافية ٢٤٦
- ٤ - المدينة الجديدة ٢٤٩

❖ الفصل الحادى عشر :التفكيك النهائى للنظام الاقليمى فى جنوب

شرقى اوريا العثمانية

- ١ - مقدمة ٢٥٩
- ٢ - الحرب الأهلية داخل المؤسسة الحاكمة ٢٦١
- ٣ - القوي الشعبية ٢٦٩

القسم الخامس

نظرات عامة

❖ الفصل الثانى عشر : الحياة الثقافية

- ١ - مقدمة ٢٧٧
- ٢ - اليونانيون ٢٨١

٢٨٥	٣ - السلافيون
٢٩٣	٤ - اليهود

❖ الفصل الثالث عشر : النتائج

٢٩٩	١ - العصر العثماني
٣١٠	٢ - التركيبة العثمانية
		- مقالة في بيلوجرافية البحث
٣١٦	١ - مقدمة
٣١٧	٢ - مصادر أساسية
٣٢٣	٣ - المراجع العامة والبيلوجرافيات
٣٢٨	٤ - الصحف والمجلات
٣٣١	٥ - اشارات إلى بعض المؤلفين ومؤلفاتهم

- الملاحق

٣٤٣	١ - الملحق رقم (١) بيت آل عثمان
٣٤٥	٢ - ملحق رقم (٢) الصدور العظام
		٣ - ملحق رقم (٣) الحملات العسكرية الرئيسية ومعاهدات الصلح والاراضى التى كسبتها وخسرتها الامبراطورية العثمانية فى اوربا ١٣٤٥ - ١٨٠١
٣٤٦	



مقدمة المترجم

قبل أن تندلع حرب التطهير العرقي بين أجزاء يوجوسلافيا السابقة (الصرب - البوسنة - الهرسك) في العام ١٩٩١ - ١٩٩٢ كنت قد بدأت في ترجمة هذا الجزء من سلسلة دراسات تغطي تاريخ منطقة وسط أوروبا على مر العصور في القديم والوسيط والحديث من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية بلغت أحد عشر مجلدا (والكتاب المترجم هو المجلد الخامس). وكان سبب اختياري لهذا الجزء أنه يسد فراغا في المكتبة التاريخية العربية عن فترة الوجود العثماني في أوروبا ذلك ان معرفتنا الأكاديمية عن التاريخ العثماني تقتصر على توسع الدولة العثمانية في العالم العربي في مطلع القرن السادس عشر (١٥١٦-١٥١٧) فقط دون اهتمام بالتوسع العثماني في البلقان وآسيا الصغرى، وطبيعة نظام الحكم هناك، وعلاقات التبعية التي أقامها سلاطين آل عثمان مع امراء تلك البلاد.

ولما انفجر الصراع العرقي هناك في مطلع التسعينات والذي مايزال قائما وكنت قد انتهيت من ترجمة نصف الكتاب تقريبا، أدركت ان للكتاب أهمية سياسية غير الأهمية الأكاديمية التي دعتني لترجمته اذ انه يلقي اضواء على جانب من أصول الصراع العرقي في المنطقة يعود في المقام الأول إلى مجمل السياسات العثمانية هناك والتي حملت في طياتها بذور الفتنة المذهبية بين اهالي المنطقة التي دانت لهم، وتشتيت العناصر التي قاومت العثمانيين واعادة توطينها في جهات متفرقة الأمر الذي أدى في النهاية إلى عدم وجود تجانس بين سكان المدينة الواحدة عرقيا ودينيا، وهي العقبة إلى واجهت الحلفاء في الحرب العالمية الأولى عندما ارادوا انشاء دول قومية في البلقان الذي كان يخضع لتركيا والنمسا وذلك في اطار تسويات الحرب. يضاف إلى هذا أن نظام تجنيد الانكشارية المعروف بالدفشمرمة والذي اعتمد على انتزاع الصبية من الاسر لمسيحية في البلقان وتربيتهم تربية اسلامية عسكرية كان له أثر سلبي في نفوس هذا الاسر فترة الحكم العثماني تناقلته الأجيال. غير ان هذه الاختلافات العرقية - المذهبية توارت قليلا عندما تكونت الدول القومية في البلقان في اطار تسويات الحرب العالمية الأولى حيث اصبحت الرابطة السلافية هي الثوب الذي جمع هذه الأشتات الممزقة في المقام لأول. ولما تحولت هذه الدول إلى الشيوعية في أعقاب الحرب العالمية الثانية توارت

أكثر وأكثر هذه الاختلافات الذاتية لصالح الصراع ضد الرأسمالية بصرف النظر عن العرق والدين. واستمر الحال كذلك حتى مطلع التسعينات حين انهار حكم الأحزاب الشيوعية وتمزق الثوب الذي كان يضم الجميع، وأخذ كل فريق يبحث عن ذاته فلم تكن سوى ذات دينية أو ذات عرقية، وسيطر الماضي العثماني بعد عام ١٧٥٤ على اليات الصراع ومن هنا حرب التطهير العرقي، وهي حرب ذميمة تغذيها مصالح القوى الكبرى لتفكيك الكيانات القومية منتهزة مناخ التعصب والانتقام الذي لا يعرف التسامح والتعايش مع الآخر.

وهكذا اكتسب الكتاب أهمية سياسية إلى جانب أهميته الأكاديمية التي تكمل صورة التاريخ العثماني بالنسبة للدارس العربي. ولعل أهميته الأكاديمية تتضح في الفصل الأخير الذي هو عبارة عن استعراض لمصادر الكتابة عن جنوب شرق أوروبا تحت الحكم العثماني.

ورغم أنني انتهيت من الترجمة في صيف ١٩٩٢ في فترة الابتعاد عن وظيفة عميد كلية آداب سوهاج أسيوط (١٩٨٤ - ١٩٩٠) إلا أنني لم استطع مراجعتها وكتابتها على الآلة الكاتبة تمهيدا لنشرها في وقت مناسب، إذ سرعان ما عدت إلى عمادة الكلية في صيف ١٩٩٢ ثم انتقلت إلى جامعة حلوان في صيف ١٩٩٤ لكي أتولى تأسيس كلية الآداب بها، وهي مهمة شغلتنى كثيرا عن الانتهاء من أعداد هذه الترجمة للنشر فور الانتهاء منها.

ويسرني ان اتقدم بالشكر والعرفان للدكتور مجدى بكر استاذ اللغة التركية بكلية الألسن جامعة عين شمس، والدكتور سيد محمد استاذ اللغة التركية بكلية آداب سوهاج جامعة جنوب الوادى لمساعدتهما لى فى ترجمة ما غمض على من المصطلحات العثمانية الواردة بالكتاب وكتابتها بحروف عربية حسب النطق العثمانى. كما أشكر الدكتور اسحق عبيد استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس لمساعدته فى شرح بعض المصطلحات المشتقة من لاتينية العصور الوسطى لفهم السياق العام.

وأخيرا .. أرجو ان يجد القارئ المتخصص فى هذا الكتاب ما يسد حاجته لمعرفة تاريخ العثمانيين فى أوروبا، وان يجد فيه الباحثون ما يشجعهم على أعداد بحوث متخصصة فى هذه الزاوية.

العجوزة فى اول مارس ١٩٩٨

المترجم

تصدير

بدأت الدراسة المنهجية لتاريخ شرق وسط اوربا بمعرفة باحثين من خارج المنطقة ذلك ان معظم المؤرخين من ابناء المنطقة نفسها اتجهوا إلى الكتابة عن بلدانهم فقط (كل منهم يكتب عن بلده فقط) ، ولهذا لم تظهر دراسة تاريخية شاملة عن منطقة شرق وسط اوربا باى لغة من اللغات .

وعلى هذا تم اعداد هذه السلسلة من الدراسات لتكون وسيلة تمتد الباحث غير المتخصص فى تاريخ شرق وسط اوربا، وكذا الدارس الذى يسعى لأن يكون متخصصا، بمقدمة للموضوع وباطار عام للمعرفة من خلال ما تم نشره من مطبوعات، ثم اصبح من الضرورى فيما بعد القيام ببحوث جديدة لا لشيء سوى ان تتمكن من عرض موضوعات معينة وفترات معينة بقدر من التخصص والعمق. وتحقيقا لذلك الغرض قام المشرفان على تحرير هذه السلسلة بمناقشة الاهداف المشتركة والاجراءات المناسبة مع مؤلفى كل موضوع على حده حتى يتحقق قدر معين من التوازن والتكافؤ بين الموضوعات المختلفة، وتكون الاحد عشر مجلدا فى هذه السلسلة وحدة واحدة، لا ان تكون مجرد تجميع لكتابات متباينة.

اما مسائل التفسير ووجهات النظر فقد تركت كما هى دون تدخل من جانب المشرفين على المشروع باعتبارها مسئولية كل مؤلف. وينبغى التأكيد فى هذا التصدير على ان اى كتاب فى هذه السلسلة لا يتناول بلدا معينة بمفرده ذلك ان المشروع يتعامل مع الوحدات الجغرافية او السياسية التى كانت قائمة خلال فترة البحث، وليس تفسير الماضى فى ضوء المشاعر والامانى المعاصرة فى النصف الثانى من القرن العشرين.

وحدود شرق اوربا فى هذه السلسلة حدود لغوية حيث تعيش الشعوب التى لا تتكلم الجرمانية من ناحية الشرق، والشعوب التى لاتتكلم الايطالية من ناحية الغرب، والحدود السياسية الروسية (الاتحاد السوفييتى) تجاه الشرق. على أن هذه الحدود غير ملتزم بها بدقة فى كل كتاب من السلسلة يتناول فترة زمنية معينة. ورغم ان ادخال شعوب فنلندا واستونيا

ولاتفيا وليتوانيا وروسيا البيضاء واوركرانيا فى هذا الحدود امر مفهوم من حيث الملائمة، الا اننا رأينا أن نحاول ادخالها منهجيا فى بحوثنا رغم تكرار ذكرها فى كتب السلسلة، على حين تمت الكتابة بعمق عن البولنديين، والتشييكوسلافيين، والمجريين، والرومانيين، واليوجوسلاف، والالبان، والبلغار، واليونان.

وحتى يكون الاهتمام باقاليم المنطقة متساويا موضوعيا وزمنيا، خصصنا ثلاثة كتب عن المنطقة شمال خط نهري الدانوب - سافا، وثلاثة عن المنطقة الجنوبية لهذا الخط، واربعة كتب عن المنطقتين معا، واربعة من هذه الكتب عن فترات التاريخ قبل العصر الحديث، وستة عن العصر الحديث. اما الكتاب الحادى عشر فيحتوى على اطلس تاريخى وقائمة ببليوجرافية عن الموضوع كله. وكل كتاب فى السلسلة مزود بمقالة ببليوجرافية خاصة بموضوعه تذكر الحد الادنى من المراجع حتى يكون الكتاب فى متناول أكبر قدر ممكن من القراء.

ويود المشرفان على هذه السلسلة ان يشكرا مؤسسة فورد Ford Foundation للدعم المالى الذى قدمته من اجل هذا المشروع، ومعهد الدراسات المقارن الاجنبية - Institute of comparative and foreign Area studies (معهد الشرق الاقصى وروسيا سابقا) - Far Eastern and Russian Institute ومديره الثلاثة: جورج تايلور، وجورج بكمان، وهربرت آيسون اذ بفضل تشجيعهم امكن للمشروع ان يتحقق.

ولقد اخذ المشروع فى انجازه وقتنا أطول من الوقت الذى كان محدد له أصلا، ذلك ان اثنين من الباحثين الذين تم الاتفاق معهم قد توفيا قبل ان ينهيا بحثيهما وبالتالي تم تكليف غيرهما. ولقد تم نشر كتب السلسلة كما كتبها مؤلفوها دون تدخل من جانبنا. ونأمل ان الفائدة المرجوة منها تبرر المعاناة الطويلة التى عانيناها فى تصور موضوعاتها وتنفيذها وظهورها إلى حيز الوجود، وان تؤدي إلى إثراء المعرفة والاهتمام بالتاريخ الثرى المتعدد الجوانب لشرق وسط اوربا بين اولئك الذين يقرأون الانجليزية فى كل مكان، وان تحث على مزيد من الدراسة والبحث لمختلف مظاهر تاريخ هذه المنطقة التى مازالت بحاجة إلى باحثين علميين.

بيتر شوجر

دونالد تريديجولد

مقدمة المؤلف

لقد طلب المشرفان على سلسلة «تاريخ شرق وسط أوروبا» من المشاركين في اعدادها ان يضعوا نصب عينهم ان السلسلة سوف تتناول كل الملامح الرئيسية للتاريخ من حيث مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية وكذا المؤسسات .. وان كل مؤلف سوف يبذل جهده حتى تتوازن الكتابة عن كل المظاهر ولا يطغى احدهما على الاخر من حيث الحجم». كما اشترطت مذكرة المشروع المؤرخة في ٢٣ مارس ١٩٦٣ «ان تكون قائمة ادوات البحث من مصادر ومراجع في ادنى حيز ممكن في الحاشية» باستثناء المقالة البليوجرافية.

وباعتبارى احد المشرفين على المشروع اللذان حددا هذه الشروط فقد اتبعتها قدر الامكان عند الكتابة. وعلى هذا ولكي اكتب عن خمسمائة عام من تاريخ الألبان والبلغار واليونان والرومانيين والصرب - كرواثيين في هذا الحيز المحدد، وأتناول في الوقت نفسه بعض ملامح حياة المجرين والأترك في فترات معينة، واكتب كتابا لا يشذ عن أشكال الكتابة المقبولة عند المؤرخين المحترفين، كان امر فوق قدراتي أو رغباتي. وعلى حين أقيمت على الاطار الزمني التاريخي التسجيلي، الا اننى رتبت المادة العلمية ترتيبا موضوعيا أو جغرافيا في فصول لا يبرز تواريخ محددة. ولقد كانت نيتي منذ البداية ان اقدم سلسلة مرتبة تاريخيا لصور وصفية تقدم في مجملها صورة واضحة للحياة في جنوب شرقي اوربا تحت الحكم العثماني، فاذا كان الذي انجزته قد نجح في تحقيق هذا لطلب فان غرضي من البحث قد تحقق. ومن المتفق عليه ان هذه السلسلة كلها بما فيها هذا الكتاب تستهدف الطالب الجامعي أو المؤرخ غير المتخصص في المنطقة والمهتم بمعرفة شئ ما عن جنوب شرقي اوربا. وقد بدا من الاهمية بمكان ان نلبي حاجات هذا النوع من القراء اكثر من ان نتبع المعايير القياسية المعترف بها في الترتيب والتنظيم. ولعل هذه الظروف وتلك الاعتبارات التي شرحناها آنفا قد حددت شكل ترتيب هذا الكتاب.

وقد اثبتنا في ثنايا الكتاب الأسماء والتعبيرات المأخوذة من عدة لغات مختلفة. ولكن إذا لم تكن لهذه الأسماء أو التعبيرات مقابل متكافئ في الانجليزية جعلها عمليا جزء من لغتنا (مثل كلمة وزير أو سلطان)، أو تكن معروفة في شكل اخر (مثل فيينا وبلجراد)، فاننا

ارجعناها إلى أصول هجائها كما ينطقها. اهل المنطقة حاليا. كما اثبتنا المدن بالاسم الذى كانت تعرف به خلال فترة البحث (مثل القسطنطينية قبل ١٤٥٣ واستانبول بعد ذلك التاريخ)، ولكن عندما يذكر الاسم (مدينة أو مكان أو علم) لأول مرة فاننا وضعنا بين قوسين كل الاسماء الأخرى التى كان يعرف بها. على ان القاموس الخاص بالتعبيرات الاجنبية والأماكن الجغرافية الملحق فى نهاية الكتاب سيساعد القارئ على تحديدها دون صعوبة.

وبعد هذا الحديث المزعج عن تفسير بعض الأمور الفنية، انتقل إلى الحديث عن الكتاب وعن تقديري لمساعدة الكثيرين التى لولاها لما كان من الممكن إنجازها. اما المعونة المالية للبحث فقد حصلت عليها من مؤسسة جوجنهايم Guggenheim foundation ومعهد الدراسات المقارنة والعالم الخارجى Institute for comparative and foreign Area Studies بجامعة واشنطن، كما ساعدتني المنحة التى حصلت عليها من المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية American Council of learned societies فى الحصول على الوقت اللازم لكتابة المسودة الاولى لهذا الكتاب. واتقدم بالشكر والامتنان العميق لهما.

أما الاشخاص الذين قدموا الى يد المساعدة فى دور الارشيف والمكتبات فهم من الكثرة بحيث يتعذر ذكر كل منهم بالاسم. وعلى هذا فاننى اشكر كل الذين تفضلوا بوضع وقتهم ومعرفتهم تحت تصرفى فى الاماكن التالية: المتحف البريطانى، ومكتبة معهد الدراسات السلافية وشرق أوروبا بجامعة لندن، والمكتبة العامة فى باريس، ومكتبات فيينا العامة والجامعية المتخصصة فى المنطقة، ومكتبات بودابست وارشييفها، وكذا بوخارست ومكتبات بلغاريا والصرب وزغرب، وارشيف البوسنة - هرسلك وسرايفو.

وكم كنت ارجب ان تطول قائمة الاماكن ولكن حال دون ذلك عجزى عن قراءة اليونانية، ورفض السلطات التركية أن أقوم بالاطلاع على الارشيف فى استانبول.

واخيرا وليس آخرا اود ان اشكر اثنين اللذان بدون مساعدتها وتفهمها للأمور ما كان بالامكان كتابة هذا البحث وهما: زوجتى «سالى» التى ابدت تفهما كبيرا وتقديرا لغيابى المتكرر ولل ساعات الطويلة التى امضيتها فى الوطن وكأنى خارجه بمئات الأميال فى الوقت الذى كانت بحاجة إلى وجودى معها، وكان تفهمها وتسامحها أكثر مما هو متوقع من زوجة رجل أكاديمى، وكذلك صديقى وزميلي دونالد تريديجولد لفهمه وصبره وما يمثله من نموذجية فى العمل.

بيتر شوجر

القسم الاول
العثمانيون

الفصل الأول

نشأة الوجود العثماني في اوربا

١ - الأسس الاسلامية والتركية للدولة العثمانية

في منتصف القرن الرابع عشر كانت شبه جزيرة البلقان تعاني اضطرابات وفوضى هائلة، ذلك ان امبراطورية الصرب الثانية كانت قد تفككت، كما ان الامبراطورية البيزنطية كانت اضعف من أن تملأ الفراغ السياسي الذي نشأ عن تلك الحالة من الفوضى والانهيار، وهو الدور الذي كانت تلعبه في القرون الخالية. ولقد رافق الفوضى السياسية الحاصلة معارك فكرية وجدال هائل حول أمور اجتماعية ودينية، فلقد انتعشت من جديد محاولات الطبقات الدنيا الدءوبة للتخلص من حكم لنبلاء، كما انتعشت ايضا الهرطقات الدينية التي كانت فصائلها تعبر في الغالب عن فروع اجتماعية طبقية. ومن ناحية اخرى كان أعضاء الأسر السلافية الحاكمة يحاربون بعضهم بعضا، وكان العرش البيزنطي يواجه صراعا مماثلا منذ فترة، وهو ذلك الصراع الذي قذف بالعثمانيين كقوة جديدة داخل البلقان.

خلال الفترة من ١٣٤١ - ١٣٥٥ كان امبراطور بيزنطة يوحنا الخامس اللاهوتي paleologos، ويوحنا السادس يحارب كل منهما الآخر للاستئثار بالعرش. ولما كان يوحنا السادس يعاني من نقص القوات اللازمة ويفتقد المساندة والتأييد من الآخرين، فقد طلب المساعدة والعون من اورهان حاكم امارة تركية صاعدة على الضفاف الشرقية لبحر مرمرة. وعلى هذا ففي ١٣٤٥ عبرت القوات العثمانية الدردنيل ليبدأ فصل جديد في تاريخ اوربا الشرقية.

وفي أقل من مائة عام بعد ذلك العبور وفي عام ١٤٥٣ على وجه التحديد أطاح بيت عثمان ببيزنطة وجعل منها عاصمة لدولة كبرى امتدت تقريبا من اواسط يوجوسلافيا (قبل تفكيكها) إلى شرق آسيا الصغرى. وكان كل من الامبراطورين المتنافسين يوحنا الخامس ويوحنا السادس قد حاربا من اجل انقاذ بيزنطة حريا يائسة لكن دون جدوى. ولقد اطلق على هذه الدولة التي عرفت في الغرب بالامبراطورية العثمانية اسم الممالك العثمانية المحروسة (ممالك محروسة معمورة عثمانية- بالتركية) ولقد كان هذا الاسم الغريب يرمز إلى العناصر الاسلامية والتركية التي قامت على أساسها الامبراطورية. ولا يتسع هذا الكتاب للكشف عن المظاهر الاخرى لتلك العناصر ولكن لا بد من الاشارة إلى بعض الملامح المهمة التي تساعد على شرح النظام الذي تحكم في مصير

الأوربيين تحت الحكم العثماني. لقد وصل بيت عثمان إلى الشرق الأدنى (العربي) متأخرا، وأقام دولة على الاسس نفسها لتي كانت تحكم في المنطقة من قبل. وخلال ستة قرون من الحكم تمسك العثمانيون بهذه المبادئ معتقدين انها تمثل المبررات الدينية والدنيوية لكل ما قاموا به من سياسات. ومن هنا يصبح امرا جوهريا فهم تلك المبادئ.

ولكى نتعرف على الملامح الاسلامية التي لعبت دورا في تفكير العثمانيين، يجب ان نعرض لبعض الملاحظات التي تتعلق بالاصول الاسلامية على النحو التالي:

يبدأ التقويم الاسلامي بسنة الهجرة في عام ٦٢٢ ميلادية عندما هاجر النبي محمد (عليه الصلاة والسلام)* من مكة إلى يثرب (المدينة). ولقد شملت عقيدة التوحيد التي بشر بها النبي كل من اليهودية والمسيحية فضلا عن عقائد عربية تقليدية اخرى كانت قائمة وامتزجت بها بعض الاضافات من هنا وهناك. وعلى حين تميز الاسلام بسمو مكانته اخلاقيا ومعنويا وسط عقائد التوحيد الاخرى، الا انه من الناحية الدينية اللاهوتية يعد أكثر بساطة من تلك العقائد. وعلى هذا فلقد كان مناسبا تماما للقوم الذين خاطبهم النبي برسالاته وملائما تماما لشعوب وصلت إلى مرحلة معينة من الحضارة واصبحت تتطلع إلى مستوى اعلى من المعتقدات الدينية والميتافيزيقية القائمة، وإلى قانون اخلاقي ينظم نشاطات المجتمع الذي يعيشون فيه. وفي الوقت نفسه لم يكن مناسبا لشعوب لم يكن باستطاعتها التعامل مع التعقيدات والصعوبات اللاهوتية لكل من اليهودية والمسيحية. وكان الاترك احد هذه الشعوب التي تلائم معها الاسلام.

لقد اعترف النبي محمد بالرابطة العامة للتوحيد في العقيدة التي دعا اليها وكذلك في اليهودية والمسيحية، فالآية رقم ٦٢ من سورة البقرة في القرآن الكريم تربط بوضوح كل الموحدين في مصير واحد حتى يوم القيامة «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

لقد كان هذا الاعتراف له مغزاه الذي يتعدى نطاق الكلمات والبيانات، فلقد كان محمد يرغب في استخدام القبائل المسيحية واليهودية كحلفاء، وعندما اتسع مجال دعوته استوعبهم في دولته الاسلامية دون أن يطلب منهم تغيير عقيدتهم، فهناك معاهدات ترجع إلى أيام حكمه توضح ذلك بما لا يدع مجالاً للشك. ففي المعاهدة مع اهل نجران باليمن عام ٦٣١ تم تحديد الالتزامات والضرائب المفروضة حيث نصت على ان «اهل نجران وتوابعها في حماية الله وذمة محمد ورسول الله.. هم واهلهم وارضهم وتجارتهم وكنائسهم وشعائرهم .. يتمتعون بحماية الله ويكونون في ذمة النبي إلى الابد بمقتضى هذه المعاهدة .. إلى يوم القيامة، وطالما ظلوا على ولائهم قائمين بالتزاماتهم على الوجه الحسن فلن تقع عليهم لومة لائم»^(١).

* يذكر المؤلف شأن الكتاب الأوربيين اسم محمد والقرآن مجردا دون تكريم (المترجم).

(1) W. Montgomery watt, Muhammed at Medina (Oxford, the Clarendon press, 1956),pp. 359 - 60

في تلك الفقرة السابقة نضع أيدينا على المبدأ الاسلامي الأول الذي حكم حياة شعوب اوربا الشرقية تحت الحكم العثماني، والذي اصبح عنصرا اصوليا، فالانسان الموحد (المسيحي واليهودي) الذي يقبل السيادة للاسلام ويرغب في ان يعيش في دولة اسلامية تحت شروط مفروضة يصبح «ذميا»، اى شخص مشمول بالحماية. وهذه الحماية امتدت إلى ما وراء الحرية الدينية التي كانت أمرا واضحا حسبما أشارت نصوص المعاهدة مع بجران، إذا اشتملت على نوع من الحكم الذاتى أخذ طابعا مؤسسيا في اطار الحكم العثماني عرف بنظام الملة، الذى كان عبارة عن سياسة حكيمة للاقلية تقوم على التبعية الدينية. ويمكن التعرف على اصل هذا النظام من نصوص معاهدة بجران المشار اليها، اذ تشير إلى انه اذا طلب بجرانى اقامة العدل والحق، فذلك امر متروك لاهالى بجران يقيمونه فيما بينهم.⁽¹⁾

وهكذا شكل الحماية العثمانيون الطبقة الاولى من المواطنين، وكان على المحميين من اهل الذمة تحمل بعض الأعباء الخاصة يأتي في مقدمتها ان لم يكن اقدمها طوال الحكم العثماني ضريبة الجزية، هذا فضلا عن بعض الضرائب والالتزامات الاخرى التي يعود فرضها للايام الاولى للعصر الاسلامي واستبقاها العثمانيون وسوف نشير اليها في فصول تالية.

ان التمييز والفرقة بين المسلمين وهم اهل كتاب شأن غيرهم من الموحدين، وبين الوثنيين الذين كان عليهم اما ترك الوثنية او الموت، كان يستند على وجهة نظر اساسية دنيوية لها اهميتها في فهم معنى ان الدولة العثمانية «محروسة» طبقا لاسمها الرسمي كما سبقت الاشارة، وأسباب وجودها في أعين هؤلاء الذين حكموا الامبراطورية. فالمسلمون شأن اليهود والمسيحيين يعتقدون ان بإمكان البشر العيش في سعادة إذا ما اتبعوا تعاليم الله، ذلك ان الله جعل ارادته ووصاياه مروفة على لسان انبيائه، وكان اولهم آدم - كما في عرف المسلمين - وآخرهم محمد. ولما كان الانسان الشرير يحرف كلمات الله لتلائم مع نزواته، فقد اضطر الله ليعث أكثر من نبي. ولأن الله دائم وخالد وثابت فان اوامره تكون كذلك دائمة. وعلى هذا فان كل الكتابيين يتلقون نفس الرسالة، والخلاف بين المسلمين واهل الكتاب الاخرين من الموحدين يكمن ببساطة في ان المسلمين قبلوا الاخيرين وبذلك لم تحرف الرسالة او تشوه على حين تمسك الاخرون بتفسيراتهم الخاطئة للوحي الالهى. ان فهم المسلمين لتعاليم الله فهما تاما جعلهم أصفياء الله وأخياره الذين كان عليهم نشر الكلم الصادق لكل البشر اجمعين.

ورغم ان هذا الكتاب لايمكن ان يناقش العقائد الاسلامية طبقا للقرآن الا انه يجب التنويه ان الكتاب لايهتم فقط باثبات فقرات من الاحاديث النبوية او آيات القرآن، وهى احاديث وآيات لا تقوم بتفسيرها وشرحها او ترجمتها، لأن مثل هذه الترجمات تفسد المعانى. ويكفى القول في هذا المقام ان القرآن يتضمن كل ما يحتاج المرء معرفته ليعيش صادقا مستقيما وينجو بروحه ونفسه.

على كل حال .. عندما نما المجتمع العربى الاسلامى الصغير واصبح امبراطورية واسعة،

(1)Ibd, p.360.

اصبحت الحاجة ضرورية إلى تشريع اضافى . وفى البداية كان المجتمع يعتمد فى هذا التشريع على احاديث النبى ثم على ماورد فى اقوال الصحابة، ثم على ما ورد اخيرا على لسان الخلفاء الراشدين . ولقد اختير من كل هذه الاحاديث والاقوال والاحكام ما اعتبر صحيحا وتم جمعه وتصنيفه فيما عرف بالحديث . ولقد اصبح الحديث وما عرف بالاجماع والقياس وقبل ذلك القرآن يكون جماع الشريعة . اما الانشقاق الذى حدث فى المجتمع الاسلامى فقد نبع من الاختلاف فى الرأى حول قبول احاديث معينة، ولو ان الغالبية العظمى من المسلمين يتبعون المذاهب الأربعة التى عرف اصحابها باهل السنة . ولأن العثمانيين كانوا من السنة، ولأن الشريعة التى يخضعون لها تطبق فقط على المسلمين، اصبح من المتعين التوصل إلى نظام أو اسلوب لغير المسلمين يتوافق مع طبيعة الطوائف الدينية التى يحكمونها خاصة وان المسلمين لايعترفون الا بالاختلافات القائمة على الفروق الدينية، ومن ثم كان نظام الملل .

لقد كانت الشريعة امرا اساسيا لكل الولايات الاسلامية بما فى ذلك العثمانيين، لان الدين والقانون والادارة وايضا السلوك القويم ترتبط معا ويكمل بعضها الاخر، فلم يفرق المسلمون بين ما هو دنيوى وبين ما هو دينى مقدس فى القانون .. فالقانون فى عرفهم يعنى الشريعة .. ومع هذا فالتفرقة كانت قائمة عمليا وكانت الشريعة فى كل الاحوال هى القانون التى يعول عليها . ولقد اشارت معاهدة نجران فيما اشارت بوضوح إلى احترام القوانين المحلية والعادات والتأكد على ذلك . وقد حدث ان أكد العثمانيون احترامهم لتلك الاعراف والعادات فى المناطق التى حكموها من جنوب شرق اوريا فور دخولها، بل لقد ضمنوها فى القوانين العثمانية اللاحقة التى اصدرها السلاطين تباعا لتطبق فى تلك الاقاليم والتى عرفت باسم «القوانين» .

لقد كانت تلك القوانين فى مجملها قوانين دنيوية تقوم فى تقديرنا على قوانين الشريعة الدنيوية والدينية، وتقدم شيئا قريبا من تصورات الغرب بالنسبة لما كان قائما فعلا من امور آنذاك . ومن ناحية اخرى كانت الحاجة إلى تلك القوانين شيئا ملحا سواء للامبراطورية الاسلامية فى الفترة المبكرة من توسعها او للامبراطورية العثمانية، وذلك للتعامل مع مشكلات كثيرة متنوعة وضخمة لم يسبق ان واجهها واضعو الشريعة الأول . والحق ان اصدار مثل تلك القوانين الاضافية فى مجتمع دينى يفترض ان شريعة تلبى نظريا كل حاجات الانسان، كان امر بحاجة إلى تبرير .

لقد قامت تلك القوانين الاضافية على مجموعة من الاعراف، وهى امور تعد فى مرتبة أدنى بالنسبة للشريعة، وكان على الولاة استخدام تلك القوانين فى تنظيم شؤون البلاد طبقا لرأى الفقهاء الأول فى هذا الخصوص . ويقترب من العرف ما يعرف بالقانون العام الذى ينظم العلاقات فيما بين الدولة واجهزتها وفيما بينها وبين الاهالى . وبعد ان اصبح العنصر التركى مسيطرا فى القرن الحادى عشر، اضيف لمجموعة القوانين مبدأ «التورا» التركى القديم الذى يعترف بحق الحاكم فى اصدارالقوانين . ولأن التورا يقترب كثيرا فى معناه من «العرف» فى التصور الاسلامى، فقد كان من السهل استيعابه ضمن التقاليد الاسلامية الشرعية . ولقد كانت تلك المبادئ تمثل الاساس الشرعى لاصدار عدد من القوانين التى اصبحت غاية فى الاهمية للاوربيين تحت الحكم العثمانى . والحق

ان معظم تلك القوانين لم تكن ذات اهمية بالقياس إلى القوانين القديمة التي كانت سارية في المناطق لتى دخلها العثمانيون وأكدوا على وجودها وسريانها والعمل بها.

واما القضاة المسئولون عن ممارسة كل من الشريعة والقوانين، وكذلك المفتون، لم يكونوا اكثر من اصحاب وظائف رسمية فى دولة الاسلام نقل العثمانيون وظائفهم كما وجدوها فى الولايات الاسلامية إلى اوريا كما هى بقضها وقضيضها. وينتمى هؤلاء القضاة والمفتون إلى جماعة العلماء، وهم طبقة المتعلمين المسئولون عن التربية والشرع والثقافة الروحية والعلمية فى المجتمع الاسلامى والذين لعبوا دورا مهما كما سوف نرى فى حياة العثمانيين.

وما يجب ملاحظة من هذا العرض العام للقانون الاسلامى - العثمانى، انه لم يكن مركزيا اقليميا بقدر ما كان فرديا اقليميا من الناحية العملية بمعنى ان الفرد كان يحدد القانون الذى يتمشى مع حالته من حيث العقيدة، والوظيفة، ومحل الاقامة، ومركزه الاجتماعى، وجنسه ذكرا ام انثى. ولقد ادى هذا إلى وجود تنوعات مهمة من الشرائع سوف نناقشها فيما بعد.

وينبغى الإشارة باختصار إلى احد ملامح الاسلام الاساسية التى اصبحت امرا مهما وحاسما فى الدولة العثمانية لسكانها، الا وهو اركان الاسلام الخمسة التى هى ببساطة: شهادة الا اله الا الله وان محمدا رسول الله، واقامة الصلاة، وابتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا. ولقد اتبع العثمانيون بطبيعة الحال هذه الاركان الاساسية، بل ان كل عثمانى عمل على ان يعيش طبقا لما تحضه عليه تلك الاركان من توجهات، وما المباني العامة الكثيرة من مستشفيات وأسبلة وطرق وغيرها التى اقيمت فى جنوب شرق اوريا، الا نتيجة للالتزام باركان الاسلام. ولعل الآيات رقم ١٩٠ - ١٩٣ من سورة البقرة كانت تمثل اهمية كبرى لرسالة الدولة العثمانية. تقول الآيات «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .. واقتلوهم حيث ثقتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين .. فان انتهوا فان الله غفور رحيم .. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين».

ان هذه الآيات من ظاهرها تتحدث عن الحرب الدفاعية، وتدين العدوان، وتخطب فيما يبدو جماعة دينية تتعرض للاضطهاد فيما عدا الآية التى تقول: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .. فهى الوحيدة التى يمكن فهمها عقليا على انها تعنى نشر كلمة الله بالسيف. وعلى اساس هذه الآية اقيمت فلسفة الجهاد، اى الحرب المقدسة ضد غير المؤمنين. ولقد اصبح الجهاد والغزو عند العثمانيين هو المبرر الرسمى لوجود الامبراطورية العثمانية.

وتشرح احدى المعلومات المتوفرة عن حياة عثمان مؤسس الاسرة الحاكمة كيف ان حماه (والد زوجته فيما بعد) الشيخ أوده بالى زعيم احدى الطرق الصوفية، سلمه فى احتفال كبير «سيف الغازى» (اى المحارب) من اجل العقيدة. ومن المعروف ان عثمان انتصر فى اول معاركة الكبيرة ضد بيزنطة كزعيم للغزاة وذلك وعند بافيوم Baphaeum (قوينصار Koyunhisar) قرب نيقية فى.

عام ١٣٠١ حيث خلع عليه السلطان لسلجوقى لقب «بك». وعلى الرغم من ان آل عثمان من الحكام قد اضافوا القبا فخمة ومؤثرة لاسمائهم غير لقبى «الغازى» و «البك»، مثل «السلطان»، و«الخدانوكار» و «السلطان الأعظم» و «الباديشاه»، الا انهم احتفظوا دائما بلقب «الغازى».

كان توسيع رقعة دار الاسلام على حساب دار الحرب (دار اولئك الذين يحاربون الاسلام) واجبا وضعه العثمانيون نصب اعينهم حتى انه عندما توقفت الامبراطورية عن التوسع وبدأت فى الانحسار، بدأ العثمانيون يشعرون بانهم اخفقوا فى تحقيق رسالتهم السماوية.

كان للملامح الاسلامية للامبراطورية العثمانية اثرا كبيرا فى تشكيل اهم المظاهر التى أثرت فى حياة شعوب اوربا الشرقية من ناحية، كما كانت من ناحية اخرى تكفى لشرح الطبيعة الاسلامية للدولة «المحروسة» التى كانت فى حوزة آل عثمان. ففى مختلف دول اوربا والشرق الاقصى بل وحتى فى الدولات العربية الاسلامية، كان تغير الاسرة الحاكمة أمرا واردا من آن لآخر، ولكن فى الدولة التركية كان هذا شيئا مستحيلا، ذلك ان بقاء الامبراطورية العثمانية واستمرارها كان مرهونا بحكم اسرة واحدة الا وهى «العثمانية». ولعل هذا يسجل احد الملامح التركية المهمة فى تكوين هذه الدولة والتى يمكن تفسيرها من خلال تطور ونمو الولايات التركية قبل العثمانيين.

كانت كل العناصر التركية فى الاصل تنحدر من سهول جنوب سيبيريا والسهوب الواسعة الواقعة بين بحر قزوين وسلسلة جبال التايك AItaic. ولقد كانت الدولات التركية فى المراحل المبكرة من وجودها عبارة عن تجمعات قبلية توحدت تحت زعامة رجل قوى كان موته عادة يعنى نهاية هذه الدولة. وكان مثل هذا المجتمع يخضع لسيطرة ارستقراطية محاربة من البكوات، وينتظم فى شكل طبقى، ويحمل فى طياته نواة لنظام شرعى غامض الى حد ما .. وكل شخص فى هذا النظام له مكانه ووضعه فى هذا البناء الذى يقوم على الولاء العام لشخص له هو واسرته مكانة اعلى. وفى مطلع القرن الثامن خضعت المناطق التركية الواقعة على حدود ايران للعباسيين، واصبحت مصدرا لا ينضب أمدهم بما يحتاجونه من رقيق اصبح كثير منهم ذا شأن فى بغداد (عاصمة الخلافة العباسية).

وفى نهاية القرن التاسع تكون تحالف بين قبائل الغز والأوغز فى اقليم بحر اورال. وقد عرفت هذه القبائل بعد اعتناقها الاسلام باسم «التركمان» وذلك تحت قيادة سلجوق. وفى منتصف القرن العاشر استطاع خلفاء سلجوق التوسع جنوبا وغربا حتى اصفهان. وفى عام ١٠٥٥ وفى محاولة من الخليفة العباسى «القائم» وكان ضعيفا (١٠٣١ - ١٠٧٥)، للتخلص من وصاية رئيس حراسه البصاصيرى (التركى)، استعان بالقائد السلجوقى طغرل وجعله قائدا رئيسيا. وعلى هذا وفى الوقت الذى استطاع الخلفاء العباسيون تأكيد قوتهم وقبضتهم على الامور خلال السنوات التالية وحتى عام ١١٥٧ بمساعدة السلاجقة، كان السلاجقة فى الواقع هم اصحاب النفوذ الحقيقى وسادة الموقف، وصار كل منهم يلقب بالسلطان.

وحتى عندما طرد السلاجقة من بغداد فيما بعد، كانوا قد نجحوا في اقامة مراكز نفوذ وقوة لهم في مناطق مختلفة وكانت الاناضول في اسيا الصغرى احد هذه المراكز . وكان لهذا التطور في العلاقات عدة اسباب .. فالمخاربون الاتراك كانوا يتطلعون دوما للعمل تحت امره زعماء اقوياء .. ولما كان السلاجقة قد تمكنوا بقوة في بغداد، فقد اصبح من الممكن الاستفادة بكثير من الاتباع من العناصر التركية في جهات اخرى من القادرين على الحرب والراغبين في القتال. ومن هنا فكر السلاجقة العظام - كما كان يطلق عليهم في بغداد- في ارسال هؤلاء إلى مناطق الحدود للقتال من اجل العقيدة والشرف والتقدم والفوز بالغنائم.

والحق ان الفكرة من وراء هذا كانت تكمن في الرغبة في التخلص من العناصر الراضية أو الميالة بطبيعتها للنضال في سبيل اعتلاء كرسى السلطنة. وكانت الحدود مع بيزنطة هي المكان المناسب للتخلص من تلك العناصر التركية غير المرغوب فيها.

والحق ان المسلمين الغزاة من الاتراك لبيزنطة ونظرائهم من المسيحيين اليونانيين المعروفون بالأكريتوي Akritoi*، كانوا قد اقاموا مجتمعات شبه عسكرية على الحدود تتسم بيشونة الحياة كنتيجة لحالة الحرب المستمرة طوال قرون كثيرة، والتي كان من شأنها عدم تثبيت الحدود بشكل دائم، بل ان سلطة الحكومة المركزية على اقاليم الحدود هذه كانت في احسن الاحوال سلطة اسمية، ومن ثم جذبت تلك الاوضاع القلقة في الاراضي التي لا صاحب لها، المخاطرون الشجعان من الطرفين من الذين كانوا يعيشون على عمليات السطو المتبادلة مبررين افعالهم «بالدفاع عن العقيدة». ورغم ان هذا النوع من الحياة كان امرا غريبا، الا انه تطلب الاتفاق على قواعد عامة بشأنها تلخصت في السلوك الخشن والتزام الطرفين بحياة الفروسية وخصالها.

بعد ان تمكن طغرل من ارساء نفوذه في بغداد بادر بارسال ابن عمه ألب ارسلان لحماية حدود مناطق التوسع التركي. وفي عام ١٠٧١ وعند ملاذكرت شمال بحيرة فان، انتصر انتصارا حاسما على البيزنطيين وأسر امبراطورهم رومانوس ديوجينز Diogenes وكانت اكثر معارك التاريخ الفاصلة والتي لم تقم لبيزنطة بعدها قائمة، تحرر على اثرها شرق الاناضول من حكم بيزنطة، وسرعان ماظهرت دويلات مستقلة في المنطقة ابرزها دويلة ارمينيا. غير انها جميعا لم تكن قوية مما اغرى الغزاة الاتراك على الاغارة عليها من حين لآخر واغتنام الاسلاب. وفي مطلع عام ١٠٧٢ ذهب سليمان احد اقرباء الب ارسلان وكان طموحا، إلى الاناضول على رأس جيش كبير من القبائل التركمانية حيث استطاع اخضاع معظم اسيا الصغرى ووصل إلى نيقية في ١٠٨٢. وعندما استطاعت الحملة الصليبية الاولى استعادة معظم الاناضول عاد قليج ارسلان ابن سليمان إلى الاناضول مرة اخرى واسس دولة سلاجقة الروم. وخلال المدة من عام ١١٠٧ إلى ١٣٠٧ عندما قضى المغول على دولتهم، كانت سلطنة الروم بعاصمتها قونية قد استطاعت خلال تلك الفترة تشكيل ملامح دولة الحدود من الغزاة سياسيا وثقافيا والتي اصبحت من مؤسسات الدولة العثمانية.

* الاكريتوي مصطلح يعنى السهارون الذين لا ينامون ويتطلعون إلى وجود رئيس لهم.

وكان قتال سلاجقة الاناضول المستمر ضد البيزنطيين وضد الصليبيين، بل وضد الدويلات التركية الاخرى فى المنطقة والتي كان اهمها دويلة «الدانشمند»، سببا فى تدفق اعداد كبيرة من محاربي التركمان بتواصل ملحوظ إلى المنطقة. والحاصل انه بعد انتهاء الحروب اقام هؤلاء المحاربون فى المنطقة واستقروا فى الارض التي منحوا اياها كأعظم مكافأة على بلائهم فى القتال. ورغم ان هذا النموذج من الضياع العسكرية كان على النمط الفارسى والبيزنطى والذي كان يعرف بالاقطاع، الا ان السلاجقة توسعوا فيه، وانتهى على ايدي العثمانيين إلى نظام آخر عرف بالتيمار. وكانت حيازة الارض طبقا لهذا النظام فى شكله السلجوقى - العثمانى والتي ارتبطت بتقديم الخدمات العسكرية، يعتبر اهم المظاهر التركية التي نقلت إلى اوريا قاطبة. والحق ان نظام التيمار هذا الذى سوف نعرض له بقدر من التفصيل فيما بعد، كان يمثل قاعدة مؤسسية للجيش، وللانتاج الزراعى، ولتحصيل الضرائب، وللالتزامات المحلية، وقام فى نمطة التركى على اساس الولاء والطاعة الفردية، على عكس الانطاع الاوربى الذى كان الولاء فيه إلى الحاكم مباشرة، كما تميز باختفاء طبقة اللوردات الوسيطة بين اصحاب الضياع الصغيرة واصحاب الضياع الكبيرة.

على أن الامر الذى كان يواجه كل من سلاجقة الاناضول والعثمانيين فيما بعد، وكان غاية فى التعقيد والنمطية معا، هو نمو مراكز قوى جديدة فى المنطقة على شاكلة قونية، وليس فقط حالة الحرب الدائمة على الحدود، وكذلك استمرار اسلوب حياة مجتمعات الحرب التركية - اليونانية فى القرى الداخلية القريبة من الحدود مما نتج عنه فقدان الاساس الاقتصادى لتنظيم دولة.

لقد كانت هناك اسبابا كثيرة لهذا التطور الذى انتهت اليه الاوضاع فى منطقة الاناضول، من ذلك ان تلك المنطقة استمرت ميدان حرب منذ معركة ملاذكرت وحتى نهاية القرن الثالث عشر. وفيما عدا فترات قصيرة نسبيا عندما كان السلاجقة حكاما اقوياء، لم يكن باستطاعة اى سلطة قوية ضمان الامن العام خارج المدن الرئيسية فى آسيا الصغرى. وحتى إذا كان بمقدور مختلف الحكام المسلمين والمسيحيين الاحتفاظ بالنظام، فلقد كانوا اعجز من ان يؤثروا فى العوامل الاجتماعية الاثنية التي حولت الاناضول إلى ارض تركية خلال تلك القرون الطويلة.

كان معظم الاثراك الذين وفدوا إلى الاناضول من قبائل التركمان الرحل المحاربين الرعاة. وزادت هجراتهم إلى هناك زيادة مكثفة فى القرن الثالث عشر أمام انتصارات المغول فى اواسط اسيا أولا ثم فى بلاد فارس واخيرا فى بغداد عام ١٢٥٨. ولقد دخل هؤلاء المهاجرون فى حروب ومعارك متنوعة من اجل الزعامة والامارة فى بلاد سرعان ما تحولت إلى مجتمعات ريفية فى فترة وجيزة، إذ دمرت الموجات التركية الوافدة إلى المنطقة سواء بالغزو أو بالهجرات معظم التجمعات الحضرية^(١). وكان على الاناضول ان تبحث عن حلول لهذه الحالة التي وقعت فيها من الضياع

(١) راجع افضل الدراسات الخاصة بالتحولات الاثنية - الدينية فى:

Speros Vryonis, jr., The decline of Medieval Hellenism in Asia minor and the process of Islamization from the Eleventh through the Fifteenth Century (Berkeley, Los Angeles and London, University of California Press, 1971).

حيث سجل المؤلف المدن والاحياء والقرى التي نهبت وسلبت أو دمرت وسكانها الذين ذهبوا اذ تم استرقاقهم ص ١٦٦ - ١٦٧، ٢٥٩.

والتدمير، مثلما كان على أوروبا الغربية ان تبحث عن حلول جديدة لمشكلة مشابهة لكيفية البناء الشعبي بعد انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية. وبمعنى آخر كانت المنطقة فى حاجة إلى اسلوب جديد للانتاج والتسويق والنظام العام.

ورغم ان كل من عناصر الغزاة الأتراك -اليونانيين كانوا «محاربين من اجل العقيدة»، الا ان اى منهما لم يكن على مستوى كاف من التعليم والدراية لفهم حقيقة معانى الأديان التى يحاربون من اجلها. لقد كانوا مجرد متعصبين اشداء متمسكين بمعتقداتهم، وهى معتقدات لم تكن تمثل شيئا امام الفهم الصحيح والتفسير السليم لكل من الاسلام والمسيحية كما يمر عنها فقهاء الاسلام ورجال اللاهوت المسيحيين. لقد كانت أديان الحدود (التخوم) اذا صح التعبير، حيث اختلطت المسيحية والاسلام بكثير من الخرافات والاساطير والتقاليد بل والمعتقدات الوثنية فى بعض الحالات، تتشابه فيما بينها اكثر مما كانت تتفق بالنسبة لصحيح التفسير العقائدى. وسرعان ما انتشرت هذه الأديان الشعبية وان خضعت تدريجيا للصفات والملامح الاسلامية.

ومثلما كان فارس العصور الوسطى فى الغرب فى حاجة إلى قانون يحكم معارك الحروب المحلية خلال الفترة المبكرة من تلك العصور، كان على المحارب فى الاناضول ان يتوصل إلى معايير خاصة فى السلوك تتوافق مع معتقداته الدينية. وعلى هذا فرضت سيطرة العنصر التركى فى المنطقة ان تكون القاعدة التى تحكم سلوك فرسان الاناضول منبثقة من الاعتماد على عنصر الفرد القائد أو الاسرة والذى كان يمكن ان يكون عنصرا دينيا او عسكريا نظرا للاعتبارات العسكرية والسياسية السائدة فى مجتمع الحدود. وكان الشخص الذى يجمع بين الصفتين يعتبر بطبيعة الحال نموذجاً مثاليا مفضلاً، فاذا لم يكن ذلك ممكناً ينشأ تحالف بين قيادة دينية (شيخ) واخرى عسكرية (سلطان أو بك أو غازى).

والحقيقة ان مجموعة عوامل مختلطة ومتشابهة تضافرت على خلق نظام جديد تمثلت فى الاحتياجات الاقتصادية، والتغيرات الاثنية، وتطلع الناس إلى الاقامة فى الريف، والبحث عن قيادة دينية مقبولة، وعن زعامة فردية يدين الناس لها بالولاء. وليس من المعروف على وجه الدقة متى وكيف حدث هذا التضافر والنمو فى العلاقات، ولكن يمكن القول ان هذا التحول تم تدريجياً ووضعت أسسه خلال حكم السلاجقة، ووصل ذروته فى وقت بزوغ نجم عثمان.

على كل حال .. لقد عبرت المصطلحات الخاصة بتلك الفترة عن هذا الاضطراب الذى صاحب عملية التحول، فنجد عدة تعبيرات مختلفة عن ظاهرة واحدة، على حين تغيرت معانى بعض مصطلحات أخرى. ولعل بعض الامثلة القليلة تكفى للدلالة فى هذا الخصوص .. ففى القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانت كلمة «أخى» تعنى إما قائد أو عضو فى طريقة صوفية، ثم اصبحت تدل فيما بعد على عضو طائفة الحرفة؛ وكلمة «شيخ» كانت تعنى قائد جماعة دينية مثل كلمة «أخى» تقريبا، وأيضا تستخدم كلقب لزعماء قبائل معينة، ثم اصبحت تعنى «اعظ البلاط»، وأيضا تعنى فى الوقت نفسه «ولى الطائفة»؛ وكلمة «فتوة» قد تعنى جماعة صوفية، وقد

تشير أيضا إلى قيم الفروسية ومعاني الاخلاق. اما كلمتي «صوفى» و «درويش» فلم يكن بينهما اختلاف كبير وكانا يعبران فى احسن الاحوال عن الاشتاقات الصوفية.

ومهما يكن من امر تلك المصاعب، فان المحصلة النهائية لها بشكل عام تتخلص فى قيام رابطة التأخى بين تلك الجماعات المختلفة على قاعدة شعبية ودينية واسطورية تختلط فيها عناصر مسيحية واسلامية بل ومعتقدات شعبية اخذت فى شكلها العام طابعا اسلاميا. وانطوت هذه الروابط تحت قيادة «شخص مقدس» وهو «الشيخ» يسهر اعضاؤها من الصوفيين او الدروايش على تدبير الاحتياجات الروحية لأولئك الذين اختاروا رابطة معينة على اساس الاقتناع بالولاء لقائدها والتعبية له بمقتضى ما يمثله من اخلاق وفتوة.^(١)

ومن الملاحظ ان نشاط الروابط الآخية وجهود عناصر الفتوة التى تنتمى اليها فى النهى عن المنكر، تجاوز حدود مجال العقيدة إلى نطاق الاحوال الاجتماعية والاقتصادية، من ذلك ان هذه الروابط ارتبطت بعلاقات وثيقة مع طوائف الحرف واصبحت «الفتوة» بمثابة التنظيم الادارى للنشاط الاجتماعى والاقتصادى لمختلف طوائف الحرف. كما ارتبط نظام الفروسية ايضا بالفتوة، ذلك ان معظم الجنود والعساكر اصبحوا اعضاء فى مختلف الروابط الآخية.^(٢) ولقد انتشرت هذه الروابط والتنظيمات، وكان للكبير منها تكايا وزوايا فى مختلف انحاء البلاد. وكان ترحال اعضاء الروابط أمرا مستمرا ليس فقط من أجل القيام بالواجبات الدينية، بل من اجل ممارسة حرفة الرابطة التى ينتمى اليها العضو هنا وهناك. وكان هذا من شأنه ممارسة عدد هائل من المهام بنجاح وكفاءة وفى مقدمتها ان لم يكن اهمها قاطبة نشر وبت الأخبار هنا وهناك، ونتيجة لهذا اصبح امرا حاسما بالنسبة للحكام او لمن يبغي الوصول إلى اعلى الهرم الاجتماعى ان يكون على علاقات وثيقة بتلك الروابط والمنظمات لأن من شأنها الترويج لهم ونشر صيتهم فى المعمورة، وتجنيب محاربيهم لهم، وتوفير الامتيازات الاقتصادية من خلال طوائف الحرف.

لقد بدأ نجم عثمان - كما رأينا- فى الظهور بارتباطه بالشيخ اوده بالى (حماء) وجماعة «الفتوة» الخاصة به. ولقد تعلم عثمان احدى الحرف ليثبت انه اصبح عضوا فى رابطة من الروابط الآخية. فوضع بذلك سابقة لكل خلفائه. وفى هذا المقام حقق عثمان النموذج المثالى للقائد الذى جمع فى شخصه بين الصفة العسكرية والصفة الروحية ويدين له الجميع بالولاء الشخصى. وعلى هذا لم يكن اتباع عثمان (الأتراك العثمانيون) اعضاء فى قبيلة او عشيرة معينة، بل كانوا فى بساطة خليط من كل العناصر التركية او الشعوب المتتركة من اصول أخرى من الذين انضموا إلى عثمان وإلى عائلته فيما بعد. وهذه الحقيقة توضح أثر التقاليد التركية الحاسمة فى صياغة دور القائد

(١) يمكن تقسيم تلك الروابط الآخية إلى قسمين وهما: التنظيمات الآخية والطرق الصوفية (الدروايش). وتناول تلك النقطة من هذا الفصل الروابط الآخية. اما الطرق الصوفية فسوف تناقش فى الفصول التالية.

(٢) خلال فترة البحث كان هذا الارتباط قائما بين المنظمات الآخية وجماعات الغزاة. وفى الفترات التالية كان لقطاعات أو شرائح مختلفة من الجيش علاقات وثيقة بمختلف الطرق الصوفية.

التركي وعائلته في المجتمع والدولة، إذ لم يكن هناك ما يربط «العثمانيين» بعضهم بعض أكثر من الولاء للأسر الحاكمة.

ولقد انتقل نظام «الروابط» إلى أوروبا مع دخول العثمانيين، غير أن مغزاها الديني كان قد تضاعف، ذلك أنه لم يحدث في أوروبا عكس الاناضول، اعتناق للإسلام بأعداد هائلة. وعلى هذا فلقد كان لتلك الروابط دورا مهما في طوائف الحرف والتجارة والمؤسسات والهيئات الخيرية.

كان طبيعيا ألا تستطيع الدولة اختيار الجهاز الإداري المتعلم اللازم من بين أعضاء الروابط أو جماعات الغزاة، كما لم يكن الإسلام الشعبي (الصوفية) مناسبا لأن يصبح المعين الأيديولوجي لكيان سياسي كبير وضخم. وفي الدولات الإسلامية كان المسؤولون الإداريون يختارون من بين المسلمين المتعلمين وخاصة من الرقيق المدرب تدريبا عاليا، وكان من حسن حظ الدولات التركية في الاناضول أن العناصر المتعلمة هناك انتقلت إلى الجهات الغربية من الاناضول مع جماعات المحاربين. ومن هنا كان يحكم قونية السلجوقية في ذروة قوتها جهاز إداري جيد، فضلا عن أنها كانت مركزا مهما للعلم والحضارة والثقافة الإسلامية. وهكذا عندما انهارت قونية وظهرت إلى الوجود أمارات أخرى جديدة بما في ذلك الإمارات العثمانية، كانت القوى البشرية المتعلمة والمدرّبة التي كانت تعمل في قونية، في خدمة هذه الإمارات الصاعدة، كما أصبح الرقيق المدرب تدريبا عاليا جزء من هذه القوى البشرية فزاد ذلك من تعاضد أمرها.

كان الرق في بلاد الشرق الأدنى نظاما قديما سائدا منذ وقت سحيق لا يعرف على وجه الدقة بداياته، وقد مارسه المسلمون وتبنوه كنظام قائم. غير أن الإسلام كعقيدة أحدث بعض التغييرات بالنسبة لهذا النظام حيث أشار إلى أنه لا يمكن استرقاق المسلمين. لكن الرقيق الذين اعتنقوا الإسلام ظلوا رقيقا رغم تشجيع الإسلام وحثه الدائم على العتق وفك الرقاب، على حين أصبح أولادهم أحرارا. ولأن معظم الرقيق اعتنقوا عقيدة سادتهم الأوهى الإسلام، فقد أصبحت الحاجة مستمرة لرقيق جدد. والحق أن أولئك الرقيق لم يكونوا يستخدمون فقط في النشاط الاقتصادي، بل عملوا بدرجة ما كطلاب علم ورجال إدارة وجنود وفي كل أوجه النشاط الممكنة إجمالا. وكان من تولى منهم مراكز عليا في الجيش والإدارة رجال على قدر عال من القوة، يستمدون قوتهم في مراكزهم من قوة سيدهم الذين يتبعونه، وكانوا في ذلك يشبهون أتباع نبلاء روما القديمة.

كان الأتراك الذين جلبوا من أواسط آسيا إلى المراكز الإسلامية من العبيد غالبا، واستخدموا كجنود بصفة رئيسية، وقد أصبح أولادهم من المسلمين الأحرار من رجال الإدارة الأقوياء. أما أولئك الذين قدموا إلى تلك المراكز بمحض إرادتهم أو جاءوا تلبية لدعوة كما رأينا في حالة طغرل، فقد شغلوا وظائف في الإدارة مشابهة أو كانوا في خدمة أحد «السادة» وهو الخليفة في تلك الحالة. وكان العمل في خدمة الخليفة يتمشى مع تقاليد هؤلاء في الولاء الشخصي للفرد القوى التي درجوا عليها. وهكذا عندما ارتفع شأن الإمارات التركية في الاناضول، أعيد أحياء تقليد الولاء

الشخصى من جديد، وعمل العبيد كجنود وكرجال ادارة، وان كان تعبيرهم عن الولاء شعورا واداء قد اختلف قليلا عن طبيعته لدى الموظفين الذين ولدوا احرازاً تجاه نفس السيد. ومن المعروف ان نظام «القول» (العبيد بالتركية) المهم عند العثمانيين قد تأسس على هذا التقليد فى الولاء. ولقد فتحت امام «عبيد» السلطان ابواب تولى الوظائف المهمة فى الدولة لدرجة ان اصبحت العبودية لقباً شرفياً حرص الموظفون الاحرار فى الدولة العثمانية على ان يشيروا الى انفسهم بانهم «عبيد السلطان». وعلى الرغم من أن هذا النمط من العبودية كان يختلف قليلا عن مدلوله فى التصور العربى - الاسلامى، الا ان تركيز الاتراك على الولاء الشخصى للمحاكم وليس للدولة، اعطى مصطلح العبودية طابعا تركيا معينا.

ان الملامح الاسلامية والتركية التى عرضنا لها سابقا تكفى فى تقديرنا لتبرير ليس فقط الاسم الذى خلعه العثمانيون على دولتهم، بل تكفى لاقتناع الباحثين بان الامبراطورية العثمانية دولة اسلامية تركية محاربة خضعت بدرجة ما لتأثيرات بيزنطية، وهى امور سوف نناقشها فيما بعد عندما يبدأ تغلغل هذه التأثيرات فى الدولة العثمانية. ومهما كان من قيمة هذه التأثيرات فهى لم تغير مطلقا من طبيعة الامبراطورية العثمانية، وعلى هذا فسوف تقتصر الاشارة فى هذا الكتاب على التقاليد الاسلامية التركية ودورها فى تنظيم الامبراطورية العثمانية.

٢ - الامبراطورية العثمانية الاولى وولاياتها الاوروبية

ينقسم التاريخ العثمانى تقليديا الى اربع فترات، وتغطى الفترة الاولى التى امتدت قرنين ونصف (١٣٠٠ - ١٥٦٦) حكم العشرة سلاطين الاول من ال عثمان وتنتهى «بالعصر الذهبى» خلال حكم سليمان الاول (١٥٢٠ - ١٥٦٦). اما الفترة الثانية فقد امتدت حوالى قرنان من الزمان تقريبا حتى بداية عهد سليم الثالث فى ١٧٨٩ وتميزت بالتدهور العام رغم محاولات الصدور العظام من ال كوبرولو وقف هذا التدهور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. اما الفترة الثالثة فتبدأ بحكم سليم الثالث وتنتهى بثورة تركيا الفتاة (١٨٧٩ - ١٩٠٨) التى كانت احدى محاولات الاصلاح. واخيرا تأتى فترة حكم تركيا الفتاة وتشمل الحرب العالمية الاولى التى انتهت بتحليل الامبراطورية وتأسيس تركيا الحديثة.

ورغم ان هذا التقسيم الزمنى متفق عليه بين المتخصصين فى التاريخ العثمانى، الا انه لا يلبى احتياجات القارئ العام. وعلى هذا يجب ان نميز بين اربع فترات لذلك التاريخ بشكل آخر كما يلى: الفترة الاولى خاصة بسنوات الانتصارات العثمانية الاولى (١٣٥٢ - ١٤٠٢)، والفترة الثانية خاصة بسنوات الانتصارات الثانية وتدعيم السلطة (١٤١٣ - ١٤٨١)، ثم فترة الاستقرار (١٤٥٣ - ١٥٩٥) التى تتداخل جزئيا مع الفترة الثانية، ثم الفترة الرابعة وهى فترة التدهور والاضطراب بل والفوضى خلال القرنين الاخيرين. وسوف نتناول فى هذا الفصل اصول الامبراطورية العثمانية وسنوات النصر العثمانى ١٣٥٢ - ١٤٠٢ (الفترة الاولى).

لم تستطع الدراسات الجادة المتواصلة ان تكشف بوضوح اصل ال عثمان، والمعروف ان ارطغول والد عثمان كان من جماعة المحاربين «الغزاة»، كما كان يمتلك اقطاعية صغيرة بالقرب من مدينة سوجوت Sogut ولأنها لم تكن من الاقطاعات الغنية فيمكن القول ان ارطغول كان مجرد محارب ناجح من الغزاة متواضع المكانة.

وفي ١٢٧٧ هزم المغول السلاجقة الذين ظلوا يحكمون اسميا لمدة ثلاثين عاما في اعقاب الهزيمة. وكان المغول كما هو معروف، قد سيطروا سيطرة قوية على بلاد فارس والعراق والمناطق الشرقية من الاناضول. وخلال فترة الحكم الاسمي للسلاجقة استطاع الرعماء المحليون الاقوياء تكوين امارات مستقلة باسمهم على حساب السلاجقة، بل ان الشخصيات الاقل شأنًا تشجعت بدورها للبحث عن مصالحها المستقبلية، وكان عثمان احد تلك الشخصيات، وكان قد خلف أباه في اقطاعية سوجوت بعد اربع سنوات من الانتصار الكبير للمغول (١٢٧٧).

لقد كان عثمان يتميز بمقدرة وكفاءة لا نظير لها، وفجأة وجد نفسه في ظروف مواتية، فباستثناء بقايا الوجود اليوناني حول طرابزون على الشواطئ الشرقية الجنوبية للبحر الاسود، والوجود الارمني في الوسط الجنوبي من اسيا الصغرى بمحاذاة البحر المتوسط، لم يعد باقيا في يد المسيحيين في الاناضول الا الممتلكات البيزنطية المنتشرة بمحاذاة الشاطئ الاسوي من بحر مرمرة، وكانت حدودها تبدأ من مصب نهر سقاريا في البحر الاسود ثم جنوبا إلى الشرق من المدينتين المهمتين نيقيا وبروسة، ثم إلى الغرب جنوب بروسة بنحو سبعين ميلا إلى البحر عند التقاء الدردنيل ببحر ايجة تقريبا بالقرب من ابيدوس Abydos المدينة القديمة (حاليا Canakkale). وعلى الرغم من صغر تلك المساحة البيزنطية في الاناضول نسبيا، الا انها كانت ارضا خصبة وتضم المدن المهمة، كما كانت قريبة من القسطنطينية، وكانت بالنسبة «للغزاة» الذين لم يكن باستطاعتهم أن يحاربوا بعضهم بعضا لأسباب دينية ولأسباب تتعلق بتقاليد «الفتوة»، والذين لم يكن باستطاعتهم المغامرة بالتوجه الى جهة الشرق حيث حكم المغول القوي، كانت الارض المناسبة لممارسة القوة واكتساب الشهرة واثبات الوجود. كانت اقطاعية عثمان اذن في سوجوت على حدود تلك المنطقة البيزنطية، وكان من الذكاء والمقدرة ما جعله ينتهز الفرصة التي كانت تتيحها الظروف المواتية. فعلى حين كان القادة الاتراك الآخرون يهاجمون الجزء الجنوبي من اقليم بيزنطة، كان عثمان يهاجم النصف الشمالي منها وهو الاكبر مساحة والاكثر ثروة حيث احرز انتصاره الاول في ١٣٠١ كما سبقت الاشارة، وعلم وهو على فراش الموت ان ابنه اورهان استولى على مدينة بروسة الكبيرة التي اصبحت اول عاصمة للعثمانيين.

وبالانتصار على البيزنطيين دخلت بيزنطة في مجال التوسع لدى عثمان شأن الدويلات والامارات الاخرى تقريبا. غير ان التوسع في الاناضول بتوذه جعل منها القوة التركية القائدة. ففي الاناضول واجه العثمانيون دويلات الغزاة التركية الاسلامية وبالتالي اصبحت العمل العسكري معهم امرا صعبا، إذ كان من النادر ان يحتل العثمانيون جهارا نهارا اراض تركية اخرى، ولكن إذا ما اعتدت عليهم قوة اخرى حتى ولو كانت تركية، يصبح من حقهم القتال. وفي معظم الحالات كان

استيلاء العثمانيين على اراض اخرى يحدث من خلال تقديم المساعدة تلبية لدعوة من احدى القوى المحلية، او بناء على استغاثة احدى القوى لحمايتها من عدو اخر، او من خلال التحالف مع احدى القوى المجاورة الضعيفة. وفي كل الاحوال كان العثمانيون يفضلون اصدقاء طابع المشروعية على توسعاتهم بالدخول فى محالفات مع القوى الاخرى تسندها روابط المصاهرة. وكانت اسرة قندرلى نموذجاً لمثل هذه الروابط التى عقدها العثمانيون مع القوى المهزومة حيث خرج منها معظم من تولى منصب المصدر الأعظم فى الدولة، فضلا عن انهم كانوا يشكلون الدوائر العليا الحاكمة فى الدولة العثمانية.

ولقد امتد هذا النوع من التحالفات العثمانية إلى الاسر الحاكمة المسيحية ايضا بمجرد عبور العثمانيين بحر مرمره إلى الشواطئ الغربية.. فمن بين زوجات اورهان كانت تيودورا ابنة ستيفان الرابع اوروش Uros حاكم الصرب، وماريا ابنة امبراطور بيزنطة يوحنا السادس، ومن بين زوجات مراد الاول ابنة الامبراطور يوحنا الخامس، وتمارا الاميرة البلغارية ابنة يوحنا اسكندر الثانى حاكم تورنوفو Turnovo، ومن بين زوجات بيازيد الاول ماريا ابنة يوحنا هونيادى Hunyadi. وديزينا-Despi-na ابنة لازار الاول من امراء الصرب، وماريا ابنة لويز كونت سالونا، واحدى بنات الامبراطور يوحنا الخامس غير معروفة الاسم.^(١) اما السلطان محمد الاول فقد رفض هذا الاسلوب القائم على الزواج من المسيحيات تدعيماً للتحالف السياسى خاصة وانه ارجع اخفاق والده سياسياً إلى تأثير المسيحيين على السياسة. ومع هذا فقد كانت احدى زوجات مراد الثانى أميرة مسيحية وهى مارا ابنة جورج برانكوفيتش من امراء الصرب، ومن بين نساء السلطان محمد الثانى الكثيرات، وجدت سيدات من عائلات النبلاء المسيحيين. ولم تكن لهذه الزيجات اهمية تذكر فى التاريخ لولا ان لها دلالات معينة فى سياسات التعامل العثمانى المتعلقة بالاقاليم الاربية خلال الفترات التاريخية موضع الدراسة.

عندما استولى العثمانيون على اول مواقعهم على الشاطئ الاوروبى من جهة الدردنيل عند شيمب cimpe فى ١٣٥٢ كانت الامبراطورية البيزنطية التى موقتها الحرب الاهلية، قد تقلصت فى اوربا إلى مساحة صغيرة نسبياً تقع جنوب خط يمتد غرباً من ميناء بورجاز Burgas على البحر الاسود حتى نهر ستروما Struma، فضلاً عن مساحة صغيرة اخرى حول مدينة سالونيكاً ومدينتى ايوبيا Euboea واتيكا، وارض فى المورة مسدودة المسالك. وكان معظم شبه جزيرة المورة تابع للبنديقية، على حين كانت احدى الدويلات البلغارية تحتل الاجزاء الشمالية من شبه الجزيرة حتى نهر الدانوب وما بقى من شبه جزيرة البلقان كان تابعا للصرب.

وبعد وصول العثمانيين بثلاث سنوات وفى ١٣٥٥ مات ستيفان دوشان Dusan حاكم الصرب العظيم، وحينذاك اصبحت الصرب وبلغاريا مسرحاً لصراع داخلى طويل. وهنا وجد العثمانيون انفسهم يواجهون حالة من الفوضى السياسية فى اوربا كذلك التى اسهمت فى احراز

(١) انظر الجداول المتعلقة بشجرة النسب والمصاهرة رقم ٢٢، ٢٣، ٢٤ فى كتاب: A. D. Alderson, The Structure of the Ottoman Dynasty (Oxford: The clarendon press, 1958).

انتصاراتهم الاولى فى الاناضول، إذ يستطيعون التدخل فى الصراع تلبية لطلب احد الاطراف المتنازعة وتقديم الحماية وعقد التحالفات والمعاهدات.

والجدير بالملاحظة فى هذا المقام هو حنكة العثمانيين السياسية ودهاؤهم فى اوربا. ففى اوربا كان الاتراك وسط محيط مسيحي وكان بإمكانهم ان يسلكوا المسلك نفسه الذى سلكوه فى الاناضول مع البيزنطيين، الا انهم لم يفعلوا ذلك. ومن الخطأ الجسيم ارجاع موقف الاعتدال الذى أخذوه إلى سياسة الفتوحات الاسلامية المبكرة التى كانت توصى بترك «اهل الكتاب» لشأنهم إذا استسلموا دون حرب .. اى صلحا وليس عنوة. والحق ان كل زحف للعثمانيين فى اوربا كان ثمرة انتصار عسكري وانهم اعتبروا كل الاراضى التى هزموا اهلها تابعة لهم على الرغم من الادعاء بانهم حلفاء الامراء المسيحيين الذين حاربوهم، ذلك ان العثمانيين كانوا يدركون ان قوتهم العسكرية والبشرية فى اوربا اقل من ان تسمح بتوسع مماثل لما قاموا به فى الاناضول حيث كانوا يهدفون إلى اعادة بناء الامبراطورية السلجوقية تحت زعامتهم، او تسمح بالاحتفاظ بقوة عسكرية كبيرة هناك، او بتترك تلك الاراضى بنقل عدد من المستوطنين اليها. وعلى هذا رأى العثمانيون ان من الأفضل التوصل إلى ترتيبات تحفظ لهم ميزات التوسع الاقليمي وتضمن فى الوقت نفسه توفير قوات اضافية من خلال اتفاقيات التحالف او التبعية مع الامراء الاوربيين، وكانت الزيجات الكثيرة التى سبقت الاشارة إلى بعضها وسيلة لتقوية تلك الاتفاقيات وتدعيمها. ومن الملاحظ ان العثمانيين تمسكوا بما عقدوا من موثيق واتفاقيات طالما حفظ الامراء الاوربيين تلك الموثيق ولم يفكروا فى النكوص عنها او يحاولون استعادة استقلالهم التام على اراضهم.

على ان تلك الاتفاقيات والزيجات التى عقدها العثمانيون مع الامراء الاوربيين لم تكن محل رضى واقتناع من وجهة نظر شعوب اوربا المعنيين. وعلى الرغم من قمع الحرب الاهلية بين الامراء المتنافسين لبعض الوقت، الا ان الاحوال الداخلية السيئة بقيت دون تحسن .. فلم يستطع الامراء الضعاف منع الصراع بين النبلاء وكبار رجال الدين، والحيلولة دون قهر الفلاحين ودون ممارسة الاضطهاد الدينى، كما لم يكن بمقدورهم منع الزيادة المستمرة فى الضرائب المشروعة وغير المشروعة، فقد كسدت التجارة وتدهورت الصناعة، واصبحت الحياة فى المدن والقرى او فى الريف والحضر غاية فى المشقة والصعوبة، وعم السخط وعدم الرضا الاراضى البيزنطية والصربية والبلغارية على السواء.

على ان العثمانيين لم يعطوا اهتماما كبيرا لتلك الامور طالما ان مصالحهم الخاصة مصنونة ومحمية ولم تتعرض لأى تهديد. وكانت هذه المصالح خارج نطاق ولاء الامراء - الحلفاء او التابعين، وخارج نطاق اموال الضرائب والاناوات. ولم يكن اقتناع «الغزاة» الذاتى بان واجبهم يتلخص فى توسيع دار الاسلام هو المسئول وحده عن اعتبار العثمانيين ان كل الاراضى التى دانت لهم اصبحت فى يد شعب الله وكفى، بل لقد تطلب الامر ادخال بعض المؤسسات العثمانية لتلك المناطق. وتطبيقا لذلك لم يقدموا فقط التصورات التى تنبثق من الاسس الدينية بل حرصوا على ارضاء احتياجات طبيعة معينة للدوائر الحاكمة ولعناصر السكان الذين سيطروا عليهم.

كانت العناصر الاجتماعية الاساسية التي شكلت الدعامة القوية لقوة العثمانيين فى اوربا خلال الفترة الاولى من وجودهم تتلخص فى ثلاثة عناصر: العائلات التركية التي تولت معظم الوظائف المهمة فى الدولة، وعناصر «الغزاة»، والروابط الآخية. وكانت كل من العائلات التركية وعناصر الغزاة يهتمون بحيازة الارض لزيادة ثروتهم وتدعيم وضعهم الاجتماعى. ولقد اعطيت لتلك العائلات حقوق على اراض كانت بحوزة الامراء والنبلاء الذين عارضوا الزحف العثمانى. وكان من شأن نقل ملكية تلك الاراضى التأثير على اوضاع السكان الذين يعيشون عليها. ولكن الذى حدث ان هؤلاء السكان اعتبروا تغيير السيادة عليهم امرا نافعا ومفيدا واصبحوا «اتباعا موالين» للسلطان.

اما عناصر «الغزاة» فكانت اوضاعهم اكثر تعقيدا اذ كان معظمهم من قبائل التركمان الاحرار وكانوا يمثلون مصدرا لقوة السلاطين الاوائل ومشكلة كبرى لهم فى الوقت نفسه. كان هؤلاء ينتمون إلى «طبقة العسكريين»، وعلى هذا فقد كانوا معفون من الضرائب، ولهم حق الترقى داخل طبقتهم، ويتمتعون بدخل مالى من ملكياتهم الزراعية. ومن بين هؤلاء العسكريين من مكث فترة طويلة فى الدويلات التركية غرب الاناضول حيث اصبح نشاطهم العسكرى السبب وراء رغبتهم فى الحصول على مزيد من الارض. وحيث ان التوسع العثمانى فى الاناضول حدث بصفة رئيسية على حساب الامارات التركية الاخرى التي اعلنت ولاءها للعثمانيين، وكانت هذه الامارات تستند إلى عناصر عسكرية من ملاك الارض المنظمين تنظيما جيدا، فلم يكن بالامكان والحال كذلك الا منح قلة من «الغزاة» قطعا من الارض مقابل خدماتهم العسكرية. وعلى هذا فقد فرضت هذه الاوضاع على السلاطين ضرورة الحصول على مزيد من اراضى المسيحيين لتوزيعها على عناصر الغزاة.

اما المشكلة الكبرى فى هذا الاطار فقد اوجدتها جماعات التركمان الذين تدفقوا فى الاراضى العثمانية من ناحية الشرق منذ مطلع القرن الرابع عشر والذين كانوا قد هربوا امام المغول، وجذبتهم إلى تلك المناطق علو شأن الدولة العثمانية، الا ان اعدادهم كانت اكثر من امكانية امتصاصها واستيعابها بسهولة فى «المجتمع العسكرى»، وحتى إذا كان بالامكان حدوث مثل هذا التحول فان من شأن ذلك الاخلال بالتوازن بين العناصر العسكرية والعناصر المنتجة فى الدولة والذى لايد وان ينتهى حتما إلى زيادة النفقات على موارد الانتاج. وكان العثمانيون يهدفون إلى توطين هذا الفائض من السكان فى نهاية الامر فى الاناضول كما فعل السلاجقة من قبل خلال السنوات التي تلت معركة ملاذكرت.

فمنذ الغزوات الاولى للعثمانيين لاوروبا وحتى معركة ادرنة فى ١٣٦٥ تقريبا تجمعت عدة عوامل فوق الضغط السكانى الذى سبقته الاشارة اليه لتجعل توطين الاتراك فى اوربا على نطاق واسع امرا ممكنا. وكان العثمانيون يدركون اهمية السيطرة سيطرة قوية على الدردنيل لأسباب عسكرية واقتصادية معا، إذ كانوا يرغبون فى تأمين المرور من الاناضول إلى البلقان وفرض ضرائب مرور على البضائع التي تمر فى المضائق. وبعبارة اخرى كانوا يتطلعون لايجاد حدود جديدة فى

اوربا، ومن هنا اصبح اسكان مناطق هذه الحدود بالمخربين امرا بدا لحكومة ولجماعة الغزاة فى الوقت نفسه، شيئا صحيحا يجب الاقدام عليه. وفى ذلك الوقت كانت هجمات الاتراك وغاراتهم تخيف السكان الاصليين الذين كانوا يفرون إلى أية مقاطعة او ولاية فى المنطقة التى لم تكن موحدة سياسيا. ولم يقتصر نشاط التركمان على الاستيلاء على ما يتركه المسيحيون الفارين، بل كانوا يقيمون مستوطنات جديدة حضرية وريفية كما سوف نرى.

وفى هذا الاطار اصبحت الاراضى التى تعرف تقريبا بالاقاليم التركية حاليا، عبارة عن اراضى تركية شغلها الاتراك تحت حكم اورهان (١٣٢٤ - ١٣٦٠)، ومراد الاول بصفة خاصة (١٣٦٠ - ١٣٨٩). وكان لهذا التحول الاثنوجرافى عقايل خطيرة فى الدولات المسيحية الاخرى التى وجدت صعوبة كبرى فى استيعاب اللاجئين من الهاربين امام غزوات الاتراك. ورغم اننا لا نملك بيانات احصائية عن هجرة السكان من مكان إلى آخر، الا ان خصوبة المنطقة شرق ثيراس Thrace وقربها من الدردنيل والقسطنطينية امر لا بد وان يكون له مغزاه فى انتقال الهجرات اليها. وفى السنوات التى تلت ذلك انقطع التدفق الكبير للاتراك للمنطقة لفترة وان لم يتوقف نهائيا. ولما كان من الاهمية بمكان وضع الطرق العسكرية الرئيسية والنقاط الاستراتيجية فى ايدى عناصر يعتمد عليها، فقد تم توطين الاتراك حول هذه النقاط وتلك الطرق حتى ولو كانوا باعداد قليلة.

وفى كل تلك المواقع والنقاط التى وصل اليها الاتراك كانت «الروابط الاخوية» تلعب دورا مهما، فقد كان السلاطين يؤيدون هذه الروابط لاسباب سياسية ودينية واقتصادية، وحيثما وصل النفوذ العثماني جاء وراءه «الاخيون» يقيمون التكايا والزوايا التى اصبحت بمثابة مراكز حول المواقع التركية غالبا، حتى ان كثيرا من القرى الجديدة التى نشأت ترجع فى اصلها إلى تلك المراكز التى أقامتها تلك العناصر. وكانت تلك الروابط بطابع الديانة الشعبية فيها ومختلف الراء التى حكمت العلاقات داخلها، قادرة على ان توجد مكانا للولياء ولقمامات الأضرحة وسط عناصر الفتوة. وبهذه الوسيلة من التنظيمات كان من السهل تعايش المستوطنين القدامى مع المستوطنين الجدد تحت سقف واحد. كما وضعت الضوابط والقواعد التى حكمت العلاقة بين الفلاحين وملاك الاراضى، وكانت بمثابة قنوات للاتصال، وحافظت فى الوقت نفسه على التقاليد والعادات.

وفى المدن اصبح دور الروابط الأخوية غاية فى الاهمية ولها مغزاه، ذلك ان طوائف الحرف القديمة (الاوربية) لم يكن امامها الا الاندماج مع اصحاب الحرف والمهن المختلفة ومخالطتهم والذين كانوا يمارسون نشاطهم الاقتصادى فى حماية الدولة العثمانية. وعلى الرغم من ان هذا الاندماج حمى سكان المدن المسيحيين، الا انه سرعان ما تسربت شئون ادارة المدن من ايديهم إلى قيادات الروابط الاخوية. وعلى كل حال لقد ادى هذا التحول فى السلطات الادارية الذى بدأ خلال الفترة الاولى من الانتصارات العثمانية الى تحسين الاوضاع التى كانت سائدة فى تلك المدن عشية الغزو العثماني، وهو تحسن استمر تقريبا حتى نهاية القرن السادس عشر.

كانت التكايا والزوايا فى حاجة إلى المال وهذا لا يأتي الا من ملكية الارض الزراعية. وهكذا

عندما كانت احدى الروابط الآخية تفكر فى بناء زاوية جديدة او تكية يلتمس شيخها من السلطات قطعة من الارض .. فاذا ما منح الارض يصبح سيدا Landlord لفلاحيها بالمعنى المحدد لكلمة اقطاعى، لأن هذا المنح شأن الارواق يكون ابدىا. ولقد كانت حقوق سادة الارض منظمة تنظيما دقيقا فى الامبراطورية العثمانية كما سوف نرى عند تعرضنا لنظام الملكية. وعلى هذا فقد كان تغيير سادة الارض من آن لآخر، امرا يسعد الفلاحين ويبهجهم. وكانت الاوقاف افضل الاعمال الحسنة التى يقوم بها المسلم من باب الزكاة والصدقات. وهذا النوع من الاعمال او الواجبات كان اكثر مما تتطلبه الاغراض الطبية التى تتضمن تقديم المساعدة الانسانية كلما امكن ذلك .. فالأوقاف يصرف منها على الخانات (الفنادق) والحمامات، والمستشفيات، والأسبلة، والجسور، وحتى على الاسواق حيثما يعيش الناس، وبالتالي فان مكانة المرء فى السلم الاجتماعى تتحدد بمدى ما يقدمه من اوقات للانفاق منها على المنشآت والمؤسسات المختلفة.

على ان هذه المؤسسات والمنشآت المختلفة كانت تدعم ايضا بالمال الوارد من الاراضى/ المقاطعات الزراعية الكبيرة. وكانت تلك الاراضى تخصص لهذا الغرض منذ البداية بما أضاف ملامح جديدة لنظام الملكية الزراعية والالتزامات الفلاحين فى المقاطعات التى وقعت تحت الحكم العثمانى مباشرة خلال العصر الاول من الغزو العثمانى. وفيما بعد خصصت مصادر اخرى اضافة للاموال اللازمة لتلك المؤسسات. وفى منتصف القرن السادس عشر ادى اقامة بعض المؤسسات والمنشآت الخيرية الى تحويل سرايفو من قرية مغمورة إلى مدينة، كما اوجد مدينة اوزنكوبرو Uzunkopru (بالقرب من ادرنة) فى مكان خال حتى من قرية صغيرة. وعلى الرغم من افتقارنا لنماذج هذه التحولات الاساسية خلال العصر الاول للغزو العثمانى، الا ان انتشار الاوقاف خلال هذا العصر فى اوربا ادى إلى تغييرات عميقة فى المدن والقرى حيثما وجدت هذه الاوقاف، وفى الاقاليم الريفية حيث خصصت موارد تلك الاوقاف لهذا الغرض.

لقد حدثت هذا التحولات فى مناطق كانت تحت حكم البيزنطيين. والحق ان العثمانيين فى توسعاتهم لم يكونوا قلقين فقط بشأن الدويلات البلقانية، بل كانوا معنيين ايضا بالقوى الاوربية الغربية. فبينما كانوا يعبرون الحدود البيزنطية - البلغارية فى ١٣٦٦ ليهزموا عند فيدين Vidin، حاول البابا تنظيم حملة صليبية ضدهم. ومع انه لم ينجح فى هذه المحاولة، الا ان قوة من المشاة المسيحيين استطاعت استعادة جالبولى فى العام نفسه واعادتها لسيطرة البيزنطيين. وعلى الرغم من ان تلك التطورات وضعت العثمانيين فى موقف صعب لنقص قوتهم البحرية من جهة، ولحاجتهم لمدفعية ثقيلة لاقتحام القلاع والحصون من جهة اخرى، الا ان مراد الاول استمر فى عملياته الحربية فى وسط البلقان.

كان الموقف فى البلقان مضطربا .. فكل من الصرب وبلغاريا كانتا منفصلتين تماما، ولأن البلغاريين كانوا قريبين من العثمانيين، فقد كانوا يشعرون بتأثير العثمانيين كقوة جديدة. وكان البلغاريون قد فقدوا الاراضى المقدونية التى استولت عليها الصرب فى عهد ستيفان دوشان الاول، وفى منتصف القرن الرابع عشر انفصل الجزء الشمالى الشرقى واصبح يعرف باسم حاكمها الثانى

ديوبروتيتزا Dobrotitsa • (تنطق حاليا ديوبروديا Dobrudja). وفى ١٣٦٥ قام يوحنا اسكندر (ايفان الاكسندر) بتقسيم ممتلكاته بين ولديه، وبعد وفاته فى ١٣٧١ توحدت تورنوف وفيدين معا وكانت مملكتين منفصلتين. ولقد حدث التفكك نفسه فى الصرب بعد وفاة ستيفان دوشان فى ١٣٥٥ حيث ظهرت إلى الوجود دولتان مقدونيتان حول مدينة فلپوزد Velbuzd عند اعلى مجرى نهر ستروما ومدينة بريلب Prilep، كما بدأت البانيا فى استعادة استقلالها مرة اخرى.

ولقد كان حكام هذه الدويلات يحاربون بعضهم بعضا حربا متصلة لتأمين الحدود واعادة تكوين الوحدات السياسية الكبرى. وكانت هذه التجزئة السياسية فرصة مراد الاول، فعندما هاجمه الامراء المقدونيون فى عام ١٣٧١ عند شيرمن Chirmen وهى قرية صغيرة فى الجزء الجنوبى من نهر ماريتزا Maritsa، هزمهم وقتل زعماءهم فى المعركة، واصبح الطريق مفتوحا امامه لمزيد من الانتصارات إلى الشمال والغرب، حتى لقد اضطر ملك تورنوف البلغارى ان يقبل صاغرا ان يكون تابعا عثمانيا. وكان من نتيجة زحف العثمانيين نحو الشمال ان تعرض البيزنطيين لضغط شديد اضطروا معه لشراء السلام مقابل اعادة جاليبولى للعثمانيين فى ١٣٧٦.

وطوال خمس سنوات بعد ذلك التاريخ عمل العثمانيون على بسط سيادتهم فى اسيا الصغرى والتدخل باستمرار فى المشاحنات الاسرية التافهة فى الممالك البيزنطية، مما اعطى شعوب البلقان فرصة لالتقاط الانفاس لبضع سنوات. ولكن فى عام ١٣٠٨ عاد العثمانيون مرة اخرى إلى الميدان الاوروبى حيث امتد نطاق الاقاليم المقدونية التى اخضعوها حتى نهر فاردار vardar وإلى الشمال والجنوب. ففى الشمال اخترقوا الاراضى المقدونية ولم يكتفوا بهذا بل واصلوا الزحف حتى دخلوا صوفيا التى تقع فى نطاق تابعهم البلغارى، وإلى نيش Nish التى كانت فى يد حاكم قندين البلغارى. اما فى الجنوب فقد دخلوا اقليم بيزنطة مرة اخرى واحتلوا سالونيك فى ١٣٨٧.

ولقد اخافت تلك الحملات العثمانية امراء البلقان الذين تركوا خلافاتهم الصغيرة جانبا ليتوحدوا ضد الخطر المشترك. فعلى الرغم من ان الامبراطور البيزنطى وامراء البلقان التابعين للسلطان العثمانى وحلفاء العثمانيين اوفوا بالتزاماتهم وساعدوا العثمانيين فى ١٣٨٧ بالقوات العسكرية فى هزيمة كرامانيدز Karamanids منافسهم القوى فى الاناضول، الا ان الخطر الذى كان فوق احتمالهم دفعهم لأن يغيروا موقفهم، فقد اتحد كل من لازار حاكم الصرب، وتقرتو الاول Tvrtko حاكم البوسنة، وجون ستراتزمير Stratsimir حاكم فيدين ضد مراد لاول وانتصروا عليه فى ١٣٨٨ عند بلوشنيك Plochnik وهى قرية صغيرة إلى الغرب من نيش .. فما كان من السلطان الا ان انقلب عائدا ليغزو فيدين البلغارية مرغما اياها على الاعتراف بسيادته عليها، واستطاع بمساعدة قوات اتباعه المسيحيين من قتال آخر حكام البلقان الذين كانوا يقاومونه وذلك فى معركة كوزوفو kosovo الاولى فى ١٥ يونية ١٣٨٩، والتى انتهت بهزيمة قوات الصرب والبوسنة. ورغم ان مراد قد قتل بيد واحد من ابناء الصرب ليلة تلك المعركة الدامية التى خلدت فى ملحمة كوزوفو الشهيرة، الا ان النصر الحاسم الذى احرزه اقام حكما عثمانيا فى البلقان استمر طوال الخمسة قرون لتالية.

ولم يغيب عن بال السلطان بايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) الذي خلف مراد الاول، حقيقة ان أباه السلطان مراد كان الحاكم المطلق في البلقان على الرغم من انه لم يكن باستطاعته العودة فوراً إلى المكان. وكان موت السلطان مراد قد اعطى أملاً جديداً لامراء الاناضول الاتراك الذين كانوا قد تخلوا عن تحالفاتهم مع السلطنة وقطعوا ولائهم لها، ومن ثم اضطرب بايزيد الذي كان حفيداً لأميرة مسيحية وابناً لآخرى وزوجاً لثالثة، أن يقاتل امراء الاناضول الاتراك هؤلاء لمدة ثلاث سنوات معتمداً على قوات أوربية لاتباعة المسيحيين، ذلك ان قواته من جماعة «الغزاة» كانوا متمنعين عن محاربة أقرانهم من المسلمين (امراء الاناضول الاتراك). وخلال تلك السنوات الثلاث أصبح لبايزيد سيطرة كاملة على الاناضول واستبدل الاسر التركية الحاكمة هناك والتي كانت حتى موت ابيه (مراد الاول) تحتفظ بوضعها كتابعيين او حلفاء او حكام عثمانيون، بحكام كانوا من عبيده في المقام الاول ومن اصول مسيحية في الغالب الاعم. وعلى الرغم من ان هذه السياسة افقدته في نهاية الامر عرشه ثم حياته، الا ان هذا الاسلوب الجديد في الحكم الذي ابتدعه، اثبت قدرته على الاستمرار والبقاء، وقد اتبع في الاقاليم الأوربية بعد ان دخلت في حوزة العثمانيين بشكل واضح.

لقد كان بايزيد يعتقد بوضوح انه اداة الهية ارسلت من السماء لكي يغزو كل الدنيا لاقرار كلمة الله، وكان يطمح ان يكون حاكماً عالمياً. وعلى هذا شأن كل الامراء المسلمين، كان عليه ان يتصرف «بشرعية» خاصة وان اعداءه داخل الارستقراطية التركية المسلمة، اصبحوا أكثر من اصدقائه، وانه لم يكن في مقدوره ببساطة من ناحية اخرى، ان يعلن «حرباً مقدسة» جديدة ضد هذه الارستقراطية التي ساعدته في السيطرة على الاناضول. وسرعان ما جاءت الفرصة «الشرعية» عندما قام المجرىون بغزو ولايات بلغاريا الضعيفة بمساعدة صديقهم وحليفهم حاكم ولاشيا الأمير ميركاي سليباترين Mircae cel Batrin (١٣٨٦ - ١٤١٨) الذي احتل دوبروديا وسيلزترا Siliistra على الدانوب، على حين حاول المجرىون غزو مملكة فيدين. وكانت هذه التعديت على اراضى اتباع السلطان العثماني على ذلك النحو، قد هيأت لبايزيد مشروعية الحركة.

والحق ان اتباع بايزيد قاسوا كثيراً من «مساعدته» تلك أكثر مما عانى اعداؤه. ذلك ان بايزيد في عودته من آسيا الصغرى إلى البلقان في ١٣٩٣ قام بطرد قوات ولاشيا من سيلزترا ودوبروديا، واعلن ان الدانوب البلغارية (او تورونوفو) التي لم تستطع الدفاع عن نفسها قد اصبحت ولاية عثمانية. ولقد اتهم اخر حكامها جون شيشمان بتهمة التعاون مع الاعداء واعدم بناء على اوامر السلطان. وكاد ستيفان لازارفيتش حاكم الصرب ان يلقي المصير نفسه على الرغم من مبادرته بتجديد العهد والولاء لبايزيد لولا أن السلطان كان امامه الكثير من المشكلات الثقيلة التي كانت تتطلب الحل ..

فبينما كان السلطان مشغولاً بالامور في الاناضول، أقسم الأباء اللاهوتيون قسمهم المشهور

بإعادة توحيد الكنيستين المسيحيين في محاولة لانقاذ دولتهم. واستطاعوا في هذا السبيل تقوية المورة بمساعدة البندقية، الأمر الذي انشأ وضعاً جديداً لم يكن للسلطان قبل بمواجهته المواجهة المناسبة نظراً لعدم وجود قوة بحرية لديه. وعلى هذا اضطر بايزيد إلى اللجوء إلى الدبلوماسية لمواجهة الأمر، فدعا أتباعه بما فيهم امبراطور بيزنطة لمقابلته في سيراز Serres لارغامهم على الاعتراف بسيطرته عليهم. ولما لم يحضر الامبراطور قام بايزيد بمحاصرة القسطنطينية وارسل قواته إلى المورة بناء على دعوة كارلو توكو Toco أحد اللوردات المتقاتلين هناك. ولقد جاءت هذه الحملة بمكاسب مهمة للأتراك .. فوجود القسطنطينية تحت الحصار وحماية صفوفهم الخلفية من الهجمات البيزنطية بالبندقية المشتركة، استطاع بايزيد توجيه اهتمامه ناحية الشمال مرة أخرى حيث بدأ يعمل ضد الأمير مركاي حاكم ولاشيا في الوقت الذي كان التحالف المجرى - الولاشي مايزال قائماً.

ومرة أخرى كان كثير من المسيحيين معظمهم من الصرب يحاربون في صفوف بايزيد ومن ضمنهم كرايفيتش ابن الملك ماركو بطل أحد المعارك الأسطورية المشهورة والذي مات في معركة أرجيز Arges التي تقاتل فيها بايزيد مع ولاشيا في ١٧ مايو ١٣٩٥. في تلك المعركة كان الأمير مركاي على رأس جيش كبير بدأ مزهوا منتصراً، لكن قواته كانت منهكة وتقطعت خطوط إمداداته حتى لقد اعترف بفقدان دوبروديا التي أدخل إليها بايزيد حاميات تركية، بل لقد قبل أن يكون تابعاً عثمانياً يدفع جزية دورية. ولقد ظل هذا الوضع قائماً حتى استعادت إمارات الدانوب استقلالها. وعلى الرغم من أن تلك الأوضاع أوجدت مشكلاتاً لرومانيا، إلا أنها انقذت شعبها من المعاملة القاسية للحكم العثماني المباشر خاصة خلال قرون التدهور والانحيار.

كان الموقف في القسطنطينية والمورة مصدر إزعاج وقلق شديد للزعماء الأوربيين وخاصة سيجزموند Sigismund ملك لوكسمبرج، فلقد طلب هذا الامبراطور الشهير للامبراطورية الرومانية المقدسة وملك المجر (١٣٨٧ - ١٤٣٧) المساعدة من فرسان فرنسا والبندقية الذين بادروا بتقديمها إليه، وقاد جيشه إلى البلقان ليخسر في النهاية المعركة الكبيرة في نيقوبوليس في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦. ولأن مملكة فيدين فتحت أبوابها لذلك الجيش المسيحي (جيش سيجزموند)، فقد استولى عليها بايزيد أيضاً وجعلها ولاية عثمانية. وخلال الخمس سنوات التالية للمعركة أقامت القوات العثمانية في الممتلكات البيزنطية وفي مختلف الدويلات اليونانية الصغيرة في المورة، حيث استحوذت على الأرض ودمرت كثيراً من البلدان.

لم يحل عام ١٤٠٠ إلا وكانت معظم مناطق البلقان قد أصبحت تحت الحكم العثماني فيما عدا ساحل دلماشيا وبعض مدن المورة. وأصبحت ولايات الصرب والبوسنة وولاشيا تابع عثمانية، وتقلصت الامبراطورية البيزنطية واقتصرت على المدينة الكبيرة (القسطنطينية) وضواحيها. وقسمت بقية شبه الجزيرة إلى أقاليم عثمانية.

والذي لاشك فيه أن بايزيد كان ينوي استكمال سيطرته على سائر البلقان لو لم يكن مضطراً

لمواجهة هجوم مغولي جديد دفعه للعودة إلى الأناضول. وهناك هزم في معركة انقره في ١٤٠٢ وأسر ومات في الأسر بعد ذلك بخمس سنوات. والذي حدث ان القائد المنتصر المغولي تيمور اعاد مختلف الاراضى التركية للعائلات المالكة السابقة والتي كان العثمانيون قد اخذوها منهم، تاركا لعائلة عثمان ما اعتقد انه من حقها شرعا وفقاً «لشريعة الاسلامية». ولقد ادى هذا التصرف من تيمور إلى ايقاع الفرقة والخلاف بين ابناء بايزيد الذين تصارعوا فيما بينهم حول السيادة، وكان هذا كفيلا ياتاحة الفرصة لولايات لبلقان لترتيب صفوفها من جديد واحراز نصر اخر على العثمانيين.. الا انه يلاحظ فى هذا الخصوص ان عدم انتهاز كل دويلات البلقان الفرصة، بل وقيام القوات الاوربية بدور مهم فى تسوية الحرب بين الامراء العثمانيين المتقاتلين، وانتهاز بعض الدويلات فترة الهدوء والتراخى النسبى لاصلاح احوالها، كان يعنى عدم الافادة من خيرة الماضى، ومن ثم سقوط تلك الدويلات تحت الحكم العثماني مرة اخرى باسرع واسهل مما حدث فى المرة الاولى. وفى كل الاحوال اسهمت تلك المواقف البلقانية بشكل كبير فى تأسيس الامبراطورية العثمانية الثانية.

٣ - الحرب الاهلية وقيام الامبراطورية العثمانية الثانية

عندما انهارت امبراطورية بايزيد اعترف تيمور بشرعية الاراضى التابعة لبيت عثمان وفق ما كانت عليه عند موت السلطان مراد الاول، وما عدا ذلك تكون اراضى غير عثمانية. وقد اعادت تلك القاعدة بعض المقاطعات الاناضولية لساداتها السابقين، وهو امر كان فى استطاعة تيمور ان يفرضه. ولقد كان هذا يعنى نظريا تجريد العثمانيين من كل مكاسبهم فى اوربا، وكذلك الحال فيما يتعلق بالتغيرات التى ادخلوها هناك تحت حكم بايزيد، لكن تيمور كان واقعيا غير قادر على فرض قواعده فى اوربا فاصبح القرار فى يد اولئك الذين كانوا فى وضع يمكنهم من انتهاز فرصة ذلك الموقف الجديد بما فيهم الامراء المسيحيين. والحق ان مواقف وسلوك هؤلاء القوم خلال فترة الفراغ العثماني من عامى ١٤٠٢ - ١٤١٣ كان شينا مشيرا فعلا.

لقد كان بايزيد غير محبوب وسط كثير من عناصر المجتمع التركى. وكان من المعروف جيدا انه لم يخسر معركة انقره الا بسبب بقاء القوات المسيحية على ولائها له، وهروب كثير من الوحدات الاسلامية فى جيشه خلال المعارك. ومن ناحية اخرى كانت جماعات «الغازى» قد ابدت امتعاضها من معاملته المتعالية المستبدة «غير الشرعية» للامراء المسلمين، كما أن العائلات التركية الرئيسية المنحدرة من قيادات «الغازى» الاولى والذين تحالفوا مع العثمانيين منذ البداية وحققوا الثروة وشغلوا الوظائف القيادية، اعترضوا ايضا على زيادة المظاهر والميول «البيزنطية» لدى السلطان.. من ذلك كما لاحظوا: زيادة تمركز السلطة، وتحول البلاط إلى بلاط «امبراطورى»، وخضوع صناعة القرار وسياسات الحكم لتأثيرات جديدة كثيرة فرضت نفسها من بينها تأثير العبيد، مما نتج عنه بشكل عام الاقلال من مكانتهم ووضعهم. ولقد اتهمت هاتان المجموعتان (الغازى والعائلات التركية) بايزيد ليس فقط بالتخلى عن تقاليد «الغازى»، بل بانه اصبح مسلما فاسقا لأنه كان قد

اصبح خاضعا للتأثير المسيحي المتمثل في امه وزوجته واصدقائه الاوربيين . والحق ان بايزيد لم يكن راغبا في تغيير عقيدته الدينية، ولكن كانت رغبته في ان يكون حاكما عالميا، واهتمامه بتيار العقائد الانتقائية التي كانت موضحة ذلك الزمان، جعلت منه اكثر تسامحا تجاه الاديان الأخرى أكثر مما كان يسمح به «الاسلام فى اصوله»، وفى الوقت نفسه كان متحمسا للاقلال من الخصومات الدينية. والخلاصة انه كانت هناك جوانب معينة فى سلوك بايزيد كانت محل اعتراض مبرر من جانب مجموعة «الغازى»، والارستقراطية التركية، والمتعلمين، وغالبية مؤيدى دولته من الاتراك المسلمين.

وعلى الرغم من اتفاق جماعتين من تلك الجماعات التركية الراضية على الحاجة لسياسة مغايرة لسياسات بايزيد، الا انهما لم يتفقا على ما ينبغى استعادته من اصول وأعراف قديمة . فجنح «الغازى» كان يفضل العودة إلى ما كانت عليه الاحوال أيام عثمان اورهان من حيث استمرار التوسع والغزو لتحقيق التأثير الكبير والنفوذ العظيم للاخيين وللروابط الشعبية (الصوفية)، والعودة ايضا إلى دور زعيم القبيلة الذى كان يلعبه او يقوم به السلاطين الاوائل. اما جنح العائلات التركية الرئيسية فانهم وان كانوا لا يعترضون على استمرار حروب الغازى وتوسعاتهم، الا انهم كانوا يريدون دستورا للبلاد يستهلم اساسياته من خصائص الايام العظيمة لدولة لسلاجقة عندما كان الاسلام الحق بهيئته الرسمية هو السائد وليس اسلام الصوفية (الشعبى)، وعندما كانت التقاليد التركية القديمة سائدة مؤكدة التفوق الطبقي لهم.

على انه ينبغى اضافة جناح ثالث للجناحين السابقين، وهو جناح لا يمكن وصفه بالجناح المسيحى، ولكن يمكن وصفه بالجناح الاوربى رغم وجود بعض انصار له فى الاناضول. وتبسيطا للقول تقتصر الاشارة هنا على عنصرين كبيرين اسهما فى تكوين هذا الجناح، وهما اصحاب المصالح التجارية الذين يحتلون قمة الهرم الاجتماعى، وهؤلاء كانوا متحمسين لاعادة بناء الاوضاع «العادية». وفى هذا الاطار لم يكونوا يضمرون عداوة لتلك المظاهر «البيزنطية» فى حياة المجتمع والتي لم تكن فى صالح الانتاج والتجارة فحسب، بل نها جعلت بالامكان توثيق الارتباطات التجارية مع البلدان الاخرى، وبالتالي فقد كان إعادة توحيد غرب الاناضول التي ترتبط بشبكة كبيرة من الطرق التجارية له اهمية رئيسية، حتى ولو كان يتضمن إعادة استيعاب اراضيهم وسائر لامارات التركية الاخرى فى الدولة العثمانية. ولقد كان هذا العنصر القليل العدد وغير المتشدد دينيا يحتاج إلى تأييد واسع من اجل تحقيق طموحاته التجارية. ولقد وجد هذا الفريق مثل هذا التأييد فى المحيط الاوربى وسط العناصر غير الراضية عن الصراع الدينى والاضطهادات المذهبية التي سادت اوربا طوال قرون كثيرة، والذين كانوا يريدون المضى قدما للوصول إلى ديمقراطية أصيلة تضمن المساواة والحرية للجميع رغم أنهم وجدوا ان الممارسات العثمانية القاسية افضل فى كل الاحوال من الممارسات السابقة عليها.

والحق ان هذا العنصر لعب دورا مهما فى الحرب الاهلية التي انتهت باعادة الامبراطورية العثمانية لحكم اوربا. وكانت تلك حقيقة لها مغزى عظيم، ومن عجب ان الدولة العثمانية التي

تقوم على حكم الصفوة بشكل متناه، وعلى قواعد صارمة فى التدرج الوظيفى للمناصب العليا، تدين بالفضل فى اعادة احيائها إلى تأييد عناصر ريفية. ورغم ان هذا الجناح كان بقيادة عائلات مسلمة اورية الأصل وخاصة الأصل اليونانى، إلا انه لم يحاول تقوية بيزنطة او بعث الدويلات البلقانية المختلفة إلى الوجود، بل لقد كان يعمل على اعادة السيادة العثمانية التقليدية لما فى ذلك صالح التجارة واصحابها.

ان العقيدة التوليفية التى تقوم على الانتقاء والاصطفاء والتوفيق بين مختلف العقائد، والتى كان بايزيد يدين بها، يمكن ادراكها من واقع الاسماء التى اختارها لابنائها الاربعة الذين اشتركوا فى تلك الحرب الأهلية (وهى الحرب التى انتهت باعادة الامبراطورية فى الاراضى الاورية) .. فسلیمان وهو الاكبر هو سولومون فى العهد القديم، والابن الثانى اسمه موسى، والثالث اسمه عيسى، والرابع محمد احب الاسماء عند المسلمين.

لقد اسهمت بعض الظروف فى جعل اشتعال الحرب الاهلية امرا ممكنا. فعندما لعب تيمور دور المشرع الاسلامى فى تقسيم الممالك العثمانية بين ابناء بايزيد كما سبقت الاشارة، تاركاً للعثمانيين بعض ممتلكاتهم، عين عيسى اميراً على بروسة، وابقى محمد حاكماً على مانيسا Manisa كما كان ايام والده. وبهذا الاسلوب أوجد تيمور قاعدتين عثمانيتين قويتين فى الاناضول وسط مناطق ومقاطعات شديدة الولاء للأسرة العثمانية. وأكثر من هذا لم يذهب تيمور بنفسه ابداً إلى غرب الاناضول، ولم يرسل من ينوب عنه لمتابعة فرض تعليماته الجديدة، ومات فى ١٤٠٥ تاركاً مهمة تسوية مستقبل الاوضاع السياسية فى اسيا الصغرى للامراء المحليين الذين اخذ كل منهم يبحث عن أتباع ومؤيدين وسط مختلف التجمعات السكانية الموزعة بين مختلف الاجنحة غير الراضية عن سياسة بايزيد، والذين كانوا بدورهم يتطلعون إلى سلطان يتولى امرهم ويعبر عن مصالحهم.

على كل حال .. اعلن سليمان نفسه سلطاناً، وكان قد هرب من انقره إلى ادرنة بمساعدة الصدر الاعظم على قندرلى، ولم يكن باستطاعته بطبيعة الحال ارغام اخويه موسى ومحمد على الاعتراف به سلطاناً .. اذ غادر موسى بروسة بعد ان نقل جثمان والده بايزيد إليها (مات بايزيد فى الأسر ١٤٠٣)، وسارع بالانضمام إلى اخيه محمد.

فى تلك الاثناء كانت اسرة قندرلى (الصدر الاعظم) لها مصالح تجارية مشتركة مع عائلات اخرى تنتمى إلى دوائر الادارة العليا فى الدولة، وإلى جماعات التجار مثل عائلة افرينو Evrenos اليونانية. وفى الوقت نفسه وصل قائد الفرق الانكشارية التى انشأها مراد الاول إلى ادرنه فاصبح مركز سليمان قويا جدا .. فالى جانبه القوة العسكرية، واصحاب المراكز الرئيسية فى الدولة، فضلا عن وجوده فى اغنى منطقة من مناطق الدولة اقتصاديا. أما محمد فقد نصحه مربيه بان يعتمد على مساندة قوات «الغازى»، على حين كان عيسى فى وضع ضعيف فى هذا الصراع، حيث لم يجد فريقاً يسانده علناً.

وتمشيا مع المصالح التي يمثلها سليمان، أقدم على التحالف مع امبراطور بيزنطة مانويل الثاني، ومع دوق البندقية مايكل شتينو Steno. وتدعيما لهذا التحالف تزوج سليمان من ابنة الامبراطور مانويل في ١٤٠٣، واعاد سالونيك له. غير ان هذه الخطوة الاخيرة التي خطاها سليمان قوبلت باستياء بين جماعات «الغازي» الذين كانوا يعيشون باعداد كبيرة في شرق ثيراس، كما ان علاقته مع كل من الصرب وولاشيا والباينا من جهة اخرى لم تكن على النحو المرضي، وهي الدويلات التي استعادت استقلالها نتيجة الاضطرابات داخل صفوف العثمانيين.

كان سليمان على مستوى طيب من الذكاء والتعليم طبقا لطبيعة العصر، ولكنه كان ايضا طموحا وفضا متعجرفا لا يحتمل. وفي الوقت الذي كان يحتاج فيه لمساندة اتباع والده السابقين لارغام اختواته على الاعتراف به سلطانا، وقف هؤلاء ضده بسبب فظاظته. وفي النهاية اصبح عبئا على حلفائه المقربين، كما انفضت عنه الطبقات الفقيرة من المسلمين والمسيحيين على السواء لتغاضيه عن الحركة الشعبية القوية.

ولقد بدأ الصراع عندما قام موسى الذي اصبح في خدمة اخيه محمد، بالهجوم على اخيهما عيسى الذي لجأ بدوره إلى سليمان بعد انتصار موسى عليه. ولما كان سليمان يستخدم عيسى كأداة مثلما يستخدم محمد هو الاخر موسى، فقد طلب سليمان من عيسى العودة فورا إلى الاناضول لاستعادة بروسة، ولكنه اخفق ودفع حياته ثمنا لتلك المحاولة. فما كان من سليمان الا ان ذهب بنفسه إلى الاناضول في ١٤٠٤ وارغم موسى على الفرار إلى القسطنطينية ومنها إلى ولاشيا، وواصل سليمان زحفه حتى وصل انقره في ١٤٠٥ واضعا محمد في مأزق خطر. بعد هذا كان على سليمان ان يعود فورا إلى مركزه في اوربا لمواجهة موسى الذي هاجم ممتلكات سليمان هناك بمساعدة كل من الامير مركاي حاكم ولاشيا، وستيفان لازارفيتش حاكم الصرب، وابناء آخر حاكمين لبلغاريا مستغلا في ذلك انفضاض امراء البلقان عن سليمان، وطبيعة البيزنطيين في تأييد الضعيف ضد القوي بشكل عام. ولقد استطاع سليمان ان يحرز انتصارا خاطفا على موسى في البداية، إلا ان موسى استعاد قوته وهزم سليمان في ١٤١٠ الذي لم يجد له نصيرا بسبب خصاله السيئة، ولم يلبث ان مات مقتولا بيد الفلاحين الغاضبين وذلك اثناء فراره إلى القسطنطينية. وبعد هذا اصبح موسى سيد اوربا دون منازع، وكان من الطبيعي ان يرفض الاعتراف بتبعيته لأخيه محمد، كما كان الامر في السابق. وهكذا كان على شطرى الامبراطورية العثمانية في كل من آسيا واوربا ان يواجه كل منهما الاخر في جولة اخيرة للتصفية النهائية.

والذي حدث ان امراء اوربا (في البلقان) كانوا يرون ان موسى هو الشخصية الأكثر اثارة في تلك الحرب الاهلية، وكانوا يعتقدون انه حصل على النصف الاوربي في الامبراطورية العثمانية بمساعدتهم. ومع هذا فقد بدأ حكمه بتوجيه الضربات اليهم .. ففي البداية هاجم الصربيين اعتقادا منه بان هزيمته الاولى امام سليمان جاءت بسبب «خيانتهم»، ثم استأنف حصار القسطنطينية، وارسل فرقا للاغارة على شبه الجزيرة اليونانية وياجاه الغرب حتى النمسا. وفي كل هذا بدا غافلا عما يحدث على الجانب الاخر حيث اخاه محمد وجماعات «الغازي»، والنفوذ المتنامي للجهاز

الإدارى الذى كان يحيط بمحمد ويساعده فى حياة اللهو والجمون، وظهر للعيان انه يحاول بناء دولة جديدة بتأييد من قاعدة شعبية عريضة. وفى هذا الخصوص بدت حملاته العسكرية كما لو كانت موجهة ضد قادة دويلات البلقان مباشرة، وفى الوقت نفسه أبعد عنه الدوائر التركية العليا بما تمثله من مصالح إدارية سلطوية وتجارية، بتأييده الدائم للطبقات الدنيا فى المجتمع. وكان من الطبيعى والحال كذلك، ان يبذل محمد جهودا خارقة لاستقطاب العناصر غير الراضية على موسى من التجار والنبلاء والمتعلمين، بالإضافة إلى تأييد جماعات «الغازى» له، بل لقد حصل على تأييد وتحالف مانيول الثانى بسبب حصار موسى له، وكذلك فعل سائر الامراء الأوربيين.

ولعل افضل مؤشر يبين نيات موسى الثورية ورغبته فى التغيير الجذرى لتحقيق ما كان يعتبر البناء لصحيح للدولة، قيامه بتعيين الشيخ بدر الدين شيخا للإسلام فى نطاق الاراضى التى يحكمها وكان الشيخ بدر الدين عالما دينيا شهيرا ومثقفا اصبح اسطورة زمانه، اذ قاد فى عام ١٤١٦ ثورة شعبية خطيرة ضد محمد الاول والا هم من ذلك انه لم يكن فقط واحد من الشخصيات التى كانت تنادى بالسلام الدينى القائم على توحيد اليهودية والمسيحية والاسلام فى عقيدة واحدة، بل كان فى افكاره وتصرفاته قدرا مما يمكن وصفه بالاشتراكية المبكرة. كان يتمتع بشعبية كبيرة وسع جموع الفلاحين كان من شأنها تمتع الامير موسى بتأييد جماهيرى بسبب علاقة الشيخ الوثيقة به وحوالى عام ١٤١٠ أو ١٤١١ تقريبا كان محمد قد اصبح زعيما للأجنحة التركية وللحلفاء لمسيحيين واليهود من الذين يبحثون عن المصالح التجارية ويحتكمون اليها، ويتمتعون بمساند مختلف الحكام من امراء اوربا. اما موسى فكان قد اصبح زعيما «للحزب الشعبى» يستهدف اقامة دولة على اساس المساواة التامة اجتماعيا ودنيا. وكان هذا يعنى فى النهاية ان العناصر الاستقراطية والتجارية الكبيرة فى البلقان كانت تؤيد محمد، على حين كانت الجماهير تتبع موسى.

ولقد انتهت محاولة محمد الاول لهزيمة اخيه موسى فى عام ١٤١٠ بالانحطاق، وبعد ترك كل منهما الاخر لشأنه طوال العامين التاليين. وفى تلك الاثناء كان موسى مشغولا بالتأمر امبراطور بيزنطة، وباختيار وتجريب مداخله الجديدة وافكاره لاقامة الحكم الجديد. اما محمد فقد كان مشغولا فى اسيا الصغرى بالتخلص من أميرى ازمير وانقره اللذان كانا ينازعانه الحكم والسلطان وفور القضاء عليهما توجه شطر الناحية الغربية مرة اخرى، حيث بدأت المعارك الفاصلة بين الاخوي فى عام ١٤١٢. ففى اثناء حصار موسى للقسطنطينية تحرك محمد بقواته إلى الجنوب من مواعى موسى حيث دخل صوفيا وتقدم نحو نيش حيث لحقت به قوات الصرب، وانكفأ عائدا مرة اخرى ليلتقى بقوات موسى بالقرب من صوفيا فى عام ١٤١٣. ولقد انتهت المعركة بانتصار محمد على اخيه موسى الذى مات. وهكذا اعيد توحيد شطرى الامبراطورية العثمانية تحت زعامة السلطان محمد الاول (١٤١٣ - ١٤٢١)، واصبح بالامكان اعادة تنظيم الدولة واتخذت الخطوة الاولى لتدعيم سلطة الحكم العثمانى فى البلقان.

كان تدعيم سلطة الحكم العثمانى امرا صعبا، إذ كان السلطان محمد مايزال يواجه مختلف التحديات ليس فقط من جانب الامراء الأتراك فى الأناضول وحكام البلقان ودولة المجر القوية،

ايضا من جانب الجماهير الغاضبة التي انضوت تحت لواء الشيخ بدر الدين الذى دعا إلى الثورة. وأكثر من هذا كان عليه ان يوحد مختلف الاجنحة تحت قيادته. والحق انه كان باستطاعة السلطان محمد الاول وخليفته مراد لثاني (١٤٢١ - ١٤٤٤) مواجهة تلك التحديات وتحقيق منجزات فى جوانب مختلفة، فقد اقاما النظام الجديد وفقا للبناء الذى كان مراد الاول قد شرع فى تنميته، والذى وان لم يأخذ شكله النهائي حتى ايام السلطان محمد الثاني (١٤٤٤ - ١٤٤٦، ١٤٥١ - ١٤٨١)، الا انها وضعا اساس ما اصبح يعرف بنظام الدولة العثمانية سياسيا واجتماعيا والذى استمر قائما طوال بقاء الامبراطورية العثمانية. ولهذا سوف نخصص بقية هذا الفصل لبيان مختلف سياسات محمد الاول ومراد الثاني فى اوربا وخاصة العسكرية منها، على ان يتناول الفصل التالى «النظام العثمانى» وخاصة المظاهر التى كان لها تأثير حاسم فى اوربا الشرقية.

عندما اصبح محمد الاول سلطانا غير منازع للدولة العثمانية فى عام ١٤١٣ كان مانويل الثاني مايزال يحكم فى القسطنطينية، كما كان الامير المقتدر ميركاى سلباترين يحكم ولاشيا، وستيفان لازار فيتش يحكم الصرب. اما البوسنة فكانت ماتزال مستقلة، والبانيا فى طريقها لأن تكون دولة موحدة، على حين ان المجر التى لم تكن بينها وبين العثمانيين حدود مشتركة كانت دولة قوية يحكمها زيجزمووند اللوكسومبرجى ولها طموحات فى البلقان. اما البندقية فكانت تملك اراضى حول شواطىء شبه جزيرة البلقان. وعلى هذا كان تحديد سيد البلقان من بين تلك القوى امر غاية فى الاهمية ولا بد من تقريره فى النهاية.

كانت الظروف القائمة تنذر باحتمال قيام كثير من التحالفات مع اطراف مختلفة .. فالسلطان محمد يدرك كيف كان توازن القوى فى اوربا على جانب كبير من الاهمية، وكيف كانت الاوضاع السياسية فى امبراطورية قلقة غير مستقرة، كما كان يعرف ان باستطاعة حلفاء تيمور تخديه فى اى لحظة بالاقدام على قتاله فى الاناضول. وعلى هذا اصبح رجلا يجنح للسلم بعد عام ١٤١٣ ومركزا جهوده على المشكلات الداخلية، ولم يدخل فى حروب الامضطر او مرغم .. من ذلك ما حدث من مواجهة مع اخيه مصطفى الذى ظهر فى الشرق مرة اخرى معتمدا على البيزنطيين وحلفائهم بهد انتهاء الحرب الاهلية بين الاخوة كما سبقت الاشارة .. وفى تلك المواجهة الحربية دمرت البندقية اسطوله بالقرب من جاليبولى فى ١٤١٦، الا ان مصطفى هزم ولجأ الى بيزنطة. وفى الصلح الذى تلا ذلك تعهد السلطان محمد بعدم الهجوم على بيزنطة فى مقابل ابقاء مصطفى سجيناً ورهينة فى بيزنطة.

كما واجه السلطان محمد ثورة الشيخ بدر الدين التى تركزت فى دوبروديا بتأييد الامير مركاى الذى احتل تلك الاراضى الغنية عندما اخمدت الثورة. ففى ١٤١٩ قام محمد بقتال الشيخ بدر الدين وانتهت المعركة باستيلاء السلطان على جيورجيو Giurgiu وهو الاقليم الاوربى الوحيد الذى دخل الامبراطورية العثمانية خلال حكم ذلك السلطان. وهكذا كان الموقف السياسى فى البلقان عام ١٤٢١ عندما مات السلطان محمد الاول، هو الموقف نفسه الذى كانت عليه عندما اعاد توحيد الامبراطورية العثمانية.

كانت السنوات الاولى من حكم مراد الثاني صعبة .. فقد اطلق البيزنطيون سراح عمه مصطفى الذى سارع بالهجوم عليه (اى على مراد)، كما وقف كثير من امراء الاناضول ضد السلطان وخلف اخيه الذى كان يسمى مصطفى ايضا. ولكن ما أن جاء عام ١٤٢٣ حتى استطاع الحاكم الصغير (مراد الثاني) اعادة النظام وفرض سيطرته على كل اراضى الامبراطورية التى تركها والده عند وفاته (١٤٢١). ولكن عندما كان مشغولا باخماد الثورات هنا وهناك تمكنت المجر من مد نفوذها داخل البلقان، كما تمكنت البندقية بمساعدة بيزنطة من اكتساب قاعدة فى المورة والحصول على مدينة سالونيك من الامبراطور. والحق ان بيزنطة لم تكن عدو له خطورته الحقيقية بالنسبة للسلطان، على حين استمرت الحرب مع البندقية حتى عام ١٤٣٠ عندما استولى العثمانيون على سالونيك فى النهاية.

ولقد اثبتت الایام ان المجر هى الخطر الحقيقى بالنسبة لمراد .. ففى خلال الحرب مع البندقية انفق المجريون والعثمانيون فى ١٤٢٨ على اقامة دويلة حاجزة وهى الصرب يحكمها جورج برانكوفيتش كحاكم شرعى مستقل. ويبدو ان هذا كان اجراء مؤقتا فى الظاهر، اذ بمجرد انتهاء الحرب مع البندقية عاد مراد الثانى من جيد لسياسة مراد الاول وبايزيد الاول، والثى تقوم على السيطرة على كل الاراضى جنوب خط الدانوب - سافا. وكان هذا يعنى ضرورة ازالة نفوذ المجر من البوسنة والصرب ولاشيا، فاذا لم يكن ذلك ممكنا فيتعين توفير الضمانات الكافية لتأمين النفوذ العثماني فى الاراضى التى يسيطر عليها العثمانيون فعلا. وعلى هذا كان لابد من اقصاء البندقية خارج مواقعها القوية فى البلقان ليحل محلها النفوذ العثماني. ومن هنا قام مراد بغارات مستمرة على دويلات البلقان فى محاولة لمد حكمه هناك، واستطاع الاستيلاء على مواقع دائمة فى اليونان والمورة وجنوب البانيا. وهنا لجأ امراء مختلف المناطق إلى المجر للحماية. وقد ركز مراد نشاطه بعد عام ١٤٣٢ على المجر وذلك بشن غارات ترانسلفانيا والاستمرار فى مضايقتها هى وحلفائها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وانتهاز فرصة موت زيجزمووند (حاكم المجر) فى ١٤٣٧ ليكثف من جهوده ويهاجم ترانسلفانيا مرة اخرى. وفى عام ١٤٣٩ احتل الصرب وجعلها ولاية عثمانية، وفى العام التالى هاجم بلجراد (بيوجراد) قلعة المجر الرئيسية على الحدود آنذاك، ولكنه لم يحقق اغراضه وكانت غارة فاشلة.

وبعد الهجوم على بلجراد اضطر مراد للعودة إلى آسيا الصغرى ليواجه هجوما قامت به امارة القرم. وهنا انتهز المجريون الفرصة وقاموا بالهجوم على بقايا القوات العثمانية فى اوربا تحت قيادة الجنرال يانوش هونيادى Janos Hunyadi واستطاعوا خلال عامى ١٤٤١ - ١٤٤٢ التوغل فى اعماق البلقان بنجاح حتى لقد ارغموا مراد على عقد اتفاق عرف بمعاهدة ادرنة فى ١٤٤٤، ومعاهدة اخرى فى العام نفسه امتداد لها عرفت بمعاهدة شجذ Szeged اعيد بمقتضاها تنظيم الصرب كدويلة حاجزة. ووافق المجريون على مغادرة الاراضى البلغارية دون تحرش وعلى عدم عبورهم الدانوب. وفى العام نفسه تصالح مراد مع القرم وبادر بالنزول عن العرش معتقدا انه حقق كل الامان لامبراطوريته.

ثم خلفه على العرش ابنه محمد الثاني الذى كان يبلغ من العمر اثنى عشر عاما، وبدأ الصراع بين مراكز القوى فى البلاط العثمانى بين كل من خليل قندرلى الصدر الاعظم، وزاجانوش zaganos مرى السلطان الجديد، وشهاب الدين بيلريك الولايات الاوربية. وفى تلك الاثناء انتهزت الحجر وولاشيا الفرصة وكونتا جيشا بتشجيع من البابا وبيزنطة ومؤيدا بعدد من امراء البلقان وعلى رأسهم اسكندر بك الالبانى، حيث عبر الدانوب إلى ادرنه خلال اراضى بلغاريا. ولقد انضم اسطول البندقية لهذه الحملة الجديدة وقصف ادرنة بنيران مكثفة واغلق بوغاز الدردنيل، فحال دون نقل القوات العثمانية من آسيا الصغرى إلى الاراضى الاوربية. وهنا عاد مراد الثانى من اعتزاله ليقود الجيوش العثمانية حتى استطاع احراز نصر كبير فى فارنا فى ١٠ نوفمبر ١٤٤٤ قرر مصير كل من البلقان والقسطنطينية. وفى تلك اللحظة الفاصلة بدأ المتصارعون الثلاثة الكبار (قندرلى، وزاجانوش، وشهاب الدين) يتركون شجاراتهم الضغيرة جانبا ويركزون جهودهم حول كيفية التعامل مع القسطنطينية تلك المدينة الامبراطورية. وكان الصدر الاعظم (خليل قندرلى) يُتأرض الهجوم عليها وشاركه الاخراخ الرأى. وفى ١٤٤٦ قام الصدر الاعظم بتأييد من الانكشارية بانقلاب عسكرى وارغم مراد الثانى السلطان العجوز على العودة للعرش مرة اخرى حيث ظل يحكم لمدة خمس سنوات، استطاع خلالها مد النفوذ العثمانى إلى المورة ومحاربة اسكندر بك فى البانيا وتأكيد الحكم العثمانى فى الصرب مرة اخرى. واستأنف سياساته القديمة من حيث التوسع ولقد بلغت تلك السياسات قمة النجاح عندما هزم هونىادى فى معركة كوزوفو عام ١٤٤٨.

على كل حال .. كان حكم السلطان مراد يمثل خطا فاصلا فى تاريخ الامبراطورية العثمانية. ويذكر بروكلمان ان «حكم مراد كان يعنى بمختلف المقاييس نهاية الثقافة القديمة العثمانية»^(١) اما انالچيك فيشير إلى ان مراد كان يفكر فى اقتفاء اثر سياسات والده عند اعتلائه العرش، الا انه سرعان ما ادرك ان الامور بحاجة إلى تغيير، وذكر انالچيك (وهو مؤرخ تركى) نظام التسليح الجديد الذى اقترحه مراد كمثال على الاصلاحات التى قدمها ذلك الحاكم.^(٢) وكل من الرأين صحيح، ويشخصان اعادة التنظيم الذى انتهى منه خلال حكم السلطان محمد الثانى، وهو نظام قام على المساواة فى الاهمية لكل سكان الامبراطورية، والذى اخذ شكله التقدسى عند وفاة مراد فى ١٤٥١. وخالصة هذه التنظيمات نشوء نسيج عثمانى من عناصر مختلفة تركية واسلامية وبيزنطية وحتى غربية فى بناء دولة بناء متكامل لدرجة تدعو للاعجاب.

(1) Carl Brockelmann, History of the Islamic People (London: Routledge and Kegan Paul, LTD: 1949.)

Capricorn Books, (1960) P. 276

وانظر ايضا الطبعة الشعبية فى نيويورك:

(2) Halil Inalcik, The Ottoman Empire, The Classical Age, 1300 - 1600 translated by: Norman Itzkowitz and Colim Imber (New York and Washington: Praeger, 1973), p.21.

الفصل الثانى

البناء الاجتماعى والادارى العثمانى

١ - مقدمة

كان البناء الاجتماعى فى الدولة العثمانية بصفة اساسية عبارة عن نتاج لعملية امتزاج ماهرة بين التقاليد الاسلامية الاجتماعية - السياسية، وبين كل من العناصر الترككية البيزنطية. وكان المجتمع العثمانى يميز بين الافراد على اساسين: الاول دنى بين المسلمين وغير المسلمين بشكل عام، والثانى وظيفى بين اولئك الذين يعملون فى اجهزة الدولة الادارية والسياسية بدرجات متفاوتة وبين الذين لا يعملون فى اى من تلك الاجهزة.

وعلى حين كان المسلمون يتفوقون على غير المسلمين ويتميزون عليهم طبقا لذلك التصنيف من الناحية الرسمية، الا انه فى التطبيق العملى وخلال القرون الاولى فى الامبراطورية كان الناس من اصحاب العقائد المختلفة يعاملون غالبا على قدم المساواة طبقا لوضعهم الوظيفى. ولم يكن مسموحا للمسلمين بالارتداد عن عقيدتهم والا عرضوا انفسهم لعقوبة الاعدام. أما غير المسلمين فكان لهم ان ينضموا للاسلام، اما طوعا او كرها من خلال نظام «الدفشمة» الذى يجبر فيه غير المسلم اذا ما تم تجنيده بمقتضى هذا النظام، على تغيير عقيدته واعتناق الاسلام (ضريبة الطفل .. أى توريد عدد معين من الاطفال المسيحيين للعيش فى معسكر خاص فى اطار تربية اسلامية). وفيما بعد اصبح معيار التفرقة الدينية بين رعايا الامبراطورية هو المعيار السائد.

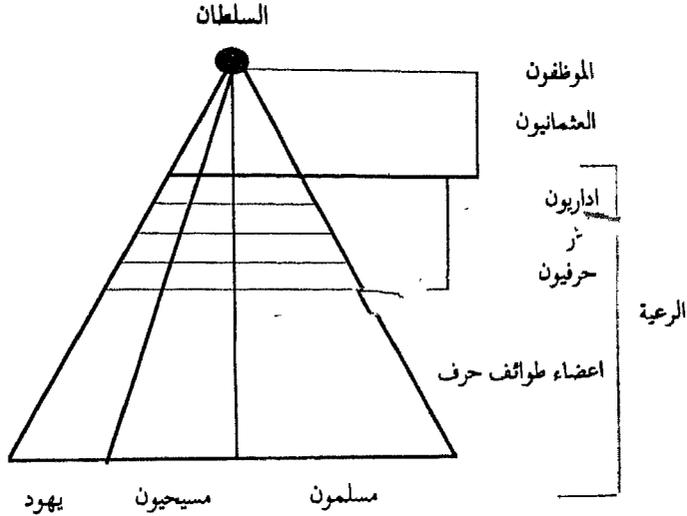
كان موظفو الدولة فى المناصب والمواقع الرئيسية من المسلمين بصفة اساسية ولا أحد غيرهم. أما زعماء طوائف غير المسلمين فكانوا يعتبرون موظفين يتبعون الدولة ومسئولون عن احوال الناس فى دائرة طائفتهم.

وبناء على هذا اتخذ البناء الاجتماعى فى الدولة الشكل الهرمى (انظر الرسم البيانى) تتكون قمته من هؤلاء الذين يعملون للدولة وتنفصل تماما عن القاعدة التى تتكون من سائر العاملين حسب وظائفهم ومهنتهم المختلفة. اما الذين يعملون للدولة فقد كان يطلق عليهم اسم «الموظفون العثمانيون» طبقا لتوصيف الباحثين المحدثين، على حين كان يعرف باقى السكان بالرعية.

والحق ان هذا النظام فى التفرقة كان يقوم على التصورات التالية:

عندما بزغ نجم بيت عثمان كالشهب الخاطف كان البناء العقيدى والفلسفى والعلمى والادارى للمذهب السنى فى الاسلام قد اكتمل نموه، وعلى حين كان «الاجماع» مايزال

مطلوبا عند اتخاذ القرارات الكبرى المتعلقة بأمور العقيدة والشريعة، وكان «الاجتهاد» امرا خاصا بانصار المذاهب الاربعة فيما يتعلق بأمور تطبيقية، وكان كل مذهب من تلك المذاهب الاربعة يعترف للآخر باحتوائه على مبادئ صالحة رغم عدم الاتفاق فيما بينها على بعض الامور.^(١) ولقد أخذ العثمانيون بأكثر هذه المذاهب تحرية الا وهو المذهب الحنفى بشكل نموذجي متشدد راسخ لا يتغير.



ولقد استقر في ذهن العثماني ممارسات معينة بشكل متساو، اخذها العثمانيون عن الامبراطوريات العربية الاسلامية، والعادات التركية التي جلبوها معهم من اواسط آسيا. وكما يكون للتقليد دورا مهما واساسيا في ارساء المبادئ، فقد كان لها دورا مائلا في ارساء الحدود التي استطاع العثمانيون في اطارها تنظيم دائرة نفوذهم وسلطانهم. ولابد من التأكيد منذ البداية على ان التنظيم الذي اتبعه العثمانيون كان يغطي الدقائق والتفاصيل المتعلقة بكافة مظاهر الحياة الاجتماعية وسياسة الدولة، وكذا الخاصة بكل الافراد من السلطان إلى اقل فرد يخضع للسلطة.. فكل فرد في المجتمع يعرف حقوقه وواجباته، وهي امور لم تكن فقط مفروضة بقوة طالما كانت الدولة قادرة على ذلك، بل لقد اوجد العثمانيون شيئا مشابها لمبدأ توازن القوى، والذي كان من شأنه ان يحد من نفوذ اقوى الافراد. وكانت «الحدود» تحدد بدورها وضع كل فرد في المجتمع بدرجة يصعب تجاوزها بحال من الاحوال، إذ كان من حق اى شخص مقاومة هؤلاء الذين يفرطون في الحدود بكل الوسائل الممكنة، ان لم يكن ملزما بالقيام بذلك. ولقد كان من شأن هذا المبدأ (الحدود) ان يحمى مصالح الفقراء والطبقات الدنيا في المجتمع طالما كانت الامور تجري في مجراها السليم. كما جعل من الحكم العثماني حكما مفضلا لدى فلاحى البلقان وعامة الناس من غير النبلاء.

(١) المذاهب الاربعة هي: الحنفى نسبة لابي حنيفة (المتوفى سنة ٧٦٧)، والمالكي نسبة إلى مالك ابن انس (المتوفى ٧٩٥)، والشافعى نسبة إلى محمد بن ادريس الشافعى (المتوفى سنة ٨٢٠)، والحنبلى نسبة إلى احمد بن حنبل (المتوفى ٨٥٥).

لقد كانت الامبراطورية العثمانية بمثابة «ضيعة لآل عثمان»، وطالما كان الحاكم العثماني لايعانى من امراض جسدية او اضطرابات عقلية تحول بينه وبين ممارسة الحكم طبقا للشريعة، وطالما كان مسلما «حسن الاسلام»، فلا حدود لسلطانه من الناحية النظرية .. فهو الذى يملك كل شبر فى ضيعته، وهو السيد المطلق لكل من يعيش على اراضيه. وفى هذا الخصوص كان للسلطان العثماني حقوق رعييم القبيلة التركية القديم، او تلك التى كانت لزعماء «الغازى» .. فباستطاعته ان يخلع على من يشاء منصب او يحرمه منه حسبما يرى. كما كان باستطاعته ان يأمر باعدام من يرى من كبار رجال الدولة ومصادرة ممتلكاتهم. كما لم يكن من الممكن اتخاذ اى اجراء دون الحصول على موافقته مسبقا. ولقد كان من حسن حظ العثمانيين ان العشرة سلاطين الاوائل منهم كانوا من الرجال القادرين .

وبمقتضى السلطة المطلقة للحاكم، ذهبت الالتزامات التى كانت جزء من «حدوده» والتزاماته ايضا، فقد كان عليه ان يعامل رعاياه، واتباعه بالرحمة والعدل بما يتفق مع التقاليد، بل لقد فرضت عليه حدود اخرى بمقتضى الشريعة وكذا العادات التى نقلت اصلا عن الفرس والخلفاء العرب.

لقد انقسم المجتمع العثماني اذن وبشكل عام إلى قسمين طبقا لاسلوبين مختلفين: الاسلوب الاول على اساس ديني والذى يميز بين كل من المسلم والذمي ويعنى فيما يعنى فروق كبيرة بين طبقتين من المواطنين من حيث حقوق المواطنة فى الوظائف والفرص، وكذلك فى الضرائب .

اما الاسلوب الثانى فى تقسيم المجتمع العثماني، فأساسه التمييز بين اولئك الذين يرتبطون بالدولة ومؤسساتها فى اطار وظيفي، وهؤلاء الذين لا يرتبطون بمؤسسات الدولة. وتشمل المجموعة الاولى عائلة السلطان، والمؤسسة العسكرية، ورجال الادارة المركزية والاقليمية، والعلماء الذين أنشوا الشريعة لتلائم الانسان، والمؤسسات التعليمية، والموظفون المتعلمون. وكانت هذه المجموعة تشمل ايضا فى عرف الحكومة المركزية، الاتباع والحلفاء فى المناطق المفتوحة الذين كان يفترض مثلهم لاوامر السلطان وباستثناء هؤلاء الاتباع والحلفاء الذين كانوا يحاولون دائما التصرف باستقلالية كلما أمكن ذلك، كانت بقية عناصر هذه المجموعة تعرف «بالموظفين العثمانيين» عند الدارسين المحدثين. وهذه التسمية صحيحة ومبررة، ليس فقط لأن بناء الدولة وادارتها يقوم على اكتافهم، بل لأنه كان يربط ما بين هؤلاء الرجال قيم مشتركة وقدر اساسى من التعليم جعلهم يعتقدون انهم يكونون فيما بينهم فئة اجتماعية تختلف بالضرورة عن الاخرين. وكان هؤلاء الموظفون العثمانيون فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة اما مسلمون بائس . أو تحولوا إلى الاسلام، وقد يكونون من الرجال الاحرار اصلا او من العبيد.

. اما المجموعة الثانية فتتألف من باقى السكاك ندين يشكلون اكثر من ٩٠% من اجمالى العد. ويعرفون «بالرعايا» وراعيهم السلطان. ويقع عليهم السلطان. ويقع عليهم، مسلمون وذميون، عبء العمل الزراعى والصناعى والتجارى، ويوفر عملهم المنتجات اللازمة، ومن ثم تفرض الضرائب التى تعين الدولة

وموظفيها وعائلة السلطان على الحياة. وكان الاوروبيون الذين خضعوا للسلطان العثماني مع بعض استثناءات قليلة يعدون من الرعايا ايضا.

لقد كان لهذا النظام بقواعده واحكامه الصارمة المطلقة فيما يبدو مزايا عظيمة إذا ما استمرت قائمة وبشرط الا يكون بإمكان اعداء الامبراطورية العثمانية تقديم بدائل لما هو قائم في مجال التكنولوجيا والاقتصاد افضل مما يقدمه العثمانيون. ولكن عندما يصبح اجراء التغييرات في ملامح هذا النظام امرا ضروريا، يكون تحقيقها أمرا صعبا في الوقت نفسه، بل ولا يمكن تحقيقه، ذلك ان كل مظاهر النظام متداخلة ومتشابكة بشكل يصعب عزلها عن بعضها، وبحيث إذا حدث ادنى تغيير في ايسر مظهر من تلك المظاهر لا بد وان يؤثر في البناء كله ان لم يهدده بالخطر. ومع هذا فبالرغم من سيادة روح المحافظة مع قدر معين من التعصب، وقعت التغييرات وفرضت ضد رغبة قطاع معين من الناس من ذوى المصالح المعينة .. وقد وقعت نتيجة حقيقتين اثنتين:

اولهما ان العثمانيين ببساطة لم يكونوا يعلمون، كما لم يكن بإمكانهم تصور طريقا آخر لادارة الدولة، وكانوا يعتقدون ان اقل تغيير يحدث قد يدمر كل البناء الاجتماعي والسياسي للدولة. والثانية تلتخص في ان النظام العثماني الذي كان خلال فترة القرنين الرابع عشر والسادس عشر، هو اعظم منجزات الامبراطورية، اصبح مع مطلع القرن السابع عشر من اكبر اعبائها المرهقة. وعلى هذا يتعين ان نشرح ذلك النظام العثماني في كل دقائقه وتفصيلاته وملامحه، لأن اهمال اى مظهر من مظاهره لا بد وان يؤدي إلى تشويه الصورة العامة. وسوف نكتفى بالاشارة إلى المظاهر التي لم يكن لها تأثير مباشر على حياة شعوب الولايات الاوربية من الامبراطورية، على حين سوف نهتم بابرار المظاهر الاخرى التي تتصل بحياة شعوب اوربا الشرقية اتصالا مباشرا.

٢ - الموظفون العثمانيون

رغم ان اهتمامنا ينصب اساسا على الرعايا لكن لا بد من قول كلمات قليلة عن الموظفين العثمانيين المسؤولين عن امور حياة اولئك الرعايا. ويمكن تقسيم اولئك الموظفين طبقا لوظائفهم الرئيسية إلى اربع مجموعات رئيسية هي: مجموعة الحكم والادارة (الملكية)، ومجموعة الكتابة الاداريين، (قلمية)، وأرباب السيف، وأرباب العلم والعلماء. ويناط بالمجموعة الاولى (الملكية) مسؤوليات وواجبات متعددة تتصل بمجمل نشاطات القصر الامبراطوري وتصل اعدادها إلى الآلاف وتتمتع بنفوذ واسع، وبإمكان الفرد في هذه المجموعة عندما يصل إلى مرتبة معينة، أن يتولى وظيفة ادارية او عسكرية خارج القصر. وقد رصد خليل إنالچيك هذا التغير في الوظائف خارج القصر الامبراطوري. (١)

ولقد انقسمت تلك المجموعة (الملكية) إلى مجموعتين فرعيتين متميزتين وهما: آندرون

(1) Inalcik, Ottoman Empire, table I, p. 82

(مجموعة الخدمات داخل القصر)، والبيرون (خدمات خارج القصر). ويرجع سبب التقسيم إلى طبيعة تنظيم القصر الامبراطوري الذي تم بناؤه حول بلاطين كبيرين يفصل بينهما جدار يتوسطه باب السعادة الذي يقود إلى الحضرة السلطانية. والذين يمرون من هذا الباب يكتب عليهم اما قضاء حياتهم داخل القصر او الانتقال خارجه بشكل دوري ليتولوا وظائف اخرى. وكان من المعتاد ان تتولى الشرائح العليا من صفوف الخدمة الداخلية (الآندرون) اهم الوظائف في الاقاليم والولايات عندما يغادرون القصر، ومن هناك يمكن اعادتهم مرة اخرى إلى العاصمة للعمل في الادارة المركزية للحكومة التي تدخل في دائرة عمل مجموعة البيرون. وقد عرف الذين ينتمون إلى الآندرون بالقاييقول .. عبيد السلطان (وكلمة قايي تعنى ايضا باب). وبعد ادخال نظام الدفشمرة في الامبراطورية العثمانية (انظر القسم الخامس من هذا الفصل) اصبح القاييقول يأتيون من الاقاليم الاوربية بصفة اساسية، حيث يبدأ تعليمهم داخل القصر، وينتقلون من مدرسة الغلمان إلى مراكز تدريبية عليا للقيام بمهام داخل البلاط، وقد يتولى افضلهم اعلى المواقع الممكنة بين عناصر الآندرون، وعندما ينقلون خارج القصر وفق جهودهم وانجازاتهم داخل القصر، يتولون اهم الوظائف خارج القصر وفي الاقاليم.

اما طاقم البيرون، فقد تنوعت وظائفه واعماله بحيث شملت عمال الحرف والصناعات، وموظفو المصالح لعامة. ووحدات التدريب اللازمة لها، ومدارس الانكشارية، ووحدات القاييقول العسكرية، ومكاتب الحكومة المركزية، ومختلف الاغوات (المسؤولون) عن كل هذه المؤسسات والهيئات. وقد يلتحق بهذا النوع من الخدمة، العبيد او الاحرار ولكنهم في النهاية ويا كان الاصل يعتبرون عبيد السلطان. على ان اهم وظائف هذا الطاقم (البيرون) قاطبة، كانت تتركز في العمل في دوائر الحكومة المركزية التابعة لديوان همايون (المجلس الامبراطوري) ويتولى اعضاؤه الذين يعرفون «بأركان الدولة» مناصب الوزارة، ويعملون تحت رئاسة الصدر الاعظم.

والحق ان اعظم وجهاء الامبراطورية اهمية عملوا في هذا المجلس: فقاضي عسكر يعتبر اعلى وظائف القضاء (كان يشغل المنصب في الاصل واحد وفيما بعد اصبح هناك اثنان واحد لآسيا والآخر لاوريا)، والبيبرلييك رئيس مدراء الاقاليم في اوربا واسيا، والدفتردار .. امين خزنة الامبراطورية (كان يشغل المنصب اثنان في البداية ثم اضيف لهما ثالث يختص بافريقية)، وأغا الانكشارية، وقبودان الاسطول، والنشنجي .. سكرتير المجلس ومهمته التحقق من صحة قرارات المجلس والتأكد من موافقة السلطان عليها وختم كل المستندات بخاتم السلطان (الطغراء). وطالما كان القاييقول الذين تعلموا واكتسبوا خبراتهم في مدارس ومراكز الخدمة داخل القصر الامبراطوري (آندرون) يمثلون اغلبية في ديوان همايون، كان هذا معناه ان النظام يعمل بكفاءة واقتدار ويسير في الطريق الصحيح.

ومن الاهمية بمكان ان ندرك انه كان لكل فرد في الامبراطورية العثمانية بما فيهم اعضاء ديوان همايون (المجلس الامبراطوري) مكانا محدد في قائمة الصفوف او في البناء الوظيفي. واكثر من هذا فوظائف اوربا (روم ايلي) لها مكانة اكبر من وظائف اسيا (الاناضول) ووظائف آسيا تقدم

على افريقية حتى ولو تشابهت أو كانت واحدة. وهكذا فمن السهولة ترتيب الوظائف الكبرى والمهمة في الحكومة المركزية وفق أهميتها ومكانتها وأسبقيتها على النحو التالي:

- الصدر الاعظم
- قاضى عسكر روم ايلى
- قاضى عسكر الاناضول
- بيلريك روم ايلى
- بيلريك الاناضول
- دفتر دار روم ايلى
- دفتر دار الاناضول
- دفتر دار افريقية
- اغا الانكشارية
- قبودان الاسطول
- نشنجى

وعلى حين كان اصحاب تلك الوظائف العليا ينتمون إلى طاقم البيرون من شريحة «الموظفين العثمانيين» (الملكية)، الا انهم يصنفون بدورهم في جماعات فرعية اخرى طبقا لقيمة وظائفهم .. فالبيلبريكوات يحتلون مكانة عسكرية وادارية مهمة، واغا الانكشارية وقبودان الاسطول عضوان مهمان في المؤسسة العسكرية . اما الدفتردار والنشنجى فينتميان إلى الجهاز الادارى على الرغم من ان النشنجى لم يحدث ان غادر الحضرة السلطانية .

واما المجموعة الثانية للوظائف العثمانية وهى القلمية (الكتابة والنسخون) فكان يرأسها الدفترداران الرئيسيان وهما مسئولان عن الصرف من خزانة الدولة، وعن جمع الضرائب بطريق غير مباشر. وكان دفتدارو الاقاليم مسئولون مسؤولة مباشرة عن هذا الامر حتى ايام السلطان محمد الثانى، وفيما بعد ساعدهم الملتزمون فى القيام بتلك المهام. ومن هنا كان لكل من الدفتردار والملتزم تأثير كبير على حياة الناس بشكل مباشر، وسوف نناقش دور كل منهم عند حديثنا عن الادارة بالاقاليم. ومع ان الامور المالية كانت من اختصاص القلمية بصفة رئيسية، الا ان عناصر من هذه الجماعة كانت تباشر مهام متعددة اخرى فى مختلف المؤسسات وتتعامل مع ملايين المستندات من بسط الالتماسات إلى المعاهدات الرسمية للدولة. وكانت هذه العناصر تتدرب على القيام بمثل هذه الاعمال فى مراكز خاصة، وكان لهم تدرجهم الوظيفى الخاص بهم. ولأن تحقيق اهداف الادارة تتطلب مهارات خاصة ومعارف محددة فقد خلق هذا نوعا من وراثة المهنة بين مجموعة الموظفين الاداريين.

اما المجموعة الثالثة من الموظفين العثمانيين فهي جماعة ارباب السيف (السيفية) وهم رجال الجيش. وتضم بدورها نوعين من العسكر: المحاربون الاقطاعيون الاحرار (التيمازيون اى اصحاب التيمار)، ووحدات جيش السلطان من العبيد المأجورين (المعاشلية اى الذين يتقاضون معاشا). وهناك نوع ثالث ويتمثل فى عناصر غير نظامية من انواع مختلفة سوف نتحدث عنهم فى الفصول التالية نظرا لاهميتهم بالنسبة لاوروبا الشرقية. أما القوات الخاصة مثل سلاح المهندسين فهي قليلة الاهمية بالنسبة لهذه الدراسة نظرا لعدم تأثيرها على حياة شعوب شرق اوربا مجال الدراسة.

والتيمازيون هم عناصر طبقة العسكر القديمة من المحاربين الاحرار الذين كانوا يلتحقون باحدى القيادات العسكرية تطوعا واختيارا كما فعل اسلافهم من قبل. وكانوا يجندون من عائلات البكوات والعائلات الكبيرة الاخرى، وعناصر الغازى الذين كانوا يتميزون بحصولهم على منح الاقطاعيات ومن ثم يدخلون إلى المؤسسة العسكرية «النظامية». وفى اول الامر كانت هذه المجموعة تخدم كسلاح فرسان (السباهية) فى الجيش. ولكن كان يناط بها امور مالية وادارية جعلتهم على اتصال مباشر مع اغلبية السكان، خاصة وان هؤلاء العسكر كانوا يتقاضون مرتباتهم من ناتج جهد الفلاحين.

وكان للتيمازيين شأن العناصر الاخرى فى النظام العثمانى، بناؤهم الوظيفى الهرمى. وتمثل مكانة كل واحد منهم فى ذلك البناء ومسئوليته بمقدار الدخل الذى تدره عليه قطعه من الارض تمنح له يتحدد حجمها بقدر منجزاته العسكرية. وفى هذا النظام (التيمار) كانت الوحدة الاساسية من الارض تعرف بالجفتك، يختلف حجمها من فرد لآخر. وفى كل الاحوال كان لابد وان تكون القطعة الواحدة كبيرة بدرجة تكفى صاحبها واسرته بما تدره. ويفرض على صاحب الجفتك الاحتفاظ بسلاحه العسكرى وحصانه ليكون متأهبا عند الطلب. اما اصحاب التيمارات الكبرى (اى مجموعة جفتكات) فعليهم ان يكونوا بكامل دروعهم عندما تحين ساعة حشد القوات المحاربة، وعليهم ايضا ان يوردوا للجيش مايزيد على حاجتهم من دخل التيمار إذا كان يدر دخلا اكبر من الحد الأدنى اللازم للحاجة. وفى اوربا كان اصغر تيمار يدر حوالى ثلاثة الاف أقة،^(١) وهو مبلغ اعتبر كافيا للحياة فرد من السباهية. وكان اكبر تيمار يدر دخلا قدره ١٩٩٩٩ أقة، وهذا يعنى ان

(١) الأقة هي الوحدة الاساسية للعملة العثمانية وقد تم سكها لأول مرة فى عهد اورهان وكسستخدم فى كل الصفقات الرسمية حتى نهاية القرن السابع عشر. ومنذ عهد اورهان وحتى عام ١٤٥٣ كانت الأقة تزن ٣,٢ جرام ويحتوى على ٩٠ ٪ فضة. ثم هبطت قيمتها تدريجيا منذ الاستيلاء على القسطنطينية وحتى عام ١٥٢٠ (سواء بانقاص ١ + ر سنيل سنة الفضة فيها) الى اكثر من النصف قليلا بالنسبة لقيمتها الاصلية. وظلت محتفظة بمعدل الانخفاض حتى عام ١٥٧٥. انخفضت قيمتها إلى النصف خلال الاعوام التسعة التالية. ولعل افضل وسيلة لمعرفة قيمة تلك العملة يكون بمقارنة قيمتها الاخرى الاجنبية الاوروبية المتداولة فى عام ١٦٨٤ كما يلى:

٨٠ أقة = واحد كاراكروز (الاسم العثمانى لعملة النمسا الفضية جروسوز Grossus)

١٠٠ أقة = واحد دوكة نمسوية.

١٢٠ أقة = واحد دوكة بندقى ذهبية.

١٢٠ أقة = واحد شريفى (عملة ذهبية عثمانية ضربت فى استانبول على غرار الاشرفى المملوكى بنمذوح الدركية

البندقى). =

على صاحب هذا التيمار الكبير ان يعول نفرا عسكريا (جيبيلو) بمقدار ثلاثة الاف آقجة وهى الحد الأدنى اللازم لمعيشة السباهى. ومن هنا كان اقصى طموح النفر (جيبيلو) ان يحصل على تيمار باسمه يعيش منه مباشرة.

والتيمارات التى تدر دخلا بين ٢٠,٠٠٠ - ٩٩,٩٩٩ آقجة كانت تعرف «بالزعامات»، ويعرف حائزوها باسم الزعماء. وكانت لهذه الاقطاعات واجبات عسكرية مهمة واعباء ادارية تفوق تلك التى كانت للتيمارات البسيطة، على الرغم من ان كل زعامة كان عليها ان تعول نفرا (جيبيلو) لكل خمسة الاف آقجة زيادة فى الدخل عن الاساس. اما التيمارات التى تدر دخلا اكثر من مائة الف آقجة فكانت تعرف باسم «الخاص»، وتخصص لاصحاب الوظائف الاقليمية العليا، والوجهاء المعتزلون، ومعظم موظفى مجموعة الحكم والادارة (الملكية)، وافراد العائلة السلطانية، وحریم السلطان. ويعضها كان يستخدم فى نفقات عائلة السلطان.

وفى هذا الاطار فان كل فرد يعمل فى الارض كان يتبع فى الغالب حائز للارض من مجموعة الموظفين العثمانيين، بل ان اصحاب الاوقاف كانوا يعتمدون كثيرا على جهد عمال الزراعة هؤلاء. ويتصل بحيازة الارض والعمل الزراعى اتصالا مباشرا كل من السباهية والمتزيمين او الوكلاء. ويخضع سباهى كل اقليم لحاكم الاقليم (سنجق بك) الذين يقيمون فيه. ويحمل

=وفىما بعد تدهورت قيمة الآقجة اكثر واكثر، وكانت تتذبذب بشدة، وانخفضت انخفاضاً شديداً حتى كان ٢٢٠ منها تساوى واحد شريفى. وفى عهد سليمان الثانى (١٦٨٧ - ١٦٩١) وبعد استقرار نسبي حيث كان ١٥٠ آقجة تعادل واحد شريفى، اصبحت قيمتها الرسمية كما يلى: ١,٢٢٠ آقجة = واحد شريفى. وفى الحقيقة كانت قيمة ٣٠٠ آقجة تساوى جنيها ذهبيا. ومع تدهور الآقجة عمليا قدم العثمانيون عملة جديدة مع استمرار استخدام العملة القديمة فى اعمال الحسابات وسلك الدفاتر. ففى مطلع القرن السابع عشر وخلال حكم عثمان الثانى (١٦١٨ - ١٦٢٢) صدرت «البارة» كعملة جديدة تساوى اربعة آقجة اسمياً، وثلاثة فقط فعلياً. ولقد ظهرت الوحدات المعدنية الكثيرة المتنوعة من هاتين العملتين (الآقجة والبارة) ايضا فى مطلع القرن السابع عشر. وقد اصدر كل من سليمان الثانى واحمد الثانى (١٦٩١ - ١٦٩٥) عملة ثالثة وهى القرش العثمانى بقيمتين مختلفتين فى بادئ الامر ثم اصبحت قيمة واحدة تماثل ١٦٠ آقجة.

ثم اصبح لامفر من تغيير العملة الذهبية لأن كل من مصر وسائر الولايات التابعة للدولة فى افريقية بدأت فى سك عملة مستقلة عن العملة العثمانية. وفى عامى ١٦٩٦ - ١٦٩٧ فى حكم مصطفى الثانى (١٦٩٥ - ١٧٠٣) استبدل الشريفى بالطغرى بنفس قيمة الشريفى الاصلية، واحتفظ خليفته احمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) بهذه العملة الجديدة ولكنه اصدر فى ١٧١١ عملة معدنية اخف وزناً وانقى معدناً تسمى الزنكبرى او الفندقى (حوالى ٣,٣ جرام)، وعملة اخرى معدنية صغيرة وهى زر مجوب (٢,٥٠ - ٢,٦ جرام). ولدينا من عام ١٧٢٥ قائمة عثمانية رسمية بقيمة العملات الذهبية الاتية نسبة إلى الآقجة والبارة وهى:

دوكية نمسوى = ٣٦٠ آقجة = ١٢٠ بارة

دوكية بندقى = ٣٧٥ آقجة = ١٢٥ بارة

زنكبرى = ٤٠٠ آقجة = ١٣٣,٣ بارة

على ان قيمة العملة العثمانية استمرت فى التدهور. وفى عهد السلطان محمود الاول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) كانت ٤٥٠ آقجة تساوى واحد طغرى بانخفاض ١٦-١٨% بالنسبة للفضة. وقد استمر معدل الانخفاض فى العملة العثمانية قائماً حتى نهاية فترة هذه الدراسة. انظر:

H.A.R. Gibb and Harold Bowen, Islamic society and the west (Oxford, London, Newyork and Toronto: Oxford University press, 1957), Vol. I, pp. 49 - 59.

السنجق عادة لقب «باشا»، ويحوز تيمارا من حجم «الخاص»، ويكون مرءوسا فقط للبليريث. اما الالاي بكوات (قادة الفرق) فكانوا يعملون تحت امرة السنجق بك، ويحوز كل منهم ارضا من حجم «الزعامة»، وكذلك الحال بالنسبة لمن يتبعونهم مباشرة من الصوباشية. ويعمل الصوباشية كرؤساء شرطة فى مختلف الاقضية^(١) التى تتكون منها كل سنجقية. و«الجرى سوروجى» هو اقل رتبة عسكرية ويحوز صاحبها تيمارا، وفى وقت السلم يعمل كضابط شرطة لحفظ الامن محليا.

ومن الملاحظ ان اجمالى دخل اية سنجقية من سائر المنتجات الزراعية يوزع كما يلى: (٢)

٢٠٪ لاصحاب «الخاص» بما فيهم مخصصات السلطان نفسه (خواص هما يون)

١٠٪ للزعامات.

٤٠٪ للتيمارات

١٠٪ لاعانة قوات الحصون والقلاع

١٠٪ للاوقاف

١٠٪ الباقية فيحتفظ بجزء منها للمصروفات غير المتوقعة. اما الجزء الذى يجب للحيازة الخاصة فسوف تناقشة بعد الانتهاء من الحديث عن نظام حيازة الارض والزراعة.

كانت عناصر «الاقينجيلر» اقدم اولئك المحاربون المتطوعون من الاتراك الذين تمت تربيتهم فى الولايات الاوربية. وكانوا يقومون باعمال الاستطلاع، ويلقون الرعب فى قلوب الناس فى غاراتهم، وكانوا يعيشون على غنائم الحرب واسلابها. وفى الوقت نفسه كانت امامهم الفرصة لكى يصبحوا من اصحاب التيمارات، إذا ما برزوا بشكل كاف. اما فرق «اليايا» و«البيادة» وهى قوات المشاة غير النظامية، فكانوا يعرفون على انهم جزء من الجيش العثمانى. اما «المسلمية» (المدير الذى يتولى شؤون الولاية بعد عزل الوالى ولحين تعيين وال جديد) فكانت طائفة من الترك المستوطنين فى اوربا وهم عناصر من العسكريين يقومون بمهام عسكرية عادية تشبه اعمال سلاح الفرسان، ولكل منهم قطعة ارض صغيرة يزرعونها بانفسهم، ومعفاة من الضرائب او اية مستحقات، ويقوم ثلثهم فقط أو ربعهم بالخدمة العسكرية على ان يتولى الباقيون زراعة أرض من يبقئ بالخدمة العسكرية، وفى كل الاحوال يحصلون جميعا من وراء ذلك على دخل يكفى معاشهم.

وبالاضافة إلى تلك القوات الاسلامية الاضافية، كان هناك بعض الذميين الذين يقومون بالمهام العسكرية العادية ولهم حقوق المسلمين نفسها، ولكنهم كانوا يعرفون باسماء مختلفة نسبة إلى الاماكن التى جاءوا منها مثل: الاوسكوك، والولاشيون، والمارتولويون وغير ذلك. وكانوا يحسبون

(١) القضاء وجمعه اقضية اصطلاح كان يستخدم للإشارة إلى وحدات ادارية او قانونية وغالبا ما كانا يستخدمان بمعنى واحد دون ان يكونا متطابقين بالضرورة.

(٢) راجع. حجب، وويون، المرجع السابق، ج-١، ص ٥٢، حاشية رقم ١.

كاعضاء فى طبقة العسكريين نظرا لما يقومون به من اعمال، غير ان اصلهم ليس واضحا بدرجة كافية .. فقد يكونون من نسل المسيحيين الذين حاربوا مع السلطان مراد الاول وبايزيد الاول كحلفاء او كاتباع، وكانوا جزء من المؤسسة العسكرية خلال المائتين وخمسين سنة الاولى من الحكم العثماني فى البلقان، على الرغم من انهم اصبحوا فيما بعد من العصابات وقطاعى الطرق. وتذكر الموسوعة الاسلامية انهم كانوا فرقة عسكرية منظمة تحت قيادة مراد الثانى فى بداية حكمه، وان من بين الـ ٣٥٠٠ عسكري فى حامية سليمان الاول التى تركها فى مدينة بودا عام ١٥٤١ كان الف منهم من المارتوليين^(١). وهذا يؤكد حقيقة ان عددهم كان يفوق الثمانين الفا فى عام ١٥٢٧^(٢). ولعل بعض التيماتر المسيحية تعود إلى تلك العناصر فى الاصل.

وتشير المصادر فى بعض الاحيان إلى ما يعرفون بالفونوكيين Voynks كقوات محاربة، وكذلك الولايشيين الذين يعيشون فى الصرب ومقدونيا والذين كانوا معفون من بعض الضرائب فى البداية فى مقابل دورهم فى حماية الحدود. ولقد فقد الولايشيون هؤلاء مركزهم السياسى عند نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، على الرغم من احتفاظهم بلهجتهم الرومانية فى وسط جيرانهم السلافيين وحتى العصر الحديث. اما الدريندتشيون Derbendci فكانوا حوالى الفان من عائلات الروم ايلى ويقومون بحراسة الممرات الجبلية والجسور والمواقع الاستراتيجية الاخرى فى مقابل اعفاء ضريبي، وكانوا يمثلون نقطة انتقال من المحاربين الحقيقيين إلى القوات الاضافية، إذ لم يكن يطلب منهم مغادرة مناطقهم وقت الحرب، ويمكن اعتبارهم نوعا من الميليشيات المحلية الخاصة التى يناط بها واجبات محددة.

والحقيقة أن كل من الفونوكيين وكذا الدوجانيشيون Dogancis عبارة عن قوات اضافة بالمعنى المحدد للكلمة. فكل منهما من البلغار مع بعض استثناءات قليلة. فالفونوكيون يربون الخيول للقصر السلطاني ولكبار القوم فى مقابل الحصول على قطعة ارض زراعية واعفاء ضريبي. اما الدوجانيشيون فكانوا يتمتعون بسميزات مشابهة، على الرغم من ان واجبهم كان تربية صقور الصيد. وكان كل منهما يعتبران جزء من الجيش ويحصلون على دخلهم من ارض تمنح لهم، ويتم استرضاء اصحابها الاصليون بشكل او بآخر بعد ان يرغموا على تركها. واخيرا هناك جماعة اليوروكيين Yuruks المسجلين كجنود. وهذه الجماعات الرحل من قبائل الترك (التركمان) لم تكن تحوز ارضا، ومع هذا كانت تدفع ضرائب مقابل حق استخدام المراعى.

اما «المعاشلية» فكانوا اصلا عناصر فى جيش عبيد لسلطان من المشاة الانكشارية والفرسان العبيد الذين يعرفون بالسباهية. وفى السنوات التالية كان افراد طاقم سلاح المهندسين ورجال المدفعية وغير ذلك يوخذون من الشباب الذين يجندون للخدمة فى الانكشارية. وكان كل المعاشلية هؤلاء من القايقول.

(1) Islam Ansiklopedisi (Istanbul: Milli Egitim Basmeyi 1945), 7: 34 - 42

(2) Halil Inalcik "L'Empire ottoman" Actes du premier Congres International des Etudes Balkaniques et Sud -Est Est Europeenes, 6 Vols. (Sofia, Bulgarian Academy of Sciences, 1969), 3:90.

أما «السيفية» فكانت هي المجموعة العسكرية الحقيقية رغم ان مجموعات الموظفين العثمانيين الثلاثة التي استعرضناها سابقا كان تعتبر طبقة عسكرية بمعايير حياة الاتراك القبلية الاولى. اما المجموعة الرابعة من مجموعات الموظفين العثمانيين فهي طبقة ارباب العلم ورجال الدين، ولا يعتبرون من الطبقات العسكرية بطبيعة الحال. ورجال هذه المجموعة من المسلمين كانوا احرار المولد غالبا على الرغم من ان بعض عائلات هذه الطبقة كانوا اصلا من العبيد.

ويعرف رجال العالم والدين «بالعلماء» ويرتبط نشاطهم بالامور المتعلقة بالثقافة والدين. وتبدو اهمية هذه الطبقة واضحة عندما نتذكر ان الاجراءات القانونية الشرعية جزء من المؤسسة الدينية. ويتعلم رجال العلم والدين في «المدارس» التي ترعاها الاوقاف وتصرف عليها. ولهذه المدارس بناؤها الوظيفي ومقامها، واشهرها سمعة ومكانة تلك التي اقيمت في عهد كل من السلطان محمد الثاني وسليمان الاول. ومكانة المدرسة ومقامها تحدد بدورها مكانة اساتذتها وتلاميذها عندما يتخرجون. ولكل مدرسة مدرس رسمي واحد رغم امكانية تعيين بعض المساعدين. وما يقوم المدرس بتدريسه من افكار ومناهج يؤثر في التلاميذ على المدى البعيد حيث يقومون بدورهم بنقل ما تعلموه وما تأثروا به لتلاميذ المدارس التي يتولون التدريس بها فيما بعد.

وعلى حين ان شعوب جنوب اوربا الشرقية لم يكونوا يعرفون من وظائف العلماء سوى وظيفة واحدة وهي القضاء، الا انه ينبغي ان نذكر ان عناصر هذه الطبقة كان لها نفوذا كبيرا في الادارة المركزية، وكثيرا ما كانت تتولى الوظائف القيادية، كما تولت بعد تدهور جهاز الدولة، مهام كانت في الاصل من اختصاص عناصر مجموعات الوظائف العثمانية الثلاثة التي سبقت الاشارة اليها. وكان قاضي عسكر يحتل اعلى مكانة في صفوف العلماء، ثم شاركة سلطاته مفتى استانبول بعد ان حصل على لقب شيخ الاسلام وتبوأ مكانته العليا تدريجيا. ويمكن القول بشكل عام ان شيخ الاسلام هو بمثابة اعلى سلطة شرعية في البلاد، وعلى الرغم من انه كان يعين في وظيفته بمعرفة السلطان والذي كان بإمكانه طرده متى شاء، الا ان فتاواه كانت من القوة والتأثير بحيث تستطيع تجريد اى شخص من مكانته ووضعه حتى ولو كان السلطان نفسه. ومع هذا فقد واصل قاضي عسكر الاشراف على النظام القضائي ومتابعته، واستمر المفتيون في اصدار مختلف الفتاوى التي تتعلق بالمشكلات التي تبرز في الاقاليم التابعة لهم. وعادة ما كانوا يصدرون فتاواهم في المسائل التي تحتاج إلى تفسير شرعي صحيح بناء على طلب السلطان او بناء على طلب قضاة الدوائر القضائية في الولايات. وللهيئة القضائية مراتب ومقامات داخلها، اعلاها مرتبة قاضي استانبول يليه بالتتابع كل من قاضي مكة، والمدينة، والقاهرة، وبورصة، وادرنه، ودمشق، والقدس، ثم زامير ثم حلب. على ان اهم شئ في حياة الناس باى اقليم او ولاية وجود قاضي ومحكمة لمباشرة امور الشريعة والقانون. ولأن القاضي الواحد قد يعجز عن التعامل مع كل القضايا في دائرته، فان الدائرة القضائية لواحدة كانت تقسم إلى عدة نواحي^(١) قضائية، حيث يعين القاضي نائبا له في كل ناحية.

١: للناحية عدة معاني، فقد تكون دائرة قضائية صغيرة، وقد تستخدم للإشارة إلى وحدة ادارية كقسم في مدينة على سبيل المثال.

بعد ان عرضنا صورة عامة لمجموعات الوظائف العثمانية الاربعة من حيث تنوع مهام ومسؤوليات وواجبات كل منها، نتكلم عن ادارة الاقاليم بشئ من التفصيل. كانت ادارة الاقاليم بشكل عام تدخل فى نطاق مسؤوليات الموظفين العثمانيين من مجموعة «السيفية» وجماعة العلماء، والمجموعتان اصلا كما سبقت الاشارة تنتمي الى طبقة الحكام (الملكية)، هذا فضلا عن ان دائرة عمل مجموعة الموظفين «القلمية» (الكتابة والنسخ) لم تكن تقتصر فقط على ما يتعلق بالادارة المركزية بالعاصمة، بل امتدت مسؤولياتهم وواجباتهم إلى متابعة الادارة فى الاقاليم.

والحق انه من الصعوبة بمكان رسم صورة واضحة لعدد الوظائف الادارية المختلفة بالاقاليم وحدود كل منها، لأنها كانت تتغير باستمرار من وقت لآخر .. فعدد المديرين انفسهم كان فى زيادة مستمرة، كما يتضح من اضطراب المسميات الوظيفية المختلفة والخاصة بالادارة العليا فى الاقاليم. ففى الحكومة المركزية فى استانبول على سبيل المثال رأينا ان هناك اثنان يحملان رتبة البيلريك، واحد لمنطقة روم ايللى والاخر للاناضول. وفى نهاية القرن الخامس عشر كان هناك حوالى اربعين موظفا رسميا يحملون هذه الرتبة (البيلربكوية) ويبدو ان ذلك كان من باب التشريف لان أعباء الادارة الاساسية ظلت منحصرة فى الاثنين الرئيسيين (للروم ايللى والاناضول). ومن ناحية اخرى كانت الاقسام الادارية التى تتبع حكام الاقاليم تعرف اصلا بالسنجقيات ثم اصبحت تعرف فيما بعد بالبيلربلكات، ثم بالايالات، وتتبعها اقسام فرعية تعرف بالسنجقيات او اللواءات. واكثر من هذا لم تكن كل الاقاليم تدار باسلوب واحد، فالاقاليم التى تخضع مباشرة للادارة المركزية حيث توجد التيمارات، كانت تمثل الغالبية، وفى الوقت نفسه كانت هناك اقاليم تدار بمعرفة قيادات تقليدية (زعماء قبائل او امراء تابعين) وتعرف بالاقاليم الورائية (حكومة السناجق)، ولا تلتزم الا بتقديم جزية سنوية تعرف «بالساليانه» لحكومة المركزية، فضلا عن ابداء الولاء التام والطاعة للسلطان.

وطبقا لما أورده خليل انالچيك، كان هناك فى مطلع الربع الاخير من القرن السادس عشر اربع حكومات سناجق فى اوربا فى كل من: مولداڤيا، وولاشيا، وترانسلفانيا، ودوبروفنيك Dubrovnik (راجوزا Ragusa ايضا)، وست تيمارات فى كل من: روميليا Rumelia (وهى اقليم حول ادرنه لاصلة له بالروم ايللى)، والبوسنة، وجزر البحر الاسود، وبوداء، وتميزفار Temesvar، وقبرص^(١)، واضيفت اليها فيما بعد سبعة اخرى فى كل من: ناجيفاراد Nagyvarad (فاراد، اوراديا ايضا)، وايجر Eger (إغرى ايضا) وكانيزشا Kanizsa، وسيلستر، والمورة، وكريت، وبلجراد، كما انضمت اليها لفترة قصيرة كل من يانوف Janow وكامينتش Kamnice (كامينتش بودلوسكى) فى بولندا. وهناك وحدات من هذا النوع كانت تظهر وتختفى حسب حالات الانفصال والتوحد فيما بينها. ومن الملاحظ ان كلا من كريت وناجيفاراد والمورة كانت تخلو من التيمارات. واستمرت هذه الوحدات الادارية فى الانكماش وما ان اشرف القرن الثامن عشر على الانتهاء، وصل عدد «الايالات» إلى خمس وعشرين ايالة تضم ٢٩٠ سنجقا.

(9) Inalcik, ottoman Empire, p. 106.

على ان معظم حكومات السناجق في اوربا كانت اما صغيرة نسبيا (مثل كريت وقبرص والمورة)،
واما خضعت للسيطرة العثمانية لفترة قصيرة مثل ناجيفاراد، ويانوف، وكامينتش البولنديتين، وبعضها
(مثل مولداڤيا، وولاشيا، وترانسلفانيا، وراجوزا) كانت مستقلة بدرجة تستحق ان ندرسها بشكل
منفصل.

كانت هذه الحكومات في الواقع بمثابة ممتلكات «هامشية» للسلطنة، وتتلخص كل التزاماتها
نجاه الدولة في تعيين القضاة بالمدن الكبرى، وادخال الحامية العثمانية للحصون الكبيرة، فضلا عن
اظهار الولاء ودفع الجزية. ولعل استقلال هذه الحكومات يفسر لماذا تأثر الارثوذكس بنظام الدفشمرة
بصفة رئيسية في الوقت الذي لم يمس الرومان (الكاثوليك) وقلة نسبية من اليونان.

على ان الاقاليم التي تضم الفرق السباهية التي تعيش على التيمارات كانت تمثل النواة
الحقيقية لهذا النظام. والادارة العليا لكل اقليم من تلك الاقاليم كانت رهن مشيئة الحاكم وارانته.
وكل حاكم يستبقى بعض الوظائف الصغرى في مقر حكومته للمقيمين، ويوزع سلطاته
وصلاحياته بين موظفي مجالس الاقاليم. ومن المعروف ان حكام الاقاليم كانوا اصلا وقبل كل
شئ من القيادات العسكرية ومسئولين عن السباهية من حيث الضبط والربط، ومواجهة الاشتباكات
الصغيرة مثل مناوشات الحدود، ومجيش القوات المطلوبة للحملات العسكرية الكبيرة، ومن حين
لاخر كانوا يرأسون المحاكم لفض بعض الخصومات والنزاعات طبقا للاعراف والعادات. وكان
موظفو حكومة الاقليم الرسميين يتولون امور المناطق المحيطة بعاصمة الاقليم مباشرة، وهذه المناطق
كانت تشكل وحدة فرعية للاقليم. اما الوحدات الفرعية الاخرى فكانت تحت حكم البكوات.
على ان كل هؤلاء الكبار كانوا ضباطا عسكريين بدرجة او باخرى، وسبقت الاشارة إلى مهامهم
الوظيفية.

وبينما كان عدد قليل من مجالس الاقاليم «مستوف الشكل» في تشكيله من حيث الوظائف
المطلوبة، كان معظم المجالس ان لم يكن كلها تضم معظم الوظائف الرسمية المهمة فقط على الاقل.
وتعكس اقسام الادارة المركزية في تشكيلها اسلوب «توازنات القوى» العثماني. وفي مقدمة هؤلاء
الموظفين يأتي «الدفترامين» (امين السجلات)، ومهمته حفظ سجلات الاقطاعات القائمة. وينتمي
هو ورئيسه الاعلى «المال دفتردارى» الى مجموعة الوظائف العثمانية الرئيسية التي سبقت الاشارة
اليها: اما «المال دفتردارى» هذا فكان بمثابة أمين خزانة الاقليم، وتنحصر مهمته في استلام الضرائب
ودفع مصروفات الاقليم وارسال الفائض إلى الخزانة المركزية للدولة. أما الدفتردار فيعين شأن حكام
الاقاليم بمعرفة الحكومة المركزية. وكل منهما يعمل مستقلا عن الاخر، ويراقب كل منهما نشاط
الاخر، ويكتب كل منهما عن الاخر التقرير اللازم. واخيرا يأتي نائب الجاوشية (كخيا جاوشلر)
ووظيفته لها اهمية في دائرة الاقليم من الناحية التشريعية من حيث تنفيذ الاوامر وبصفة خاصة تلك
المتعلقة بالعقوبات سواء كانت بناء على قرارات المحاكم او بناء على قرارات قضاة المحاكم المختلفة.
وهناك موظف آخر يقال له «المفتش» ويعمل تحت رئاسة «المال دفتردارى»، ويقوم بفرض الضرائب
على الملكيات العقارية في الاقليم، وادارة الاقطاعات او الضياع الخالية لصالح خزانة الاقليم، ورغم

انه فيما يبدو لم يكن عضوا بالمجلس المحلى .

وبالاضافة الى تمثيل مجموعات «السيفية» و«القلمية» فى ادارة كل اقليم من اقاليم الدولة، كانت جماعة العلماء ممثلة ايضا، وكانت تتكون من المعلمين وتلاميذهم فى مدارس الاقليم، ويحتلون مكانة فى الاقليم تفوق مكانة المفتيين والقضاة والنواب الذين يديرون امور المحاكم. وهذه المحاكم كانت مسؤولة عن تطبيق الشريعة والقوانين التى كانت تختلف اختلافا كبيرا من اقليم لآخر.

ولأن القوانين تستمد نصوصها من اعراف السلطان، فان صلاحيتها كانت تنتهى دائما بوفاة. وعلى الرغم من انه كان يتعين ان «تتمشى» تلك القوانين مع مبادئ الشريعة، الا انها كانت تستمد نصوصها بصفة رئيسية من القوانين والقواعد والضوابط المحلية التى كان معمول بها قبل الغزو العثمانى، والتى اكد السلطان العثمانى على احترامها. وهذه المسألة لها اهميتها فى هذا المقام، ذلك انه اذا لم يؤكد السلطان على ذلك فكان هذا معناه ان يعيش الناس دون قانون .. فعلى سبيل المثال وقبل اقرار السلطة العثمانية فى وسط الحجر بشكل تام، كان على القضاة المعينين ارغام المتخاصمين من اهل الذمة على السفر مسافات طويلة لرفع دعاواهم امام قضائهم التقليديين من ساداتهم الاقطاعيين الذين تركوا الاراضى التى احتلها العثمانيون، للحصول على الاحكام المناسبة، أما لأن «القوانين» التى شرعها العثمانيون لم تكن قد صدرت بعد، وإما لانها لم تكن معروفة لاولئك القضاة.

والحاصل ان كل سلطان كان يعلن فور تعيينه، احترامه لمجموعة القوانين التى كان معمول بها فى عهد اسلافه، ومن هنا كانت القوانين تصدر تباعا فى مجموعات كاملة لكل اقليم من اقاليم الدولة فيما عرف باسم «قانون نامه». وعلى هذا كانت تلك القوانين متعددة ومتنوعة ومعقدة من حيث التعامل القضائى، بل ان معظم القضاة امضوا حياتهم الوظيفية سواء فى الروم ايلي او فى الاناضول أو افريقية، فى دراسة تلك القوانين والتعرف عليها، فإذا ما باشروا واجباتهم بجدية وامانة، اصبحوا خبراء حقيقيين فى قوانين الاقليم. والحق ان اى قاض خبير من هذا النوع كان يعتبر كنزا ثميناً من كنوز الاقليم لصالح سكانه واهله.

٣ - الرعايا

وهم المسلمون والذميون على السواء الذين يمثلون الاغلبية العظمى للسكان، ويمثلون الدعامة الادارية للمؤسسة العثمانية. وحيثما كان الامر يعنى المسلمين فقط، فمن الملاحظ ان العثمانيين واجهوا نفس المشكلات والمآزق التى واجهها العرب او كان عليهم مواجهتها، عندما مدوا سلطانهم ونفوذهم فى مختلف الاصقاع خلال القرن الاول الهجرى : كان واجبههم الرئيسى هو نشر الدين الحق، وكان من المفترض فى الوقت نفسه ان المسلمين جميعا سواسية، ولكن إذا تمتع كل المسلمين بنفس الميزات التى كان الاوائل من الفاتحين يتمتعون بها، فلن يبقى هناك من ينتج

او من يدفع ضرائب. وعلى هذا فقد ورث العثمانيون الحل العربى لهذه المشكلة والذي يتمثل فى الخراج، وهى ضريبة الانتفاع بالارض التى كان على الجميع ان يدفعونها بصرف النظر عن العقيدة. غير ان المشكلة ظهرت فى شكل آخر جديد تمثل فى كيفية التعامل مع القبائل التركمانية، إذا انهم كمعسكريين (الغازى) كانوا من الكثرة بحيث كان يصعب استيعابهم بالوظائف العثمانية، وكرعايا كانوا غير منتجين عكس شأن بقية الرعايا. ولقد تم التغلب على هذه المشكلة -كما رأينا- بتحويل هؤلاء المسلمين إلى «مسلمية» و«يوروكلية» وبالتالي لم تفقد هذه العناصر مكانتها بل ظلت جزء من طبقة العسكريين، واصبحت منتجة بل وتدفع ضرائب محددة.

ومن المسائل المحيرة ان اغلب الخاضعين للدولة حتى زمن غزوات السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) كانوا من غير المسلمين، وان عددا كبيرا منهم وخاصة فى الاناضول ابدوا رغبتهم فى اعتناق الاسلام. ومع ان اعتناق الاسلام يعتبر غاية اهداف الدولة الاسلامية الحقة، الا انه قد نتج عن الاعتناق العام للخاضعين فوضى اقتصادية واضطراب فى الامور يتمثل فى انخفاض حصيلة جزية اهل الذمة على الاقل. ومن هنا فان التسامح الشديد الذى عامل به الحكام العثمانيون الاوائل رعاياهم من اهل الذمة -وهى سياسة غير عادية حتى بالنسبة لدولة اسلامية-، واحترامهم للقوانين المحلية للبلاد المفتوحة، وتطابق هذا مع ما جاء فى الشريعة من حيث معاملة «اهل الكتاب» .. كان كفيلا برضى «الرعايا» عن وضعهم الجديد فى الدولة كمنتجين يدفعون ضريبة وليس اهل ذمة يدفعون جزية. ولعل هذا يدخل مع اسباب اخرى فى تفسير سهولة قبول الفلاحين الاوربيين للحكم التركى، وسطوة نموذج التحول للاسلام فى تلك البلاد الذى سوف نناقشه فى الفصل التالى. على انه بعد ان تحقق للدولة اقلية اسلامية فى المناطق المفتوحة فى اعقاب انتصارات سليم الاول، اصبح العثمانيون اقل تسامحا وكرما فى تعاملهم مع اهل الذمة، واذ ذاك وضحت انماط التعامل، وكانت قوة العثمانيين كافية لاستمرار بقاء النظام الذى يفرضونه.

قبل عام ١٤٥٣ (سقوط القسطنطينية) كان رعايا الدولة ينتظمون فى مجموعات طائفية تبعا للملة (مللية) بصفة غير رسمية، ثم اصبح هذا التصنيف رسميا فى العام التالى. ومن الملاحظ ان هذا النوع من التنظيم الاجتماعى طبقا للعقيدة الدينية كانت له سوابقه .. ففى ادبيات العصر الاسلامى المبكر يشير تعبير «الملة» إلى المسلمين فقط تمييزا لهم عن «أهل الذمة». وهناك سوابق اخرى فى معاملة الاقليات، اذ كان الزعماء الدينيين للاقليات يتولون مراكز تشبه تلك التى تولاها زعماء «الملل» العثمانية فى ايران الساسانية، وان بعض مراسيم الامبراطور جوستينيان المتعلقة باليهود تتشابه مع نظام «الملة» العثمانى الاخير. ومن الطريف حقا ان العثمانيين استعملوا مصطلح الملة للاشارة إلى غير المسلمين اساسا، على الرغم من وجود اشارات من حين لآخر «الملة» المسلمين. ولكن ومنذ البداية (منذ عهد السلطان محمد الثانى وتشريعاته المتصلة بالموضوع فى ١٤٥٣) وبصفة رسمية، كان هناك ملتين فقط، وهما: الارثوذكس، والأرمن. وعلى الرغم من «عدم الاعتراف رسميا» بملة اليهود حتى ١٨٣٩، الا انه كان لليهود رئيس طائفه (ملة باشي) يقوم بوظائف خير قيام منذ عام ١٤٥٣.

اما فيما يتعلق بالمسلمين .. فليس هناك مايقال في هذا الشأن على الرغم من ان عددا كبيرا من سكان اوربا اعتنقوا الاسلام لأن علاقتهم مع السلطات اعتمدت إما على اعتبار انهم خاضعين للشرعية فيما يتعلق بسلوكهم وحياتهم الخاصة، واما على اساس الوظائف التي يباشرونها. وطالما كان هذان الاعتباران موضع تقدير فان النظام الشرعى كان قائما ولا يحتاج الحديث عن واجبات المسلمين الدينية الاساسية الا كلمات قليلة، فالشرعية تنظم ايضا الزواج والطلاق والميراث وكل ما يخص العلاقات داخل الاسرة والمجتمع بشكل عام. وطالما اتبع المسلمون تعاليم الشرع ويدفعون ماعليهم من اموال، تبقى ارواحهم مصونة وحياتهم محفوظة.

كان الارثوذكس اكبر الملل في الدولة العثمانية .. وليس هناك من شك في ان اسبابا كثيرة ومعقولة دفعت السلطان محمدالثاني لايجاد ملة مسيحية خاصة باتباع الكنيسة الشرقية، فبعد ان دخل القسطنطينية واسماها استانبول، اعتبر نفسه الخليفة الشرعى للامبراطور البيزنطى، واراد ان يحتفظ لنفسه بوضع الامبراطور وحقوقه فيما يتعلق بالكنيسة الارثوذكسية. ولقد ادرك تماما ان الاغلبية العظمى من رعاياه الخاضعين الجدد كانوا من الارثوذكس ، وان اغلب هؤلاء كانوا يعارضون اعادة توحيد الكنائس طبقا لقرارات مجمع فلورنسا فى ١٤٣٩ والتي كان الامبراطور يوحنا السابع قد وافق عليها، جاعلا منهم موالين محتملين لحاكم اغلب اعدائه من الروم الكاثوليك. واكثر من هذا فقد كان السلطان يعتزم اعادة بناء عاصمته الجديدة (استانبول) وليجعلها مركزا للتجارة والصناعة مرة اخرى. وتحقيقا لهذا الغرض كان يحتاج لمسيحيين موالين، ولم يكن يثق الا فى الارثوذكس فقط، ومن هنا كان يريد السماح لهم بتنظيم طائفى خاص بهم.

ولم يقتصر الامر على ايجاد «ملة» ارثوذكسية، بل ان السلطان محمد الثانى اختار الراهب جناديوس Gennadius اول رئيس لها (ملة باشى) وهو الخصم اللدود لمجمع فلورنسا، ورفعته الى كرسى البطريركية. وكان جناديوس (والمولود باسم جورج سكولاريوس G. Scholarios) لاهوتيا ضليعا ومتفقا مشهورا وذلك من خلال مواقفه المعارضة للروم الكاثوليك، وهى مواصفات أهله لأن يتبوأ اعلى مكانة رفيعة لكنيسة ارثوذكسية اعيد توحيدها. ولما كان اعادة توحيد الكنيسة هذا قد اوجد مشكلات خطيرة فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر بصفة خاصة، فيتعين الاشارة فى ايجاز شديد لهذه المسألة قبل الحديث عن حقوق ملة الارثوذكس.

عندما اوجد السلطان محمد الثانى طائفة الارثوذكس، كانت هناك اسقفيتان تقومان بعمل البطريركية فى كل من اوهريد ohrid (اوخريد ochrid)، وفى بيك pek (ايك Ipek). وكانت هناك اسقفية ثالثة فى تورنوفو Turnovo ظلت قائمة حتى ١٣٩٤ عندما خضعت المدينة للعثمانيين واعترف اسقفها بسيادة بطريرك القسطنطينية.^(١) وكانت هذه الاسقفيات الثلاثة ترأس الكنائس الارثوذكسية وتستخدم اللغة السلافية فى اقامة الطقوس والشعائر الدينية بها وليس اليونانية. ومن

(١) تأسست اول بطريركية بلغارية فى اوهريد فى عام ٨٩٣ فى عهد سيمون simeon (٨٩٣ - ٩٢٧) وكان القديس كلمنت اول من حمل لقب البطريرك. ولقد اتع سيمون الذى كان اول حاكم بلغارى يلقب نفسه قيصر، والنموذج البيزنطى فى الادارة معتادا ان كل امبراطور يجب ان يكون له بطريرك التابع له. وفى عام ١٠١٩ اجبر البيزنطيون البلغاريين على

الملاحظ ان هذه الاسقفيات دافعت عن الشخصية لقومية للبلغاريين والصربيين ضد القسطنطينية، على الرغم من عدم وجود فروق عقائدية لاهوتية بينهما وبين القسطنطينية. ولما كان السلطان محمد الثاني رجلا مسلما حسن الاسلام ولا يعترف الا بالفروق الدينية المذهبية (اللاهوتية)، فقد كان من الطبيعي ان يدخل الارثوذكس جميعا في «طائفة» واحدة تحت زعامة بطريركية واحدة. اما بالنسبة للتجمعات المسيحية الاخرى في البلقان فقد كان من شأن تطبيق نظام الملة هناك ان يخلق مشكلات حقيقية.

لقد قام السلطان محمد الثاني بتنصيب البطريرك الجديد بنفسه متبعا في ذلك نسق حفلات التنصيب التي ابتدعها الاباطرة، والابداح الوحيد المهم الذي اضافهُ السلطان في هذا الشأن، انه اعطى جنادبوس براءة المنصب، وهي بمثابة امر سلطاني يؤكد توليه المقام الجديد. والحق ان هذه البراءة كانت شيئا عثمانيا خالصا ولكن في السنوات التالية اصبحت هذه البراءات تعرض للبيع، وبالتالي اصبح في امكان من يدفع اكثر ان يتولى كرسي البطريركية (١). وهكذا وبمقتضى «براءة» السلطان محمد الثاني اصبح جنادبوس رئيس طائفة ملة الروم (الارثوذكس) برتبة باشوية رفيعة بثلاث شارات من رموز الامبراطورية العثمانية، والسيد غير المنازع للكنيسة الموحدة، والمسئول الرسمي عن سلوك وولاء كافة الارثوذكس الخاضعين للسلطان.

وبجانب كل السلطات الكنسية والقضائية التي كان البطريرك يتمتع بها، كانت له سلطات شرعية اخرى تتعلق بمسائل الزواج والطلاق والميراث وفقا للاصول الكنسية، فضلا عن سلطات امنية اخرى تشمل وجود سجن بطريركي خاص في استانبول. ولقد سمح للكنيسة - وهذا

= الاعتراف بسيادتهم وبالتالي تقلصت مكانة اهريد من بطريركية إلى ارشيدوقية. وابتداء من عام ١٢٢٣ وحتى ١٧٦٧ بدأ اساقفة اهريد يطلقون على اسقفيتهم الارشيدوقية الرئاسية لجستينيان برما، وكانوا يعتبرون انفسهم بطاركة حتى الحقبهم السلطان محمد الثاني باستانبول في ١٥٣٤. كانت اهريد اذن اعظم بطريركية «قومية» للبلغاريين الذين كانت لهم واحدة اخرى في برسلاف لفترة قصيرة بين عامي ٩٧١ - ٩٧٢، وواحدة ثالثة اكثر اهمية في تورنوفو بين عامي ١٢٣٤ - ١٣٩٤. أما بيك فقد اصبحت رئاسة اسقفية صربية في ١٢١٩، ثم اعلنت بطريركية في عهد قيصر الصرب ستيفان دوشان (١٣٣١ - ١٣٣٥) في عام ١٣٤٦. غير ان القسطنطينية لم تعترف بهذا الوضع الجديد ومن ثم اعترف خوروي بيك (القس) في ١٣٦٨ بسيادة القسطنطينية عليه. وعندما نهضت الصرب مرة اخرى تحت زعامة لازار الأول (١٣٧١ - ١٣٨٩) اعرفت القسطنطينية بيك ككرسي بطريركي في ١٣٧٥، ثم ما لبثت ان الغيت بعد عشر سنوات من الحاقها بالقسطنطينية في ١٤٥٣. ولكن في عام ١٥٥٧ اعلنت من جديد كارشيدوقية وظلت كذلك حتى ١٧٥٥ حيث تقلصت إلى اسقفية إلى ان الغيت تماما في ١٧٦٦. بالنسبة لتاريخ البطريركيات المختلفة انظر: N.J. Pantazopoulos, church and Law

in The Balkan peninsula during the Ottoman Rule (Thessalonika: Institute for Balkan Studies, 1967) pp. 26 - 34

(١) تولى كرسي البطريركية ابتداء من تعيين جنادبوس وحتى نهاية الامبراطورية العثمانية ١٥٩ بطريركا وبعضهم تولى الكرسي اكثر من مرة. ولقد توفي ٢١ مهم وهم في المنصب، واعدم ستة بامر السلاطين او بغضب الجماهير، وعزل ١٠٥ منهم مما سمح ببيع براءات جديدة لتولية الكرسي. انظر هذه الاعداد في:

Timothy Ware, The Orthodox Church (Baltimore: pengun Books, 1963), p. 99, B. J. Kidd, The Churches of Eastern Christendom (London, The Faith Press, 1927), p. 304.

طبيعي - بتحصيل العشور الكنسية العادية، بل كانت مشغولة عن تقدير ضرائب الدولة على رعاياها وجمعها، وغالبا ما كانت تستشار في هذه المسألة. واخيرا كان للمحاكم الكنسية الحق في نظر القضايا التي يكون اطرافها مسيحيون، والفصل فيها دون الرجوع للقاضي العثماني، بشرط ان يطلب ذلك المتخاصمون انفسهم طواعية واختيارا.

وعلى هذا فقد كانت المناصب والوظائف الكنسية بدءا من البطريرك و انتهاء بقس أصغر ابروشية، مزدحمة بعدد كبير من الوظائف الادارية والشرعية، بالاضافة إلى الوظائف الكنسية الاكليروسية التقليدية. وفي هذا الاطار اصبحت الكنيسة هي المؤسسة «القومية» الوحيدة التي تعبر عن الشخصية الارثوذكسية. على ان عدم شعور المسيحيين الارثوذكس بانهم اعضاء في «قومية» او «امة» واحدة رغم ان العثمانيين اعتبروهم اعضاء «ملة» واحدة، جعل من الحاق الكنائس ذات الشعائر السلافية للبطريرك المسكوني، حركة ذات مغزى اوجدت مصاعب جملة للبطريرك وللحكومة المركزية في استانبول ولشعب البلقان وخاصة في القرن الثامن عشر.

على ان الصلاحيات التي منحها السلطان محمد الثاني للكنيسة تيسيرا للممارسات العملية، جعلت منها في النهاية دولة داخل الدولة .. فمرور الوقت بدأ آباء الكنيسة يعتقدون انهم حكام المسيحيين وحمايتهم من الناحية الفعلية de facto، وان الكنيسة هي الهيئة الوحيدة التي تتعامل مع السلطة المركزية فيما يتعلق بشؤون المسيحيين. ولقد أجادت الكنيسة القيام بهذين الامرين بمهارة فائقة، واصبحت حياة مسيحيي البلقان تعتمد بشكل ملحوظ على كفاءة السلطات الاكليروسية بنفس القدر الذي تعتمد فيه على كفاءة الجهاز الاداري العثماني. ولعل هذا يفسر الجدل الذي دار على نطاق واسع بين مواطني أوهريد وبيك فيما يتعلق بالمجال الاكليروسي لكل من الاسقفيتين. وهكذا كان على الكنيسة التي انقذت دولته من الدمار ان تمثل المؤسسة التي تقام عليها من جديد الامة - الدولة التي تم احيائها.

وقبل ان ننهي حديثنا عن طائفة الارثوذكس ينبغي الاشارة في ايجاز إلى جزيرة قبرص رغم انها لم تقع تحت سيطرة العثمانيين حتى ١٥٧٠ - ١٥٧٣، ذلك انه بعد غزوها تم ادخال اهلها في طائفة الارثوذكس، ووضعت فيها حامية تركية لضبط توازن الموقف العرقي - الاكليروسي داخل الجزيرة. وإلى هذه الفترة تعود اصول مشكلات قبرص في العصر الحديث.

كانت لقبرص رئاسة اسقفية منذ مجمع افسوس في عام ٤٣١ تتكون من عشرين اسقفية تحت قيادة أرشيدوقية واحدة. وبعد الانشقاق الكبير للكنيسة المسيحية بشكل عام، كانت الجزيرة يونانية ارثوذكسية متشددة. وخلال الحملة الصليبية الثالثة استولى عليها الملك ريتشارد الاول ملك إنجلترا في ١١٩١ وباعها إلى جيوي دى لوزينان Guy de Lusignan وظل خلفاؤه يحكمونها حتى عام ١٤٧٥ حين اصبحت ضمن ممتلكات البندقية. وهكذا خضعت قبرص للكاثوليك الرومان نحو اربعة قرون من الزمان قبل الغزو العثماني لها، وخلال هذه الفترة الطويلة كان كرسى الارشيدوقية كاثوليكية رومانيا، وكذلك ستة عشر اسقفية من اسقفياتها العشرين، كما اصبحت بعض القبارصة

كاثوليكيين وان ظلت الاغلبية ارثوذكسية. وعندما جاء العثمانيون للجزيرة غادرها القساوسة الكاثوليك ومعهم عدد من رعاياهم، واستوطنها الاتراك الذين كانوا قد جاءوا اليها فى شكل قوات غازية، واصبحت البقية الباقية ضمن ملة الارثوذكس. وقد اعيد بناء الارشيدوقية رغم ان اسقفياتها ظلت اربعة فقط كما كانت قبلا. ومن الطريف فى هذا المقام ان يكون الغزو التركى للجزيرة بمثابة «استعادة» لقبصر حظيرة الارثوذكسية وذلك من خلال نظام «الملل» العثمانى الذى جعل ذلك ممكنا.

وكان لرئيسى الملتين الاخرتين وهما حاخام باشى استانبول لليهود، والبطريك الجريجوريانى فى استانبول، الحقوق والصلاحيات والمسئوليات نفسها التى يتمتع بها بطريك الارثوذكس مع اختلاف فى بعض التنظيمات والادارات بينها وبين «ملة الروم» كما سوف يأتى ذكره.

وعلى الرغم من ان العثمانيين لم يعترفوا بملة اليهود رسميا حتى القرن التاسع عشر كما سبقت الاشارة، الا ان السلطان محمد الثانى عين موسى قيزالى أول حاخام باشى للطائفة فى عام ١٤٥٣، واعلن فى الوقت نفسه السماح لليهود بالبقاء فى استانبول وأعطى قيزالى اسبقية بروتوكولية على البطريك. وفى عهد سليمان الاول كانت الطائفة اليهودية اول من منحت حق تعيين كخيا لها (وكيل) ليمثلها امام الحكومة المركزية. وإذا كان موسى قيزالى احتاج إلى «براءة» السلطان لممارسة مهامه كاول حاخام باشى، فان خلفاءه لم يكونوا بحاجة إلى ذلك اذ كان اختيارهم يتم بمعرفة ابناء الطائفة انفسهم.

وتمه اسباب كثيرة كانت وراء تمتع اليهود بهذه المعاملة الخاصة التى كانت تعزلهم عن الاخرين، فبينما كان السلطان محمد الثانى يعتبر الارثوذكس كقوة كامنة اكثر الطوائف المسيحية ولاء له، الا انه كان فى الوقت نفسه على يقين من وفاء اليهود ودقتهم. ولم يحدث ان عومل يهود اوربا القرن الخامس عشر فى اى دولة بافضل مما عاملتهم الدولة العثمانية. وكانوا منذ ايام السلطان مراد الثانى يعملون فى خدمة السلاطين وبصفة خاصة كاطباء للقصر، واكثر من هذا كانوا يتقنون مهارات كثيرة غاية فى الاهمية، كالمعرفة بلغات كثيرة كان العثمانيون بحاجة اليها بجانب التركية والعربية والفارسية. ولايغرب عن البال فى هذا المقام ان اليهود كانوا أصل «اهل الكتاب».

كان اليهود فى نظر الحكومة العثمانية شأن الارثوذكس، ملة واحدة، وكانوا جبهة واحده متحدة تجاه المسلمين والشعوب الاخرى من غير اليهود. كما كانوا فى الوقت نفسه متماسكين فيما بينهم داخل مجتمعهم. وتمه فرق واضح بين يهود استانبول الذين كانوا يعيشون فيها عندما دخلها العثمانيون وبين اولئك الذين هاجروا اليها باعداد كبيرة اعتمادا على تسامح العثمانيين، وفرارا من الاضطهاد الذى لاحقهم فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حيثما كانوا يعيشون. على ان اهل المجموعتين معا (المقيمون والوافدون) كانوا ينقسمون إلى مجموعتين .. فاليهود العثمانيون «الاصليون» كانوا اما من اتباع التلمود (اليهود الريانيون)، واما من القرائين. وكانت جماعة القرائين قد تكونت فى بغداد خلال الحكم العباسى، وان كانت قد ظهرت اول ما ظهرت فى فلسطين ثم

انتشرت في كل بلاد الخلافة الاسلامية، ووصلت اعداد قليلة منهم إلى اوربا خلال حكم البيزنطيين، وهناك عرف اتباع التلمود من الناطقين باليونانية بالرومان Romanios او الجريجيون Gregos وكانوا على كل حال يمثلون اغلبية.

اما المهاجرون الوافدون فكانوا اما سفارديم او اشكنازي تبعاً للبلد التي وفدوا منها وللغتهم الام. وكان اليهود السفارديم اكثر المجموعتين اهمية لسببين رئيسيين: اولهما انهم كانوا اكثر اليهود المستوطنين عدداً في استانبول والبلقان، وثانيهما انهم اصبحوا اكثر المجموعات نفوذاً وهيمنة على الحياة الاجتماعية لليهود، وعلى اختيار الحاخام باشى طوال قرون كثيرة. ولم يقتصر وجودهم النشط والمؤثر على استانبول فقط حيث اصبحوا افضل صناع الاسلحة المعروفين، فضلاً عن ممارساتهم لوظائف حيوية في الحكومة المركزية، بل ان مدن سالونيك، وادرنه، ونيقوبوليس، وصوفيا، وسراييفو إلى حد ما، اصبحت مراكز مهمة للسفارديم في البلقان حيث حدثت تطورات هامة للثقافة اليهودية خلال الحكم لعثماني.

ومن الملاحظ ان بعض المهاجرين من الاشكنازي قد استقروا في اوربا العثمانية واستانبول، وانتقل اغلبهم إلى فلسطين، وكانوا قد قدموا اصلاً من المانيا والنمسا والمجر والامارات الرومانية. وفي فلسطين حيث الاراضى المقدسة مالبتوا ان اختلطوا مع اليهود الريانيين واندمجوا معهم واصبحوا يمثلون يهود فلسطين التقليديين.

ولم يرتبط اليهود ابدا بحرفة الزراعة في حياتهم، ولم تكن الضرائب المفروضة عليهم وسائر الالتزامات الاخرى اقل من تلك المفروضة على سائر الرعايا، ذلك ان الضرائب كانت تتعلق بالوظائف والمهن التي يمارسونها. وتأكيداً لوحدة هذه «الملة» قام سليم الاول بالغاء منصب زعيم طائفة اليهود في منطقة الشرق عندما دخل القاهرة في ١٥١٧، واستبدله بنظام رئيس الملة الجديد (حاخام باشى). ولأن هناك تطابقاً بين الديانة و«القومية» او «الجنسية» عند اليهود في مطلع العصر الحديث، كان نظام «الملة» هذا الذى وضعه العثمانيون ملائماً لهم تماماً من هذه الناحية، وبمقتضاه استطاعوا ان يعيشوا بين ظهرانى الدولة طوال قرون كثيرة عيشة افضل من اى مكان آخر.

وإذا كانت «الملة» اليهودية ظاهرة او حالة اثبتت التوافق بين النظرية والتطبيق، فان «الملة» الارمنية التي كان ينقصها التجانس العرقى والدينى كانت مثالا ظاهراً لاختلاف التطبيق عن النظرية. وعلى الرغم من ان بعض الارمن احتفظوا بصلاتهم مع روما، فان الاغلبية العظمى منهم كانوا ينتمون إلى الكنيسة المونوفيزية (الجامعة الرسولية) والتي كان جريجورى المضىء قد اسسها في القرن الثالث. وفي الوقت الذى ساد فيه نفوذ كنيسة قوية خارج حدود المناطق الارمنية، فقدت بعض نفوذها بظهور العثمانيين. والحق ان معاقل هذه الكنيسة كانت خارج مجال نفوذ السلطان محمد الثانى فى ارمينيا الكبرى والصغرى، اذ كان مقر رأسها فى اريفان كاثوليكوس Catholicos خارج الاراضى العثمانية. وهذا يعنى ان شعوباً اخرى كثيرة داخل الامبراطورية العثمانية لم تنظم داخل اى ملة من الملل التي اوجدها السلطان محمد الثانى، إذ لم يقتصر الامر على شعب الارمن فقط،

بل شمل ذلك اسقف الارمن ذاته الذى كان يقيم فى بروسه (بورصه)، فقد كان اكبر زعيم دينى لم ينطوى تحت لواء اى من الملتين الاخرتين فى الاراضى العثمانية. ولقد عين السلطان هذا الاسقف (هوراغيم Horaghim) بطريركا للارمن فى استانبول وتم الاعتراف بملته فى ١٤٦١.

وكان ملّة الارمن وضعاً خاصاً، لأن زعيمها كان يرأس كل رعايا السلطان غير المنتظمين فى اى ملّة من الملل الاخرى، وفى الوقت نفسه كان يتمتع بالحقوق والمزايا والتشريعات نفسها التى لسائر رؤساء الطوائف الاخرى. وبينما لم يكن مسؤولاً عن العدد القليل من الرومان الكاثوليك الذين كانوا يعتبرون اعضاء فى ملّة الارثوذكس، نراه مسؤولاً عن الجماعات المنشقة والهراطقة الذين كانوا يعيشون فى الامبراطورية العثمانية، وكان اكثرهم اهمية فى اوربا البوليشيون Paulicians والبيوجوميليون Bogomils وان كانت اعدادهم قد تناقضت وتقلصت اهميتهم بوصول السلطان محمد الثانى للحكم، فيما عدا مجموعة صغيرة منها وهم البولونيكين pauliniki انتعشوا قرب صوفيا فى العصر الحديث. ومن الملاحظ انه من بين جماعات الهراطقة الاوربيين هؤلاء من اعتنق الاسلام فى اعداد كبيرة.

٤ - مشكلة الارتداد عن العقائد^(١)

كان ممنوعاً على اى مسلم بطبيعة الحال ان يرتد عن الاسلام اذ كان الموت عقوبة المرتد. والحق ان العثمانيين لم يكونوا يباليون على الاطلاق إذا ما ارتد اى ذمى عن عقيدته واعتنق اخرى غير الاسلام، اذ فى هذه الحالة لن يتغير وضعه داخل الامبراطورية العثمانية فى نطاق اهل الذمة. لقد كان اعتناق الاسلام داخل الامبراطورية قضية مثار جدال شديد .. فعندما اقام العثمانيون اول قاعدة دائمة لهم فى اوربا فى منتصف القرن الرابع عشر، كانت هناك مستوطنة اسلامية صغيرة فى القسطنطينية وعدد آخر قليل مبعثر هنا وهناك داخل البلقان، واستمر عددهم فى التزايد والتكاثر حتى لقد بلغ فى مطلع سبعينات القرن العشرين حوالى سبعة ملايين مسلماً يعيشون فى تركيا الاوربية او فى اجزاء من اوربا الشرقية التى كانت يوماً ما تحت الحكم العثمانى، ويعيش منهم فى تركيا حوالى مليونين ونصف، ومثلهم فى يوجوسلافيا (السابقة)، وحوالى مليون فى البانيا، و٥٠٠ فى بلغاريا، والباقيون فى اليونان او فى رومانيا (علماً بأنه لا توجد احصاءات رسمية).

ومن الناحية الاثنية فان مسلمى البلقان كما هو معروف كانوا اما اترك الاصل، واما سلافيين

(١) هذه النقطة نقلت عن: speros Vryonis, Jr., 'Religious changes and patterns: in the Balkans, 14th - 16th centuries' in the book: Henrik Birnbaum and Speros vryonis, jr., eds., Aspects of the Balkans continuity and change (The Hague - paris ton, 1972).
Mon وكذلك على كتاب عمر لطفى برقان:
Omer Lutfi Barkan, essai sus les donnes statistiques des registres de recensement dans L'empire Ottoman aux XVe Siecle", Journal of the Economic and Social History of the Orient (1958): 7 - 36

او يونانيين او البانيين .. الخ. اما الاتراك فقد وفدوا كمستوطنين، واما العناصر الاخرى فقد اعتنقت الاسلام. والحق ان هذا التغير المبكر والمهم والذي حدث للتكوين الاثنى والدينى لسكان البلقان، يحتاج إلى بعض الشرح والتفسير.

سبقت الاشارة إلى مشكلة التركمان ومحاولة السلطات العثمانية توطينهم. وقد كان تدفقهم إلى الاراضى العثمانية قد بلغ مدهاء فى القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر. ولقد استقر هؤلاء الرعاة الرحل فى الاجزاء الشرقية من الامبراطورية العثمانية شأن الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الامريكية فيما بعد. وفى خلال القرن الرابع عشر نقل العثمانيون عددا منهم إلى اوربا، وخاصة فى الاراضى التى تعرف الآن بتركيا الاوربية، حيث عاشوا كعسكر سوارى (مسلمية)، او ظلوا يحيون حياتهم القبلية ولمدة طويلة، كما كانوا يعرفون باسم اليوروكيون^(*) وكما نعلم فان معظم اولئك الذين جئ بهم من اسيا الصغرى فى اعقاب الاستيطان التركى الكبير قد استقروا بطول الطرق العسكرية الكبيرة، او على نقاط الحصون والقلاع، او فى المدن الكبرى. اما فى الريف فكان المسلمون يمتثلون فقط فى فرق السباهية، وفى قلة شغلت بعض الوظائف الادارية، وما زال احفادهم يعيشون فى المناطق المسيحية القومية الان.

وفى ١٤٧٨ اجرت السلطات العثمانية احصاء لسكان استانبول، واحصاء لسكان الاقاليم الاخرى خلال ١٥٢٠ - ١٥٣٠ على اساس عدد البيوت كوحدة ضريبية، وليس على اساس الافراد، باعتبار ان كل من المسلمين واهل الذمة يدفعون ضرائب مختلفة، وبالتالي يمكن اجراء احصاء من هذا النوع. وقد قام المؤرخ التركى النابه عمر لطفى بركان بتحليل تلك الاحصاءات ونشرها حيث أكدت التفاصيل التى اوردها الصورة العامة لسكان الامبراطورية العثمانية .. ففى اوربا بلغت نسبة بيوت المسلمين ١٨,٨ ٪ (١٩٤٩٥٨) من اجمالى الوحدات السكنية، وبلغت نسبة الوحدات المسيحية ٨٠,٧ ٪ (٨٣٢٧٠٧)، والوحدات اليهودية ٠,٥ ٪ (٤١٣٤). وكان ٨٥ ٪ من وحدات المسلمين ويمثلون الغالبية العظمى، يتركزون فى عشرة أفضية من اجمالى افضية اوربا العثمانية انذاك وعددها ٢٨ قضاء، واغلب هؤلاء كانوا يقطنون فى اربعة أفضية وهى: قضاء فيزيه Vize (ويقع حاليا فى تركيا الاوربية)، وقضاء سيلسترا Silistra، وشيرمين Chirmen (وهى فى بلغاريا الان)، وقضاء جالبولى. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مناطق اخرى خارج شرق البلقان أهلة بالمسلمين وذلك فى كل من مقدونيا والبوسنة - الهرسك وتساليا، وهى اقاليم تعانى من عدة مشكلات خاصة حاليا.

ر ا اهمية بمكان الاشارة إلى انهم فى هذه الاقاليم التى بصم عددا كبيرا جدا من المسلمين، نجد أنهم يتركزون بشدة فى المدن الكبرى. ولعل الاحصاءات التى قدمها المؤرخ بركان

(*) اليوروكيون طائفة كانت تقوم بالخدمة فى الخطوط الحلفية فى الاناضول زمن الحرب، ثم انتقلت إلى الروم ايلى وكانت تتشكل كل وحدة من ٣٠ فرد ويوزع على افرادها التبحار مقابل خدماتهم العسكرية (المترجم).

والتي حللها الباحث فريونيز عن سكان اثنا عشر مدينة من المدن الكبرى، لها دلالاتها في هذا المقام، فهي تؤكد الطبيعة الحضرية للسكان المسلمين (انظر الجدول رقم ١). اما توطين البدو ومنح الاقطاعات، فكان يتم في المناطق الريفية، ومع هذا فان المدن كانت مقر الادارات المركزية للاقليم ومركز طوائف الحرف المرتبطة براوطة الآخيين، كما كانت المدن ايضا همزة الوصل بين الطرق الرئيسية التي حرص العثمانيون على ان تكون اداراتها في ايدى آمنه مواليه

جدول رقم (١)

للشرائح الدينية للسكان في المدن الاوربية الكبرى

(اعتمادا على احصاء ١٥٢٠ - ١٥٣٠)

المدينة	المسلمون %	المسيحيون %	اليهود %	نسبة المسلمين في القضاء الذي تقع فيه المدينة حسب الامكانات
استانبول (١٤٧٨)	٥٨,٢	٣١,٦	١٠,٢	-
ادرنه	٨٢,١	١٢,٨	٥,١	٪٢٦
تسالونيك	٢٥,٢	٢٠,٢	٥٤,٣	-
سرايفو	١٠٠	-	-	٪٤٦
لاريسا	٩٠,٢	٩,٨	-	٪١٧,٥
سيريز Serres	٦١,٣	٣٢,٨	٥,٩	-
مونستير	٧٥,٤	٢٠,٢	٤,٨	٪١٠,٥
سكوبيه skopje	٧٤,٨	٢٣,٧	١,٥	٪١٠,٥
صوفيا	٦٦,٤	٢٣,٦	-	٪٦
اينا	,٥	٩٩,٥	-	-
نيقوبوليس	٣٧,٧	٦٢,٣	-	-
تريكال	٣٦,٣	٤١,٥	٢٢,٢	٪١٧,٥

ومن الملاحظ ان ١٩٪ فقط من الوحدات الاسلامية (البيوت حسب الاحصاء) المخصصة آنذاك والمشار اليها، كان اهلها من البدو الرحل والباقي عائلات مقيمة في المدن او في الريف. ويؤكد فريونيز ان حوالي ٣٠٪ من الوحدات الاسلامية التي اضيفت لاحصاء ١٥٢٠ - ١٥٣٠ ترجع للهجرات التركية فضلا عن ان حوالي ٩٦٥٠٠ وحدة منها كان اسلامها نتيجة للارتداد عن العقائد غير الاسلامية.^(١) وهناك أمثلة كثيرة على ان اعتناق اهالي تلك المناطق للإسلام، تم بالاكراه والضغط في الفترة التي كانت فيها الامبراطورية العثمانية أكثر رجعية عما كانت عليه في القرون الاولى واقل تسامحا، ان لم تكن أكثر تعصبا. ولعل اوضح مثال على ذلك الاكراه ، ماحدث في اقليم جبل رودوب Rhodope. حوالي عام ١٦٦٦، ففي الفترة التي سبقت الاحصاء السكاني لمشار اليه، يمكن القول انه لم يكره على اعتناق الاسلام من اهالي البلاد الا عناصر الدفشمة. ولما كان هؤلاء قد نقلوا من بلادهم الاصلية، فان اكراههم على اعتناق الاسلام لم يؤثر على التكوين الديني لبلدان البلقان ذاتها كما جاء في الجدول الاحصائي. كما ان تحول الالبان إلى الاسلام كان ظاهرة القرن السابع عشر، ومع هذا كان اغلب اصحاب التيمارات مسيحيون، الامر الذي يدعونا إلى القول بان اعتناق الاسلام في تلك الفترة المبكرة من عمر الامبراطورية العثمانية كان «طوعا» وليس كرها.

ولقد ذكر فريونيز عدة اسباب رئيسية لاعتناق اهل تلك المناطق للإسلام في تلك الفترة المبكرة، من ذلك المميزات الاقتصادية والقانونية التي يتمتع بها المسلمون، وتأثير المدارس والمؤسسات الاسلامية ونفوذها، والخوف، والتكيف مع العقائد الشعبية. وهذا صحيح، الا انني وباحثون آخرون يعتقدون ان السبب الرابع هو أكثر الاسباب اهمية، الا وهو الاسلام الشعبي folk - Islam. ولقد سبقت الإشارة إلى ذلك والى دور روابط الأخيين في الفصل الاول. ولعل الدور الذي لعبه الشيخ بذر الدين في عهد السلطان موسى كزغيم لثورة شعبية فيما بعد عام ١٤١٦، يشير الى وجود معتقدات مشابهة بين أغلبية اتباعه من مسيحيي البلقان. وفي هذا الخصوص تجب الإشارة الى ان هناك دراسات انثروبولوجية وسيكولوجية أجريت على العناصر اليونانية والسلافية والارثوذكسية في البلقان نوقشت كظاهرة متزامنة في اطار العلاقة أو الاتصال بوجود الاسلام هناك حيث تبين ان نقص التربية الدينية الجادة، وسوء فهم الاصول العقيدية الناتج عن ذلك، واحياء الطقوس الوثنية فيما يتعلق بالخصوبة والصحة.. الخ، وذلك في بيئة لم تتغير بقبول مسيحية كديانة، ورغبة رجال الدين في مجاملة رعاياهم، والفروق الكبيرة بين كبار رجال الدين وصغارهم، وعدم التوافق مع السلطات المرتبطة ارتباطا وثيقا بالكنيسة «الرسمية». كل هذا ادى الى ان كثيرا من الطقوس والعادات والمعتقدات الوثنية ظل قائما ومن ثم اوجد ثقافة وديانة شعبية، ماتزال بقاياها قائمة، ويمكن ملاحظتها في عادات شعب البلقان اليوم.

والحق ان كثيرا من تلك الطقوس والمعتقدات كانت منتشرة آنذاك، فالناس في كل مكان يتشوقون إلى المطر مثلا في وقت نزوله. كل عام ويربطون بينه وبين الخصوبة وبين عوامل اخرى

(1) Speros Vryonis, Jr., "Religious changes", pp. 165 - 66.

تتعلق بحياة المجتمع الريفي البدائية، وكانوا يؤمنون دائما بأن كل شيء يكون صحيحا عن طريق الارواح والشياطين .. الخ الذين اذا تم التعامل معهم تعاملنا صحيحا سوف ينمكس اثره في سلوك يرضى اولئك الذين يعولون على ارادتهم الطيبة. فاذا ما وضعنا في الاعتبار ان التقاليد المتصلة والمرتبطة بتلك المعتقدات الاساسية والخاوف والعادات، كانت توجد فقط في الجزء التركي او الاسلامي، واذا ما تذكرنا ان هذا الجزء قد تعلم اشياء من يوناني آسيا الصغرى خلال قرون طويلة من حياة الحدود المشتركة بين الطرفين، ادركنا ان وجود ملامح معينة متشابهة للديانة الشعبية كما كان المسلمون والمسيحيون يمارسونها، لم يكن شيئا مفاجئا، بل انه شيئا كان متصلا بهذه الحياة والتقاليد المشتركة.

وبطبيعة الحال فالمسيحيون لهم طقوس ومعتقدات معينة ليست لدى المسلمين، بل ليس من المفترض اصلا ان توجد لديهم، من ذلك الاعتقاد في القديسين واستخدام الايقونات، والتعميد، وهي اكثر المعتقدات اهمية. ومن ناحية اخرى كان لروابط الآخيين كما نعلم، القدرة على ضم جميع الناس يعيشون على الحدود بكل سهولة. وفي الوقت الذي كان العثمانيون يحرزون فيه انتصارات محققة في اوربا، كانت الروابط الآخية قد اصبحت تعيش حياة «حضرية» اكثر من ذي قبل، ويشكلون في الغالب جزء من «البناء» العثماني، وان لم تكن اكثر من مجرد تنظيمات طائفية لها تعاليمها الدينية الشعبية التي تتصل بدائرة عريضة سمحت لهم بالاقامة والاستقرار في مدن اوروبا، وتقوم في الوقت نفسه بتنظيم وقيادة الطوائف المختلفة، وتسيطر بأسلوب غير مباشر على اديرة وبيوت تلك المدن. ولقد كانت تلك الروابط بالاشتراك مع المدارس والمؤسسات الخيرية الدينية الاخرى، مسؤولة إلى حد ما عن ظاهرة اعتناق مسيحيي تلك المدن للاسلام عائليا.

على ان الدور الذي لعبته روابط الآخيين في ريف الأناضول من حيث اعتناق الاسلام بين غير المسلمين، انتقل إلى طرق الدراويش (المتصوفة) والتي اصبحت هي المستوفا عملا حدث من تحول جماعات كثيرة إلى الاسلام في مقدونيا والبوسنة والباينا قبل احصاء عام ١٥٢٠ - ٥٣٠ المشار اليه. وعلى الرغم من ان بعض طرق الدراويش اتبعت خطى الروابط الآخية واصبحت جماعات حضرية منظمة تنظيما جيدا، فان اكثر فصائنها همية وهما «البكتاشية» و«المولانية» - جماعات ريفية اساسا احتفظت بطابعها الشعبي. وليس من الواضح - من عدد طرق الدراويش وعدد الفصائل المتفرعة عنها في اى وقت من الاوقات، وما هم عدد من ناشئ نشاطه في الأناضول الاوربية فعلا، الا ان عددهم كان كبيرا ولاشك.

وكان للدراويش شأن الآخيين تكاياهم، وتعاليمهم، وطرقهم، وكلها سرح اصولها الصحيحة التي تؤدي إلى الفهم الصوفي الباطني له، فضلا عن ان نظام الدراويش اقدم من سلاليد الصوفية القديمة والممتدة وعلى اساس من البحث المستقل من اجل الحياة القلبية. ومع هذا فتم اختلافا ملحوظة بين كل منهما في الاسباب والنتائج التي انتهى اليها كل منهما في - جمع الاوروبي. فمن الملاحظ مثلا انه بعد وفاة مؤسس الدراويش بوقت قصير، يصبح محاطا بمظاهر التوقير والتبجيل كما لو كان قديسا مسيحيا، وتنسب اليه قدرات خارقة والقيام بالمعجزات، ويصبح

منزله او مقبرته والتكية التى حولها مزارا. وكان اولئك القديسين يعرفون بانهم اولياء الله فى حياتهم وبعد مماتهم. على ان السهولة التى يتم بمقتضاها اعتبار قديس فى قرية اوربية احد اولياء الله بمعرفة احدى طرق الدراويش تتطلب بعض الشرح والتفسير.

والحقيقة انه حتى يحدث هذا القدر من التقديس، كان يتعين على الدراويش ان يتجول هنا وهناك فى مختلف انحاء الامبراطورية العثمانية، وكان على عكس الواحد من الآخيين يتجول باستمرار وبصفة دائمة، ويشتر بطريقته التى يتبعها، ويدعو الناس الى الدخول فيها، ويمارس بعض المراسم الخاصة بها. وكان يعرف «بالباب» وهى كلمة تعنى ان صاحبها يتصف بمجموعة من الصفات تعنى انه انسان مقدس وصاحب معجزات وطبيب مداوى .. الخ، ويعتبر فى نظر الناس من القديسين الاحياء، وليس لمكانته الدينية ومنافعه حدود فى الواقع. وبناء على التشابه الكبير بين المسيحية الشعبية والاسلام الشعبى، فلم تكن هناك صعوبة تذكر فى ان تستوعب «الطرق» الصوفية (الدراويش) العادات المحلية وتلائم معها سواء كانت من اصول مسيحية او اسلامية، واكثر من هذا فان ما كانت هذه لطرق تبشر به وتدعو اليه، كان لا يخلو من مميزات معينة.. فقد اتسع مفهوم الصيغة التقليدية عن «حسن الطالع» باضافة بعض العادات التى نقلها هؤلاء الدراويش معهم حيثما كانوا، والتى داخلتها ولاشك عادات اخرى من اهل الذمة انتقلت بدورها إلى المسلمين بفعل الظروف لموضوعية. وقد انتهى هذا التداخل والخلط بين العادات والتقاليد إلى ظهور ما يمكن تسميته «اسلام شعبى» اوروبى او بلقانى، والذى دخلت ممارساته شعبية الاعتقاد فى الايقونات، والتعميد، لانقاء الجنون .. الخ وملامح اخرى كثيرة اساسية غير اسلامية فى اصولها بطبيعة الحال.

وعلى هذا فلم يكن صعبا على المسيحيين الذين كان ايمانهم يقوم على مجموعة متنوعة من الخرافات الشعبية، ان ينتقلوا إلى عقيدة اخرى مشابهة تقوم على الفهم الشعبى للاسلام، وان كانت اكثر ضمانا وأمنا. ولعل هذا التشابه يفسر التحول الجماعى الكبير نحو اعتناق الاسلام فى الفترة المبكرة من حكم الامبراطورية العثمانية، بل انه تفسير اكثر عقلانية واكثر مصداقية من التفسير الدارج الذى يرجع اعتناق الاسلام إلى رغبة السكان فى الاحتفاظ بما يملكون من اراضى، او رغبة المضطهدين دينيا سابقا (من البولوشيين والبوجوميليين) فى ان يصبحوا سادة طغاتهم او مضطهدهم.

وتنبغى الاشارة إلى انه خلال الفترة المبكرة من الحكم العثمانى كان هناك مسيحيون من اصحاب التيمارات فى البانيا وفى اى مكان آخر من البلقان، واكثر من هذا فقد كان باستطاعة اى اسرة مسيحية الاحتفاظ بما تحت يدها من «اقطاعية» ولو انه لم يكن بإمكانها توسيع حجمها او تقسيمها. ويمكن ان تأخذ فى الاعتبار ايضا ان البوجوميليين كانوا يعيشون بكثرة فى اقليم البوسنة فى وقت الغزو العثمانى لها.

وبين الجدول رقم (١) ان سكان سرايفو طبقا لاحصاء عام ١٥٢٠ - ١٥٣٠ كانوا من المسلمين جميعا (بنسبة ١٠٠٪). وإذا كان العثمانيون قد اقاموا هذه المدينة فى موقع احدى القرى الصغيرة مما يبرر هذه النسبة الغالبة للمسلمين، الا ان معدل السكان المسلمين فى المدن والاحياء

الآخري كان ملفتا للنظر بشكل عام، فيتضح من الجدول نفسه ان نسبة المسلمين في قضاء البوسنة كانت ٤٦٪ على حين انهم كانوا يشكلون ١٨,٤٪ في عام ١٤٨٩ طبقا لاحصاء جرى قبل تعداد عام ١٥٢٠ - ١٥٣٠ بحوالى ثلاثين عاما تقريبا. وهذا يعنى بوضوح ان تحولا للاسلام بشكل كبير قد حدث خلال ثلاثين عاما، وكان اكثر وضوحا في المراكز الحضرية، حيث كان البوجوميليون العنصر الاكثر ضعفا، وهى مشكلة لاتزال دراستها مهمة هي وحالات اخرى مشابهة لم يتم الكشف عنها وفحصها ودراستها بعد. وقد يكون صحيحا تماما ان هذا حدث في الوقت الذى تحول فيه كثير من البولوشيين والبوجوميليين «والهراطقة» الآخرون إلى الاسلام. ولكن هذا يتناقض مع كونهم كانوا رأس الحرية في عملية التحول الكبرى للاسلام.

بقيت حجة اخيرة تخدم الفكرة القائلة بان التحول إلى الاسلام في اوربا العثمانية لم يكن اكثر من مجرد انتقال سهل ويسير من مستوى شعبى إلى آخر، ذلك ان الحركات الاجتماعية الدينية والتي اتخذت اشكالا جديدة آنذاك، لم تظل ظاهرة مستمرة تؤدي إلى كثير من الاضطرابات التى سوف نناقشها فيما بعد، بل كانت من القوة لدرجة انها أثرت بشكل واضح على «الملة اليهودية». وهناك اولا عدة أسباب تفسر قلة حجم التحول للاسلام في الاقاليم العثمانية باوربا عن الاناضول. وليس مطلوبا على كل حال دراسة هذه الاسباب في ثنايا هذا الكتاب، ولكن ما هو جدير بالاهتمام انه رغم وجود اسباب وعوامل اقتصادية - اجتماعية كثيرة يمكن وضعها في الاعتبار كأسباب لاعتناق الاسلام، الا ان تنظيم العثمانيين السريع للموقف في مختلف الاقاليم الاوربية، جعلت هذه العوامل الاقتصادية الاجتماعية اقل دافعا لاعتناق الاسلام عما كانت عليه الحال في الاناضول التى كانت تعيش حالة من الاضطراب المستمر. ان اعتناق الاسلام في اوربا كان بين عناصر معينة لم تكن فاهمة لعقيديتها فهما حقيقيا، او لم تكن تمارس شعائرها الممارسة الصادقة. وعلى هذا فقد كان المروق من العقيدة او الخروج عنها بالنسبة لهؤلاء مجرد ارتياح او ملائمة اكثر منه مسألة معتقد وايمان.

٥ - نظام الدفشرمة

إذا كان اعتناق الاسلام شيئا كان ملائما بالنسبة لاولئك الذين غيروا عقيدتهم طوعا وليس كرها، فانم نظام الدفشرمة الذى يمثل اوضح نموذج للاكراه على دخول الاسلام، كان بدوره شيئا ملائما لسلطين آل عثمان. وكان هذا النظام في الواقع جماع لكل المسائل التى سبقت مناقشتها في هذا الفصل، وهى: الموظفون العثمانيون واداراتهم، والرعايا، وتغيير العقيدة.

وكلمة «دفشرمة» مأخوذة من الفعل «دفشرك» (في التركية) ويعنى تسجيل الاسماء. وطبقا للاسلوب الذى كان يتم به اختيار الاطفال وتجميعهم من اسرهم، فان نظام الدفشرمة كان عبارة عن تجميع اولئك الاطفال كضريبة رأس فرضها السلطين اجباريا على الاسر المسيحية التى لم تعتنق الاسلام. فبالنسبة للعثمانيين كان هذا النظام يوفر عناصر جديدة تدخل في صفوف الجيش

بشكل منتظم ومستمر وفي كافة المؤسسات الاخرى التي كانت منظمة تنظيميا جيدا. ومن المهم أن نفهم هنا ان المؤسسات العبودية الخاصة بالسلطين بما فيها الانكشارية، كانت سابقة على تأسيس نظام الدفشرمة. كما يجب التأكيد مرة اخرى على ان «العبودية» لم تكن فقط نظاما قديما معروفا في العالم الاسلامي عندما اصبحت عائلة عثمان عنصرا مهما في العالم، بل يجب الاشارة إلى طبيعة عبودية المسلم والحرس الخاص للخلفاء العباسيين في بغداد الذين كانوا في الغالب من العبيد الاتراك.

لقد كان بإمكان الحاكم المسلم شأن اى فرد آخر، شراء العبيد بمختلف الوسائل. ولكن كان من حقه منذ العصر الاسلامي الاول، التمتع بما اطلق عليه الاتراك فيما بعد «حق الخماس» اى الحصول على خمس اسرى الحرب (كغنائم) الذين يتم استرقاقهم، لا لشيء سوى انهم قاوموا الغزو. ويقال ان السلطان مراد الاول (١٣٦٠ - ١٣٨٩) هو اول من أسس وحدات الانكشارية من العبيد الذين استرققهم في الحروب. وعلى الرغم من انه اصبح ينسب للسلطان مراد هذا الابداع في تكوين الجيوش، الا أنه من غير المعروف على وجه اليقين متى بدأ نظام الدفشرمة، ومتى اصبح المصدر الكبير للتجنيد. على ان اول اشارة مسجلة في هذا الشأن، مأخوذة من احدى العظات المسيحية في عام ١٣٩٥ حيث نعلم ان اولئك العبيد لم يكونوا يستخدمون في البداية كجنود، وتأكد هذا المعنى بما فعله السلطان بايزيد الاول في بداية حكمه فبعدها اخضع مختلف الامارات التركية في الاناضول لحكمة، قام بتعيين حكاما لها من العبيد. وهكذا ومنذ بداية تسعينات القرن الرابع عشر دخل نظام العبيد البلاط العثماني. وكانت عناصر الدفشرمة، تخدم كل من وظيفتى الادارة والحرب. وتجدر الاشارة ايضا إلى انه رغم عدم التأكد من بدايات نظام الدفشرمة، الا ان هناك دلائل توضح انه كان مطبقا خلال الربع الاخير من القرن الرابع عشر.^(١)

ومن الامور الاخرى غير المؤكدة، مسألة تعدد ضريبة الرأس وعدد الشباب الذين ادخلوا الخدمة العسكرية بمقتضى هذه الضريبة، وتاريخ الغاء العمل بنظام الدفشرمة. فلم يكن هناك وقت معين فيما يبدو لجمع افراد تلك الضريبة (اى تحصيل الضريبة). كما لم يكن هناك تحديد للعدد المطلوب في كل مرة. ولكن يبدو ان هذه الضريبة كانت تفرض عند الحاجة إلى تجنيد انفار للجيش، وبالتالي كانت في البداية غير متكررة، ثم اصبحت دورية الحدوث، إلى ان اصبحت في النهاية نادرة الحدوث. وكانت السلطات في كل مرة تحدد عدد الشباب المطلوب حسب الحاجة. ويعتقد البعض وأنا منهم، ان اجمالى شباب المسيحيين الذين اخذوا «رسميا» من بيوتهم بنظام الدفشرمة بلغ مائتى الف على الاقل خلال قرنين من الزمان من تطبيق هذا النظام. ويقال ان عهد السلطان احمد الثانى (١٦٩١ - ١٦٩٥) شهد الغاء نظام الدفشرمة، ولو ان هذا غير مؤكد بشكل قاطع. ولكن من المفهوم ان العمل بهذا النظام توقف في نهاية حكم السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠)، واستمر قائما حسب مقتضى الحال، وحسب المناسبات وذلك حتى نهاية القرن السابع عشر.

(١). يذكر جب وبوون ان نظام الدفشرمة عرف بين عامى ١٤٢١ - ١٤٣٨ (المجتمع الاسلامي، المجلد الاول، الجزء الاول، ص ٥٩، حاشية رقم ٨). وهذا التاريخ غير دقيق بالتأكيد، الا اذا كان المقصود الاشارة إلى اعادة العمل بهذا النظام بعد فترة توقف.

على كل حال .. إذا كان نظام الدفشرمة هو المصدر الكبير لتكوين فرق القايقول، فإن اهل الذمة في كل انحاء الامبراطورية العثمانية. كانوا مصدرها بكل الوسائل. وتجدر الاشارة إلى أن التفاصيل المتعلقة بهذه النقطة، وكذلك الارقام الاحصائية، لا تكفى للشرح والتفسير. والحق ان استيلاء السلطان على العبيد، لم يكن امرا مسموحا به فقط، بل امرا «شرعيا» طبقا للشرعة وبمقتضى الظروف التى تحدد تحصيل الخمس، بل ان تعرض «الشعوب المحمية» (اهل الذمة) لنظام الدفشرمة، جعله يبدو عملا «غير شرعى» على الرغم من ان بول فيتك p.Wittek (المؤرخ الالماني) يقول انه طبقا للمذهب الشافعى، فان من ينطبق عليه لفظ «اهل الذمة» قبل عام ٦٢٢، هم كل «اهل الكتاب»^(١) ولعل هذا يفسر كيف ان تجنيد بعض اليونانيين والارمن قد تم بناء على اتباع العثمانيين للمذهب الشافعى، وربما لم يكن الامر كذلك. وايا كان التفسير، فمن الثابت من الناحية التطبيقية ان نظام الدفشرمة استثنى فئات وعناصر معينة من الخضوع له مثل شباب المدن، والشباب المتزوج، والفوينكيون Voynuks والدوجانشيون Dogancis، والذين يقومون باعمال خاصة مثل عمال المناجم، او سكان القرى المنوط بها تمهيد الطرق والممرات الحيوية، فضلا عن وجود استثناءات مؤقتة شملت آخرين حسب الاحوال. على ان عددا كبيرا من الاطفال الذين خضعوا لضريبة الرأس كانوا اجمالا من السلافيين الارثوذكس. وهناك استثناءات اخرى لفئات وعناصر اخرى تجعل من تحديد معيار محدد لنظام تجنيد الدفشرمة امرا صعبا فى النهاية.

كان السلاطين يعتقدون ان نظام القايقول له فضائل جدية بالاعتبار. فمن ناجية. خضع للاسلوب التقليدى السائد من حيث تعيين الحرس الخصوصى من العبيد، والاستفادة منهم الافادة المثلى، وايجاد مجموعة من الرجال تعتمد اعتقادا كليا على الحاكم وتستمد شرعيتها من وجوده. ولم تكن سياسة بايزيد الاول فى تعيين حكام الالاقليم من العبيد سابقة تاريخية بالنسبة للعالم الاسلامى، لكن الجديد فى الموضوع بالاضافة إلى نظام الدفشرمة، توسيع قاعدة الانتفاع بخدمات اولئك العبيد. فمن الملاحظ ان السلطان محمد الثانى قام بتعيين محمود أضنى - وهو من القايقول - صدرا اعظما عقب الاستيلاء على القسطنطينية بشمانية شهر، وتبع ذلك عملية احلال القايقول فى وظائف الادارة العامة بدلا من العناصر التركية الاصلية (غير العبيد)، هذا مع الاخذ فى الاعتبار ان بعضا منهم وصل إلى اعلى المناصب حتى قبل ان يتحلل نظام القايقول بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان.

على ان اسباب التحول نحو استخدام العبيد بهذا الشكل تكمن فى بعض حقائق تاريخ العثمانيين التى سبقت الاشارة إليها. فقد ظل امراء الولايات التركية المتحالفة يعملون على استعادة استقلالهم، وحتى بعد ان اصبحوا على قمة الهرم الاجتماعى العثمانى كوجهاء، ظلوا متمسكين بتقاليد البكوات، وبقوة يمكن ان تتحدى سلطة الحاكم. ولعل المثل الواضح على ذلك، الدور الذى لعبه خليل قندرلى فى عام ١٤٤٦ فى عزل السلطان محمد الثانى واعادة السلطان مراد الثانى،

(1) Paul wittek, "Devshirme and şharia", Bulletin of The School of Oriental and African Studies 7 (1955), p271 - 78.

فلا عجب ان يكون السلطان محمد الثانى هو الذى اكمل تيار اعتماد الحكام على عبيدهم، وكان تيارا متناميا، وانه هو الذى اعطى مدارس تدريب العبيد شكلها النهائى الرسمى.

على ان اقامة نظام ادارى يعتمد على تولى العبيد الوظائف الادارية، لا يفسر ابتداء نظام الدفشرمة. وفى هذا الخصوص ليست لدينا حقائق محددة لتفسير قيام هذا النظام، ولكن هناك ثلاث وجهات نظر جديدة بالاعتبار فى هذا السبيل. الاولى بسيطة وواضحة وتقوم على ان شراء العبيد كان امرا مكلفا، على حين ان تجنيد الدفشرمة من الشباب كان مجانا ودون مقابل، على الرغم من استمرار الحصول على عبيد معينين بطريق الشراء من منطقة القرم والقوقاز. واكثر من هذا انه اذا اتفقنا على ان العقود الاخيرة من القرن الرابع عشر تمثل بداية ادخال نظام الدفشرمة، فان ثمن العبيد فى هذه الفترة نفسها لم يكن باهظا، لكن الحصول عليهم كان امرا صعبا.

والحاصل ان البلاد الاوربية التى خضعت للحكم العثمانى كانت تلحق كولايات تابعة للامبراطورية العثمانية كقاعدة، ولم يكن بإمكانها ان تقدم نصيب الخمس (من اسرى الحرب العبيد) بالكمية المطلوبة والكافية. واما فى وسط اسيا وبلاد فارس والعراق، فقد ادى ظهور امبراطورية المغول إلى قطع طرق تجارة الرقيق واحتفظ المغول لانفسهم باولئك العبيد، واما فى الاناضول فلم تفلح الانتصارات المباشرة للعثمانيين هناك فى توفير العدد الكافى من العبيد طبقا لنظام اسرى الحرب، لأن معظم المهزومين كانوا من المسلمين الاتراك. والخلاصة ان ذلك الوقت الذى شهد النقص الملحوظ فى توريد العبيد، هو الوقت نفسه الذى كان كل من السلطان مراد الاول وبايزيد الاول يواجهان فيه مصاعب كبيرة مع البكوات، ومن ثم كان الاعتماد بشدة على استخدام العبيد فى الوظائف الادارية والعسكرية العثمانية وما يعنيه من زيادة الطلب على العبيد. ولعل توافق هذه العوامل معا يفسر ادخال نظام الدفشرمة كوسيلة للحصول على العسكر (القول).

لقد كان من شأن التوسع فى نظام الدفشرمة خدمة مجال اكبر من مجرد تجنيد الانكشارية وهم قوة الحروب، اذ ساعد على توفير سباهية الباب العالى، وفيما بعد رجال سلاح الانشاءات (المهندسين) ورجال المدفعية، وبعض القوات الخاصة. وعلى حين كان الجنود- العبيد يمثلون الاغلبية ومعينين للعمل مع القيادات او داخل مؤسسات تدريب ابناء العجم (الاجانب) لخدمات البيرون (خارج القصر)، فان العناصر الواعدة منهم كانت تلحق بمدارس الاندرون (الخدمة داخل القصر) كوصفاء (بيچ اوغلانلر فى التركية)، واصبح هؤلاء فيما بعد سادة الدولة المسئولين عن تخريج تلك العناصر.

اما حقيقة ان معظم الذين تولوا دفة الامور فى الدولة ولمدة قرنين من الزمان، كانوا من مسيحيي البلقان - السلافي، فامر يثير اخر جملة المشكلات المتعلقة بهذا الفصل والذى به نختم مقدمة هذا المجلد .. فماذا كانت الدفشرمة تعنى لأولئك الذين تأثر اطفالهم بها؟! .. هل افادوا من اصدقائهم واقربائهم فى المراكز العليا لتى تبوأوها فى الدولة؟! ام ان التجربة انتهت إلى لاشى بالنسبة لهم؟!!

الحقيقة انه بصرف النظر عن الملامح غير الانسانية لنظام يقوم على فصل الاطفال عن ذويهم للابد، فان سلبيات الدفشمرة تعد امرا ظاهرا وواضحا .. اذا ما تذكرنا ان دائرة الاختيار للتجنيد كانت ضيقة ومحددة نسبيا وتنحصر في العناصر السلافية الارثوذكسية، وان الشباب الاصغر (الصبية) الاكثر مقدرة كانوا يؤخذون، وان عددهم في الحقيقة كان اكبر من العدد «الرسمي» لقوات الدفشمرة الذى سبقت الاشارة اليه، ذلك ان ضابط الانكشارية (يايا باشي) المسئول عن اختيار الصبية كان يجمع اكثر من العدد المطلوب ويقوم ببيعه كعبيد لحسابه بالتعاون الوثيق مع القضاة المحليين والسباهية محققا لنفسه ارباحا مالية. ولقد ادى هذا الاسلوب في التجنيد إلى خسائر في الاقتصاد وفي التركيب الاتنى لشعوب المنطقة، وهى امور لم تدرس بعد الدراسة العلمية الكافية، ويجب وضعها في الاعتبار دائما عند دراسة تلك الفترة من تاريخ هذه المنطقة. وعلى الرغم من ان هؤلاء الناس اكرهوا على اعتناق الاسلام وكانوا مؤيدين متعصبين للنظام العثماني ولعقيدتهم الجديدة، الا انه من غير المحتمل انهم نسوا تماما اصلهم ولغتهم الاصلية. وفي هذا الخصوص نذكر ان بعض المسئولين منهم في الاقاليم كانوا على علاقة طيبة بالرعايا، وان بعض السباهية منهم كانوا ايضا على علاقة طيبة مع فلاحي اقطاعاتهم ولو بشكل مؤقت، إلى آخر هذه الامور التى تحتفظ بها ذاكرتهم.

وهناك ما يثبت ان الموظفين العثمانيين الذين كانوا من «الدفشمرة» اصلا، ظلوا يتذكرون بالفعل طفولتهم عندما اخذوا صبغارا من ذويهم إلى المعسكرات، ويحتون إلى ذوى القربى منهم . فابراهيم باشا الصدر الاعظم ايام حكم السلطان سليمان الاول، كان من اصل يوناني وظل في منصبه مدة ثلاثة عشر عاما قبل ان يشنق في ١٥٣٦ لارتكابه اخطاء كثيرة من بينها انه كان يحمى اقربائه اليونانيين ويرعى مصالحهم، ومحمد صوقوللو الصدر الاعظم ١٥٦٤ - ١٥٧٩ لم يكن يتصل فقط اتصالات خاصة بعائلته، بل ساعد ايضا اهالى الصرب من خلال محاولة اقناع السلطان باعادة تأسيس اسقفية بيك pec في ١٥٥٧ بالاشتراك مع اخيه رئيس الاساقفة حتى قبل ان يتولى منصب الصدر الاعظم.

وإذا كانت تلك هى تصرفات الكبار من عناصر الدفشمرة كما اثبتتها الحجج والوثائق، فليس بعيد ان تتصرف المستويات الادارية الادنى التصرفات نفسها ازاء ذويهم واقربائهم. وإذا لم يكن الامر كذلك .. فلماذا كان ضابط الانكشارية المسئول عن التجنيد للدفشمرة (يايا باشي) يأخذ رشوة ليس لاجزاء الطرف عن اخذ الصبية للتجنيد، بل لأخذ من لا تنطبق عليهم شروط التجنيد؟! واخيرا.. هناك مثال لافت للنظر يتمثل في حالة مسلمى البوسنة الذين اصروا على ان يؤخذ اطفالهم إلى استانبول^(١) ففي مطلع عام ١٥١٥ وبناء على طلب مسلمى البوسنة تم الحاق الف صبى من البوسنة في مدارس الاندرون بدون تطبيق عملية الاختيار المعتادة التى تقوم على فرز صفوف ابناء العجم (الاجانب)، وهى عملية تكررت مرارا في القرن السادس عشر. ومن الملاحظ ان اقدام الاسر

(١) انظر عرض موجز لدفشمرة البوسنة مع الوثائق المتعلقة بها فى:

V. L., Menage, "Devshirme", The Encyclopaedia of Islam, New Edition (Leiden: E.J. Brill. London: Luzac & co., 1965), 2:211.

المسيحية وكذلك المسلمة في البوسنة وفي اماكن اخرى على دفع رشوة من اجل الحاق ابنائهم بالدفشمة، لا بد وان يكون بناء على اعتقادهم في مميزات هذا النظام، ليس فقط لاولادهم، ولكن لهم ايضا، والا لكان سلوكهم المشار اليه سلفا، وهو الحرص على التجنيد، لا معنى له.

والحق انه رغم ميزات نظام الدفشمة بالنسبة للصبية ولذويهم، فان تبعات هذا النظام فيما يتعلق بالاوضاع الانسانية والاقتصادية والاقصادية كثيرة لاحصر لها، وضررها كان اكثر من نفعها. وتجدر الاشارة إلى ان استخدام العثمانيين للعبيد، كان واسعا بالمقارنة لما كانت عليه الاحوال في الولايات الاسلامية مبكرا، كما ان اسلوب الدفشمة الذي جعل من العبودية نظاما، كان ابداعا عثمانيا متفردا، بل لقد كان هذا النظام يجسد النموذج الشائع لاکراه الناس على اعتناق الاسلام في السنوات قبل القرن السابع عشر.



القسم الثاني

الحياة داخل الاقاليم «النواة» لاوروبا العثمانية

١٥٧٤ - ١٤١٣

الفصل الثالث

اقرار الحكم العثماني

١٤٥١ - ١٥٦٦

١ - ملاحظات تمهيدية

يتناول الجزء الثاني من هذا الكتاب الاقاليم «النواة» لاوربا العثمانية في اعقاب اعادة تأسيس الامبراطورية العثمانية تحت حكم السلطان محمد الاول، وخلال الفترة التي تميزت فيها الدولة بقوتها، وتميزت ادارة مختلف مؤسساتها بالكفاءة العالية. والحق ان كلمة «النواة» العثمانية هنا يحتاج إلى بعض الشرح والتفسير.

على الرغم من ان الامبراطورية العثمانية كانت دولة غاية في المركزية، وتقوم على بناء طبقي محدد المعالم والوظائف، لكل فرد فيها وضعه المرسوم داخل طبقته الاجتماعية ووسط طائفته المهنية، الا انها مع ذلك - وما يدعو للدهشة - كانت كالكقط الارقش، متعددة الالوان. ولقد سبقت الاشارة الى سببين اثنين لهذا التنوع والاختلاف. فقد كان واضحا ان هناك اختلافا كبيرا في حياة ما يمكن تسميته الاقاليم العثمانية «النواة»، والحياة في «ولايات» موالديا، وولاشيا، وترا نسلفانيا، وراجوزا- دوبرفنيك، والتي كانت إما تابعة لاستانبول وإما حليفة لها .. فبدلا من ان تستند القوانين في تلك الولايات الى مبادئ الشريعة «وتسايرها»، وجدنا قبولا من العثمانيين لنصوص القوانين الوضعية، بل وحتى تقاليد التنظيمات الشعبية الخاصة بكل اقليم اخضعوه، مما انتج في النهاية اختلافات على جانب كبير من الهمية في حياة الاقاليم التي حكمها العثمانيون حكما مباشرا، وهي تلك المقصودة «بالنواة العثمانية». ولعل ما سبقت الاشارة اليه في صفحتي ٥٨ - ٥٩ من هذا الكتاب بخصوص «السناجق» يعبر تعبيرا صادقا عن هذا القصد (النواة العثمانية)، على الرغم مما حدث من تقليص لحجم هذه السناجق عن حجم «الايالة» الكبيرة، او اعتبارها احدى وحدات الايالة حوالي منتصف القرن السابع عشر وحتى ضياع هذه المناطق من الحكم العثماني .. فالمقصود اذن بهذا المصطلح، الاراضي الاوربية التي كانت تحت الحكم العثماني المباشر^(١) ولم تكن القوانين

(١) لا بد ان نأخذ في اعتبارنا التغييرات الادارية التي حدثت .. فطبقا لاحصاء ١٦٦٨ - ١٦٦٩ كانت ايالة روم ايلي (وهي معظم شبه جزيرة البلقان) تتكون من ٢٥ سنجا، وتضم السناجق كلها ٢٢٨ قضاء واربعة وفيات وناحية واحدة. ولا يشمل هذا العدد سنجق زمندريا semendria (حدرود الصرب اساسا) وكذا التسعة عشر قضاء التي يشتمل عليها هذا السنجق وكان جزء من ايالة روم ايلي عادة، لكن عند وقت الاحصاء المشار اليه (١٦٦٨ - ١٦٦٩) كان قد الحق بايالة بودا Bude. وبالإضافة=

فقط هي التي انتجت مجموعة الاختلافات الكبيرة بين كل اقليم وآخر، بل ان السلوك اليومي والتصرفات العامة الشائعة للعسكر والسياسيين والموظفين الرسميين ادى إلى شئ من هذا القبيل، وعلى سبيل المثال فان المشكلات المحلية في السنجق الذي يضم جزر بحر ايجه كانت تختلف اختلافا عن مشكلات سنجق تيمزفار.

واخيرا يجب ان نتذكر في هذا الشأن ان الدولة العثمانية نشأت كمجتمع حدود، وفي مثل هذه المجتمعات - مثل الولايات المتحدة الأمريكية او روسيا - تتحرك تلك الحدود حيث تمتد وتوسع مع نمو الدولة. وعلى الرغم من ان عدد عناصر «الغازى» والذي كان بإمكانهم التوطن في مناطق هذه الحدود المتسعة، كان يتناقص تناقصا ملحوظا إلى درجة التلاشي، الا ان الحكام استمروا يعاملون مناطق الحدود كاقليم ذا طابع خاص. فعلى سبيل المثال كانت مساحات كبيرة من ايالة بودا وكذلك الضواحي الشمالية لاقليم البوسنة، تعامل معاملة «مناطق الحدود» على الرغم من ان كل منهما كان «نواة عثمانية» بالمعنى الاصطلاحي^(١) ومن الملاحظ ان الحياة على الحدود المشتركة بين الدولة العثمانية والدول المجاورة، كانت تتطور تطورا ذاتيا حسب الاحوال والظروف، طالما لم تكن هناك مواجهات بشأن المعيشة المشتركة من جهة وبين «الغازى» والاكريتوى من جهة اخرى. ورغم هذا فان حياة الحدود بما فيها من حصون وقيادة وحرس، وبما تعنيه من حروب غير معلنة، اوجدت في النهاية «حدودا» جديدة كان لها تأثيرها على حياة اهلها بشكل عام. ومثل هذه الاختلافات يجب ان توضع في الاعتبار دائما.

ويجدر بنا ان نذكر بعض الامور اجمالا، وهي التي موضع الجزء الثاني من هذا الكتاب .. كانت معظم الاراضى الاربية قبل حكم السلطان بايزيد الاول مرتبطة بالامبراطورية العثمانية، اما برباط التبعية، او برباط التحالف. ثم بدأ بايزيد في نقل اراضى اتباعه او حلفائه هؤلاء الى اقاليم عثمانية صرفة. غير ان هذا العمل اصابه الانهيار في عام ١٤٠٢، وظل الامر كذلك حتى مطلع حكم السلطان محمد الاول، حيث اصبحت الاراضى الجنوبية الشرقية من اوربا اقاليم عثمانية (١٤١٣). ولهذا السبب لم يكن صعبا التقاط تاريخ العمل بهذا النظام. اما تاريخ انتهاء العمل به فيحتاج إلى مزيد من الشرح .. فيرى المؤرخون في انتهاء حكم سليمان الاول في ١٥٦٦ نهاية «العصر الذهبى» حيث كان من الممكن استشفاف علامات الاضطرابات ورصدها. وهذا الرأى صحيح من وجهة النظر العثمانية .. فسليمان الثانى الذى انتهى حكمه في ١٥٧٤ كان حاكما ضعيفا للغاية، وشهد عهده انهيار قوة الدولة وتنظيمها بشكل سريع. وهذا يعنى ان بودار الانهيار

=الى لياتلى بودا وروم ايلي كانت الالات الاربية الرئيسية قبل القرن السابع عشر تتمثل فى كل من بالتى البوسنة وتيمزفار. وقد اضيفت اليها فى مطلع القرن السابع عشر ايالة كانيزشا Kanizsa. وعند نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر اصبحت فاراد Varad ايالة.

(١) لقد درس حازم سابانوفيتش sabanovic هذه الظاهرة فى اصعالة المتعددة المتعلقة بالبوسنة. واهم هذه الاعمال بالنسبة للمشكلة التى تتناولها: المواكب العسكرية لعيسى بك اسحق كوفيتش Isakovic؛ عرض لممتلكات الاراضى فى ١٤٥٥، سرايفو، معهد الدراسات الشرقية ١٦٦٤، المجلد الثانى، مواكب البوسنة العسكرية، سرايفو ١٩٥٧، خاصة التنظيم العسكرى للبوسنة من ١٤٦٣ وحتى نهاية القرن السادس عشر، ١٩٦٠.

والاضطراب كانت مرئية وواضحة في عهد والده سليمان الاول.

على ان حكم السلطان سليمان الثانى كان بالنسبة لسكان الاقاليم مايزال امتدادا «للعصر الذهبى»، لأنه كان يصعب عليهم ادراك حقيقة الاضطرابات التى كانت قد بدأت تكتنف الادارة المركزية فى استانبول. ومع هذا فقد استطاع محمد صوقوللو الذى ظل فى منصب الصدر الاعظم حتى ١٥٧٩ ان يحافظ على كفاءة اجهزة الدولة بشكل مناسب إلى حد كبير، فضلا عن استمرار التوسع العسكرى فى المجر وفى اماكن اخرى. وعلى الرغم من ان قيمة الاقجة (العملة العثمانية) كانت انهيارا، الا ان انخفاض قيمة الاشياء كان يحدث تدريجيا، وان لم يؤثر فى الحياة الاقتصادية فى الاقاليم بدرجة اساسية. ولكن هذه التأثير لم يظهر إلا خلال السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)، حيث لم يعد بالامكان السيطرة على المشكلات الاقتصادية، وحيث اصبح التضخم ظاهرة سائدة، وحيث اصبح فساد الادارة المركزية فى استانبول متفشيا وكذا فى الاجهزة الادارية للاقاليم، وأثر فيها تأثيرا خطيرا، ومن ثم بدأت الحياة فى الاقاليم تتدهور تدهورا ملحوظا، بل ان ميزان العمليات العسكرية فى نهاية حكم السلطان مراد الثالث كان قد اصبح فى غير صالح العثمانيين. والخلاصة ان كل تلك العوامل والظواهر تشير الى ان الفترة الواقعة بين عامى ١٥٧٤ - ١٥٩٥ (وهى فترة حكم السلطان مراد الثالث) هى التى شهدت بداية تأثر الاقاليم بنتائج ضعف وفساد الحكومة المركزية.

ومن ناحية اخرى كانت التوسعات العسكرية قد توفقت تحت حكم السلطان سليمان الثانى وحتى نهاية فترة هذا الجزء من الكتاب. وخلال الفترة من توسعات مراد الثانى وسليمان الثانى، وقعت تغييرات اقليمية على جانب كبير من الاهمية فيما يتعلق بالتوسعات داخل الاراضى. ورغم ان انتصارات سليم الاول فى شرق الاناضول والبلاد العربية (١٥١٢ - ١٥٢٠) لاتهم موضوعنا بطريق مباشر، الا انها لا تخلو من اهمية عامة، اذ تميز عهده بان المسلمين فيه كانوا يمثلون اغلبية عامة فى انحاء الامبراطورية. وتحت تأثير طبيعة الاراضى الجديدة التى وقعت هى وزعاماتها الدينية فى حوزة العثمانيين، وحفاظا على الطبيعة الاسلامية للدولة، اصبح السلاطين أكثر تحفظا بل وأكثر رجعية فى الامور والمسائل الدينية. وامتد الاتجاه نفسه بين العلماء وكان مسؤولا عما حدث فيما بعد من حيث التفرقة تفرقة حادة بين رعايا الدولة لمسلمين ورعاياها المسيحيين، وما انتهى اليه الامر فى القرن السابع عشر من حيث محاولات اكراه الرعايا على اعتناق الاسلام كما سبقت الاشارة.

لقد ادت انتصارات السلاطين محمد الثانى، وبايزيد الثانى، وسليمان الاول، الى تحديد معالم الاراضى التى اصبحت تمثل «الاقاليم النواة لاوريا العثمانية»، مما يدفعنا إلى تناول امور هذا التوسع بقدر من الدراسة.

٢ - التوسع فى اوربا ١٤٥١ - ١٥٦٦

هناك اسبابا كثيرة ترددت فى ادبيات التاريخ العثمانى لتفسير كيف ان الامبراطورية العثمانية لم يكن من الممكن ان تعيش فى سلام، بل كان عليها ان تكون فى حرب دائمة، وتتلخص هذه الاسباب فى حاجة العثمانيين للغنائم والاسلاب التى كانت تعد مصدرا كبيرا واساسيا للخزانة، والحاجة إلى مزيد من الارض لاقامة «التيمارات» وارضاء طبقة العسكريين، والحاجة لاشغال الجانِب الاكبر من المؤسسة العسكرية لتعاشى القلاقل والاضطرابات داخل الدولة، والحاجة الى توسيع دار الاسلام، وهو الامر الذى اصبح فى عهد السلطان محمد الثانى يمثل «تفكيراً امبريالياً» للغزو من اجل صالح الدولة.

على ان كل واحد من تلك الاسباب يمثل بعض الحقيقة فى الواقع، ولكنها مجتمعة تعتبر وافية وشاملة باى مقياس من المقاييس .. فاذا كان اسقاط القسطنطينية على يد السلطان محمد الثانى يخدم كل الاسباب التى قبلت سلفا من حيث الطبيعة الحاربة للدولة العثمانية، فان الاستيلاء على تلك المدينة كان ضرورة سياسية واستراتيجية، ذلك ان وجود قلعة مسيحية ليس فقط لرعايا الدولة المسيحيين بل لكل اوربا فى وسط اراضى السلطان وفى موقع استراتيجى غاية فى الاهمية، كان امرا يهدد أمن السلطنة فى الداخل والخارج. كما ان وجود امبراطور مسيحي وبطريك للكنيسة داخل الدولة مستقلين عن السلطة العثمانية، كان من شأنه ان يجعل من رعايا السلطان المسيحيين والذين كانوا يمثلون اذك اغلبية السكان، عناصر للثورة المضادة. هذا فضلا عن ان احتلال تلك المدينة الكبيرة كان من شأنه تقليل خطر الحملات الصليبية التى باتت امرا واضحا بعد مؤتمر فلورنسا، اذا لم يتم اجثاث جذوره نهائيا. ومن ناحية اخرى كانت القسطنطينية قد اصبحت مصدرا لمؤامرات ودسائس شاركت فيها عناصر طبقة الادارة العليا فى الدولة. ولعل الصدر الاعظم خليل قندرلى كان نموذجا خطرا بادر السلطان محمد الثانى بشنقه فى اعقاب دخوله المدينة بتهمة الخيانة. لكل هذه الامور لم يكن امام السلطان محمد الثانى اية اختيارات إلا ان يضرب الحصار على القسطنطينية حتى سقطت فى ٢٩ مايو ١٤٥٣.

وهناك ايضا اسباب اخرى كثيرة لتفسير العمليات العسكرية التى قام بها السلطان محمد الثانى وخلفاؤه فى اوربا بعد ان دانت لهم امور السلطة والسيادة فى عاصمتهم الجديدة استانبول. وفى هذا الخصوص سوف نسقط من اعتبارنا مشكلات التوسع العسكرى فى اسيا الصغرى، وبلاد فارس، والعراق، وتركز فقط على ما يتعلق باوربا.

فى تلك الاثناء كانت بلاد الصرب والبوسنة والدويلات الالبانية، ماتزال سياسيا فى دائرة البلقان غير العثمانى، كما كانت دوقية اثينا واجزاء كثيرة من شبه جزيرة المورة ماتزال مستقلة. اما البندقية فكانت تتمتع بمواقع كثيرة تحت نفوذها على شاطئ دلماشيا، وفى المورة. والى الشمال من خط نهر الدانوب - سافا كانت هناك امارتان رومانيتان كانتا دائما على استعداد «لمساعدة» بقايا الدويلات المسيحية فى البلقان من خلال التحالف مع المجر التى كانت دولة قوية آنذاك.

كان السلطان محمد الثاني مغرماً بالغزو والانتصار في حد ذاته، وليس من اجل توسيع دائرة التحدى. واما السلطان مراد الثاني فكانت سياسته ترمى الى القضاء على الدويلات المستقلة القائمة بين ظهرانيه واخراج البنادقة والجنوبيين من الجزر المحيطة وكل ركائزهم على الشواطئ. ولقد استطاع مراد ان يحقق هدفه الاول تقريبا قبيل ان يموت في ١٤٨١، وكان قد بدأ فعلا التحرك الى مدى ابعد بمهاجمة ليس المجر فقط، بل الاراضى الايطالية ايضا، حيث رابطت قواته في اوترانتو Otranto في عام ١٤٨٠، وارتبطت به امارة ولاشيا في اطار اتفاقيات التبعية ودفع الجزية المعروفة.

ولقد لعبت الظروف دورها في جعل مهمة السلطان سهلة التحقيق وفي خضوع الدويلات الرومانية له .. فقد ادت مجريات الامور في المجر وهى الدولة الوحيدة آنذاك التى كان فى مقدورها تنظيم تحالف خطير ضد محمد الثانى، الى انفراده بالعمل دون منازع فبعد وفاة يوحنا هونيادى Hunyadi فى ١٤٥٢ (قبل سقوط القسطنطينية بعام)، انتهز كبار نبلاء الاقطاع فرصة صغر سن خليفته الملك لاديسلاس الخامس (László)، والذي كان يبلغ ثلاثة عشر عاما فقط، وانشغلوا بالصراعات بين الفرق المختلفة من انصار ومعارضين غير منتهين لما يحدث فى البلقان، ولكن بين عامى ١٤٥٨ - ١٤٩٠ قيض للمجر ان يتولاها شخص قوى وهو ماثياس matthias ابن يوحنا هونيادى. ولكن وعلى الرغم من انه قد اعد جيشا دائما على حدود بلاده الجنوبية، وكان قادرا على الايقاع بالقوات التراكية المهاجمة، الا انه لم ينتبه الانتباه الكافى لما يجرى فى البلقان من حوادث ايضا، لانشغاله هو الاخر بالحصول على عرش بوهيميا فى الشمال والاستيلاء على فيينا ليصبح امبراطور الجerman. وهكذا ونظرا لتلك الظروف، لم يكن محمد الثانى يخشى الخطر المتوقع من اكبر اعدائه خطرا.

وعلى العكس من ذلك، وبناء على الظروف نفسها اصبح العدو او الغريم الاكبر للسلطان يتمثل فى البطل الالبانى سكندربج Scenderbeg (جورج كاستريوتى Kastriote)، وكان سكندربج قد كون مع مجموعة من اصدقائه فى عام ١٤٤٤ ما يعرف بعصبة أليسيو (Les, Alessio) لتكون قاعدة لتحقيق الدولة الالبانية. ونتيجة لحركات التمرد الكثيرة التى كان الالبان يقومون بها والدخول فى مواجهات مع السلطات العثمانية، كتب على قائد قوات العصبة المأمول (وهو سكندربج) ان يقضى بعض الوقت فى ادرنه كرهينة لدى السلطات العثمانية. واكثر من هذا فقد كان عليه كأبن لرعيم تابع، ان يحارب فى صفوف القوات العثمانية واثبات قدراته لدرجة ان السلطان خلع عليه لقب سنجق بك، وفى عام ١٤٣٦ عينه السلطان حاكما لاقليم ديبرا Dibra الالبانى. ومن هنا ذهب على رأس ثلاثمائة فارس لينضم إلى قوات السلطان المجتمعة لملاقاة هونيادى فى ١٤٤٣. ولكنه انتهز هذه الفرصة ليعمل بمفرده لتحقيق اغراضه حيث انتهى الامر بانتفاضة البانية كبيرة وتأسيس العصبة، وظل يحارب الى ان وقع هدنه مسلحة مع السلطان محمد الثانى فى ١٤٦٠، ولم يخلو الامر من اثاره بعض المشاحنات هنا وهناك فى عام ١٤٦٢ ولفترة قصيرة، الا ان حملته النهائية بدأت بهجوم السلطان محمد الثانى فى ١٤٦٤. وبعد ذلك بربع سنوات، ونتيجة لحرب لم تفر بعد، مات سكندربج فى يناير من العام نفسه، ومع هذا ظلت مقاومة الالبان قائمة بعد موته الى ن

خضعت البانيا خضوعا تاما للحكم العثماني في ١٤٧٩ .

اما بايزيد الثاني الذي كان مسالما بطبيعته، فلم يفعل الا القليل بالنسبة لما حققه السلطان محمد الثاني من انتصارات ناجحة. فقد سحب قواته من اوترانتو، ولكنه واصل الغزوات العثمانية في غرب البلقان حيث نجح في طرد البنادقة من المورة كما أمن منطقة دوبروديه Dobrudja المهمة، واجبر مولدافيا على الدخول مع الامبراطورية العثمانية في علاقة تبعية. ولقد كانت التحركات التي قام بها السلطان بايزيد الثاني على جانب كبير من الاهمية، ويمكن اعتبارها نوعا من عمليات تطهير البلاد من العناصر المضادة في اعقاب المعارك الكبيرة التي انتصر فيها السلطان محمد الثاني، او نوعا من حماية حدود الدولة جنوب خط الدانوب - سافا الذي كان يمثل حدودا طبيعية ملائمة في تلك الايام، كما كفلت تأمينا نسبيا للممتلكات العثمانية في اوربا.

اما فيما يتعلق بسياسات السلطان سليمان لاول، فانها لفرط ضدها، تستعصى على التقييم، فقد كان معروفا في اوربا باسم سليمان العظيم، ففي خلال فترة حكمه وصلت الامبراطورية العثمانية الى اوج عظمتها. وعلى الرغم من ان العثمانيين اعتبروا اعماله التشريعية اعظم منجزاته على الاطلاق حتى لقد لقبوه «بالقانوني»، الا أنه من الواضح انه كان سلطانا محاربا لم يمر عام من اعوام حكمه التي بلغت ستة واربعين عاما دون ان يقود جيشه في معارك هنا وهناك. ولهذا نجد ان كثيرا من الخبراء يعتبرون غيابه المستمر عن استانبول عاصمة السلطنة في ميدان المعارك، مسؤولا الى حد كبير عن ظهور ظاهرة الشللية في الحكومة المركزية، وعن تعاظم قوة وسلطات الصدور العظام وخاصة الصدر الاعظم ابراهيم، وعن بداية ظهور قوى سياسية داخل القصر تتكون من الحریم والطواشية، ادت الى تدهور وفساد المؤسسات المركزية الحاكمة بسرعة متناهية.

كانت انتصارات سليمان الاول في كل من اسيا واوربا مكثفة ولها مغزاها، فهي في نظر دارسو التاريخ العثماني ادت الى امتداد المحور الشمالي الشرقي - الغربي للدولة العثمانية إلى اقصى نقطة يمكن ان تمتد اليها ابتداء من ابواب فيينا وحتى ايران والخليج الفارسي. واصبح القيام بغزوات مستمرة ودائمة عملا مستحيلا بسبب طول موسم الغزو وحاجة الجند السباهية للعودة سنويا لحيازاتهم (اقتطاعاتهم) لتحصيل مستحقاتهم، وكان موسم الغزو يبدأ متأخرا في الربيع بسبب رداءة الطرق في اعقاب هطول الامطار وينتهي عادة مع سوء الاحوال الجوية في اوائل الخريف .. هذا في الوقت الذي كان يتعين فيه على السباهية العودة إلى حيازاتهم فور انتهاء موسم الحصاد لرعاية اهل بيوتهم وشؤون المنزل والقيام بواجباتهم غير العسكرية. ولعل هذه الظروف والملابسات تفسر الاضطرابات التي قامت بين الجند، واهم من ذلك تدهور نظام التيمار خلال الحكومات المتعاقبة التي تلت سليمان.

ومهما يكن من امر صحة تلك الملاحظات والتفسيرات، فانها لا تكفي لتفسير الاجراءات الكبرى التي قام بها السلطان سليمان الاول، حتى ولو افترضنا انه شأن اسلافه الكثيرين كان يقوم بواجبه من اجل توسيع رقعة الاسلام بشكل جاد معتقد أنه سيد الدنيا. على ان تحالفه المعروف مع

فرانسوا الاول ملك فرنسا (١٥١٥ - ١٥٤٧) وسياسته تجاه المجر بصفة خاصة، لا تتناسب مع القول بان سليمان كان يسعى لأن يكون قاهر الدنيا، فقد كان مثالا معاصرا لأعظم حكام اسرة الها بسبورج، الا وهو شارل الخامس (١٥١٩ - ١٥٥٦) الذى كان قاب قوسين او ادنى لأن يحكم العالم بما فعله من اجراءات أكثر مما قام به سليمان. وعلى الرغم من المشكلات الداخلية التى واجهها شارل الخامس فى الولايات الالمانية مع بداية حركة الاصلاح الدينى، فقد كان يمثل خطرا حقيقيا ليس فقط لفرانسوا الاول، بل لسليمان ايضا. وهذا الخطر يفسر بالضرورة تحالف الاثنان: فرانسوا وسليمان معا، كما يفسر ايضا الاتصالات التى تمت بين السيد الاعلى لدولة اسلامية - عثمانية عظمى وامراء المانيا البروتستانت.^(١)

والحق ان مشكلة الهابسبورج مست بشكل او بآخر المجر. وحتى نفهم التفسير القائل بعدم امبريالية توسعات سليمان فى اوربا، يتعين التعرف على شؤون المجر واحوالها، خاصة وان هذا الاحوال تتعلق بالتوسع السريع لسلطات الهابسبورج فى المجر.

كان البرت Albert هو اول من توج ملكا على المجر من اسرة الهابسبورج فى ١٤٣٧، ثم اصبح ملكا على بوهيميا فى العالم التالى (١٤٣٨) باسم الامبراطور ألبرت الثانى. وعندما مات صغيرا فى ١٤٤٠ سارع كبار رجال المجر من التجار والصناع والنبلاء الذين كانوا لايرغبون فى ان ترتبط بلادهم ببيت قوى حاكم (بيت هابسبورج)، باختيار فالديسلاف الثالث ياجيتو Waldyslaw Jagietto III ملك بولنده، حاكما للمجر وتوجوه باسم اولاشلوا الاول ulaszlo (١٤٤٠ - ١٤٤٤). غير ان آل هابسبورج لم يستسلموا بسهولة وتمسكوا بادعائهم فى عرش المجر، وعينوا ابن البرت وكان طفلا باسم الملك لاشلوا الخامس Laszlo. وعندما مات الملك مائياس ابن هونىادى، بحث نبلاء المجر مرة اخرى عن حاكم ضعيف فوجدوا ضالتهم فى ياجيتو آخر الا وهو ملك بوهيميا الذين توجوه باسم اولاشلوا الثانى (١٤٩٠ - ١٥١٦) وخلفه فى الحكم ابنه لاىوش الثانى Lajos (لويس) الذى حكم المدة من ١٥١٦ - ١٥٢٦.

فى تلك الاثناء كان آل هابسبورج يكونون حزبهم الموالى لهم داخل المجر وسط الاجنحة المتعددة لكبار رجال البلد من اصحاب المهن التجارية والصناعية والنبلاء. فمن ناحية أكدوا ادعاءاتهم فى عرش المجر بسلسلة من المصاهرات الذكوية، اذ تزوجت ماريا أخت شارل الخامس من لاىوش الثانى ملك المجر، وفى الوقت نفسه تزوج شقيق شارل الخامس فرديناند (امبراطور المانيا فيما بعد) من أنا أخت ملك المجر. وهكذا ضمنت اسرة الهابسبورج عرش المجر فى حالة عدم انجاب لاىوش الثانى ذكورا.

ولما كانت الادعاءات الشرعية فى العروش على جانب كبير من الاهمية آنذاك، فيتعين ان نذكر ادعائين آخرين فى هذا المجال كان لهما تأثيرهما فى تاريخ جنوب - شرفى اوربا. فقد تزوجت إبتنان لملك بولنده زجزموند الاول (١٥٠٦ - ١٥٤٨) من شخصيتين مجريتين، اذ

(1) Stephen fischer - Galati, Ottoman Imperialism and German protestantism, 1521 - 1555 (Cambridge, Mass .Harvard University press, 1959.

تزوجت ايزابيلا من جون زابولياي (Zapolyai) (يانوش Janos) حاكم ترانسلفايا وهو واحد من اغنى واقوى صفوة المجر، وتزوجت أنا من احد سادة ترانسلفانيا العظام وهو ستيفن باثورى (Istvan Bathory) (اصطفاان). وكانت هاتان الزيجتان على جانب كبير من الاهمية ليس فقط للبولنديين والمجريين، ولكن للتاريخ العثماني ايضا، فاذا ما وضعنا فى اعتبارنا هذه الزيجات الملكية وما يترتب عليها من امور تتعلق بالحكم والسياسة، امكننا ان نفهم اكثر وأكثر سياسة السلطان سليمان الاول.

اتجهت تحركات سليمان الاولى للاستيلاء على بلجراد فى ١٥٢١، ثم رودس واورصوفا orsova فى ١٥٢٢. ومثل هذه التحركات يمكن تفسيرها بالحاجة إلى الوصول بممتلكات الدولة إلى الحدود «الطبيعية» وتوفير الامن اللازم. وكانت بلجراد فى هذا الخصوص بموقعها جنوب الدانوب تمثل آخر القلاع الحصينة فى البلقان التى كانت ما تزال فى ايدى غير عثمانية، على حين كانت اورصوفا تتحكم فى البوابة الحديدية ذات الاهمية الكبرى للملاحة فى الدانوب. اما رودس فقد كانت لها خطورتها ليس على العمليات البحرية العثمانية، ولكن على التجارة والصناعات الحرفية فى آن واحد.

على ان الخطوة الحاسمة التى خطاها سليمان جاءت فى عام ١٥٢٦ عندما عبر الدانوب وهاجم المجر وانتصر عليها فى معركة موهاكز الحاسمة فى ٢٩ اغسطس، وعند ذاك لم تعد المجر تمثل اى تهديد للعثمانيين ولم تكن بعد فى ايدى الهابسبورج. وأكثر من هذا كانت المجر ماتزال تعاني من اثار ثورة الفلاحين الكبرى التى حدثت فى عام ١٥١٤، تمزقها التحزبات والصراعات السياسية، ويحكمها ملك شاب قادر على اللعب مع الاطفال. وقد يفسر هجوم سليمان على المجر على انه خطوة عدوانية تستهدف مزيد من الانتصار، ومن الممكن ايضا اعتباره محاولة من سليمان للافادة من الموقف المضطرب فى المجر فى توجيه ضربة تترك البلاد ضعيفة منهكة لسنوات طويلة. ومن ناحية اخرى فان المجر الضعيفة تعطى الفرصة للعثمانيين لتركيز جهودهم تجاه حدود فارس، حيث يواجهون هناك مصاعب ضخمة. والحق انه لن يكون بمقدورنا معرفة ما كان يدور فى ذهن سليمان عندما توجه إلى المجر، لكن السياسة التى اتبعها بعد النصر والتى كانت من الضخامة والتنوع بحيث كان ولا بد ان تثير دهشة الجميع حتى سليمان نفسه، تشير إلى ان سليمان لم يكن يحمل فى ذهنه فكرة الغزوات الدائمة.

كان لفرديناند آل هابسبورج شقيق زوجة الملك لاوش الثانى الذى مات فى معركة موهاكز، مطلباً فى عرش المجر، وكان ادعاؤه فى هذا اكثر مشروعية من ادعاء خصمه جون زابولياي. على ان اغلبية طبقة النبلاء وخاصة صغارهم وقطاعات كثيرة اخرى، كانت تعارضه (اى فرديناند) وتفضل عليه جون زابولياي الذى كان مايزال يحتفظ بجيشه سليما. ومن ناحية اخرى كان زابولياي اغنى شخص فى بلاد المجر، ويرتبط بصلبة المصاهرة بأخر ملوك لجر (الملك لاوش الثانى). وعلى هذا فقد انتخب ملكا على المجر فى نوفمبر ١٥٢٦، وقامت قواته باحتلال معظم الاراضى التى اخلاها العثمانيون. اما الجناح الاخر من النبلاء، فقد انتخب فرديناند ملكا على المجر بعد شهر واحد من انتخاب زابولياي، واصبح للمجر ملكان دخلا فى حرب اهلية طاحنة استمرت حتى ١٥٣٨. وفى تلك الاثناء تم التوصل إلى اتفاق تولى فرديناند بمقتضاه العرش بعد موت الملك جون وكان مايزال طفلا.

ان تفاصيل معارك الحرب الاهلية والمفاوضات لتى دارت بشأن العرش، تخرج عن اطار هذه الدراسة، ولا يعنينا منها الا ما يتعلق بسياسة سليمان تجاه ما حدث. فمن المفهوم ان سليمان كان يفضل ان يؤول الحكم فى المجر إلى زابولياى باعتباره ليس من اسرة الهابسبورج وخاصة بعد وفاة جون الذى لم يكن له اى تأثير فى السنوات الاولى من الحرب الاهلية، بل وكان يطلب منه المساعدة كسيد اكبر له. ولعل افضل برهان على اهداف سليمان يتمثل فى هذا النوع من الترتيبات التى صاحبت غزوات العثمانيين الاولى فى اوربا، ثم ما حدث من تراجع لها فى ١٤١٣ من اجل تكوين ولايات عثمانية من الاقاليم الاوربية التى دخلها العثمانيون. فمن الملاحظ ان حملات سليمان المتعددة بين عامى ١٥٢٨، و ١٥٤٠ (تاريخ وفاة الملك جون) استهدفت غرضين اساسيين وهما: ابقاء المجر بعيدة عن ايدى اسرة الهابسبورج، وتحويلها إلى ولاية حدود- تابعة.

والذى حدث ان جون زابولياى قبل ان يموت ببضعة شهور كان قد انجب من زوجه البولندية ايزابيلا، ابنه جون زجزموند (يانوش زجزموند)، وعلى الفور تخلى عن سابق اتفاهه مع الهابسبورج، وبعد موته لم تستطع زوجه (ايزابيلا) الاحتفاظ بالعرش لابنها الوليد، وابقاء الهابسبورج بعيدا، اذ لم تكن هناك قوى اخرى فى البلاد قادرة على صد قوة الهابسبورج او قطع الطريق عليها. وهنا عاد سليمان إلى المجر فى ١٥٤٠ ليجعل من مدينة بودا اىالة عثمانية ومن الطفل جون زجزموند (ابن زابولياى) ملكا على المجر وتابعا للدولة العثمانية، ومسئولا بوصاية امه ايزابيلا على المقاطعات الشرقية للبلاد (المجر). وقد ادى هذا القرار الى تقسيم المجر الى ثلاثة اجزاء: الجزء الغربى فى حوره فردييند، والوسط اىالة عثمانية، والجزء الشرقى تحول بسرعة إلى ولاية جديدة عثمانية تابعة عرفت بامارة ترانسيلفانيا. وعندما اعترف فرديناند الذى كان اكثر اهتماما بشؤون المانيا عن المجر، بالانتصارات العثمانية فى ١٥٤٧ ووافق على دفع جزية سنوية لسليمان - وهو امر يعنى فى نظر العثمانيين قبول حالة التبعية - اعتبر السلطان كل المجر تابعة له، وتتألف من ثلاثة اقاليم: واحد عثمانى، والاثنان يرتبطان بالدولة العثمانية برباط التبعية. ومنذ ذلك التاريخ انحصرت تحركاته شأن اسلافه فى شن الحملات ضد اى حاكم بلقانى او رومانى يخرج عن اطار علاقة التبعية.

ويبدو واضحا من ظاهر التطورات التى عرضنا لها انفا، ان السلطان سليمان كان يفضل بعد انتصاره المذهل فى موهاكز ان يجعل من كل المجر ولاية تابعة على نمط موالديا وولاشيا، وانه اعتبر تقسيم المجر الى ثلاثة اجزاء على نحو ما سبقت الاشارة حلا جزئيا لا يرضى تطلعاته المستهدفة .. فالولا وقبل كل شىء، اذا كان سليمان يستهدف تحقيق نصرا تاما، فقد كان من السهل عليه ان يضم المقاطعات الشرقية للبلاد بدلا من ان يعهد بادارتها إلى ايزابيلا وابنها القاصر كما حدث. كما ان اختياره لهذا الوضع يبين ان سليمان كان يدرك ان الارضى الواقعة شمال خط الدانوب - ساقا يمكن الاستيلاء عليها دون مصاعب، وانه اى سليمان وهذا امر له اهميته الكبرى، لم يكن لديه القوى اللازمة البشرية والعسكرية لتحويل هذه الاراضى الى ولاية عثمانية، بتوطين عناصر فيها وتخصيص عدد من التيمارات بها والقيام باجراءات اخرى كالتى قام بها فى البلقان.

على ايه حال .. لقد ضمت اىالة بودا الجديدة رئاسات اسلامية وموظفين واصحاب تيمارات

.. الخ. لكن لم يكن بينهم عناصر تركية، اذ كان غالبيتهم من سادة البوسنة الذين اعتنقوا الاسلام متأخرا، بل ان عددهم فى حقيقة الامر، لم يكن ذا مغزى .. ففى بودا حدث خروج جماعى للسكان كالذى حدث فى البلقان بشكل عام على اثر الغزوات الاولى للعثمانيين، كما تحرك اهالى الصرب الاصليين إلى الشمال من البلقان، ولم يحل محلهم جماعات قبلية او الروابط الآخية واصحاب التيمارات.

وينبغى الاشارة الى ان تمرد التجمعات القبلية وما اثاروه من فتن فى شرق الاناضول قد اوجد مشكلات ومصاعب كثيرة لكل من بايزيد الثانى وسليم الاول وسليمان الاول. على ان قيام السلطان سليم الاول بباداة هذه التجمعات دون رحمة، وقيام رؤسائهم فيما بعد باعلان ولائهم للدولة الصفوية الصاعدة فى فارس التى كان عليها ان تحارب وفى الوقت نفسه تستقبل هجرات تركية جديدة من وسط اسيا، وتدهور النسل الاسلامى كنتيجة للحروب والمعارك المستمرة .. كل هذا حرم العثمانيين من المصدر البشرى المناسب الذى لم يكن دوره يقتصر على احراز الانتصارات الحربية فقط، بل يمتد إلى المساعدة فى امكانية اقامة اقليم «تركية» فى اوربا. وعلى هذا فقد اضطر سليمان الى العودة إلى استخدام الاسلوب العثمانى القديم فى تحويل المناطق المفتوحة الى ولايات تابعة حتى فى اقليم مثل المجر بوجود تنوء قوى ضد خصومه الرئيسيين فى اوربا من اسرة الهابسبورج.

ولكل هذه الظروف كان ايجاد ايالة بودا حلا اضطراريا لجأ اليه سليمان للضرورة ولضعف تابعه زابولياى، وبينما احتلت بودا خلال الأعوام المائة والخمسين التالية اهمية تالية لروم ايللى كولاية عثمانية «نواة» من ولايات الدولة، فان تلك الظروف والملابسات الآنفة تفسر لماذا اختلف تاريخ كل من هاتين الولايتين (بودا ، وروم ايللى) الاكثر اهمية عن الاخر بشكل ملحوظ. وكانت ايالة بودا اخر الاقاليم العثمانية التى اقامها العثمانيون فى اوربا. وفى هذا الخصوص لا يدخل فى الاعتبار الولايات العثمانية التى اقامتها الدولة فى اقليم بولندة فى الربع الاخير من القرن السابع عشر التى لم تستمر الا لمدة قصيرة والتى كان وجودها ظاهريا او على الورق دون وجود فعلى. كما لا يدخل فى الاعتبار ايضا الحملات التى قام بها سليم الثانى لانها لم تفعل اكثر من تغيير شكلى فى حدود ولاية بودا وليس تغييرا مهما جوهريا، وبالنجاح الذى احرزه سليمان تم اقامة الولايات العثمانية «النواة» فى اوربا.



الفصل الرابع

تنظيم المدينة العثمانية وادارتها

١ - السياسات العثمانية تجاه التجارة والطرق التجارية:

لا يمكن للمدن ان تزدهر وتنتعش اذا لم تعمل الحكومة على ترقية وتنمية مختلف مجالات النشاط القائمة فيها زمن طويل. وقد كانت النشاطات المتعلقة بالتجارة ابرز ما اشتهرت به تلك المدن آنذاك، ودائما ما وجهت للعثمانيين اتهامات بانهم لم يفهموا اهمية التجارة ومن ثم فشلهم في دعمها الدعم اللازم. والحق ان التقدم والازدهار الذي شهدته المدن في الامبراطورية العثمانية يناقض هذه الاتهامات اليقينية. ولكي نبين ان ثمة اساس مستقر لحياة المدينة كان يعكس لدرجة ما فهم الحكومة المركزية لاهمية التجارة، يتعين عليها استعراض السياسة التجارية في المدينة قبل ان تتناول الحياة لاجتماعية فيها.

حتى عهد قريب اعتاد دارسو تاريخ العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث تفسير انهيار بيزنطة وصعود الامبراطورية العثمانية بالقاء التبعة على الاضطراب الذي لحق تجارة البحر المتوسط في تلك الفترة. على ان الدراسين المحدثين اوضحوا خطأ هذا القول وما تحوطه من مغالطات، وفي الوقت نفسه استبقوا في كتاباتهم صورة الاتراك كفرسان متبربرين ومتوحشين يدمرون كل شئ في طريقهم، وينهبون ويسلبون. والمثير في هذه النقطة انه كان للعثمانيين شأن في التجارة وفي الانتاج، وهو وان كان معروفا للمتخصصين، الا انه بحاجة إلى تسليط الضوء عليه اكثر في دراسات مستقلة جزئية. فهناك معلومات متوفرة الان وبدرجة كافية تفيد اهتمام العثمانيين بالمسائل الاقتصادية بما في ذلك الصناعة والتجارة كضرورة جوهرية الاستقرار المالى لدولتهم ولظهورها بالمظهر اللائق، على الرغم من قيامهم بفرض ضرائب ضخمة على المنتجين والتجار على السواء، وفرض تنظيمات خاصة لهم.

لم يكن اقتراب العثمانيين من هذا النوع من النشاط من المسائل المثيرة المفاجئة، فقد كان موقفهم يتمشى منطقيا مع التجربة العثمانية ووجهة نظرهم بشأن الدولة. وعلى الرغم من الضعف النسبي الملحوظ الذي كانت عليه بيزنطة في وقت ظهور العثمانيين على مسرح التاريخ، الا انها كانت ما تزال تتمتع بثروات مالية مناسبة تستطيع ان تستخدمها في شراء الاعداء. او في تمويل الحلفاء بما في ذلك العثمانيين الاوائل .. فما كانت محتاجة مناطق غرب الاناضول من بضائع

قليلة كانت تحصل عليه بدرجة معقولة بواسطة التجار الذين كانوا على صلة بالمدينة الامبراطورية، ومن خلال قوافل التجار والسفن المحملة بمختلف البضائع المتوجهة الى بيزنطة، والتي تمر بالقرب من الاراضى التى اصبحت فى حوزة العثمانيين بعد ذلك. وعلى هذا فليس من الصعب الربط بين هذا النشاط التجارى الحيوى وبين حصول بيزنطة على الاموال بشكل مستمر من معين لا ينضب فيما يبدو. فاذا كان العثمانيون ميالون للدخول فى معارك من اجل الفوز بالغانم والاسلاب، كما كان شأنهم الى درجة ما، فان بيزنطة والحال كذلك، تكون هدفا اكثر فتنه وجاذبية لمثل هؤلاء القوم.

ولايجب ان ننسى ايضا ان الامبراطورية العثمانية كانت بمثابة «حظيرة» بيت عثمان، وان اسمها الرسمى تضمن صفة «الزاهرة». وبمعنى اخر اكثر تحديدا فان حظيرة الله لا بد وان تزدهر. وفى اطار الحكم العثمانى كان على الرعية ان يبذلوا ما فى وسعهم لتنمية قوة وعظمة وثناء البيت الحاكم. وعلى هذا فانه لم يكن ينظر الى العمل الانتاجى باعتباره واجبا دينيا ومدنيا فحسب، بل كان يعد ايضا رمزا للولاء للحاكم، ومن ناحية اخرى كان جزء من «حدود» السلاطين والتزاماتهم ايجاد الظروف التى تساعد الرعية على الاسهام والعمل بالمظهر اللائق. وفى اطار هذا المنهج تكاثفت تجربة كل من الحاكم والمحكوم وواجباتهما بل وفلسفتهما الاساسية لتتوافق مع الحاجات المتنامية لدولة تتوسع، وبلاط يكبر، وجهاز بيروقراطى يتضخم من اجل ايجاد المناخ الملائم للمنجزات الاقتصادية.

وابتداء بالاستيلاء على بورصة فى ١٣٢٦ تلاحظ ان العثمانيين لم يؤكدوا على كافة الامتيازات التى يتمتع بها الحرفيون والتجار فى كل مدينة دخلوها، بل عملوا جاهدين على اقامة مراكز صناعية وتجارية مزدهرة. وقد ارتبطت تلك المدن معا بشبكة من الطرق اعفيت من مختلف الرسوم للابقاء عليها صالحة ليس فقط للاستخدام العسكرى. كما وجهت العناية نفسها الى الطرق الاخرى التى كانت تستخدم اساسا للتجارة. وبلغ من اهتمام العثمانيين بالتجارة ان المميزات التى يتمتع بها رجال الاسطول التجارى خلعت ايضا على طاقم العاملين فى الطرق.

كانت الطرق الرئيسية فى الاقاليم الاربية العسكرى والتجارية هى غالبا الطرق التى كانت مستعملة منذ ايام الرومان. وكان الطريق الرئيسى يبدأ من استانبول (المحطة النهائية لعدة طرق من اسيا) الى آسيا الصغرى، ثم الاراضى العربية، ومنها الى ادرنة. وعند ادرنة يتشعب الطريق الى اربع اتجاهات: الخط الشمالى ويمر خلال دوبرديه حتى مدخل الدانوب ويحازى بروت prut الى حدود مولدافيا من جهة الشمال حيث يدخل الاراضى البولندية. واما الخط الجنوبى الذى يصل جاليبولى كان قصيرا ولكن ذو اهمية استراتيجية. واما الطريق المركزى الكبير او الوسط فيبدأ من ادرنة الى بلوفديف plovdiv، وصوفيا، ونيس Nis وبلجراد، وبودا، وله اهميته التجارية الكبيرة والعسكرى ايضا. واما الطريق الرابع الرئيسى فكان يقع جنوب الطريق العسكرى الرئيسى الى سيرز Scres، وسالونيك، ومونستير، واهريد Ohrid حتى الى الادراياتيك عند دوريس Durres (او Durazzo, Dirac) وله اهمية تجارية اساسا. لقد كان الطريق العسكرى الرئيسى ذو اهمية اقتصادية ليس لأنه يربط استانبول بادرنة، ويربط نيس بكل من بلجراد وبودا فقط، ولكن لانه يمثل النصف الاول من طريق تجارى

غاية فى الاهمية ويعتبر الشريان الخامس الكبير، ويتشعب عند بازرجيك Pazardzhik (تاتاربازارشيك Tatarpazarcik) بالقرب من صوفيا، ويمر خلال سكوبيه Skopje، وبرشتينا pristi-na، وسرايفو، وموستار Mostar قبل ان يصل الى دوبرفنيك (راجوزا Ragusa) على البحر. وهناك طرق اخرى ثانوية تتفرع من هذه الطرق الرئيسية. اما الطريق التجارى الرئيسى «العام» الاخر، فكان طريق الدانوب بطبيعة الحال وكذلك الانهار التى تصب فيه، او التى تصب فى بحر ايجيه، وكلها كانت طرقا تجارية رئيسية ايضا.^(١)

كانت المدن الاكثر اهمية تقع على طول تلك الطرق الرئيسية والفرعية والممرات المائية. وكان اكثر هذه الطرق كما سبقت الاشارة، من انشاء العثمانيين انفسهم، وان كانت غالبيتها العظمى تدين بوجودها لموقعها الجغرافى اصلا فضلا عن انها كانت مراكز حضرية سابقة منذ زمن الرومان وبيزنطة، وقلة منها انشأها السلافيون.^(٢) وعلى الرغم من ان تلك المدن كانت تضم قلة من السكان، الا انها اصبحت النواة الاقتصادية للامبراطورية العثمانية. وخلال فترة الدراسة هذه زاد عدد سكان معظم تلك المدن بفضل وصول المستوطنين الاتراك من ناحية، وبسبب تدفق الناس من القرى المجاورة فرارا من الحروب من ناحية اخرى، وبسبب الفرص التى توفرها الحياة فى المدن من ناحية ثالثة. ولقد ساندت تلك المدن الدولة، ليس فقط بالانتاج والتجارة، ولكن من خلال الضرائب التى كانت تحصل عليها بفعل هذا النشاط. وتحليل هذه العوامل والاسباب من زوايا مختلفة، يمكن شرح وتفسير الكثير من أوجه حياة شعوب جنوب شرق اوربا خلال افضل سنوات الامبراطورية العثمانية. ومما يجعل هذا الامر سهلا ويسيرا ان معظم المدن النواة فى اياتلى روم ايللى والبوسنة تم تنظيمها على انماط وخطوط متشابهة. ومع الاعتراف بوجود اختلافات فيما بينها بسبب الموقع والنشاط الاقتصادى السائد وظروف موضوعية اخرى، الا ان التنظيمات الاساسية وانماط الحياة كانت متطابقة الى حد قريب. اما المدن فى المجر وفى اقليم ايجيه، فانها تقدم نموذجا مختلف المغزى ويحتاج لوصف منفصل.

٢ - تخطيط المدن فى الاقليم « النواة » لاوربا العثمانية:

تضم كل مدينة فى الدنيا من الناحية العملية حيا للاعمال، واماكن سكنية طيبة واماكن اخرى رديئة، واحياء للصناعة، وحدائق عامة، ومراكز للاستجمام والترويح عن النفس، وحاتر مغلقة للاقليات، واقسام اخرى كثيرة متشابهة. وتحدد كل هذه الاقسام والاحياء والمراكز مجتمعة،

(١) انظر اسهل مرجع ممكن فى هذا الخصوص لدى كتبه خليل انالجيك والذى يضم افضل خريطة للطرق العثمانية:

Inalcik, Ottoman Empire, pp, 122 - 123

(٢) انظر المختصر التاريخى الممتاز العام عن مدن البلقان الذى كتبه ترايان ستونوفيتش

Traian stoinnovich, Model and Mirror of the premodern Balkan City, in the book edited by Nikolai Todorov, La Ville Balkanique, XVe- XIXe, Vol.3of Studia Balcanic (sofia; Bulgarian Academy of Sciences, 1970), pp. 83 - 110.

الطبيعية التي تتفرد بها كل مدينة عن الأخرى، ففي المدن الأوروبية القديمة التي يعود تاريخها إلى العصور القديمة أو الوسطى، ما يزال من السهل التعرف على الجزء القديم من المدينة الذي بنى حول بعض القلاع أو بعض القصور الملكية أو قصور النبلاء، وينفصل عن الأحياء الجديدة بحزام من الطرق الواسعة الطويلة التي تقوم مقام الأسوار التي كانت تحمي المدينة القديمة.

ومن الملاحظ أن المدن في جنوب شرق أوروبا تتبع هذا النموذج المألوف بشكل عام دون استثناء. فقد نمت هذه المدن حول الأكرابولس بالنسبة للمدن اليونانية القديمة، أو حول بعض الظواهر الطبيعية الجغرافية المهمة مثل حصن ربوة بودا، وكالميجدان Kalimegdan في بلجراد، وشبه الجزيرة الصغيرة الواقعة بين القرن الذهبي وبحر مرمرية في القسطنطينية، أو مختلف الخلجان بطول شاطئ البحر والدانوب والتي تقدم أفضل التسهيلات كمرافئ طبيعية. ومن المعروف أن العثمانيين لم يفسدوا النموذج الذي وجدوه في المدن التي استولوا عليها على الرغم من أنهم غيروا ملامح المراكز الرئيسية كأن يجعلوها تركية أو إسلامية، وبإضافة ملامح أخرى مثل المدارس والأسواق. وحتى في المدن التي أقامها العثمانيون أو تلك التي نمت عشوائياً حول النقاط العثمانية المركزية، تم تطبيق النموذج نفسه.

على أن ما يفرق ويميز بين أي مدينة تحت الحكم العثماني عما كانت عليه قبل الغزو ان التقسيمات القائمة بين الأحياء أصبحت منظمة تنظيمياً مؤسسياً أكثر وضوحاً وتحديداً. وأما ما يقال عن ترتيب كل شيء في نظام إداري سلطوي صارم، واستخراج قواعد منظمة لكل شيء كتقليد عثماني، كان ينعكس أيضاً في المدينة العثمانية. وبشكل عام فإن مدن أوروبا العثمانية أخذت ملامح شرقية ولم يقتصر الأمر على تنظيم السكان وأصحاب المهن المختلفة في نظام صارم كما سوف نرى، بل إن أماكن العمل والسكن نفسها خضعت لمثل هذا التنظيم.

لم تكن المدينة العثمانية في واقع الأمر أكثر من تكتمل متماسكاً لوجودات ذاتية تجتمعت حول نواة عامة، وكل وحدة منفصلة عن الأخرى أما بحواجز «البيبية» كالأخاديد أو الوهاد، وأما بالأسوار وكانت هذه الأسوار غالباً تمثل الجدار الخلفي للمنازل، لها أبواب تغلق عند المساء. وقد ذكر ستويانوفيتش Stojanović بناء على بيانات جمعها عن عدد كبير من المدن، أن الوحدة الواحدة (محطة) تضم في المتوسط ما بين ٢٥ - ٥٠ منزلاً، تزيد بالمراكز الكبيرة مثل استانبول وإدرنة وإثينا.^(١) والتقدير الآتي من جانبنا يؤكد استنتاجات ستويانوفيتش.. ففي السنجقيات حيث كان السكان يدفعون ضرائب حسب عدد الأبواب المفتوحة على الشارع، كانت المحلات (الوحدات) تنجزاً بأسوار إضافية تحوطها أفنية كبيرة تضم سكاناً كثيرين، ومع هذا فإن لها باباً واحداً مفتوحاً على الشارع. ولم يكن المسلمون والمسيحيون واليهود فقط هم الذين يعيشون في محلات مختلفة، ولكن كان أصحاب الحرف المختلفة من المثلثات الثلاثة يعيشون في محلة واحدة أو محلات منفصلة حسب عددهم في المدينة. وكان قرب المحلة أو بعدها عن مركز المدينة يعتمد على عقيدة الذين

(1) Stojanovich, Model and Mirror, p. 96.

يعيشون فيها او المهنة التي يعملون بها .

لكل محلة خفراؤها الذين يحرسونها بالليل تحت اشراف رئيسها الذى كان يعرف عادة «بالختار» ، واحيانا يعرف «بالشيخ» . فاذا كانت المحلة كبيرة نوعا ما يكون بها مكان خاص بالعبادة ، ورجال دين ، ومقهى ، وحمام عام ، وسوق محلى صغير . ورغم ان تلك الاسوار زالت فيما بعد ، الا ان اسماء الاحياء فى مدن البلقان مازال باقية لتذكرنا « بالمحلات » القديمة .

ان نظرة عامة وشاملة لأى مدينة تكشف للمراقب تخطيطها ، فوسط المدينة او مركزها تميزه قباب المساجد الكبرى ، والمباني الضخمة التى تضم فى جنباتها الاسواق الرئيسية ، وقلعة او حصن اذا كان لايد منها ، وميدان واسع مفتوح . اما بالنسبة « للمحلات » فان حجم وارتفاع منشأتها يحدد بوضوح « الملة » التى ينتمى اليها السكان . ولم يقتصر امر التمييز هذا على المباني الخاصة ، بل انه كان صفة ايضا للمباني العامة فى اسلوب بنائها يكشف عن وظائفها ، وهكذا على حين لم يكن ممكنا ان ترتفع مباني الكنائس المسيحية عاليا او تزود بالقباب اللازمة ، فان اسلوب بنائها وشكلها يميزها عن المعابد العادية ، وتبين ما اذا كان سكان « المحلة » من المسيحيين او من اليهود . كما ان انعدام المآذن فى محلة ما لايشير بالضرورة الى ان سكانها من غير المسلمين ، ولكن ارتفاعات المنازل هو الذى يحدد ذلك . وكل مدينة لها قواعدها الخاصة ، ومع هذا فان منازل المسلمين كانت بحكم القانون مرتفعة عن منازل اهل الذمة . اما دكاكين وورش الحرفيين فتتمركز خارج منطقة السوق المركزى وتقل فى ارتفاعها بقدم على الاقل . ولقد فرضت تلك القواعد المتعددة للبناء بكل قوة وشدة ، وكذلك الحال بالنسبة لقوانين تحديد المناطق ورسمها فى المدينة العثمانية مما اعطاها مظهرا خاصا وملامح محددة . وكان الجانب الاكبر من محلات الاقامة (السكن) صغيرا جدا ويتكون من غرفة واحدة تستخدم فى كل الاغراض بما فى ذلك اعداد الطعام ، على الرغم من ان بكل مدينة مبان كبيرة تضم مخازنا وغرفا كثيرة^(١) وعلى الرغم من وجود مناطق سكنية صغيرة اقيمت على طول الطرق الضيقة والدروب ، كانت المدن نظيفة كما لاحظ كل الاوروبيون الذين جاسوا خلال اقاليم اوربا العثمانية .

كانت الغالبية العظمى من السكان الذين يعيشون فى « المحلات » يعملون فى وسط المدينة ، وكان المنظر العام للمنطقة يختلف من مكان لآخر اعتمادا على الاصل الذى كانت عليه المدينة ، وعلى موقعها المحدد داخل المدينة ، وعلى مبانيها الكبيرة . وايا ماكانت عليه المدينة من تخطيط ومن موقع ، فانها غالبا ما تضم مسجد المدينة الكبير ، والسوق الكبير ، وعدد من الأسبلة والمدارس والحمامات العامة والمخانات من مختلف الانواع طبقا لحجم الاوقاف التى يوقفها الوجهاء واهل الخير على اقامة مثل هذه الخدمات ، فضلا عن وجود ميدان واحد كبير على الاقل . وعلى اطراف المدينة تقع المنازل الفخمة للوجهاء وللتجار الاغنياء . اما المدن الاكبر فكانت تتميز بوجود عدد من المساجد ومبان اخرى عامة وقلعة او حامية عسكرية .

(١) فيما يتعلق بالاحصاءات التفصيلية للنسب المئوية للمنازل بمختلف الاحجام فى المدن البلغارية الكبرى تحت الحكم العثمانى

انظر ما كتبه نيقولاى تودروف

Nikolai Todorov, "La Defferenciation de la population urbaine aux XVIIIe Siecle d' apres des registres des Cadis de Vidin, Sofia et Ruse", La ville Balcanique, pp. 45 - 62.

لقد اضاف العثمانيون عند دخولهم بلدان شرق اوربا مختلف العمائر الدينية ومختلف مباني الخدمات العامة والخدمات التجارية والمستشفيات فى بعض الاحيان، ولو ان بعضها كان قائما بطبيعة الحال من قبل. كما اقام العثمانيون جزء من «امارة» صغيرة او كبيرة وهى مؤسسة اسلامية قديمة بناها العثمانيون ولها جذورها فى احد اركان الاسلام الخمسة الا وهو الزكاة. وفى هذا المجال يقوم المزمكى بوقف قدر معين من ملكيته يدر دخلا معيناً، وغالبا ما تكون قطعة ارض زراعية كبيرة تكفى لأن تصبح وحدة ادارية منفصلة (انظر حاشية رقم (١) من الفصل الثالث)، او دخلا ناتج من الضرائب او الايجار .. الخ للاسهام فى «عمل خيرى» معين. وفى هذه الحالة يسحب المزمكى مستند «الوقفية» وبعد تسجيلها بمعرفة القاضى المختص وتصديق السلطان يصبح ريع هذه الارض وقفا، اى ملكية لله غير قابلة للأيلولة. ويستخدم ريع الوقفية فى الغرض الاصلى الذى تمت من اجله. ومن الملاحظ ان المباني او المنشآت التى اقيمت توقيرا لعظمة الله، كانت من الاحجار او الطوب لكى تبقى شاهدة للأبد. لقد تخكم العثمانيون فى تحديد افاق المدن، وكانت تكايا وزوايا جماعة الاخوية والدرابوش وبعض الوكالات التجارية الكبيرة لكبار التجار، تكمل صورة وسط كل مدينة وبلدة.

وعلى حين كانت المدارس والحمامات والاسبلة والخانات والمباني العامة الاخرى تلبى حاجات الناس اليومية، كانت المساجد تلبى حاجاتهم الروحية، وتتولى المستشفيات رعاية مشكلاتهم الصحية، ويحدد السوق حجم رخاء المدينة ومدى ثرائها. وكان البدستان هو قلب السوق واطلق الرحالة الاوروبيون عليه اسم البازار. وكان أكثر المباني روعة فى المدينة بصرف النظر عن المساجد العظيمة، اذ كان بناء قويا يمثل قلعة الاقتصاد الفعلى بجدرانه وبواباته السميكة وقوته الخاصة من الحراس. ويضم البدستان دكاكين تتعامل فى البضائع الغالية الثمن جدا، ويعتبر خزينة ودائع آمنة يحفظ فيها التجار واغنياء المدينة اموالهم واشياء قيمة اخرى. وتصطف الدكاكين وحتى الورش الصغيرة على طول الطرق الضيقة حول تلك المباني الرائعة التى كانت تغطى غالبا بالحصر لوقايتها من المطر وحمايتها من الشمس. وداخل كل من البدستان والقرصية Carsi (السوق) التى تحيط به، كان لمختلف الحرفيين والصناع والتجار اكشاكاً صغيرة تتفق مع مكانتهم فى التنظيم الرسمى للنشاط الاقتصادى، فكلما كان الكشك قريبا من البدستان كان هذا يعنى اهميته لاقتصاد المدينة. وكان اصحاب المهنة الواحدة يعملون فى مكان محدد بصرف النظر عن عقيدتهم .. وهكذا كان بائع السجاد يعمل فى حارة بائعى السجاد، والخياطون يعملون فى حارة الخياطين وهلم جرا. وعندما كانت المدينة كبيرة الحجم وتتطلب اسواقا كثيرة كان يتم ترتيب كل سوق على النمط نفسه حول بادستانات اصغر او فى أكثر المباني العامة شعبية فى اى جزء من اجزاء المدينة.

٣ - نظام طوائف الحرف وحكومة المدينة:

من الملاحظ ان رعايا الامبراطورية العثمانية جميعا كانوا يصنفون فى طبقات فى بناء هرمى تختلف كل منها عن الاخرى حسب درجة اهميتها. ويحتل النجر والرعاغ الذين لا اعمال

واضحة ودائمة لهم ولا ينتسبون لاي هيئة من الهيئات، قاع الهيئة الاجتماعية. وهاتان الشريحتان ومعهما قبائل البدو الرحل لم يكن لهم وضعا معيناً في الهرم الاجتماعي العثماني، بل انهم خضعوا لضغوط كثيرة لكي يرحلوا او ان «يستقروا» في وظائف «نافعة». اما الطبقات الاجتماعية الاخرى فقد اعتبرت «طبقات صالحة» ومفيدة. وعلى هذا كان على الدولة ان توفر الحماية اللازمة لافرادها للصالح العام. وكان هذا يعنى ان الحواجز الاجتماعية كانت جامدة نظريا في الوقت الذي كان الناس يعملون على تحسين احوالهم داخل طبقتهم.

ويشكل الفلاحون والرعاة الشريحة الدنيا من شرائح «الطبقات الصالحة»، ويلبها في الاهمية صغار التجار والحرفيين الذين يغطون بمنتجاتهم حاجات السوق المحلي. وفوق هؤلاء يأتي اصحاب الحرف الصناعية، وفي القمة يأتي كبار التجار اصحاب البازار الذين يعملون بتجارة الصادرات والواردات على مستوى الامبراطورية. وباستثناء الفلاحين كانت كل الشرائح الاجتماعية تعيش وتعمل في المدن. وفي هذا الخصوص كانت الثلاث طبقات الاولى او التي في قمة الهرم الاجتماعي، تعمل في داخل بادستانات المدن او حولها، وكانوا مع عامة الناس ورجال الدين وقادة العسكر والمدنيون وجنود الحامية العسكرية اذا وجدت، يشكلون عامة السكان. وعلى حين كانت النسبة العددية بين المسلمين واهل الذمة تختلف من مدينة لاخرى، وكان المسلمون يتمتعون باعفاءات ضريبية معينة ويسكنون في احياء افضل، كانت الحياة اليومية للجميع وكذا كافة نشاطاتهم تسير وفق نمط واحد دون فروق.. فكانت الطوائف تنظم نشاط الجميع، وكان شيوخ مختلف الطوائف والمسؤولون الكثيرون الذين تعينهم الحكومة للاشراف على الحياة الاقتصادية، يشكلون معا «حكومة المدينة» ولم تكن هناك حكومة بلدية رسمية لها مسئوليتها.. فكل صغار التجار والحرفيون واصحاب الحرف ينتظمون في طوائف ومنظمين تنظيميا صارما، على حين كان عليا القوم من كبار التجار احرارا في ادارة اعمالهم بالطريقة التي تدر عليهم فوائد كثيرة خارج نطاق مهنتهم.

على ان دراسة الطوائف ونشاطها لا يعنى استعراض طبيعة الحياة في المدينة فقط، بل انه يفرض بالضرورة تناول طبيعة الاجهزة الادارية التي تعينها الدولة لمراقبة نشاط الطوائف، والتفاوض مع شيوخها، مما يعنى في النهاية شرح وظائف حكومة المدينة بشكل او باخر. وحتى يكون هذا العرض سهلا ويسيرا على الفهم يتعين دراسة المبادئ التي تنظم القواعد التي فرضتها الدولة على الطوائف داخليا وخارجيا.

على الرغم من وجود طوائف متعددة في المدن الاوربية قبل دخول العثمانيين، الا ان تنظيمات الآخية (الاخوية) التي دخلت البلاد في اعقاب العسكر العثماني، سرعان ما استوعبت داخلها تلك الطوائف. ولقد احضر الاخويون معهم كل تنظيماتهم الخاصة وايضا عناصر «الفتوة»، وكانوا من الذكاء وسعة الافق بحيث استوعبوا نظم الطوائف بل وحتى الممارسات الدينية في غالب الاحيان. لقد كانت عضوية الناس في اى طائفة من طوائف الحرف لا تتحدد طبقا «للملة» التي ينتمون اليها - فقد تضم الطائفة الواحدة اكثر من ملة، ويقوم افرادها بالانتاج والبيع في نفس الشارع الذي يوجد في القرصية (السوق)، ويتبعون نفس القواعد والاحكام على الرغم من انهم يسكنون

فى «محلات» مختلفة. وانحصر النشاط الاقتصادى لمعظم هؤلاء فى اطار ضيق محدود يتعلق باستخدام المنتج المحلى او استيراد المادة الخام لتصنيعها وبيع بعض المنتجات التى يحتاجها اهل المدن او الريف. ولقد كان من شأن هذه المحددات واحكام الطوائف ان تضع كما سوف نرى، حدودا لنشاط الافراد والعدد الذى يمكن لأى طائفة ان تضمه. وكان الانضمام لآى طائفة من الطوائف يتضمن احتفالا دينيا صوفيا يختلف نوعه من شخص لآخر حسب العقيدة. وكان عدد الاعضاء الجدد لكل طائفة وكذا نشاطهم يحدد طبقا للقواعد العامة للطوائف التى سبقت الاشارة اليها ما لم تكن الطائفة تقوم بانتاج بضائع تحتاجها كافة بلدان الامبراطورية للاستهلاك او للتصدير للسوق الخارجية.

كان للطوائف وظيفة اجتماعية - اخلاقية الى جانب وظائفها الاقتصادية، فكانت تقوم بوظيفة الجمعية الخيرية حيث تقوم برعاية المحتاجين من ابنائها وخاصة الارامل واليتامى. وكان النشاط الاخلاقى والدينى والخيرى لكل طائفة من الطوائف تحت اشراف اكبر شخص فى الرابطة الاخيه الا هو «الشيخ» الذى كان يعتبر اعلى اعضاء الطائفة مكانة، على حين كانت القوة الاقتصادية فى يد «الكتخدا»^(١) الذى يختاره الاسطوات من بين صفوفهم. ويقوم الكتخدا بادارة الاعمال والمهام التى تتعلق بالطائفة من حيث الاتصال بالطوائف الاخرى وبرجال الحكومة، ويعرض رأى الطائفة اذا كان الامر يتطلب اصدار قرار يتعلق باحوال المدينة كلها. وهكذا اصبح الكتخدا عضوا فى «حكومة المدينة». وعندما تفرض الظروف مناقشة المهام التى تخص كل الطوائف فى المدينة وتقديم المقترحات المناسبة، يظهر على مسرح الحوادث مسئول اخر بالاسم نفسه (الكتخدا) له اهميته. ولكن فى هذه المرة يكون الكتخدا وكيفا عن المدينة لدى الجهات الاعلى فى الدولة، وليس وكيفا او مسؤولا عن طائفة معينة، حيث يحمل الى العاصمة مظالم السكان ومطالبهم بالتعويض عما حاق بهم من خسائر. وعند تأسيس طائفة جديدة يتعين اختيار المسؤولين الرئيسيين اولا وهما الشيخ والكتخدا، حيث يتوجهان الى القاضى لتسجيل الرابطة وقواعدها ومعها ما يثبت عدم اعتراض الطوائف القائمة.

وعند انتخاب او تعيين مسئولين جديدين (شيخ وكتخدا) يتعين ايضا تسجيلهما بواسطة القاضى الذى يقوم فى مثل هذه الحالات بدور الوسيط بين موثق العقود وامين محفوظات سجلات المدينة. ولم يقتصر الامر على تسجيل الشيخ والكتخدا فى الوثائق والسجلات الرسمية للمدينة، ولكن ثمة وظائف اخرى كان يتعين تسجيل اصحابها وهم: اليوغيتباشى ووكيله، وايضا الخبيران وهما موظفان رسميان يتم اختيارهما من بين الاسطوات بمعرفتهم. اما الفجيتباشى فيقوم بمهمة

(٥) الكتخدا احد المصطلحات العثمانية التى لا يفهم الا فى سياق الموضوع اذ ان لها معنى اساسى غامض يوازي تقريبا كلمة «وكيل». كان كتخدا الطوائف هو وكيل الطائفة فى التعامل مع السلطات ولكن معظم واجباته تتم داخل الطائفة التى يكون مسئولها الاول. ومن الملاحظ ان لكل المسؤولين الكبار امثال البيلريك والدفتردار موظفين يعملون تحت رئاستهم يحملون نفس اللقب. ومع هذا فقد كانت مستوياتهم فى الادارة ثانوية او مهمة. وقد اشير ايضا الى الكتخدا باعتباره مسئول مدينة كما سوف يأتى ذكره لاحقا فى هذا الفصل.

وكيل مبيعات او مشتروات للطائفة وتوفير المادة الخام اللازمة لكل الاسطوات، ويتولى ايضا مسئولية نقل المنتجات وتسليمها حسب الاحوال الى الطوائف الاخرى والى الدكاكين فى القرصية او الى المشترين الاخرين، وتنحصر مهمة الخبيران فى الرقابة على جودة الانتاج والاسعار وتسوية المنازعات بين الصناع.

كان الاسطوات يشكلون جوهر ولب الطوائف، وفى الورش الكبيرة كان الالفوات (العرفاء) يعملون تحت رئاسة الاسطوات. ولم يكن باستطاعة الالفوات لاسباب كثيرة ان يمتلكوا ورشا خاصة بهم نظرا لقله عددهم فى اى مدينة وبالتالى لم يكن بإمكان اى منهم ان يكونا اسطى. والحق ان هؤلاء الالفوات كانوا هم العمال المهرة الفعليين. وفى اسفل الطائفة أتى الجديك (اى عامل اليومية) والاشراق (اى الصبى). وعلى الرغم من ان المسلمين واهل الذمة كانوا سواء فى المعاملة داخل الطوائف الحرفية فى الفترة الاولى من الحكم العثمانى التى كانت تتميز بالتنظيم الجيد، الا ان وجود الالفوات يشير الى ان الطوائف وان كانت جماعة من المنتجين والبايعين، الا انها كانت قوة اقتصادية قومية ايضا.

كان نشاط طوائف الحرف فى العصر العثمانى يتشابه مع نشاط تلك الطوائف فى اوربا العصور الوسطى فى كثير من الامور. ومثلما كان حال الطوائف فى اوربا العصور الوسطى من حيث الاهداف، كانت الطوائف العثمانية تستهدف هدفين رئيسيين: الانتاج بوفرة لتغطية حاجات الاستهلاك المحلى، وتحقيق مستوى معيشى مرضى لاجضاءها ومنع «العناصر الخارجية» من التعدى على احتكاراتهم.. ولقد حققت الطوائف فى اوربا العصور الوسطى وفى الامبراطورية العثمانية اغراضها بالتنظيم الصارم للانتاج وضبط نوعيته ومراقبة اسعاره وضبط عضوية الطائفة. ومع هذا كان هناك اختلاف كبير بين طوائف العصور (اوربا الوسطى واوربا العثمانية). ففى اوربا العصور الوسطى نشأت الطوائف فى المراكز الحضرية الغربية الكبيرة استجابة لمؤثر اقتصادى، ثم تمت كتنجارية وكانتاج وتوسع حضرى حتى وصلت الى حدود لا تستطيع تجاوزها. وقد ادى هذا الى تدهورها وتصفيتها فى النهاية. واما فى الامبراطورية العثمانية حيث كان كل شىء يخضع لتنظيم صارم كما لو كان ابديا، نلاحظ انه بمجرد تثبيت اسطوات فى اى طائفة فى اى مكان تبقى الطائفة مستمرة. وعلى حين ادى مثل هذا الترتيب الى حماية مصالح اعضاء الطائفة الا انه اعاق نمو قطاعات انتاجية متنوعة وبالتالى نمو المدينة ونمو الاقتصاد. ولقد قاد هذا الى كثير من المشكلات من بينها التفاضى عن القواعد والاحكام المنظمة لعمل الطوائف، على الرغم من توالى صدور المراسيم والوامر السلطانية باتباع القواعد، ونشوء طوائف جديدة، وظهور روابط غير مشروعة.

وقد كان ظهور طوائف جديدة خارج نطاق الشرعية اقل النتائج ضرورا لانها تتعلق على الاقل بالاحتياجات الاقتصادية الحقيقية. لكن عدم مشروعيتها فى الوقت نفسه كان يعنى سيادة الرشوة والفساد العام. ولقد كان ظهور تلك الطوائف الجديدة يمثل مصاعب كبرى.. فخلال تلك الفترة الاولى تبلورت عدة تخصصات انتاجية صاحبها ارتفاع سريع فى الاسعار وايجاد احتكارات جديدة. ولعل افضل مثال على ذلك الاتجاه يتمثل فى انتاج المنسوجات الصوفية بعد استقرار اليهود

السفارديم في سالونيك، فقد اخذت طائفتهم وضعا احتكاريًا بسرعة ملحوظة، وحال وجودها دون انتشار عمال مهرة اخرين، بل واستمر استيراد المنتجات الصوفية على نطاق واسع. لقد كان تقييد نشاط الطوائف وراء معظم المشكلات التي ظهرت في الفترة المتأخرة من الحكم العثماني كما سوف نرى.

ولقد فعلت هذه القيود فعلها ايضا داخل الطوائف على وجه الاجمال، اذ خنقت ملكات الابداع وأماتت الحافز لدى العمال. وكان نظام الحسبة وهو مجموعة قوانين تتطابق مع جانب من الشريعة الاسلامية، يحدد الاسعار والاوزان ونوعية المنتجات، ويعاقب المخالفين لكل بند من تلك البنود. وكانت كل ورشة تتسلم مادة خام كافية وعمالة ماهرة تضمن الحياة لصاحب الورشة وعائلته وعماله. ويستند قانون الحسبة الى نظام الحسبة الاسلامي وتعني ان من واجبات الحاكم ان يطمئن على معاملة الرعايا بالقسط وتحقيق العدل لكل من المنتج والمستهلك.

ولسوء الحظ كانت الرقابة على نوعية الانتاج من الشدة والصرامة بحيث حالت دون تقديم اساليب وافكار جديدة افضل في الانتاج، واسهم في هذا التجميد اعتقاد المسلم ان حياة الدنيا عرض زائل وان الاخرة خير وابقى، ومن ثم فان حياة الترف والثراء ليست ضرورية، بل انها حياة خاطئة. وكان من شأن كل هذه الضوابط ان تنظم وتحدد ايضا الارباح في صرامة شديدة دون نظر الى حقيقة الحاجات وتغير اوضاع وظروف السوق. وفي هذا الشأن تحددت الارباح بنسبة ١٠٪ في كل انواع المنتجات.

فاذا كانت تلك القواعد والاحكام تستهدف تطبيق فكرة مجتمع المساواة الاسلامي فلا بأس من ذلك .. ومع هذا كان القانون يحايي تاجر الجملة الوسيط على حساب المنتج، ولم يراقب طبقة كبار التجار التي كانت تباشر اعمالها طبقا لمبدأ العرض والطلب وتجننى ارباحا طائلة من وراء ذلك. واكثر من هذا فان تلك الاحكام والقواعد لم تمنع من نمو التفاوت المدهش داخل صفوف وشرائح كل طائفة، كما لم تمنع كبار التجار من تمويل الحرفيين مباشرة من وراء ظهر الطائفة، فقللوا بذلك من قدر بعض الاسطوانات ومكانتهم. كما لم يتوقف هؤلاء الكبار ومعهم الرأسماليون الآخرون الذين كسبوا اموالا من التيمارات الكبيرة، عن استخدام نفوذهم للتخلي عن بعض تلك القواعد والاحكام لصالح اسطوانات الطوائف الذين اصبحوا يقومون بدور الشريك الصامت في مشروعات كبار التجار هؤلاء. ولقد قدم تودوروف أمثلة جيدة لهذا التفاوت من خلال دراسة عن قيمة الورش التي سجلها القضاة باسم الورثة آخذًا في الاعتبار نظريا ان كل ورشة من هذه الورش لها اسطوى. وفيما يلي التوزيع الذي وجدته تودوروف:^(١)

٨ افراد يملكون اكثر من ١٠ ورش

(1) Todorov, "population urabaine", p.57.

وقد تم حساب ٣ أو ٤ ورش لممتلكات الـ ٦٥ مالكا ٦٥ مرة اى ٣,٥ = ٢٢٨ واما باقى الارقام فقد حسبت على الحد الأدنى للمجموعة.

٥٣ فردا يملكون أكثر من ٥ ورش

٦٥ فردا يملكون أكثر من ٣-٤ ورشة

١٢٦ فردا يملكون أكثر من ٢-٣ ورشة

١ فرد يملك ورشه واحده

وتشير هذه الأرقام الى انه من بين ٩٢٥ ورشة وردت في الأربع سطور الأولى كان ٢٥٢ فردا فقط يمثلون ملكية مشروعة طبقت قواعد واحكام الطائفة كمييار للمشروعية. وقد كشفت دراسة تودوروف ان ملاك أو اصحاب الورش الكثيرة لم يكونوا من بين رجال الحرف والصناعة، فقد كان احد هؤلاء الذين يملكون خمسة ورش وهو «إلهاك موسى» يملك أيضا ثمانية طواحين ونصف، وواحد وربع خان واشياء اخرى لها قيمتها^(١) ولعل هذا يوضح ان رجلا مثل «فارغان» وكان يعمل خياطا ولم يترك لورثته اى دكان او ورشة وكل ادواته التى تركها لاتساوى أكثر من قرش ونصف، لا بد وانه كان يعمل لدى شخص آخر مثل إلهاك موسى. وعلى العكس من هذا نجد ان لازار وكان يعمل خياطا أيضا ترك لورثته ادوات ومادة خام ومنتجات جاهزة قيمتها الف ومائة وواحد وسبعون قرشا مما يثبت انه كان اسطى كون نفسه تكويننا جيدا.^(٢)

وعلى حين اخذ تودوروف بياناته من القرن الثامن عشر من واقع ثلاث مدن فقط، فليس من شك ان التطورات التى ادت الى هذا التباين والتفاوت لا تختص بهذه المدن الثلاث، وانما لا بد وانها بدأت فى القرون السابقة. ومن الواضح ان القواعد الصارمة للطائفة ونظام الحسبة لم يحولا دون اساءة استخدامهما، كما اضرا بالتنمية الاقتصادية على الرغم من خدمتها لاهداف معينة بشكل مرضى، ولعل هذا يفسر فى جانب الانكماش الذى اصاب مدن اوربا العثمانية فى اواخر الحكم العثماني بعد ان كانت قد نمت سكانيا وازدهرت فى بدايته.

لم يكن مختلف المهنيين من اصحاب الحرف يقومون فقط بانتاج البضائع والمنتجات بل لقد اضافوا قدرا ملحوظا من الدخل لخزينة الدولة، ذلك ان جميع المهنيين كانوا يدفعون ضرائب للدولة على مساكنهم وعلى ورشهم، ويدفعون رسوما على كل مستند رسمى يحتاجونه، ورسوما اخرى لعقود الزواج وايلولة التركات، وضرائب اخرى على الذين يبقون دون زواج حتى سن معين، وباختصار يدفعون ضرائب عن كل نشاط ممكن ان يتعلق بحياتهم الشخصية. اما المهنيون من اهل الدمة فكانوا يدفعون فوق ماسبق الجزية فضلا عن غرامات متعددة للقاضى بحجة ارتكاب عدد لا يصدق من «الجنح» مثل مخاطبة مواطن بطريقة غير لائقة. ويضاف الى هذه الاعباء ضرائب اخرى غير عادية مثلما يحدث من جمع اموال لتقديم هدية للسلطان عند اعتلائه العرش، او فى حالة الدخول فى حرب، الى جانب الاسهام بمبالغ كثيرة من خلال اعمالهم.

وكانت الضرائب تفرض أيضا على المادة الخام التى تستورد إلى المدينة، وخلال عملية النقل

(١) نفسه، ص ٦٠

(٢) نفسه.

تعرض المنقولات لضرائب متعددة عند عبور الانهار، وعند النقاط الاستراتيجية الاخرى على طول الطريق. وعند وصول المواد الخام الى محطاتها الاخيرة يقوم المحتسب وهو احد مسؤولي المدينة الرسميين بفحصها وتفقيشها ويقدر قيمتها ويحدد الضريبة المقرر دفعها قبل بيعها بواسطة الوسيط إلى الطوائف التي تتولى توزيعها على مختلف الورش. وكان هذا المحتسب مسئول عن الأسواق وما يرتبط بها من مراقبة الأوزان ونوعية الانتاج بعيدا عن مسؤولي الطائفة، وكذا تحصيل مختلف عوائد السوق، كما يقوم بمساعدة القاضى ومسؤولي الطائفة في تحديد الاسعار. وباختصار كان المحتسب بمثابة مدير الشؤون الاقتصادية للمدينة الذى تعينه الدولة، وأحد واجباته الرئيسية تحصيل مختلف الضرائب والرسوم المقررة. وتوضح ضخامة حصيلة الضرائب والرسوم من الأرقام المتاحة من عام ١٥٥٣ عندما كانت الامبراطورية فى اوج مجدها العسكرى والاقتصادى. ففي ذلك العام بلغت الاموال فى خزانة الدولة حوالى ١٢,٧٥٠,٠٠٠ دوقية ذهب، منها ١,٠٠٠,٠٠٠ دوقية من الجزية، ٨٠٠,٠٠٠ دوقية خاصة بضرية الاراضى، و ١,٢٠٠,٠٠٠ دوقية خاصة بالتجارة والجمارك وعوائد اخرى.^(١)

كان الكتخدا العام وكتخداوات الطوائف، والمحتسب، وقاضى القضاة ونائبه فى الاقسام الصغيرة، و «مختار» المحلة، يشكلون جميعا ما يشبه «حكومة المدينة». وقد اضيف كتخدا ثالث (كتخدا المحلة) تعينه حكومة المدينة للاشراف على المحلة (القسم). وفيما عدا وظيفتا الموثق القضائى الدينى العام، والقاضى، كانت جميع الوظائف الاخرى تزاوّل بمعرفة اثنين لكل وظيفة. وكل واحد من هذين الاثنين يعمل معه واحد «منتخب» وآخر «معين»: كتخدا الطائفة، والكتخدا، والمحتسب، والخيران، ومختار المحلة وكتخداه، مع الوضع فى الاعتبار ان المسئول المعين يتمتع بسلطات اكبر من المنتخب. وبالإضافة الى ذلك كان هناك جامع للضرائب فى كل مكان ويختلف وضعه وشخصيته من مكان لاخر اختلافا كبيرا، فعلى سبيل المثال قد يكون موظفا معينا او احد وجهاء البلدة او مزارعا (صاحب مزرعة).

اما المظهر الدائم للحكومة فيتمثل فى وجود رجل «الشرطة» الذى قد يكون باسم «صوباشى»، و«قواس باشى» الذى يرأس قوات تسمى عادة «القواسية»، وواجبهم الرئيسى تنفيذ القرارات واوامر العقاب التى تقرها مختلف السلطات. وعلى الرغم من ان اولئك الموظفين الرسميين لايعتبرون اعضاء فى هيئة ادارة المدينة فى السنجقيات والاقضية، فان وجودهم كان ظاهرا فى كل اركان الاقاليم العثمانية، ولهم وزن كبير خاصة اذا كانت المدينة جزء من سنجقية احد البكوات او كانت فى دائرة «الخاص» السلطانى. وكانت المدينة تضم عناصر اخرى رسمية تشترك فى صنع القرارات المحلية مثل مسؤولى مؤسسات الاوقاف (الحمامات العامة والخانات.. الخ) ذلك ان هذه المؤسسات التى يشرفون عليها تلعب دورا مهما فى حياة المدينة، ولأنهم يقومون بتوزيع مبالغ معينة من الاموال طبقا لتعليمات صاحب الوقف، فاذا ما كان الوقف عبارة عن مدرسة فان لكل من المدرس وتلاميذه دورا لا يستهان به فى حياة المدينة. كما كان لرجال الدين والمدرسين المسيحيين واليهود دورا رسميا ايضا فى حياة المدينة وخاصة فى المدن التى يشكل المسيحيون واليهود فيها

(1) Afet INAN, Aperçu general sue l' histoire economique de l' Empire Turc- Ottoman (Istanbul: Maarif Matbaasi, 1941), p. 28

قطاعات مهمة داخل الطوائف الاكثر اهمية وان كان دورا اقل اهمية.

هناك مجموعة اخرى كان لها تأثيرها على الحياة فى كل مكان من المدينة الا وهى مجموعة الوجهاء، وهى عناصر كان لها وزنا كبيرا وشاركت فى المناقشات التى انتهت الى قرارات مصيرية خاصة بالمدينة او كان لها علاقة بقرارات مصيرية اخرى على مستوى اكبر من المستوى المحلى. وينتمى الى هذه المجموعة كبار التجار، وشخصيات اخرى عرفت فيما بعد باسم «الاعيان». وهؤلاء الاعيان كانوا اناس اغنياء بارزين سواء كانوا من اصحاب التيمارات الذين يعيشون فى المدينة بالقرب من اقطاعاتهم (التيمارات)، او موظفون على المعاش اكتسبوا مكانتهم بالميراث او من طبيعة عملهم الوظيفى، وكانوا بهذه الوضعية يتحكمون غالبا من وراء ستار فى كثير من مجالات اقتصاد المدينة، ويتمتعون بمكانة بارزة نظرا لوضعهم الاجتماعى، ويتمتعون باتصالات مرموقة لها وزنها فى العاصمة، بل وكانوا يستشارون فى معظم المسائل والقضايا المهمة.

والحقيقة ان الذى نما وتطور لم يكن حكومة مدينة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، ولكن كانت حكومة مدينة على اية حال تتكون من مجموعة من الناس تم انتخابهم بمعرفة اعداد لهم، تمتعوا بمكانة محلية وشكلوا شيئا يشبه اوليغاركية المدينة. وكانت هذه «الحكومة» مسؤولة عن تنفيذ مختلف القوانين والاحكام، وفى الوقت نفسه تضع فى اعتبارها مصالح المدينة حيث يستشيرون الاخرين، وتصنع القرارات، وتصوغ الالتماسات والشكاوى التى يتضرر منها الناس حيث يقوم كتخدا المدينة او احد الاعيان المرموقين بتقديمها الى البييرليك او السنجق بك، او الى الحكومة المركزية فى بعض الحالات.

ولم يكن الاعيان ينتمون الى طبقة الرعايا على الرغم من انهم كانوا يعيشون بينهم ويشاركون فى نشاطاتهم، وانما كانوا ينتمون الى الشريحة الدنيا من الطبقة العليا فى كل مدينة. اما كبار التجار فانهم كانوا اعضاء فى قطيع الرعايا، وسواء اكانوا مسلمين أم ذميين فقد كان وضعهم يختلف بشكل ملحوظ عن كل الموظفين العثمانيين وسائر الرعايا، ويبرهن وجودهم على مدى الاهمية التى اولتها الحكومة للاقتصاد، اذ بدونهم لم يكن بإمكان الاقتصاد العثماني ان يأخذ مجراه بسهولة. وكما سبقت الاشارة كان كبار التجار يتولون مهمة التجارة الداخلية بين سائر البلدان فضلا عن تجارة الاستيراد والتصدير. ولقد ضمت صفوف كبار التجار فى اوربا العثمانية اترك ويونانيين وصرب ويهود وارمن فى بعض الاحيان. وعلى عكس كل الناس فى المجتمع العثماني، كان اولئك التجار متحررين من القواعد والاحكام والضوابط المفروضة على الاخرين. وعلى الرغم من ان نشاطهم بما فى ذلك علاقاتهم فيما بينهم كانت تحت الرقابة، الا ان مختلف القواعد والاحكام المطبقة عليهم يمكن مقارنتها بقانون التجارة والاعمال بالمعنى الغربى المعاصر والتى بدونها كان يصعب تنظيم اى نشاط تجارى عادى. ورغم ان كبار التجار هؤلاء ينتمون الى طائفة التجار وهم اناس يعملون بطبيعة الحال فى مجال المال، الا ان ازدهار المسلم العادى لهؤلاء الذين يكسبون المال لم ينطبق عليهم، ولهذا فلم تكن تسرى عليهم قواعد الحسبة.

ومثلما كان صغار التجار واصحاب الحرف والصناعات يسهمون فى رخاء الدولة بما يقومون به من عمل وبما يدفعونه من ضرائب، كان كبار التجار يقومون باعمال كثيرة فى هذا الخصوص لعل اكثرها كان يتمثل فى توزيع المادة الخام والمواد الغذائية والمصنوعات فى طول الامبراطورية وعرضها. وبلى ذلك فى الاهمية دورهم فى تجارة الاستيراد والتصدير، واخيرا ومن وجهة نظر الحكومة المركزية، اسهاماتهم الكبرى فى الجمارك وضريبة المرور والدخولية. وكانت دائرة معاملاتهم فى معظم الحالات على نطاق واسع وخاصة فى السلع الترفية ذات القيمة المرتفعة. ومن الملاحظ ان عددا قليلا من كبار التجار هؤلاء كان لديه المال الكافى للتعامل بمفرده فى كل الانشطة التجارية. اما الجميع فكانوا بحاجة لمن يشاركهم. ولقد ادت هذه الظروف الى ظهور مختلف اشكال المشاركة والمقاولة واقامة سلسلة من الوكالات خضعت للتنظيم القانونى. ومهما كان امر التعقيد الذى يصاحب تكوين مجموعة رجال اعمال ومهما كان عددها، الا انه كان باستطاعتها ادارة العمل وتحقيق ارباح هائلة. وعلى حين تركز كبار التجار هؤلاء فى المراكز التجارية الكبرى فى استانبول وادرنه واثينا وسالونيك وسراييفو وبلجراد، نجد ان قلة اخرى تركزت فى مراكز تجارية صغرى بما فيها الموانئ الرئيسية على الدانوب او على طول ساحل بحر ايجيه التى كانت بمثابة مقار لبعض الوكلاء التجاريين المهمين جدا، بل ان اصغر مدينة كانت تضم على الاقل عددا قليلا من وكلاء المشروعات الكبرى. وعلى وجه الاجمال فقد كان هؤلاء الرجال الذين كانوا على اتصال بغيرهم فى جميع انحاء الدولة، المصدر الرئيسى للاخبار المحلية والخارجية.

كان طبيعيا أن يستفيد كبار التجار من تشجيع الدولة للتجارة ومن ثم اصبحت فى ايديهم ثروة هائلة من الاموال السائلة، ونادرا ما كانوا يملكون عقارات باستثناء مساكنهم الخاصة وبيوتهم الصيفية. ومن واقع تلك الاموال بدأوا القيام بعمليات تمويل للحرفيين خارج الطائفة عندما بدأ الطلب على بعض البضائع التى لم تكن الطوائف تنتجها بكميات كافية. وهذا الاسلوب لم يقض فقط على الاستقلال الذاتى للطوائف، بل لقد امتدت آثاره الى المناطق الريفية حيث اقيمت اشكال من الصناعات الريفية. وعلى العكس من الغرب الاوروبى فلم يحدث ان تطورت هذه الصناعات لتصل الى بداية تأسيس صناعة حقيقية.

وثمة سببان رئيسيان من المحتمل ان يكون وراء تمنع كبار التجار عن المضى ابعد من مجرد القيام بتمويل الانتاج على النحو السالف الذكر: الاول انهم كانوا منظمين كروابط تجارية، وان اسلوب التمويل او الانتاج للبيع قد يكون مبررا كمصدر للتجارة فى البضائع المفترض بيعها، لكن تمويل المشروعات الصناعية قد يضع هؤلاء الرأسماليين فى نشاطات غير مرخص لهم بها مما يضعهم فى مخاطرة. والسبب الثانى يتلخص فى ان الصناعات القليلة القائمة آنذاك وخاصة العسكرية منها مملوكة للدولة ويتم العمل فيها بأسلوب السخرة (العمل العبودى) وتقدم نموذجا لا يستطيع كبار التجار تكراره او زيادة حجمه.

كان كبار التجار وسط عناصر السكان الاكثر اهمية والاعظم نفوذا فى كل مدينة، وكانوا ايضا وسط العناصر الاقل شعبية. وفى ضوء فهم هؤلاء الكبار لاقتصاديات السوق والعمل فليس

مشيرا للدهشة انهم كانوا يستهدفون دائما زيادة الارباح لأعلى درجة ممكنة متبعين في ذلك ابسط انواع المضاربة الذى يتمثل فى الشراء بسعر رخيص والبيع بسعر عال، ولأن نشاط المضاربة يشمل المواد الغذائية والخام فقد تعرض كبار التجار لكثير من اللوم والتأنيب بسبب نقص المواد التموينية الذى كان يحدث من آن لآخر. غير ان مركز كبار التجار تدهور فى اواخر العصر العثمانى عندما سمحت لهم ثروتهم الحصول على التزام الضرائب الزراعية وكانت وظيفة الملتزم غير شعبية بكل تأكيد. وانتهى امرهم الى ان اصبحوا من طبقة «الرعايا» فقط فى الوقت الذى سعى فيه اصحاب وظائف اخرى من المترجمين والموظفين الكتابيين والاطباء لكى يصبحوا جزء من المؤسسة الادارية السياسية للامبراطورية.

على ان المنافسة الحقيقية الوحيدة التى كانت تواجه كبار التجار كانت تتمثل فى عدد من التجار الاخرين الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه ويعيشون فى المدن نفسها ولكن كانوا يتمتعون بمكانة خارج حدود الدولة لأنهم لم يكونوا من رعايا السلطان. ولم يقتصر عمل هؤلاء المنافسون على الاسهام فى الحياة الاقتصادية لمدن اوربا العثمانية وبالتالي للامبراطورية كلها، ولكنهم كانوا ايضا اورييون من الجنوب الشرقى لاوروبا من مدينة راجوزا ومن مدن ساحل دلماشيا، وكانت «محللتهم» التى يعيشون فيها عبارة عن مدن داخل المدن نفسها لأنهم لم يكونوا يخضعون للسلطات المحلية، ولهم امتيازات بتنظيم شؤون جاليتههم وادارتها طبقا لقوانين واعراف مدنهم الاصلية. وكما هو شأن كبار التجار العثمانيين، كان هؤلاء التجار من غير رعايا الدولة ينتمون لمؤسسات اعمال كبيرة الحجم ومعقدة جدا، وتقع مكائنتهم وبنوكهم ومصادر حساباتهم خارج نطاق نفوذ السلطان. ومن المدهش حقا ان تجد مستوطنات راجوزية فى كل مدن اوربا العثمانية حتى لقد يخرج المرء بانطباع مؤداه ان نصف مواطنى جمهورية مدينة راجوزا يعيشون خارج حدودها.

ان هذه المستوطنات الدلماشية مهمة بالنسبة لتاريخ شعوب جنوب شرق اوربا ليس فقط من الناحية التجارية، بل ايضا من الناحية الدينية والثقافية. لقد كانت حياة مدن ساحل دلماشيا مرتبطة بحياة المدن الايطالية، وعلى هذا وكما سوف نرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب، عكست مختلف التغيرات الثقافية والسياسة وغيرها التى حدثت هناك. والذى حدث ان المستوطنين الذين قدموا من مدن دلماشيا الى داخل البلقان احضروا معهم هذه الحضارة والثقافة الغربية (الاوربية). وعلى الرغم من انهم عاشوا فى مستوطنات متماسكة ومنعزلة فى كل مدينة، فلم يكن بإمكانهم تجنب الاتصال مع جيرانهم سواء باختيارهم او طبقا للاحكام والقواعد العثمانية. وكانت طرز معمار بيوتهم وملابسهم وتنظيم جاليتههم شيئا لم يكن باستطاعة اهل البلاد المحليين ان يتجنبوا ملاحظته. وينبغى ان نذكر فى هذا المجال ان هؤلاء الناس كانوا من اتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ومن هنا فانهم وباحضارهم قساوستهم معهم، اضافوا ملة اخرى للملل القائمة الاصلية، رغم انهم منعوا بشدة من مزاوله اى نشاط تبشيري. ولاشك ان وجودهم اسهم فى ظهور المذهب الكاثوليكي الرومانى فى اقصى نقطة فى شرق البلقان الا وهى بلغاريا حيث تعرضوا لاضطهاد شديد فى القرن السابع عشر. والحقيقة ان الدلماشيين لم يكونوا متفوقون مثل كبار التجار العثمانيين ونظرائهم فى

البلقان من السلافيين فقط، ولكنهم على عكس قرنائهم من اليونانيين والسلافيين التجار قدموا المثل الوحيد لاسلوب حياة مختلف لسكان اقاليم اوربا العثمانية، وكان نفوذهم وتأثيرهم على الاقل فى المدن امرا لايمكن تجاهله.

لقد كان بكل مدينة جماعة من السكان تنتمى لاسفل شرائح وطبقات الهيئة الاجتماعية وهم «الهائمون على وجوههم» والغجر. وكانت هناك حاجة لهذه العناصر «غير المرغوب فيها» للقيام ببعض الاعمال مثل حمل الاشياء من امتعة وبضائع ومنقولات واعمال اخرى يتطلبها سوق العمل. ولما كانوا خارج «الوسط الاجتماعى» فلا يعرف عنهم الا القليل جدا فيما عدا تلك الحالات التى توضح فيها سجلات القضاء اجراءات منازل بهم من عقاب فردى او جماعى، او حيث تذكر الوثائق محاولات التخلص منهم جميعا، وكل ما يمكن قوله بشئ من التأكيد ان هذه العناصر لم تكن تعتبر جزء من سكان المدينة، ولم يكن لها «محلات» حقيقية خاصة بهم .. ففى كل ليلة كانوا يأوون الى اماكن تمكنوا من اقامتها خارج كردون المدينة. والحق انهم كانوا يمثلون المعادل الحضرى للبدو واليوركين.

ان هذه الصورة العامة لمدينة اوربا العثمانية تمثل وصفا دقيقا صحيحا يصح تعميمها على معظم المدن العثمانية بقدر بسيط من التعديل هنا وهناك. وتعتبر اسطنبول احد الاستثناءات الكبيرة لهذه الصورة العامة على الرغم من احتوائها على طوائفها ومحلاتها ومختلف الطوائف التى سبق ذكرها. ومن المعروف ان لعاصمة السلطنة ملامح لا توجد بالمدن الاخرى. ولكن لأن دراسة العاصمة عن هذه الزاوية يخرج عن نطاق دراستنا، ولأن هناك دراسات كثيرة هائلة عن هذه المدينة وعن مؤسساتها الخاصة، فلن نقوم هنا بتكرار دراستها، ولاشك ان هناك وظائف اخرى قليلة خاصة بالمدينة تستحق عناية خاصة.

٤ - المدينة «النواة» لاوربا العثمانية:

هناك نماذج كثيرة للمدينة النواة لاوربا العثمانية لا تتطابق تماما مع الوصف الذى قدمناه للمدن فى هذا الفصل. ويمكن مناقشة اكثر هذه النماذج اهمية، لأن تناولها جميعا يحتاج الى دراسة خاصة مستقلة .. فمثلا مستوطنات الحدود التى تعد احد المجموعات السكانية الكبرى، كانت ظاهرة ريفية اكثر منها ظاهرة حضرية، ومن ثم تتعلق بموضوع الفصل التالى. وهذه المستوطنات كانت تقع بشكل رئيسى فى الاراضى التى تمثل حدود ممتلكات اسرة الهابسبورج (فى النمسا). وكانت مدن المجر وسلوفينيا وشرق كرواتيا وشمال البوسنة، هى الاقرب جغرافيا لمستوطنات الحدود تلك. وقبل الغزو العثمانى كانت كل هذه الاقاليم اما مجرية او صربية او بوسنية بالتدوال فيما بينها. وعلى هذا فلم تكن مدنا بلقانية صرفة او مدنا غربية حقيقية على الرغم من وجود «مدن حرة - ملكية» فى المجر بدأت فى النمو والتطور على نمط التطور الغربى. ومعظم المدن السلافية نمت وتطورت طبقا للخطوط التى وصفناها الان، ولكن بعضا منها اكتسب امتيازات ملحوظة. والجدير

بالملاحظة هنا حالة مدينة سرايفو وهي مدينة اسلامية صرفة في الغالب الاعم، وكانت «تخكم ذاتيا» حقيقة حتى لم يكن يسمح للقوات العسكرية بدخولها.

لم يستتبع الاحتلال العثماني في البلقان وجود مظاهر تدمير دائمة على نطاق واسع على الرغم من ان الحياة على طول الطرق العسكرية الرئيسية لم تكن آمنة الى ان تم اقرار الحكم العثماني باحكام، وادت الحملات العسكرية الموسمية الى عمليات تدمير كبيرة سرعان ما كان يتم اصلاح آثارها، ذلك ان اصحاب التيمارات كانوا يحتاجون الفلاحين للعمل في اراضيهم. وفي حالة عدم عودة الاهالي لاماكنهم بسبب الحروب مثلا، كان العثمانيون ينقلون الاتراك او شعوب اخرى لهذه المناطق للقيام بمهام الاصلاح. ولقد سبق ان عرضنا للاهمية التي وضعها العثمانيون على التجارة والحرف والصناعات واستيطان هؤلاء في البلدان والمدن وازدهارها خلال العصر الاول من الحكم العثماني.

ولكن بمجرد عبور العثمانيين لخط الدانوب - سافا تغير الموقف ووقعت اكثر التغييرات اهمية على الحدود المجرية - السلافية وفي المجر ذاتها. وامانا ظاهرتين تستحقان انتباه خاص من وجهة نظر التطورات التاريخية الحديثة: الاولى كما سبقت الاشارة، محاولة العثمانيين ايجاد ولايات تابعة، والثانية تتمثل في كيفية اسكان «الايالات» التي كونوها في هذه الاراضي بسبب نقص عدد المستوطنين من جهة، وعدم امكانية الحكومة احتضانهم ورعايتهم حتى في حالة توفرهم. والحقيقة انه عندما تحرك العثمانيون الى كرواتيا - سلوفينيا- المجر واجهوا موقفا شبيها الى حد كبير بالموقف الذي واجهوه عندما عبروا الدردنيل، فقد كانت هناك دويلات مسيحية قريبة من المجر واقعة تحت نفوذ اسرة الهابسبورج وترانسلفانيا، يهرب اليها السكان امام الغزو، وهو هروب شجعه النبلاء الذين كانوا قد فروا هم ايضا وشجعوا اتباعهم على اللحاق بهم. ولم يكن لدى العثمانيين القوى البشرية التي كانت لديها في القرن الرابع عشر لملاء هذه الفجوة. وأكثر من هذا لم يكن يجدى في هذا الخصوص توطين البدو الرحل في هذه المناطق نظرا لطبيعة الارض.

وقبيل وصول العثمانيين الى السهوب الواسعة الواقعة بين نهري الدانوب وتسيزا (Theiss) Tisza وهي اراضي مجرية فقيرة اساسا كان يعيش عليها عدد كبير من السكان (يختلف تقدير عددهم من ثلاث مليون الى خمسة مليون نسمة) يزرعون انواعا مختلفة من الحبوب والغلل. وكانت عملية تقليع اشجار الغابات المستمرة قد وصلت الى درجة تهدد مصادر المياه اللازمة للزراعة. وكان على المزارعين ان يتعلموا كيفية العمل تحت هذه الظروف، الخاصة اذ عندما كانوا يهجرؤا المكان بسبب الغزوات كانت الارض تتدهور وتبور حيث تنمو الاعشاب في الانهار وتسد مجراها وتتراكم كتيبان الرمال وتتكون مسطحات قلوية تحول مساحات من الارض الى مستنقعات راكدة. والحال كذلك لم يكن بإمكان قبائل البدو الرحل المستوطنين حديثا ويزرعون مساحات صغيرة من الارض (جيفتات) ان يتعاشوا تحت هذه الظروف. وكان بالامكان اصلاح التدمير الذي حاق بالغابات والذي احدثته اولى غزوات السلطان سليمان الاول، لولا الحرب الاهلية بين الامراء المتنافسين، وغزوات سليمان المتعددة، والحروب بين العثمانيين والهابسبورج والتي استمرت حتى

عام ١٦٩٩ وجعلت من تلك المساحات ارض معارك حدودية دائمة اصابتها مظاهر التعرية الطبيعية بشكل يمكن ملاحظته حتى اليوم.

وعلى هذا كان من شأن الموقف الحربى الدائم مع تعرية التربة وهروب السكان، ان يجعل من الصعب على المدن وعلى مواطنيها ان يعيشوا حياة مستقرة. ولقد حاكى كثير من المجريين ومعظم الالمان نموذج النبلاء والفلاحين بدورهم وابتعدوا عن تلك الاماكن. والحاصل ان المراكز الادارية العثمانية الكبرى مثل بودا، وبست Pest وبيتش pecs وشيزجد Szeged، جذبت اليها الاداريين اللازمين وكذلك العسكريين واصحاب الحرف والمهن المختلفة كما حدث فى البلقان. ولكن هنا وعلى عكس البلقان لم يكن هناك سكان محليون اصلا للتعاون والمشاركة فى الحياة. ولهذا اصبحت هذه الاماكن فيما بعد بلدانا اسلامية حقيقية، فقد كان عدد سكان بودا حوالى عام ١٥٠٠ مايقرب من خمسة الاف نسمة. وكان طبيعيا ان يكونوا جميعا من المسيحيين، ولكن فى عام ١٥٤٧ تقلص عدد المسيحيين فى مدينة بودا الى حوالى الف نسمة، سرعان ما تقلصوا الى سبعين فردا فقط بعد ذلك بثمانين عاما (١٦٢٧). (١)

وكان الحال كذلك فى المدن الاخرى من حيث انحسار عدد السكان الاصليين (المسيحيون) ولو ان المدن الواقعة جنوب المجر قد كسبت عددا قليلا من المسيحيين من اهالى الصرب ورومانيا الذين انتقلوا الى كل من مدن باشكا Bacska، وبارانيا Baranya، وبنات Banat، وما تعرف اليوم بفوفودينا Vojvodina، وايضا الى سلوفينيا حيث كان عدد المسيحيين ملحوظا. ولقد كان لهذا التغير الاثنى نتائج تاريخية مازال باقية.

ومن السهل تفسير وشرح هذه التحركات والانتقالات من مكان لآخر بسهولة ووضوح .. فمن المعروف ان معظم الموظفين الرسميين «الأتراك» فى المجر كانوا من اهالى البوسنة الذين يتكلمون الصربية، ولهم اتصالات منذ قرون طويلة مع تجار وصناع الصرب. وعلى الرغم من ان العقيدة الدينية كانت تفصل بين الطرفين، الا ان امورا مشتركة كانت تجتمعهما تكفى لتسهيل التعاون بينهما ليس فقط فى المدن ولكن فى المناطق الريفية الواقعة غرب نهر الدانوب وشمال نهر الدرافا حيث حل الفلاحون الصربيون محل المجريين الهاربين. ولقد حدثت الظاهرة نفسها فى المنطقة شرق نهر تسييزا حيث يوجد الان اقليم كريصانا الرومانى Crisana. وكان المجريون قد فروا ايضا الى ترانسلفانيا او الى شمالها، وبالتالي كان من الطبيعى للرومانيين فقط الاكثر عددا والاسوأ ظروفا فى ترانسلفانيا ان ينتقلوا الى تلك الاراضى الخالية. وعلى الرغم من انهم لم يتمتعوا بكثير من الحرية تحت سيطرة السادة العثمانيين فى كل من تميزفار Temesvar ثم فى ناجيفاراد Nagyvarad قياسا على ما كانوا عليه فى ترانسلفانيا، الا انهم استطاعوا الاستقرار فى تلك الجهات واصبحوا مزارعين، وهو امر كان مستحيلا عليهم فى ترانسلفانيا، حيث كانت الارض

(1) JOZSEF PERENYI, "Villes Hongroises sous la domination Ottomane aux XVIe-XVIIe siècles. les chefs - Lieux de l'administration Ottomane", in La Ville Balkanique, p. 25 - 31.

الخصبة المتناثرة هنا وهناك مزدحمة بالسكان. وفي هذا المقام فان الطبيعة الاثنية للمدن لم تتغير فقط في الجهات الواقعة غرب نهر الدانوب، بل في الجهات الواقعة شرق نهر تسيزا ايضا.

على ان التطور الاكثر اثاره حدث في منطقة السهوب الواسعة الخربة والتي لم تكن تصلح لتكون تيمارات، ومن ثم بقيت جزء من ملكية السلطان الشخصية. ففي خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر اخذ الفلاحون المجريون يتخلصون ببطء من حالة الاذلال الكلى التي كانوا يعيشون فيها، اذ نمت تدريجيا على ارض السهوب الواسعة تلك، عدة قرى زراعية قامت بدور مراكز السوق، وهي وان لم تكن مدنا حرة بالمعنى، الا انها كانت دائما ممتلكات لمختلف اللوردات ومع هذا لم يعتبر سكانها اقان ارض serfs اذ كانت لهم حقوقا معينة وكانوا في طريقهم نحو التحرر الكامل على الاقل لدرجة الحرية التي كانت عليها «المدن الحرة». ومن الناحية القانونية والشرعية نجد ان اهل هذه المدن (في كل من اوبيدا oppida اللاتينية وميزوفاروسوك او Mezovarosok أو مدن البرارى ان شئت الدقة، قد فقدوا معظم حقوقهم وامتيازاتهم عندما سن الدايت المجرى مجموعة قوانين وتنظيمات ضد الفلاحين في اعقاب انتفاضة كبيرة في ١٥١٤. ورغم ذلك ظل الناس هناك متمسكون بطرق معيشتهم وحياتهم الى ان وصل العثمانيون بعد اثني عشر عاما من معركة موهاكز. ولأن هذه البلدان كانت تقع في مركز الهجمات التركية الاولى بين نهريين. فلم يكن من السهل على سكانها الفرار. وأكثر من هذا فالفلاحون كانوا على نقيض النبلاء، لم يتعرضوا لاغراء اللحاق بمن استطاع الفرار من النبلاء. وهكذا فقد نمت حياة جديدة حول هذه البلدان المثيرة. ولقد اصبحت بعض بلدان البرارى هذه مثل ناجيكوروس Nagykoros وكيشكمت Kecskemet وسجلد Cegléd أكثر اهمية، وواحدة من المدن المجرية الطليعية فيما بعد.

في بلدان البرارى تلك وقع تطور فريد ساعد عليه الاحتلال العثماني لوسط المجر. فمن ناحية حاولت هذه البلدان ان تنتعش وان تنحيا وان تمد من امتيازاتها. ومن ناحية اخرى كان العثمانيون بحاجة لطريقة ما تجعل هذه السهوب الواسعة المهجورة ارضا مفيدة ونافعة. وكانت الطريقة الوحيدة في هذا الشأن اذا ما وضعنا في اعتبارنا ان الارض كانت قد تخربت وتدمرت بفعل الحروب كما سبقنا الإشارة، تلخص في تربية الحيوانات ورعيها مما يتناسب مع هذه المساحات الواسعة. وعندما وصل العثمانيون ناجيكوروس حصل أكثر ثلاثة اشخاص اهمية في اوبيدا على حوالى ١٩٢,٥٠٠ آكر (الآكر = فدانان ونصف) بعضها مراعى^(١). وفي منتصف القرن السابع عشر زادت حيازات البلدة الى حوالى ٤٦٦,٠٠٠ آكر بضم اراضى القرى المهجورة حولها. ومن الاهمية بمكان ان نذكر ان هذه الاراضى كانت تعتبر «ميرى» اى ملكية الدولة بواسطة الحكومة العثمانية طبقا لارادة السلطان (خاص همايون) او من خاصات بيلربيك مدينة بودا.

(١) المعلومات الاقتصادية عن اوبيدا مأخوذة من يوسف بيريني perenyi في مقاله:

Trois Villes hongroises sous la domination Ottoman au XVIIe siecle 'Acts du premier Congrès International des Etudes Balkaniques et Sud - Est Europeenes, IV (Sofia, Bulgarian Academy of Sciences, 1969), 581 - 91. unless otherwise mentioned

وبطبيعة الحال كانت تلك البلدان تدفع ضريبة الارض «الخراج»، والجزية، والعشور للكنيسة على ما ينتجونه، وكانت فى هذه الحالة الماشية. وقد بلغت ضريبة العشر المحصلة من كل المدن سنويا حوالى ثمانية الاف الى عشرة الاف رأس. وإذا ما وضعنا فى الاعتبار انه كانت تمر من نقطة فاش Vacz الجمركية وحدها ألفا رأس شهريا فى طريقها من المنطقة العثمانية إلى اراضى الهابسبورج، وان ما كان يصدر من المجر باتجاه الغرب بلغ مائة الف رأس سنويا، ادركنا كم كانت ضريبة العشر ضريبة حقيقية. (١) وكانت النقاط الجمركية وكذلك مخاضات نهر الدانوب والقناطر المقامة عليه، تؤجر لبعض الاشخاص حيث تدر دخلا معتبرا للحكومة العثمانية. فعلى سبيل المثال دفعت النقطة الجمركية ومحطة المعديات على جزيرة شزيل Csepel (جنوب بودا) ايجارا قدره ٦٠٠ ألف أقة عن ثلاث سنوات بين عامى ١٥٤٣ - ١٥٤٦. وتشير تلك المبالغ الكبيرة الى اهمية تربية المواشى وتجارة اهالى مدينة ميزوقاروس. (٢) اذ اذهرت اوبيدا وزاد عدد سكان ناجيكوروس من حوالى ٢٢٠٠ - ٢٥٠٠ نسمة قبل الاحتلال العثمانى الى الضعف بعد حوالى مائة وخمسين عاما من الاحتلال. ولمعرفة الصورة الحقيقية لحياة هذه البلدان الاقتصادية يتعين مقارنة دخل ملكياتهم الزراعية والعقارية المتزايدة وارباحهم من الثروة الحيوانية بما كان عليهم من التزامات .. ففى عام ١٦٣١ كان على اهالى ناجيكوروس اربعة انواع من الضرائب الواجب دفعها نقدا او عينا كما يأتى:

٤٦٠٠٠ أقة تقريبا خراج

٢٤٠٠٠ أقة تقريبا جزية

٤٨٠٠٠ أقة تقريبا عشور المواشى

١٧٠٠٠ أقة تقريبا قيمة ٢٠ عربة خشب الى بيلربيك مدينة بودا

١٣٥٠٠٠ أقة اجمالى

والذى يهمننا فى هذا الخصوص انه «بمقارنة هذه الأرقام والمبالغ بأرقام القرن لسادس عشر مع الوضع فى الاعتبار ايضا تدهور قيمة الأقة، ندرك ان الاعباء الضريبية على المدينة زادت زيادة طفيفة» (٣) ومن الواضح ان المدينة عاشت حياة طيبة، وعندما تظل الالتزامات كما هى دون تغيير مع زيادة الدخل، يتضح كيف ان مدينة ناجيكوروس كانت تعيش حياة رغدة وطيبة.

(1) Balint Homan and Gyula Szekfu, Magyar Tortenet (History of Hungary), 5 Vols. Budapest, kiralyi Magyar Egyetemi Nyomda, 1939), 3: 415

(2) Homan and Szefu, 3: 434.

(3) Perenyi, "Trois Villes", p. 588.

ومن الملاحظ ان مقدار الضريبة الوارد هنا تقريبا لأن المؤلف حسب المبلغ بالفلورين (عملة نساوية تساوى شلنن انجليزى). وكانت قيمته تتراوح بين ٦٠ - ٧٠ أقة والأرقام الواردة هنا حسب على اساس معدل ١ : ٦٥.

كان لبلدان البرارى هذه ملامح غير عادية ايضا، فلم يكن بها مستوطنون مسلمون وبالتالي لم تشهد الروابط الاخوية وما يرتبط بها من وظائف وممارسات، ذلك ان هذه البلاد حكمت نفسها بنفسها، ولم تكن تشهد ممثلى السلطات الا عند جمع الضرائب، كما لم يكن لديها قضاة ولكن كان اهلها يتمتعون بصلاحيات قضائية محدودة. وكان بعض المتخصصين يضطرون للسفر الى مسافات للمثول امام «رؤسائهم الشرعيين» اى سادتهم القدامى من اللوردات الاقطاعيين.

لقد كان هذا الوضع القضائي، وحساب الضرائب على اساس العملة النمساوية وغير ذلك من امور، تبين خصوصية اخرى لم تقتصر على مدن البرارى، ولكن امتدت الى بعض قرى الحدود ايضا، ونعنى بها الخضوع لسلطة مزدوجة، ذلك ان نبلاء المجر لم يتنازلوا عن حقوقهم فى الاراضى او المقاطعات التى اصبحت تحت الحكم العثماني، اذ انهم طالبوا بحق السفر الى «اراضيتهم» التى اصبحت فى حوزة العثمانيين والاقامة فيها بصفة مؤقتة دون ازعاج او تحرش ودون دفع ضرائب. كما طلبوا ايضا بحقوقهم فى الدخل والضرائب الخاصة بتلك المقاطعات. وهنا اقدم العثمانيون على خطوة مقابلة لمطالب النبلاء، اذ فرضوا ضرائب على الاماكن التى كانت تقع رسميا على الجانب الاخر من الحدود ولم تكن تحت سيطرتهم سيطرة مباشرة، وكلفوا حرس الحدود بالتسلل من وقت لآخر وجمع الضرائب بالقوة. ولقد كانت تلك المطالب والدعاوى المقابلة موضوعا اساسيا فى كل مفاوضة تمت بين العثمانيين والهابسبورج كدولة مع دولة وبين السلطات المحلية للحدود، وكثيرا ما انتهت هذه المفاوضات فى كثير من الحالات الى اذواجية ضريبية على اهل المنطقة من الناحية (الفعلية de facto كانت حصيلتها رمزية على ايه حال. والحق انه اذا كان هذا الاسلوب الغريب قد اصاب فقط مناطق «الحدود» الحقيقية حيث تستطيع قوات الحرس الاغارة عليها «وتحصيل» الضرائب مهما كانت الاحوال، فانها ظاهرة قد لا تستلفت النظر. ولكن عندما تصيب اماكن بعيدة عن الحدود مثل مدن ميزوفاروس (ولو ان هذه المدن كانت تتجاهل لورداتها الغائبون) فانها تمثل موقفا فريدا فى اقاليم «نواة» اوربا العثمانية.

اما فيما يتعلق باويديا فهى حالة نمت وتطورت خارج ثنائية ظروف المصالح الاقتصادية والقرب من العدو. والحال نفسه ينطبق بشكل ما على جزر ايجة، وافضل نموذجا لها جزيرتى خيوس Khios ورووس، اذا كان لمعظمها حكاما عثمانيون عقب الغزو العثماني، ولكنهم احتفظوا بمؤسساتهم وحكموا انفسهم واداروا شؤونهم بشكل عام، ولم يخضعوا للضرائب العثمانية المعتادة ولكن فرضت عليهم رسوما ثابتة تقدم سنويا، ولم تكن بسيطة، فجزيرة خيوس كانت تدفع عشرة الاف دوقية خلال حكم سليمان الاول، وهو المبلغ نفسه الذى كانت تدفعه راجوزا التى كانت اكثر ثروة وغنى، وتدفعه كذلك كأتاوة كل من ولاشيا وترانسلفانيا وهما اكثر ثروة واغنى مصادر.⁽¹⁾ وبشكل عام عانت هذه الجزر من الحروب العثمانية البندقية المتوطنة ومن عمليات «الانتقام» المتبادل بين المنتصرين. ولكن فى وقت السلم كانت مدنهم وقراهم تترك لحالها، وكانت افضل شأنًا مما كانت عليه مستوطنات اليونانيين على الارض اليونانية ذاتها.

(1) Inan, Apercu general, p. 28.

ففى بلاد اليونان كان هناك عددا قليلا من الاقاليم «المحكومة ذاتيا». وحيثما كان الوضع الجغرافى والظروف المحلية الخاصة تجعل من الحكم المباشر امرا مكلفا وباهظا، كان العثمانيون يكتفون بتحصيل الضرائب بتوطين قلة من الموظفين لهم امتيازات عينية يعترفون بسلطتهم وسيادتهم. وقد اوجد هذا الموقف بعض المشكلات خلال فترة الحكم العثمانى الاول المزدهرة، ولكنها اصبحت سوابق خطيرة نتج عنها مصاعب كبيرة فى القرون التالية من الحكم العثمانى. وقد شهدت الارض اليونانية نفسها عددا كثيرا من هذه الاقاليم المحكومة ذاتيا، وكانت اكثرها شهرة فى جبال سوليوي Souliou غرب ايروس تمركزت حول بلدة ايونينا ioannina وفى جبال ماينالون Mainalon شمال وشرق مدينة تريبوليس الحالية وسط المورة حيث اسرة مقروميخاليس Mavromikalis حكما فعليا، وفى وسط سلسلة جبال بيندوس pindus. ولقد اصبحت بعض هؤلاء «الملوك» المحليون على اتصال وثيق مع المؤسسة الرسمية (الحكومية العثمانية) بحيث سمح لهم بتجاوز السلطات الاقليمية والمحلية وارسال ممثليهم من الوكلاء الى استانبول مباشرة للتفاوض مع الادارة المركزية. وفى البانيا وكرنا جورا Crna Gora تمتع عدد كبير من الاقاليم الصغيرة «بحريات» مشابهة. والحاصل ان التمتع بهذا النوع من الامتيازات اقتصر فقط على الذين كان بإمكانهم اقامة سلطة محلية قوية. والحق ان حال الفلاحين فى هذا النوع من تلك الاقاليم كان اسوأ بكثير من حال الذين خضعوا مباشرة للحكم العثمانى.

ويتضح من المناقشة السابقة لبعض العينات المختارة وجود قدر كاف من المرونة فى الادارة للامبراطورية العثمانية المركزية المتشددة، امكن معها وجود هذا القدر من التنوع فى مدن «النواة» لاوربا العثمانية. وقد سهلت هذه المرونة فى المقابل المحافظة على النظام فى اقليم كبير يختلف سكانه فى العادات ويتنوعون فى الحاجات.



الفصل الخامس

ريف اوربا العثمانية

١ - نظام ملكية الارض:

ينبغي ان تبدأ مناقشة الحياة فى المجتمع الريفى بالقاء نظرة سريعة على نظام ملكية الارض لما له من تأثير نظرى وعملى على حياة كل انسان يعيش خارج نطاق المدن. لقد اعترف العثمانيون بثلاثة انماط اساسية لحيازة الارض وهى: الميرى، الملك، والوقف. ومن الملاحظ انه فى البلاد التى هزمها العثمانيون كانت كل ملكيات الاراضى من الناحية النظرية تعتبر من نوع الميرى، اى ملكية الدولة، وهذا يعنى ان السلطان لم يعترف بحقوق الملكية القائمة عند الغزو. وبمقتضى هذا الرأى كانت كل التيمارات اراضى ميرى وليس لأصحابها اية حقوق ملكية قانونية على الارض (اى ملكية رقبة)، وانما لهم حق الانتفاع بها فقط. ومع ذلك وابتداء بمختلف الترتيبات التى حدثت فى آسيا الصغرى عندما بدأ نجم العثمانيين يصعد، وحيث كان كثير من اصحاب الاراضى التى اصبحت خاضعة للحكم العثمانى من المسلمين الاتراك، وجدنا ان السلاطين كانوا يحترمون انواع الملكيات القائمة او يهبون الارض منحة لكبار معاونيهم. اما الاراضى التى فى حوزة افراد يرثها اولادهم واحفادهم كانت تعتبر اراضى ملك. اما النوع الثالث من الحيازة - الملكية فهو المعروف بالوقف، وهو عبارة عن تخصيص جانب من الارض او العقار للصرف منه على «المؤسسات الخيرية». ويعتبر الوقف فى هذه الحالة ملكا لله نظريا، وبالتالى فهو غير قابل للنقل او التداول بين آخرين. ومن الملاحظ ان اراضى الوقف هذه كانت فى الاصل اراضى ميرى او اراضى ملك ووقفت بموافقة اصحابها الذين هم الدولة أو السلطان او بعض ملاكها الافراد.

اما الاهمية النسبية لهذه الانواع الثلاثة للحيازة فى اوربا فيمكن التعرف عليها من الاحصاء الذى قام به عمر لطفى برقان عن عام ١٥٢٧. ففى ذلك العام بلغ اجمالى الدخل من اقاليم اوربا العثمانية ١٩٨ مليون اقجة او حوالى ٣٧٪ من اجمالى ايرادات الدولة. وبلغت نسبة مدفوعات الجزية فى هذا المبلغ ٤٢،٣٪، والباقى من عوائد الجمارك والتزامات اخرى تتعلق بالحرف واعمال المناجم ومختلف الاعمال الزراعية. ومن اجمالى المبالغ التى جمعت من الروم ايللى دخل خزينة الدولة ٤٨٪ منها، وحصل اصحاب التيمارات على ٤٦٪، اما الـ ٦٪ الباقية فهى خاصة بالاقواف

وارضى الملك، وهى نسبة تبين مدى ضآلة حجم تلك الحيازات او الملكيات.^(١)

وفى ضوء المعلومات المأخوذة من اناجيلك وعنان ويطريق غير مباشر من برقان، يمكن اجراء محاولة لتحليل المبلغ الاجمالى الذى ذكره اناجيلك ليتضح المصدر الحقيقى للايرادات وتوزيعها بالنسبة للمناطق التى جاءت منها، حضرية وريفية. وتعطى الاحصاءات والحسابات الاولى المؤشرات الاتية:

٢, ٢١٪ من الدخل مصدره المناجم والعوائد الجمركية والتجارة وقدره ٤١٩٧٦٠٠٠ أفجة

٣, ٤٢٪ من الدخل مصدره الجزية وقدره ٨٣٧٥٤٠٠٠ أفجة

٨, ٤٢٪ من الدخل مصدره ضرائب على فلاحي اراضى «الخاص» وقدره ٤٩١٠٤٠٠٠ أفجة

٧, ١١٪ من الدخل مصدره ضرائب على فلاحين اخرين وقدره ٢٣١٦٦٠٠٠ أفجة

٠, ١٠٠٪ وقدره ١٩٨٠٠٠٠٠٠ أفجة

ويوضح التحليل الاتى اقسام الدخل كما يأتى:

٥, ٣٦٪ ضرائب على كل الفلاحين وقدره ٧٢٢٧٠٠٠٠ أفجة

٠, ٩٠٪ من ايرادات جزية قدرها ٨٣٧٥٤٠٠٠ أفجة // وقدره ٧٥٣٧٨٦٠٠

٦, ٧٤٪ من اجمالى الايرادات مأخوذ من المناطق الريفية وقدره ١١٤٧٦٤٨٦٠٠

٢, ٢١٪ من الدخل جاءت من المناجم والعوائد الجمركية والتجارة وقدره ٤٠٩٧٠٠٠٠

٠, ١٠٪ من ايرادات الجزية وقدرها ٨٣٧٥٤٠٠٠ // وقدره ٨٣٧٥٠٠٠

٤٤, ٢٥٪ من اجمالى الايرادات مأخوذة من مناطق حضرية // وقدره ٥٠٣٥١٤٠٠

وهذه الارقام^(٢) تعكس الاهمية النسبية لكل من المدن والقرى فى اوربا العثمانية.

(1) Halil Inalcik, "L' Empire Ottoman", Actes du premier Congres, 3: 75 - 103

ويلاحظ ان الارقام الواردة هنا وكذا المستخدمة فى حاشية رقم (٢) من هذا الفصل معتمدة على اعمال عمر طغرى برقان.
(٢) تستند تلك الاحصاءات على المادة التى اوردتها اناجيلك (المراجع نفسه) وعلى كتاب عنان: *Aprcu general*, pp. 27-28. وعلى حين ان تلك المادة تخص بسنوات مختلفة (اناجيلك عن عام ١٥٢٧ وعنان عن عام ١٥٥٣) الا انه يمكن استخدامها دون صعوبة لأن اناجيلك يذكر ان الضرائب ارتفعت ارتفاعا حادا بعد عام ١٥٢٧ وان ظلت نسبة مصادر الدخل والنفقات كما هى حتى حوالى عام ١٥٨٤. ويقدر عنان اجمالى دخل الدولة فى ١٥٥٣ من ١٠,٥ - ١٥ مليون دوقية، ويذكر ارقاما محددة فيما يتعلق بالايرادات المأخوذة من المناجم والجمارك والحرف فقط. وينطبق هذه الارقام او توزيعها على الـ ١٢,٧٥ مليون دوقية وهو متوسط الرقمين الواردين (١٥ - ١٠,٥) يصبح من الممكن ان تصل نسبة الايرادات الخاصة بالمصادر =

ولما كان سكان الحضر لا يزيدون على ١٠٪ من اجمالي السكان، فان اسمها تملك المناطق في الدخل العام وهي ربع الاجمالي تصل الى ٤٧,١٪ من الخزينة. والواقع ان المناطق الريفية لم تكن تكون فقط النسبة الكبرى من دافعي الجزية والتي بدونها كانت ايرادات الخزينة تقل الى النصف، ولكن هذه المناطق كانت ارض التيمارات، ونظام التيمارات كان نظاما مهما جدا للاغراض العسكرية والادارية. ولعل اهمية هذه التيمارات تبدو واضحة عندما ندرك ان نسبة الـ ٤٦٪ من ايرادات الروميلي (روم ايلي) التي سبق ذكرها والخاصة باصحاب التيمارات، كان يقتسمها او يشارك فيها ١٧٢٨٨ فردا في عام ١٥٢٧ تدر عليهم دخلا بمتوسط ٥٢٦٨ أقة.

كانت الملكية من اى نوع مرتبطة بالواجبات والالتزامات، فقد سبقت الاشارة الى الاعباء العسكرية الملقاة على عاتق اصحاب التيمارات والموظفين التابعين لهم امثال رجال الشرطة وجانعو الضرائب. وكانت الاوامر المتعلقة بامور الاوقاف واجبة التنفيذ ايضا بشدة وصرامة، وكان لايسمح بانشاء اى وقف الا باذن خاص من السلطان ويكون لخدمة غرض محدد. ولم تكن عملية تأسيس الوقف هي التي تخضع لتنظيم صارم فقط بل كان على قاضى الحى الذى توجد به مؤسسة الوقف ان يراقب بانتظام ادارة الوقف واكتشاف اوجه اساءة استخدامه، وقد يوصى بطرد ناظر الوقف او يقترح اعادة الوقف للدولة مرة اخرى في حالة اهمال ادارته اهمالا كليا او ثبوت عدم الحاجة اليه. والحق ان كل من السلطانين محمد الثانى وسليمان الاول قاما بحل اوقاف كثيرة لمثل تلك الاسباب. لكن اتخاذ مثل هذه الخطوة واجهت مصاعب حقيقية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لعدم وجود سلاطين اقوياء بدرجة كافية يستطيعون القيام باجراءات حاسمة. ومن المعروف ان نظام الوقف لم يكن امرا خاصا بالمسلمين فقط، بل كانت هناك مؤسسات خيرية مسيحية ايضا خصصت للصفوف اعلى ارض معينة. وعلى الرغم من أن كثيرا من اراضى الكنائس قد صدرت بعد الغزو العثماني، الا ان الاديرة وبعض الابوشيات احتفظت باراضيها وان خضعت للمراقبة نفسها التي خضعت لها الاوقاف الاسلامية. والحقيقة ان الاوقاف وارضى «الخاص» السلطانية كانت مفيدة جدا من وجهة نظر المزارع كلما مر الزمن لأن هذين النوعين من الحيازة كانا غير

= الثلاثة (الفحم والجمارك والحرف) ٢, ٢١٪ من الاجمالي. واننى اوافق على هذه النسبة المثوية على الرغم من انها تبدو كبيرة بالنسبة لروم ايلي في عام ١٥٢٧. ويقسم الاجمالي الذى اوردته اناجليك الى ٤٦٪ من كل الايرادات تأتي من المصادر الثلاثة التي اوردتها عنان ومن المأخوذ من دخل «الخاص»، وعليه فان ٢, ٢١٪ تأتي من المناجم والجمارك والحرف و ٢٤,٨٪ من حيازات «الخاص». واخيرا فاننى ارجع نسبة الـ ١١,٧٪ التي لم يحسبها اناجليك عندما حدد قائمة مصادر الدخل الى عمال الزراعة بالارض اكثر من ارجاعها «للخاص»، لانه تم تغطية مصادر الدخل المحتملة الاخرى، ولأن الفلاحين الذين يعملون فى التيمارات يدفعون ضرائب للدولة، وهي الارقام التي استخدمتها فى التحليل الاول عاليه. وفي تحليلي لارقام الجزية اضغ على اعتبارى حجم المدن فى عام ١٥٢٧ اذ لم ترد استانبول وهي مدينة كبيرة فى دخل الروم ايلي، وكانت ادرنة ايضا مدينة كبيرة نسبيا، ومن بين المدن الاخرى كانت مدينتى تسالونيك واثينا فقط تضم اكثر من الفى عائلة تدفع الجزية. وفى ذلك العام كان هناك ١١١١٧٩٩ وحدة تدفع جزية فى الروميلي (على اساس اماكن السكن او المنازل). وعلى هذا فان ٩٠٪ من هذه الوحدات تكون وحدات ريفية صرفه او مدن صغيرة الحجم عملها الرئيسى الزراعة. ومع احتمال وجود خطأ، الا ان الارقام الناتجة من تلك الفرضيات تستند على ارقام صحيحة تبدو دقيقة فى ضوء معرفتنا العامة عن الروميلي فى بداية القرن السادس عشر.

قابلين للايولة او الانتقال من شخص لآخر وما يتبع ذلك من صنوف المعاناة. وعلى هذا فقد تخلص الفلاحون من بعض المقطعين (التابع الاقطاعي) الطموحين اولاً ومن الذين حلوا محلهم فيما بعد عند انهيار النظام كله.

ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ ان الاوقاف المسيحية والتميمات ظلت باقية جنباً الى جنب حيازات المسلمين وان كانت قليلة العدد. فاذا اضعفنا الى ذلك حيازات «العسكرية» المسيحية والحيازات الصغيرة التي احتفظ بها افراد عائلات «الرعايا»، من المسيحيين، يصبح من الواضح خطأ المقولة القديمة والمتكررة والتي تقول ان المسيحيين فقدوا كل اراضيهم عند وصول العثمانيين. وكانت ملكية الاراضي الاساسية بانواعها التي عرضناها قائمة في ميزوفاروس المجرية، وكذا نظام «الساليانه» الخاص في اجزاء مختلفة من اوربا العثمانية تتماثل مع ملكية اراضي غير المسلمين بنسب ملحوظة.

وبصرف النظر عن التعليمات الخاصة بتطبيق نظام ملكية الاراضي في اى اقليم من الاقاليم، كان المزارع يزرع اساساً الحبوب والخضراوات والفواكه فضلاً عن عنايته بالمنتجات الحيوانية، ويقوم بدفع ضرائب متنوعة. ولسوء الحظ فان الريف تحت الحكم العثماني لم يدرس الدراسة الجادة مثلما حدث بالنسبة للمدن، وما تزال نفتقر الى المصادر الموثقة التي تتحدث الانتاج الزراعي نوعاً وكماً. ويمكن القول دون شك انه باستثناء بعض المنتجات مثل الصوف والجلود وماشابه ذلك من منتجات ثانوية، كان الريف ينتج ايضا «المحاصيل الصناعية».

ومن الملاحظ انه لم يوجد في الامبراطورية العثمانية المالك الزراعي صاحب المشروعات التجارية الصناعية الذي يسعى الى السوق، شأن الذي بدأ في الظهور في القرن السادس عشر بشكل عام مع نشأة الرأسمالية التجارية .. فنظار الاوقاف لم يكونوا حتى خبراء في الزراعة ولكن كانوا مجرد مديري مؤسسات من نوعيات مختلفة وكان يرضيهم في كل الاحوال ان الدخل الذي يتلقونه يساعدهم في ادارة المؤسسة المسئولون عنها. واما اصحاب اراضي الملك (الملكية الخاصة) من ناحية اخرى فكانوا قلة وكانت اراضيهم صغيرة المساحة لا تسمح بالدخول في تجرية السوق، كما لم يكن اصحاب التيمارات ونظار اراضي «الخاص السلطاني» ملاك اراضي بالمعنى، بل كانوا مجرد منتفعين وقتين من دخول معينة، او عبارة عن نظار ضياع على اكثر تقدير.

كلن الوجه الاخر لهذا التطور الذي افاد المزارع، الغاء سلطة مالك الارض على الارض التي يفلحها المزارع والتي كانت تجعله يتحكم في كل نواحي حياة المزارعين .. فلم تشهد الامبراطورية العثمانية نظام ائنان الارض، اذ كان كل شخص يخضع مباشرة للسلطان ويعتمد على قوانينه واداريته. وعلى هذا اختلفت انواع الضرائب وحجمها وسائر الالتزامات الاخرى المفروضة على الفلاحين اختلافاً قليلاً نسبياً من مكان الى مكان ومن نوع من الاراضي الى اخرى. كما اختلفت التزامات الفلاحين تبعاً للدخل الذي تدره الارض اعتماداً على موقعها ونوع الانتاج الذي تقدمه.

كان الفلاح في اوربا العثمانية يدفع عشر ما ينتجه بصفه اساسية، على حين ان الضريبة التي

فرضها العثمانيون كانت ثابتة نظريا وعمليا طالما كان النظام يمارس سياساته بكفاءة ودقة. ولعل هذا الاسلوب المنظم تنظيما جيدا يفسر لماذا قام كثير من سكان جنوب شرق اوربا بمساعدة العثمانيين خلال غزواتهم، ولماذا كانوا يفضلون الحياة تحت الحكم العثماني المباشر عن البقاء تحت سيطرة اللورد المحلي. والحق ان الضرائب العثمانية كثيرا ما كانت توصف بانها خفيفة بالقياس لما كان يفرضه الاقطاعى الاوروبى السابق على الغزو العثماني، وربما لم تكن كذلك فى الواقع وكل ما هنالك انها كانت منظمة وثابتة، ويتضح هذا النظام فى قيام الحكومة باجراء تعداد سكاني على فترات دورية منتظمة كل عشر سنوات يقوم موظفون معينون بتسجيل عدد السكان الذين يخضعون للضريبة (ارباب الاسر)، واحصاء اوجه النشاط الاقتصادى، وتحديد قيمة ثابتة للضريبة على كل فرد تظل سارية حتى التعداد التالى. وعلى هذا يعرف كل فلاح الذى عليه بالنسبة «لسيده» وللدولة، ويستطيع ان يخطط حياته طبقا لذلك. وتبدو اهمية هذا الاسلوب فى انه اكد كثيرا على ان تدفع الضرائب نقدا، وهو امر لم يكن كذلك فى النظم السابقة على العثمانيين، ورغم ان الدفع نقدا ربما كان يزيد من اعباء الفلاحين لعدم علمهم بقيمة المطلوب دفعه تماما فى المرة التالية.

لقد كانت هناك عدة اسباب وراء اصرار العثمانيين على تحصيل الضرائب نقدا .. فالامبراطورية تعج بالعبيد، والفروق الطبقيه تعم الطوائف المهنية والدينية، ومن هنا كان العثمانيون راغبون عن اقرار العمل على الاخرين بواسطة شخص غير عبد. وقد انبثق هذا الموقف من الطبيعة المركزية للحكومة ومن المبدأ الشرعى الذى يقول ان الارض ومن عليها ملك للسلطان. ومن ناحية اخرى كان العمل يعنى خضوع لآخر وليس للسلطان، وهو امر كان غير مقبول للتفكير العثماني. وبالإضافة الى هذا السبب الفكرى او الدستورى اذا صح هذا التعبير كان هناك عاملا اقتصاديا له اهمية كبرى، فقد بلغت النفقات التى تحملتها الدولة للمحافظة على مؤسساتها الامبراطورية المتمثلة فى البيرون والاندرون فى استانبول ثلاثة مليون ونصف أقة فى عام ١٥٢٧^(١). فضلا عن حاجة الدولة للاموال لدفع معاشات العسكريين (رواتب) والقوات البحرية، وشراء بعض مواد معينة من الخارج لحاجة المصانع الحكومية. وعندما نمت تجارة الدولة مع شركائها فى ايطاليا وفرنسا نموا سريعا فى طريق اقتصاد المال (الرأسمالية)، احتاجت الدولة الاموال السائلة (الدخل النقدى) للاستثمار وتمويل اسواق المدن والقرى. وعلى هذا كانت كل من الضرائب العينية والنقدية متساوية الاهمية: فالضرائب العينية تخص منتفعو حيازات التابعين الاقطاعيين (المقطعين) ونظار الاوقاف، واما الضرائب النقدية فتذهب الى خزينة الدولة بصفة رئيسية

كان الفلاح يدفع الضرائب المطلوبة لاولئك المنتفعين الذين يطالبون بشمرة جهودهم. وكان المنتفعون يحتفظون لانفسهم بما يحتاجونه ويبيعون الباقي. وبعد ان يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم نقدا يحتفظون بما يتبقى من مال. لقد كانت هذه الاموال المتبقية تمثل المال الاحتياصى الذى اقتترضته الدولة من اصحابه بالاكراه بواسطة الغرامات المالية المشروعة، او عن طريق فرض ضرائب

(١) عمر لطفى بركان، ميزانية عام ٩٣٣ - ٩٣٤ هـ (١٥٢٧ - ١٥٢٨ م) بالتركية: (Istanbul Universitesi Iktisat Fakultesi Mecmuasi 15 (1953 - 54): 251 - 329)

الأخرى غير عادية وتسمى «عوارض» تلجأ إليها الدولة كلما كانت في حاجة إلى أموال إضافية.

وتمشيا مع رغبة الدولة العثمانية في ضبط وتنظيم كل شئ والتأكد من عدم انهيار النظام، لم يكن على الرعايا أن يرتبطوا بطلباتهم الاجتماعية ووظائفهم المهنية فقط، بل اتخذت الإجراءات للتأكد من أنهم لم يرغموا على ترك طبقتهم أو وظيفتهم، ومن الطبيعي في هذا الشأن أن كل صاحب تيمار وكل صاحب وقف، يحتفظ بوثيقة تثبت حيازته العقارية، أو تثبت حقه في التمتع بإيراد عقارات وملكيات معينة. وكان يعاد النظر بصفة دورية في تلك الوثائق، وعندما يتم اكتشاف إساءة استخدام العقار أو التلاعب فيه يتم التصحيح طالما كانت الدولة قوية في فرض مطالبها.

والى جانب موضوع الملكية والانتفاع بها كانت هناك حقوقا أساسية يصعب الاقتراب منها كالأوقاف، إلا إذا كانت قد أوقفت بطريقة غير شرعية، أو لم تعد تؤدي وظيفة «نافعة»، وكذلك الأمر في حالة حيازات الملك (الملكية الخاصة)، إلا إذا كان الهدف تنظيم أحوال أصحاب التيمارات والفلاحين على السواء. وقد أصبح «العرف» ومجموعة «القوانين» السلطانية هي التي تنظم حقوق الملكية. وقد سمحت تلك «القوانين» للعثمانيين أن يقرروا حقوقا معينة للملكية لم تكن تتطابق مع الشريعة الإسلامية إلا لم تتناقض معها. وأفضل مثال على ذلك ما كان يحدث من تقسيم للأرض بعد وفاة مالكيها.. فطبقا للشريعة الإسلامية لا بد من تقسيم الأرض بين الورثة، لكن هذا المبدأ كان ممنوعا في الإمبراطورية العثمانية لأن السلاطين والمسؤولين ادركوا أن تطبيق الشريعة في هذا الخصوص يضر بالانتاج.

كانت التيمارات في الأصل منحة من الحاكم كما سبقت الإشارة وسرعان ما أصبحت وحدات اقتصادية مهمة ودعامة أساسية لوحدة الجيش الإقطاعية. وكان كل مالك ضيعة إقطاعية له حق أخذ مائدره الضيعة طالما يؤدي واجباته المقررة بكفاءة ومقدرة. والمهم فيما يتعلق بحقوق الملكية في التيمار أنه على الرغم من أن التيمارات كانت أراضي «ميرى» تؤول إلى الدولة في حالة وفاة «السباهى»، فقد وضعت نصوص معينة تعترف بما يمكن تسميته مطالب للورثة للحصول على الأرض نفسها أو الأفادة من ريعها على الأقل. وقد اتخذ هذا الإجراء فيما يبدو لضمان استقرار المؤسسة العسكرية والنظام الاقتصادي ككل.

كان كل تيمار يحتوي على قطعة معينة تعرف بالـجفلك الخاص (الوسية الخاصة) يقوم صاحب التيمار (التيمارلى) بزراعتها مباشرة أو من خلال مستأجر خاص ينوب عنه، ويتوقف حجمها شأن المساحة الكلية للتيمار على خصوبة التربة، ولكن كقاعدة كانت تتراوح بين ١٤ - ٣٥ أكر. (١) وهذه الحيازة الأساسية كانت تعرف أيضا باسم «القبليج» (السيف) وكانت غالبا ما تمنح لأكبر أبناء السباهى المتوفى لتضمن له معاشا (درلك). أما إذا كان التيمار كبيرا بدرجة ملحوظة يصبح لبناء السباهى الصغار حقوقا معينة في الأجزاء المتبقية من التيمار وبحيث لا يتجاوز الجزء الواحد الدرلك الأساسى (المعاش). فإذا لم يكن للسباهى المتوفى أولادا فيكون القبليج

(١) تساوى هذه المساحة طبقا للمقاييس التركية من ٦٠ - ١٥٠ دوم والدوم الواحد يساوى ١١٢٤٢٤ ياردة مربعة.

(السيف) من نصيب أبرز التابعين لصاحب لتيمار الراحل (والتابع يعرف بالجيه لو)، وكان من شأن الحروب ان تضيف اراضى جديدة. ومع ان الاحكام والتنظيمات التي فرضت على كافة انحاء الامبراطورية بمقتضى قانون نامه الذى اصدره السلطان محمد الثانى والسلطان سليمان الاول لم تكن تتطابق مع الشريعة او حتى مع المبدأ الاساسى الذى اقيم بمقتضاه نظام التيمار، الا انها حققت بعض الاغراض المهمة .. فقد ابقّت على «طبقة العسكر» داخل طبقتهم، ومنعت ظهور عناصر «عسكرية» بدون مورد معين حتى لا يصبحون خطرا حقيقيا على الدولة، وضمنت استمرارا شرعيا لحقوق الملكية، واستمرارا للوظائف غير العسكرية لاصحاب التيمارات، وعدم اعاقا الانتاج الزراعى، كما ضمنت ايضا العلاقات بين السباهى الذى يعرف الاقليم وعاداته وبين الفلاحين.

لقد سبقت الاشارة الى انه فى وقت الغزو كان العثمانيون يعدون بيانات رسمية (محررات) لكل اقليم يؤكدون من خلالها على معظم القوانين السائدة فى الاقليم مالم تصدر تعليمات جديدة، كما سبق القول انه فى ذلك الوقت كان الفلاحون يحتفظون بقطعة من الارض كملكية خاصة اذا ما سمحت به حقوقهم الشرعية ورد فعلهم تجاه العثمانيين. وهذا يفسر احياء ارستقراطية الارض فى بلاد الصرب. وفى هذا الاطار لم يكن عدد الفلاحين الذين يحوزون ارضا كملكية (من نوع الملك) كثيرا. ويظهر معظمهم فى المحررات (البيانات الرسمية) كمنتعين لتيمار ما، او لوقفية معينة، او للخصاص السلطانى. وكان على السلطات حماية حدود الفلاحين (حقوقهم) من التصرفات التعسفية التى يقوم بها العسكر.

كان كل فلاح يملك ملكية خاصة ما، ويصرح له بالانتفاع بانماط مختلفة من الارض طبقا لترتيبات تتشابه مع نظام الايجار فى بلاد غرب اوربا. وتعرف حقوقه فى ملكيته وايجاره «بالصرف»، ويعترف به «قانونا» رغم ان الشريعة لم تكن تسمح به .. فاذا كان الفلاح يزرع ارضه ويدفع ما عليه من ضرائب، يحق لابنه الاكبر ان يرث حق «الصرف» آليا دون ان يدفع ضرائب ايلولة او ميراث. فاذا مات دون ان يكون له ابنا ذكرا ينتقل الارث الى ابنته، وفى هذه الحالة يصبح زوج الابنة مالكا للصرف. اما اذا مات دون ان يكون له اولادا ذكورا او اناثا، يصبح «الصرف» من حق اخيه فى المقام الاول، فاذا لم يكن له اخ، يؤول الامر لاخته (اى زوجها فى الواقع)، ومن حق ابواه ان يرثا ايضا. وفى كل تلك الاحوال يطلب من مجموعة من المسلمين «المحايدين» تقييم «الصرف»، وعلى اساس التقييم تقدر ضريبة يطلق عليها «طابو» (نوع من الحلوان او البقشيش) يدفعها الوارث قبل تسجيل «الصرف» باسمه، فاذا كانت صاحبة «الصرف» امرأة وماتت فان الميراث يؤول لابنها بعد ان يدفع الطابو. وفى حالة عدم وجود اى ورثة شرعيين يقوم موظف فك الزمام بادارة الحيازة حتى يتقدم من يرغب فى اخذها. وايا ما كان المسئول عن هذه العملية سواء كان صاحب التيمار او المتولى (ناظر الوقف) او ناظر الخاص (السلطانى)، فيتعين عليه ان يعرض الارض اولا على فلاحى قرية المالك المتوفى، فاذا لم يتقدم احدهم يعرض الامر على آخرين خارج القرية.

وبهذا الاسلوب كانت حقوق الفلاحين محفوظة، فلم يكن من الممكن طردهم خارج

الارض التى يعملون فيها. كما كانوا يضمون ايضا استمرار ايجاراتهم بشكل افضل مما كان عليه الحال فى امارات غرب اوربا ودويلاتها. ومن ناحية اخرى لم يكن باستطاعتهم مغادرة الارض الا اذا وجدوا الشخص الذى يتولى مسئولية «التصرف» ، وبشرط ان يكون مقبولا من زملائهم الفلاحين ابناء القرية وسائر من يستفيد من عمله. وكل هذه الاجراءات كانت تتطابق مع الاعتقاد العثماني بوجود التصاق الناس جميعا فى الطبقة والمهنة والوظيفة التى يوجد كل منهم فيها وذلك حفاظا على التوازن الاجتماعى فى الدولة. غير ان هذا الاعتقاد جعل من نمو المدن امرا صعبا وحال دون التقدم التكنولوجى فى الريف. وطالما كان باستطاعة الفلاح ان يعيش، وطالما كان الذين يستفيدون منه راضون عنه، فلم يكن هناك ثمة دافع او حافز على تغيير النظام او الاسلوب.

٢ - الضرائب فى الريف:

لقد تولدت الالتزامات التى سبق مناقشتها من واقع الضرائب التى فرضت على الارض ومنتجاتها، او تلك التى فرضت على ارباب الاسر العائلات ذلك ان الضرائب الفردية مع استثناءات قليلة كانت تفرض على «الخانات». ويوضح التحليل الاتى العقارات المؤهلة لدفع ضريبة عنها، والاراضى التى تدفع ضريبة عن انتاجها وما اذا كانت الارض من نوع الملكية الخاصة (الملك) او من نوع الميرى، او من نوع الوقف:

نوع الملكية	الملكيات الخاضعة للضريبة	
ملك	ميرى	وقف
	<u>١ - الاراضى الزراعية</u>	
	أ - الاراضى المزروعة	×
	ب - المراعى	×
	<u>٢ - اراضى الغابات</u>	
	<u>٣ - البساتين والكروم</u>	
	أ - الاراضى	×
	ب - الاشجار وتكعيبات العنب	×
	٤ - منازل ومباني المزرعة (وتشمل قطعة الارض)	×
	٥ - ارض الحديقة بحجم نصف دوغم (٥٦٢ ياردة مربعة)	×
	٦ - شونة القرية (الارض العامة للتبن)	×
	٧ - شون اخرى	×

كانت تلك الاراضى وما تنتجه يخضع للضرائب مع استثنائين فقط وهما: التبغ الخاص بكل القرية (شونة القرية)، وانتاج ارض الحديقة اذا كان لاستهلاك الفلاح نفسه وليس للتسويق. وكان اصحاب التيمارات يقومون بتحصيل الضرائب من الفلاحين. اما الضرائب المقررة على الوقف فيقوم المتولى (ناظر الوقف) بتحصيلها. واما الضرائب العامة المقررة فى انحاء الامبراطورية فيقوم الملتزمون بتحصيلها.

وبالاضافة الى تلك الضرائب كانت هناك رسوما اخرى تعرف برسوم المراعى وتحصل مرتين فى العام شتاء وصيفا. وليس واضحا ما اذا كانت تدفع عينا أم نقدا، ولكن المعروف ان قيمتها كانت تحدد طبقا لحجم القطيع وتتراوح بين ١٠ - ٢٥ أقة. ومن الثابت ان البيروكيين فى الروميللى وكان عددهم سبع وثلاثين الف عائلة فى نهاية الربع الاول من القرن السادس عشر، كانوا يدفعون تلك الضريبة وكذا جماعة البيرية التى كانت تشتغل بالرعى وتربية الحيوانات فى اقاليم اوربا العثمانية ولا يعرف عددها على وجه اليقين. اما القبائل المتجولة والفلاحون المستقرون فكانوا يدفعون رسوما فى فصل الشتاء (أغيل رسمى). ولم نجد فى السجلات الا حالة واحدة تشير الى ان الحد الادنى لهذه الرسوم كان ٥٠ أقة عن عدد من القطيع يتكون من خروف واحد فقط .. وكل الذين يربون الماشية سواء كانوا من البدو الرحل او من المستوطنين يدفعون رسوما عما يملكونه من اغنام لا تعرف مقدارها على وجه التحديد. ولكن طبقا لمثال من عام ١٥٥٠ نعرف ان الضريبة كانت تفرض بواقع نصف أقة على كل رأس من المائة الاولى من اجمالى عدد المواشى. وبعد ذلك بسبعين عاما اصبحت الرسوم تقرر بواقع أقة واحدة على كل رأس دون اعفاء المائة الاولى من النصف. ومع ان هذه الضريبة كانت تخص الاغنام كما يتضح من اسمها. الا انها فرضت ايضا على كل ذوات الارباع من صغار الحيوانات مثل الماعز والخنازير. ولم اعثر على مايدل على تحصيل ضرائب على الابقار والخيول او الدواجن على الرغم من ان هذه الحيوانات كانت تذكر بالنوع والعدد عند اقرار حقوق الورثة، وفى بيان الاشياء التى كانت تورد اجبارا للسباهى، وفى حالات اخرى سجلتها المحاكم الشرعية. اما فيما يتعلق بالوضع فى أوبيدا فى وسط المجر فقد فرضت ضريبة العشر على الابقار فضلا عن وجود دلائل على دفع ضريبة بيع عليها وعلى الخيول ايضا. وليس من الواضح ما اذا كانت هذه الضرائب عادية ام غير عادية، اذ كانت ببساطة نوعا من انواع الفرض المفروضة (اتاوات) التى لم يكن بإمكان الفلاحين الامتناع عن دفعها وتضاف الى ما كانوا يدفعونه من التزامات فردية متعددة.

وفى ضوء المعلومات الكثيرة المتوفرة عن سائر مدفوعات القطاع الزراعى فى انحاء الامبراطورية، نستطيع ان نقرر ان الضريبة الاساسية كانت ضريبة العشر، وكانت قيمتها تقدر كل عام قبيل موسم الحصاد. وفى هذه الحالة يقوم الفلاح بحصاد العشر ودرسه وتوريده الى شونة البضائع او الى السوق الميرى. وقد اختلف مقدار العشر من مكان لمكان، فقد يكون عشر الانتاج فعلا كحد ادنى، وقد يكون النصف كحد اعلى: ويتوقف هذا على المنطقة وعلى نوع المحصول وعلى العادات. وعلى كل حال كان العشر يورد اجباريا عن كل انواع الحبوب وعن التبغ والقش

والفواكه والخضروات والبكماز (نوع من العنب). والى جانب العشر كانت هناك ضريبة اخرى تعرف بالسالارية متوسط قيمتها كما تبدو من السجلات ١٥٪ وتفرض على انواع اخرى من المحصولات مثل الشعير والذرة العويجة والشوفان والشيلم. كما كان يخصص ٢٥٪ من المحصول كعمليقة علف لحصان السباهى لكى يبدو بالشكل الملائم اثناء الحرب. واخيرا هناك ضريبة النحل (قوغان) وتقرر على الخلايا وتُدفع عينا بواقع العشر ايضا أو نقدا بمبلغ يتراوح من ١,٥ - ٢ آقجة عن كل خلية. ومن الملاحظ انه كان بالامكان ان تدفع كل تلك العشور المقررة نقدا وليس عينا وهو ما تثبته حالات معظم البساتين والكروم.

اما بالنسبة للعقارات والطواحين واعمال الحدادة وسائر الخدمات الاخرى، فقد فرض توريد الضرائب عنها نقدا. وكانت قيمة الضريبة تختلف من مكان لآخر ومن وقت لآخر. والحق انه من الصعب عمليا اعطاء دلائل ذات مغزى ومعنى للضرائب التى كان يدفعها سكان اوربا العثمانية ما لم تتم دراسة تفصيلية لكل الحالات. ولكن من المعقول ان نتصور ان هذه الضرائب كانت ترتفع تبعا للتضخم وتبعاً لحاجة خزينة الدولة المتزايدة للمال.

واما فيما يتعلق بالضرائب المفروضة على الاشخاص .. فمن الضرورى ان نفرق بين تلك التى يدفعها المسلمون وتلك التى يدفعها الذميون . كانت الضريبة الرئيسية التى يدفعها المسلمون وتعرف باسم «رسوم رعية» قد تكونت من واقع ضريبتين من ضرائب الرؤوس الثلاثة، وكان اكثرها اهمية رسوم الجيقت التى حلت محل الخدمات الاقطاعية القديمة. وحدد السلطان محمد الثانى قيمتها نقدا بـ ٢٢ آقجة بدلا من السخرة والتوريد العيني وظلت ثابتة لا تتغير وذلك طبقا للتقدير الاتى: (١)

٣ آقجة عن ٣ ايام سخرة

٧ آقجة عن واحد حمل عربة تبين

٧ آقجة عن نصف عربة قش

٣ آقجة عن واحد حمل عربة خشب

٢ آقجة عن استخدام العربة.

وفى منتصف القرن السابع عشر رفع اجمالى الضريبة الى ثلاثين آقجة عن الجيقت الواحد، وخمسة عشر آقجة عن الجيقتات الاصغر. ويدفع الرجال المتزوجون اثنا عشر آقجة اضافية ضريبة زواج، على حين يدفع غير المتزوجين ستة آقجات ضريبة عزوبية. اما البيت الذى يضم اكثر من ذكر واحد وعمر كل منهم اكثر من اثني عشر ربيعا، فتدفع ضريبة رأس واحدة (جيقت)، وواحدة ضريبة زواج، وعدد من ضرائب العزوبية حسب عدد غير المتزوجين من الذكور الذين يعيشون فى

(1) Inalcik, "L'Empire Ottoman", Actes du premier Congres, 3:82.

البيت. اما الذميون فكانوا يدفعون مقابل «رسوم الرعية» التي يدفعها المسلمون، رسوما تسمى «اسبنجة» بصرف النظر عن الحالة الاجتماعية للذمي، وتختلف قيمتها طبقا لقيمة ارض الانتفاع، ويدفعها ايضا اهل الذمة من غير ملاك الاراضى الزراعية بقيمة ثابتة قدرها ٢٥ آقجة.

اما ذكور اهل الذمة فوق الاثنى عشر ربيعا فيدفعون الجزية بصرف النظر عن وظائفهم او حالتهم الاقتصادية و حالتهم الاجتماعية (الزواج). والمعروف أن الجزية احد الضرائب الاسلامية القديمة، وتعنى ضريبة الرأس، واعتبرها الذين فرضوها بمثابة مال حماية يدفع مقابل ميزة العيش فى دولة «آمنة» يقع عبء الدفاع عنها على كاهل آخرين. وكان مقدار هذه الضريبة يتوقف على قدر ثروة «الذمي»، ومن هنا كانت ثلاث شرائح: عالية ومتوسطة ومنخفضة. وقد وضعها العثمانيون فى البداية بنفس تصور الدولة الاسلامية المبكرة من حيث مقدارها وشرائها ايضا بهذا التصور النظرى، ثم حدث اختلاف فى مقدار المبالغ التى تجمع من هذه الضريبة فى فترات مختلفة، مما كان يعنى وجود تحول ملحوظ عن النظرية الاساسية الاسلامية فى هذه الشأن.

ومن السهل حساب او احصاء المبلغ الذى يدفعه بيت الذمي، اذا ما رجعنا الى الارقام الخاصة بالدخول التى ذكرناها فى بداية هذا الفصل.. فاذا ما اخذنا الجزية مثلا ووجدنا ان اجمالى المبالغ المحصلة من ولايات اوربا العثمانية فى ١٥٢٧ بلغت ٨٣,٧٥٤,٠٠٠ آقجة، وضعنا فى الاعتبار ان هذا المبلغ حصيلة عدد ٩١٦٨٤١ بيتا ذميا، امكنا القول ان الضريبة التى يدفعها البيت الواحد تبلغ ٩١,٥ آقجة. واذا افترضنا ان معظم بيوت اهل الذمة من دافعى الشريحة المتوسطة للضريبة، وان كل بيت يضم ذكراين فقط، فان مقدار الجزية للذمي الواحد يتراوح من ٤٥ - ٤٦ آقجة من الشريحة الوسطى، وهذا الافتراض من جانبنا قد يضع الجزية التى تقررت فى عام ١٥٥٠ طبقا لاحكام قاضى صوفيا (بواقع ٧٠ آقجة قبل التضخم الكبير)، فى الشريحة العليا للضريبة^(١). وتوضح سجلات محكمة صوفيا ان هذه الضريبة ارتفعت ارتفاعا حادا عن معدل التضخم حيث وصلت الى ٢٠٠ آقجة، وذلك طبقا للامر الذى تلقاه من استانبول والذى كان يقضى بوجوب «تخصيل» هذا المبلغ من كل ذمي. على ان هذا التمييز بين الثلاث شرائح ضريبية زال فيما يبدو فى عام ١٦١٠^(٢).

ولم تكن تلك الضريبة هى الامر الوحيد غير العادى فى مجتمعات اوربا العثمانية (١٦١٠)، ففى العام نفسه تسلم قاضى صوفيا براءة سلطانية (أمر) لتعيين شخص لتحصيل الجزية من الغجر. ولم يكن اولئك الغجر من بين الاغنياء جدا، ومع هذا فرضت عليهم ضريبة مقدارها ٢٥٠ آقجة، اما المسلمون منهم فكانوا يدفعون ١٨٠ آقجة^(٣).

وعلى حين ان هذه المبالغ اجمالية وتتضمن ضرائب اخرى صغيرة بجانب الجزية، فانها

(1) Galab D. Galabov and Herbert W. Duda, Die protokollarbucher des Kadiamtes Sofia, Vol. 55 of Sudotsteuropaische Arbeiten (Munchen ;Oldenbourg, 1960), doc. no. 211. p. 56.

(٢) نفسه، وثيقة رقم ٤٨٧، ص ١٢٠.

(٣) نفسه، وثيقة رقم ٥٠٦، ص ١٢٧.

تدلل على ان هناك مسلمين دفعوا جزية لا لشيء سوى انهم كانوا من العجر، ومع ذلك هناك من يقول ان ضريبة الـ ٧٠ آقجة هذه لم يكن يدفعها المسلمون، وهذا قول غير دقيق لان الوثائق تثبت انه في عام ١٦١٠ كان على «كل فرد» في سنجق صوفيا ان يدفع ٢٠٠ آقجة جزية، ولم يعف منها بالتاكيد اولئك العجر المنبوذين. ولعل من المفارقات المثيرة التي نخرج بها من قراءة وثائق الضريبة، ان العجر وهم شعب فقير قد يخضع مسلموهم لضرائب غير شرعية وكأن عقيدتهم الدينية تستحق خصم ضريبي قدره سبعون آقجة.

ومع ان الامثلة التي اوردها عاليه جاءت كلها من سنجق واحد، الا ان ذلك لايعني ان ظاهرة الارتفاع الحاد في قيمة الضريبة وعدم الالتزام بالشرائح الضريبية الثلاثة واخضاع العجر المسلمين للضريبة، قد اقتصر فقط على هذا السنجق دون الوحدات الادارية الاخرى في اوربا العثمانية. ولكن الاكثر احتمالاً ان هذه التجاوزات كانت امورا عادية وقعت في كل السناجق بدرجات متفاوتة من باب سد العجز الكبير في خزينة الدولة.

وبالاضافة الى ماسبق كانت هناك ضريبة اخرى «عادية» تفرض على كل من المسلمين والذمييين معا، وهى ضريبة زواج العروس (المرأة) بواقع ٦٠ آقجة للبكر المسلمة و ٤٠ آقجة للارملة او المطلقة. وفي حالة زواج الذمية فتنخفض الرسوم الى النصف لكل حالة، ولا تدفع رسوما من اى نوع في حالة زواج الأمة. وحسب معلوماتي فان رسوم الزواج هذه تعد الحالة الوحيدة التي كان المسلمون يدفعون فيها اموالا اكثر ما كان يدفعه أهل الذمة. ولم يقتصر الامر على الزواج فقد كان والد العروس يدفع ضريبة عند زواجها تتراوح بين ٦ - ٩ آقجة او ثلاث آقجات حسب دخله، فاذا ما كان من البيروكيين يدفع خمسة آقجات فقط. اما فيما يتعلق بصله هذه الضريبة بعملية الزواج وكيف اصبحت امرا رسميا، فامر غير واضح، بل ان اسمها نفسه لايفسر شيئا شأن ضريبة الدخان^(١)، وكانت حصيلة كل هذه الضرائب على كل حال لا بأس بها. وكان سكان المدن يدفعون ايضا الجزية ورسوم الزواج وضرائب ومتطلبات اخرى تتصل باعمالهم وقد تدخل في تكاليف منتجاتهم التي يضمنون ارباحا منها لاتقل عن ١٠٪. واما سكان الريف على الجانب الاخر فكانوا يدفعون العشر على منتجاتهم كما هو معروف، ورغم ان ارباحهم ودخولهم تتوقف على ظروف المناخ وظروف السوق ومتغيرات اخرى خارج ارادتهم.

ويتجميع كل انواع الضرائب المفروضة على اهالي الريف وسكان المدن سوف يتضح في النهاية ان اهل الريف كانوا يدفعون اكثر من سكان المدن على ما ينتجون عينا او نقدا او كليهما. ومع هذا فهناك ثلاثة اسباب جعلت اهالي الريف يشعرون ان حالتهم افضل عما كانت عليه قبل وصول العثمانيين: فالوا اصبح لديهم «سادة» يتصرفون وفق القانون بل وبالامكان مقاضاتهم اذا ما تجاوزوا القانون، بدلا من نبلاء متقلبين لا ضابط لهم ولا رقيب عليهم يأخذون من الفلاحين اكثر ما يحق

(1) Joseph von hammer, Staatsverfassung und staatsverwaltung des Reiches, 2, Vols. (1815, reprinted., Hidesheim : Georgolms, 1963)

ويشير المؤلف الى ان هذه الضريبة اخذت عن البيزنطيين ولكن هذا خطأ لان البيزنطيين لم يكونوا يعرفون الدخان. وتدل ملحوظته فقط على ان هذه الضريبة الغربية لم تكن من ابتداء العصر الاخير.

لهم أخذته، وثانياً أصبح اهالى الريف يعرفون بين تعداد وآخر ما هو المطلوب دفعه من التزامات بالضبط ولمن يدفعون، وثالثاً واخيراً توقف الحروب التي دمرت زراعاتهم وحقولهم.

لقد كانت ضرائب الريف ثقيلة ومع هذا كان بإمكان المزارعين والفلاحين تحملها اذا كانت تمثل كل ما عليهم من التزامات. ولكن لم يكن الامر كذلك اذ كان على كل اهالى الريف والحضر ان يدفعوا ضرائب غير عادية سواء فى مناسبات الاعياد او الاحتفالات مثل تتويج سلطان جديد على عرش السلطنة، او فى حالات الطوارئ مثل الحروب الطويلة المكلفة. وحتى عندما كانت هذه الضرائب تفرض فقط من حين لآخر، كان يمكن تحملها ايضا، ولكن مع نهاية القرن السادس عشر فرضت ضرائب اخرى كثيرة استثنائية اصبحت بمرور الوقت «عادية» وتعرف باسم «البدلات». فاذا اضعنا الى هذا البدلات عددا كبيرا من الضرائب الاخرى غير العادية والتي فرضت فيما بعد، وان الدولة عجزت عن كبح جماح «السادة اللوردات» ليكونوا امانا فى ممارسة مسؤولياتهم فى القرنين التاليين (السابع عشر والثامن عشر)، ادركنا كم كان العبء ثقيلًا، وعرفنا اسباب انهيار النظام الريفى كما سوف يأتى ذكره فى القسم الرابع من الكتاب. ورغم وجود قلاقل فى الريف حتى قبيل نهاية القرن السادس عشر، الا ان اسباب هذه القلاقل لم تكن فيما يبدو بفعل الضغوط الاقتصادية.

٣ - التخوم:

يستخدم الصربون والكرواتيون والأتراك والمجريون كلمة «بالانكا» Palanka للتعبير عن شىء مختلف بين هذه الشعوب. ولكن هناك معنى واحد لها فى كل اللغات الثلاث متفق عليه وهو «حاجز من الاعمدة المدببة». وهذا المعنى لا يثير دهشة لأن شعوب هذه اللغات كانوا يقيمون هذه الأعمدة بطول مئات الاميال على حدود غير محصنة طبيعيا او محصنة تحصينا ضعيفا، ويبدأ أطول هذه الاعمدة فى شمالي البوسنة ثم الى الشمال الشرقى عبر نهر سافا شرق زغرب مباشرة، ثم تتجه شمالا فى خط مستقيم مع انحراف بسيط نحو شرق الحدود الحالية بين النمسا والمجر وحتى نهر الدانوب. ومن الدانوب يسير خط البالانكا بمحاذاة النهر لمسافة بسيطة تاركا مختلف الجزر فى هذا الاقليم الواقع فى ممتلكات اسرة الهابسبورج، ثم يعبر النهر متجها الى الشمال قليلا حتى يصل الى المنحدرات الجنوبية لجبال كارپاثيان Carpathian. ثم يسير بمحاذاة الجبل فى اراضى تشيكوسلوفاكيا (قبل تفكيكها) حتى نهر تسيزا، ويستمر بمحاذاة النهر حتى يصل الى سلسلة جبال تأخذ اسماء مختلفة ابتداء من خط شمالي - جنوبى يفصل ترانسلفانيا الحالية من قريصانا حتى يصل الى نقطة اتصال هذه السلسلة بجبال الالب فى ترانسلفانيا والتي كانت تكون الحدود العثمانية - الترانسلفانية. والحق ان هذا الخط لم يكن بهذا الامتداد دائما، كما لم تكن حدوده واضحة لأن الاراضى التي كانت بحوزة العثمانيين كانت تتسع وتضيق بشكل متكرر خلال سنوات الحروب الطويلة مع الهابسبورج. ويصعب فى الواقع ان نتحدث عن حدود بالمعنى الحديث للكلمة، إذ ان ما كان قائما

ويعرف بأنه اقليم حدود او منطقة تخوم، كان شيئا اقرب الى اراضى المشاع، على الرغم من ان معاهدات السلام واتفاقيات الهدنة دائما ما كانت ترسم الحدود.

كانت تلك الحدود/ التخوم فى اوربا العثمانية تشبه شريط الارض الثابت الذى كان يفصل المسلمين عن البيزنطيين فى الاناضول بآسيا الصغرى منذ عدة قرون سابقة حيث اقيمت عليه مجتمعات حدود كبيرة (تخوم). لكن هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى تلك المجتمعات الحدودية (البالانكات) لم يكونوا جماعات الاكريتويين Akritoi او جماعات الغازى (الأتراك) كما كان الحال فى آسيا الصغرى، فضلا عن انهم كانوا يختلفون فى كثير من الامور عن محاربى الحدود السابقين. ومع ذلك كان هناك اوجه شبه كبيرة بينهما، من ذلك ان الحصون او القلاع كانت تقام على المداخل الرئيسية «للحدود» وكانت تقع عادة فى المدن الصغيرة والتي كانت على الجانب العثماني يتولاها حكام من درجة سنجق بك او مسئولون من درجة حاكم «قضاء» صغير الحجم، او حتى اقل من مستوى قائد حامية. ولقد اقيمت البالانكات بين هذه النقاط المحصنة، وسكنتها وحدات عسكرية صغيرة. وعلى جانبي الحدود كان لكل بالانكا من البالانكات مركز رئيسى يسمى «فاجفار» Vagvar ومعناه «آخر القلاع» والكلمة تشرح بنفسها وظيفة الفاجفار دون اجتهاد ادبي او لغوى.. انها حصن حدود. فاذا ما نظرت الى هذه النقاط القوية للحصون من جانبي الحدود شعرت وكأنها تقف عند نهاية الدنيا. ومن المفترض ان تكون هذه القلاع على جانبي الحدود جزء من نظام عسكري منظم يخضع لقيادة عامة مهيمنة. ولكن فى الحقيقة كان المسئولون المحليون يتصرفون بمعرفتهم ولا يتحكمون الا قليلا فى الجماعات المسلحة التى تعيش فى هذه البالانكات.

كان مجتمع التخوم فى دنيا البالانكا هذه يشبه مجتمع الغازى القديم والاكريتوى فى آسيا الصغرى من حيث انه كان يتكون فى جانبه الاكبر من محاربين غير نظاميين، منهم عدد لا بأس به من العناصر التى اعتنقت الاسلام، ممن هربوا من الجيوش المسيحية، او من الجانب العثماني. ولكن لم يكن هناك نوعا من الحياة المشتركة والتكافل الحقيقى بين هذه العناصر كالذى كان قائما فى الاناضول. ولا شك ان ثمة «قانون حدود» خاص بالسلوك قد تم التوصل اليه هناك لم يستند الى تقاليد «الغازى» الاوائل فقط، بل استند ايضا على التقاليد المحلية الجديدة. ففى خلال المواجهة الطويلة بين المجرين والعثمانيين قبل الانتصار الحاسم الذى احرزها السلطان سليمان الاول، نشأ ما يمكن تسميته «فكر حراسة الحدود» بين اهالى البوسنة والصرب والمجر ورومانيا وكرواتيا الذين كانوا يعيشون على طول خط الدانوب - سافا. ومن المعروف مثلا ان جيش الملك ماثياس الذى عرف «بالجيش الاسود» والذى احرز عدة انتصارات على العثمانيين، تكون من خلال محاولات تنظيم واستخدام محاربى الحدود هؤلاء بأسلوب منهجى. وقد طبق الهابسبورج الفكرة نفسها مبكرا فى ١٥٢٢ فى تنظيمهم «للحدود العسكرية» تطورت الى شكل مؤسسى فى كرواتيا اولا ثم فى سلوفينيا وبنات واستمرت حتى عام ١٨٨١^(١). ولكن بعد موت الملك ماثياس انفرط عقد «الجيش الاسود»، ولم يعد للمؤسسة النمساوية تأثيرها وقوتها حتى نهاية القرن السابع عشر.

(1) Gunther E. Rothenberg, The Austrian Military Border in Croatia, 1522- 1747 (Urbana University of illinois press, 1960); The Military Border in Croatia, 1740 - 1881 (chicago- London: university of Chicago press, 1966).

في تلك الاثناء كان رجال الحدود يعيشون حياتهم الخاصة وفق احكامهم واعرافهم، وكان معظم «الجنود» الذين يسكنون البالدنكات مهتمون بشكل رئيسي بشؤون حياتهم وبتميز انفسهم كلما امكن بدرجة كافية لكي يتحولوا الى مؤسسة عسكرية نظامية، حتى إذا ما تحركت الجيوش عبر المناطق التي يقيمون فيها، شاركوا في الحملات الكبيرة منها، وكانوا دوما لا يأبهون بأى «سلام» رسمى بين الحكومة العثمانية والقوى الأوروبية. ولم يكن بإمكانهم ان يتصرفوا عكس هذا فى الواقع، اذ كانوا معظم الوقت يعيشون فى مساحات من الاراضى الخربة المهجورة. اما سكان هذه المناطق الخربة فقد كانوا يعيشون فى تجمعات متناثرة هنا وهناك، ويقومون بانتاج ما يحتاجونه بشق النفس تاركين هؤلاء العسكر المقيمون فى البالدنكات وحدهم. ولما كان هؤلاء العسكر لا يتلقون رواتبهم بشكل منتظم، فلم يكن امامهم سوى القيام بالاغارات هنا وهناك على هذه التجمعات الآمنة. والدليل على ذلك ان بيلربيك مدينة بودا تبادل مع قائد قوات حدود الهابسبورج الاف الرسائل الخطية بشكل منتظم حول انتهاك الحدود، بل ان كل من حكومتى الدولة العثمانية والهابسبورج تبادلوا الرسائل حول الموضوع نفسه، وكان اكثر هذه المحاورات طرافة ما حدث بين قادة قلاع الحدود وقادة البالدنكات الذين كان كل منهما يواجه الاخر.^(١) ومن مجموع هذه الرسائل المتبادلة تبلورت صورة الحياة فى مناطق الحدود (التخوم).

لم يكن العسكر بشكل عام يهتمون كثيرا كما هو واضح بتحطيم العدو او القضاء عليه كما هو الحال فى اهتمامهم بجمع الاسلاب والغنائم والاسرى. وكانت الغنائم تقدر بالمواد الاساسية التى تتطلبها الحياة اليومية، فقد كان كل شئ من الغنائم بما فيها الاسرى يمكن اعادته او الافراج عنه مقابل مبلغ محدد من المال. غير ان هذا الاسلوب كانت له آثاره المدمرة على الانتاج بشكل عام .. فالفلاح الميت لا يمكن ان ينتج مرة اخرى، والعسكري الميت لا يمكن. افتدائه، والحقل الذى يدمر لا يمكن ان يزرع لسنوات طويلة. وعلى هذا اصبحت الحياة على الحدود والحال كذلك اكثر خطرا عما كانت عليه عندما كانت الجيوش النظامية تتصادم. وقد انتج هذا النوع من الحياة والذى سادته قيم اقتصادية معينة كسهولة انتقال البضائع والأشياء من كل نوع، ما اصبح يعرف «بقانون الحدود» احترامه كل من الطرفين.

والجدير بالذكر ان «الفدية» اصبحت تشكل المصدر الرئيسى للدخل وللحياة على الحدود .. فالاسرى كانوا يستخدمون فى العمل قبل افتدائهم مع المحافظة عليهم فى احسن حال تشجيعا للطرف الاخر على الاقتداء وشراء حريتهم. ومن الطبيعى ان يتوقف ثمن الاقتداء على اهمية الاسير

(١) انظر افضل المجموعات التى تتعلق بالمراسلات المتبادلة باللغة المجرية فى:

Gustav Bayerle, Ottoman Diplomacy in Hungary (Bloomington; Indiana University press, 1972)

ويلاحظ ان المادة العلمية منظمة جدا فى دار المحفوظات المجرية فى بودابست حيث ان معظم هذه المادة المتعلقة بالحدود محفوظة ضمن اوراق عائلات باتثيانى Batthyany، وفستيتش Festetich، واسترهازى Esterhazy حيث كان بعض افراد هذه العائلات قادة مناطق حدود معظم الوقت.

.. ما اذا كان جنديا ام فلاحا. وتظهر الوثائق المتعلقة بمختلف المفاوضات فى هذا الشأن بوضوح، نشوء اسلوب قيمي يحدد البضائع المطلوبة والبضائع غير المطلوبة. وفى نهاية القرن السادس عشر ظهر ما اصبح يعرف باسم «سماسة الفدية» وهم من أصفهم فى مكان اخر من هذا الكتاب «باصحاب مهنة حرفة الاسرى». والحقيقة ان المفاوضات التى يقوم بها هؤلاء السماسة والاتفاقات التى يعقدونها مع قادة الحدود الذين يحتفظون بالاسرى، تعطى معلومات جيدة عن الارض التى فى حوزة الفلاحين الذين يعيشون فى المنطقة، واقتصاديات مناطق الحدود والحياة فيها.⁽¹⁾

ويلاحظ ان الفدية التى كانت محددة لاقتداء الفلاحين وخاصة فلاحى الصرب فى جنوبى اقليم المجر والذين هاجروا اليها خلال الفترة، كانت اعلى من تلك التى تدفع لجندى الحدود المحارب، ولعل تآثر تجمعات السكان المزارعين فى تلك المناطق كما سبقت الاشارة، تفسر تلك المجموعة الغربية من القيم بالاضافة الى حقيقة استمرار وجود بعض الفلاحين فى مناطق فى مناطق الحدود، بل واستمرار الهجرة اليها حيث يتم تقديرهم ماليا انتظار للاقتداء. وكان للاسرى قيمة معينة لاقتدائهم، ذلك ان نظام الدفشمة ووجود اسواق النخاسة القديمة بوفرة بعد غزوات سليم الاول، جعلت نقل العبيد من ابعد مناطق الحدود الى مراكز النخاسة واسواقها عملية غير اقتصادية، فضلا عن ان محارب الحدود كانت تنقصه التنظيمات اللازمة لمثل هذه التجارة. اما اولئك الذين كانوا يلتقطون كعبيد وما كان اكثرهم، فقد كانوا يعتقدون بمعرفة الجيش النظامى خلال الحروب التى تمت بين القوات العثمانية وقوات الهابسبورج.

ورغم ان الحدود كانت تحت سيطرة العسكر، الا ان الحياة فيها كانت حياة ريفية. وكان مجتمع الحدود يتكون بصفة رئيسية من قرية عشوائية يعمل سكانها بالزراعة والرعى، وتعرض للخطر، وتتم حمايتها فى آن واحد بواسطة محاربى الحدود المحدثين والذين كانوا يتمركزون فى حصونهم القليلة وحتى فى بالانكاتهم الاصغر. ومع ان عدد الناس الذين كانوا منغمسين فى هذا النوع الغريب من الحياة الريفية لم يكن كبيرا، الا ان الامر كانت له اهميته. وباستثناء البوسنة ومناطق معينة من البانيا، استطاع المسلمون وغير المسلمين فى مناطق الحدود التوصل الى قدر من فهم عادات كل منهما وطريقة حياتهما، والا كان من الحتمى ان تبقى الحياة بينهم نخسنة فى تلك المناطق البعيدة عن العمران. وبدون هذا الفهم المشترك كانت له من السهل تدمير مصادر الحياة المشتركة من بشرية وبيئية والتى يحتاج اصلاحها لمئات السنين.

واخيرا .. ففى مناطق الحدود هذه كان الاعداء قادرين على تنمية روح الاحترام المتبادل بينهما بحيث يمكن ملاحظة اثار التصرفات الانسانية بين الطرفين حتى ولو كانت شيئا ضئيلا.

(1) Peter F. Sugar, "The Ottoman professional prisoner" on the western Borders of the Empire in the Sixteenth and Seventeenth Centuries" Etudes Balkaniques Vol. 7, no. 2 (1971), pp. 82 - 91.

٤ - ملحوظات ختامية

يجب ابداء بعض الملحوظات الختامية حول الحياة فى الاقاليم «النواة» لاوربا العثمانية قبيل ١٥٧٤. فقد كانت الفترة قبل هذا التاريخ تعتبر «العصر الذهبى» للامبراطورية العثمانية حيث كان الناس سعداء، ويشعرون بكثير من الراحة والبهجة فى المدينة وفى الريف على السواء وعلى اختلاف عقائدهم ومذاهبهم .. فاليهود الذين وفدوا الى الامبراطورية العثمانية خلال هذا العصر عاشوا بشكل افضل مما كانوا عليه فى اى مكان آخر فى اوربا. وكان من بينهم على سبيل المثال السفارديم (اليهود الشرقيون) الذين طووا من حياتهم صفحة ايامهم العصبية فى اسبانيا ولم يعودوا يتذكرون الا الطيب منها، هذا رغم شعورهم بالاستياء عموما لاعتبارهم رعايا «من الدرجة الثانية». اما المسيحيون فقد كانوا حقيقة يتمتعون بالسلام، ويشعرون بالقانون والنظام. وعلى الرغم من انهم كانوا يعيدون عن الوعي بذاتيتهم الدينية، الا انهم مع مرور الوقت اكتشفوا شخصيتهم الذاتية حول الكنائس. وكانت هذه الكنائس تحتفظ ببعض ممتلكاتها، وتمتع بسلطة فى تنظيم حياة رعاياها، ولكنها كانت نهبا للانشاقات الداخلية، وتعانى من تدنى المعارف وانحطاط العلوم، والكهنة فقدوا الامل فى ضمان وظائفهم الاكثروسية العالية، وابدوا استياءهم من قيود معينة مثل عدم بناء قباب اعلى الكنائس، وعدم تعليق اجراس فيها، وعدم بناء كنائس جديدة فضلا عن الصعوبات الكبيرة التى تواجههم عندما تتطلب الامور اصلاح الكنائس القائمة. وباختصار كانت هناك تفرقة دينية ابدوا استياءهم منها وامتعاضهم، وحتى اذا كان الذمى يريد ان ينسى وضعه المهين فى هذا المجتمع ولا يتذكره، فقد كان يحدث ما كان يذكره يوميا بحقيقة مكانته، اذ كان يجازى بالغرابة اذا ارتدى ملابس او ثيابا غير تلك المحددة لاهل الذمة، واذا ما امتطى خيلا، واذا لم يظهر الاحترام الكافى للمسلمين، واذا ما اخل بالتقاليد فى امور لا حصر لها.

ومع ان الناس كانوا آمنين من هجمات العسكر او قطاع الطرق، الا أنهم لم يفلتوا من المشكلات الصحية المزمنة الخاصة بالملايا وانتقال العدوى، كما حدث بالنسبة للطاعون الذى تفشى فى كل اوربا فى القرن السادس عشر. وبالرغم من العدد الكبير من الناس الذين راحوا ضحية هذا الطاعون، الا انه من اللافت للنظر ان سكان الرومىلى زادوا بسرعة كبيرة حتى منتصف القرن السادس عشر، على حين ان عدد سكان ايلتى بودا وتيمزقار من ناحية اخرى قلوا بشكل سريع، وخاصة فى النصف الثانى من القرن نفسه. وكانت سهول المجر الواسعة بما تضمه من مناطق حدود وتخوم ومناطق شبه صحراوية، مستقرا لمختلف الحشرات والهوام الحاملة للامراض المتنوعة، بدرجة جعلت الارض بين نهري الدانوب وتيسيزا اقل الاماكن الصحية فى اوربا انذاك. ففى الحروب الكثيرة التى وقعت بين الهابسبورج والعثمانيين بين عامى ١٥٢٦ - ١٦٩٩ فقد الهابسبورج رجالا كثيرين بسبب تلك الامراض اكثر مما فقدوا بسبب الحرب ذاتها. وفى المانيا وفور عودة جيوشها من اى مكان، كان الناس يبدؤون فى الحديث عن «المرض المجرى». وما يدل على حقيقة ان الارض المجرية كانت مباءة للامراض ان بسمارك فى ١٨٦٦ استشهد بالظروف الصحية فى سهول المجر الواسعة عندما كان يحاول اقناع قائده مولتكه اتفاقية سلام بعد معركة كونيجراتز Koniggratz وقبل

ان تتقهقر قوات العدو الى المجر ويضطر الالمان لتعقبها هناك .

والحقيقة ان الحياة فى اوربا العثمانية كانت تمضى فى رتابة قاتلة .. فالناس يؤدون اعمالهم ثم يعودون الى منازلهم الصغيرة وينتظرون المساء حتى يأوون الى فراشهم . ولم يعودوا ينفقون بعض الوقت كما كان الحال فى الماضى البعيد، فى الصيد فى الغابات، وصيد الاسماك، وتنظيم المواكب الدينية وسائر الاحتفالات وابام الاعياد، ذلك ان هذه الامور منعت ولم يبق الا مناسبات واعياد المسلمين، هذا فضلا عن ان محاولة التخلص من الظروف المحيطة وتحسينها كان امرا ضئيلا . وباستثناء اسطوانات الحرف البارزين وكبار التجار كان الناس يعيشون حياة بسيطة ويتمتعون بقليل من الراحة والحياة الرغدة .

اما العثمانيون انفسهم فلم يكونوا يضيقون بمظاهر الحياة الرتيبة الملولة، اذ كانوا يتجولون فى حرية هنا وهناك، وحتى العسكريون منهم يقومون برحلات الصيد فى الغابات، ويمتطون الخيل فى غير اوقات الحرب، والاكثر اهمية من هذا انهم يحكمون دولة تسيير امورها وفق ما كانوا يأملون، ولا يهجم امر اهل الذمة مادام كل ذمى يعرف حقيقة مكانته ويكفى انه (اى الذمى) ينتفع من الاسئلة والحمامات والخانات وسائر المؤسسات العامة التى اقامها العثمانيون . على ان وجود هذه المؤسسات العامة لم يكن يعنى وجود سياسة اجتماعية عثمانية تساعد الناس على ان يكونوا راضين بما هم فيه عن اقتناع لا ان يكونون مجبورين على ابداء مظاهر الطاعة المصطنعة . والحقيقة ان حالة «السلام العثماني» التى اقامها السلاطين اتقاء للحرب، جعل الحكام ينتبهون الا قليلا لاحوال رعاياهم مما ادى الى اتساع الفجوة بينهم وبين المحكومين، وهى فجوة فرضت نفسها على عنصرى المجتمع، اى الحاكم والمحكوم، عند نهاية «العصر الذهبى» عما كانت عليه فى بدايته عندما اعتلى السلطان محمد الثانى العرش للمرة الثانية .

كان من شأن هذه الفجوة ان جعلت الاتصالات المشتركة بين المسلمين واهل الذمة فى حكم المستحيل تقريبا من ناحية، وبين المسؤولين العثمانيين والرعية من ناحية اخرى، واستبعد من الذهن اى امكانية للتعاون بين تلك الاطراف جميعا فى الوقت الذى كانت الدولة تواجه مصاعب خطيرة وكانت بحاجة الى كل تقدير والى ارادة طيبة من الجميع لمواجهة ما تتعرض له من مشكلات . وبدلا من العمل على تقريب جسور الفجوة لمواجهة الاخطار الخارجية، عمل رجال السلطة على المحافظة على استمرار الاوضاع القديمة عن طريق الاكثار من الاجراءات المركزية مثل فرض مختلف الضرائب الاستثنائية، وارتكاب حماقات مختلفة حتى اتسع الخرق على الراتق، واكتشف العثمانيون فجأة انهم يحكمون ملايين من الاعداء الناقمين المقهورين .

ومن الغريب ان شعوب جنوب شرقى اوربا لم تكن مسؤولة عن تلك الفجوة وما اثارته من شقاق . كما لم يكن العثمانيون بدورهم ايضا مسئولون .. لماذا؟ الحق انه فى ذلك الزمن من العصر الذهبى العثماني، كانت فكرة بناء الامة فى بدايتها الاولى وتسعى لتأكيد ذاتها فى صيغ واشكال غامضة فى ... ، الغربية المتقدمة . وفى الوقت نفسه كان تصور بناء الامة - الدولة فكرة غربية

كلية بالنسبة لصفوة حاكمة لم تكن تعتبر نفسها جزء من جماعة اثنية واحدة، وتطلق كلمة «ترك» على فلاحي الاناضول من باب التحقير والاذراء، ولا تعترف الا بالفروق الدينية والمكانة الاجتماعية. لقد كان العثمانيون يعتقدون ان الله قد قدر لهم ان يسودوا العالم، ولم يكن فى معتقداتهم ومؤسستهم ما يثيرهم او يحفزهم للافادة من سنوات السلام الداخلى والازدهار المالى الذى حققوه فى القيام ببناء المجتمع، وظلوا محتفظين وهم فى اواخر القرن السادس عشر بسياسة اثبتت نجاحها فى مطلع القرن الرابع عشر منذ حقق عثمان انتصاره العظيم فى عام ١٣٠١.

وهكذا عندما بلغت الامبراطورية العثمانية اوجها، كانت دولة مركزية الادارة والسياسة على درجة عالية من البيروقراطية القانونية الشرعية، ولايالى سادتها كلية بالشكل الذى ينبغى ان تكون عليه الدولة الحقيقية من حيث ان تكون كيانا مستقلا قانونيا وجغرافيا وثقافيا وتستمد الذاتية ووجودها من دعم حكامها حتى فى وقت الاضطرابات، وتستند الى ارادة ورغبة اغلبية سكانها حتى ولو لم يتم التعبير عنها، تلك الارادة التى اوجدت تراثهم المشترك وكيانهم المستقل فى المقام الاول. لقد كانت الامبراطورية العثمانية بمثابة صدفية ذهبية مدججة بالسلاح اخذ غطاؤها يخف ويرق كلما تنمو وتكبر مع جفاف النبع الذى يضع الرجال لزيادة طبقات العسكر. وكأى صدفية وبمجرد ان يثقب سمكها الرقيق لايمكن انقاذاها. لقد كان ينقص الامبراطورية عنصرا جوهريا تحتاجه اى دولة لتحتفظ نفسها، الا وهو سكان يشعرون انهم والدولة وحدة واحدة.

لقد كانت شعوب جنوب شرق اوربا فى ذلك «العصر الذهبى» العثماني غير معادية اصلا لحكامها الجدد العثمانيون، ولكنها بدأت فى تغيير موقفها ببطء بأخذ موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث اولا، ثم باظهار العدا الكامن الدفين. وتكمن الاسباب الرئيسية فى هذا التغيير، فى موقف الحكام، وفى رتابة الحياة الملولة دون وجود فرصة للتغيير، واهمها فى نظرى قدرة العثمانيين الادارية التى يعجب بها الآخرون، فلقد ادار ابناء عثمان الحياة ونظموها بكفاءة عالية الى الدرجة التى شعر معها الفلاح البلقانى غير المتعلم والمتواضع والبسيط غير الطموح، ان عليه ان يتحرك فوراً قبل ان تقتلع جذور البقية الباقية من شخصيته، اذ جعلوه بضيق ذرعا بتغلغل ادارتهم فى كل شؤون حياته. وطبقا لفلسفة الادارة هذه كانت اى حركة يحتمل ان يقوم بها الفلاح يمكن ان تعتبر «غير مشروعة» ومن ثم تستلزم توقيع الغرامات والعقوبات الخطيرة. ومثل هذه الاجراءات اشعرت الفلاحين البؤساء وكذا سكان المدن بالاغتراب، والاكثر من هذا ان هؤلاء الناس رأوا ان اولئك الذين يعاقبونهم كانوا هم انفسهم يتصرفون تصرفات غير مشروعة بشكل مستمر. وعندما يكون الخارجون على القانون هم الذين يحكمون ويعاقبون الآخريين على اقل الهفوات، فان الشخص المعاقب لا بد وان ينتقم.

ومع اننى اعتقد ان بعض القوانين وبعض الاحكام والتنظيمات، وبعض القواعد والتوجيهات الخاصة، لايمكن ان تصنع معايشة مع الحاكم وتجعل الحكم يسيرا، الا انه من شأنها ان تؤدى الى تجنب الجو الخائق وعدم الفهم المشترك بين الطبقات الاجتماعية والذى اوجد فى النهاية معظم المصاعب الداخلية التى ظهرت فى اة نين السابع عشر والثامن عشر. والحقيقة ان هذه الاحكام

والقواعد المتعددة سنت في العصر الذهبي وقامت على تنفيذها بيروقراطية مركزية ذات كفاءة عالية، وتمثل هذه الحقيقة في نظري الجانب الأدنى لعظمة العصر الذهبي. ولست اتفق مع معظم هؤلاء الذين رأوا ان العبقريّة العثمانية تتمثل في قدرتها على ان تحكّم بفاعلية وبكفاءة ملايين من الناس من الاختلاط الذين لا تجمعهم اى روابط مشتركة باحكام، واذا كانت هذه ميزة عظمية للامبراطورية فقد كانت ايضا اساس ضعفها العظيم.



القسم الثالث

الولايات التابعة ودافعة الجزية
فى اوربا العثمانية

الفصل السادس

مولدافيا وولاشيا

١ - عصر الامراء المحليين

كان العثمانيون يعتبرون كل حكام الدويلات الذين قبلوا دفع الجزية اتباعا لهم بالمعنى الاصطلاحي Vassals. وقد شملت علاقة التبعية هذه جهات كثيرة في اوربا بما فيها اسرة الهابسبورج في عهد فرديناند الاول (١٥٢٦ - ١٥٦٤) الذي فعل ذلك في عام ١٥٣٣ ليشتري السلام من العثمانيين، ولو ان تبعيته كانت شكلية شأن كل من راجوزا وترانسلفانيا التي عولت أكثر على النيات الطيبة للعثمانيين أكثر من حكام فيينا، وذلك على عكس امارتى الدانوب (مولدافيا وولاشيا) اللتان كانتا تابعتين بالمعنى القانوني المحدد للكلمة مع تمتعهما بدرجة من الحرية والاستقلال مكنها من اكتشاف طرق للنمو والتطور بعيدا عن العثمانيين.

ومن الصعب فى الواقع ان لم يكن مستحيلا اعطاء ولو صورة عامة تخطيطية لتاريخ كل الدويلات التابعة فى اوربا العثمانية، ولهذا سوف نكتفى بتوضيح حقيقة روابط تلك الدويلات (الولايات) مع العثمانيين، والتعريف فى ايجاز بأكثر الشخصيات اهمية، وكذا اكثر معالم التطور اهمية. ولما كانت امارتا الدانوب قد ارتبطتا بالعثمانيين لفترة اطول من ترانسلفانيا وكانتا أكثر قربا من راجوزا للعثمانيين يصبح من المناسب تناول هاتين الامارتين اولاً.

كان الرومان الذين يعود اصلهم الى الداشييين يعيشون فى كل من امارتى مولدافيا وولاشيا، وهو امر اثبتت صحته الاكتشافات الاثرية والسجلات الرومانية الخاصة باقليم داشيا Dacia. ومن الصعب العثور على مدونات بلغة داشية لأن الرومان كانوا يتكلمون اللاتينية كما هو معروف. وربما ترجع اصول الداشية الى ايام داشيا الرومانية، او قد لا ترجع اليها. وايا كانت الاسباب وراء اتخاذ الامارتين لللاتينية لغة لهما زمن بازارب Basarab اول امير لولاشيا (تولى الامارة حوالى ١٣١٠)، وزمن دراجوز Dragos اول امير لمولدافيا (تولى الامارة حوالى ١٣٥٢)، فان اسلاف الرومانيين الحاليين كانوا يتكلمون الداشية. وكانت عاصمة مولدافيا تنتقل بين أكثر من مدينة كان اخرها مدينة سوكييفا Suceava ثم الى اياصى فى ١٤٦٦. كما انتقلت عاصمة وولاشيا هى الاخرى من ارجيز Arges الى تيرجوفيست Tirgoviste ثم الى بوكورشتى Bucureesti فى ١٦٥٩.

كان مركاى سلباترين Mircea cel Batrin اول حاكم رومانى يوافق فى عام ١٣٩١ على ان

يدفع جزية للعثمانيين رغم انه دخل في حرب معهم بعد ذلك بعامين انتهت بهزيمة بايزيد الاول في انقره عام ١٤٠٢، وكان من نتائجها ازالة الضغط العثماني مؤقتا عن ولاشيا. ثم مالبت الموقف ان تغير وارغم مركاي على الاعتراف بتبعيته للعثمانيين مع دفع جزية سنوية قدرها ثلاثة الاف درقية. على ان هذه التبعية لم تكن حالة دائمة، اذ استطاع كثير من حكام ولاشيا مقاومة العثمانيين. ولكن بعد وفاة فلاد تيبش Vlad Tepes في ١٤٧٦ اصبحت تبعية ولاشيا للعثمانيين امرا دائما ومؤكدا. اما مولدافيا التي تقع بعيدا عن البلقان فقد احتفظت باستقلالها التام لفترة اطول ولم تصبح ولاية تابعة تدفع جزية الا في ١٥١٢. ولقد ظلت تبعية ولاشيا ومولدافيا للعثمانيين علاقة قائمة دون تغيير طوال قرنين من الزمان إلى أن أقدم العثمانيون في ١٧١٤ ومن جانبهم على استبدال التبعية بانفاق مع الامارتين يعطى اهلها حق اختيار حكامهم بمعرفتهم. وقد تلا ذلك ما يسمى بالعصر الفناريوتي Phanariot والذي استمر من عام ١٧١٤ الى ١٨٣٠ قطعت خلاله الرابطة التي تربط الامارتين بالعثمانيين في مجالات مختلفة، ومن ثم بدأ تاريخ رومانيا المستقلة.

والحقيقة انه قبل العصر الفناريوتي وحتى عام ١٥١٢ حاول عدد من الامراء الرومانيين من حكام مولدافيا ابتداء من مركاي سلباترين الى ستيفان سلمير Cel Mere (العظيم)، انتهاز كل فرصة للتصرف باستقلالية عن سادتهم لاستعادة استقلالهم. وكان من بين هؤلاء الامراء الامير فلاد تيبش الذي اخذ «شهرة اسطورة دراكولا التاريخية» بين قومه، لما نسب اليه من قوة وقسوة لم يسبق لها مثيل في الحروب التي دخلها ضد العثمانيين بالتحالف مع جون هونيادي والملك ماثياس، على الرغم من انه لم يحرز انتصارا في اى منها.

وكان ستيفان سلمير شخصا أكثر خطرا من فلاد تيبش حتى لقد لقب بستيغان العظيم وقد اصبحت حاكما لمولدافيا في ١٤٥٧ في ظروف صعبة، اذ كانت القسطنطينية قد سقطت في يد العثمانيين وقام السلطان محمد الثاني بتحويل البلقان الى ولايات عثمانية بسرعة، وقام ماثياس ملك المجر بتحويل توجهاته واهتماماته ناحية الغرب، ورنا كاشيمير Casimir حاكم بولندا (١٤٤٧ - ١٤٩٢) ببصره ناحية الشمال. ولم يكن فلاد تيبش الذي ساعد ستيفان في اعتلاء العرش، أكثر من صديق يعتمد عليه .. ففي ١٤٦٢ هرب الى المجر امام جيش السلطان محمد الثاني وظل هناك لمدة اربعة عشر سنة لم يقدم خلالها خلفاؤه لحاكم مولدافيا (ستيغان العظيم) الا مساعدات قليلة حتى لقد وجد ستيفان نفسه وحيدا معزولا.

بدأ ستيفان حكمه بمحاولة اعداد جيش نظامي من أقتان الارض. وعندما عارضته الارستقراطية الزراعية (البويار) ملاك الاراضي الزراعية، اخذ يعد العدة لتكوين جيش من الفلاحين الاحرار ترتبط حريتهم بالخدمة العسكرية. وليس من المعروف على وجه اليقين حجم القوة التي كونها، لكنها كانت قوة لا بأس بها، ويحتمل انها كانت تتكون من ٤٥ ألف الى ٧٥ ألف رجل، الا انها كانت سيئة الاعداد والتجهيز بحيث لم يكن بإمكانها خوض معارك ضارية ضد قوة منظمة تنظيما جيدا مثل قوة العثمانيين. وكانت فرصتها الوحيدة في اختيار القوة واحراز النصر ان تكون

تحت قيادة قائد متميز من الطراز الاول. وكان ستيفان هو ذلك القائد الممتاز فى عيون اهل مولداڤيا، اذ كان يعرف تماما مواطن القوة والضعيف فى قواته. وقد برهن على قيادته الواعية حقا فى عام ١٤٦٧ عندما هاجمه المجرىون الذين ارادوا تحويل مولداڤيا الى ولاية تابعة، اذ ظل يتراجع امام جيش المجر الهائل الى ان وصل هذا الجيش الى بايا Baia الى جنوب سوڤييفا بحوالى ٣٥ ميلا. وهنا لم يصادف اية مقاومة فاقام المجرىون معسكرا لراحة الجند. وفى منتصف ليل ١٤ ديسمبر تسلل جيش ستيفان «الفلاحى» الى معسكر المجرىين فى اسلوب من اساليب العمل الفدائى الحديث واحرز نصرا حاسما.

كان التهديد الحقيقى لستيفان يأتى من العثمانيين وليس من مائياس ملك المجر الذى كانت مغامراته فى الهجوم على مولداڤيا مجرد انحراف عارض عن سياسته المتوجهة نحو الغرب. ومن ناحية اخرى كان رادوسلفروموز Radu cel Frumos المقلب بالعدل والذى حكم ولاشيا منذ هروب فلاد تيش فى ١٤٦٢، يخضع كلية للعثمانيين حتى لقد سمح لجيوشهم بالمرور داخل اراضيه. وشعورا من ستيفان بحاجته الى شخص يعتمد عليه فى حدوده الجنوبية، قام بغزو ولاشيا فى ١٤٧١ وخلع رادو ووضع مكانه بازاراب - لايتا Laiota المعروف بتشده ضد الاعداء بارادة حديدية. وهكذا وتحت قيادة ستيفان، كان جيش امارتى ولاشيا ومولداڤيا قادر على دفع العثمانيين للتقهقر الى الخلف فى ١٤٧٣، فما كان من السلطان محمد الا ان اندر ستيفان فى العام التالى بعزمه على اخضاع مولداڤيا للسلطة العثمانية. وقبل ان يجيب ستيفان على الانذار وضع فى ذهنه خطة دفاعية تقوم على حرق الارض الزراعية عمدا، وحصل على موافقة كل من البويار والفلاحين على ذلك. وبعد ان رفض ستيفان مطالب السلطان محمد ارسلت قوة عثمانية بقيادة الصدر الاعظم لمهاجمة ستيفان، وهنا نفذ ستيفان خطته وانسحب تاركا الارض خرابا يبابا للغزاة. واسهم الشتاء فى معاناة الجيش العثمانى حتى اصبح يعانى الجوع والضعف والوهن، وهنا هاجمه ستيفان فى ١٠ يناير ١٤٧٥ على بعد ٤٥ ميلا جنوب اياصى بالقرب من فازلوى Vaslui. وهكذا نجحت الخطة التى سبق ان نفذها ستيفان ضد المجرىين قبل ذلك بسنوات قليلة.

وعلى الرغم من الانتصارات التى احرزها ستيفان، الا انه ظل يشعر بالضيق والاكتئاب بسبب عزلته، اذ ذهبت صرخاته طلبا للمساعدة ادراج الرياح، الا من عبارات التحية والبركة ازجها له البابا. وهكذا وجد نفسه يواجه وحيدا هجوما عثمانيا بقيادة السلطان محمد نفسه فى العام التالى ١٤٧٦ حيث انتصر العثمانيون، وتقهقر ستيفان الى مكان قصى فى شمال بلاده. ولم ينقذه من الهلاك الا تفشى الكوليرا فى المعسكر العثمانى من ناحية ووصول قوة مساعدة من ترانسلفانيا من ناحية اخرى، فانسحب السلطان مضطرا. ولم تتعرض البلاد لهجوم عثمانى بعد ذلك الا فى عام ١٤٨٤ عندما احتلت قوات بايزيد الثانى كل من كيليا Kilia واكرمان Akerman وبيلاجورود Biel-gorod ، وشيتاتيا البا Cetatea Alba، ومونكاسترو Moncastro ترتب عليه عزل مولداڤيا عن البحر

الاسود. ثم اوغلت القوات العثمانية داخل البلاد حتى وصلت العاصمة سوكيفيا. غير ان ستيفان استطاع رد العدوان ووقع الهزيمة بالعثمانيين في ١٤٨٦. وحينذاك انسحب العثمانيون من كل اراضي مولدايا تاركين كل مواقعهم عدا المدينتين المحصنتين على نهر الدانوب. ولم يقتصر الامر على ذلك بل ان ستيفان اضطر لأن يقاتل البولنديين طوال السنوات الثماني الاخيرة من حكمه، اذ كانت بولندا تحاول مد سيادتها على بلاده مولدايا. والحقيقة ان ستيفان ابدى امتعاضه من سياسة جيرانه المسيحيين، وكان يرى ان تبعية ابنه وولى عهده للعثمانيين وخضوعه لهم بمقتضى شروط مناسبة ومعقولة، افضل من خضوعه للمجريين والبولنديين وهو ما اقدم عليه الحاكم الذى حلقه.

لم يكن ستيفان رجلا عسكريا ناجحا ويتمتع بقدرات ادارية هائلة، ولكنه كان متدينا فاهتم ببناء الكنائس والاديرة، واقام توازنا بين مختلف القوى داخل بلاده، فتمتع بتأييد رجال الدين والبيوار والفلاحين ومساندتهم. غير ان سوء حظه اوقعه وشعبه وسط جيران ان لم يدركوا حقيقة الخطر العثماني على وجهه الصحيح، فلم يقدموا له المساعدة العى طلبها فى الوقت المناسب.

ولقد كانت اوضاع مولدايا تحت حكم ستيفان مستقرة وتقوم العلاقات بين اهلها على مجمل العادات القديمة السائدة فى امارتى الدانوب. وكان الامير الحاكم فى امارتى الدانوب حاكما مطلقا من الناحية النظرية رغم انه كان ينتخب «رسميا» بواسطة جماعة النبلاء ورجال الدين، وتوافق عليه الاهالى المقيمة بمكان الانتخاب، بل ويحكم من خلال مجلس استشارى يتكون من كبار الشخصيات فى البلدة وبناء عائلات النبلاء المرموقة. وكان الانخراط فى صفوف هيئة النبلاء مقتصر على الامراء وهم فقط الذين كان بإمكانهم منح الارض للبيوار الجشعين وللكنيسة. ومن الملاحظ ان عددا قليلا فقط من الحكام كان بمقدورهم الاحتفاظ بالعرش اطول مدة ممكنة (انظر الملحق رقم ٤)، ذلك لأن وراثة العرش لم تكن امرا منظما ابدا فضلا عن كثرة الانقلابات داخل القصور. وكان على الشخص الذى يريد السلطة ان «يشترى» الاصدقاء، فى الوقت الذى زادت فيه اعداد الفلاحين الذين يعملون فى اراضى اللوردات وارضى الكنيسة والذين كانوا يعرفون بالدوروبنتى dorobanti، وتناقص عدد الفلاحين الاحرار المعروفين بالكلراسى Calarasi بسرعة ملحوظة والحق انه لايمكن ان يطلق على هؤلاء الدوروبنتى لفظ اقنان الارض بالمعنى الاصطلاحي اذ كان لهم بعض حقوق التملك وكان بإمكانهم تغيير محل اقامتهم متى شاءوا.

كان معظم دخل الامارة وكذا طبقة النبلاء يأتي من ضريبة العشر. غير ان قدرة الفلاحين على توفير العشر اصبح صعبا مع مرور الايام بسبب التضخم الذى صاحب الثروة العثمانية، وبسبب زيادة الجزية التى يدفعها الامراء التابعين للسلطان (الافصال) والذين اضطروا لتوفيرها، ان يزيدوا من حجم الالتزامات المفروضة على الفلاحين. ومع ذلك فثمة شرائح وطبقات معينة تلى الامير فى السلم الاجتماعى، انتعشت فى فترة النفوذ العثماني حتى لقد كانت الوظائف الكبرى والمجالس تعرف بالاسم لشرقى لها (اى العثماني) وليس الاسم المحلى. ومنهذه الشرائح: رجال الكنيسة،

والنبلاء، وشريحتان معينتان من الفلاحين اضيفت لها مؤخرا طبقة تجار .

وبسبب عدم وجود حكام اقوياء بعد وفاة ستيفان العظيم باستثناء واحد او اثنين ظلت المؤسسات دون تغيير اساسى، ويشغلها الاقطاعيون (البويار) طوال القرن الاخير قبل العصر الفناريوتى . ومن ناحية اخرى أدى ابقاء السلطان العثماني على اسلوب اختيار الامير لتولى الامارة مقابل هدية مناسبة يقدمها الامير دون فرض قاعدة محددة .. ادى الى ايجاد فرص للمكائد وللمؤمرات بين المتنافسين فى التعامل مع السلطات العثمانية المدنية ومع رجال الكنيسة اليونانية . والحقيقة ان البويار بتسلطهم على امور الامارة اسهموا فى زيادة يؤس السكان وتعاستهم المتزايدة بشكل عام مثلما اسهمت الادارة العثمانية الفاسدة ورجال الكنيسة الجشعين، رغم ابقاء العثمانيين على المؤسسات الرومانية القائمة دون مساس كما سبقت الإشارة، بل واسهامهم فى التوصل الى بعض التطورات الجديدة المفيدة لنافعة وساعدهم على ذلك القدرة على التأثير فى عملية اختيار الامراء والثروة التى كانت تنمو بسرعة ملحوظة .

وقبل ان تستعرض الفترة الاخيرة من حكم امارتى الدانوب، ينبغى ان نستكمل رواية تولى عرش الامارتين من بعد موت ستيفان العظيم حيث تناول اميرين جديرين بالذكر وهما: الامير بترو راريس Rares حاكم مولدافيا (١٥٢٧ - ١٥٤٦) وميهاي فيتازول Mihai Viteazul الملقب بالشجاع حاكم ولاشيا (١٥٩٣ - ١٦٠١) . وكان هذان الرجلان شخصيتين مختلفتين جدا اختلف المؤرخون الرومانيون بشأنهما حيث تناولوا تاريخ كل منهما بطريقة مختلفة . كان ميهاي من النبلاء ذوى القدرات العسكرية الرائعة المتنوعة . ولم يكن من المتوقع ابدا ان يصبح بطلا عظيما لأتمته، ولكن .. ولأنه استطاع توحيد امارتى لدانوب وترانسلفانيا لفترة قصيرة تحت حكمه، اصبح الاب الروحى لرومانيا الحديثة .

كان كل من الرجلين من دهاقنة المكائد والمؤامرات، وهو شرط اساسى لاي امير روماني ناجح فى القرن السادس عشر . ورغم انهما ارتبطا بالامبراطورية العثمانية بعلاقة التبعية، الا ان ذلك لم يكن ليخيف الهابسبورج او حكام بولندا من آل ياجيللو Jagiello وآل فازا Vasa اذ كان كل من هؤلاء بناء امبراطوريات، بل على العكس كان على هذين الاميرين الرومانيين ارضاء سادتهم فى استانبول والدجوء الى المناورة للتخلص من اطماع جيرانهم المسيحيين الاقوياء من الهابسبورج وحكام بولندا بما فيهم امراء ترانسلفانيا . وفيما بعد دخل حكام موسكو الناهضين وتатар القرم الاقوياء وحتى القوزاق من حين لآخر، اللعبة الصعبة الخاصة بادعاءات الوصاية والمطالبة بعرش الامارتين وذلك اعتمادا على تأييد ومساندة احدى القوى الخارجية والقيام بشن هجمات عسكرية سافرة .

وقد كان لهذا الموقف المتوازن الذى وقفه اميرا الدانوب بين السلطة العثمانية والقوى المجاورة بعض المميزات القليلة، فقد استطاع الامراء الرومانيون التحكم فى ميزان «العلاقات الخارجية» التى

كان خطرها يفوق فائدها، ونجحوا في استمرار تنظيم التجارة مع جيرانهم بدرجة كبيرة. والاكثر اهمية من هذا ان العلاقات الثقافية وخاصة مع بولندا لم تنقطع وكانت الامارتان قادرتان على المشاركة في الحركة الثقافية الاوروبية بفاعلية اكثر من مشاركة «اقاليم نواة اوربا العثمانية». وعلى هذا قدم الرومانيون ثمنا كبيرا لاستبقاء هذه الميزات .. فعلى حين كان العثمانيون يحمون اراضيهم، كان نادرا ما يدافعون عن اراضي اتباعهم، اذ تركوهم يتلقون الضربات من جيرانهم «ويعاقبون» لعلاقتهم مع «العدو» (اي العثمانيون)، غير مدركين انه تحت مثل هذه الظروف لم يكن ممكنا تجنب مثل هذا الامر.

والحاصل ان بترو راريفس الذى رأى ان زابولياى يخسر الصراع على المساعدة مع فرديناند، كان من الطبيعى ان يسعى لتأمين حدوده الغربية، ومن ثم اقدم على احتلال اجزاء من ترانسلفانيا فى ١٥٢٩، ١٥٣٠. وفى العام التالى (١٥٣١) قام بالهجوم على بولندا بالتحالف مع موسكو لكنه هزم. وطوال السبع سنوات التالية ظل يناور ويخادع ويتحرك بين كل من فرديناند، وزابولياى، والبولنديين، وتحكام موسكو، وسادته العثمانيين الذين فقدوا كل ثقة فيه فى النهاية، ومن ثم دخل السلطان سليمان الاول معركة كبيرة معه فى ١٥٣٨ انتهت باخضاع كل من مولدافيا ووضع ابن بترو راريفس على العرش. وفى تلك الاثناء كان العثمانيون قد اقاموا حصن بندر Bender مكملين بذلك خطا من النقاط القوية على الدانوب الادنى والدنيستر، واستمروا فى وضع الحاميات العسكرية. وعندما مات زابولياى هرب راريفس وكان اسيرا لديه، الى استانبول. وفى عام ١٥٤١ عاد الى مولدافيا واعتلى العرش مرة اخرى بمساعدة العثمانيين وكان الثمن باهظا فى هذه المرة اذ اشترط عليه العثمانيون ان يقبل وجود حارس من الانكشارية فى قصره، وان يوافق على رفع الجزية المحددة الى اثنى عشر الف دوقية. ثم مات الرجل فى ١٥٤٦ وخلفه عدد كثير من الامراء الذين لم يكونوا يتمايزون فيما بينهم الا بقدر ما يرتكبونه من رذائل وآثام.. وهكذا .. عندما اوشك القرن السادس عشر على الانتهاء، كان تاريخ مولدافيا مجرد صفحة بائسة تعيسة.

اما بالنسبة لولاشيا فعندما شارف القرن السادس عشر على الانتهاء كان وضع اميرها ميهاي فيتايزول وسط القوى المجاورة يشبه راريفس من حيث انه كان عليه ان يناور ويخادع ويتحرك بين كافة القوى، الى ان أوقفه اخيرا الجنرال جورج باستا Basta من الهابسبورج بخدعة قاتلة، بل كان موقفه اكثر ارتباكاً مما كان عليه راريفس .. ذلك ان استانبول كانت آنذاك تغوص بسرعة ملحوظة فى مستنقع الفساد، وكان امراء مولدافيا ضعافا واقعين تحت نفوذ زيجزوموند الثالث (١٥٨٧ - ١٦٣٢) اول ملوك بولندا من اسرة فاذا وكان رجلا طموحا جدا، اما ترانسلفانيا فكان يحكمها اثنان من اضعف الامراء بعد فترة من القوة وهما زيجزوموند واندرو باثورى Bathory اللذان عجزا عن منع الهابسبورج من مهاجمة اراضيهم، بل ان زيجزوموند باثورى ذهب ابعد من هذا العجز حين تنازل عن اراضية للامبراطور رودولف.

وتحت هذه الظروف لم يكن امام ميهاي مجال للاختيار الا القيام بتحركات مضادة قبل ان تخاصر امارته الصغيرة بالعمالقة من كل صوب. وكان لديه جيشا قويا محدود لعدد يكون اساسا من اعيان الريف في امارتي الدانوب وهي قوة جديدة تطابقت مصالحها مع مصالح الامير طالما كان المحافظة على الاستقلال الداخلى لولاشيا امرا معنيا، وان كان هؤلاء الاعيان لعبوا دورا فعالا في تدهور وضع الفلاحين في الامارة تدهورا سريعا. وبهذه القوة الجديدة قاد ميهاي حملتين عسكريتين رائعتين: الاولى في ١٥٩٥ ضد العثمانيين الذين ساءهم تحركاته الدبلوماسية المستقلة، والثانية في ١٥٩٩ ضد اندرو باثوري. وفي العام التالي (١٦٠٠) اصبح سيد مولداڤيا دون منازع.

ومع ذلك كان ضعف ميهاي يكمن في انه كان عليه ان يعتمد على النبلاء ايضا في ترانسلفانيا وهم القوة الوحيدة التي تستطيع ان تعترف به كحاكم وتوفر له القوة العسكرية الضرورية. وعلى حين كان قطاع من هؤلاء النبلاء المجريين يؤيد ميهاي امير ولاشيا، استاء قطاع اخر من كونه ولاشيا، بينما كان قطاع ثالث ينسق مع مبعوثي الامبراطور رودولف. وكنتيجة للمكائد المعقدة ارسل الهابسبورج جيشا الى ترانسلفانيا لمساعدة الفريق المؤيد لهم بقيادة الجنرال المتمكن باستا الذي هزم ميهاي في سبتمبر ١٦٠٠ واجبره على عبور جبال كارثيان، واذ ذاك تشجع البولنديون وتحركوا الى مولداڤيا ووضعوا مرشحهم على العرش. غير ان ميهاي - وكان محتفظا برباطة جأشه وهدوئه - سرعان ما تصالح مع رودولف وعاد الى ترانسلفانيا في العام التالي كحليف لباستا. وقد استطاع هذان القائدان الماهران القضاء على كل القوى المعارضة لهما في سهولة ويسر. لكن باستا الذي ادرك ان اهدافه لا تتطابق مع اهداف حليفه ميهاي، خدعه ودبر مقتله. وبوفاة ميهاي اختفى من على المسرح آخر الامراء الرومانيين الذين كانوا قادرين على اتخاذ مواقف سياسية مستقلة، وسقطت السلطة بعد ذلك اكثر واكثر في يد البويار (كبار الملاك الزراعيين).

على أن سيطرة البويار لم تتهدد الا طوال عقدين من الزمان عندما كان ماتى بازاراب Matei Basarab (١٦٣٢ - ١٦٥٨) يحكم ولاشيا وفازيله لوبو Vasile Lupu (١٦٣٤-١٦٥٣) يحكم مولداڤيا. ومن الملاحظ ان فترة حكم كل منهم الطويلة على غير المعتاد تدل على انها كانتا يتمتعان بقدرة استثنائية، ولكنهما كانا غير قادرين على الوقوف ضد التيار لاسباب كثيرة .. فالولا : في الوقت الذي اصبح فيه كل من ماتى بازاراب وفازيله حكاما، كانت معظم اراضي الامارة قد منحت للبويار او للكنائس بواسطة الامراء السابقين. وهكذا كانت الطريقة الوحيدة امام هذين الحاكمين للحصول على تأييد النبلاء هي السماح لهم باطلاق يدهم في الفلاحين، وثانيا: كان فازيليه لوبو شخصا طموحا غير قانع بامارة مولداڤيا، وكان يطمح في عرش ولاشيا الاغنى، وثالثا: كان العثمانيون يؤيدون مغامرات لوبو، ذلك انهم كانوا في وضع غير موات قبل ظهور الصدر الاعظم كوبرولو، كما لم يكونوا في وضع يسمح لهم بمقاومة ضغط رومانيا المتحدة من اجل التنازلات. وعلى هذا فبدلا من ان يقوم الاميران القويان نسبيا بعمل مشترك، حارب كل منهما الاخر ثلاث

مرات في ١٦٣٧ و ١٦٣٩، و ١٦٥٢، وكان هذا في صالح العثمانيين بطبيعة الحال - وفي كل هذه الحروب كان فائز لوبو هو المعتدى.

وعلى الرغم من انه لم يكن ممكنا استخلاص تنازلات من العثمانيين حتى بواسطة العمل المشترك، الا انه كان ممكنا فعلا تحقيق استقرار داخلي في الامارتين تحت الحكم الطويل نسبيا للاميرين القويين رغم النمو السريع لسلطة النبلاء، اذ عمل كل منهما على تركيز جهدهما في الامور الداخلية. والمثال على ذلك شخصية لوبو الذي تدعمت سلطاته بفضل تشجيع العثمانيين، ولو أنه لم ينتهز هذه الفرصة التي كانت آخر الفرص لكي يكبح جماح النفوذ المتنامي للنبلاء.

وقبل ان نتقل الى موضوع اخر، يجدر بنا ان نذكر انه خلال حكم هذين الاميرين نالت عائلات فناريوتيه اول مكاسبها في الامارتين بمساعدة العثمانيين وبطريك الكنيسة الارثوذكسية (انظر القسم الرابع من هذا الفصل). وفي هذا الخصوص استخدم الفناريوتيون موقعهم الجغرافي ووضعهم المالي للتأثير على تعيينات رجال السلك الكنسي (الكليروس)، وأكثر من هذا نراهم يتورطون في مختلف المدفوعات المالية التي كان على الاميرين دفعها لاستانبول، وكذلك في التجارة المتنامية بين مدينتهم وبين مولدافيا وولاشيا، وهو ماسوف نعالجه في القسم التالي من هذا الفصل.

والحق ان وجود حاكم قوى بشكل استثنائي في القرن السادس عشر، وكذلك سيطرة البويار في القرن السابع عشر، كان امرا ممكنا بسبب موقف العثمانيين تجاه امارتى الدانوب. فطالما ان هاتين الامارتين لا تتورطان في الشؤون الخارجية الى درجة تهديد السياسة العثمانية، وطالما انهما يدفعا ما عليهما من ضرائب والتزامات، وطالما ان القلاع والحصون الرئيسية بالامارتين في يد العثمانيين وفي امان، كانت استانبول لا تهتم الا قليلا نسبيا لما يحدث في مولدافيا وولاشيا. ولقد اصبحت تلك الالتزامات المفروضة اكثر عبئا وتكلفة في القرن السابع عشر عما كانت عليه في القرن السادس عشر، وهي حقيقة تتصل بالتدهور السريع لوضع الفلاحين الرومانيين، وبالظهور السريع للشريحة الدنيا من البويار. وعلى هذا وقبل ان نعرض لفترة حكم البويار والفناريوتيين لفترة طويلة من الزمن، ينبغي استعراض الاعباء التي فرضها العثمانيون على اتباعهم من الامراء الرومانيين حكام امارتى الدانوب (مولدافيا وولاشيا).

٢ - العلاقات العثمانية مع مولدافيا وولاشيا

كانت اتفاقية التبعية التي عقدها بوغدان الثالث Bogdan III امير مولدافيا ابن ستيفان سلمير مع العثمانيين في مطلع حكمه، تشبه تلك التي عقدت بين العثمانيين وحكام وولاشيا. وبمقتضاها كان العثمانيون يحصلون على جزية سنوية ومواد غذائية معينة من منتجات الامارتين ترسل مباشرة الى استانبول، ولايمارس الامير المنتخب سلطاته الا بعد التصديق على اختياره من قبل «سيده» السلطان العثماني. وفي مقابل ذلك يتا^٩ تصريف الامور الداخلية للامراء «وللمؤسسات الحاكمة

المحلية، بالاسلوب نفسه الذى كانت عليه من حيث شغل الوظائف العامة وممارستها. كما نصت اتفاقية التبعية على ألا ينتقل المسلمون الى مولدافيا وولاشيا، أو يعيشون فيهما، وألا تقام فيهما مساجد، وألا ترابط بهما حامية عثمانية. على ان السلطات العثمانية لم تراخ هذه النصوص والشروط بدقة .. فقد رابطت حامية عثمانية فى كل من كيليا وأكرمان، وبنيت مدينة بندر، واضطر الامير راريفس لقبول فرقة انكشارية فى قصره «كحرس شخصى». وقد تكررت تلك الاجراءات المخالفة بشكل او بآخر فيما يعد بما فى ذلك توطين المسلمين فى دوريه. ورغم ان هذه الاجراءات كانت غير مشروعة وتتنافى مع اتفاقية التبعية، الا انها لم تكن ذات تأثير حاسم واضح على تطور رومانيا، الا من بعض الامراء، واستخدام الاثاث والمنسوجات التركية.

كانت للعلاقات «الرسمية» والمشكلات الاقتصادية التى اوجدتها رابطة التبعية اهميتها، وكانت الجزية السنوية التى ترسلها الامارتان لاستانبول اول مظهر من مظاهر التبعية الدائمة، وكانت قيمتها تختلف بين الامارتين حسب الثروة وتأرجح ارتفاعا وهبوطا (انظر الجدول رقم ٢) حيث كانت ولاشيا تدفع اكثر من مولدافيا لأنها الاكثر غنى وثروة.^(١)

وعلى حين يمكن ارجاع الارتفاع فى قيمة الجزية الى التضخم والى حاجة الخزينة المركزية المتزايدة للاموال، الا ان التذبذب الملاحظ فى قيمتها امر غير مقبول منطقيا .. فالتضخم الكبير الذى حدث بعد عام ١٥٨٤ مثلا أثر على قيمة الأقمحة، ولكن لم يكن يؤثر على الدوقية، ومن هنا فان الارتفاع المفاجئ فى قيمة الجزية لايمكن ارجاعه الى التضخم الا بطريق غير مباشر. ويفسر هذا قيام الحكومة العثمانية لمواجهة التزاماتها بمضاعفة الجزية على اولئك الذين يدفعون بعملة لم تتأثر بالتضخم (وهى الدوقية)، ذلك ان معظم دخل الخزينة المركزية من اقاليم اوربا العثمانية كان يأتي بالأقمحة التى انخفضت قيمتها بفعل التضخم. كما يمكن تفسير ارتفاع قيمة الجزية المقررة على الامارتين فى عام ١٥٩٣ اذا افترضنا ان القيمة المدفوعة تمثل الجزية الاساسية والضرائب الاستثنائية (العوارض) خلال فترة حرب طويلة مكلفة مع الهابسبورج. واما انخفاض المبلغ عام ١٦٠١ بالنسبة لولاشيا فمن المحتمل انه كان يعكس قدرة ميهاي فيتايزول فى المساومة بشدة مع السلطات العثمانية. واما المبالغ التى جمعت بعد منتصف القرن السابع عشر فقد جاءت نتيجة اعادة تنظيم الادارة بواسطة الصدر الاعظم كوبروللو.

(١) انظر بيانات الجزية كما اوردها المؤرخون الرومان الثلاثة:

P. Constantinescu, Iasi, Em. Condurachi, C. Daicovicu
Istoria României 4 Vols. (Bucuresti, Editura Academiei Republicii populare Români,
1960 - 62), 2 : 779 - 80 and 3: 14 - 16.

جدول رقم (٢)

الجزية التي تدفعها امارتا الدانوب

مولدافيا	ولاشيا		
السنة	القيمة بالدوكية	السنة	القيمة بالدوكية
١٤١٧	٣٠٠٠	١٤٥٦	٢٠٠٠
١٥٠٣	٨٠٠٠	١٤٦٥	٣٠٠٠
١٥٤١	١٢٠٠٠	١٤٨١	٦٠٠٠
١٥٤٢	٢٤٠٠٠	١٥٠٣	١٠٠٠٠
١٥٤٥ - ١٥٥٩	٥٠٠٠٠	١٥٥٢ - ١٥٦١	٣٠٠٠٠
١٥٦٧	٦٥٠٠٠ تقريبا	١٥٦٨ - ١٥٧٢	٣٥٠٠٠
١٥٨٤	١٢٥٠٠٠	١٥٩٣	٦٥٠٠٠
١٥٩٣	١٥٥٠٠٠	١٦٢٠	٣٨٠٠٠
١٦٠١	٣٢٠٠٠	١٦٣٤ - ١٦٥٣	٢٥٠٠٠
١٦٣٢	١٣٠٠٠٠	١٦٨٥ - ١٦٩٣	٢٦٠٠٠

وقد ارتفع المبلغ الى ٤٢٠٠٠

لم تتغير المبالغ وبقيت كما هي

قبيل عصر حكم الفناريوتيين

حتى بداية حكم الفناريوتيين

وبالاضافة الى ضريبة التبعية المتفق عليها كانت امارتا الدانوب تدفعان مبالغ اخرى أطلق عليها الرومانيون اسم «البشكوشوريل». ومن الواضح انها نطقا رومانيا للكلمة التركية «بشكشلر» ومعناها حرفيا هدايا. وهي عبارة عن هدية تدفع للسلطين عند اعتلائهم العرش (هدية العرش الجديد)، ويدفعها الامراء في الامارتين عند تولي حكم الامارة. واول اشارة لهدية من هذا النوع كانت تلك التي دفعها بتروراريفس عندما اصبح اميرا على مولدافيا وكانت عبارة عن اثنا عشر الف دوقية مع هدايا اخرى^(١) ولكن وفيما بعد ونظرا لانتشار الفساد بعد وفاة الصدر الاعظم محمد صوقوللو لم يعد الأمر يقتصر على هدية السلطان، بل كان لا بد من مراضاة عدد كبير جدا من موظفي البيرون والاندرن بالهدايا. فاذا ما وضعنا في الاعتبار ان الامراء في مولدافيا وولاشيا كانوا يتغيرون بشكل سريع، ادركنا ان الرومان بدأوا يعتبرون البشكوشوريل ضريبة عادية، وهي ضريبة كانت اثقل بكثير من الجزية السنوية اذ بلغ معدل هذه «الهدايا» ٦٥٠٠٠٠٠ دوقية سنويا بين عامي ١٥٨١ - ١٥٩٠^(٢). وفي السنوات التالية لم تكن قيمة الهدايا كبيرة لكنها ظلت قائمة من حيث المبدأ.

(١) نفسه، ٢ - ٧٨٠

(٢) نفسه، ٢ - ٧٨٢

ومن الملاحظ ان سجلات المدفوعات فى هاتين الامارتين لا تتضمن المبالغ الاضافية التى كانت تصرف بشكل غير رسمى على «الهدايا» فى استانبول .. فقد كان القابوكخيا وهو مندوب رسمى لدى الحكومة المركزية لمباشرة مصالح سيده الامير يدفع هو الاخر مبالغ ضخمة ليتولى وظيفته مثلما يفعل الوكلاء غير الرسميين للعناصر الظموحة التى تتطلع لمنصب الامارة. وعلى هذا يجب اضافة قيمة تلك الهدايا والرشاوى الى قائمة المدفوعات التى تصل الى خزينة الدولة فى استانبول. وعندما يفكر المرء فى تنوع الاموال المدفوعة نقدا وعينا لايملك الا الدهشة والاعجاب للثراء الذى كانت عليه ولايتى الدانوب، والجهد الذى كان يبذله الفلاحون والذى نتج عنه ليس فقط تدعيم ومساعدة الامراء الحكام المحليين وكذا البويار والكنائس، بل وامكانية انتاج هذا «الفائض القابل للتصدير».

ومن الممكن تحديد قيمة المدفوعات العينية اذا تتبعنا الضريبة المحددة على «الصادرات» التى كانت ترسل الى استانبول. ويكفى ايراد مثال واحد فى هذا الخصوص، ففى منتصف القرن السابع عشر تقريبا ارسلت ولاشيا ٤٢٠٠٠ رطل عسل، و ٢٥٠٠٠ رطل حبوب سنويا، على حين كانت مولدافيا ترسل ٢٨٠٠٠ رطل عسل ومثلها من الحبوب، وجلود ٦٠٠ ثور، و ٦٠٠ «وزنة» من الشحم (لصناعة الشموع)، ٥٠٠ - ٦٠٠ «قطعة» قماش لصناعة ملابس العبيد الذين يعملون على السفن، ٢٨٠٠ - ٣٣٠٠ رطل حبوب اضافى لاطعام عمال الترسانات.^(١) ويجب ان نضع فى الاعتبار ايضا انه كان على هاتين الامارتين امداد الحاميات العسكرية العثمانية المعسكرة على ارضها بما تحتاجه. وهكذا نجد ان الالتزامات التى كانت ملقاة على عاتق الامارتين بما فيها مختلف «الهدايا» كانت تصل الى مبالغ كبيرة، وتمثل فى الوقت نفسه استنزافا اقتصاديا حقيقيا. ورغم ان اميرى ولاشيا ومولدافيا كانا من الناحية الرسمية مسئولان عن جمع الاموال والبضائع التى ترسل الى استانبول، الا انها كانا يعتمدان بشكل كبير على النبلاء او على من يولونهم لجمع المطلوب من الفلاحين. ويمكن ارجاع النمو السريع لسلطة البويار الى هذه الحقيقة وحدها، ولو ان ضعف الحكام وقصر مدة ولايتهم بشكل سريع عجل بنمو سلطة البويار.

ويذكر المؤرخ الرومانى المشهور اكنزبول Xenopol انه فى مطلع القرن السابع عشر كانت ايرادات الامارتين سنويا تبلغ ٦٠٠٠٠٠ - ٨٠٠٠٠٠٠ دوقية، يذهب ثلثها الى استانبول، ويصرف الاميران منها مائة الف على نفقات القصور وعلى القوات المرتزقة، ويبقى لهما مائة الف اخرى.^(١) فاذا كانت تلك المبالغ صحيحة فانها تفسر لماذا كان كثير من الرجال يتآمرون ويدبرون المكائد والمؤامرات، وينفقون اموالا ضخمة من اجل الفوز بعرش الامارة. ولا بد من التساؤل عن مصادر الاموال التى انفقوها على تلك الاغراض. ومن الواضح ان قلة من الرجال كانوا يستطيعون توفير تلك النفقات بشكل او باخر، والتفسير الوحيد لهذا الامر لا بد وانه يكمن فى وجود البويار الذين رغب كل منهم فى الفوز بالوظائف المربحة بمجرد تولي مرشحهم عرش الامارة آمليين ضد كل

(١) نفسه، ٣: ٢١ - ٢٢

(5) Alexander Dimitri Xenopol, Histoire des Roumeines de la Dacie Trajane, 2 Vol. (paris: E.Leroux, 1896), I: 531, quoted R.W. Seton - wetson, A history of the Roumanions (1934; reprinted, Hamden, Conn. Archon Books, 1963) p. 73

الاحتمالات، ان حكمه قد يستمر اطول مدة ممكنة يستطيعون خلالها الافادة من استثماراتهم. ومثل هذا التفسير لا بد وان يلقي الضوء على كيفية نمو قوة النبلاء وتدهور طبقة الفلاحين السريع. وعلى هذا فليس غريبا ان كثيرا من المؤرخين الرومان يعتبرون الفترة بين وفاة ميهاى فيتازول وبداية فترة حكم الفناريوتيين بقرن البويار.

أشرنا فى نهاية القسم الاول من هذا الفصل الى بداية تورط الفناريوتيين ماليا فى الشئون الرومانية ليس فقط فيما يتعلق بتمويل قيمة الجزية والبشكوشوريل، بل ايضا فيما يتعلق بنوع ثالث من المطالب العثمانية التى كان على كل من اللوردات المحليين والتجار واليونانيين ونوعيات اخرى من الناس توفيرها والتى كانت تتمثل فى حاجة استانبول الى الطعام والمواد الخام اللازمة لصناعات بعينها فى المدن .. فخلال الايام الاخيرة من استقلال القسطنطينية (المدينة الدولة) كان عدد سكانها قليلا يبلغ فقط اربعون الف، ولكن فى ١٥٢٠ وبمقتضى سياسات السلطان محمد الثانى وخلفاؤه فى اعادة التوطين زاد عدد السكان حوالى ٧٠٠٪ طبقا لتعداد ذلك العام. وفى نهاية القرن السادس عشر كان يعيش فى استانبول (القسطنطينية) اكثر من نصف مليون تقريبا يضاف اليهم سكان عدد كثير من الضواحي المترامية. ورغم ان السلاطين قاموا باعادة تسكين القرى الاربوية والاسيوية القريبة من عاصمتهم الجديدة، الا انها لم تكن تستطيع توفير العمران اللازم لعاصمة حقيقية، فضلا عن ان نقص الطعام الذى كانت تعاني منه العاصمة من آن لآخر، ادى الى اندلاع الشغب الذى هدد استقرار الدولة. ولهذا وحتى تأمن الدولة من الهزات المفاجئة احتفظت للعاصمة بالصادرات التى كانت تصل اليها من اقاليم معينة اوروبية واسيوية بل ومن مصر احيانا.

وهكذا وجد الحكام العثمانيون انفسهم امام مأزق كبير، اذ كان عليهم ان يتأكدوا ان استانبول يصلها ما تحتاجه من ضروريات بسعر معقول، وان هذا العطاء لم يؤثر على الانتاج الزراعى والحرفى والتجارة فى الاقاليم «الواهبه». اما المشكلة الكبرى الحقيقية فكانت تتلخص فى ان «اسعار السوق» فى الاقاليم كانت غالبا اعلى من القوة الشرائية فى اسواق استانبول خاصة وان استانبول كانت تزدهم بالفقراء. ومن هنا نظمت الفرمانات السلطانية نوع وكمية وثمان المواد التموينية. وفى الوقت نفسه ومن اجل الابقاء على اقتصاد الاقاليم متماسكا وحيويا، قامت الحكومة باعفاء الاقاليم التى تقوم بتوريد ما تطلبه استانبول من ضرائب معينة فى محاولة لايجاد توازن بين التكاليف والدخول. وثمة عناصر معينة كانت تقوم بعملية شراء المشتروات المطلوبة لاستانبول ترسلها الحكومة المركزية فى العاصمة مزودين بتعليمات محددة. وبعض هذه العناصر كانت ممن يقيمون بالاقاليم نفسها. وكانت هذه العملية تتم من وراء ظهر حكام الامارتين، وبالتالي فقد كان نشاطها فى امارتى الدانوب «غير شرعى» طبقا لاتفاقيات التبعية. ومع هذا فمن المفيد ان نعرض لنشاطهم فى السياق العام لتاريخ رومانيا (امارتا الدانوب). ولا بد ان نتذكر انهم كانوا يزاولون نشاطهم فى كل ايلات اوربا العثمانية وبصفة خاصة فى روم ايلى وفى بلغاريا وتراقيا وسنجقيات مقدونيا.

كانت مشتروات الطعام الاجبارية وخاصة من الحبوب والاعناب والبقره تتم تحت اسماء مختلفة وهى: الاستيراد، والمبايعه، والمقايسة. والناس الذين يكلفون بشراء كميات محددة من

المواشى بأسعار محددة غالبا ضد رغبتهم، كانوا يعرفون ببائعي المواشى.^(١) اما الذين يكلفون بتربية بعض المواشى لارسالها الى استانبول فكانوا يعرفون بمرودي المواشى (جليكاشان). وعادة ما كان يتم اختيار عناصر معينة لهذا الغرض من مختلف الشرائح بما فيهم المهنيون واعضاء الطوائف الحرفية. بصرف النظر عن العقيدة الدينية. ويعود العمل بهذا الاسلوب في امارتى الدانوب الى عام ١٥٨٦ ثم ساد في بقية اقاليم اوربا العثمانية فى منتصف القرن السابع عشر. وكان التعيين فى هذه الوظيفة يقتصر على النخبة دون العامة. ورغم ان عملية تسليم هذه الموارد التموينية المطلوبة لاستانبول كانت معفاة من رسوم الطريق عند النقل ومن رسوم المراعى خلال مراحل تربية المواشى، الا ان بائعي المواشى هؤلاء كانوا عادة ما يلجأون الى عمليات الغش عبر تلك المراحل. وقد اصبح اولئك الذين لجأوا الى مختلف اساليب الغش التجارى فى هذه العمليات من صغار الرأسماليين الذين اخذوا وضعهم فى القرن الثامن عشر. ويبدو ان اغلبية هذه العناصر التى قامت بتوريد المشتروات كانت من اهل الذمة. واما فى امارتى الدانوب فقد جاء معظم هذه العناصر من اصحاب الحرف والتجار فى المدن، او من طبقة عامة الريف الناهضة.

ومن الصعب بيان ضخامة وحجم البضائع والمنتجات وغيرها التى تم ارسالها لاستانبول فى جدول احصائى نظرا لنقص المعلومات. ولكن هناك ارقام قليلة فى متناول اليد. ويذكر شفيتكوكفا Cvetkova انه خلال العقود الاخيرة من القرن السادس عشر كانت المناطق التى تمثل بلغاريا حاليا تقريبا ترسل اكثر من ٤٤٠٠٠٠ رأس غنم سنويا.^(٢) كما ان المعلومات الخاصة بمولدافيا وولاشيا (امارتا الدانوب) فى هذا الخصوص تنقصها الدقة، ولكن ما لدينا من معلومات قليلة له خطورته. فقد حددت فرمانات السلطان سليمان الاول فى سنوات ١٥٥٨، ١٥٥٩، ١٥٦٠، ١٥٦٦ انه على الامارتين تسليم من ثمانين الف الى مائة الف كيلة شعير لزوم الاصطبلات السلطانية وحدها بسعر ٦ - ١٠ أقة للكيله الواحدة.^(٣)

وفى ١٥٥٦ حدد السلطان سليمان ان ترسل مولدافيا الف ثور سنويا. وفى ١٥٩١ تقرر ان ترسل مائة وواحد واربعون الف رأس غنم.^(٤) وامامنا مثال مثير من مولدافيا يصور كل من المصاعب المالية للاميرين، واهمية البضائع المرسله، وأهمية هؤلاء الذين شاركوا فى تجارة الاحتكار هذه. ففي ١٥٨٩ اجبر جزار يدعى برفانا Pervana من الواضح انه يعمل بائع مواشى او مورد لها (جليكاشان) ابن احد الامراء الحكام لكى يرسل له تسعة الاف رأس غنم مقابل دين قدره ٤٢٠٠٠٠ أقة.^(٥)

(١) انظر أفضل دراسة مختصرة فى اللغة الأوربيه تتناول مشكلة المشتروات الاجبارية.

Bistra Cvetkova, "Le service des' Celep' et la ravitaillement en batail dans l' Empire Ottoman (X ve- XVIII es, Etudes Historiques (Sofia, Bulgarian Academy of Sciences), 3 (1961): 145 - 172.

(٢) نفسه، ص ٦٦٩ - ٦٧٠

(٣) الكيلة الاستانبولى تساوى حوالى ٨٨ رطل رهاك انواع مختلفة من الكيلات فى انحاء الامبراطورية أنظر: Maria Alexandrescu -Dersca, "Quelques donnees sur le rarutaillement de Constatinople aux XVI e Siecle", Actes du premier Congres, 3: 666

(٤) نفسه، ص ٦٦٩ - ٦٧٠.

(٥) نفسه، ص ٦٧٠

ولابد انه حقق صفقة رابحة من هذه العملية لأنه في عام ١٥٨٥ كان سعر أقة لحم الضأن في استانبول ثلاثة أضعاف^(١). فاذا ما تذكرنا انه حوالى ذلك الوقت كانت المائة وثمانون أقة تساوى دروقية بندقية واحدة، يصبح من الواضح ان هذه الجزائر كان غنيا جدا على حين كان الامير غارق في الديون.^(٢)

كانت هذه التجارة التى شكلت اسلوبا احتكاريًا قد زادت قوة بفعل بعض المشتريات الاجبارية الخاصة والتي كانت تعتبر نوعا من الضرائب تفرض مقابل التصريح باستيراد الحبوب وتعرف باسم سرسات، مع البيع بسعر مخفض لصالح القوات العسكرية وقت الحروب. وقد خضعت السرسات شأن غيرها من الضرائب لحجم معين يتم تسليمه بسعر محدد ويتم جمعها بنفس اسلوب البضائع المستوردة. ومن الصعب الحصول على ارقام محددة ذات مغزى لحجم المشتريات او البضائع المسلمة، لكن اذا وضعنا فى اعتبارنا عدد مرات الحروب وحجم الجيوش فلا بد وان هذه «المبيعات المخفضة كانت شيئا له اهميته».

وباجاد طبقة من ميسورى الحال بلغت الاف فى كل من ولايات اوربا العثمانية، فكان يعنى ان العثمانيين خلقوا قوة اقتصادية - اجتماعية جديدة لعبت دورا متزايد الاهمية فى تاريخ تلك البلدان. ورغم انه يمكن ان يكون للعثمانيين الحق فى اقامة الاحتكارات فى اقاليمهم الخاصة، فمن المؤكد انه لم يكن لهم الحق فى فعل ذلك فى مولداfia وولاشيا، وهى حقيقة تدل على مدى العجز الذى كان يعانى منه امراء هاتين الامارتين فى الدفاع عن حقوق بلادهم. وليس هناك ادنى شك فى ان افعال العثمانيين وابتزازاتهم والتي لم يكن منصوص عليها فى اتفاقيات التبعية كان لها آثارها الخطرة فى مولداfia وولاشيا اكثر مما كانت تنص عليه تلك الاتفاقيات، رغم ان حق السلطان فى التصديق على انتخاب الامراء امتزج باسلوب غير منتظم لوراثة العرش وتطلع كثيرين له وهى امور لا يمكن تقديرها.

٣ - قرن البويار

كان البويار باستثناء فترة حكم ماتى بازارب Matei Basarab وفازيليه لوبو، هم الطبقة التى سيطرت وسادت طوال القرن السابع عشر كله تقريبا. وتذكر المراجع المختلفة تفاصيل قصة صعود هؤلاء النبلاء الى قمة السلطة وتوليهم امور الحكم.^(٣) وهى قصة مألوفة ومتكررة يعرفها كل من

(١) يلاحظ ان الكيلة الاستانبولى تساوى مائة أقة.

(٢) نفسه، اذا افترضنا ان رأس الضأن الصغير ينتج ٥٠ أقة من اللحم (حوالى ٤٥ رطل) فان عدد ٨٠٠٠ رأس تساوى بسعر السوق ١٢٠٠٠٠٠ أقة. ولابد ان نأخذ فى الاعتبار ان ألف رأس منها تفقد عند النقل. واذا اضفنا لسعر الشراء ٥٠٪ زيادة للنفقات والرشاوى فان جملة التكاليف تصل الى ٦٣٠٠٠٠٠ أقة تترك لهذا الجزائر ربحا هائلا جدا. ومعظم بائعوا المواشى يتعاملون مع كميات صغيرة وغالبا ما كانت لها منسكلات حقيقية فى الوفاء بالتزاماتهم.

(3) Istoria Rominiei, 2: 850, - 56, 861 - 67, 921 - 25.

3: 76 - 77, 128 - 54

بالاضافة الى اشارات متفرقة فى صفحات اخرى:

درس سيطرة النبلاء فى اى دولة اوربية، وهاهو بترو شيوبول Petru Schiopul احد هؤلاء البويار الذى سيطر على شئون الحكم فى مولداڤيا بشكل متقطع خلال لفترة من ١٥٧٤ - ١٥٩١، يصف فترة سيطرته بانها «جمهورية البويار».

والحقيقة ان سيطرة هؤلاء النبلاء البويار ترجع الى زيادة عددهم فى المقام الاول بحيث جعلوا من انفسهم سادة على اراضى الامارتين، وحينذاك حولوا معظم الفلاحين الاحرار الى تابعين. ولما كانت قوتهم فى ازدياد، فقد ازدادت مختلف طلباتهم من السلع والخدمات الامر الذى ادى الى هبوط طبقة الفلاحين الى مستوى القنية Serfdom. ومن وجهة نظرنا لم يكن هؤلاء النبلاء يرسلون ما تنتجه اراضيهم الى «السوق» التركية فى استانبول فقط بل ان جانبها كبيرا مما كانت تنتج اراضيهم كان يعاد تصديره خارج الاراضى العثمانية فى القرن السابع عشر.^(١) وهذا يعنى ان البويار نبلاء الارض الزراعية فى كل شرق اوربا، اصبحوا يعملون بالتسويق دون ان تكون لهم دراية بفنون التسويق تجاريا او حتى باساليب الزراعة الحديثة. ولكنهم استطاعوا تحقيق اقصى حد من الازدياد التجارية عن طريق زيادة ارهاق الفلاحين بالاعباء والالتزامات، وشاركهم فى هذا المسعى من اجل الثراء على حساب الفلاحين، رهبان الاديرة الذين كانوا يملكون مقاطعات كبيرة ولا يقلون استغلالا عن البويار. ولقد شهدت اقاليم اوربا العثمانية كما سوف نرى تطورات مشابهة فى الفترة نفسها. وهى تطورات لم تكن شرعية وكانت انعكاسا لضعف السلطات المركزية فى استانبول. اما فى امارتى الدانوب (مولداڤيا وولاشيا) فقد كان ضعف السلطات المركزية عنصرا مشتركا فيما حدث ايضا لكن بشكل بدا شرعيا.

ولم يقتصر الامر على تفوق البويار نبلاء الارض الزراعية، بل ان ارباب الصناعة والتجارة الاغنياء الذين لم تكن لهم القابا رومانية، اصبحوا فى مرتبة اجتماعية اعلى من الشريحة الدنيا من النبلاء. كما اصبحت بعض العائلات الكبيرة منهم (مثل موفيليا Movila، وستريوشى، واوريشة ureche وآخرون) اكثر قوة من الامراء الحكام، بل لقد اعتلت بعض هذه العائلات عرش الامارة، واحتكرت الوظائف المهمة، واصبح افرادها هم الموجهين الحقيقيين لسياسة امارتى مولداڤيا وولاشيا، على حين ان النبلاء الاقل قوة شغلوا الوظائف الاقل اهمية. وكان من الطبيعى والحال كذلك ان يعمل النبلاء ورجال الدين على التنصل من دفع التزاماتهم الضريبية وتقديم خدمات اخرى تلقى على عاتق فلاحهم. وقد نتج عن هذا فى النهاية تدمير الارض الزراعية والذى كان ملحوظا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

والحقيقة ان تلك التطورات لم تقتصر على رومانيا (امارتا الدانوب)، ذلك ان نفوذ البويار

(١) انظر الدراسة الجيدة بالانجليزية لتجارة الصادرات والتي تعطى معلومات كثيرة عن امارتى مولداڤيا وولاشيا - Paul Cernovo, deanu, England's Trade policy in the Levant, 1660 - 1614, Vol. 41, No. 2 of Bibliotheca Historica Romaniae (Bucharest: Academy of Sciences publications House, 1972)

وقد كانت معظم التجارة توجه الى ترانسلفانيا وروندا وحتى ممتلكات الهابسبورج.

وتأثيرهم في المدن كان ظاهرة فريدة فعلا. والحاصل ان مدن اوربا الغربية فى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث شهدت تحمرا سريعا من القيود الاقطاعية القديمة، وهو اتجاه كاد يحدث فى المجر كما سبقت الاشارة لولا ان طبقة النبلاء هناك استطاعت اعاقته بالتحرك ضد الاويدا Oppida آخذين من انتفاضة الفلاحين فى ١٥١٤ ذريعة ومبررا. اما فى امارتى الدانوب فقد كانت طبقة النبلاء من القوة وخاصة عند نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر لدرجة ارغام الامراء الحكام على منحهم اراضى المدن ومنشأتها ملكية تامة. وما ان اشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى اخذ النبلاء اللوردات ورجال الاكليروس حق تشييد مدنا يملكونها ملكية تامة (دومين).^(١) واصبح من حقهم الاستيلاء على ايراداتها وهناك امثلة معينة تؤكد ان النبلاء ورهبان الاديرة اعتبروا تلك المدن ممتلكات خاصة لهم كالارض، ومن ثم عملوا على ابتزاز الفلاحين بغاء الخدمات والقيام بما يطلب من واجبات ومهام. ورغم محاولات رفع هذه الضغوط عن المدن، الا انها نمت وتطورت واحتفظ اصحابها ببعض حقوقهم وامتيازاتهم. وما ان جاء القرن التاسع عشر حتى كان نفوذ اللوردات وتأثيرهم يمشى بخطى ثابتة فى طريق التسلط والسيطرة.

والحق ان القرن السابع عشر بالنسبة لامارتى الدانوب وخاصة للفلاحين، كان حقبة قاتمة او فترة مأساوية، وتستحق التطورات التى وقعت وكذا كثير من الشخصيات التى ظهرت خلال تلك الحقبة، دراسة اكثر تفصيلا من هذا التعميم الذى قدمناه، وذلك من خلال متابعة نمو نفوذ اليونانيين ولغتهم، والتعرف على الاوضاع الثقافية فى مولدايا وولاشيا، اذ كان لنفوذ اليونانى دورا فى المناخ الثقافى فى الامارتين، واعتبر اساسا لمجمل التطورات التى وقعت هناك فى القرن الثامن عشر.

ففى استانبول كان نفوذ اليونانيين ينمو ويكبر بشكل ملحوظ، وحول البطريركية الارثوذكسية فى حى الفنار استطاعت العائلات هناك (التي عرفت اصطلاحا بالعائلات الفنريوتية نسبة الى المكان) ان تتمتع بنفوذ قوى على المؤسسات الاكليروسية من خلال استثماراتها فى الشحن البحرى والتجارة بشكل عام، ومن خلال اقراض الناس بما يريدون من اموال بما فيهم الامراء الرومانيين. ولما كانت هذه العائلات تعرف لغات الغرب الاوربي وثقافته بشكل عام، وكانت الدولة العثمانية فى حاجة الى هذه اللغات فى التعامل دبلوماسيا مع الهابسبورج والبولنديين وروسيا الناهضة فقد زادت هذه العائلات قوة ونفوذًا. وهكذا عندما انشئت وظيفة كبير المترجمين فى ١٦٦٩ فى الدولة اصبح من يشغلها يعين وزيرا للخارجية. وكان اول من تولى هذه الوظيفة بنايوتى نيكوسىوس panagiotis Nikousios وهو وان لم يكن من الفناريوتيين الا انه كان يونانيا من جزيرة خيوس. وفى ١٦٧٣ خلفه الكسندر مافروكورداتوس Mavrocordatos وهو شاب فنريوتى كان فى اواخر الثلاثينات من عمره وظل يؤدى وظيفته بشكل متواصل تقريبا حتى وفاته فى ١٧٠٩. وكان مافروكورداتوس شاب

(١) انظر افضل مقالة فى اللغة الغربية عن المدن الرومانية التى كتبها:

Valentia Georgescu, "Le regime de la propriete dans les villes Roumaines et leur organisation administrative aux XVIIIe XVIIIe Siecles - Valachie et Moldavie", la ville Balkanique, pp 63 - 81.

نابه درس القانون والطب في اوروبا الغربية، ونشر اعمالا علمية كثيرة. ويتولى وظيفة الترجمة اصبح الفناريوتيون شركاء صغار في الادارات العثمانية. كما اصبح عدد كبير منهم بما فيهم عائلة مافروكورداتوس نفسه بمثابة «خاصة» لامراء مولدافيا ولاشيا (خوذابودار). وقد اصبح نفوذهم فائقا في الامور السياسية للامارتين خلال العقود الثلاثة الاخيرة من القرن السابع عشر.

ومن بين العائلات الفنريوتية التي حكمت اخيرا في الاراضى الرومانية عائلات دو كازDucas ، وخيكاZ Ghicas، وروسيتى Rosetti والتي ترومنت بمضى الوقت (اى اصبحو رومانين). وكانت اولى هذه العائلات التي استقرت في شمال الدانوب عائلة كانتاكوزين Cantacuzene التي كانت تحكم قديما في بيزنطة وانتقلت الي ولاشيا ومولدافيا في مطلع القرن السابع عشر. وفي ١٦٧٩ اصبح زربان Serban (١٦٧٨ - ١٦٨٨) اميرا على ولاشيا، وكان اول عضو في تلك العائلات التي ترومنت جزئيا. ويفضل عملية الرومنة هذه حدثت اضافة صغيرة لطبقة البويار ولكن على جانب كبير من الهمية، اذ بدأ الناس ذوى الاملاك والمثقفون اصفاء نغمة جديدة في حياة الشرائح العليا لهذه المجموعة المسيطرة اجتماعيا.

ثم وفد الى المكان فيما بعد يونانيون اقل مكانة وفي مقدمتهم التجار الذين جذبتهم تجارة الصادرات الواسعة لامارتى الدانوب، ورجال الدين الذين انتشروا في البلاد، فكان ما كان من نمو نفوذ الكنيسة في ملكية الاراضى والعقارات في المدن كنتيجة مألوفة لعملية طويلة في تاريخ كل البلاد الاوربية، وتعود الى عادات الحكام الاوائل في بناء الكنائس والاديرة ومنحها للرهبان هبة شاملة الارض والامتيازات. وخلال حكم فازيليه لوبو وماتى بازاراب، كانت العطايا من هذا النوع سواء التي كان يقدمها الامراء او صفوة النبلاء، كثيرة ومن أجل الاديرة في خارج الاراضى الرومانية في المراكز الاورثوذكسية الشهيرة مثل جبل آتوس Mt.Athos. وكان من شأن هذه الاجراءات وضع اراضى كبيرة واسعة (دومين) تحت ادارة الكنيسة اليونانية. وفي منتصف القرن السابع عشر حدث ان اغتصب رجال الكنيسة اليونانية كنيسة سلوفينيا وجعلوا شعارها باللغة اليونانية مثلما حدث في كنائس إمارتا الدانوب.

وفي الوقت نفسه كانت البروتستانتية تكتسب انصارا واتباعا كثيرين بين سكان ترانسلفانيا من الجرمان والمجريين، كما قام اتباع لوثر وكالفن بترجمة الكتاب المقدس الى لغاتهم والى لغة رومانيا. ولأن الكنيسة اليونانية وكنيسة سلوفينيا كانتا أضعف من ان تقاوما جهود التثشير البروتستانتية، فكان لا بد من استخدام الكنيسة الرومانية لهذا الغرض. وفي تلك الاثناء كان ماتى بازاراب قد أنشأ اول مطبعة في عام ١٦٣٤ وطبعت اول كتاب بالرومانية في الامارتين في ١٦٤٠. وكان الكتاب عبارة عن مجموعة القوانين العثمانية. وعلى هذا ففى ١٦٨٨ وفي إطار ذلك الصراع المذهبي طبعت ترجمة للانجيل باللغة الرومانية ولاول مرة بتكليف من الامير زربان كانتاكوزينو عرفت باسم الانجيل زربان Biblia lui Serban. والمعتقد ان مترجم هذا الانجيل هو نيقولاى ميلشكو Milescu وهو شخصية تناظر الكسندر مافروكورداتوس في المهارة وسعة الافق والمعرفة الكبيرة باحوال اوروبا بدرجة اثبتت ان الثقافة لم تكن حكرا على اليونانيين. وهكذا عندما بدأت حقبة الفنريوتيين كان قد

تم طبع ٤٥٧ عملا باللغة الرومانية.^(١)

اذا ما وضعنا في الاعتبار عدم الاستقرار الذي صاحب تلك الحقبة، ونمو نفوذ اليونانيين، وانانية البويار ورجال الكنيسة، أدركنا ان الحياة الثقافية في القرن السابع عشر كانت حياة عجيبة تستحق الانتباه .. فلقد ترتب على رعونة الطبقة العليا من السادة في الامارتين وسياساتهم غير المفيدة، نمو بناء ثقافي يتناقض مع التكوين الثقافي لتلك الطبقة، شددت من أزره العناصر الغنية من غير النبلاء ودعمته. وقد تمثل هذا البناء الثقافي الجديد في نشر ترجمات ومؤلفات في مجال الدين والقانون والأدب والفلسفة والتاريخ. اما المؤرخون المولدافيون الذين كتبوا خلال حقبة الفنزويين فهم: جريجور اوريشة Grigore Ureche (١٥٩٠ - ١٦٧٤)، وميرون قسطنطين Miron Constantin (١٦٣٣ - ١٦٩١)، وايون نوكلش Ion Nocuice (١٦٧٢ - ١٧٤٥). ويعتبر كتاب اوريشة عن تاريخ مولدافيا Letopisetul Tarii Moldavii والذي يتوقف بحوادثه عند عام ١٥٩٤ اعظم ما كتب قيمة.. واما ديمتريو كانتمير Dimitriu Cantemir (١٦٧٣ - ١٧٢٣) آخر أمير حكم مولدافيا من غير العائلات الفنزويية، فكان شخصا متعلما تعليما راقيا، وكان يفهم المعنى الحقيقي للتاريخ وكيف انه يجب ان تعتمد على التوثيق والبرهنة ومن هنا فيعتبر اول مؤرخ حقيقى لتاريخ الدولة العثمانية، وليس مجرد رواية بكتابة: تاريخ الامبراطورية العثمانية - Istoria Imperiului Ottoman والذي كتبه في مفاه بروسيا بين عامي ١٧١٤ - ١٧١٦. وفي ١٧١٦ وضع كتابا عن تاريخ مولدافيا Descriptio Moldaviae وفيما بعد اصبح احد مؤسسي اكااديمية سانت بطرسبرج، كما انتخب عضوا في الاكاديمية البروسية. ورغم ان كثيرا من هذه الأعمال الثقافية والمؤلفات التاريخية المثيرة للاعجاب قد وضعها رومانويون بلغتهم، الا انها كانت في موضوعاتها واسلوبها متأثرة بالنفوذ اليوناني الذي كان متناميا في مولدافيا وولاشيا، وهو ذلك النفوذ الذي كان عاملا اساسيا في اعادة تعليم وتثقيف رجال الدين، وفي تغيير العادات والقيم الثقافية للطبقة العليا من اغنياء البويار. ومثلما كان النفوذ اليوناني اساس حكم الفنزويين، فقد كان عاملا مساعدا للتطور الثقافي عن طريق غرس عناصر ثقافية جديدة في البيئة الرومانية. ويجب ان نذكر في هذا المجال ان هذه العناصر الجديدة لم تكن تمثل استحضارا لأفكار «غربية» في «وسط ثقافي شرقي تركي»، ذلك ان اتصالات امارتا الدانوب مع ترانسلفانيا والمجر وبولندا خاصة، لم تسمح ابدا بتمشوق الحياة الثقافية الرومانية تمشوقا تاما، ولأن الافكار الغربية لم تكن بعيدة ابدا عن هاتين الامارتين. وكل ما حدث خلال معظم الحقبة الفنزويية ان الامارتين اقتطعتا من جسم الحضارة الغربية مؤقتا ومن ثم تعين عليها ان تعتمد على اليونانيين وعلى ثقافتهم، وانه رغم الحقبة القاتمة من سيادة البويار، الا انها اسهمت اسهاما مهما في تاريخ الشعب الروماني وتطوره.

ان اضطراب كانتمير لكتابة معظم اعماله في المنفى يدل على افتقاده الامان في امارته. ولم يكن هذا راجع فقط الى تزايد ضغط البويار على الامراء وان كان في معظم الاحيان لقيمة له، بل

(1) Istoria României, 3: 258

وتعطي الصفحات من ٢٥٦ - ٢٩٤ في هذا الكتاب صورة رائعة وصفية للتاريخ الثقافي للقرن السابع عشر.

كان يرجع أيضا الى مطالب العثمانيين وتدخلهم هم والعائلات الفنزويوتية فى شؤون الامارة. ولعل افضل مثال للضغط العثماني يتضح فى زيادة مدفوعات البشكوشوريل بشكل منتظم حيث بلغت ٦٥٠٠٠٠٠ أقة عندما استأنف زريان كنتاكوزينى حكمه. هذا فضلا عن اعباء اضافية من نوع الابتزاز فرضت على الحاكم الذى «تطول مدة حكمه» فى الامارة. ومن هؤلاء كان امير ولاشيا قسطنطين برنكوفينو Brincoveanu وقد قضى حياته يشاهد اعدام افراد عائلته قبل ان يشنق هو نفسه فى استانبول. كما كان اكثر الحكام الرومانيين الذين واجهوا مصاعب حقيقية خلال القرن السابع عشر (قرن الحكام الرومان). وقد امتد حكمه من عام ١٦٨٨ - ١٧١٤ وهى السنوات التى شهدت انسحاب العثمانيين السريع من المجر بعد هجومهم للمرة الثانية على فيينا فى ١٦٨٣، والذى انتهى بمعاهدة الصلح المشهورة كارلوفيتز (Karlocza, Karlovci). وقد استتبع تقدم الهابسبورج هذا اختفاء امارات ترانسلفانيا المستقلة جاعلا من الهابسبورج جيران مولدايا وولاشيا قوة دولية. ومن الواضح ان نمو قوة الهابسبورج وانهيار القوة العثمانية فى الوقت نفسه، كان يمثل مأزقا دبلوماسيا وعسكريا لامارتى الدانوب، فضلا عن مصاعب اخرى تمثلت فى تدخل البولنديين فى شؤون مولدايا، وكان ضعف امرائها عديم الفائدة لبرنكوفينو (حاكم ولاشيا) الذى حاول ان يحتفظ بموقف محايد فى الحرب النمسوية - العثمانية الطويلة. وهكذا وبتنازل العثمانيين عن شرق اوكرانيا لروسيا بمقتضى صلح رادزين Radzyu فى ١٦٨١ ظهرت قوة جديدة على مسرح الحوادث.

على كل حال فعند نهاية القرن كان البويار قد انشقوا الى ثلاثة مجموعات: مجموعة كانت تفضل استمرار الروابط مع العثمانيين، ومجموعة من اتباع روسيا، ومجموعة ثالثة من انصار النمسا. وفى مولدايا كانت هناك عناصر تناصر البولنديين وكان على برنكوفينو امير ولاشيا ان يتعامل مع هذه القوى الاربعة منفردا ودون اى مساعدة من مولدايا. واستطاع رغم كل هذه الظروف ان يحتفظ بالعرش لمدة ستة وعشرين عاما مما يدل دلالة قاطعة على قدرة هذا الرجل الدبلوماسى غير العادية.

والحقيقة ان برنكوفينو كان راغبا عن الحرب وعن الدخول فى معارك حتى عندما كان يرغم عليها. وكان على يقين من ان الذين كان يحاربهم كانوا يفهمون انه انما يفعل ذلك مكرها. ورغم ان هذا النوع من السياسة انقذ ولاشيا من المصير الذى انتهت اليه مولدايا، وكانت قد اكتسحت مرارا من قوات التاتار وهم فى طريقهم لمساعدة الجيش العثماني، كما كانت عرضة لغارات البولنديين، ولغارات جيوش السلطان من آن لآخر، الا ان هذه السياسة وصمته بالعمالة المزدوجة وانه رجل لا يعتمد عليه. ولقد وضعت هذه السياسة عدة مرات فى مواقف خطيرة مهلكة عندما كان يقع فى يد احد اطراف الحرب الدائرة خطابات متبادلة بينه وبين احد تلك الاطراف. وطالما كان العثمانيون معنيون بأمره فقد كان باستطاعته الافلات من مثل هذه المواقف مستخدما فى ذلك رشاوى كثيرة مما كان يكلف الفلاحين اعباء فوق اعبائهم، مع ابعاد جناح البويار الذى كان يؤيد سياسته آنذاك. ولهذا وعندما قبض عليه فى النهاية فى قصره بواسطة رسول من استانبول لم يحرك

ساكننا للدفاع عن نفسه، ومع هذا فقد انقذ برنكوفينو بسياسته بلده من مخاطر ومصاعب اعظم من تلك التي ارغم على وضعها فيها مرارا بلعبته الخطرة مثل ذلك الموقف الصعب الذى وجدت فيه امارتى الدانوب نفسها فور فشل الهجوم التركى على فيينا فى ١٦٨٣، وهى لعبة على كل حال تبين شخصيته «الملتوية» وطموحاته الزائدة.

اما ديمتريو كانتيمير فقد فهم الدرس تماما اذ عندما وضعه العثمانيون على عرش مولدافيا مع اوامر صريحة بابعاد برنكوفينو، وصل الى اقتناع مفاده ان افضل سياسة يمكن اتباعها فى ١٧١٠ هو التعاون مع روسيا، وهو ذات الاقتناع الذى كان برنكوفينو قد توصل اليه، ومن ثم كانت لحظة نادرة أن يتفق اميران رومانيا فى التوجهات وبالتالي فى التعاون معا. وهكذا عندما شرع كانتيمير فى اتباع سياسة اعتقد انها صحيحة بكل عزم وتصميم، نجد ان برنكوفينو يتصرف التصرف نفسه ولكن بهمة اقل بعد سنوات طويلة من محاولة ابقاء باب البدائل مفتوحا. وهكذا عندما اعلن العثمانيون الحرب على روسيا كان كانتيمير الحليف المخلص للقيصر بطرس. وفى ابريل ١٧١١ عقد مع روسيا اتفاقية سرية تضمن مستقبله فى حالة النصر او الهزيمة مكنته فيما بعد من ان يعيش «فى رفاهية» فى سانت بطرسبرج. وكان من المفترض ان يقدم برنكوفينو يد المساعدة ايضا للروس الذين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على المساعدات التى كان عليه تقديمها. غير انه وقد اعتاد المناورة والبحث عن اعداء لتتنصل من المسؤولية فضلا عن انه كان اقرب الى مركز السلطة العثمانية، لم يتحرك اى حركة بعد ان عبر بطرس نهر بروت Prut فى يولية ١٧١١. وهكذا اسمهم اسهاما واضحا فى الانتصار الذى احرزته العثمانيون على بطرس فى ١١ يولية (١٧١١) فى معركة ستانيلستي Stanilesti.

ولما هرب كانتيمير الى روسيا ومعه زعماء البويار الموالين لروسيا، حل محله فى عرش مولدافيا ابن نيقولاى مافروكورداتوس كبير مترجمى الدولة العثمانية والذى كان قد مضى على وفاته وقت قليل. وكان توليه عرش مولدافيا علامة على بداية الحقبة الفنريوتية. اما برنكوفينو فقد كان يشعر بعداء تجاه نيقولاى الذى كان يطمع ايضا فى عرش ولاشيا. غير ان علاقات مافروكورداتوس الجيدة واتصالاته الوثيقة باستانبول ونمو النفوذ النمساوى فى المدينة والذى كان ايضا معاديا بالأمير ولاشيا، واكتشاف مراسلات جديدة بين برنكوفينو وبين فيينا بالاضافة لوجود بعض المشكلات الداخلية، كل هذه العوامل وضعت الامير العجوز (برنكوفينو) فى عزلة تامة جعلت القبض عليه واعدامه فيما بعد امرا ممكنا. وبعد سقوطه وضع نيقولاى مافروكورداتوس على عرش ولاشيا، ومن ثم بدأ حكم الفناريين فى ثانى امارتى الدانوب.

٤ - الحقبة الفنارية

من الملاحظ ان المادة العلمية الخاصة بالقرن الثامن عشر متوفرة بشكل اكثر من تلك الخاصة بالقرون السابقة مما ساعد على اعداد بحوث كثيرة عن هذا القرن باللغات الغربية على جانب كبير

من الأهمية^(١) وهذه الدراسات جعلت مهمتى سهلة الى حد ما من حيث البحث عن المعلومات، وبقيت الصعوبة فى ضرورة التوصل الى نظرة عامة اوسع من التى قدمتها تلك الدراسات. ونجيب الاشارة الى ان هذا القسم من الفصل لا يغطى كل الحقبة الفنارية. ويرى البعض ان تلك الحقبة انتهت بمعاهدة ادرنه فى ١٨٢٩ او باصدار القانون البرلماني الاساسى، وهو قانون شبه دستورى اصدره فى ١٨٣١ الجنرال الروسى الكونت بول كيزيليف Kiseleff عندما كانت روسيا تحتل امارتى الدانوب (ولاشيا ومولدافيا). ومن الملاحظ ان الثورة الفرنسية والتغييرات الكبرى التى وقعت فى الامبراطورية العثمانية فى الوقت نفسه، أثرت فى مولدافيا وولاشيا بطريقة او باخرى، وغيرت من طبيعة النظام الفئرى بشكل ما عما نقوم باستعراضه فى تلك الصفحات. ولسوف تشمل دراستنا المنطقة حتى الفاصل المائى بين اوربا ودائرة النفوذ العثمانى.

اول سؤال ينبغى الاجابة عليه هو: من هم الفناريون؟ لقد ذهب معظم المؤلفين حتى وقت قريب الى القول بان الفناريين ما هم الا عائلات من اصول يونانية كانت تعيش فى منطقة الفنار باستانبول. لكن يصعب تصديق هذا القول على اطلاقه، اذ لابد وانه يعنى ان منطقة الفنار كانت اكثر الاحياء اكتظاظا بالسكان وان كل فرد فيها لابد وان يكون على درجة كبيرة من الثراء والنفوذ، وهذا امر لم يكن حقيقيا. ولكن اذا اردنا تحديد هوية الفناريين فيجب ان نبدأ بتتبع اكثر العائلات اليونانية اهمية فى استانبول آنذاك، والتى ارتبطت اعمالها ومستقبلها الوظيفى بالادارة العثمانية، وتكونت ثروتها من التجارة ومن اداء مختلف الخدمات، ومن تولى مسئولية مختلف الوظائف السياسية والاقتصادية، وكيف انها اصبحت تدريجيا وببطء احتكارا فى ايديهم بفضل ما كانوا يتمتعون به فى مركز السلطة. ويضاف الى هذه النخبة من العائلات عدد كبير من اليونانيين الذين وثقوا علاقاتهم باستانبول، وقاموا بدور الوساطة بينها وبين انحاء الامبراطورية. وقد نتج عن هذا ان اصبحت هذه العائلات بمثابة دولة صغيرة داخل الدولة الكبيرة، لم يكن بإمكان احدهما البقاء دون الآخر. ورغم ان «الكبيرة» كانت تسيطر على «الصغيرة» الى درجة ان اقوى شخصية فنارية كل العوبة فى يد اى صدر أعظم طموح داخل الدوائر الاسلامية الحاكمة، الا انه قد حدث فى بداية القرن الثامن عشر نوعا من المشاركة بين الطرفين (اى الدولتان الكبيرة والصغيرة) لدرجة ان احدهما

(١) نشرت مقالات كثيرة تتصل بالموضوع فى مجلة :

Bullettin de l'Associaion Etudes du Sud - Est Europeen

Revue Roumaine d' Histoire رفى مجلة :

رفى مجلات اخرى كثيرة. وهناك عدة بحوث منفردة متوفرة. ولكن هناك بحثين يكفيان لتوضيح حجم المطبوعات المتعلقة بالموضوع وهما:

V.Mihordea, Maitres du sol et payans dans les principautes Roumaines au XVIIIe siecle, Vol. 36 of Bibliotheca Historica Romaniae (Bucharest: Academy of the Romanian Socialist Republic, 1971) and Vlad Georgescu, memoires et projets de reforme dans les principautes Roumaines 1769 - 1830 (Bucharest: A.I.E.S.E.E., 1970)

ويعتبر فلاد جيورجيسكو نموذجا للمؤلفين الكثيرين الذين نشروا مقالات جيدة فى المجلات الغربية. انظر مقاله: The Romanian Boyars in the Eighteenth Century: Their political Ideology, East European Quarterly, Vol. 7 No. I (Spring, 1973) , pp 31 - 40.

لم يكن يستطيع ان يبقى دون الاخر .. ومما يؤكد هذا ان الكتابات التاريخية السلافية والرومانية تشير الى الدور اليونانى - التركي المزدوج .

وفى رومانيا (امارتا الدانوب) كان عدد كبير من رجال الاعمال الفناريين ورجال الدين قد شقوا طريقهم الى هناك خلال القرن السابع عشر، واستطاعوا ان يتكيفوا مع الظروف المحلية وتصاهروا مع البويار فاضافوا بذلك عنصرا جديدا فى البناء الاجتماعى للامارتين جنبا الى جنب طبقة النبلاء . وخلال اقامة الفناريين هناك «ترومنت» كثرة من عائلاتهم وفى مقدمتها عائلة كنتاكوزين، واكتسبت عدة عائلات من البويار عادات وتقاليد فنية بل وحتى اللغة اليونانية . وفى القرن الثامن عشر شملت عملية «الرومنة» هذه كثيرا من الناس عندما كان كل امير جديد يستقدم اتباعه ويعهد اليهم بالوظائف والمواقع المهمة ودخلهم فى صفوف طبقة النبلاء الرومانيين . ورغم ان مصير اكثر هؤلاء الوجهاء المستوردين كان يرتبط بمصير سادتهم، الا ان الاغلبية العظمى منهم استطاعت ان تفلت من النتائج المترتبة على تغيير الحكام، وكونت فيما بينها طبقة نبلاء «جديدة» فى امارتى الدانوب (مولداڤيا وولاشيا) . وحتى تحمى هذه الطبقة الجديدة مصالحها من خطر العناصر الطفيلية التى تصاحب عادة الحاكم التالى، بادر كثير من عناصرها بالتحالف مع طبقة النبلاء «القديمة» .

وعلى هذا فالفناريون وخاصة فى سياق تاريخ رومانيا (امارتا الدانوب) ليسوا يونانيين اصلا . ولكن من المؤكد انهم مجموعة من الناس يتكلمون اليونانية، ويمكن ان يكونوا من اصول وجنسيات مختلفة بما فيها الرومانية . وقد حدد اولئك القوم حياتهم ومستقبلهم فى نطاق دولتهم «الصغرى» ضمنا . والحقيقة ان صفة الفنارى تنطبق على معظم ان لم يكن كل الامراء الذين حكموا مولداڤيا وولاشيا فى القرن الثامن عشر . وعلى النبلاء الذين والوهم، وكذا النبلاء الذين والوا العثمانيين . واما الآخرون فلا يمكن اعتبارهم فناريين بهذا المعنى الاصطلاحى حتى ولو كانوا ينتمون لصفوة العائلات الفنارية وعاشوا فى الامارتين، اذ كانوا يشكلون القوى المعارضة .

وعلى هذا فان اصطلاح الفناريين يعنى اصحاب النفوذ فى امارتى الدانوب بكل ما يرتبط به من سياسات ومواجهات، الذين خضعوا خضوعا تاما لاستانبول التى استخدمتهم فى عدة مواقع فى مقدمتها مولداڤيا وولاشيا . واذا كانت سلسلة الامراء السابقين لهاتين الامارتين التى انتهت بكل من برنكوفينو وكانتيمير «ينتخبون» محليا بمعرفة النبلاء كما سبقت الاشارة، وكانوا يعرفون عند رعاياهم بالحكام domn or voievod، فان الحكام الجدد من الفناريين كانت تعيينهم استانبول ولا ينتخبون، ويعرف الواحد منهم بالوالى (خودبودار) . وهذا التمييز بين المصطلحين الذى صاغه الرومانيون منذ فترة مبكرة فى القرن الثامن عشر، يعد امرا مهما ويفسر بدقة لماذا لجأت لدولة العثمانية الى اسلوب جديد فى اختيار اتباعها الرومانيين ذلك ان الدومن domn كان حاكما مستقلا، اما الخوذبودار فكان واليا بالفعل يعين ويعزل شأن البيلريك، ويتلخص واجبه الرئيسى فى تنفيذ رغبات الحكومة المركزية فى استانبول . وقد لخص المؤرخ فلاد جيوشيشكو هذا التغيير الذى حقق اغراضه بقوله :

«لقد تخلل الجيش وتخلخلت التوجهات السياسية والاقتصادية والثقافية التي كانت سائدة في وسط شرق أوروبا خلال القرن السابع عشر وحلت محلها توجهات أخرى مستوحاة من دنيا استانبول. كما ان الصلات التي كانت قائمة بين المثقفين وأوروبا في القرن السابع عشر لم تعد قوية في القرن الثامن عشر، نظرا لأن العثمانيين وكذلك الفناريين كانوا يخشون تأثير أوروبا على الرومانيين (امارتا الدانوب) [وعندما نتكلم عن أوروبا هنا فنحن نقصد أوروبا التي تمتد من سانت بطرسبرج الى باريس] ولأكثر من قرن من الزمان كان على الامارتين ان تقبلا ما عمل على تجنبه كل الزعماء السياسيون والمفكرون خلال قرون، الا وهو الاندماج - ولو انه كان بدرجة محدودة - في نظام تسيطر عليه القيم العثمانية والفنارية» (١).

وهذا الكلام يصف بدقة متناهية ما الذي يعنيه خضوع البلاد الرومانية (امارتا الدانوب) لحكم الفناريين، اذ بدون وجود جيش خاص لا يمكن للامارتين اتباع سياسة خارجية مستقلة حتى ولو بالدرجة المحدودة التي حاولها برنكوفنيو عندما اراد التصرف باستقلالية عن استانبول خلال الحروب التي اندلعت اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، وهي اوضاع جعلت من مولدافيا وولاشيا اقاليم عثمانية بدرجة اكبر مما كانتا عليه قبلا. ويضاف الى هذا انه باختفاء النخبة الثقافية في القرن السابع عشر سواء بالموت أو بالهجرة، تضاءلت فرصة الجيل الجديد في الحصول على الخبرات اللازمة بسبب القيود التي فرضت على السفر والتجارة. ولم تكن الحياة الثقافية فقط هي التي تدهورت سريعا، بل ان هذا التدهور لحق التعليم الاساسي ايضا فيما عدا المؤسسات الكنسية المدعومة التي ظلت محتفظة بقدرتها على العمل، وان كانت قد اصبحت جميعا في يد الفناريين في القرن الثامن عشر. وهكذا فان تحول صيغة الحكم من دومن (حاكم) الى والي (خوذودار) في كل من الامارتين، لم يكن يعني فقط التقليل من شأن القيمة السياسية للامارة من الاستقلال الى التبعية كما تعكسه الاختلافات بين مضمون وشكل اللقبين كما سبقت الاشارة، بل نتج عنه تخلفا ثقافيا ملحوظا.

والحاصل ان طبقة النبلاء والتجار الاغنياء في امارتي الدانوب بدأت في استيعاب الثقافة والقيم اليونانية. ولسوء الحظ فلم تكن القيم تعنى المعارف اليونانية الكلاسيكية او الاعمال العظيمة لآباء الكنيسة الارثوذكسية العمالقة، او حتى الاحياء البطيخ للمعارف والثقافة اليونانية، ولكنها كانت تعكس نمطا غريبا لاسلوب حياة توصل اليه اولئك الفناريون في استانبول من واقع محاكاة «الموظفين العثمانيين»، بحيث اصبحت من الصعب في نهاية القرن الثامن عشر تمييز منازل طبقة النبلاء الرومانيين وملابسهم وحتى عاداتهم الغذائية من أثرياء الفناريين او حتى عثمانيين استانبول وما حولها. وهو تغيير في النهاية لم يكن من الممكن تجنبه، فضلا عن انه كان له مغزاه ودلالاته.

والحقيقة انه كان من الصعب تجنب هذا التغيير لعدة اسباب اولها انتماء الفناريين لفئة خاصة من الناس، وما اوجده ذلك الانتماء من مصاعب. فقد كانوا اما موظفين عثمانيين يقومون بكل المهام، واما عناصر موالية لهم طوال قرن من الزمان كانت كفاءة الادارة العثمانية فيه قد هبطت،

(1) Georgescu, "Boyars in Eighteenth Century", p. 32

وبلغ الفساد ذروته. وعلى الرغم من ان الفساد الادارى يساعد على استمرار الحياة احيانا، الا انه جعل من الاستمرار فى الوظائف امرا غير مؤكد. ويوضح الملحق رقم (٤) ان خمس وعشرين فردا من احد عشر عائلة فنارية تولوا الحكم فى كل من مولدافيا وولاشيا من بداية الحقبة الفنارية وحتى عام ١٨٠٤. ولما كان عدد كبير منهم قد تولى الحكم اكثر من مرة، فان المجموع الكلى للحكام منهم يصبح اثنين وستون حاكما. ولكن اذا حدث وخرج احدهم من منصبه فليس بإمكانه العودة مرة اخرى. ومن الملاحظ ان عددا كبيرا من هؤلاء الخمس والعشرون رجلا حكموا مرة واحدة فقط ولمدة قصيرة، ذلك ان عملية الفوز بمثل هذه التعيينات كانت تتطلب صرف اموال كثيرة فى استانبول، بحيث ان «حاكم» المستقبل هو الذى يدفع أكثر من غيره، وقد يسهم انتصاره فى هذه الاموال وهم مطمئنون الى انهم سوف يستعيدون مادفعوه فيما بعد عندما يتولى رجلهم حكم الامارة.

اما السبب الثانى فى صعوبة تجنب التغيير فانه يترتب على السبب الاول، حيث كان الحاكم الجديد (الوالى) يشغل كل المواقع والوظائف المهمة باولئك الذين ساعدوه بالمال. وفى الوقت نفسه كان على الوالى ان يحصل لنفسه على مكاسب سريعة. ولما كانت كل الوظائف والمواقع المهمة فى يد الفناريين الذين كانت منازلهم واسلوب حياتهم صورة من منازل واسلوب حياة الولاة، فسرعان ما اضطر البويار لمحاكاة هذا الاسلوب فى الحياة حتى لا يعتبرون كاولاد العم فى بلد متخلف. ولقد زاد هذا الاتجاه قوة وتدعيما بوجود طبقة النبلاء «الجديدة» التى سبقت الاشارة اليها، التى احتفظت باسلوب حياتها حتى بعد ان اصبحت عناصرها بويار رومانيون او على الرغم من مصاهرتهم «للنبلاء القدامى». وقد كان هذا الاندماج بين النبلاء الفناريين والنبلاء غير الفناريين يعتبر العامل الثالث الذى ادى الى ادخال اسلوب حياة اجنبى الى الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى. وينبغى ان نتذكر ان هذا الاسلوب الجديد فى الحياة لم يكن يعنى بالضرورة تطابقا تاما مع القيم الفنارية، ذلك ان العناصر المعارضة كانت قائمة واصبحت قوية مع مرور سنوات القرن الثامن عشر على الرغم من عدم امكانية تمييز عناصرها من حيث المظهر الخارجى من اولئك الذين يودون القضاء عليهم.

على ان التغيير لم يقتصر على المظاهر الخارجية لحياة طبقة النبلاء، بل ان وضعها فى الامارة مر بتغييرات لها مغزاها. وهذا يفسر الى حد كبير معارضة كثير من البويار لما كان يحدث .. فالنبالة فى الامارتين كما هو الحال فى اى مكان آخر كانت لقبها يحصل عليه الفرد اما بالمولد واما بمنحة من الحاكم. والتبيل فى الاصل كان شخصا محاربا، وفى مقابل مايقوم به من خدمات شملت اداء مهام معينة، كان يعفى من الضرائب، ويمنح حقوقا اقطاعية على الفلاحين، وله ارض تمثل اساس مكانته وسلطته وقوته. وفى ١٧٣٩ قام قسطنطين مافروكورداتوس خلال فترة حكمه لولاشيا بتغيير هذا الاسلوب، وكذلك الحال فى مولدافيا عندما اصبحت واليا (خوذبودار) عليها بعد ذلك بعامين (١٧٤١) حيث حول لقب النبالة بالوراثة الى «النبالة بالخدمة» وهو مصطلح يعرفه جيدا دارسو تاريخ روسيا. وبناء على هذا تقلصت حقوق نبلاء الوراثة التى كانوا ينفردون بها، وارتبطت

مكانة النبيل وسط طبقة النبلاء وما يتمتع به من امتيازات واعفاءات ضريبية بوضعه الوظيفي تنسحب على اولاده من بعده. ولقد اكملت هذه القوانين الاصلاحية فعلا عملية الانتقال من النظام الرومانى القديم الى النظام الفنارى، لأنها وضعت الولاة المعينين، والفناريين، والنبلاء «الجدد» على قمة البناء الهرمى لطبقة النبلاء واصحاب السلطات من المسؤولين. وكان من شأن اعادة تنظيم البناء الطبقي على ذلك النحو، تغيير وضع تلك العائلات التى ألفت السلطة، بل جعل منها مركزا لحركة مقاومة حقيقية.

ولم تقتصر اصلاحات قسطنطين مافروكورداتوس على طبقة النبلاء فقط، بل شملت الاديرة والشؤون المالية للامارة، وحتى اوضاع الفلاحين. ولهذا اعتبر مافروكورداتوس أهم امير فنارى فى النصف الاول من القرن الثامن عشر.^(١) وباعتباره واليا (خوذبودار) على مولداڤيا اربع مرات فى سبع سنوات، ولولاشيا خمس مرات فى خمسة عشر سنة، فقد كان فاهم لمشكلات الامارتين افضل من اى أمير فنارى من الفناريين الاوائل، ويبدو انه كان يفهم ان النظام الفنارى المالى والالتزامات «التجارية» تجاه استانبول، لم تكن منظمة كلية بسبب احلال الرشوة على نطاق واسع محل الضرائب القديمة، والتعرض لختلف الابتزاز عند تخصيص حكم الامارة لاي فرد، او عند محاولة اى حاكم الاحتفاظ به، او عند محاولة اى امير اقضاء احد منافسيه عن العرش والحلول محله، وايضا فى حالة زيادة طلبات استانبول غير المتوقعة من البضائع وسائر المشتريات. فاذا اضفنا الى هذه المطالب حاجة الفناريين للمناخ اللازم لاستثماراتهم، وحاجة البويار للعيش فى رفاهية، ادركنا كيف ان هذه المطالب كانت تمثل عبئا وضغطا ثقيلا جدا على الفلاحين. ومما زاد الموقف سوءا قيام الاديرة والنبلاء والولاة بفرض اعباء اقطاعية ضخمة فى دوائرهم وفى المدن ما استطاعوا الى ذلك سبيلا، وهو اتجاها كانت بوارده قد بدأت فى القرن السابق. وقد واجه الفلاحون هذه الاعباء المتزايدة بالتكاسل عن العمل، واختفاء الانتاج، والهجرة فى اعداد كبيرة، وبالتالي اصبح من الصعوبة بمكان على كل من البويار والفناريين وحتى سلطات استانبول الحصول على ما يريدون. وفى هذا الخصوص فقد هاجر من ولاشيا وحدها ٧٧٠٠٠ أسرة فلاحية من اجمالى ١٤٧٠٠٠ أسرة خلال الفترة من ١٧٤١ - ١٧٤٦ حيث ذهبوا الى جنوب الدانوب بصفة رئيسية.^(٢)

وحتى لاينزل الفلاحون الى مرتبة القنية اصدر قسطنطين مافروكورداتوس قرارات اصلاحية فى ولاشيا عام ١٧٤٦ وفى مولداڤيا عام ١٧٤٩ تقضى بالغاء ثلاثة ضرائب كانت تدفع على البقر ومعاصر العنب وبساتين الكروم (وكان البويار مسئولون عن توريد هذه الضرائب، لكن الفلاحين هم الذين كانوا يقدمونها)، وسمح للفلاحين بشراء حريتهم مقابل ١٠ أقيجات. واكثر من هذا تم تصنيف الفلاحين فى فئات طبقا لعدد ما يملكون من ثيران، وعلى اساس هذا العدد استعادوا حقوقهم القديمة فى استخدام المراعى، وقطع الخشب من الغابات، والحصول على مساحة مساوية

Istoria Romíniei, 3 : 435 - 46.

(١) انظر القسم المخصص لاصلاحاته فى:

(2) David Mitrany, The land and the peasant in Rumania (1930; reprinted., Newyork: Greenwood press 1968), p. 16

من الارض لزراعتها. كما حددت القرارات مقدار العشر الذى يجب على الفلاحين تقديمه. كما تحدت اعمال السخرة واصبحت من ثمانية الى عشرة ايام فقط عمل فى السنة. كما اعفيت الحدائق المنزلية والبساتين من ضريبة العشر، ولكن «لم يكن من حق الفلاح الذى يملك ارضا ورثها ان يتخلى عنها»^(١).

وعلى الرغم من ان هذه الاصلاحات كانت فى الحد الأدنى، الا انها كانت تمثل اقصى ما امكن لقسطنطين مافروكورداتس الحصول عليه من طبقة النبلاء ورجال الدين. وثمة شوائب خطيرة فى تلك القوانين الاصلاحية جعلت مكاسب الفلاحين الصغيرة ضربا من الوهم والخداع. فالى جانب ربط الفلاح بارضه لاول مرة فان اعباء العمل لم تحدد بايام معينة ولكن حددت بحجم العمل المطلوب انهاؤه. وهكذا تضاعفت ايام العمل المطلوبة من الفلاح مرة او مرتين وكانت قبلا محددة بايام معينة. ومن ناحية اخرى عهد الوالى بمهمة تنفيذ تلك القرارات الى عناصر من ارستقراطية القرية، وهؤلاء فسروا القواعد والنصوص لصالح ملاك الاراضى بطبيعة الحال، مما فتح الباب واسعا لاسترقاق الفلاحين فى النصف الثانى من القرن.

اما اسباب سوء مصير الفلاحين الذى اخذ يتداعى بسرعة فيتلخص فى ان استمرار ارسال المنتجات الزراعية باسعار محددة الى استانبول كان يعنى زيادة اموال البويار، على الرغم من انخفاض الاسعار، اذ كان بإمكان البويار ان يبيعوا العشر الذى يقدمه الفلاحون فيزيد حجم المباح. ومن ناحية اخرى فقد تطلبت انماط حياة الرفاهية التى ادخلها الفناريون الى المجتمع، دخلا اضافيا ولم يكن بإمكان البويار تحقيقه الا بمزيد من استغلال الفلاحين عن ذى قبل. كما كان من شأن ادخال صناعة تقطير الكحول من البطاطس ومحاصيل زراعية اخرى، توفير مصدر اخر للدخل، وجعل ملاك الاراضى اكثر تحمسا للحصول على منتجات اكثر عن ذى قبل من فلاحهم.

على ان فلاحى مولداڤيا عانوا معاناة أشد وطأة من فلاحى ولاشيا، ففي ١٧٦٦ أرغم البويار جريجور الثالث غيكا (١٧٦٤ - ١٧٦٧) على اصدار قرار ليس بزيادة عدد ايام السخرة المفروضة على الفلاحين الى اثني عشر يوما فقط، ولكن بزيادة عدد ايام العمل اليومية المطلوبة عما كان الفلاحين مرغمين عليه فعلا لتصل من ٣٥ يوما الى ٤٠ يوما كل سنة، وهو مكسب لم يكن البويار راضون عنه، ومن ثم ارغموا جريجور غيكا فى ١٧٧٥ (وكان اميرا للمرة الخامسة ١٧٧٤ - ١٧٧٧) على اصدار قرار باضافة خمسة ايام عمل اخرى على الايام الاجبارية المفروضة على الفلاحين، بجانب الواجبات الاضافية الاخرى مثل اصلاح السدود واعمال الري وما يرتبط بها من اعمال. وقد تزامنت الابعاء الجديدة مع تسليم العشر العينى للكنيسة، وانفاق عشرة ايام سخرة عند صاحب الارض (اللورد). والحق ان ايام السخرة فى ارض اللورد تمثل قوة عمل فعلية كان من الممكن استخدامها فى الارضى المتروكة لولا علاقات الالتزام القطاعية التى نتج عنها فى النهاية زيادة دخل اللورد زيادة ملحوظة، ونزول الفلاح الى مرتبة القن.

(١) نفسه، ص ٢١

وفي عام ١٧٧٦ زاد الكسندرو ايسيلانتي Ipsilanti حاكم ولاشيا (١٧٧٤ - ١٧٨٢) أيام العمل الاجبارى على الفلاحين الى اثني عشر يوما، وكان من الممكن استبدال هذا الالتزام بدفع مبلغ نقدي محدد. وأكثر من هذا ان القرار لم يضع حدا معيناً لحجم العمل المطلوب مما كان يعنى مضاعفة ايام العمل الفعلية ربما ثلاث مرات، لولا ان الشهر كان ثلاثين يوماً فقط. ومع ذلك فمن الملاحظ ان فلاحى ولاشيا عند نهاية القرن نادرا ما كانوا يعملون حتى الايام الاثني عشر المحددة قانونا. والحق اننى لم اعثر على تفسير مرضى لهذا الاختلاف الواضح بين الامارتين فى علاقات العمل هذه، رغم كثرة التفسيرات التى قدمت، وأكثر من هذا حدث ان فرضت عدة قيود والتزامات اخرى على فلاحى الامارتين فيما بعد خلال القرن التاسع عشر بلغت من الشدة حدا عجز معه التشريع البرلماني الصادر فى ١٨٣١ عن تخفيف حجم معاناة الفلاحين.

وعلى حين استخدم البويار معظم ثروتهم الجديدة التى نتجت من زيادة الاعباء على الفلاحين، فى الصرف على مظاهر الاستهلاك والترف بشكل واضح، كان هناك آخرون يعملون على صياغة برامج سياسية وقانونية خلال الربع الاخير من القرن تأثرا بحركة الاستنارة وأعمال الملوك المستبدين المستنيرين، وخاصة مجموعة قوانين جوزيف الثانى وكاترين العظيمة. ووجد اولئك المصلحون فى اعمال المفكرين الرومانيين فى القرن السابق معينا لافكارهم الاصلاحية.^(١) وهى حقيقة تدل على ان الارهاسات الثقافية الواعدة التى انبثقت فى القرن السابع عشر لم تتقدم تماما له مغزى خلال القرن الثامن عشر. وعناك عدة عوامل مختلفة لتفسير هذا الوضع المتردى سبقت الاشارة اليها، من ذلك الحكم «الاجنبى» لامارتى الدانوب، وتفشى الفساد، وقطع الاعطى والاتصالات مع بولندا وترانسلفانيا، وزيادة شيوع اللغة اليونانية وثقافتها والقيم والتقاليد الفنارية. وهذه العوامل تفسر ايضا نمو الاهتمام باصلاح المفاهيم السياسية والقانونية لاولئك البويار الذين اصبحوا يتمتعون باكثر مما تسمح به خصائصهم الفردية وقدراتهم الذهنية.^(٢) وعموما فقد كانت صيغة الخطط الاصلاحية لدى هؤلاء المصلحون فى البداية تستهدف الاصلاح و«الاستقلال». واضعوا فى اذهانهم اعادة تأسيس الحكم الوطنى. وفيما بعد تقدموا بخطط تستهدف تحقيق الاستقلال بالمعنى الحقيقى للكلمة، بل وحتى توحيد الامارتين (مولدافيا وولاشيا). ولقد كانت الظروف الموضوعية الخارجية والداخلية وراء هذا التطور الاصلاحى.

فخلال الفترة من بداية الحقبة الفنارية وحتى ١٧٩٢ حين اصبحت انظار القوى الكبرى معلقة على ما يحدث فى فرنسا من وقائع ومنازعات (حوادث الثورة الفرنسية) كانت الدولة العثمانية قد دخلت فى ثلاث حروب مع كل من روسيا (١٧١٠ - ١٧١١، ١٧٦٨ - ١٧٧٤، ١٧٨٩

(١) انظر اعمال فلادجوريشيكو المذكورة فى حاشية صفحة ١٥٥ من هذا الفصل.

(٢) بالنسبة لمحاولات الاصلاح القانونى انظر افضل عرض موجز عنها فى الكتابات الغربية ما كتبه فالنتين جيورجيسكو: Valen-tine Al. Georgescu, "Initiative et echec: deux structure phanariotes en matiere de droit (1711 - 1721). Leur insertion dans le contexte des realites Roumaines", Bulletin d' Association Internationale d' Etudes du Sud - Est Europeen, Vol. 10, No.I (1972), pp. 15 - 37.

- (١٧٩٢)، وحرب واحدة مع النمسا (١٧١٦ - ١٧١٨)، وواحدة مع كل من روسيا والنمسا (١٧٣٦ - ١٧٣٩). كما اشتركت النمسا جزئيا في الحرب الروسية العثمانية (١٧٨٨-١٧٩١). وخلال تلك الحروب احتلت القوات النمساوية والروسية اراضى امارتى الدانوب اربع مرات ولمدد تتراوح بين بضعة شهور فى ١٧١١ الى خمس سنوات فى ١٧٦٩ - ١٧٧٤، ١٧٨٧ - ١٧٩٢. ولقد تركت سنوات الاحتلال هذه علامات واضحة على تفكير اهالى الامارتين الرومانيين، وجعلتهم يدركون - وهذا اكثر اهمية- ان مواقع بلادهم الاستراتيجية اصبحت مثار خلاف ونزاع بين حكامهم الذين كانوا اعجز من ان يقوموا بحمايتهم، كما ادركوا ايضا ان هناك قوتين كبيرتين اوضحتا بشدة انهما تعتبران اراضى مولدافيا وولاشيا اجزاء من مجالتهن الحيوية كقدر محتوم.

وقد نتج عن هذه الاطماع التوسعية اقتطاع بوكوفينا Bukovina فقط خلال القرن الثامن عشر (فعليا فى خريف ١٧٧٤ وقانونيا فى ربيع العام التالى عندما سلمها العثمانيون للنمساويين)، الا ان هذا الاجراء فى حد ذاته خلق شعورا بامكانية تنازل العثمانيين عن كثير من اجزاء مولدافيا الشمالية الغربية الى النمساويين والروس، مما كان له تأثير فى تفكير وافعال كل من الولاة وكذا البويار فى الامارتين. كما ادت هذه التوسعات الى تعميق الانقسام بين الاجنحة الثلاثة المتنافسة حول اى قوة من القوى الثلاثة يفضلون الانضمام اليها: روسيا، او النمسا، أو البقاء بشكل دائم فى الدائرة العثمانية. لكن هؤلاء جميعا كانوا قلة، اذ كانت الغالبية متفقة على نقطة وحدة الا وهى اعادة السلطة لطبقة النبلاء الرومانيين، ثم توسيع نطاق «الحكم الذاتى» الى اقصى حد ممكن. ولكنهم اختلفوا حول وسائل بلوغ هذه الاهداف. وكان واضحا من ناحية اخرى ان الثلاث قوى الكبرى (روسيا والنمسا والدولة العثمانية) لم تكن تقبل ان تستخدم او توظف لصالح اغراض الرومانيين. والحاصل ان انصار كل من هذه القوى بدأوا يتخذون مواقف متطرفة لصالح القوة التى يناصرونها مما جعل مسرح السياسة المحلية اكثر تعقيدا. ولما كانت التحركات المصاحبة لمواقف تلك الاطراف جميعا وتفصيلها تخرج عن نطاق هذا الكتاب، فسوف نكتفى بالقول ان السياسات التى أثرت فى الشؤون الداخلية والتعهدات الخارجية الاجنبية تشابكت معا فى جديلة واحدة. وكانت كلها تصاغ فى العواصم الاجنبية دون مشاركة الرومانيين الذين اقتصر دورهم على رد الفعل. وكان من شأن تنامى الخطر المحدق بمستقبل الامارتين ان يزيد من امر البحث عن حلول سياسية على حساب سائر الانشطة الاخرى.

ولعل معاهدة كوتشك كينارجى المشهورة التى وقعت فى ٢١ يولية ١٧٧٤ خير مثال على التعهدات الخارجية التى تم التوصل اليها دون مشاركة رومانية. فقد كانت الامارتان تحت الاحتلال الروسى طوال خمس سنوات قبيل توقيع تلك المعاهدة، وكان أمر تقرير ما تكسبه من الحرب ومن الاحتلال الروسى الطويل لهما بيد الروس كلية. وعلى حين كان افضل ما فى المعاهدة المادتين ٧، ١٤ اللتان اعطتا روسيا «الحق» فى حماية «العقيدة المسيحية» فى الامبراطورية العثمانية، وكذلك المادة رقم (٣) التى جعلت من اراضى تاتار القرم «دولة مستقلة»، الا انها احتوت على عدة مواد

أضرت بوضع الامارتين واهلها .. فالمادة الاولى أقرت العفو العام عن كل الذين عارضوا العثمانيين وساعدوا اعداءهم بما فيهم اهالي مولدافيا ولاشيا، واعادت لهم الالقاب والممتلكات. وأعطت المادة التاسعة لروسيا حق تأسيس قنصلية لها في اى مكان ترغب فيه في امارتى الدانوب. واما المادة السادسة عشرة فقد رجعت بمقتضاها الامارتان الى حظيرة الحكم العثماني مع اعفائهما من دفع اى «جزية» لمدة عامين، اعيدت بعدها. وتقرر عدم التسامح في اية مخالفات، واحتفظت روسيا بحق التحدث باسم الامارتين في استانبول. ولقد قصد بهذا الشرط الاخير، وبتأسيس قنصلية روسية في كل من: اياصى، ويوخارست، الاحتفاظ بالنفوذ الروسى في الامارتين وبامكانية التدخل اكثر واكثر في شئونهما.

اما ما كان يدور في ذهن روسيا حقيقة عند صياغة نصوص تلك المعاهدة، فقد اتضح بعد اول تقسيم حدث لبولندا عندما عادت الامبراطورة كاترين العظيمة مرة اخرى لخططها التوسعية تجاه الجنوب في اطار مشروعها المشهور المعروف «بالمشروع اليونانى». ولقد عجل هذا باندلاع آخر الحروب التى اشتبكت فيها كل من النمسا وروسيا والعثمانيين قبل ان تأخذ الحوادث مجراها بفعل الثورة الفرنسية التى عرقلت مؤقتا التطور السريع لما اصبح يعرف فى التاريخ بالمسألة الشرقية.

وتجدر الاشارة الى ان معاهدات الصلح التى اعقبت تلك الحروب (وهى: زيزتوفا *Sistova* مع النمسا فى ١٧٩١، واياصى مع روسيا ١٧٩٢) لم تتطلب تضحيات كبيرة من جانب امارتى الدانوب. وتثبت الوثائق ان الطبقات الحاكمة فى الامارتين فى تلك الاثناء لم تكن راضية عن عودة بلادهم للعثمانيين مرة اخرى. وكانوا فى ذلك على حق، اذ انتهز العثمانيون فرصة انشغال النمسا وروسيا فى كل مكان لكى يخرقوا كل نصوص معاهدة كوتشك كينارجى، ويعودون الى لعبة الكراسى الموسيقية مرة اخرى مع الولاة (الخوسبودارية) فضلا عن فرض الرشاوى الكبيرة (الابتزاز) فى الوقت الذى لم يكونوا قادرين على حماية ولاشيا من الاغارات القاسية لباشا فيدين بشفان اوغلو الذى اشاع حالة من الفوضى والدمار شمال الدانوب، والذى شهد عند نهاية القرن اسوأ الذين حكموه الا وهو قسطنطين هنجرلى *Hengerli* (١٧٩٧ - ١٧٩٩)، الذى قتل لحسن الحظ باوامر السلطان قبل ان يدمر اقتصاد ولاشيا تدميرا كاملا.

فى تلك الاثناء وبسبب غزو نابليون لمصر، دخل العثمانيون فى تحالف مع بريطانيا العظمى وروسيا. وانتهزت روسيا الموقف لتقوى من وضعها فى امارتى الدانوب. ففى ١٨٠٢ ارغمت العثمانيين على الموافقة على ابطال كل الضرائب غير القانونية التى فرضت منذ معاهدة كوتشك كينارجى، والموافقة على ان يكون تعيين الولاة (الهوسبودارية) لمدة سبع سنوات، وعدم عزل الوالى قبل انتهاء مدة ولايته دون موافقة روسيا. وعلى هذا وفي اطار هذه الظروف لم يكن مدهشا او مثيرا ان آخر واليين حكما قبل انتفاضة الصرب فى ١٨٠٤ وهما قسطنطين ايشيلانتى (١٨٠٢ - ١٨٠٦) فى ولاشيا، والكسندر موروزى *Moruzi* (١٨٠٢ - ١٨٠٦) فى مولدافيا، كانا متعاطفين بشدة مع الروس، واطهرا ان بلديهما تدور فى فلك روسيا.

وهكذا وعندما اوشك القرن الثامن عشر على الانتهاء، كانت الحقبة الفبارية تقترب من نهايتها فى الوقت الذى تغلغلت فيه كمية كافية من الافكار الغربية فى امارتى الدانوب لتجعل من تاريخها فى القرن التاسع عشر شيئا مختلفا تماما عما تنبأ به المراقبون الذين كتبوا عنهما خلال الحقبة النابوليونية. وقد اخذت هذه البلاد الخطوات الاولى تجاه الاستقلال والوحدة مستخدمين كل فرصة ممكنة لتخليص انفسهم من الهيمنة العثمانية. فقد حاول ايشيلانتى مساعدة الصرب فى انتفاضتها، وساعد على التدخل الروسى هناك وبدأ بسلسلة من التصرفات قادت الى الحرب بين العثمانيين وروسيا فى ١٨٠٦. وبهذه الحرب يبدأ فى تقديرى «التاريخ الحديث» لرومانيا.



الفصل السابع

ترانسلفانيا

١ - خلفية تاريخية

ترانسلفانيا عبارة عن مثلث من الارض تحيطه من الشرق جبال كارباثيا من منابع نهر تسيزا وحتى اقصى امتدادها في الجنوب تقريبا عند مدينة براسوف Brasov حيث تختلط بسلسلة اخرى تمتد الى جهة الغرب وتعرف بجبال كارباثيا الجنوبية او جبال الب ترانسلفانيا. وتمثل سلسلة الجبال الجنوبية هذه الحدود الجنوبية لمثلث ترانسلفانيا على حين ان الضلع الثالث لهذا المثلث يتكون من سلسلة هضاب تعرف باسماء: سمنيك Semenic أو بويانا روسكاي Poiana Ruscai، ومونتني ميتاليفيري Muntii Metaliferi، ومونتني بيهورلو Muntii Bihorului، ومونتني مسسولو Muntii Me-seului، وكولماي كودرولو Culmea Codrului. وعندما كانت ترانسلفانيا امارة مستقلة تحت الحماية العثمانية عدة مرات، كانت الارض الواقعة بين سلسلة تلك الهضاب ونهر تسيزا (اقليم قريصانا في رومانيا الحالية) وشرق سلوفاكيا واورانيا من ناحية جبال كارباثيا (روثينيا Ruthenia)، جزء من هذه الولاية.

واول ظهور لترانسلفانيا في التاريخ المكتوب تحت اسم داشيا Dacia. وقد هاجمها الرومان في نهاية القرن الاول الميلادي وحكموها من عام ١٠٥ - ٢٥٨ م. وقد ترك الداشيون مخلفات أثرية كثيرة، ويعتقد اهالي رومانيا المعاصرة انهم ينحدرون من سلالة الداشينين. وخلال خضوع الداشينين للرومان تألفوا مع لغة الغزاة واختلطت بما كانوا يتكلمون حيث اشتقت الرومانية الحديثة من هذه التركيبة اللغوية القديمة. وكان موضوع الثقافة اللاتينية زمن الوجود الروماني القديم مثار نزاع وجدل من المجرين. فالمجريون يوافقون على ان الداشينين كانوا يعيشون فعلا في ترانسلفانيا عندما حكمها الرومان، ويعترفون بانهم تعلموا لغة سادتهم الغزاة. غير أن المجرين يزعمون ايضا ان هؤلاء الداشيون اما انهم تركوا المكان عقب تحرك الرومان الى جنوب الدانوب، واما انهم اختفوا وتلاشوا خلال القرون الطويلة بين نهاية حكم الرومان وظهور المجرين في نهاية القرن التاسع، وهي الفترة التي عجز فيها الداشيون عن مقاومة مختلف عناصر الغزاة من القوط والهون والغجر والآفار والبلغار الذين حكموا ترانسلفانيا زمنا ما لفترة طويلة. ويزعم المجرين ايضا ان الرومانيين عادوا من جنوب الدانوب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بشكل خاص.

حاول كل من الطرفين (الرومان والمجربون) تبرير ادعاءاتها واهرقوا كثيرا من المداد وسودوا كثيرا من الصفحات لانبات تلك المزاعم. والحقيقة ان هذه المحاولات لم تنجح الا في استنفار مشاعر الكراهية في النفوس. والحق انه ليس هناك من شك في ان الدايشيين عاشوا في ترانسلفانيا عندما غزا الرومان هذه البلاد. ومن المحتمل انهم تعلموا لغة هؤلاء الغزاة الذين كانوا اكثر تحضرا طوال مائة وخمسين عاما من وجودهم تحت حكم الرومان. وعلى هذا يصبح من المعقول ان نفترض ان اولئك الذين ارتبطوا بالقيم الرومانية من الدايشيين غادروا البلاد مع الفرق العسكرية الرومانية، وان الذين ظلوا منهم تلاشوا خلال القرون الستة التالية التي شهدت اضطرابات وقلقل كثيرة. وهذا لايعنى انه لم يبق اية عناصر داشية رومانية في ترانسلفانيا عند نهاية القرن التاسع. وعلى العكس فقد كانت هناك قلة قليلة جدا بالقياس الى عددهم عشية وصول الرومان. ولعل بقاؤهم يفسر عودة المهاجرين مرة أخرى من جنوب الدانوب، وهي هجرة قامت بها عناصر رومانية كبيرة على مدى مئات السنين عندما اصبحت الحياة جنوب الدانوب اقل امنا عن مناطق شمال النهر، حيث كان المهاجرون الرومان يتطلعون الى اماكن آمنة بين قوم يشعرون بصلابة القرابة. وبمعنى آخر فاننى اعتقد ان الرومانيين على صواب في ادعائهم باستمرار انهم كانوا يعيشون في ترانسلفانيا، وان المجريين على صواب ايضا في اشارتهم الى ان عدد الرومان الذين يعيشون هناك تزايد بشكل حاد في القرنين الثانى والثالث عشر. ومهما يكن من امر فمن المؤكد انه عندما اصبحت ترانسلفانيا امانة مستقلة، كان الرومان يشكلون نصف سكانها على الاقل.

اما بالنسبة للمجربين فان عام ٨٩٦ يمثل تاريخا متفق عليه لغزوهم للمجر. لكن تاريخ تحركهم شرقا من السهوب المجرية وعبور الحدود الجبلية الغربية الى ترانسلفانيا امر غيا متفق عليه .. فهناك عدة تحركات وانتقالات وهجرات هنا وهناك استمرت حوالي مائة عام، توقفت بتحقيق النصر النهائي فى عام ١٠٠٣. وفى تلك الاثناء اصبحت أبولوم Apulum الرومانية القديمة (حاليا البيا ابوليا Alba Iulia) مقر الاقامة، واصبح جيلافرفار Gyulafeherver وهو من اصل مجرى حاكما (اشبانا ispan) على ترانسلفانيا من قبل القديس استيفان. وبدا من هذا التعيين، اصبح تاريخ ترانسلفانيا يتوازى مع تاريخ المجر بما فى ذلك نمو حكم طبقة النبلاء وتفوقهم على بقية السكان، وتقسيم البلاد الى مقاطعات مختلفة يحكم كل منها احد الرفاق المجريين من الوافدين يعينهم الملك. وبمرور الزمن تحولت المقاطعات المجرية الى وحدات ادارية سيطر عليها النبلاء. ويشير هذا الى ان التطور الترانسلفانى كان شيئا مختلفا.

والحقيقة ان المجريين لم يكونوا آخر الشعوب التى اندفعت من سهول اوراسيا نحو الغرب فى هجرات متتالية بحيث اصبحت ترانسلفانيا منطقة الدفاع الشرقية لمملكة المجر. وقد وضعت تحت وصاية مشول ملكى خاص يلقب بالفادا Vajde وكان يتمتع بسلطات الرصى على العرش ويتصرف بشكل مستقل من لناعية العملية. وفى عام ١٢٦٣ كان من حقه تعيين المجريين الوافدين على السبع مقاطعات الترانسلفانية. وكان مشول الملك هو الوحيد بجانب الجماعة الكرواتية الذى يعد حاكما كرواتيا (بانوس banus) والذى كان يدير مملكة صغيرة داخل المملكة الكبيرة. ويمسك

بامور الجماعات تحت ولايته وبموافقة الملك فقط. على ان هذا التطور لم يمنح طبقة النبلاء. المجريين - الترانسلفانيين وضعا خاصا، بل جعلهم اعضاء اول امة من الثلاث قوميات التى تتكون منها ترانسلفانيا (ناتيو natio) وكلمة أمة - قومية هذه لاتعنى شيئا مما تعنيه الكلمة فى العصر الحديث، وكل ما تعنيه ببساطة انها تشير الى مجموعة من الناس -طبقة النبلاء فى حالتنا هذه- تتمتع بحقوق سياسية وقانونية كاملة. وفى نهاية القرن الرابع عشر ضمت هذه الامة الاولى بين ظهرانيها فيما ضمت من عناصر، عدة عائلات ليست من اصول مجرية اثنية. وتعتبر عائلة هونيادى الشهيرة افضل مثال لعائلة من اصول رومانية اصبحت عنصرا من عناصر «الامة» المجرية.

ويلاحظ ان اسرة هونيادى تمثل نموذجا للمشكلة التى يواجهها الرومان، فلم يكن هناك سبب عند المجريين المنتصرين يدعوهم للتعامل مع سكان ترانسلفانيا ايا ما كانت روابطهم الاثنية، باى اسلوب سوى مفهوم الطبقة الاقطاعية وما يرتبط بذلك من علاقات، خاصة وان القيم التى كانوا يعتقونها ليست قومية بالمعنى المعاصر، ولكنها قيم اقطاعية منذ قبل القديس استيفان .. القيم الغربية المسيطرة مع المسيحية فى آن واحد. وعندما قبل المجريون هذا الاسلوب، اكتسبت القيادة القديمة وضعية النبالة آليا. ولم تكن مثل هذه القيادة قائمة وسط الرومانيين آنذاك ولكن عندما نهض الرومان وخاصة فى القرون الاولى من حكم المجريين، لم يكن الانتساب لطبقة النبلاء امرا صعبا. كما لم يكن صعبا على اى فرد من الشريحة الدنيا ان يصبح فى صفوف الشريحة العليا فى المجتمع، اذ اصبحوا آليا اعضاء فى تلك الطبقة، ومن خلالها ارتفعت مكانتهم تاركين بقية عناصرهم خلفهم دون ان يكون امامهم احتمال ان يتطوروا الى امة natio (عشيرة) بمفهوم العصور الوسطى. ثم اضيفت مشكلات دينية ومشكلات اخرى لمشكلة اصل الرومانيين حتى لقد كانوا الشعب الوحيد الذى لا يكون أمة natio. واكثر من هذا كانوا فى نظر كل الذين حققوا قوميتهم وقت استقلال ترانسلفانيا، غير مؤهلين لكى يكونوا امة او قومية.

وبالاضافة الى المجريين هناك ما يطلق عليهم الساكسون (وهم مستوطنون جرمان قدموا من حيث أتى الفلاندرز) وكذا عشيرة السكيلىين Szekelys الذين يصعب تحديد اصلهم .. فالسكيلىون طبقا لتقاليدهم كانوا من بقايا قبائل الهون التى كانت قد بقيت فى المكان عقب تراجع الهون من اوربا. وعلى الرغم من انهم تكلموا المجرية طبقا للوثائق، وكانوا اقرباء للمجريين من الناحية العرقية واللغوية، الا انهم لم يكونوا جزء من الشعب الذى انتقل من سهوب اوراسيا الى المجر فى القرن التاسع، ولأنهم كانوا يعيشون فى تجمعاتهم الخاصة فى جنوب شرقى ترانسلفانيا (اصبحت كانتونات فيما بعد)، ويتمتعون بحكم ذاتى تام فى مقابل التزامهم بحراسة الحدود، فقد كانوا يعتبرون نبلاء فى اعين البعض كما كانوا يختارون من بينهم من يتولى امورهم. اما حياتهم فقد كانت قبلية ومشاعية ومن ثم كان من الصعب ان تنشأ بينهم طبقة لوردات وكبار ملاك اراضى، وان ظلوا جماعة متميزة فى اطار تقاليدها وعاداتها واحكامها الخاصة. ونظرا لأن الحكام المجريين الاقطاعيين اعتبروهم منذ البداية نبلاء، فقد اصبحوا يشكلون آليا ثانى قومية من قوميات ترانسلفانيا ويخضعون للفاداد الذى كان يتصل بهم عن طريق رجالاتهم. وكانوا لايدفعون اية ضرائب وينتخبون

سنويا من بينهم مسئولهم المحليين فى كل حى من الاحياء . وقبيل ان تصبح ترانسلفانيا امارة مستقلة بقليل اصبح السكيليون ماثرا للنزاع كما سوف نرى .

اما القومية الثالثة فى ترانسلفانيا فقد كان يشكلها الجرمان السكسون ، وكانوا قد استقدموا الى ترانسلفانيا خلال حكم الملك جيزا الثانى geza II فى القرن الثانى عشر (١١٤١ - ١١٦٢) حيث استخدموا مرة اخرى للقيام بحراسة ممرات الحدود ، ومنحوا ارضا مقابل ذلك فى اقليم شيبو Sibiu . وقد استقر بعض المستوطنين اللاحقين حول بيشريتا Bistrite ثم عاد معظمهم الى حيث جاءوا ، وتوسعوا ناحية الشرق بمحاذاة المنحدرات الشمالية لجبال ألب ترانسلفانيا بصفة اساسية . وايضا ناحية الشمال فى الاراضى الواقعة بين نهري اولت olt وتارنافا Tarnava . ولأن هذه العناصر قدمت الى ترانسلفانيا بدعوة من ملوك مجر لاسباب اعتبرها الملوك ذات اهمية (مثل الدفاع عن الحدود ، والاستيطان للتعمر ، والحرف الصناعية) فقد تمتعوا بعدة امتيازات من البداية تم تقنينها فى عام ١٢٢٤ بمقتضى الاندريا نوم Andreanum وهو ميثاق اصدره الملك اندرو الثانى (١٢٠٥ - ١٢٣٥) ، منحهم بمقتضاء كقومية متحدة الاقليم الواقع بين اوراشتى Orastie وباريولت Baraolt . ولم يكن بإمكان أحد غير هؤلاء السكسون الجرمان الاستقرار فى هذه المنطقة . وبمقتضى الميثاق كان لهم حق انتخاب زعاماتهم المحلية الذين كانوا مسعولين فقط امام القادا مع اعفائهم من الالتزامات السنوية مقابل دفع ٥٠٠ مارك بالقيمة و الوزن الذى كان متبعا ايام الملك بيلا الثالث Bela (١١٧٢ - ١١٩٦) ، وتحددت التزاماتهم العسكرية بتقديم ٥٠٠ رجل للخدمة داخل البلاد ومائة رجل للعمل وراء الحدود فى حروب خارجية تحت قيادة الملك ، وخمسون رجلا فقط اذا كان القائد شخص آخر غير الملك . وأكثر من هذا كان من حقهم انتخاب قساوستهم وقضائهم والتقاضى امام محكمة الملك فى حالة عدم قدرة قضائهم على تصفية الخلافات او وضع حلول لها . كما كان لهم حق السيطرة على اسواقهم الخاصة والسفر الى الاسواق الاخرى وعقد الاتفاقات والصفقات فى اى مكان بالبلاد دون دفع اى ضرائب او الالتزامات . والخلاصة ان الاندريا نوم رفع السكسون الجرمان الى مصاف القومية natio الترانسلفانية الثالثة كاملة .

كان « للقوميات » الثلاثة (المجريون ، والجرمان السكسون ، السكيليون) تنظيماتها السياسية والاكليروسية الخاصة بها ، وكل منها تتمتع بدرجة من الحكم الذاتى فى احوالها الخاصة . وكان للمجريين والسكيليين نبلاءهم منذ البداية ، وما لبث ان نمت بين الساكسون مجموعة من الافراد موازية للنبلاء تمتعت بامتيازات وكانت تعرف بالجرافيين Graves . وينمو المدن الساكسونية نموا سريعا كانت قيادات البرجوازية تمثل العنصر الحقيقى المهم داخل القومية natio .

فى ١٣٠١ مات آخر ملوك الارباد Arpad وبعد انتهاء فترة حكم قصيرة لاثنين لا قيمة لهم ، اختار المجريون مرة اخرى من عائلة انجوا النابولية Anjous تشارلز روبرت ملكا عليهم . غير ان المجريين الترانسلفانيين بقيادة القادا رفضوا الاعتراف بهذا الاختيار الذى ظل قائما الى ان استطاعت قوات تشارلز روبرت فى ١٣٢٤ انهاء هذا الاعتراض الترانسلفانى عليه بعد ستة عشر عاما من توليه العرش . وفى اعقاب ذلك اعاد هذا الملك تنظيم البناء السياسى والادارى للمقاطعات السبع واضعا اياها فى

أيدى أعوانه ومؤيديه من صغار النبلاء وأثرياء الريف. ومنذ بدايات حكم ملوك عائلة أنجوا والصراع قائم على السلطة في دول المجر بين الأسر الأرستقراطية وصغار النبلاء.

أما القومية السكيلية في ترانسلفانيا فقد كانت تعتبر أدنى القوميات الثلاثة ومن ثم عانى أبناؤها معاناة شديدة بعد بروز أصحاب الحرف والتجارة الذي حدث في أعقاب وفاة الملك ماثياس الأول في ١٤٩٠. والحاصل أنه قد برزت من قلب هذا الصراع أسرة زابولياي Zapolyai. وقبل أن نعرض لهذا الحدث المهم ينبغي مناقشة حدث آخر على جنب كبير من الأهمية ألا وهو تمرد الفلاحين الكبير في ١٤٣٧ - ١٤٣٨، والذي انتهى بتثبيت وضعية الثلاث قوميات بشكل مؤكد، واستبعاد الرومانيين من كل مشاركة سياسية ممكنة في الحياة السياسية لترانسلفانيا.^(١)

كان هناك سببان رئيسيان لتمرد الفلاحين يمكن تليخصهما فيما يأتي: الأول التغييرات التي طرأت على وضعية طبقة الفلاحين في ترانسلفانيا، والثاني تعاضم الخطر العثماني. كان لويس العظيم ابن تشارلز روبرت مهتم بحماية أقطان الأرض من الأعباء المتزايدة التي يفرضها ملاك الأراضي من اللوردات.. ففي ١٣٥١ أصدر قانونا يحدد بمقتضاه الالتزامات المقررة على الفلاحين بتقديم عشر الانتاج للكنيسة وعشر آخر إلى اللورد. غير أن هذا القانون لم يكن مطبقا بصرامة في ترانسلفانيا حيث كانت تسود العادات والتقاليد القائمة. وعندما بدأت الحروب العثمانية، كانت المدن تأخذ طريقها في النمو والانتعاش الأمر الذي أدى إلى انقاص عدد الفلاحين المجرين والسكسونيين سواء بسبب المعارك الحربية مع العثمانيين، أو بسبب الهجرة إلى المدن الجديدة. وفي محاولة لإحلال آخرين محلهم قام رجال الأكليروس واللوردات الذين هم في خدمة الكنيسة، بأرغام الفلاحين الرومانيين على الاستقرار في تلك الأراضي وأصبحوا أقطانا. وقد أدى هذا الإجراء إلى فقدان الكنيسة لجانب كبير من إيراداتها، لأن هؤلاء الأقطان الجدد وكانوا من الأرثوذكس لم يدفعوا العشر المقرر في الوقت الذي تضاعف فيه حجم الالتزامات العسكرية على الكنيسة كمالك للأراضي. وحتى يصبح في إمكان اللوردات الكنسيين تجهيز العدد المطلوب من الجنود، أرغم الفلاحين الرومانيين أخيرا على دفع عشر الكنيسة مما زاد من التزاماتهم ومن غضبهم في الوقت نفسه بشكل ملحوظ.. وهو أرغام طبق على كل الأقطان الجدد الذين يستقرون في الأرض حيث يلزموا بتقديم العشر والقيام بسائر الخدمات وغيرها. أما الأقطان القدامى فقد كانوا يعانون هم الآخرون منذ بدأ النبلاء في تحصيل العشر بمقتضى قانون لويس العظيم لمواجهة التزاماتهم العسكرية المتزايدة، وفي الوقت نفسه استمروا في تحصيل كافة « الرسوم والمستحقات التقليدية » من الفلاحين أيضا.

وبينما كانت هذه التطورات الداخلية تحدث اضطرت زيجزوموند ملك لوكسمبرج (١٣٨٧ - ١٤٣٧) أمام الخطر العثماني إلى تخفيض قيمة العملة وفرض ضرائب جديدة وتشكيل تنظيمات عسكرية جديدة لترانسلفانيا وبمقتضاها تعين ضمن أشياء أخرى أن يؤخذ قن واحد من كل ثلاثة

(١) انظر أفضل وصف لحوادث عامي ١٤٣٧ - ١٤٣٨ كتب في اللغات الغربية ما كتبه ستيفان باشكو: Stefar pascu, Der Transilvanische volkaufstand, 1437 - 38, Vol. 7 of Bibliotheca Historica Romaniae (Bucharest: Romanian Academy of Sciences 1964).

وثلاثين قنا في القوات المسلحة. ولما كانت هذه النسبة لا توفر العدد الكافي من المجندين فقد وافقت القوميات الثلاثة بالجمعية الترانسلفانية على ان يلتحق بالجيش قن واحد من كل عشرة وليس من كل ثلاثة وثلاثين.

وكان من شأن هذه الاعباء المزدوجة الاقتصادية والعسكرية قيام اضطراب متزايد بدأ بعام ١٤٢٩. ولم تحاول السلطات تفهم كنه هذا الاضطراب. ولكنها عملت على قمعه فقط. والحاصل ان الفلاحين الاقنان رفضوا دفع الضرائب، وتهربوا من مسؤولي التجنيد، فما كان من جيورج ليبر George Leper اسقف ألبا ايوليا Alba Iulia الا ان اصدر قرارا بحرمان هؤلاء الذين رفضوا احترام التزاماتهم من رحمة الكنيسة، مما ساء الى الموقف اكثر، بل ذهب الى ابعد من هذا عندما اتهم اولئك الفلاحين العصاة في عام ١٤٣٦ بتهمة الهرطقة، واستقدم محاكم التفتيش الى ترانسلفانيا، لا لتقوم بنشاطها العادي، بل لارغام الاقنان الرومانيين على اعتناق الكاثوليكية الرومانية. كما طالب بدفع العشور المتأخرة وسائر الالتزامات الاخرى التي لم تدفع من قبل بالعملة الجديدة، مما زاد من الاعباء الملقاة على عاتق الفلاحين، ومن ثم لم يكن امامهم الا التمرد جميعا بصرف النظر عن اصولهم الاثنية في ربيع ١٤٣٧. ولقد اشترك في هذا التمرد مع الفلاحين عدد كبير من الشريحة الدنيا من النبلاء الذين يشكلون غالبية القيادات العسكرية، وكذلك عدد من البرحوازية معربين عن غضبهم ازاء الحكم التعسفي الذي تمارسه طبقة رجال الدين والاسترقاطية.

وفي معركة كبيرة اواخر يونية ١٤٣٨ استخدم فيها الفلاحون التكتيك التابوروتي Taborites اوقعوا الهزيمة بقوات الغادا بالقرب من مدينة بوبالنا Bobalna. ولقد انتهى هذا الانتصار الى تسوية وافق النبلاء بمقتضاها على استعادة الفلاحين حقوقهم وتخريهم من القنية، وتنازل الاسقف ليبر عن مطالباته بالعشور المتأخرة، وعن قيام الارثوذكس بتوريد العشر للكنيسة. كما تنازل النبلاء عن حقهم في تحصيل الضرائب الجديدة وسائر الالتزامات الاخرى. واكثر من هذا فقد اعترف بحق الفلاحين في حرية الهجرة والانتقال من جديد مرة اخرى، بل لقد اضيف حق جديد يسمح لجمعية عسكرية بان تجتمع مرة واحدة سنويا لمقاضاة ومعاقبة اولئك اللوردات الذين اغتصبوا حقوق الفلاحين.

ولقد كان من الممكن ان ينتج عن مجمل هذه الحقوق الاساسية «قومية» رابعة رومانية (في ترانسلفانيا) نظرا للعدد الكبير من الفلاحين الرومانيين، او التوصل إلى تطور آخر يعطي الفلاحين في ترانسلفانيا حرية اكبر من تلك التي يتمتع به الفلاحون في أى مكن آخر في اوربا. وهي تطورات لم تكن طبقة النبلاء تريدها بطبيعة الحال. على ان الذى حدث في النهاية شئ مختلف تماما، اذ تكون الاتحاد يضم القوميات الثلاثة باسم «اتحاد القوميات الثلاثة» اعلن رسميا في ١٦ سبتمبر ١٤٣٧ في اجتماع حضرته قيادات القوميات الثلاثة في قرية كابالنا Capalna بالقرب من مدينة كالجو Calgau الحالية شمالي ترانسلفانيا. غير ان توجهات الاتحاد الجديد ضد كل «اعداء» القوميات الثلاثة المتحدة ادت الى تجديد العداوات في المدى القصير والى تحجر بنائه في المدى البعيد. فقد كانت الحقوق .. كل الحقوق، مقتصرة على أعضاء الاتحاد فقط بحيث كان يستحيل على اى عنصر جديد وفى

مقدمتهم الرومانيين، التمتع بأي حق في ترانسلفانيا.

وبعد عدة هزائم لحقت بالاتحاد استطاع اخيرا وبعض المساعدة من الملك، ايقاع الهزيمة بالفلاحين، وتم التنكيل دمويا بزعماء التمرد وبالمعتقلين، وحرمان مدينة كولوزفار Kolozsvár لفترة من امتيازاتها بسبب مسانداتها لتمرد لفلاحين. وفي الاجتماع الاول للاتحاد القوميات الثلاثة الذى انعقد فى ١٤٣٨ تقرر حرمان الفلاحين من كل حقوقهم فيما عدا حرية الهجرة او التنقل بشكل محدود مع اعادة - وهذا امر طبيعى - فرض كل الرسوم والالتزامات والواجبات التى كانوا قد وافقوا على الغائها قبل اقل من عام مضى. على ان هذا التمرد والاتحاد الذى نتج عن حوادثه اعطى لترانسلفانيا مؤسساتها الاجتماعية السياسية وتنظيماتها خلال فترة وجودها امانة مستقلة.

نعود الان الى تمرد السكيلىين الذى ساعد على بروز عائلة زابولياى. فقد كان السكيلىون يعيشون فى احيائهم الخاصة حياة مشتركة، الا انهم سرعان ما تركوا الارض اذ لم يعد بإمكان اكثرهم الاحتفاظ بمستوى معيشى اقتصادى معين يسمح لهم بتقديم الخدمات العسكرية والتى تركز على اساسها ما يتمتعون به من امتيازات. وهنا انتهزت العناصر الاكثر ثراء ومقدرة بينهم هذا الموقف الاقتصادى المتدهور وحاولت الاستيلاء على معظم الاراضى لتجعل من باقى السكان اقنانا. ولكن من حسن حظ هؤلاء الفلاحين الذين كانوا سيصبحون اقنانا ان تلك المحاولات تمت فى ايام الملك مائياس الاول (١٤٥٨ - ١٤٩٠) والذى كان لا يأمن لاصحاب الحرف والتجار، ويعمل على تكوين شريحة دنيا من الأرستقراطية. وعلى هذا وبناء على اوامر من الملك قام الفادا جون شنتجورجى Szentgyorgyi وهو من السكيلىين البارزين بتوكيد امتيازات اولئك الفلاحين فى عام ١٤٦٦ ومنع استقنائهم. ومع هذا فقد ظلت المشكلات الاقتصادية والمشكلات المتعلقة بالامور العسكرية كما هى. وفى ١٤٧٣ اصدر الملك تنظيمات عسكرية جديدة ميزت بين اولئك الذين يقدرون على الالتحاق بالجيش بواقع ثلاثة فرسان، واولئك ينضمون فرادى بتسليح بسيط، واولئك الذين يكونون مجرد مشاة فقط. وقد اعتبرت هذه المجموعات الثلاثة نبلاء احرار. اما الذين لم يكن بإمكانهم الخدمة العسكرية حتى فى ادنى درجاتها اى فى سلاح المشاة فانهم يكونون عرضة للاستئنان. وعلى الرغم من ان هذه القواعد حفظت للسكيلىين حرياتهم الا انها لم تغير من طبيعة المشكلات الاقتصادية التى كانوا يعانون منها.. ففى ١٤٩١ وبعد وفاة مائياس قام ستيفن باثورى Bathory وهو من السكيلىين البارزين والذى اصبح فادا بعاملة اولئك الفلاحين كأنهم رعاياه، ان لم يكونوا اقنانه دون اى تقدير او اعتبار للقانون كلية. ولكن كان من حسن حظ هؤلاء الفلاحين انه كان لبثورى اعداء من الشخصيات المهمة فى البلاد. وبتشجيع منهم قام اولاشلو الثانى Ulaszlo (١٤٩٠ - ١٥١٦) بطرد باثورى فى ١٤٩٣ والتأكيد من جديد فى ١٤٩٩ على حقوق وامتيازات السكيلىين.

كان طرد باثورى جزء من الصراع بين اصحاب الحرف والتجار من جهة والشريحة الدنيا من النبلاء (صغار النبلاء) من جهة اخرى والذى كان له تأثيره الكبير على ايام حكم مائياس الاول. وقد انتهزت عائلة زابولياى المنتفذة فرصة هذا الانشقاق وانضمت الى جانب صغار النبلاء على امل

الوصول الى العرش بمساعدتهم مثلما كان الحال مع ماثياس. وفي هذا الصراع عقد السكيليون من صغار النبلاء عدة اجتماعات دون موافقة الملك ودون اذن من الفادا لمساندة زابولياى. وفي ١٥١٠ استطاع زابولياى وهو فى سن الرابعة والعشرين ارغام الملك اولاشلو الثانى على تعيينه فادا لترانسلفانيا. وبمجرد ان اكتسب جون زابولياى هذه الوضعية عمل على ان تكون بلاده هادئة مستكنة وذلك بالتخلص من السكيليون فى ١٥١٩ عندما سحقهم وصادر كثيرا من ممتلكاتهم.

ولما كان جون زابولياى قد لعب دور «المنقذ» قبل ذلك بخمس سنوات خلال تمرد الدوشا Dozsa (انظر الفصل الثالث) فقد اصبح هو المرشح «القومى» لعرش ترانسلفانيا بعد انتصاره على السكيليين وذلك عندما جعل منه الملك لويس (لايوس Lajos) ١٥١٦ - ١٥٢٦ البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما اقوى رجل فى اطار ترانسلفانيا موحدة «وهادئة» كانت يمثابة قاعدة لقوته. وكان يتحدث باسم صغار النبلاء الذين انتخبوه ملكا فى ١٥٢٦، على حين لجأ اصحاب الحرف والتجار الى فرديناند الهابسبورجى. وكانت النتيجة قيام حرب اهلية انتهت بتدخل السلطان سليمان الاول فى شتون المجر عام ١٥٤١ لصالح ابن زابولياى الذى كان طفلا، وتقسيم البلاد الى ثلاث مناطق كما سبقت الاشارة فى الفصل الثالث، وتكوين امارة ترانسلفانيا المستقلة فى ذلك العام كولاية عثمانية تابعة تحت حكم ايزابيلا ارملة زابولياى. وعلى الرغم من ان محاولات وزيرها الاول الكاردينال مارتيونوزى Martinuzzi الذى اراد اعادة توحيد المجر لمحاربة العثمانيين قد نجحت فى قيام حكم هابسبورجى فى ترانسلفانيا خلال الفترة من ١٥٥٦ - ١٥٥٩، الا ان تدخل السلطان سليمان الاول وضع ايزابيلا على العرش ومن ثم بدأت الامارة الجديدة تعيش حياة مستقلة طوال قرن ونصف من الزمان.

٢ - الاساس القانوني لامارة ترانسلفانيا

كان تطور ترانسلفانيا لتكون امارة قد بدأ يأخذ مجراه بطريقة او باخرى عام ١٥٢٦، فالفادا كان يتمتع بسلطات هائلة فضلا عن انه كان يحمل لقب زعيم السكيليين طوال قرن من الزمان. ورغم ان الثلاثة «قوميات» كانت ممثلة فى مجالس الدايت المجرية وترتبط بقوانين البلاد، الا انه كان لكل منها دايته الخاص المستقل (مجلسه النيابى) منذ القرن الرابع عشر. ولقد تدعم هذا الاستقلال بالاتحاد الرسمى للقوميات الثلاثة، وسياسات الفادات الاقوياء الذين كان زابولياى آخرهم. وقد ظلت «القوميات» الثلاثة تمثل قوميات ترانسلفانيا «سياسيا» مع بقاء التقسيمات الطبقيية الاجتماعية كما هى دون تغيير. وقد نتج عن ذلك ترتيب سياسى فريد فى نوعه ظل قائما طوال وجود ترانسلفانيا وحدة سياسية مستقلة. ثم تطور هذا الوضع المتفرد خلال فترة حكم ايزابيلا (١٥٤١ - ١٥٥٩) وابنها جون زجزموند زابولياى (١٥٥٩ - ١٥٧١). وقد بدا اوضح ما يكون وبشكل افضل من خلال التعامل مع المشكلات التى واجهت كل منهما. ولكن قبل ان نتناول اسلوب كل منهما ينبغي الحديث بشكل موجز عن السلطة التشريعية الثنائية التى كان يمثلها دايت محلى وآخر

مجري عام، وعن مجموعات القوانين الثنائية أيضا التي كانت سائدة والتي سبقت الإشارة إليها.

بعد سنوات كثيرة من العمل ونزولا على رغبة الملك ستيفن قدم فربوشى Werboczy مجموعة القانون المجري للدايت نفسه الذي اتخذ الاجراءات العنيفة ضد الاويدا ضد الفلاحين . فى عام ١٥٧٤ . ولقد عرف هذا القانون باسم المخطوط الثلاثى Codex Tripartitum لأنه كان يتكون من ثلاثة اقسام رئيسية ووافق عليه الملك والدايت ولكنه لم يصدر رسميا ابدا بسبب معارضة بعض العناصر القوية من اصحاب الحرف والتجار. على ان فربوشى نشر هذا المخطوط بعد ذلك بسنوات ثلاثة فى فيينا فاصبح القانون الاساسى للمملكة. وكان تأثيره عظيما جدا وظل معمول به طوال عدة قرون وعرف باسم «القانون». ولم يقتصر دور الدايت على تقديم مختلف التفسيرات والشروح التى تتطابق معه، بل لقد قام بمهام اخرى وان كانت قليلة، وفى مقدمتها فى هذا الخصوص البحث عن العلاقة المماثلة للاتصال بين الشريعة الاسلامية والقانون فى الامبراطورية العثمانية، رغم ان المخطوط الثلاثى لم يكن له اى بعد دينى او مغزى.

وعندما اصبح هذا القانون الجديد الوثيقة الشرعية الاساسية لمملكة المجر، كانت ترانسلفانيا ماتزال جزء من تلك المملكة، وبالتالي قبلته ووافقت عليه. وظل هو القانون الاساسى للامارة حتى بعد انفصالها عن المجر. واقتصر عمل الدايت الترانسلفانى على تفسيره بدقة وشرحه بتفصيل أكثر مما قام به المجرىون انفسهم. وهكذا اتبعت ترانسلفانيا قوانين مملكة المجر رغم انها كانت فى حرب دائمة معها.

وعلى حين كان للمخطوط الثلاثى وحوادث اخرى فى ممتلكات الهابسبورج تأثيرها على وضع الملك وادارته فى المجر، احتفظ امراء ترانسلفانيا وهم ورثة منصب القادا، بكثير من سلطات القادا المطلقة دون ان يتعرضوا لخطر التهديد بالعزل من منصبهم. ولقد جعلت هذه السلطة التى ترافقت مع ميل الدايت لقصر وظيفته على التفسيرات القانونية فقط، من الامراء حكاما مطلقين دون حسيب، ولم يكن يكبح من جماهم الا مجلس الامارة الذى يتكون من اثنى عشر عضوا ولو انه كان اداة غير فعالة فى هذا الخصوص، لأن اعضاءه كانوا يعينون ويعزلون بإرادة الامراء.

ومع ذلك كان اولئك الحكام الاقوياء لامارة ترانسلفانيا تابعين ليس فقط لسلطة واحدة، ولكن لسلطتين قويتين وهما ملك المجر والسلطان العثمانى. وكانت علاقة التبعية المزدوجة هذه ظاهرة فريدة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. غير ان الترانسلفانيين لم يأخذوا الامر مأخذ الجد، فمن الملاحظ انهم اتبعوا سياساتهم الخاصة، بل لقد دخلوا فى حروب متكررة ضد ساداتهم (ملك المجر والسلطان العثمانى). على ان اعتمادا امراء ترانسلفانيا على العثمانيين يؤرخ ابتداء من انتخابات الملكية المزدوجة عام ١٥٢٦، واتكاء جون زابولياى على المساعدة العثمانية له خلال الحرب الاهلية الطويلة. اما ايزابيلا فقد اعتمدت بشكل اكثر على مودة السلطان العثمانى. على انه ينبغى ان نتذكر هنا (انظر الفصل الثالث) ان السلطان سليمان الاول لم يكن راغبا فى اقامة امارة عثمانية خالصة فى المجر لكن من المؤكد انه كان يرغب فى وجود حاكم ضعيف تابع هناك. وقد

اضطر بعد وفاة جون زابولياى ان يغير سياسته بما يبقى الهابسبورج بعيدين عن منطقتى شرق المجر وترانسلفانيا .

كانت ايرابيللا بعد عودتها للعرش تخشى عزلها مرة اخرى، ولم تكن تثق فى اى احد، ومن هنا دخلت فى تجرية مع طبقة النبلاء ليس فقط من اجل الاحتفاظ بالسلطة المطلقة، ولكن للحيلة بينهم وبين التدخل فى تنشئة ابنها. وكانت فى الوقت نفسه بحاجة الى تأييد هذه الطبقة لمساعدتها فى الاحتفاظ ليس فقط بترانسلفانيا ولقبها الملكى، بل للاحتفاظ باراضى شرق المجر الواقعة بين الحدود الغربية لترانسلفانيا ونهر تسيزا والتي كانت تحت وصايتها، وكانت تعرف لفترة معينة باسم بارتيوم partium. وكان فرديناند الاول يريد فى عام ١٥٥٦ الاعتراف بترانسلفانيا كامارة مستقلة مقابل اراضى بارتيوم هذه ولكن دون جدوى. ولقد ظلت هذه القضية قائمة دون حل الى ان ماتت ايرابيللا .

كان ابن ايرابيللا جون زيجزوموند زابولياى البالغ من العمر تسعة عشر عاما والذي تولى العرش بلقب ملك المجر المنتخب، شخصا لطيفا مرحا حسن التربية، تعلم بنفسه، لكنه كان معتل الصحة، ضعيف الارادة. وقد احتفظ طوال فترة حكمه باصدقاء والدته كمستشارين رئيسيين له، وفى مقدمتهم جسيار بيكز Gaspar Békés الدبلوماسى الالمب، وجورج بلاندرانا Blandrata طبيب البلاط، وثلاثة اشقاء من شباب عائلة باثورى.

ولما كان فرديناند يعرف ضعف جون زيجزوموند زابولياى فقد قام بمهاجمته فى ١٥٦١، وهنا انتهز الغاضبون على زابولياى الفرصة ومنهم السكيليين وتحالفوا مع العدو، واصبح الموقف حرجا وميوسا لدرجة ان جون زيجزوموند كان على استعداد للاستسلام. غير ان قائده الشاب الجنرال ستيفن باثورى حال دون ذلك، وشجح فى قمع المتمردين وتوصل بمساعدة العثمانيين الى تجميد الموقف العسكرى الذى انتهى الى هدنة فى ١٥٦٣. وعندما مات فرديناند فى العالم التالى، حاول باثورى تحرير بلاده بمقاومة الهجوم لكنه هزم. وبمقتضى صلح شتمار Szatmar فى ١٥٦٥ اخذ الهابسبورج كل اراضى البارتيوم عدا اراضى مدينة ناجيفاراد Nagyvarad (ومن اسمائها اوراديا-Ora dea وجروسقاردين Grosswardein، وفاراد Varad) وارغام جون زيجزوموند على التخلي عن لقبه الملكى ليصبح اميرا فقط لترانسلفانيا، وان تكون بلاده جزء من المجر باداء يمين الولاء للملك الجديد مكسميليان الاول (١٥٦٤-١٥٧٦)، واكثر من هذا تزوج اخت مكسميليان واعترف بحق الهابسبورج فى عرش ترانسلفانيا اذا ما مات دون وريث، وهكذا تأسست اول تبعية رسمية لترانسلفانيا.

وكان طبيعيا ألا يوافق السلطان سليمان الاول على هذه الترتيبات، وما كان منه الا ان ارسل جيشا يحمل معه فرمانا سلطانيا يؤكد ان ترانسلفانيا ولاية تابعة من ولايات الامبراطورية العثمانية، وعليها ان تدفع الجزية السنوية ومقدارها عشرة آلاف دوكية، مع اعطائها حقوق مولدافيا وولاشيا والتي تتمثل بصفة رئيسية فى انتخاب امرائها. وبموافقة جون زيجزوموند والجناح المضاد للهابسبورج

على هذا الترتيب، تأسست ثانی تبعية رسمية لامارة ترانسلفانيا واحدة للهابسبورج والثانية للعثمانيين .

وفي العام التالي (١٥٦٦) قام سليمان الاول على رأس جيش بحملة ضد الهابسبورج حيث التقى مع جون زيجزوموند عند بلجراد. على ان هذه الحرب التي بدأها سليمان الاول وكلفته حياته استمرت بين جون زيجزوموند ومكسميليان حتى عام ١٥٧٠، وانتهت بهتطع سبيير Speier وبمقتضاه اعيدت معظم اراضي البارتيوم الى ترانسلفانيا مقابل تأكيد جون زيجزوموند تبعية الهابسبورج، وتكرار تأكيد ان ترانسلفانيا جزء من المجر. ولقد قبل مكسميليان هذا الترتيب اذ كان تطور الامور سيكون في صالحه، فهو يعرف ان جون زيجزوموند شخص معتل الصحة ولا يمكن ان ينجب وريثا. والحقيقة ان جون زيجزوموند ما لبث ان مات في ربيع ١٥٧١ وعلى هذا اصبح للهابسبورج ادعاء قويا في عرش ترانسلفانيا. لكن نبلاء ترانسلفانيا وجدوا في فرمان السلطان سليمان الاول فرصة مواتية للتخلص من التبعية للهابسبورج ومن ثم بادروا بانتخاب ستيفن باثوري اميرا على البلاد.

وقبل ان نترك سنوات حكم زابولياى ينبغي مناقشة حدث آخر اعطى لترانسلفانيا صيغتها الفريدة والنهائية في بنائها ونعني به اضافة ما يسمى «بالاربعة اديان المعتمدة» لاتحاد الثلاث قوميات، والتي بمقتضاها استكملت ترانسلفانيا نسقا جعلت بارون ميكلوس فيسلياناي Baron Miklos Wesselenyi يطلق عليها في القرن التاسع عشر «خطايا ترانسلفانيا السبعة القاتلة». ويشير التصور الخاص بالاربعة اديان المعتمدة الى ان هذا التطور كان نتيجة لحركة الاصلاح الديني^(١).

والحق ان تاريخ الاصلاح الديني في المجر يتوازي مع الحركة في وسط اوربا بشكل عام. ومن اللافت للنظر ان الشخصية التي كانت تحمي الحركة في اوائها كانت من الهابسبورج، ونعني بها الملكة ماري زوجة لويس الثاني .. فقد كان عدم شعبيتها بين المجرين سببا في صعوبة انتشار تعاليم لوثر في البداية ومن ثم اقتصر فقط على العناصر الالمانية في سلوفاكيا وترانسلفانيا. وفي ترانسلفانيا اصبح يوحنا هونتروس Honterus من مدينة براسوف Brasov رسول اللوثرية الكبير حيث اكتسب المدينة الى الدعوة اولا، وسرعان ما انضمت اليه معظم العناصر السكسونية من السكان. ثم انتشرت الحركة من السكسونيين الى المجرين. ومما جعل التحول الى اللوثرية سهلا ان جون زابولياى على الرغم من بقاءه على المذهب الروماني الكاثوليكي، فانه ابدى عدم تحيز كبير بالنسبة للامور الدينية لسبب بسيط وهو انه نفسه كان قد تعرض للحرمان من الكنيسة باعتباره حليفا للعثمانيين. وعندما

(١) هناك عدد من الاعمال الجيدة تتعلق بالاصلاح والاصلاح المضاد في ترانسلفانيا ولكن قلة منها كتبت بلغات اوربية غربية

نذكر منها ثلاثة اعمال تستحق الاشارة وهي:

Janos Gyorgy Bauhofer, History of the protestant church in Hungary from the beginning of the Reformation to 1850 with special rference to Transylvania, trans. J. Graig (New York, J.C Derby, 1854); John Fosel. Saxons throught Seventeen Century. A history of the Transylvanian Saxons (Cleveland: The Central Alliance of the Transylvanian Saxons, 1936); Earl Morse Wilbur, A history of Unitarianism in Transylvania, England and America, 2 Vols. (Cambridge, Mass; Harvard University press, 1945 - 52).

عادت الملكة ايزابيلا لعرش ترانسلفانيا كانت اغلبية السكان من غير الرومانيين قد اصبحوا لوثريين، على حين ان معظم اصحاب طوائف الحرف والتجار وعائلاتهم ظلوا رومانيين كاثوليك.

وفي ١٥٥٦ ظهرت الكالفينية ليس فقط في المجر حيث اصبحت مدينة دبرسين Debrecen مركزها، ومارتين كلمنشي kalmancsehi المتحدث الرئيسي باسمها، بل لقد ظهرت ايضا في ترانسلفانيا .. ففي ذلك العام (١٥٥٦) نظم كلمنشي أول محاوررة دينية في مدينة كولوزفار-Ko- lozsvár لكن لم يستجب له احد. وبعد ذلك بثلاثة اعوام اى في ١٥٥٩ نجح خليفته بيتر ميلوش - يوهاس Meiusz - Juhasz في تحويل رجال الدين في المدينة الى الكالفينية. ولم يأت عام ١٥٦٤ الا واصبح معظم المجرين كالفينيين على حين تمسك الساكسونيين بمعتقداتهم اللوثرية واقاموا كنيسة منفصلة خاصة بهم.

وفي عام ١٥٦٤ هذا وافق الدايت في ترانسلفانيا على قانون جديد يعطى «اللوثرين في كولوزفار وفي شيبين Szeben» نفس حقوق الرومانيين الكاثوليك. واصبح من حق كل وحدة محلية اختيار عقيدتها الدينية، ومن حق اصحاب العقيدة الأخرى من السكان ان يبقوا في اماكنهم وممارسة شعائر عقيدتهم في حرية. على ان مرسوم التسامح هذا والجدير بالعناية لم ينسحب على الارثوذكس او اليهود او القلة الارمنية. وكل الذى اوجده «ثلاثة عقائد دينية معتمدة تمشي مع الثلاث قوميات». واما العقائد الأخرى فكانت تتمتع بمجرد التسامح دون ان يكون لاصحابها اى حقوق ودون ان يكون لكنائسها او رجال دينها اية امتيازات. ولقد اصبح هذا التطور الملحوظ ممكنا بفضل تعاطف الحاكم جون زيجزوموند الذى كان اللاهوت مثار اهتمامه الكبير، فضلا عن انه تأثر تأثرا كبيرا بالميرال البروتستنتية لمستشاره الرئيسى ميشيل تشاكي Csaki وكذا طبيبه الشخصى جورج بلاندرانا.

وكان بلاندرانا قد اضطر لمغادرة بلده في ايطاليا بسبب معتقداته المضاده للثالوث antitrinitarian حاملا اياها معه الى بولندا ومن هناك تبع ايزابيلا الى المجر وترانسلفانيا. ولم يؤثر فقط على الامير بل على فرنسيس دافيد اسقف كولوزفار الكلفينى والذى عرف في عام ١٥٦٤ بانه موحدا منكرا للثالوث. وهكذا ففي العام الذى «اعتمدت فيه ثلاثة عقائد دينية ظهرت عقيدة رابعة» (منكرة للثالوث).^(١) ولقد صاحب هذا الظهور الجديد مناقشات ومجادلات كثيرة حتى اضطر الدايت الذى اجتمع في توردا Torda في ١٥٦٨ تحت ضغط الامير ان يمنح اعترافا جزئيا «بعقيدة فرنسيس دافيد»، ووضعها في مكانة وسطى بين العقائد المعتمدة والأخرى التى تتمتع بالتسامح (الارثوذكس، واليهود، والارمن). وفي العام التالى اعتنق جون - زجرموند العقيدة الجديدة، وأخيرا وفي عام ١٥٧١ وافق دايت ماروزفزارلى Narosvasarhely على ان يزيد عدد العقائد الدينية المعتمدة الى اربعة. ومالبت الاعتماد ان شمل الموحدين منكرى الثالوث هم الآخرون.

(١) أول وثيقة تستخدم وصف منكر الثالوث unitarian تعود الى عام ١٦٠٠ (انظر وقائع دايت ليشفالفا Leczfalva) واما الكنيسة التى كانت تدعى بهذا المذهب فقد بدأت تطلق على نفسها هذا اللفظ مؤخرا في عام ١٦٣٨.

ولولا ذلك لواجهوا المصير نفسه الذى سبق ان لاقوه فى بلاد ايطاليا وبولندا. والحاصل انه فى ١٥٧١ كان ستيفن باثورى اميرا وكان رومانيا كاثوليكي العقيدة، وشخص قوى قام بدعوة الجيزويت وسمح بحركة الاصلاح المضاد (الكاثوليكي). وعلى الرغم من ان جهود باثورى فى هذا الشأن نجحت بين المجريين الا انه تمسك بالقانون ولم يكره الكنائس البروتستنتية على الخضوع. لكنه حال دون ظهور عقائد دينية اخرى باعلانه ان مرسوم دايت ماورزفرالى جدد للابد العقائد المعتمدة والعقائد المتسامح معها، «وانه لن يسمح بوجود عقائد اخرى فى ترانسلفانيا. وهكذا انطوت «الخطايا القاتلة» للاقليم على الرقم الانجيلي سبعة.

ومن الملاحظ انه بعد باثورى بدأ نوع من التطابق بين القوميات والعقائد الدينية فمثلا كان السكسونيون لوثرين، والسكيليون موحدين (منكرو الثالوث)، والمجريون كالفينيين. ولم يكن من شأن هذا تعميق الشقة او الانقسام بين «القوميات» بدرجة اكثر واكثر، بل لقد وضع حاجز مزدوج فى الطريق الذى كان من الممكن ان يؤدى الى تحسين احوال جمهور الرومانيين. ففي ١٥٧٢ اعترف باثورى بالاسقفية الارثوذكسية القديمة التى كانت قد تأسست فى ألبا ايوليا Alba Iulia وكان وجودها مسموح به فى اطار العقائد المتسامح معها لكن حركة الاصلاح المضاد جعل الاسقفية تمارس وظائفها بصعوبة فقد كان مستحيلا عمليا على تلك الدائرة الاسقفية المضى قدما فى تحسين احوال اتباع العقيدة الارثوذكسية.

والخلاصة انه عندما مات جون - زجزموند كإب الاساس الشرعى القانونى لترانسلفانيا قد تأسس، اذ اصبح لها أمير يتولى شؤونها كان تابعا مرتين، لكنه لم يتعرض للمضايقة من مجلس الامراء أو الدايت، وكانت امارته تخضع لمجموعتين من القوانين وهما: المخطوط الثلاثى والقانون الذى اصدره اميرها الحاكم، ولها اخيرا اسلوب متفرد يحدد الحقوق الاجتماعية والسياسية اعتمادا على الانتماء لاحدى القوميات الثلاث، ولاحدى العقائد الدينية الاربعة المعتمدة. وهذه الاوضاع تتشابه فى غموضها إلى حد ما مع الاوضاع فى سويسرا فى مرحلتها المبكرة عندما كانت تخضع لحكم اوليجاركى، حيث كان يعيش فى جنيف التى تحميها سلسلة من الجبال المان لوثيريون، وايطاليون كاثوليك، وسويسريون كالفينيون. ولكن هناك أيضا اختلافات كبيرة بين الحالتين .. فعلى عكس حال سويسرا حيث كان لكل شخص مكان فى البناء، كان نصف سكان ترانسلفانيا على الاقل من الرومان الارثوذكس تركوا خارج بناء الدولة السياسى والاجتماعى والدينى.

٣- فترة حكم اسرة باثورى ١٥٧١-١٦١٣

بعد وفاة جون - زجزموند زابولياى سيطر على حكم ترانسلفانيا قائمة اسماء باثورى، وراكوشى، Rakoczi، وبثلين Bethlen، وكانوا جميعا باستثناء بثلين اقارب لكل من اسرة زابولياى،

واسرة ياجيللو البولندية Jegiellose. وهذا يفسر لماذا كانت اسرتا باثوري وراكوشى منغمستين دائما فى الشؤون البولندية. وتصور شجرة العائلة الموضحة فى شكل رقم (١) تلك العلاقات^(١).

كان مقدرا لاسرة باثوري ان تصبح اسرة ملكية من خلال شبكة المصاهرات مع كل من أسرتى ياجيللو وزابولياى والتي كانت تعطيهن حق ادعاء العرش باستثناء زجزموند راکوشى، وستيفن بوشكاي Bocskai (اخ غير شقيق لكريستوفر) اللذان حكما قبيل موت جابرييل آخر ملوك أسرة باثوري الذى مات فى ١٦١٣ (انظر شجرة العائلة شكل رقم (١)).

لقد بدأ عهد أسرة باثوري مباشرة بالخير والتفاؤل. كان ستيفن باثوري رجلا على دراية عظيمة بقدرات دبلوماسية وعسكرية هائلة، كما كان حاكما خشنا وطاغية ايضا. وقد امضى معظم سنوات ازدهاره ومجده فى بولندا حيث احتل مكانة وسط ملوك البلد العظام. ولعل من سوء حظ بولندا والمجر وترانسلفانيا ان هذا الرجل مات دون ان ينجب اولادا. وعلى الرغم من ان مكانته فى التاريخ معروفة بما فعله فى بولندا، الا انه كان ايضا قادر على استعادة النظام بسرعة فى ترانسلفانيا بمجرد ان اصبح اميرا عليها. وعلى حين انه حكم الامارة بنفسه فى البداية ثم من خلال اخيه كريستوفر بعد ان انتقل الى بولندا فى ١٥٧٦ ثم اخيرا من خلال ابن عمه زجزموند، الا ان كل شخص كان ينظر اليه باعتباره الامير. ولقد اوجدت مكانته وسمعته عصرا من الهدوء والازدهار تمتعت به ترانسلفانيا لمرة واحدة لم تتكرر فى تاريخها كامارة مستقلة.

لقد رأى المؤرخون المجرىون فى ستيفن باثوري بطلا عظيما ادرك ان «المستقبل العظيم للمجر» بحاجة الى استقلال ترانسلفانيا. كما عرف ان كلا من الهابسبورج والعثمانيين يمثلون خطرا واحدا فى الدرجة والنوع، ولو ان خطر الهابسبورج أشد وطأة. وهذا يفسر لدى هؤلاء المؤرخين لماذا كانت سياسة باثوري الحيادية فى صالح العثمانيين الى حد ما. ومن الواضح ان باثوري كان يتحرك ببراعة ومناورة فائقة بين القوتين العظمتين (الهابسبورج والعثمانيين) محتفظا بالسلام مع العثمانيين من ناحية ويرقب بدأب الهابسبورج من ناحية اخرى. لكن انغماسه فى شؤون بولندا فعليا منذ تولى حكم ترانسلفانيا جعل من الصعب الموافقة على هذا التفسير لسياسته. على انه يجب ان نعترف ان اى بطل مجرى حتى ولو لم يكن طموحا لا بد وان يعارض محاولات الهابسبورج الحصول على عرش بولندا. والحقيقة انه ليس من السهل التعرف على دافع باثوري من وراء تورطه فى شؤون بولندا، ولو انه لم يكن ممكنا ان يتصرف تصرفا آخر تحت نفس الظروف. غير ان تحركاته تتفق كثيرا مع خصائص رجل يتصف بالطموح والدهاء حاول التمكين لنفسه ولاسرتة من عرش بولندا، والمجر، وترانسلفانيا الموحدة موجدا بذلك قوة جديدة ذات اهمية رئيسية فى الشؤون الاوروبية.

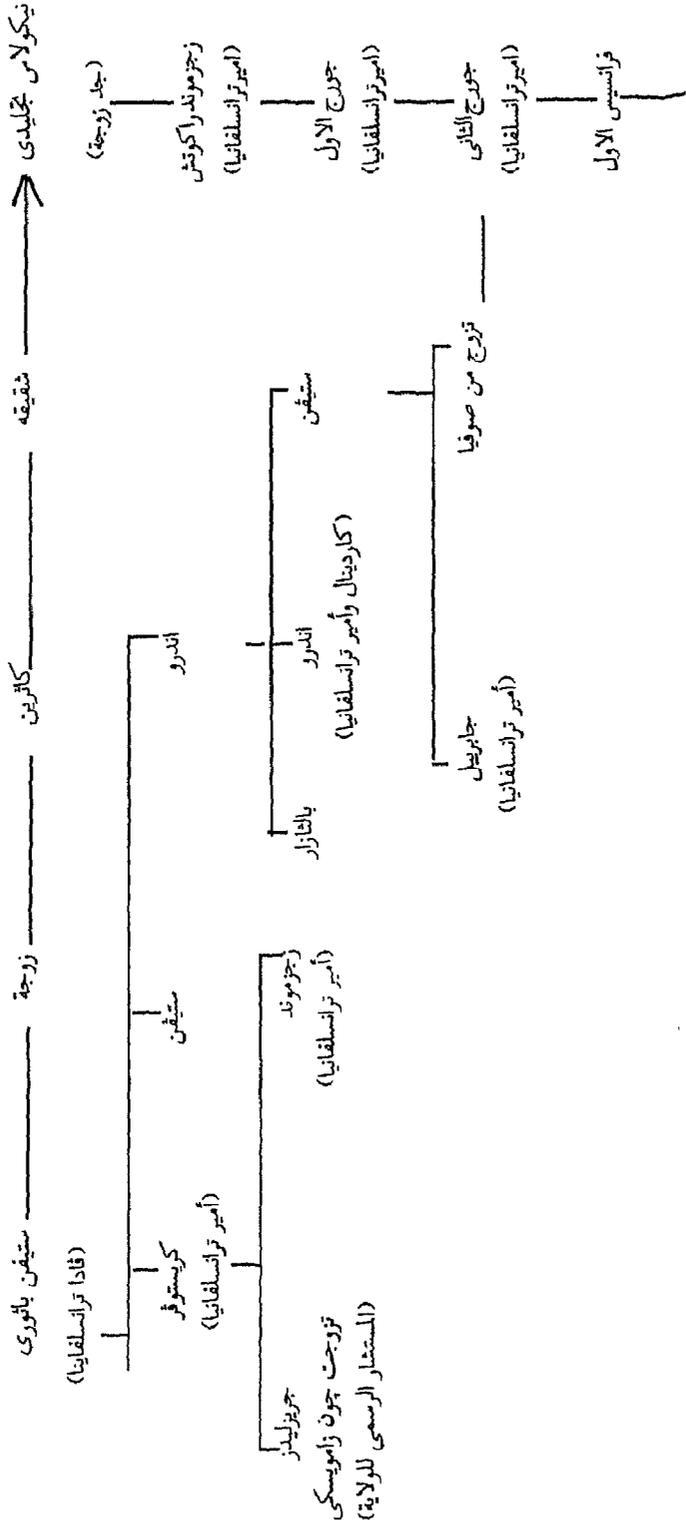
عند وفاة جون - زجزموند زابولياى كان المنافس الاكبر لباثوري على عرش ترانسلفانيا جازبار Gaspar Bekes مستشار الامير الراحل. وعلى هذا فعندما انتخب باثوري أميرا على ترانسلفيا

(١) اعتمادا على صورة شجرة العائلة كاملة كما جاءت فى كتاب

Ladislav Makkai, Histoire de Transylvanie (Paris: Les Presses Universitaires de France, 1946), between pp. 184-185.

شكل رقم (١)

شجرة أسرة باثوري



اثار بيكز تمردا بين السكييليين الذين كانوا مايزالون غير راضين، وقاموا ضد باثورى لكن محاولتهم فشلت. وفور قمع هذا التمرد مات آخر افراد اسرة ياجيللو فى مطلع عام ١٥٧٢. ولما كان مكسميليان يرغب فى عرش بولندا لاحد ابنائه، فقد طالب به احتجاجا بالروابط العائلية. وكان لباثورى هو الاخر - والذى كان قد اقسم يمين الولاء لمكسميليان عندما اصبح حاكما لترانسلفانيا - روابط عائلية مشابهة، ومن ثم اصبح المنافس الحتمى الذى لامفر منه للهابسبورج. ولهذا السبب اخذ مكسميليان جانب بيكز واصبحت الحرب بين الاثنتين المرشحين لعرش ترانسلفانيا امرا لامفر منه عندما انتخب البولنديون هنرى دى فالوا de Valois ملكا عليهم، وسارع بيكز بالذهاب الى فيينا. ولأن الهابسبورج لم يجدوا فائدة من تأييده فقد مضى فى طريقة الى استانبول حيث كان يأمل فى ان يساند العثمانيون مطلبه فى عرش ترانسلفانيا. وفى استانبول احبطت اماله، اذ استخدم العثمانيون وجوده فقط فى رفع الجزية السنوية المقررة على ترانسلفانيا الى ١٥ ألف دوكية. وهكذا أمن باثورى فى ترانسلفانيا لكن الهدوء لم يستمر طويلا.

فى ١٥٧٤ عاد هنرى دى فالوا الى فرنسا واصبح كل من مكسميليان وباثورى مرة ثانية المرشحين الحتميين لعرش بولندا. وقام الهابسبورج بدعوة بيكز الى فيينا وارسلوه الى ترانسلفانيا بتأييد من السكييليين فى اثارة تمرد آخر. على ان باثورى انتصر مرة اخرى واخذ ينتقم انتقاما دمويا من قادة التمرد فيما عدا بيكز الذى فر هاربا. وعاقب السكييليين بالغاء القرارات الخاصة بحرياتهم مما اثار ضغائن وخصومات طويلة استمرت قائمة حتى مات جابرييل اخر اسرة باثورى الحاكمة. وخلال العام التالى وقع فى بولندا الشئ نفسه الذى سبق ان وقع فى المجر عام ١٥٢٦ فقد حدث ان انتخب صغار النبلاء باثورى ملكا فى ١٥ ديسمبر ١٥٧٤ وبعد ذلك بيومين فقط قام اصحاب الحرف والتجار بتقديم العرش نفسه لمكسميليان، ولم يحل دون نشوب الحرب الا موت مكسميليان فى مطلع ١٥٧٦ واصبح عرش بولندا خالصا لباثورى.

وعلى الرغم من ان باثورى انتقل الى كراكاو Kracow ولم يعد الى ترانسلفانيا ابدا، الا ان مكاتته وسمعته هى الشئ الذى كان اخاه كريستوفر بحاجة اليه «لكى يحكم المكان نفسه». وكان كريستوفر الذى كانت له علاقات ممتازة مع ستيفن، رجلا لطيف المعشر ذو شعبية وسط كل القطاعات السكان فى ترانسلفانيا فيما عدا السكييليين. ولقد شارك الترانسلفانيون فى حروب باثورى ضد روسيا وبشكل عام كان البلدان (روسيا وترانسلفانيا) يعملان معا جنيا الى جنب ولسوء الحظ توفى كريستوفر فى ١٥٨١ وخلفه فى الحكم ابنه زجزموند.

كان زجزموند ابن كريستوفر رجلا طموحا يغار من كل شئ ومن كل انسان، ويبدو انه كان مختل العقل او على احسن تقدير غير مستقر ذهنيا. ولما كان خاضعا لتأثير الجزويت فقد اعتبر العثمانيين اعداءه، وكان راغبا فى المشاركة فى حرب صليبية ضدهم، لكنه لقى معارضة شديدة من اولئك الذين اعتقدوا بصواب سياسة عمه العظيم (ستيفن باثورى)، وكذلك عارضه النبلاء البروتستنت الذين كانوا يخشون من ان يؤدى التعاون او التحالف مع الهابسبورج فى مثل هذه الحرب الصليبية، الى تهديد حريتهم الدينية. وقد التقت المعارضة حول بالثازار Balthazar ابن عم

الامير الجديد، ونجحت في طرد جماعة الجزويت من ترانسلفانيا عام ١٥٨٨. ولم يبق منهم الا من وافق على ان يكون قسا علمانيا او دنيويا. كان الفونس كاريللو Carillo؛ الاسباني المولد احد الجزويت الذين بقوا في ترانسلفانيا واصبح ذا نفوذ كبير على حياة الامير (زجزوموند) فقد كان قسيسه الخاص وكاهن اعترافه. اما ستيفن بوشكاي عم الامير زجزوموند فقد كان جنرالا متمكنا وينتمي الى الحزب المؤيد للحرب ضد العثمانيين.

وعلى الرغم من ان الحزب المعارض للحرب بقيادة بالثازار كان يمثل اغلبية في ترانسلفانيا، الا ان مركزه اصبح صعبا عندما اقدم العثمانيون في ١٥٩٣ على شن حملة جديدة ضد المجر كانت البداية لما يعرف «بالحرب الطويلة»، والتي استمرت حتى عقد صلح زيتفتوروك -Zsitvato rok في ١٦٠٦. ومن ناحية اخرى القى البابا عظمته لتأييد اعلان حرب صليبية ضد العثمانيين لكن دون نجاح، واعلن البولنديون ضرورة اتباع سياسة ستيفن باثوري، لكن زجزوموند تحت تأثير هزائم العثمانيين الاولى ارسل كاريللو الى براج للتفاوض بشأن تكوين حلف مع الهابسبورج. غير ان خطته الهجومية باءت بالفشل، اذ ظهرت الحاجة الى ارسال جيشه الى الشمال لمواجهة قوات التتار الذين كانوا يقترحون لمساعدة العثمانيين.. ثم ما كان من انفضاض جنرالاته ومستشاره الرئيسي من حوله مما جعله في سورة غضب هائلة دفعته لأن يتنازل عن العرش لغريمه بالثازار. لكنه سرعان ما غيرا رأيه وعاد لتولى العرش مرة اخرى بمساعدة بوشكاي حيث تخلص من اعدائه شنقا بما فيهم بالثازار.

وهكذا اصبح الطريق للحرب ضد العثمانيين مفتوحا وذهب بوشكاي الى براج هذه المرة حيث توصل الى عقد حلف، كما عثر على ارشيدوقة لتكون زوجة لأميره زجزوموند. وانضمت امارتا الدانوب الى باثوري ونجحت الحملة في بادئ الامر في كل من المجر وولاشيا التي كان اميرها ميهاي فيتايزول معروف بقدرته، ولاشك ان الموقف كان حرجا، فقد اتضح قلق زجزوموند واختلاله في رغبته في التخلص من زواجه، وفي حلمه ان يكون كاردينالا، على حين قام البولنديون الذين كانوا يعارضون اية اتصالات مع الهابسبورج بمهاجمة حلفائه المولدافيين. وادى هذا الى تشجيع السكيليين على التمرد مرة اخرى وارغام جيش ترانسلفانيا على العودة الى بلادهم. وبعد فترة من الراحة قام العثمانيون بالهجوم مرة اخرى حيث نجحوا في احتلال عدة قلاع في المجر، واخيرا وفي اواخر ١٥٩٦ اوقعوا هزيمة ساحقة بقوات الهابسبورج وترانسلفانيا المشتركة في ميزوكريشتز Mezokeresztes. ومرة اخرى فقد زجزوموند هدوءه واتزانه وبعد سنه من المفاوضات تنازل عن العرش في اواخر ١٥٧٩ لصالح الامبراطور رودولف، واصبحت الفرصة سانحة لحزب انصار السلام. لكن بوشكاي تدخل ورتب لعودة زجزوموند للعرش مرة اخرى. وعندما رفض الامبراطور الاعتراف به امير على ترانسلفانيا في ١٥٩٩، تنازل عن العرش لثالث مرة لصالح ابن عمه الكاردينال اندرو باثوري.

على كل حال كان الموقف برمه يدعو لليأس، وفي محاولة للحصول على تأييد لعقد صلح مع العثمانيين تفاوض اندور مع البولنديين للحصول على مساعدتهم. على ان بوشكاي ذهب عائدا

لاقطاعيته في اقليم بيهار Bihar حيث حاول تكوين جيش جديد من المرتزقة المحترفين الذين لا ارض لهم ويعرفون باسم الهايدو Hajdu. ومن ناحية اخرى قرر الهابسبورج تسوية مشكلة ترانسلفانيا للأبد حيث ارسلوا جيشا بقيادة جورج باستا Basta لاحتلال الامارة.. وفي تلك الاثناء وتحت ضغط البولنديين من الشمال والعثمانيين من الجنوب، تحرك ميهاى فيتيازول الى ترانسلفانيا لكي يحول دون احتلال الهابسبورج لها. وانضمت اليه قوات السكيلىين ولم يعد امام الكاردينال من سبيل الا الفرار الى بولندا وفي الطريق اعتقله السكيلىون وقطعوا راسه.

وخلال الخمس سنوات التالية اصبحت ترانسلفانيا مسرحا لمعارك للقوات البولندية والتركية والولاشية وقوات الهابسبورج. وفي وسط تلك الاضطرابات عاد زجرموند الى ترانسلفانيا بمساعدة البولنديين، وتولى العرش مرة اخرى في ١٦٠١ ولكن لاسباب قليلة. وبعد ان تخلص باستا من ميهاى فيتيازول بقى زجرموند في البلاد كمندوب للهابسبورج بالتناوب مع باستا الى ان غادر البلاد نهائيا في ١٦٠٣ واصبحت البلاد التي تركها خربة تحت حكم الجنرال باستا الذى هزم امام موسى السكيلى Moses Szekely بمساعدة الاتراك وسرعان ما انتخب السكيلى اميرا بواسطة اتباعه لكن لم يكن بإمكانه الحصول على تأييد «القوميات الثلاث»، وهنا استطاع باستا بمساعدة ولاشيا من هزيمة السكيلى في نهاية عام ١٦٠٣ في معركة مات فيها السكيلى. وفي العام التالي أصبح باستا سيد ترانسلفانيا المطلق لكنه لم يكن محبوبا جماهيريا.

٤ - آخر الأمراء

أصبحت قيادة المقاومة الان في يد جبريل بيثلن Bethlen وكان شابا صغيرا في الثالثة والعشرين من عمره مختفيا في البلدان العثمانية. وكان يعرف انه لايمتلك الوسائل الكافية ليعمل ويفكر مثل بوشكاي كقائد. ولما كان الجنرال باستا قد ادرك ان الجناح الموالي للهابسبورج قد اصبحت عقيما ولا جدوى منه، فقد رغب في تغيير سياساته، لكنه كان مترددا في الوقت الذى كان يتراسل فيه مع بيثلن. وقد حدث ان وقعت احدى هذه الخطابات في أيدي الهابسبورج ولكن بوشكاي وقد ادرك انه سوف يعتقل، لجأ الى الهايدو واعدا اياهم بالارض في حالة تحقيق النصر. وهكذا ففي اكتوبر ١٦٠٤ هزمت قواته الجيش الملكى الذى ارسل ضده. وعلى هذا منح العثمانيون عرش ترانسلفانيا لبوشكاي بناء على نصيحة بيثلن الذى لم تقتصر عمليات قواته على صد قوات الهابسبورج، بل لقد تحركت ناحية الغرب قدر المستطاع حتى براتزلافا Bratislava (بوشوني Pozsny، برسبرج Pressburg). وفي أبريل ١٦٠٥ انتخب لعرش المجر. لكنه رفض، وشرع في مفاوضات الصلح.

وفي مطلع صيف ١٦٠٦ تم التوصل الى صلح في فيينا حيث اعترف الهابسبورج بمقتضاه بوشكاي أميرا على ترانسلفانيا التي اصبحت تضم اذ ذاك او على الاقل مدة حياته جزءا من

أوكرانيا ناحية جبال كارباتيا وشرقي سلوفاكيا. كما وعد الامبراطور رودولف بمنح الحرية الدينية للمجر، وتعهد بشغل وظائف المملكة بالمجريين. وقد حقق هذان الالتزامان لبوشكاي مكانة عالية في تاريخ المجر. ثم انه اوفى بوعدته للهايبدو حيث وطنهم في السهوب الواقعة في مدينة ديبريسين Debrecen. وعلى هذا وعندما تم التوصل الى صلح مع العثمانيين، كانوا يطالبون بقلعتين وقتنا تحت سيطرة ترانسلفانيا. ولسوء الطالع مات بوشكاي فجأة ودون توقع في ديسمبر ١٦٠٦.

وقبل ان يموت بوشكاي كان قد رشح نبيل سلوفاكيا ليخلفه في الحكم، لكن الترانسلفانيين انتخبوا زجيموند راكوشى Rakoczi وكان الغرض الرئيسى من انتخابه، قطع الطريق على ادعاءات جبريل باثورى في العرش، والذي كان في السابعة عشرة من عمره آنذاك. وهنا تأزم الموقف مرة أخرى لأن حكومة المجر الملكية طالبت بعودة الاراضى التى كانت قد ضمت لترانسلفانيا مدة حياة بوشكاي، وحصلت عليها بالفعل. وتعامل المجريون بفظاظة وقسوة مع تجمعات الهايدو الذين تمردوا واتصلوا بجماعة باثورى. وتحقيقا للسلام تنحى زجيموند راكوشى عن العرش ١٦٠٨ لصالح جبريل باثورى.

بدأ حكم آخر أسرة باثورى (جابريل) بداية جيدة، فقد كان يتمتع بشعبية واضحة، ونجح في تسوية مشكلات الهايدو والسكيليين. وعقد معاهدة مع الهابسبورج أصبحت بلاده بمقتضاها غير ملزمة بالدخول في حرب مع الاتراك. ولكن لسوء الحظ كان جابريل باثورى شابا لعبوا مولع بالنساء، كما كان مضطرب غير مستقر متقلب المزاج شأن زجيموند باثورى، وتنقصه اى حنكة سياسية. كما لم يكن يدرك مدى جسامة الاصلاح الكاثوليكي المضاد في المجر وبصفة خاصة ما كان يحمله من عدوانية، فضلا عن أنه لم يكن مستعدا كلية لمواجهة مؤامرات الكاثوليك المجريين، ونبلاء ترانسلفانيا الكاثوليك، وايضا رادو زربان Radu Serban أمير ولاشيا الى ان أقدموا على محاولة فاشلة للتخلص منه. وعند ذاك قام بمصادرة ممتلكات كل النبلاء الكاثوليك، وطرد آخر رجال الجيزويت في ١٦١٠ فانار بذلك كل من المجريين والبولنديين. وحتى تصبح الأمور أكثر سوءا، انهم الساكسونيين بالتعاطف مع الهابسبورج، وبادر باحتلال سيبيو Sibiu، وأبطل كل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات وصادر ممتلكاتهم. وعندما «تحقق» له ما اراد، أرسل قوات الهايدو الى مولدافيا، فقام الاتراك بالهجوم على اراضى الهايدو مما اضطر الهايدو الى التراجع من مولدافيا. ومالبت ان أحاط به الاعداء من كل جانب، ولم يبق أمامه الا الدفاع عن نفسه فى سيبيو الساكسونية المعادية له. وفى تلك الاثناء قام الاتراك بتغيير خططهم لسبب لايتعلق بالموقف فى ترانسلفانيا مما أدى الى انقاذ حياة باثورى.

والذى حدث ان الساكسونيين بقيادة ميشيل فيس Weiss حاكم براصوف، كانوا يرتبون تمردا انضم اليه بعض السكيليين. وقد قاد حركة التمرد انتونى غيشى Ghyczy (انطال Antal) أقرب صديقى للامير باثورى، وكان شخصا فاسدا لا فائدة منه، وبالتالي تمكن باثورى من القضاء على التمرد الذى انتهى بموت فيس. ولكن عدم توازن جبريل باثورى واختلاله النفسى كما سبقت

الإشارة، دفعه لأن يشق زعيم الهایدو، بل وتخلص من جبريل بيثلن الذى كان الشخص الوحيد التقدير حوله ، ووضع مكانه الخائن غيشى. وقرر إعادة حقوق الساكسونيين مرة أخرى، لكن الوقت كان متأخرا، اذ تحرك ضده بيثلن على رأس قوات بمساعدة الأتراك. وهنا بادر غيشى الذى أدرك اقتراب الخطر باغتيال باثورى فى اكتوبر ١٦١٣، ومالبث ان شنق غيشى بأمر جابرييل بيثلن الأمير الجديد.

بتولى جابرييل بيثلن العرش بدأ «العصر الذهبى» الثانى لترانسلفانيا والذى استمر حتى مات خليفته جورج الاول راكوشى فى ١٦٤٨. وكان الاثنان يتصفان بالقدرة العسكرية والادارية، واصبحا من الشخصيات المهمة فى التاريخ الاوروبى اذ حاربا الى جانب البروتستنت فى حروب الثلاثين عاما الدينية. ولايمكن بحال من الاحوال انكار قدراتهما واهميتهما فى التاريخ. ولايعنى هذا قبول ادعاء المؤرخين المجريين بان سياسات كل من الرجلين انقذت البروتستنتية المجرية، أو حتى انقذت وضع المجر الخاص فى دائرة الهابسبورج المتنامية. ولاشك ان دوافع كل منهما تحوطها الشبهات بسبب عقيدتهما الدينية من ناحية، وبطولتهما بالنسبة للمجر من ناحية أخرى، اذ كان لكل منهما خططا وتصورات تتعلق بعرش المجر وبولندا وحتى موالدفيا وولاشيا، وكانا شأن باثورى العظيم ستيفن، يحلمان بامبراطورية كبيرة فى وسط أوروبا. ولايمكن بالتالى تفسير كل خطواتهما وسياستهما الا على هذا الأساس. فاذا ما وضعنا فى الاعتبار الموقف الاوروبى العام وما كانا يتمتعان به من قدرات خاصة، أدركنا كم كانا ناجحين وموقفين على الرغم من انهما لم يحققا كل ما كانا يتوقان اليه. ورغم ان بيثلن انتخب ملكا على المجر الا انه كان من الحكمة والدبلوماسية بحيث لم يسمح بان يتوج ملكا، بل انه انتهب الفرصة للحصول على تنازلات كبرى من الهابسبورج فى صلح نيكولزبورج Nikolsbourg فى ١٦٢١. وكان لكل من الاميرين نفوذا عريضا فى امارتى الدانوب، بل ويتحالف مع حكاهما، وبالتالى لم يكن باستطاعه العثمانيين اتخاذ اجراءات فعالة لمنع هاتين القوتين من التأثير على «اتباعهما» فى امارتى الدانوب.

ولقد احتذى هذان الترانسلفانيان (جابرييل بيثلن وجورج الاول راكوشى) نموذج جابرييل باثورى فى مصادرة الاقطاعيات. وبهذا الاسلوب اصبحا من الاغنياء، واستقلا كلية عنها وعن الدايت، واصبح فى امكانهما ادارة شؤون بلادهما بالطريقة التى يريان انها مناسبة. وكان معظم جنودهما من المرتزقة يدفعون لهم مرتبات من ريع اقطاعياتهما الواسعة. وقد حقق لهما هذا الاسلوب الأمان، وأغنى السكان من الخدمة العسكرية على الأقل. وكانا، وخاصة بيثلن، مهتمان بالثقافة والاقتصاد، فانتعشت تحت حكمهما السياسة المركنتيلية فى ترانسلفانيا، مما ساعد على زيادة دخل الامارة، كما انتعشت التجارة مع امارتى الدانوب. وعندما جورج الاول راكوشى كانت ترانسلفانيا ارضا ثرية. ولأن الجميع كانوا يعتبرونها مستقلة، فقد كانت قوة يحسب حسابها فى كل البلاطات الاوروبية.

ولكن .. تغير كل شئ فجأة فى عام ١٦٤٨، اذ اطلق صلح وستفاليا يد الهابسبورج على الاقل وقتيا ومات جورج الاول وخلفه ابنه الذى كان متعصبا دينيا، واستعادت الامبراطورية العثمانية

قوتها وتأثيرها بين القوى. وأما الحوادث التي غيرت من مستقبل ترانسلفانيا فقد بدأت بتمرد القوزاق بقيادة بوجدان هملنشكى Bogdan Hmelniczki الذي تحالف مع فازليه لوبو ضد ماتاي بازاراب Basarab المعروف اسما بتابع جورج الثاني راكوشى. وكانت مشكلة القوزاق تسيطر على اهتمام راكوشى حتى عام ١٥٦٥ عندما هاجم تشارلز جوستاف ملك السويد بولندا. وهنا استغاث البولنديون براكوشى، لكنه كبروتستنتى فاضل قدم مساعده للسويد. وفي يناير من العام التالى (١٥٦٦) دخل الاراضى البولندية على رأس قواته، على امل الحصول على عرش بولندا. وفي تلك الاثناء كان يتولى منصب الصدارة العظمى فى الامبراطورية العثمانية محمد كوبرللو أول وأعظم آل كوبرللو الذين تولوا هذا المنصب، حيث امر راكوشى بالانسحاب من بولندا والعودة الى بلاده. غير ان جورج الثاني تجاهل أوامر الصدر الاعظم، واستمر يحارب فى بولندا حتى وجد نفسه دون حلفاء لانسحاب ملك السويد عندما تعرضت بلاده لهجوم الأتراك، واضطر جورج للانسحاب فى النهاية بعد ان دمر البولنديون وتآثر القرم جيشه، واصبحت البلاد فى حالة هيجان ضده عندما وصل مرسوما سلطانيا من استانبول بعزله، وتولية فرانسيز ريدي Rhedei الذى كان طاعنا فى السن، على أمل أن يموت معطيا الفرصة للاتراك لنسيان غضبهم مما حدث، حيث سمحوا لراكوشى باستعادة العرش مرة اخرى. ولم يستطع جورج الانتظار، ففى ١٦٥٨ عاد الى ترانسلفانيا من موقعه فى سلوفاكيا، فى الوقت الذى جهز الصدر الأعظم محمد كوبرللو جيشا ضده وطلب من تاتار القرم حماية هجومه من جهة الشمال. وكان احتلال هاتان القوتان للامارة بداية لانهاية ثروتها الاقتصادية بشكل سريع. وهنا شرع أكوز بركشى Akos Barcsai القيادة السياسية البارزة فى ترانسلفانيا فى الدخول فى مفاوضات مع كوبرللو حيث وافق على دفع تعويضات عن الحرب، وجزية سنوية مقدارها ٤٠ ألف دوكية، وأجلس على عرش الامارة بمعرفة الصدر الأعظم، وفى ١٦٥٩ حاول جورج استعادة عرشه مرة أخرى الا ان محاولته باءت بالفشل، ولم ينتج عنها الا هجوما تركيا جديدا وتخریب واسع، بل وموته فى المعركة عام ١٦٦٠.

ولقد حاول خليفته كيمنى Kemény محاربة الأتراك لكنه هزم هو الآخر، وقام الاتراك بتعيين ميشيل الأول آبافى Apafi. وكان عهد آبافى طويلا بائسا فى بلاد خربتها الحروب المتصلة وسادتها الانشقاقات الحزبية، وتفشت فيها المؤامرات السياسية، وكان الأمير الحاكم نفسه يتأرجح بين السياسات الموالية للاتراك والموالية للهابسبورج. لكنه اختار ان يكون مواليا للأتراك فى أسوأ لحظة ممكنة فى عام ١٦٨٣، عندما نجحت انتصارات تشارلز اللورينى العظيمة فى استخلاص المجر من الحكم التركى حيث لم يكن أمامه سوس معاهدة بلاى Blaj (بالا: فالفا Balazsfalva وبلا: زندورف-Blasen dorf) فى ٢٧ أكتوبر ١٦٨٦. وقد أتاحت له هذه المعاهدة الاحتفاظ بامتيازاتها ولكنها أرغمت اهالى ترانسلفانيا على قبول «حماية» ليوبولد الاول (١٦٥٧ - ١٧٠٥). وقد تضمنت هذه التبعية الجديدة ادخال حاميات عسكرية للهابسبورج فى قلاع وحصون ترانسلفانيا، ودفع جزية سنوية مقدارها مائة ألف دوكية، وهى أكبر بكثير مما كان يطلبه العثمانيون. ولقد صدق دايت ترانسلفانيا على هذه المعاهدة وأعلن عودة ترانسلفانيا الى المجر.

قام الامبراطور ليوبولد بارسال الجنرال انطون كارافا Caraffa الى ترانسلفانيا مندوبا امبراطوريا. وبناء على ذلك فقد كل من الامير آبافى ومجلس النبلاء والدايت كل السلطات، وعاشت ترانسلفانيا حياة البلد المحتل، وعندما مات آبافى فى ١٦٩٠ قام العثمانيون بتعيين ايمرى توكولى Imre Tokoli أميرا على ترانسلفانيا، على حين انتخب الدايت ميشيل الثانى آبافى. وقد استطاع توكولى دخول الامارة والبقاء فيها قرابة شهر قبل ان ترغمه القوات الامبراطورية على الفرار. أما آبافى فلم يصدق الامبراطور ليوبولد الاول على انتخابه، وظل فى أحسن الاحوال أميرا اسميا، يعيش شبه سجين فى فيينا حتى وفاته فى ١٧١٣. على ان غزو توكولى لم يمر دون نتائج، اذ كانت الحرب بين العثمانيين والهابسبورج مستمرة، وكان هناك احتمال لنصر تركى غير متوقع مع تغير فى موقف ترانسلفانيا فى الوقت نفسه. ولهذه الأسباب كان ليوبولد الاول مستعد للتباحث مع نيوكولاس (ميكولوس Miklos) بيثلن، والذى كان دايت ترانسلفانيا قد أرسله ممثلا له. وفى ٤ ديسمبر ١٦٩١ صدرت «وثيقة ليوبولد» Diploma Leopoldinum كمحاولة لضمان الولاء الدائم لاهالى ترانسلفانيا. وكانت هذه الخطوة تتفق ليس مع ما كان فى ذهن بيثلن واصدقائه، بل كانت تتفق ايضا مع سياسة ليوبولد الاول. وفى ١٦٩٠، ١٦٩١ أصدر الامبراطور وثائق مماثلة لأهالى الصرب الذين سارعوا بدخول جنوبى المجر فى اعداد كبيرة بمجرد ان دعاهم لذلك.

وعلى الرغم من ان العثمانيين لم يكفوا عن مطالبتهم بالسيادة على ترانسلفانيا حتى تم توقيع صلح كارلوفيتش Karlovtci فى ١٦٩٩، الا ان «وثيقة ليوبولد» أنهت فى الواقع استقلال ترانسلفانيا وأوجدت اطارا سياسيا لوجودها داخل مجال الهابسبورج ظلت فيه دون تغيير حتى عام ١٨٤٨. ولقد اعادت الوثيقة تأكيد «الخطايا السبع القاتلة»، وامتيازات «الثلاث قوميات»، والوضع الخاص «للعقائد الأربعة المعتمدة» داخل اطار امارة مستقلة لم تعد متحدة مع المجر. كما اعترفت الوثيقة بالقباب ووظائف المسئولين، كما حددت دور «القوات الخارجية» بالاقتران على تمركز طبقة من العسكريين الامبراطوريين فى ترانسلفانيا. كما أكدت على دفع الجزية السنوية ومقدارها مائة ألف دوكة للخرينة الامبراطورية وان اصبحت تدفع فى شكل ضرائب. على ان ليوبولد استمر فى معارضة انتخاب ميشيل الثانى آبافى اميرا على ترانسلفانيا، وعين مكانه جورج بانفى Banffy محافظا يحكم باسمه. وعندما حمل خليفته جوزيف الاول (١٧٠٥ - ١٧١١) لقب امير ترانسلفانيا، اصبحت دور المحافظ governor ممثلا لمنصب القادا قبل عام ١٥٢٦. ومع هذا لم يستطع اولئك المحافظون (الحكام) تحقيق الاستقلال والقوة التى كان يتمتع بها القادا. وعلى الرغم من ان الدايت استخدم حقوقه فى انتخاب الأمير مرة أخرى عام ١٧٠٥ بانتخاب فرانسيس (فيرنس Ferenc) الثانى راكوش الذى قاد يوما ما تمردا ضد الهابسبورج، الا ان هذا الحقيقة لم تغير الموقف الذى تأسس بمقتضى وثيقة ١٦٩١.

ان تاريخ ترانسلفانيا كأمارة مستقلة هي قصة الفرص السياسية الحزينة الضائعة، فالسيادة العثمانية عليها كانت أخف من تلك التي كانت على امارتى الدانوب. ولم تصل الجزية السنوية المفروضة عليها ٤٠ ألف دوكية الا فى عام ١٦٥٨. وبمقارنة هذا المبلغ بما كانت تدفعه مولدافيا وولاشيا (امارتا الدانوب)، نجد ان ماكانت تدفعه ترانسلفانيا، لا يعد شيئا ذا قيمة. وأكثر من هذا فلم تحمل ترانسلفانيا بضرائب خاصة، كما لم تكن بحاجة الى رشوة استانبول باستمرار كما كانت تفعل الامارتان الواقعتان الى شرقها. كما لم تكن مضطرة الى «توجيه صادراتها» باحجام محددة واسعار ثابتة للسلطنة العثمانية. وعلى هذا استطاعت ترانسلفانيا ان تحقق رخاء اقتصاديا تحت حكم كل من ستيفن باثورى، وجابريل بيثلن، وجورج الاول راكوتش. وأخيرا وعلى النقيض من مولدافيا وولاشيا لم يحدث ان تدخل العثمانيون فى شؤون ترانسلفانيا الا عندما خاض امراؤها وخاصة زجروند باثورى وجورج الثانى راكوش، غمار مغامرات كانت تهدد بالفعل مصالح السلطان العثمانى، وقد أتاحت للامارة فرصة تشكيل مصيرها بدرجة أكبر مما كان متاحا لامارتى الدانوب التابعتين للعثمانيين، بل واستخدمت ترانسلفانيا بمهارة ملحوظة السيادة العثمانية فى اتصالاتها الهابسبورج. ومن ناحية اخرى كان تدخل الهابسبورج سواء فى شكل التوسع الاميرالى، أو فى شكل حركة الاصلاح الكاثوليكي المضاد، كان يعد أكثر خطرا من تدخل العثمانيين فيما لايعنيهم من شؤون ترانسلفانيا. ومع هذا فلم يحدث ان وجهت قوات الهابسبورج بكاملها تجاه ترانسلفانيا، ذلك ان كثرة الاهتمامات الاخرى للعائلة الامبراطورية، والانشاقات داخل الاجنحة المتعددة فى البيت الملكى للمجر، حال دون تركيز الهابسبورج لقواتها ضد ترانسلفانيا، بل انه رغم امكانية مواجهة هذا الخطر، الا ان الهابسبورج تعاملوا مع هذا الوضع بنجاح ملحوظ.

وأما على المستوى الاقتصادى فلم يكن لترانسلفانيا مصادرها الطبيعية فقط شأن مولدافيا وولاشيا، بل لقد استمتعت مدنها وطبقتها البورجوازية بحرية الحركة والعمل بدرجة اكبر مما كان عليه الحال فى مولدافيا وولاشيا. وكان ضمن سكان المدينة الساكسون الذين كانت لقدرتهم الاقتصادية وحسن درايتهم بالأمر أمر لامثيل له فى بلدان شرق اوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولقد اصبحت اراضيهم التي عهد بها اليهم لأسباب دفاعية، مراكز اقتصادية عندما تسبب الاحتلال العثمانى لوسط المجر فى ارغام تجارة ترانسلفانيا على التحول ناحية الشرق. وكانت التجارة مع امارتى الدانوب، والتي كانت تتم بشكل رئيسى من خلال المدن الساكسونية بواسطة الساكسونيين والرومانيين، وغيرهم من تجار البلقان، قد زادت بشكل ملحوظ مما نتج عنه ارتباط تلك الاراضى بعضها ببعض، مما ساعد جابريل بيثلن فى اقامة سياساته المركنتيلية الناجحة جدا.

كانت علاقات ترانسلفانيا بامارتى الدانوب كما سبق ان رأينا، أوسع نطاقا من مجال التجارة البسيطة فاذا ما وضعنا فى الاعتبار الموقع الجغرافى والمشكلات المشتركة بين الامارات الثلاث (ترانسلفانيا، ومولدافيا، وولاشيا) أدركنا ان التعاون السياسى والعسكرى بينها أمر لم يكن بالامكان تخايشه، رغم ان هذا التعاون لم يستغل الاستغلال الصحيح من أى من الامارات الثلاث. ورغم ان



عدم استقرار احوال امارتى الدانوب كان يعزى الى حد كبير لنقص مغزى هذا التعاون السياسى، فمن الملاحظ ايضا ان ترانسلفانيا التى كانت أكثر استقرارا لم توفق هى الاخرى فى وجود قيادة نشطة .

على انه لا ينبغي القاء تبعه خضوع كل من مولداڤيا وولاشيا لحكم عناصر رومانية، وخضوع ترانسلفانيا لحكم مجريين على نقض هذا التعاون المنشود. فمن المعروف ان القومية لم تكن قوة لها وزنها خلال فترة البحث، وعلى الرغم من حقيقة ان الدوائر الحاكمة الترانسلفانية كانت تنظر باحتقار لأقنانهم الرومانيين. فلم تكن هناك «كراهية قومية» متبادلة من الجانبين كانت تحول دون التعاون بينهما على المستويين السياسى والعسكرى.

ويمكن القول ان كثيرا من أمراء شرق اوربا كانوا ينظرون الى اراضيهم كنواة لدولة قوية مسيحية غير هابسبورجية. واذا كانت الفرصة قد أتتحت لاي منهم للقيام بهذا الدور، فقد كانت متوفرة بالفعل لامراء ترانسلفانيا، لكنها ضاعت. فاذا ما تساءل أحد عن أسباب ضياع الفرصة، فان الاجابة ليست بالأمر السهل.

والحق انه رغم وجود ثلاثة فقط من السبعة «خطايا القائلة» فى ترانسلفانيا عندما بدأت وجودها المستقل، الا انها لم تستطع تجنب وجود بقية السبعة خطايا باى حال من الاحوال، لا ان تعمل على انقاص عددها. كما كان وجود «القوميات الثلاث» بما لكل منها من امتيازات ومصالح مختلفة بشير الى التوجه نحو بناء اجتماعى تعددى آنذاك. وقد أخذ هذا الاتجاه فى النمو الى أن أقدم ستيفن باثورى على تثبيت عدد العقائد المعتمدة فى الامارة بأربعة عقائد ومنع التعددية. وعند ذلك فقط، أصبح النظام الاقطاعى فى أسوأ أشكاله مؤسسا بشكل مؤكد فى ترانسلفانيا. واستخدم الامراء حقوقا تقليدية كانت سائدة قبل الاقطاع تأكيدا لقوتهم على حساب «القوميات الثلاث» وعلى حساب مجالس الدايات.

ويشير العرض الموجز السابق الى نقيصتين أساسيتين فى البناء الاجتماعى - السياسى الداخلى لترانسلفانيا. وتتلخص الاولى فى السهولة التى مكنت الامراء من التلاعب «بالقوميات الثلاثة»، وضرب كل منها بالآخر. ففي مولداڤيا وولاشيا وبولندا والمجر الملكية، كان الحكام يواجهون قوة واحدة، ألا وهى طبقة النبلاء. ورغم ان هذه الطبقة كانت منقسمة الى أكثر من جناح، الا انها كانت تتفق جميعا على شىء واحد، الا وهو حماية وضعهم داخل بناء الدولة بما يحفظ استمرار امتيازاتهم، وما ينتج عن ذلك بطبيعة الحال من تحديد سلطة الحكام وتقييدهم. وفى ترانسلفانيا كان الحب مفتقدا بعض الشىء بين «القوميات الثلاثة»، وكان الامراء يعتمدون على تأييد واحدة من تلك القوميات او اثنتين عندما يتحركون ضد الآخرين. وباختصار كانت ترانسلفانيا مجتمعا قبل اقطاعى واقطاعى فى آن واحد. لقد حال عدم وجود طبقة عليا متحدة اتحادا حقيقيا دون تطبيق نظام صحيح وتلك حقيقة. ولقد كان نقص مثل هذه الوحدة سببا فى اعطاء أعدائها وخاصة الهابسبورج، فرصة العثور على العناصر المتمردة واستمالتها، مما أضعف من قدرة ترانسلفانيا على

توجيه كل طاقاتها في الطريق المناسب.

أما النقيصة الثانية فكانت تتمثل في استبعاد السكان الرومانيين استبعادا تاما من مفهوم « الأمة السياسية» Political nation، وعلى حين ينبغي رفض تفسير المشاعر «القومية» هنا، فإن التفرقة العنصرية بين السكان على أساس الفروق الاثنية، كانت تنمو نموا ملحوظا وخاصة وقد اضافت الاختلافات الدينية ابعادا جديدة الى اختلافات السياسية والاقتصادية. ففي كل مكان كان القرن Serf يعتبر كائنا وضيعا، لكنه عندما يتكلم لغة مغايرة للغة سيده ويذهب الى كنيسة غير التي يذهب اليها سيده، تصبح الهوة بينهما اعرض من ان يتم اجتيازها بسهولة. وباستثناء الاستقلال الاقتصادي، كان ذلك مصير القرن في كل مكان. ولم تكن ترانسلفانيا تهتم ابدا بسكانها الرومانيين، وتبعاً لذلك كانت تعمل بتأييد من نصف سكانها فقط. ولم يحدث الا في في عهد جورج الاول راكوتشي فقط أن أثرت مصالح الأمراء عند الرومانيين، الا ان الوقت كان متأخرا.

وحتى جورج الاول هذا كان أكثر اهتماما بالشؤون الخارجية عن المشكلات المحلية. وكان انغماس اولئك الامراء من الحكام المطلقين في الشؤون الخارجية وراء ضياع الفرصة في بقاء ترانسلفانيا مستقلة، اذ دخل كل امراؤها الحروب. وعلى حين كانت حروب جون زابولياى دفاعية أساسا للاحتفاظ بالعرش، كانت حروب كل خلفائه عدوانية أساسا. وفي هذا الخصوص فان حكاما غير ذى كفاءة ومقدرة أمثال زجزموند، وجابرييل باثورى، وجورج الثانى راكوتشى، لم يكونوا يختلفون عن الحكام ذوى الكفاءات والقدرة مثل ستيفن باثورى وجابرييل بيثلن وجورج الاول راكوتشى.

ولدى المؤرخين وخاصة المجرين أسبابا كثيرة تفسر هذه الحروب المتصلة، من ذلك ان امراء ترانسلفانيا وقد أدركوا ان بلادهم تقع بين العثمانيين والهابسبورج والبولنديين، وان كانت في وضع أفضل من مولدافيا وولاشيا، فانهم فهموا بالتالى ان قدرهم يفرض عليهم ان يقودوا نضال شعوب جنوب شرقى أوروبا. ولقد ركز هؤلاء المؤرخون على الأسباب الدينية فى شرح وتفسير حروب ترانسلفانيا، وأشاروا أكثر من مرة للروح المجرية الوطنية لامراء ترانسلفانيا، وأبرزوا حقيقة ان تلك الحروب حالت دون خضوع التاج المجرى دينا وسياسيا لسلطة الهابسبورج المتفوقة، ورغم ان هذه الحجج فيها كثير من الصدق والحقيقة. فانه لاينبغي ان ننسى ان عائلتى بيثلن وراكوتشى لم تكونا ترانسلفانية، وان ممتلكاتهما الأصلية كانت تقع فى منطقة البارتيوم Partium، ومن هنا كانتا مهتمتان بعمق بالامور الخاصة بمملكة المجر.

ومهما يكن من أمر صحة هذه الحجج، فانها لا تفسر فى رأينا سلوك امراء ترانسلفانيا. فكما كان هؤلاء الامراء يستهدفون تحقيق قوة شاملة على حساب «القوميات الثلاث» فى البلاد وقد نجحوا فى ذلك، فقد كانوا يتوقون لتحقيق هدفا مطلقا مشابهها فى الشؤون الخارجية يخرج بهم عن نطاق ما تتطلبه الأغراض الدينية والمحلية لترانسلفانيا. أما هذا الهدف الخارجى الذى كان مستمرا، فكان يتلخص فى رغبتهم فى ايجاد دولة كبرى فى النهاية تشمل المجر وبولندا ومولدافيا وولاشيا،

بالإضافة طبعا الى ترانسلفانيا. وقد أدى الذهاب بعيدا عما تقتضيه الظروف الموضوعية للإمارة دينيا وسياسيا، والتشبيث بسياسة امبريالية، الى اضعاف القاعدة الأساسية لقوة الامراء، ألا وهي ترانسلفانيا نفسها وجعلها تعجز حتى عن ان تكون نواة لولاية مستقلة ناهضة في جنوب شرقي اوربا.

وعلى الرغم من ان الطموح الشخصى والرغبة فى تأسيس ملكية تلعب دورا مهما بالتأكيد فى هذه السياسة المتعاطمة لامراء ترانسلفانيا، فانه لاينبغى ان ننسى ان اولئك الامراء ايضا بدأوا حكمهم من خلال «ميراث» لم يكن باستطاعتهم نسيانه. فمثلا كان زابولياى الذى خلفوه فى حكم ترانسلفانيا واليه ينتمى خلفاؤه الاول، انتخب ملكا على المجر، كما كان لحكام الإمارة من أسرة باثورى ادعاءات غامضة فى عرش المجر. وبعد ان اصبح ستيفن باثورى ملكا على بولندا، اعتقدت أسرته وكذا أقرباء أسرة راکوتشى أن لهم حقا فى عرش مملكة المجر ايضا. والحق انه لم يوجد من بين امراء اوربا فى تاريخها الحديث من طرح جانبا فكرة المطالبة بالتوسع فى الاراضى المجاورة له، ولم يكن امراء ترانسلفانيا استثناء لتلك القاعدة بطبيعة الحال. وكان لطموح اولئك الامراء ماكان يعرف بالميراث الشرعية. وفى سنوات الحروب الدينية كانت تلك المبررات فى مستوى الهدوء النسبى للامراء الذين مارست بلادهم قدرا من التسامح الدينى أكثر من غيرهم. وبإضافة تلك الظروف الى التفسيرات التى قدمها المؤرخون والتى سبقت الاشارة اليها، يمكن فهم سياسات أسرة باثورى وبيثلن وأسرة راکوتشى فهما أفضل.

وتبقى نقيصة أخرى أساسية، ألا وهي أنه حتى الامراء ذوى المقدرة اعتمدت ايضا اهدافهم الشخصية عن ادراك انهم لايملكون القوى الكافية. وان سياساتهم اضعفت قاعدتهم الاساسية (اى ترانسلفانيا نفسها) بحيث اصبحت عاجزة عن ان تقوم بالدور المطلوب. لقد كان سوء التقدير والرغبة فى القوة سببا فى تدمير قوة «القوميّات الثلاث» واطعاف اى تماسك للمشاعر الترانسلفانية من جانب السكان. كما كان وراء ضعفة الوضع الاقتصادى لترانسلفانيا والذى بدا واضحا بعد أول هزيمة حقيقية وقعت أيام جورج الثانى راکوتشى، والذى ترك البلاد دون اى قدرة على استرداد ما كان، وقاد الأمور بسرعة الى نهاية وجودها كأمانة مستقلة.

اذا وضعنا فى الاعتبار موقف العثمانيين تجاه ترانسلفانيا، وعجز الهابسبورج عن حشد القوة الكافية لكبح جماحهم، والثروة الاقتصادية الأساسية للبلاد، أدركنا ان الإمارة كانت مرشحة لدور بيدمونت بالنسبة لجنوب شرقي أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. غير أن سياسات أمرائها جعلت هذا الاحتمال أمرا غير مكن، وأورثها لمستقبل من الفقر والانقسام. وعلى الرغم من ان الملكية المجرية كسبت من هذه السياسة فيبقى السؤال الخاص .. ما اذا كان هذا المكسب قد أرضى المجرين فى ترانسلفانيا تاركين العناصر الأخرى من السكان وحدهم يبرر بدرجة كافية التضحيات التى قدمت؟. والاجابة على ضوء فهم الماضى بعد حدوثه تكون بالنفى، خاصة عندما يضع المرء فى اعتباره الفرص التى لم تستغل الاستغلال الصحيح، بل أهملت لصالح سكان مملكة المجر على حساب اولئك الذين يعيشون فى ترانسلفانيا.

الفصل الثامن

دوبروفنيك (راجوزا)

١ - خليفة تاريخية

في ١٩٠٤ كتب لويجي فيلاري Luigi Villari أحد الباحثين الإيطاليين كتابا عن تاريخ دوبروفنيك مايزال يحتفظ بقيمته وفائدته حتى الآن. ولقد عبر فيلاري عن الزواية التي كانت تهمة في هذه الدراسة من خلال العنوان الفرعي للكتاب الذي جاء تحت عنوان «حلقة في الانتصار التركي». وفي معالجته لهذه الزواية يركز تركيزا شديدا على العلاقة بين دوبروفنيك والعثمانيين، لأنه بانعقاد أول معاهدة بين الطرفين في ١٤٥٨ كانت المدينة - الدولة الدلماشية (دوبروفنيك) قد استكملت جوانب تطورها وأصبحت أعظم قوة اقتصادية في البلقان.^(١) كانت دوبروفنيك واحدة من عدة مدن - موانئ على ساحل دلماشيا تشمل مدن: سبليت Split (سبلاطو Spalato)، وزادار Zadar (زارا Zara) وسبينيك Sibenik (سبنيكو Sebenico)، وكوتور Kotor (كاتارو Cattaro)، وتروجير Trogir (تراو Trau) والتي احتفظت بعلاقات وثيقة طوال عدة قرون مع أوروبا الغربية وخاصة إيطاليا. وقد عاشت تلك المدن على الملاحة والتجارة والصناعة، وكانت بمثابة الأبواب التي دخلت منها المؤثرات الثقافية الغربية إلى البلقان اثناء الحكم العثماني. وكانت دوبروفنيك أكثر هذه المدن أهمية ثقافيا واقتصاديا، كما كانت الوحيدة التي بقيت مستقلة عن دولة البندقية في ١٤٠٢، ومن ثم كانت المنفذ الوحيد لتجارة البلقان (ناهيك عن مدينة دوريس Durres الأقل أهمية) مع «أقاليم» أوروبا العثمانية. ويفسر الموقع الفريد لدوبروفنيك الأهمية التي القاها العثمانيون على المدينة التي استفادت كثيرا من اتصالها بالأراضي العثمانية. وفي هذا الخصوص فإن العنوان الفرعي الذي وضعه فيلاري لكتابه يعد أمرا من قبيل المبالغة.

خلال الفترة من ١٤٥٩ - ١٤٩٩ كما سبقت الإشارة في الفصل الثالث، نجح العثمانيون في إخضاع كل الدويلات والمدن المستقلة في البلقان باستثناء دوبروفنيك التي ظلت الوحيدة البلقانية المستقلة الوحيدة حتى عام ١٨٠٦، عندما احتلتها قوات نابليون. وفي هذا الفصل سوف نركز فقط على زوايتين اثنتين فقط من تاريخ دوبروفنيك وهما: اتصال المدينة بالامبراطورية العثمانية، ومغزى وجودها للتطور التاريخي للسلاف الجنوبيين. أما التجارة وهي أكثر ملامح دوبروفنيك أهمية

(1) Luigi Villari, The Republic of Ragusa, an Episode of the Turkish conquest (London: J.M. Dent, 1904).

فسوف نعرض لها عندما تدعو الضرورة^(١).

يذكر المؤرخ قسطنطين بورفيريوجينيتيوس Porphrogenetus ان غارات قبائل الآفار Avar في القرن السابع دمرت مدينة إبيدايروس Epidaurus ورحل الناجون من الدمار الى مسافة ١٥ ميل تقريبا ناحية الشمال الى موقع أكثر أمنا، وأسسوا مدينة جديدة باسم راجوزيوم Ragusium (دوبروفنيك)^(٢) ولما كانت الأرض المحيطة براجوزيوم صخرية جرداء، فقد اضطر المستوطنون الجدد من البداية ان يدفعوا جزية لرؤساء أقاليم السلاف المجاورة المعروفة باسم موجوريز Mogoris للحصول على حق زراعة الأرض هناك لمواجهة اعباء الحياة. ولقد ظلت موارد راجوزا لا تكفى سكانها حتى بعد ان امتدت من أستاريا Astartea على الطريق الرئيسى لتشمل الثلاث جزر الصغيرة: كولو شيب Kolocep، ولوبود Lopud، وشيبان Sipan، وحتى آخر حجم وصلت اليه في عام ١٤٢٦^(٣). وما ان جاء منتصف القرن الخامس عشر حتى كان عدد سكان المدينة نفسها قد بلغ حوالي خمسة الى ستة آلاف نسمة. أما سكان الاقليم ككل فقد بلغ حوالي ٢٥ - ٣٠ ألف نسمة. واذا ما وضعنا في الاعتبار ان الطاعون انتشر في دوبروفنيك ثمانية عشر مرة بين عامي ١٣٤٨ - ١٦٩١، وانها تعرضت لزلزال مدمر في ١٦٦٧، يمكننا ان نفترض باطمئنان ان سكانها لم يتجاوزوا أكثر من ٣٠ ألف نسمة على الرغم من أن بعض المؤلفين ذكروا ارقاما أكثر من هذا^(٤). ومن الملاحظ ان علاقات دوبروفنيك مع البلدان السلافية استمرت طويلا منذ فترة مبكرة، فضلا عن علاقاتها مع القوي المجاورة الأخرى وهي: البندقية، ودولتي الصرب والبوسنة، وكرواتيا، والمجر، ونابولي. ولما كانت دوبروفنيك ميناء بحريا أساسا، فكان من الطبيعي ان تهتم بالتجارة البحرية، وعقد صلات تجارية مع البلقان. ففي ١١٩١ منح امبراطور بيزنطة اسحق الثاني انجيلوس Isaac II Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥) تجار المدينة حق حرية التجارة في اراضيهم. وقبيل ذلك ببضع سنوات كانت قد حصلت على امتيازات مماثلة من الصرب (١١٨٦) ومن البوسنة (١١٨٩). وقد فتحت هذه المعاهدات الثلاث شبه الجزيرة لتجار دوبروفنيك.

(١) لمن يرغب في التعرف على تفاصيل هذه التجارة وكذلك أفضل صورة لتاريخ دوبروفنيك يمكنه الرجوع الى الدراسة الممتازة الآتية: Francis W. Carter, Dubrovnik (Ragusa). A classic city - state (London and New York: Seminar press, 1972)

(٢) يعتمد القسم الاول من هذا الفصل بشكل أساسى على موجز تاريخ دوبروفنيك فى بداياتها الاولى كما ورد فى الفصلين الاول والثانى من كتاب Barisa Kiekic, Dubrovnik in the 14 th and 15 th Centuries: A city between East and West (Norman: University of Oklahoma press, 1972)

(٣) اضيفت جزيرة لاستوفو Lastovo للاقليم الاصلى فى منتصف القرن الثالث عشر وتبع ذلك شراء جزيرة بلياسك peljesac فى ١٣٣٣ من الصرب والتي اتحدت مع الاقليم الاصلى عندما استحوذت دوبروفنيك على الأرض التى تفصل الاثنين فى ١٣٩٩، والتي كانت تعرف باسم بيوموريه Primorje. وبين هذين الاستيلاءين ضمت جزيرة مليت Miljet. وبين عامي ١٤١٩ - ١٤٢٦ اضافت دوبروفنيك اقليم كوناڤلى Konavli الواقع جنوب أستاريا ويشمل مدينة كافتات Cavtat التى شيدت على انقاض مدينة إبيدايروس. وقد بلغت مساحة كل الاراضى المضمومة ٤٢١,٥ ميل مربع بما فيها جزيرة لوكروم Lokrum الصغيرة على مدخل ميناء المدينة.

(4) Carter, Dubrovnik, p. 16

ومن الملاحظ ان المعاهدة مع البوسنة تضمنت لأول مرة الاسم السلافي لراجوزا، ألا وهو دوبروفنيك، رغم ان الاسم الرسمي لها وهو كوميون راجوزي اللاتينية -Latik Communitas Ragu- كان ما يزال مستخدما. ومن ناحية اخرى كانت المدينة قد اصبحت أسقفية لأكثر من قرن من الزمان، ويتكلم معظم سكانها لغتين حتى اصبحت العنصر السلافي يشكل اغلبية السكان مع القرن الثالث عشر.

ومن العجيب ان دوبروفنيك بعد ان حصلت على كل تلك الامتيازات التجارية خضعت للبندقية في ١٢٠٥، وظلت تحت هيمنتها حتى عام ١٣٥٨ عندما أوقع ملك المجر لويس العظيم (١٣٤٢ - ١٣٩٢) الهزيمة بالبندقية وجردها من ممتلكاتها على ساحل دلماشيا. وفي اعقاب ذلك عقد لويس معاهدة مع دوبروفنيك أصبحت بمقتضاها مستقلة استقلالاً كاملاً تحت سيادة اسمية له.

والحق ان دوبروفنيك تحت حكم البندقية استكملت تنظيماتها السياسية والاجتماعية بشكل نهائي بفضل البنادقة البارزين الذين حكموها. وبعد انتهاء حكمهم صعد الى كرسي الحكم كاهن محلي منتخب (كينز Knez). واذا كان الحاكم البندقي يمارس الحكم بالتفاهم مع النبلاء المحليين، الا ان الكاهن الذي خلفه، لم يكن اكثر من رئيس رمزي. وكانت مدة ادارته لا تزيد احيانا على شهر فقط. وكان يساعد كل منهما (الحاكم البندقي والكينز) مجلسان: الاول المجلس الصغير (Consilium Minus, Mab Vijece)، ويتكون من أحد عشر عضوا من النبلاء والقضاة، ويقوم بدور المحكمة العليا وبواجبات الشرطة وتنظيم الاسواق، والثاني هو المجلس الكبير (Consilium Minus, Veliko Vijece) ويتكون من حوالي ثلاثمائة نبيل، ومهمته انتخاب اعضاء الهيئات السياسية الاخرى، ويتمتع بسلطات تشريعية وله القول الاخير فيما يتعلق بالقرارات ذات الاهمية الكبرى، رغم ان اجراءاته لاتصبح قانونية الا بعد ان يصدق عليها الأسقف. كان السناتو (onsilium Rogat) يعتبر أهم الهيئات السياسية والمجال الوحيد للسلطة الاوليغاركية الأبوية. وكان أعضاؤه دائما من مجموعة الأسر الصغيرة التي أعدت أفرادها لممارسة شؤون الحياة، وهو الهيئة التي تقوم باعداد مشروعات القوانين للمجلس الكبير ويناقش أمور الحرب والسلام، ويصدق على المعاهدات، ويتعدى مع كل المشكلات الدبلوماسية المهمة لدولة المدينة.

وعلى الرغم من ان النبلاء الارستقراطيين (البطارقة) كانوا يسيطرون على مجالات الحياة السياسية والاقتصادية لدوبروفنيك، ويملكون معظم الاراضي الواقعة خارج المدينة فضلا عن مساحة كبيرة من المدينة نفسها، الا انهم لم يحتكروا الحياة السياسية أو الاقتصادية، بل كانوا يتعاونون مع التجار والحرفيين وقباطنة البحر وأصحاب طوائف الحرف والمهن الذين احتفظوا بكثير من حقوقهم في تنظيم شؤونهم الخاصة. وكانت مصالح كل هذه المجموعات واحدة ومتداخلة قبل كل شيء فالنبلاء الارستقراطيون لهم السيطرة بسبب أصولهم الاجتماعية كنبلاء، وبسبب ثروتهم التي جعلتهم يقومون بدور البنوك في اقراض سائر السكان. ولم تكن دوبروفنيك مجرد مركز تجارى

فقط، بل كانت مركزا صناعيا ايضا، اذ انتظم الحرفيون بها فى طوائف وروابط، وان ظلت نشاطاتها بسيطة دون أهمية حتى القرن الخامس عشر.

وعندما حرمت العبودية رسميا فى دوبروفنيك فى ١٤١٦ بقرار من المجلس الكبير، وجد الفلاحون أنفسهم فى أسفل الهرم الاجتماعى. وكانت قلة قليلة منهم تملك أرضا، وقاموا بمحاولات النبلاء الارستقراطيين والكنيسة لاستقنائهم وظلوا أحرارا، وتحددت ما عليهم من التزامات بمقتضى عقود. أما من الناحية الشرعية فقد كانوا خاضعين لقانون الدولة. وهذا يعنى انهم لم يكونوا يحاكمون فى محكمة اللوردات، كما احتفظوا بحقوقهم فى حرية الهجرة والتنقل. والحق ان انتعاش المدينة ونموها وازدهارها كان بحاجة الى قوم مهيين لمعاملة الفلاحين الاحرار الذين جذبتهم المدينة وحل محلهم الوافدون من السلاف والالبان وعناصر اخرى من الاراضى المجاورة.

وينبغى اضافة بعض التطورات الاخرى لتلك التطورات السابقة، والتي لم تبدأ بحكم البنادقة وان وصلت (باستثناء الغاء العبودية) الى شكلها النهائي تحت هذا الحكم، ولعل أكثر اسهامات البندقية أهمية، المساعدة التي قدمتها للحفاظ على استقلال دوبروفنيك من أطماع الدويلات السلافية الناهضة، وتمكينها من عقد اتفاقات تجارية مع اليونان وبلغاريا ساعدتها على مد نشاطها الاقتصادى داخل منطقة البلقان. وعند نهاية حكم البندقية نجحت دوبروفنيك فى اقامة روابط طيبة من جديد مع البوسنة والصرى. وكانت هذه الروابط على جانب كبير من الأهمية، ذلك ان تجارة دوبروفنيك كنموذج أخذت شكلها النهائي فى القرن الثالث عشر، حيث بدأ العمل فى مناجم الصرب بحثا عن المعادن يأخذ شكل الاستثمار الجاد. وكان أهالى دوبروفنيك منذ البداية مهتمون اهتماما عميقا بالبحث فى المناجم. وعندما انتهى حكم البندقية لهم لم يكونوا فقط يتاجرون فى الفضة والنحاس والرصاص والحديد، بل كانوا يديرون ويملكون مناجم المعادن فى الصرب، كما تمتعوا بوضع مماثل فى مناجم البوسنة ايضا، فاذا ما وضعنا فى الاعتبار ما كانوا يتمتعون به من امتيازات فى اراضى البلقان بما فى ذلك اعفائهم من الضرائب، وحق التجارة دون عوائق، وحق تسوية أمورهم طبقا لقوانينهم وأمام قضاتهم .. أدركنا أن أهميتهم كانت تزداد بشكل ملحوظ. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل لقد كانت لراجوزا مستعمراتها فى كل المراكز التجارية بالبلقان باستثناء بلغاريا فى منتصف القرن الرابع عشر. وينبغى ان نتذكر فى هذا الخصوص ان «القانون» العثمانى اعترف بالترتيبات والاوزاع السابقة على الوجود العثمانى بالبلقان، مما جعل الامتيازات التي كان يتمتع بها أهالى راجوزا فى اوربا العثمانية فيما بعد ذات مغزى كبير.

وبنهاية حكم البنادقة لدوبروفنيك زالت العقبات الملاحية التي كانت البندقية قد فرضتها، حيث أتيح للمدينة ان تمد تجارتها البحرية المحمولة على نحو ١٨٠ مركبا لتحقيق ارتباطاتها مع ارضها الرئيسية. ومن الملاحظ ان نموذج تجارة دوبروفنيك الذى ظل دون تغيير خلال الحكم العثمانى للبلقان أخذ شكله النهائي فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر، اذ كانت دوبروفنيك تصدر المعادن ومختلف انواع المنتجات الحيوانية، وبعض انواع الأطعمة من شبه الجزيرة، وتمدها بالملح والمصنوعات الغريبة وبصفة خاصة المنسوجات ومواد الترف والرفاهية. وقد نمت تجارة دوبروفنيك

نموا سريعا حتى امتدت الى اسبانيا وسوريا ومصر وكل بلاد البحر المتوسط بشكل عام. وكان تجار دوبروفنيك قد حصلوا عام ١٣٧٣ من البابوات على تصريح بالتجارة مع المسلمين، مما كان سببا في تسهيل اتصالاتهم الاولى بالعثمانيين الى حد ما.

وهكذا ففي ١٣٩٢ حدث اول اتصال لدوبروفنيك بالعثمانيين عندما كانوا يغزون الاراضي المحيطة بالمدينة. وفي عام ١٣٩٧ حصلت دوبروفنيك من الحكومة العثمانية على اذن بحرية التجارة والاستيطان في البلقان، وهو اذن لم يكن اكثر من اعادة تأكيد لحقوق قائمة. وقد تحدد هذا الاذن باتفاقية في ١٤٤٧ تلتها معاهدة اخيرة في ١٤٥٨ وضعت دوبروفنيك بمقتضاها تحت الحماية العثمانية مقابل ١٥٠٠ دوكية سنويا تدفعها. وقد ارتفع المبلغ الى ١٢٥٠٠ دوكية في عام ١٤٨١ حيث تم تشييته طوال علاقات دوبروفنيك مع العثمانيين. وعلى الرغم من ان سكندريه (١٤٠٣ -؟ - ١٤٦٨) ومانياس كورفينوس (١٤٥٨ - ١٤٩٠)، وحتى البابوات طالبا دوبروفنيك مرارا بقطع روابطها مع الأتراك، الا ان المدينة كانت تدرك الامتيازات التي تعود عليها من تلك العلاقات.

وما ان جاء عام ١٤٨١ حتى كانت دوبروفنيك قد اقامت كافة منظماتها الداخلية وسبب تجارتها ومستعمراتها التجارية في البلقان، والتي امتدت اكثر واكثر اثناء حكم العثمانيين لثبة الجزيرة. كما كانت قد غيرت اسمها في مطلع هذا القرن (القرن الخامس عشر) رسميا من كوميونو Communitas الى جمهورية Republic. وكل ما كان على العثمانيين ان يفعلوه. الحال كذلك، هو الاعتراف بما هو قائم ما داموا مهتمين بالسماح لدوبروفنيك بالاحتفاظ باستقلالها قائما ومواصلة النشاطات التجارية معها في البلقان. ولما كانت التجارة أمرا مهما للعثمانيين فقد عملوا على ان تظل تجارة الولايات الاوربية الجديدة التي خضعت لهم والتي تمر بانقراط التمددية بعيدة عن متناول أيدي اعدائهم من البنادقة. غير ان السادقة مالبثوا أن افاقوا بسرعة من الهزائم التي انزلها بها حكام المجر من أسرة أنجو Anjou، وعادوا للتحكم من جديد (بعد الربع الاول من القرن الخامس عشر) في كل الموانئ المهمة على ساحل دالماتيا فيما عدا دوبروفنيك. ولما كان العثمانيون مهتمون بتأمين طرق التجارة البلقانية على البحر الادرياتي، فلم يكن امامهم الا تأمين ميناء دوبروفنيك وذلك بتقديم كافة التسهيلات التجارية للمدينة سواء عن طريق الحرب أم من خلال اتفاقية او معاهدة.

٢ - علاقات دوبروفنيك مع العثمانيين

لم تكن مهمة دبلوماسي جمهورية دوبروفنيك سهلة في عقد علاقات مع الآخرين .. فعندما عقدوا أول اتفقاتهم مع العثمانيين كانت المجر صاحبة السيادة الاسمية على الجمهورية ماتزال قادرة على القيام باعمال عدوانية. وفي الوقت نفسه كان ساسة أوروبا وخاصة البابا مايغالون يفكرون في شن حرب صليبية ضد العثمانيين، وينظرون شذرا لأي حكومة مسيحية تحتفظ بعلاقات دبلوماسية

وتجارية طيبة مع «الكفار» (غير المسيحيين)، إلا ان ساسة دوبروفنيك أدركوا في ١٣٩٧ ببعدهم ان العثمانيين اصبحوا بالفعل القوة الرئيسية في البلقان، وظلوا متمسكين بهذا الرأي حتى بعد هزيمة العثمانيين هزيمة كبرى في أنقرة ١٤٠٢. وقبل معركة فارنا Varna في ١٤٤٤ ظلت دوبروفنيك بمعزل عن الحلفاء المعادين للعثمانيين دون اثاره حفيظة. اعداء الدولة العثمانية في الوقت نفسه. وأكثر من هذا نجحت دوبروفنيك في الحصول على إذن باباوى (١٤٣٢) للتجارة مع العدو (العثمانيون المسلمون). وبعد معركة فارنا تطلب الأمر مهارة كبرى لابقاء العلاقات الدوبروفنيكية - العثمانية دون تغيير من الناحية العملية طوال عدة قرون، رغم التغييرات الكثيرة التي وقعت في الامبراطورية العثمانية. وعلى الرغم من الاعتراف بحقيقة ان هذه العلاقات كانت ذات مميزات مشتركة ساعدت كثيرا ساسة دوبروفنيك، الا انها قللت دون شك. من ضخامة ما حققوه من أهداف.

وتمثل العلاقة بين المدينة - الدولة الصغيرة (دوبروفنيك) والامبراطورية العثمانية (الامبراطورية العثمانية) صفحة مثيرة في اطار العلاقات المعاصرة (١) اذ كانت دوبروفنيك الولاية التابعة الوحيدة من ولايات الامبراطورية العثمانية التي لم تتعرض اراضيها للغزو الخارجي خلال فترة تبعيتها الطويلة. كما كان وضعها ملتبسا ومبهما من وجهة نظر الفقه الاسلامي العثماني. وليس هناك من شك في ان دوبروفنيك كانت أقل الولايات ضررا بروابطها مع العثمانيين عما كانت عليه احوال مولدانيا وولاشيا وترانسلفانيا، وان مواطنيها حظوا بتقدير خاص من «سادتهم».

والحاصل انه بعد عام ١٤٠٢ (تاريخ هزيمة العثمانيين في أنقرة) لم تعد معاهدة ١٣٩٧ التي أسست العلاقات بين الدولة العثمانية ودوبروفنيك قائمة. وعلى هذا ففى ١٤٤٢ استؤنفت العلاقات من جديد بين الطرفين. وأعيد التفاوض بشأنها، وتنظيم العلاقات في ١٤٥٨، حيث أخذت شكلها النهائي بمقتضى اتفاقية في عام ١٤٨١. ورغم ان العثمانيين قاموا بتغيير هذه الاتفاقية أكثر من مرة لصالحهم ومن جانبهم فقط، الا ان دوبروفنيك كانت دائما تعارض تلك التغييرات، وكان دبلوماسيها قادرين دائما على اعادة الأمور الى نصابها بعد فترة قصيرة وفق الاتفاقية التي ظلت دون تغيير فعلى حتى وصول جيش نابليون الى دلماشيا.

كانت اتفاقية ١٤٨١ تعرف في الوثائق العثمانية باسم «عهدنامه»، وهي صورة للوثائق

(١) ان هناك كثيرا من المؤلفات التي تتناول تاريخ دوبروفنيك ولكن الدراسات الخاصة باتصالات المدينة مع العثمانيين تعد قليلة نسيان. ومن هذه الدراسات المشورة هناك ثلاثة فقط تستحق اتناها خاصة وقد تم الاعتماد عليها بشكل مكثف في كتابة المصنفات التالية من هذا القسم من الفصل (Beograd: srpska Akademia Nauka, 1952) Ivan Bozic, Dubrovnik u turska u XIV veku (Beograd: srpska Akademia Nauka, 1960) ' Nicolae H Biégman, the Turco - Ragusan Relationship according to the firmans of Murad III 1575 - 1595

مخطوطة في أرشيف دولة دوبروفنيك

(The Hague - paris: Mouton, 1967)

الاسلامية الشرعية التي كانت تربط الولايات التابعة الاخرى بالعثمانيين. ومن الملاحظ من نصوص هذه الاتفاقيات انها لم تكن تتطابق تماما مع منهج تقسيم العالم في العرف العثماني الى دارين: دار الاسلام، ودار الحرب. كما لم تكن تتطابق ايضا مع احكام المذهب الحنفي السائد في الامبراطورية العثمانية لأنها أوجدت عالما ثالثا. ولقد توصل العثمانيون الى حل لهذه المشكلة الشرعية يقوم على اعتبار ان كل ارض تدفع لهم اى شئ جزء من دار الاسلام. وقد أبرزوا هذا التفسير في الاتفاقيات التي عقدها مع الحكام الآخرين، ووصفوا كل مايدفع بالخراج، وهي ضريبة تدفع مقابل السماح بالانتفاع بالارض، اما في حالة الولايات التي لم تكن علاقتها بالدولة العثمانية علاقة تبعية بالمعنى الشرعى بما فى ذلك مولدايا وولاشيا وترانسلفانيا، فكان السكان يعتبرون أهل ذمة ويعاملون على هذا فى اى مكان يحلون به من اجزاء السطنة. ومن هنا كان التدخل فى شؤون حياتهم أمرا مبررا قانونيا وشرعيا.

وعلى الرغم من ان علاقة دوبروفنيك باستانبول على الورق كانت على شاكلة علاقات الولايات التابعة الاخرى، الا انها فى الواقع العملى كانت شيئا آخر. ولقد صاغ المؤرخ بيجمان Biegan عبارة مناسبة تصف هذه العلاقة حين وصف دوبروفنيك بانها «جزء الحكم الذاتى فى الامبراطورية العثمانية»⁽¹⁾، اذ لم تكن الجمهورية - المدينة هذه تخكم نفسها بطريقتها الخاصة فقط، بل كانت تقوم بالمهام الأساسية لأى دولة ذات سيادة، مثل حماية مواطنيها فى الداخل والخارج حتى ولو كانوا فى مشكلات مع سيدهم «الاسمى» (اى الدولة العثمانية). ورغم ان معظم الوثائق العثمانية تشير الى اهالى راجوزا (دوبروفنيك) باعتبارهم اهل ذمة، الا ان هناك وثائق أخرى تصفهم «بالفرنجية» (وهو تعبير يطلق على المسيحيين سكان دار الحرب)، بل ان بيجمان عثر على وثيقة استخدمت تعبير «اللادين» لتمييز سكان دوبروفنيك عن اهالى الولايات الاخرى. ومن الثابت ان تخديد وضع دوبروفنيك بدقة وكذلك سكانها لم يكن واضحا تماما فى ذهن العثمانيين. ولعل القدرة على ابقاء هذا الوضع غامضا طوال قرون كثيرة يعد أعظم الججازات الدبلوماسية الدوبروفنيكية، ويفسر لدرجة كبيرة الرغبة فى الاحتفاظ بالاستقلال التام لتحقيق كل الاغراض عمليا.

والى جانب المصالح المشتركة بين استانبول ودوبروفنيك بفعل مهارة دبلوماسي المدينة، هناك عاملا له مغزاه فى الوضعية الخاصة لهذه المدينة الدماشية، إلا وهو شكل حكومتها. كان العثمانيون فى علاقاتهم الخارجية يتعاملون دائما مع الافراد: ملوك، وأمراء، وسلاطين مماليك، وحتى عندما كانوا يضطرون الى تقديم تنازلات أو امتيازات داخل دولتهم، أو يمنحون شخصيات محلية قوية امتيازات معينة، فان هذا كان يحدث نتيجة قدرة فرد معين أو عائلة بعينها على الاستحواذ على موضع القوة والاحتفاظ به. وعلى هذا وطبقا للتصور العثماني فى السياسة، كان «الأمير» الفرد هو مفتاح الموقف فى كيل حساباتهم وترتيباتهم .. فهو تابعهم الذى يدين بالولاء لهم، والمسئول عن سلوك رعاياه وتحصيل الضرائب وادارة الشؤون السياسة بما يرضى العثمانيين. وكان تثبيته أو تعيينه أو

(1) Biegan, The Turco - Ragusan Relationship, p. 26

عزله وضمان الاعتماد عليه، باحاطته بكوكبة من «المستشارين» و «الحراس» من شأنه تسوية كل المشكلات السياسية التي قد تنجم عن علاقة التابع بالسيد، طالما كان العثمانيون معنيون بالأمر.

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى العثمانيين الخبرة الكافية ولا حتى التصورات النظرية اللازمة لكيفية التعامل مع جمهورية أو ليجارية من نوع دوبروفنيك، وليس من خلال أمير حاكم. ولكن ولأنهم كانوا متسامحين مع دوبروفنيك بكل مالها وما عليها. فقد اضطروا للتعامل مع مجلس سناتو الجمهورية كهيئة عامة، وليس مع شخصية واحدة، في المدينة (أمير حاكم)، يستطيعون من خلالها ضبط ومراقبة أحوال المدينة مثلما كانوا يفعلون في الأماكن الأخرى. وكون ان العثمانيين كانوا يوجهون كل رسائلهم الى دوبروفنيك من خلال بكوات المدينة (السناتورز/ الشيوخ) ، يشير الى عجز العثمانيين عن التعامل مع فكرة الهيئة العامة الحاكمة، وهو دليل ايضا على مقام دوبروفنيك في البناء القيمي التركي، فاذا عرفنا ان من يحمل رتبة «بك» في المجتمع العثماني يعتبر شخصية مهمة ذات مكانة عالية، وإذا عرفنا ايضا ان نبلاء ترانسلفانيا وملاك الاراضي الزراعية (البيوار) في امارتي الدانوب لم يكونوا يعتبرون «بكوات» في استانبول، على حين ان اعضاء مجلس السناتو في دوبروفنيك كانوا يعتبرون كذلك، أدركنا مدى أهمية دوبروفنيك عند العثمانيين.

رثمة اختلاف آخر له مغزاه بين وضع دوبروفنيك ووضع الولايات التابعة الأخرى، الا وهو المكانة التي حظي بها مواطنيها الذين يعيشون في دائرة الامبراطورية العثمانية، وهذا الوضع مرة أخرى لم يكن يتطابق مع الاطار الشرعي أو القانوني الذي حددته الدولة التركية. وتفسير ذلك انه اذا كانت دوبروفنيك تعتبر لدى العثمانيين دولة مستقلة، فكان ينبغي طبقا لذلك الاطار اعتبار كل سكانها أجناب ينبغي أن يحصلوا على اذن للاقامة في انحاء الامبراطورية كزائرين لمدة عام، فاذا طالت مدة اقامتهم على عام، فقدوا وضعيتهم الخصوصية، ويصبحون أليا رعايا ذميين للسلطان. أما إذا كانت مدينتهم تعتبر جزءا مكتملا للامبراطورية العثمانية، فلهم ان يتمتعوا بوضعية أهل الذمة بكل ما يرتبط بذلك من قيود والتزامات، ويبدو واضحا ان دوبروفنيك لم تكن تخضع لشي من هذه التصورات أو القيود أو الحدود، ولو انها كانت تخضع لما استطاعت ممارسة نشاطها التجاري الواسع، الذي كان مقيدا لها وللعثمانيين، والذي كان من شأنه تمتع مواطنيها بوضعية خاصة داخل الامبراطورية العثمانية.

ومن دلائل اتساع دائرة نشاط دوبروفنيك، انها اقامت مستوطنات تتمتع بحقوق خاصة في كل المراكز التجارية المهمة في البوسنة والصرب، من حيث التمتع باعفاءات ضريبية، وخضوع أهلها لقانون مدينتهم، وحكمهم أنفسهم من الناحية العملية. وبعد الفتح العثماني تأسست مستوطنات من تجار دوبروفنيك في المراكز التجارية الكبرى في اقليم بلغاريا وحتى في مدينتي بودا وبست مستوطنات من تجار دوبروفنيك. واعتقد وطبقا لتقديراتي الأولية فان عدد اهالي تلك المستوطنات من مواطني دوبروفنيك، الذين يتمتعون بوضعية خاصة في الامبراطورية العثمانية، قد بلغ من ألفين الى ثلاثة الاف شخص، أو حوالي ١٠٪ من سكان الجمهورية (دوبروفنيك)، وبدونهم لم يكن بالامكان ان تبقى تجارة دوبروفنيك قائمة مزدهرة، بل ان وضعيتهم الخاصة جعلت ذلك الأمر ممكنا.

لقد احتفظ سكان المستوطنات الراجزية «بمواطنتهم» الدبروفنيكية بصرف النظر عن مدة اقامتهم فى الاقاليم العثمانية. وكانوا معفون من كل الضرائب الفردية التى كانت مفروضة على أهل الذمة، ومعفون أيضا من رسوم المرور ودخول الأسواق، التى كان يدفعها أهل الذمة والمسلمون من أصحاب الأعمال. ولكن وبعد الفتح العثمانى للبلقان نقص عدد الاماكن التى كان يسمح لدبروفنيك أن تحتفظ فيها بقناصل مقيمين نقصا حادا، ومع هذا ظل الراجزيون الذين يعيشون خارج دبروفنيك يحاكمون أمام سلطاتهم وطبقا لقوانينهم الخاصة، بل كانت ملكياتهم محفوظة ومصونة، ويعفون من رسوم الأيلولة ومن الضرائب على الاقطاعات التى كانت تفرض بموت أصحابها، وحتى ولو كان الورثة يعيشون فى دبروفنيك وليس فى المستوطنات نفسها حيث المتوفين وراثتهم. وباختصار كان من شأن هذه الامتيازات المهمة تحقيق التعاون العثمانى - الدبروفنيكى لصالح الطرفين.

وهناك زاوية أخرى فريدة فى العلاقات بين دبروفنيك والامبراطورية العثمانية، ألا وهى القناصل فلم تكن دبروفنيك الولاية التابعة الوحيدة التى لها قناصلها فى بعض المدن العثمانية، بل لقد احتفظت بالاتصالات مع الحكومة شأن الدول المستقلة. وبدلا من ان يكون لها وكيل مقيم فى استانبول (قابى كخيا) لمعالجة مشكلاتها فى استانبول، كانت دبروفنيك ترسل كل عام رسلا خصوصيين بتعليمات محددة لعاصمة الامبراطورية ولتسوية كل قضايا ومسائل المصالح المشتركة ومن الطبيعى ان تصحب مثل هذه التسويات دفع رشاوى من آن لآخر. لكن مثل هذه التصرفات كانت محدودة بشدة بسبب تعليمات مجلس سناتو دبروفنيك. وعلى هذا فان دبروفنيك عكس مولدافيا وولاشيا تعد مشغولة عن الفساد الادارى فى استانبول الذى أحدثته مثل هذه الرشاوى.

فاذا ما وضعنا فى الاعتبار بالاضافة للملامح الخاصة التى سبقت الاشارة اليها، الحق الذى كانت تتمتع به دبروفنيك فى وجود قناصل لها فى الدول الاجنبية، يعقدون الاتفاقات، وترفع سفنها التجارية أعلامها، لا بد وان تخرج بانطباع ان دبروفنيك كانت دولة مستقلة تماما، وان كان استقلالها له شكلا قانونيا محددا، فهى تخضع لسيادة دولة اخرى (الدولة العثمانية)، ولم يكن لها جيشا دفاعيا خاصا بل تولى الجيش العثمانى مهمة حمايتها. وكان هذا فى حد ذاته كفيلا بردع اى قوة تفكر فى الاعتداء عليها، رغم انها لم تتعرض للخطر بشكل حقيقى أبدا بعد عام ١٤٢٠، وعندما كانت تتعرض مراكبها لهجوم القراصنة، كانت استانبول تتدخل فى الوقت المناسب.

ومن الملاحظ ان العثمانيين منحوا دبروفنيك هذه الوضعية مقابل ما تقدمه لهم من خدمات اقتصادية، اذ كانت تمثل لهم منفذا على البحر الادرياتي، ومصدرا للواردات المطلوبة الأساسية والترفيهية، فضلا عن قيام دبروفنيك بدور «نافذة العثمانيين على الغرب»، ومن خلالها كانت استانبول تحصل على المعلومات والاسرار التى تحتاجها للمواقف السياسية.

وتسهيلا لمرور البضائع والمعلومات دون عوائق، منح العثمانيون دبروفنيك «وضعية الدولة الأكثر تفضيلا» بالمعنى المحدد للكلمة. ومن ذلك ان اى تاجر من دبروفنيك يقوم بتصدير بضائع

من اى اقليم عثماني يدفع ٢٪. جمارك شأن أى تاجر آخر، سواء أكان رعية عثمانية أم تاجرا أجنبيا. على أن وضعية «الأكثر تفصيلا» هذه بالنسبة لدوبروفنيك كانت تتضح فى الجمارك المفروضة على البضائع المستوردة، والتي تبلغ ٥٪ اذا كان المستورد تاجرا أجنبيا، و ٤٪ اذا كان من اهل الذمة و ٣٪ اذا كان المستورد من رجال الاعمال المسلمين، أما تجار دوبروفنيك فكانوا يدفعون ٥٪ على البضائع التي كانوا يبيعونها فى استانبول وأدرنة وبورصة، و ٢٪ فقط على البضائع التي يبيعونها فى الأسواق الأخرى من الامبراطورية. والجدير بالذكر ان نسبة ال ٥٪ هذه كانت تحصل فقط على البضائع المباعة فعلا فى تلك المدن الثلاثة وذلك تحت اشراف الموظفين العثمانيين. وفى استانبول كان مندوب من دوبروفنيك يقيم هناك لتذليل الصعاب التي قد تواجه أبناء مدينته، ويدافع عن حقوقهم. واستطاع هؤلاء المندوبون الحصول على موافقة الدولة العثمانية على تخويل نسبة ال ٢٪ جمارك الى مبلغ سنوى قدره مائة ألف أقجة، يدفع على قسطين كل ستة شهور. وأكثر من هذا فان هذا المبلغ الذي اعتبره العثمانيون نوعا من الخراج، عهد المسئولون عن تحصيله وتسليمه الى استانبول الى ملتزم يعينه مجلس سناو دوبروفنيك من بين مواطنى المدينة لمدة ثلاث سنوات. وبفضل هذا النص القانونى أصبح مستحيا على السلطات خارج استانبول وأدرنة وبورصة، خلق مشكلات ومصاعب لتجار دوبروفنيك، كما حال دون وقوع المضايقات التي تصحب عملية تحصيل الخراج، والتي كانت قد نفست فى كل الاقاليم العثمانية وبشكل متزايد منذ اواخر القرن السادس عشر.

وبالإضافة إلى ضرائب التصدير والاستيراد التي تدفعها دوبروفنيك، والبضائع التي تورها، والإرباح التي يحصل عليها تجارها من صادراتهم، والمبالغ القليلة نسبيا التي يحصل عليها الموظفون العثمانيون فى شكل الرشاوى، فان الميزة المالية الوحيدة التي كانت تحصل عليها الامبراطورية العثمانية من علاقتها مع دوبروفنيك كانت تتمثل فى الجزية السنوية وقدرها ١٢٥٠٠ دوكية. ومن الملاحظ ان هذا الوضع برمته كان له ما يبرره من وجهة نظرا استانبول، لأنه بدون دوبروفنيك لم يكن ليتاح للعثمانيين اى منفذ تجارى على البحر الادرياتي للاتصال من خلاله بدائرة واسعة من التجارة المتنوعة، وبما يحفظ استمرار اقتصاد البلقان.^(١)

ان هذا العرض الموزج لوضعية دوبروفنيك كولاية تابعة لاستانبول لأكثر من ثلاثمائة عام، لا تمثل فقط النوعية الثالثة لهذا الشكل من التبعية الذي قام العثمانيون بتأسيسه، بل يدل ايضا على قدرة دوبروفنيك على لعب دورا ثقافيا فى تاريخ شعوب البلقان كما سبقت الاشارة. وهو ما سوف نتناوله فى النقطة الثالثة من هذا الفصل. والحق ان وجود دولة صغيرة مستقلة تقع وسط دويلات البلقان لها اتصالات حرة مع الغرب، وتمتع بقدر من الثراء يساعدها فى الاتفاق على الفنانين والادباء.. دولة بهذه المواصفات تستطيع ان تقوم بدور «بيدمونت الثقافى» بالنسبة للسلاف الجنوبيين.

ولقد ساعدت الظروف الموضوعية دوبروفنيك على القيام بدورها الثقافى المهم طوال تاريخها بشكل عام، ذلك ان دولة - المدينة التي أسستها فى البداية العناصر الرومانية التي استوطنت ساحل

(١) يذكر كاربر ان دوبروفنيك كانت تخترى على معلومات هائلة وقيمة بخصوص التجارة، والأسعار، وتغير قيمة العملة، وأهمية تنوع البضائع وسط اجمالى التجارة بين دوبروفنيك والبلقان. ويمكن للمهتمين بملامح العلاقات العثمانية - الدوبروفنيكية الرجوع الى ما كتبه كاربر.

دلماشيا ، اصبحت نسخة من المدينة - الدولة الايطالية على الساحل الشرقى للبحر الادرياتي . ولقد كانت كل منظماتها السياسية، وحياتها، وتجارتها، ووضعية مواطنيها، وصورتهم الذاتية .. مرآة لكل الدول - المدن الايطالية، ولم يحدث ان توقفت دوبروفنيك مطلقا عن ان تكون «رومانية» ثم «ايطالية» فيما بعد فى تصوراتها بالنسبة للعالم وفى تفكيرها. ولكنها عكس النماذج الايطالية التى يمكن مقارنتها، كانت تعيش فى عالمين: عالم ايطالى، وعالم بلقانى .. فعلى حين كان شعبها يحتضن القيم الغربية ويرعاها، كان فى الوقت نفسه من سلاف البلقان الذين يفهمون جيدا أصولهم وبيئاتهم التى وفدوا منها، والمصير الذى يجمعهم باقرانهم، ورغم ان هذا التعميم يمكن ان ينطبق على شعوب دلماشيا الى حد ما، الا ان دوبروفنيك المستقلة لم تقم بمهمة «نافذة العثمانيين على الغرب»، بل كانت كذلك بالنسبة لشعوب البلقان بشكل خاص.

٣ - الاسهامات الثقافية لدوبروفنيك

اذا ما وضعنا فى الاعتبار الموقع الجغرافى لدوبروفنيك وشكل حكومتها، ومصالحها التجارية، وخبرات قياداتها فى الثقافة اللاتينية والايطالية والسلافية، أدركنا ان الحياة الثقافية لدوبروفنيك كانت نموذجا وسط التيارات الثقافية الشائعة فى ايطاليا، لاحتوائها على عناصر محلية وضحت معالمها فى اللهجة السلافية فى دلماشيا. وكما كان شأن المدن - الدول الايطالية التى ترسل ابنائها للتعلم والعمل فى الخارج، ويعود اليها اكثر من ابنائها المتعلمين والفنانين، كانت دوبروفنيك وطن المعمارين البارزين والرسميين، والنحاتين، وصانعى المشغولات الذهبية والفضية، بل وحتى العلماء. وكانت هذه الطائفة من اصحاب المهارات المتنوعة فى خدمة طبقة النبلاء الارستقراطيين من المتعلمين، وطبقة التجار، وكذلك الكنيسة، ومازالت بعض المباني التى شيدها وبعض اللوحات التى رسموها قائمة حتى الوقت الحاضر تشهد على قدرة صانعيها، وتظهر بوضوح المكانة التى احتلتها دوبروفنيك فى الدائرة الثقافية الاوروبية على مر العصور وخاصة فى ايطاليا.

ورغم ان هذه العمائر واللوحات تمد حفا قيمة، الا انه لم يكن لها تأثيرها فى حياة السلافيين وهم تحت الحكم العثمانى، حيث لم يكونوا قادرين على تأملها وفهمها واستيعاب تفاصيلها. كما لم يدركوا أهمية اثنين من أشهر ابناء دوبروفنيك فى العلم وهما مارتن جيتالديش (Getaldic (١٥٦٨ - ١٦٢٦)، وروديبه بوسكوفيتش (Rudjer Boskovic (١٧١١ - ١٧٨٧)، اذ كانت شهرتهما تغطى أوروبا كلها فى حياتهما.. ولكن فيما بعد كانا محل فخر وتقدير اليوغسلافيين لفضلهما على العلم.

وكان الادب بالوانه المختلفة أعظم اسهام قدمته بلدان ساحل دلماشيا ودوبروفنيك على وجه الخصوص للتنمية الثقافية لهذه الشعوب .. فعلى سبيل المثال هناك ملحمة كوزوفو Kosovo فى الشعر الشعبى وغيرها من الاعمال الأدبية التى كان لها تأثيرها فى أعمال الشعراء العظام الذين عاشوا وانتجوا بعد اليقظة الثقافية ابتداء من دوزيتى أوبرادوفيتش (Dositej Obradovic (١٧٣٩ - ١٨١١)،

وفوك كارادزيتش Vuk Karadzic (١٧٨٧ - ١٨٦٤). وكانت الاعمال الادبية التي انتجها أدباء دوبروفنيك على جانب كبير من الاهمية للتاريخ الثقافي لكل الناطقين بالصربية والكرواتية، وهي تستحق تقديم عرض موجز لها^(١). وعلى الرغم من أن أدباء دوبروفنيك وكتابها كتبوا اعمالهم بثلاثة لغات، فان الذين كتبوا منهم بالسلافية هم الذين أصبحوا آباء الادب اليوجوسلافي، ومن هنا كانت أهميتهم بالنسبة لموضوع هذا الكتاب.

لم يكن أحد من اولئك الكتاب والادباء يعيش من أعماله ومؤلفاته، فقد كانت لكل منهم مهنته ووظيفته .. كان منهم رجال دين، ومدرسون، ودبلوماسيون وغير ذلك، فضلا عن ان معظمهم كانوا من أصول ارستقراطية أو من اغنياء التجار. وفي أحيان قليلة كان أحد ساء الطبقات الدنيا ينجذب الى عالم الأدب ويحترف الكتابة. والحق انه كان على اولئك المؤلفين وكذا القراء ان يكونوا على درجة معينة من التعليم لكي يستفيدوا، ليس فقط من الاعمال الكلاسيكية واعمال عصر النهضة (الرينسانس) والمراجع التي استندت اليها تلك الاعمال ويفهموها، بل لكي يكون بإمكانهم تقدير اعمالهم حق قدرها وذلك بمقارنتها بالاعمال الرومانية والايطالية «الاصلية»، طالما كانوا يهتمون بأسلوب الكتابة ونظم الشعر. ومن ناحية اخرى فان تحصيل قدر من التعليم الاساسي بما في ذلك القدرة على القراءة والكتابة بالايطالية والسلافية على الاقل، ومعرفة بعض الرياضيات، أمر ضروري لكل شخص يعمل بالصناعة أو الملاحة وخاصة التجارة. ولهذا كان بدبروفنيك عدة «مدارس للتعليم الاساسي» يتعلم فيها اولئك الرعايا. وأما الذين في امكانهم مواصلة قسط أعلى من هذا التعليم الاساسي ماديا ومعنويا، فكانوا يلتحقون بالجامعات الايطالية لهذا الغرض. ولكن في ١٤٣٣ أسست المدينة - الجمهورية (دوبروفنيك) مدرسة عليا ليكون التعليم المتقدم في متناول أكبر عدد من الناس بتكاليف أقل، حيث تم الاستعانة بالمدرسين اللازمين من ايطاليا. وكان من اوائل هؤلاء المدرسين فيليبوس دي دفريزير كورتيجيانيس Philippus de Diversis de Quartigianis الذي

(١) لا يوجد كتاب في أي لغة أوروبية غربية خصص بشكل محدد للاتجاه الأدبي لدوبروفنيك. ويضم الكتاب الذي ألفه يوسب توربرينا Josip Torbarina بعنوان: Italian Influences on the poets of the Ragusan Republic (London: Williams & Norgate, 1931) معلومات عن معظم أدباء وكتاب دوبروفنيك. أما الكتاب الذي وضعه دراجوليوب بافلوفيتش Dragoljub pavloic بعنوان «في تاريخ أدب وثقافة دوبروفنيك: دراسات ومقالات» - Iz Knjizevne I Kulturne, istoije Dubrovnika k Sludije I Clanci (Sarajevo: Svjetlost, 1955) بالموضوع الذي نبهته هنا. وهناك تفاصيل أكثر في الفصل الخاص بدوبروفنيك في كتاب Mihail Kravtsov, Povijesti hrvatske Knjizevnosti do narodnog preporoda 2 nd, ed. (Zagreb: Matica Hrvatska, 1961) تاريخ الأدب الكرواتي حتى الاحياء القومى. أما أفضل كتاب في اللغة الانجليزية يضم معلومات تتعلق بالموضوع فهو كتاب أنطون باراك Antun Barac, A History of Yugoslav Literature, trans peter Mijuskovic. (Beograd: Center for The Rehabilitation of Disabled war veterans, 1955) تحت رقم (١) من سلسلة Ann The joint Committee on Eastern Europe publication Series (Arbor; A. C. L., S, 1973) وهناك معلومات موجزة في معظم الكتب التي تتناول دوبروفنيك بما فيها كتاب Krekic and Carter (١) من هاشم رقم (١) ص ١٩١ وهاشم رقم (١) ص ١٩٢ وهناك قائمة تاريخية في كتاب كارتر دوبروفنيك، pp. 511 - 13.

قام بالتدريس في دوبروفنيك بين عامي ١٤٣٤ - ١٤٤٠، ويعتبر كتابه-Situs aedificiorum, poli- tiae et laudabilium Conuetudinum inclytae civitatie Ragusii (العماثر والسياسات والعادات المحمودة لمدينة دوبروفنيك المتميزة) الذي نشر في عام ١٤٤٠ أفضل المصادر التي تناولت دوبروفنيك بدءا من القرن الخامس عشر.

ومن الطبيعي ان أناس تلقوا هذا النوع من التعليم ان يكونوا مهتمين بكثير من أوجه الحياة العامة الى جانب الاعمال الأدبية وجمع الكتب. ومن هؤلاء كان ايثان جازول (Gazul) (١٤٠٠ - ١٤٦٥)، عالم الفلك الذي عمل في جهات مختلفة من أوروبا وترك كتبه لكتدرائية المدينة بشرط الاحتفاظ بها في مكان معين، وان تكون في متناول الجميع. وبهذا اصبح مؤسس مكتبة دوبروفنيك العامة، ومن الملاحظ ان الكتب الاولى التي كانت في متناول الناس باللاتينية أو الايطالية وكذا أولى قصائد الشعر والمسرحيات كتبها مؤلفون دوبروفنيكيون.

أما أول من كتب بالسلافية أثنان هما: سيسكومنكتيش Sisko Mencetic (١٤٥٧ - ١٥٢٧)، ديوريه درزيتش Djorje Drzic (١٤٦١ - ١٥٠١) وكانت كتاباتهما في البداية على نسق الاعمال الايطالية المعاصرة آنذاك، مع ادخال عناصر من الشعر العامي. ولما أخذنا ينظمان الشعر باللغة السلافية نظمناه بالابجدية اللاتينية. على أن افضل الأعمال بشكل عام كانت تلك التي تعبر عن مسائل محلية (تيماث) مزجت بمهارة بالنماذج الايطالية، مثل مسرحيات مارين درزيتش (١٥٠٨ - ١٥٦٧)، والتي مازال تقدم على المسرح اليوجوسلافي (يوجوسلافيا السابقة). وكثير من تلك الأعمال الاولى للكتاب السلافيين ظهرت في مجموعة رانينا Zbornika Niska Ranjia التي تم اعدادها في عام ١٥٠٧^(١). ولكن هذه المجموعة لسوء الحظ أتلفت خلال الحرب العالمية الثانية. وهناك كاتب مسرحي آخر مرموق وهو نيقولا فيترانيتش كافيتش Vetrancic - Cavcic (١٤٨٢ - ١٥٧٦) تضمنت أعماله عناصر شعرية شعبية. ونؤكد مرة أخرى على أن كل هؤلاء الكتاب ينحدرون من أصول ارستقراطية أو من عائلات أغنياء التجار. باستثناء قلة تنتمي الى الطبقات الدنيا كانت محل اعجاب نقاد الأدب، لقدرتها على استخدام الاساليب اللغوية السلافية في الكتابة. وفي مقدمتهم اندرية كوبرانوفيتش Cubranovic (مات حوالي ١٥٥٠).

وبالامكان ان نعدد اسماء اخرى كثيرة لكن اكثرها شهرة واهمية بالنسبة للادب اليوجوسلافي ايثان جوندوليتش Gundulic (١٥٨٩؟ - ١٦٣٨) الذي كان ينتمي الى احد العائلات الارستقراطية القديمة الكبيرة .. أمضى جوندوليتش حياته في الوظائف العامة والدبلوماسية، وكان عضوا في «المجلس الصغير» وايضا بمجلس الشيوخ (السناتور). وقد اتخذ من أشعار تاسو Tasso نموذجا اسلوبيا له في قرض الشعر معتقدا انه أكثر ملائمة للسلافيين عن الاساليب التي كان يتبعها السابقون عليه. ويتمثل اسهامه الادبي بشكل عام في الملحمة الشعرية العظيمة التي نظمها بعنوان «عثمان». وعلى الرغم من ان الشخصية الرئيسية في هذه الملحمة كانت السلطان عثمان الثاني المأساوي (١٦١٨ - ١٦٢٢)، الا ان هناك ابطالا رومانيين وبولنديين وسلافيين وطلقات لعبوا ادوارا مهمة في روايته الجيلية عن ولايات أوروبا العثمانية، حيث تضمنت

(1) Carter, Dubrovnic, p. 503

اشارات كثيرة لا يظال اوائل مثل ستيفن دوشان Dusan فضلا عن ازجاء عبارات المديح المتكررة لدوبروفنيك مع التنبؤ بمسقبل زاهر للسلافيين الجنوبيين* وكان المجال التاريخي للملحمة عثمان، وكذا اسلوبها اللغوي وتركيب حوادثها وخطها الدرامي سببا في وضعها في مصاف الملاحم الكبرى في عالم الأدب، وشكلت هي وملحمة كوزوفو، وجبل جارلاندا لبيتار الثاني نيجوس جورشكي فيناك Peter II Njegos Gorski Vijeac التي نشرت في ١٨٤٧، الثلاثة العظيمة للملحمة الشعر اليوجوسلافي. وبعد جوندوليتش استمر الشعراء ينظمون الشعر، وعلى الرغم من ان احدا لم ينظم قصائد ذات قيمة أدبية، الا انهم حافظوا على تقاليد الشعر.

أما كتاب النثر في دوبروفنيك فلم تكن اسهاماتهم مرموقة في مجال الدراسات الأدبية وقليل منهم مثل بنكو كوتروليفيتش Benko Kotruljevic (١٤٠٠ - ١٤٦٩) يستحقون الذكر كرواد في مجالهم، على حين يكتسب الآخرون اهميتهم باعتبارهم مؤرخين وليسوا أدباء. كان كوتروليفيتش تاجرا استقر في النهاية في نابولي في عام ١٤٥١ حيث اصبح قسلا لدوبروفنيك ثم من كبار الموظفين الرسميين في بلاط ملوك نابولي. وقد عرف بكتابه «عن التجارة والتاجر الحقيقي» الذي نشر بالاطالية عام ١٤٥٨. ويذكر أحد الباحثين عن هذا الكتاب «انه كان أول محاولة باسلوب علمي عن أصول التجارة وطبيعتها وملاحمها الكثيرة وفنونها .. كما أكد على وجهات النظر الخاصة بنشأة المواطنة الحديثة في الحياة والتعليم والدين والمشكلات الاجتماعية»^(١).

أما في التاريخ فلم يوجد من كتب باللغة السلافية. ولهذا السبب لم تكن للكتابات التاريخية القيمة الثقافية التي كانت للقصيد الشعري. وانحصرت أهمية المؤرخين في نقل المعلومات التي توجد في أرشيف دوبروفنيك. على أن اعظم الأعمال بعد العمل الذي وضعه ديفريزير عبارة عن حوليات لمؤلفين مجهولين. وترجع اولها الى نهاية القرن الخامس عشر، وتغطي تاريخ دوبروفنيك المدرك من السنوات الاولى وحتى حوالي نهاية القرن السابع عشر.

ويعتبر الكتاب الذي وضعه لودفيك توبرون كرفيتش Ludovik Tuberon Crijevic (١٤٥٩ - ١٥٢٧) من عدة مجلدات، ذا قيمة خاصة في حقل دراسات جنوب شرقي أوروبا. وقد درس كرفيتش الفلسفة واللاهوت والرياضيات في باريس، ثم عاد الى دوبروفنيك ليهتم بدراسة التاريخ في اواخر ايام حياته. ويتناول المجلد الحادي عشر من اعماله وهو بعنوان Commentarii Suorum Tem-porum الفترة من ١٤٩٠ - ١٥٢٢ مركزا بصفة رئيسية على الشؤون العثمانية والمجرية وقد بلغ هذا المجلد قيمة كبيرة حتى لقد طبع بعد مائة عام من طبعه لأول مرة في فرنكفورت عام ١٦٠٣

أما تاريخ راجوزا Ragusan Chronicle الذي كتبه في نهاية القرن الثامن عشر دوزونو راستتش Dozono Rastic الباحث الكلاسيكي الدوبروفنيكي (١٧٥٥ - ١٨١٥) فانه يعد افضل تاريخ لراجوزا الى حد بعيد، اذ يروي قصة دوبروفنيك حتى ١٤٥١.

(1) Krekic, Dubrovnik, p. 125.

وبالإضافة الي هذه الاعمال الأصلية المبتكرة، هناك عدة ترجمات أعدت في دوبروفنيك في مجالات الاداب والعلوم الكلاسيكية من اللاتينية واليونانية والاطاللية الى السلافية. على ان ترجمة هذه الاعمال الكلاسيكية لتكون في متناول القارئ السلافى يعادل في قيمته ومغزاه من وجهة نظر التطور الثقافى والتاريخ ابتكار هذه الاعمال نفسها.

أما اسهامات دوبروفنيك فى تاريخ السلاف الجنوبيين، فلا يمكن ان يتساوى بتاريخ مدينة أو اقليم قبيل تأسيس المتروبوليتانية Metropolitanate فى كتاب كارولفيتش Carlovic عند نهاية القرن السابع عشر، اذ انه بعد ذلك التاريخ نما مركز ثقافى أورثوذوكسى يضاهى المركز الكاثوليكي لدوبروفنيك. وحول هذا المركز ظهر رجال فى قمة ورفعة وأهمية أوبرادوفيتش Obradovic. والحق انه بدون التقاليد الدالماتية وخاصة تقاليد دوبروفنيك، كان لامفر من ان تواجه هذه المراكز الثقافية التى نشأت مؤخرا كثيرا من المصاعب لكى تبدأ أعمالها.

٤ - خلاصة

لدوبروفنيك تاريخ طويل موثق توثيقا جيدا^(١). وقد سبق التنويه الى انه لم يوجد بين الولايات التابعة للامبراطورية العثمانية من استطاعت الاحتفاظ باستقلال عن استانبول مثلما فعلت دوبروفنيك . ومن اللافت للنظر ان أقاليم «الحكم الذاتى» داخل الامبراطورية بما فيها، أجزاء مختلفة فى اليونان ، وكريناجورا Crna Gora والبانيا، كانت أكثر تبعية حسب مزاج الحكومة المركزية العثمانية من الولايات التابعة أصلا. ولابد ان محاولات حدثت من جانب هؤلاء الاتباع أو اللوردات المحليين لتأمين الحصول على بعض الامتيازات المهمة. لكن الفوضى النسبية فى حفظ المعلومات بالسجلات تجعل من المستحيل على المؤرخ ان يعرف الكثير عن حقيقة هذه المحاولات. وعلى هذا تبقى دوبروفنيك مثالنا الوحيد على علاقة أفادت الطرفين: العثمانيون، وواحد من «تابعيهم». ولاشك ايضا ان الاشارات الى اسهامات دوبروفنيك الثقافية فى تاريخ الشعب اليوجوسلافى جاءت قليلة، ولا تكفى لبيان تأثيرها. ولا يبقى الا ملمح أخير ينبغى ملاحظته لبيان اسهامات دوبروفنيك فى حياة هذه الشعوب.

فباستثناء كبار التجار اليونانيين كان الراجوزيون التجار هم الوحيديين الذين أحرزوا تقدما مهنيا فى بلدان الغرب. فقد استخدموا النظام المصرفى الحديث بما فيه تسهيلات الاقتراض. كما كانوا على علم بنظام التأمين، وأدركوا جيدا طبيعة السوق الاوربى واحتياجاته الواسعة. وعلى عكس اليونانيين كانوا يتكلمون لغة من يتعاملون معهم فى البلقان. ولا ينبغى ان ننسى فى هذا المقام انهم عكس اليونانيين، لم يعتبروا أهل ذمة. وهكذا كان من السهل عليهم التعامل مع شعوب دائرة

(١) بدأ الاحتفاظ بالسجلات، والوثائق بشكل منظم فى دوبروفنيك منذ عام ١٢٧٨، ويمكن الاطلاع على وصف كامل لمحتويات ارشيف المدينة فى كتاب Carter, Dubrovnik, Appendix 3, pp 601-661.

الاقاليم العثمانية، ونتيجة لذلك فقد تعلم السلافيون والاليانيون كثيرا عن مجال الاعمال الحديثة وطبيعتها وأساليبها من الراجوزيين أكثر مما تعلموه من اليونانيين. بل ان التجار من أهل الذمة ومن المسلمين تعلموا أيضا كثيرا من تلك الاساليب من زيارتهم المتكررة لدوبروفنيك. وقد بلغ من عظمة تطرر هذه المدينة ان «الصبية» في المنطقة في أواخر القرن السادس عشر كانوا يتنافسون مع معلميهم .. فنجد ان تجار البوسنة بشكل خاص حاكوا تجار دوبروفنيك وأصبحوا أول رجال أعمال سلافيين يعملون وفق أساليب العمل الحديثة. والحق ان هناك عوامل أخرى غير دور دوبروفنيك أسهمت في احياء مجال الاعمال الحديثة (عالم البيزنيس) في البلقان في القرن السادس عشر^(١). ومع هذا لا ينبغي التقليل من قيمة أهمية نموذج دوبروفنيك في هذا الخصوص على الأقل بالنسبة لعرب البلقان.



(١) انظر المقالة الممتازة الشاملة التي كتبها Traian Stoianovich بعنوان: "The Conquering Balkan Orthodox Merchants" Journal of Economic History, Vol., 20, no. 2 (June, 1960), pp. 234 - 313

القسم الرابع

الحياة فى ولايات اوروبا العثمانية

١٥٧٤ - ١٨٠٤

الفصل التاسع

تغيير المصير

١ - تدهور الامبراطورية العثمانية

رغم ان جذور تدهور الامبراطورية العثمانية والأعراض الاولى لهذا التدهور كانت قديمة، إلا ان مظاهره كانت ملموسة خلال الثلث الأخير من القرن السادس عشر. ورغم ان بعض السلاطين الاقوياء بمساعدة الصدور العظام من أسرة كوبروللو حاولوا وقف هذا التدهور، الا ان تيار التدهور استمر دون توقف حتى مطلع القرن التاسع عشر.

ولقد اتفق الباحثون على عدة أسباب لهذا التغيير أو التحول في مصير أو مسار الامبراطورية العثمانية ولم يختلفوا الا في التقدير النسبي لطول فترة الفساد والعفن المستديم والمنتظم.

أما الأسباب التي أوردتها كثير من الباحثين لتدهور الدولة العثمانية فانها تتلخص في : حدوث تغيير شديد في شخصية الحكام ومهاراتهم ونشاطاتهم، وزيادة نفوذ «الإندرون» في شؤون الدولة، مع انشقاق «البيرن» الى أكثر من جناح متنافس؛ وقيام روابط قوية بين رجال الادارة المركزية في الداخل وعناصر الادارة الحاكمة في الولايات؛ وزيادة معدل الفساد الادارى الذى نتج في جانب منه عن ظهور تلك الأجنحة المتصارعة؛ والتضخم المفاجئ الذى حدث في أواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، وربما بسبب تحول التجارة الدولية من حوض البحر المتوسط الى الأطلنطي وتدفق الفضة من الأمريكتين الى الامبراطورية العثمانية؛ والصراع بين العنصر التركي القديم (التمثل في البكوات وعناصر الغازى والسباهية)، ونسل الرقيق والذى أدى الى اختراق هيئة «الموظفين العثمانيين»، وتنظيم المؤسسة العسكرية، وأخيرا عجز الامبراطورية العثمانية عن التوسع أكثر وأكثر على انه ينبغي ان نستعرض فى ايجاز تلك الأسباب التى أسهمت فى التدهور المنتظم لقوة الامبراطورية العثمانية فى الداخل وفى الخارج على السواء.

خلال المائتين وستة وستون سنة الأولى من عمر الدولة العثمانية، لم يكن فى مقدور بيت عثمان توفير حكام قادرين قدرة ملحوظة، فى الوقت الذى كانت اسهامتهم لسمية الامبراطورية ويقاءها أمرا سياسيا. وليس من الحكمة ان نفترض كما فعل البعض ان تغيرا بيولوجيا غامضا فى تركيب الأسرة الحاكمة حدث فجأة، وكانت بدايته السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤)، اذ من الملاحظ ان بيت عثمان لم ينجب بعده إلا شخصيات عاجزة محبطة، باستثناء السلاطين من نسل ابراهيم (١٦٤٠ - ١٦٤٨) الذين كانوا رجالا أقوياء قادرين.

كانت مقدرة الحاكم الفردية طبقا للتصور العثماني للدولة أمرا أساسيا وجوهريا لمهام حكم الامبراطورية .. ذلك ان الدور المفترض للحاكم فى الدولة يضع على كاهله عبئا ثقيلا بدرجة لا يستطيع القيام به إلا شخصيات استثنائية. وكان اتساع الامبراطورية وبالتالي زيادة اعبائها أمرا يفوق امكانيات البشر فى الادارة. ومن هنا وجدنا ان السلطان محمد الثانى كان أول من توقف عن حضور جلسات المجالس المختلفة فى الدولة، لأنه ببساطة لم يكن يجد الوقت الكافى لذلك. واصبح كبار المسئولين فى غيابه أكثر أهمية مما فتح الباب لانحرافهم بالمسئوليات الوظيفية فيما بعد، وكانت هذه المسئوليات تزيد فى حالة غياب السلطان عن العاصمة فى المعارك الحربية. ولعل أبرز مثال لذلك سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠)، وسليمان الاول (١٥٢٠ - ١٥٦٦) اللذان كانا خارج استانبول معظم الوقت بحرازان الانتصارات، أو يقومان بغزواتهم المختلفة هنا وهناك. وخلال فترة الغياب هذه كان المسئولون يملأون فراغ القيادة.

وعلى حين ان العوامل السابقة تفسر بشكل جزئى الظروف التى جعلت من الصعب على السلاطين المتأخرين ان يكونوا فاعلين ومؤثرين كما كان حال السابقين. وتشير ايضا الى أسباب زيادة قوة رجال الادارة بشكل منتظم، الا انها لا تكفى لتفسير حالة الضعف الشخصى التى كان عليها معظم خلفاء السلطان سليمان الأول، ذلك ان الامراء العثمانيين ابتداء من أورخان كانوا يتلقون أفضل تعليم ممكن آنذاك وتدريب، اذ نراهم وقد تولوا ادارة الاقاليم برعاية ذوى الخبرة من الاداريين، فضلا عن توليهم بعض المناصب الأخرى فى بعض الحالات. وعلى هذا فعندما يجيى الوقت لاعتلاء عرش السلطنة، يكونون على دراية بالمشكلات والقضايا التى عليهم ان يتعاملوا معها، ويستطيعون الاعتماد على الولاء الشخصى لأولئك الرجال الذين كانوا يعملون معهم فى مختلف الوظائف التى تولوها.

والحاصل ان أسس تولي العرش فى بيت عثمان قبل سليمان الاول لم تكن قد استقرت، فكل أمير عثمانى كان يعتبر مرشحا للعرش. ومن هنا كان التنافس الحاد بين الامراء من ناحية وبين أتباعهم وانصارهم بالتالى، ومن ثم قيام حروب أهلية من آن لآخر. ورغبة من السلاطين فى الاحتفاظ بالعرش دون منافس، عمد كل واحد منهم الى التخلص من اقربائه الذكور. وقد أدى هذا الأسلوب فى اقتتال الاخوة الى سريان شعور التهديد بينهم، واستمرار حركة الانشقاقات ووجود الأجنحة المتصارعة بل لقد زادت قوة صناع حاكم المستقبل، وخاصة من داخل الجيش، وقيام المجابهات الجديدة كلما خلا العرش بوقاة السلطان.

ثم تغير هذا الموقف الخاص بنظام الوراثة بعثة عندما تبني سليمان الأول النموذج العربى الاسلامى فى خلافة المناصب، بان يتولى العرش أكبر الذكور الأحياء فى الأسرة. وعلى الرغم من عدم النص على هذا الأسلوب تشريعيا، الا انه اتبع بشكل متكرر. ومع هذا فقد كان من شأن هذا الأسلوب الأكثر انسانية فى اختيار الحاكم، ان يخلق موقفا أكثر تعقيدا من أسلوب قتل الأخوة بعضهم بعضا اذا ما استمر تعيين العدد الكبير من الأمراء كما كان الأمر فى الماضى فى المناصب الادارية الكبرى، والتى كانت بمثابة مرتكزهم للقوة والسلطة. ولقد توقف أسلوب قتل الأخوة فيما

بينهم، كما توقف ايضا تدريب الأمراء العثمانيين على الادارة والحكم نظريا وعمليا وحل محله ما يسمى «بالقفص»، ومعناه فى الأدبيات الغربية «أسلوب القفص الذهبى» حيث يحرم كل الأمراء عدا أكبرهم من ممارسة الحياة حتى يأتىهم الموت داخل القصر. وطبقا لهذا الاسلوب فالسلطان الجديد هو الذى يظهر للعالم، وأما الأمراء الاخرون فانهم يقضون ايامهم فى داخل القصر فى حياة الترف والرفاهية بين الحریم والخصيان (الطواشي)، حتى اذا ماساعدت الظروف أحدهم على ارتقاء العرش وهو فى أرذل العمر وضد رغبته غالبا، كانت تنقصه ليس فقط المهارة الضرورية للمهام الصعبة التى عليه انجازها، بل كانت تنقصه فى الواقع اى معرفة بأوجه نواحي الحياة كما ينبغى.

ان التغيير الذى حدث فى أسلوب وراثه العرش وفى تدريب حكام المستقبل، بفسره نمو قوة «الاندرون» وخاصة الحریم والطواشي بحيث أصبحت والدته الحاكم أحد الزعامات الأكثر نجاحا بين أجنحة «الاندرون» المتصارعة .. ولأنها لم تكن على علم اطلاقا بامور الدولة فكانت من ثم أقل العناصر تأهيلا لكى تصبح العنصر الأكثر أهمية ونفوذا داخل «المؤسسة الحاكمة».

ان نمو قوة الاندرون يرجع الى الروابط بين أجنحة الاندرون والبيرون، حيث لم يكن فى مقدور أحدهم العمل بمعزل عن الآخر. ولم تكن جماعة الاندرون تقدم الحاكم فقط، بل لقد كانت أداة فعالة فى اختيار خليفته. ومع هذا فلم يكن بإمكانها ان تتحكم دون تعاون جماعة البيرون. ومن المفهوم ان تنعكس فى هذه الأجنحة ايضا أصل عناصرها، وما اذا كانوا أحرار المولد أم عبيدا، بصرف النظر عن حقيقة ان عناصر جماعة الاندرون من العبيد كلية حتى فى عصر سليمان الاول، واحتفظوا بعلاقة وثيقة مع الرجال الأحرار الذين كانوا رقيقا فى الاصل. وكان من الطبيعى انهم يرغبون فى الاحتفاظ بمواقع القوة التى اكتسبوها ويفضلون السياسات التى دفعت بهم الى مراكز القوة والشهرة. وفى الوقت نفسه تطلع ابناء «الارستقراطية» القديمة من البكوات والغازى والسباهية الى استعادة مواقعهم التى فقدوها، ومن ثم أيدوا كل الاجراءات التى من شأنها تحقيق هذا الهدف. والحاصل انه اصبحنا أمام مجموعة كبيرة متغلغلة فى أجهزة الخدمات الداخلية والخارجية (الاندرون والبيرون) ربطوا مستقبلهم بنجم أمير من الأمراء، أو بنجم مشول بارز يتألقون معه ويأفلون معه.

وكان سدنة اى أمير من الأمراء يعتبرون اعتلاء أميرهم العرش نصرا مؤزرا لهم. لكن وضعهم كان يرتهن بعمدة حكم هذا الأمير بشكل أو بآخر. وأصبح تدبير المؤامرات على نطاق واسع الشغل الشاغل لرجال الادارة فى استانبول، بل واصبحت الوظيفة الدائمة أقل ضمانا عما كانت عليه فى سابق الايام. وعلى هذا فان اولئك الذين فى السلطة كانوا يعملون ليس فقط على جمع أكبر قدر من الثروة بأسرع وقت ممكن، بل كانوا يعملون ايضا بما يؤكد استمرار هذه الثروة لهم، أو لأسرهم على الأقل اذا ما دارت عجلة الحظ ضدهم. وأصبح تخصيص أوقاف وهمية باسمهم معفاة من الضرائب هو القاعدة من أجل المستقبل. ومن الملاحظ ان مثل هذه التصرفات لم تكن جديدة تماما، بل لقد حدثت فى فترة مبكرة ولكن على نطاق ضيق، وتمكن حكام اقوياء من نوع السلطان محمد الثانى وسليمان الاول من ابطالها، على حين لم يكن ذلك فى مقدور الحكام

الضعاف، والا انفض انصارهم من حولهم ووقعت الفرقة بينهم.

كانت الرغبة فى تجميع اكبر قدر من الثروة باسرع وقت ممكن أحد أسباب نمو فساد الرجال الذين كان كل همهم من المنصب تأمين الحصول على الأموال. ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد فقد كان التضخم أحد العوامل المهمة التى أسهمت فى حالة الفساد، وهو التضخم الذى بدأ فى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)، وكان يفسر بتدفق الفضة أو بتدهور قيمتها، والذى تسبب فى ارتفاع تكلفة البضائع ارتفاعا كبيرا وخاصة المستورد منها. وكان التضخم معناه ان دخل الاقطاعات يشتري بضائع اقل مما كان يحدث فى السابق، اى انخفاض القدرة الشرائية للدخل المتحصل من الاقطاعات عن ذى قبل، وخاصة فيما يتعلق بالسلع الترفيحية الفاخرة، ومن ثم فان أسهل طريقة لايجاد مصادر جديدة للدخل يكون «بيع» الخدمات، وكذا «الاسم التجارى». وليس من شك فى ان التغير فى سعر الفضة أسهم فى نمو الفساد الادارى ولكنه لايفسر العجز الضخم الذى حدث فجأة فى ميزانية الدولة، مما يعنى ان اسباب ذلك العجز لا بد وان توجد فى مكان آخر.

لقد سبق ان ذكرنا فى الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب ان السلطات العثمانية قامت بتثبيت أسعار المنتجات المحلية من المواد الغذائية الأساسية والسلع الاستهلاكية الاخرى. وأما الأسلحة بمختلف انواعها والزى العسكرى وسائر الحاجات العسكرية فانها تتأثر بالتضخم، لأنها كانت تنتج بواسطة العبيد فى ترسانات الدولة، أو بواسطة حرفيين داخل حدود الامبراطورية. وهذا معناه ان استيراد بعض الأشياء القليلة نسبيا بثمان مرتفع نتيجة التضخم، لايفسر هذا العجز الهائل الذى هيمن على ميزانية الدولة فجأة، والذى يرجع ظهوره الى عامل آخر حاسم يجب وضعه فى الاعتبار عند متابعة تدهور ثروات الامبراطورية، سواء بالنسبة للدولة او بالنسبة لتطور بلدان جنوب شرقى اوربا تحت الحكم العثمانى.

سبقت الاشارة الى أن أحد أسباب نقص ايرادات الدولة كان بسبب الزيادة المفاجئة فى عدد الوقفيات مما نتج عنه فقدان الخزينة جانبا كبيرا من مصادر الايرادات من جراء اعفاء الاوقاف من الضرائب. وبالإضافة الى ذلك كانت هناك أوجه نفقات كثيرة لم يكن بالامكان تغطية مصروفاتها حتى من خلال الضرائب غير العادية (الاستثنائية). وكان أكبر هذه النفقات وأعظمها ما كان يتصل «بالحروب الطويلة» مع النمسا (١٥٩٣ - ١٦٠٦)، والصراع القائم مع بلاد فارس. وقد كان لهذه الحروب وليس فقط التضخم، دور فى ايجاد المشكلات الاقتصادية، فضلا عن ايجاد مصاعب اخرى أدت الى نتاج بعيدة الأثر. ومن ناحية أخرى فكان من شأن الاعتماد فى الحرب بشكل أساسى على التجنيد الاجبارى الاقطاعى، وعلى القوات المرتزقة، التعميل بزيادة نفوذ قوات المعاشلية فى استانبول وسيطرتهم عسكريا على قوات الغازى الاقطاعية، والقضاء على معظم صفوف السباهية مما نتج عنه تغيرات بعيدة المدى اقتصاديا واثنوجرافيا، كانت لها اهمية كبرى بالنسبة للامبراطورية العثمانية بشكل عام ولتاريخ جنوب شرقى اوربا بشكل خاص.

ويقودنا دور هذا الجانب العسكرى فى تكوين ظاهرة التضخم الى آخر الأسباب المعتاد ذكرها لتدهور الامبراطورية العثمانية، وهو عبارة عن مجموعة عناصر متشابكة تتضمن ارتفاع شأن المرتزقة فى المؤسسة العسكرية أو نقص غنائم الحروب، وخاصة انكماش الاراضى الجديدة المفتوحة لاعانة اصحاب التيمارات وما ترتب على محاولات السباهية وضعهم اقتصاديا ووضع عائلاتهم. أما الشرح الذى يقدم عادة لهذه العناصر المتشابكة فيمكن تلخيصه فيما يأتى:

كانت الامبراطورية العثمانية دولة عسكرية أولا وأخيرا، تهتم اهتماما قليلا جدا بأمر التجارة والانتاج، وتعتمد على غنائم الغزوات والحروب كمصدر اساسى للدخل. وتأتى هذه الغنائم من هزيمة عدد كبير من الاقاليم أو البلدان، وتستخدم ايضا لاشباع حاجات العسكريين الاقتصادية بتقسيمها الى قطع فى شكل: «تيمارات». وعلى هذا فكلما كان التوسع الخارجى على نطاق واسع يمكننا، كلما كان فى مقدور الدولة ان تقابل مسؤولياتها. ولكن بمجرد وقف التوسعات لسبب أو لآخر، تصبح المشكلات أمر لا مفر منه، ولا يمكن تحاشيه.

وإذا ما وضعنا فى الاعتبار الطبيعة الحربية للدولة العثمانية من حيث ان الجيش يكون تحت الادارة الشخصية للسultan، وان الجنود يسرحون وقت الحصاد للذهاب الى مقاطعاتهم لتحصيل الايراد، وأن موسم القتال والغزوات كان محدودا لأنه يبدأ فى الربيع عندما تصبح الطرق صالحة للمرور وينتهى قرب وقت الحصاد، أدركنا ان وقت العمليات العسكرية كان محدودا للغاية. وبمجرد اتساع حدود الامبراطورية من أبواب فيينا إلى آذربيجان والعراق لم يعد هناك مجال للتوسع بعد ذلك، وهكذا انكمشت ايرادات الدولة من غنائم الحرب وأسلاها. ولما لم يعد بالامكان ايجاد اراض جديدة لتكون اقطاعات، عمل اصحاب الاقطاعات القائمة على الاحتفاظ بها عن طريق تحويلها الى حيازات أو ممتلكات خاصة.

ويعد هذا التفسير مرضيا بالنسبة للملاحظ السطحي للأمر .. فبوصول الامبراطورية العثمانية الى الحدود المشار اليها توقفت عن التوسع، وحدث ما حدث من التحول فى حيازة الاقطاعات. ولا شك ان هناك بعض عوامل مهمة فى هذه النقطة تشير الى علاقات سببية مختلفة. فمن الناحية النظرية البحتة كان على السلطان ان يقود جيشه بنفسه .. ولكن من الناحية العملية كان عدد كبير من السلاطين العظام يرسلون قواتهم فى الغالب تحت قيادة أخرى غيرهم. وأكثر من هذا اصبحت العناصر الاقطاعية فى الجيش عند نهاية القرن السادس عشر عناصر ثانوية غير اساسية. وتولى المرتزقة معظم المعارك الحربية، وهؤلاء لم يكونوا بحاجة الى العودة لارضيتهم فى الخريف. كما ينبغى أن نتذكر ان الحاجة الى تيمارات جديدة كان امرا ملحا فى نهاية القرن السادس عشر، لأن تيمارات فارس استوعبت قوات تركية من وسط آسيا. والحقيقة انه لم يكن بالامكان تخصيص او اعادة توزيع التيمارات التى اصبحت خالية فى أوروبا كنتيجة «للحرب الطويلة» لعدم وجود مطالبين بها. وعندما تدهورت الطبقة الاقطاعية القديمة، كان يجب ايجاد من يحل محلها لمباشرة زراعة الأرض. وهكذا فان الحاجة للأرض وليس ندرتها هو الذى خلق النظام الجديد لحيازة الارض. وهذا يعنى فى النهاية ان توقف التوسع العثماني لم يكن سببا فى تدهور الاوضاع الاقتصادية.

وإذا ما أخذنا فى الاعتبار عاملين آخرين سبق مناقشتهما فسوف تظهر أمامنا صورة مختلفة تماما: من ذلك مصالح الحكومة العثمانية فى التجارة وحيلها لتحويل حكام الاقاليم المحيطة (القرم، ومولدافيا، وولاشيا، ودوبروفنيك، وترانسلفانيا) الى اتباع اقطاعيين. ومن ناحية أخرى كانت محاولة السلطان سليمان الاول لتحويل وسط المجر الى تبعية اقطاعية من هذا النوع تشير الى ان السلطات المركزية فى استانبول أدركت محدودية قدرتها على حكم الاراضى الممتدة حكما مباشرا، وأنه على حين كانت هذه السلطات مستمرة فى مواصلة «رسالتها» فى توسيع دار السلام، فانها لم تضع المستقبل الاقتصادى للدولة على أساس الدخل الناتج من الغنائم والاسلاب. وفى هذا الخصوص تجب الإشارة الى انه لم يكن من المفترض ان تقوم الدولة بتجريد الولايات التابعة من كل منتجاتها .. اذ ان كل ما كان عليها هو ان تدفع الجزية فقط. ولهذا فانه يتعين على المرء ان يفترض فى أماكن أخرى عن تفسير ملامح التدهور العسكرى والمالى للامبراطورية العثمانية، والابتعاد كلما أمكن عن التفسيرات المعتادة التى تقدم والتى تتلخص فى عجز الدولة عن توسيع حدودها الى أبعد مما ذهبت اليه.

ففى خلال الفترة نفسها كانت اوربا الغربية تقاسى من التضخم وتعانى من المشكلات السكانية المتصلة بتكرار منتظم للطاعون. ومع ذلك فقد كانت قادرة على التغلب على هذه المضاعف، والتوصل الى تخطيط منهج جديد جعلها تتزعم العالم. لكن الدولة العثمانية لم تواجه المشكلات نفسها بأسلوب مشابه، وهذا هو وجه الاختلاف الذى يتعين شرحه وتفسيره، لأنه فيما يتعلق بالمساحة والثروة كانت الامبراطورية العثمانية كفرنسا والاراضى المنخفضة أو المجلترا. أما فيما يتعلق بالمؤسسات والاقتصاد والمبادئ الأساسية فى كل من الغرب والدولة العثمانية، فليس هناك مجال للمقارنة بينهما، لكن الإشارة الى بعض الامور تكفى لتوضيح هذه الاختلافات والفروق ...

فالولا هناك اختلاف كبير بين وضعية ومكانة الحكام فى الغرب، ووضعية ومكانة السلطان العثمانى .. فالحاكم فى الغرب بدأ كرأس لبناء هرمى اقطاعى كان على قمته بسلطات محدودة. ورغم ان هذه السلطات كانت تزداد بشكل منتظم، الا انها كانت دائما محدودة، والعكس صحيح تماما بالنسبة للسلطين. ولهذا السبب كان الحاكم الضعيف فى الدولة الغربية أقل شرا بكثير من السلطان الضعيف. كما ان نمو حريات المدن وتعاضم قوتها والذى أتاح وقوع التغيرات الاقتصادية عندما اصبح امرا ضروريا، لم تتوازى مع امتيازات مشابهة منحت للمدن تحت الحكم العثمانى. فقد كانت اوضاع المدن العثمانية وتنظيماتها الداخلية منظمة تنظيما صارما بحيث اذا حاول اى فرد او مجموعة ادخال اى عناصر للتغيير، يواجه بمعارضة من السلطات المحافظة المتشددة، التى تسند وتدعم اولئك الذين يعارضون الابداع والتجديد. ونتيجة لذلك كان اقتصاد اوربا الغربية فى نهاية القرن الثامن عشر قد اصبح «حديثا» فعلا، على حين كان اقتصاد الامبراطورية العثمانية ما يزال ينتمى «للعصور الوسطى». لقد كان عنصر المحافظة الذى ساد كل مجالات وأوجه الحياة هو الذى حول الدولة العثمانية من قوة تكنولوجية متكافئة وعلى قدم المساواة والندية مع اعدائها فى النصف الاول من القرن السادس عشر، الى قوة «متخلفة» فى نهاية القرن الثامن عشر. ان هذه بضعة

عوامل تضاف الى التخلف الاقتصادى والتأخر التكنولوجى، والعجز عن التعامل مع المشكلات المادية.

وفى مجال المقارنة بين الامبراطورية العثمانية والغرب بعد منتصف القرن السادس عشر، يأتى الاختلاف بين دور الجيش فى كل منهما، وهو عامل له اهميته شأن الاختلافات الاقتصادية. ففى كل من المنطقتين حدث تدهور لأهمية القوى الاقتصادية وارتفاع لقيمة الجيوش النظامية المحترفة. وفى نهاية القرن السادس عشر مثلاً بلغ عدد العسكر الاقطاعيين فى اوربا وآسيا الصغرى (من السباهية والجيبلو (اى من اتباع التيمارلى) مائتين وثلاثون الف محارب، على حين كان بالامكان فى نهاية القرن الثامن عشر حشد خمسون الف محارب فقط. ولم يكن هذا النقص فى حشد الجند شيئاً مأساوياً، ذلك ان تحديث أساليب الحرب وتكوين أسلحة المشاة والقوات الفنية، فرص التقليل من الاعتماد على العسكر التقليديين. وإذا ما وضعنا فى الاعتبار الاهداف الادارية التى قام بها السباهية، أدركنا أن اختفاءهم كان يعنى ضرورة تقديم عدد كبير من الموظفين المدنيين كبديل، الا ان هذا لم يحدث بسبب ما كان ينقص الامبراطورية العثمانية من أموال ومن عناصر مدربة تدريباً مناسباً للقيام بعبء العمل الادارى. وهكذا بدلاً من ان تتولى طبقة محترفة جديدة أمور الادارة فى الدولة، عهد بوظائف السباهية الى موظفين خربى الذمة، وإلى رجال الدين من المسلمين واهل الذمة على السواء، والى ملتزمين. وكانت لكل فئة من هذه الفئات مصالحها الخاصة التى وضعتها نصب عينها واهتماماتها، وليس مصالح الدولة التى لم تكن تدفع لهم اية مرتبات.

أما الجنود المحترفون من قوات المعاشلية فقد كانوا من المرتزقة كما كما الحال فى الغرب الاوروبى، رغم ان القوات العثمانية كانت من العبيد أساساً. ولما كانت القوات الغربية تتكون من رجال أحرار فقد جعل هذه علاقاتهم بالدولة وبالحاكم أشبه بعلاقة العمال واصحاب الاعمال مع ما يمكن ان يخلقوه من اضطرابات ومشكلات. لكن السلطان العثماني كان يملك جنوده، وعليه يقع عبء رعايتهم حتى عندما لا يكون بحاجة اليهم. ومن ناحية اخرى كان من شأن تبعية قوات المعاشلية للدولة ان اصبح من المستحيل على الحكومة العثمانية «اعادتهم الى بلدانهم» عندما تتعذر الحاجة اليهم، فجعلت منهم بذلك قوة عسكرية دائمة لها دور فى شئون الدولة. ولقد ترتب على ذلك نتيجة مؤداها انه على حين اصبح الحكام فى الغرب الاوروبى سادة جيوشهم واصحاب الأمر والنهى، كان العكس فى الامبراطورية العثمانية حيث أصبح العسكر هم سادة الدولة واصحاب الأمر والنهى فى أمورها. وهكذا ففى نهاية القرن الثامن عشر بلغ عدد الذين طالبوا بامتيازات الانكشارية وكانوا آنذاك فى شكل هيئة ورثت هذا النظام، أربعمائة الف لم يكن يصلح منهم للخدمة العسكرية سوى عشرين ألف. وعندما حاولت الحكومة تقوية مركزها فى العاصمة بالتخلص من هؤلاء الرجال المسلحون المتمركزين فيها وذلك بارسالهم الى الاقاليم ليكونوا حاميات عسكرية، فانها لم تفعل أكثر من نقل المشكلات الى الاقاليم، حيث لا قانون ولا نظام يحكم العلاقات. وكانت النتيجة مزيد من المشكلات الاقتصادية وتضاؤل ولاء أهل الذمة نحو الدولة.

وأخيراً هناك اختلاف كبير فى التصورات الأساسية لكل من الامبراطورية العثمانية والغرب

الأوربي .. فالاساس الجوهري للامبراطورية العثمانية والتنظيم الادارى لم يتأسس او يتكون بشكل حديدى صارم فقط (انظر الفصل الثانى)، بل كان غير قابل للتغيير، اذ ان دولة آل عثمان وجدت لغرض وحيد، الا وهو تنفيذ مشيئة الله على الارض بنشر الاسلام. وفي هذه الحالة فما هو خطأ وما هو صواب معروف سلفا، والفروق بين المسلمين وأهل الذمة واضحة ولا يمكن تغييرها، أما الغرب فلدية قدر معين من حرية التفكير، وحرية التجربة، والتوصل ليس فقط الى فلسفات جديدة بل الى تفسيرات جديدة للمسيحية. والعالم العثماني عالم جامد، على حين ان الغرب الأوربي كان متغير دوما، ويتكيف مع المتطلبات الاجتماعية-الاقتصادية والسياسية لعالم بتوسع بانتظام أصبح هو مركزه. وفي الغرب الأوربي بدأت الدولة الحديثة تأخذ شكلها وأصبحت تعنى أشياء وأشياء حتى لأقل مواطنيها شأنًا. أما الامبراطورية العثمانية فقد سارت فى الطريق العكسى. وعلى حين حل القانون المركزى فى الغرب محل القانون الشخصى. ظلت الامبراطورية العثمانية عبارة عن مجموعات من الأفراد يعتمد وضع كل منهم وحقوقه وواجباته كلية على عقيدته الدينية ومهنته أو وظيفته. وقد حدث أن تعمق الفرق الأصيلى فى صفوف المسلمين بين الموظفين العثمانيين وأصحاب العقائد الحقيقية عندما أغلق الموظفون العثمانيون باب الخدمة عليهم لحماية امتيازاتهم، وجعلوا الانضمام الى صفوفهم مسألة أكثر صعوبة. ولم تكن الحكومة قوية بدرجة كافية لكى توقف تطور الامور بهذا الشكل. والحاصل ان أهل الذمة وقد تجمعوا كل فى ملته، اصبحوا أقل اهتماما فى استمرار احياء الدولة العثمانية عندما توقف القانون والنظام كلية، وحل محله التعصب الدينى فى البداية، ثم ترحيل العناصر غير المرغوب فيها من استانبول الى الاقاليم. وهكذا فان التطور البطيئ للقوميات الحديثة الذى حدث فى الغرب لم يحدث فى عالم السلطنة العثمانية فقط، بل لقد بدأ تماسكة الغامض فى التفكك.

وفى تلخيص مختلف تلك الأسباب المترابطة التى يؤثر كل منها فى الآخر لتفسير التدهور المفاجئ للامبراطورية العثمانية، والذى يبدو انه بدأ فى الثلث الأخير من القرن السادس عشر .. ففى تقديرى يأتى تصور الدولة فى ذهن العثمانيين على انها «الصيغة المطلقة لبيت عثمان المزدهرة بفعل الحماية الالهية» سببا يفوق كل الاعتبارات والتفكيرات والأسباب الأخرى. وعلى حين كان هذا التصور قوة كبرى للامبراطورية قبل فتوحات السلطان سليم الاول وسليمان الاول، أصبح ضعفها الكبير عندما اصبح حجم الدولة وتعدد الأهداف الملقاة على عاتق الحاكم، أكبر من امكانيات أكثر الرجال قدرة على التعامل معها وأى تغيير قد يحدث فى الواقع وان كان غير مقبول نظريا، لابد وأن يتضمن نمو فى قوة ونفوذ اولئك الذين لا يخول لهم الوصول الى السلطة والنفوذ، وهم اولئك الذين كانوا يتعرضون للتحدى المستمر. وقد ترافق هذا العامل مع التغيير الذى حدث فى نظام أو اسلوب وراثة العرش مما أدى فى النهاية الى عدم الاستقرار فى الحكومة، وجعل وقوع الفساد أمرا ممكنا. ولم يحدث ان تخلت الدولة العثمانية عن رسالتها السماوية، لكن هذه الرسالة حالت دون تكامل وتألف سكانها، بل وخلقت اتجاهات مركزية طاردة بعد تلاشى ظاهرة التسامح وضياع القانون والنظام. والحال كذلك .. كان التصور الأساسى القديم للدولة العثمانية بحاجة الى تنقيح ثورى بعد منتصف القرن السادس عشر. لكن فى هذا الوقت كانت روح المحافظة التى تبرر كل شئ

سلفاء، وغياب قطاع مهم من السكان يعرف الكثير عن النظم الأخرى فى الحكم حتى ولو مجرد التفكير فى شىء مختلف، جعل الإصلاح أمرا خارج نطاق التصور والتخيل. وهكذا .. نتجرت الامبراطورية العثمانية فى منتصف القرن السادس عشر وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر.

وأما الذى حدث حوالى منتصف القرن السادس عشر عندما أصبح هذا التحجر حقيقة ماثلة، يمكن مناقشته، فقد يعتبر عند البعض أمرا حتميا لم يكن بالامكان تخايشه أو قد يعتبر نتيجة لمجموعة من التطورات المشعومة التى تصادف حدوثها كلها فى آن واحد. ولنطرح هذا التساؤل .. هل عدم قدرة الدولة على التعامل مع الازمات الاقتصادية - المالية التى ظهرت فجأة يعتبر أمرا لا يمكن تخايشه .. أم هل كان من سوء الطالع المشعوم أن هذه المشكلات المهمة واجهت الدولة فى وقت عز فيه الرجال القادرون على التعامل معها؟؟ . وأيا ما كان الأمر فإن هذه الازمات اضافت الى الفساد الادارى المتنامى ابعادا أخرى للأزمة وهى عدم قدرة الحكومة وعجزها، وظهور الاتجاهات الطرد المركزية من العاصمة لهؤلاء الذين لم يكونوا «موظفين عثمانيين».

ويبقى أخيرا ان نضع فى الاعتبار توقيت «الحرب الطويلة» كعامل أولى فى التدهور السريع الذى حدث فيما يتعلق بمصير الامبراطورية العثمانية، وهى الحرب التى زادت من نفوذ قوات المعاشلية. وأهلكت صفوف السباهية فى اوربا، وخربت مساحة كبيرة من أجود اراضى المجر، وعمقت من الأزمة الاقتصادية بما رافقتها من نفقات باهظة تطلبتها العمليات العسكرية. وغيرت الموقف تماما فى أقاليم أوربا العثمانية والتى كانت حتى قيام تلك الحرب الأساس الأكثر صلابة فى دوام الامبراطورية. وبمجرد ان توقفت هذه الاقاليم عن ان تكون دعامة الامبراطورية اقتصاديا وديموجرافيا، زاد التدهور ولم يعد حتى فى امكان الصدور العظام من أسرة كوبروللو ايقاف التدهور او تخويل مساره. لقد كانت التغيرات التى وقعت فى جنوب شرقى اوربا حاسمة بالنسبة لمصير الدولة العثمانية. كما كانت فيما يبدو أكثر الحوادث التى وقعت أهمية بالنسبة لأولئك الذين يهتمون بتاريخ مصائر وأقدار سكان جنوب شرقى أوربا بشكل وثيق مثلما كان عليه الحال فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٢ - حروب القرن السابع عشر وعصر اسرة كوبروللو

كانت أول حرب دخلتها الامبراطورية العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان الاول، الحرب التى كانت ضد ما كان يسمى «التحالف المقدس الثانى» (١٥٧١ - ١٥٨١)، وهى أكثر الحروب شهرة بالنسبة لهزيمة العثمانيين فى معركة ليبانتو البحرية فى ١٥٧١. والحقيقة ان المعركة كانت غير مهمة بالنسبة للعثمانيين لأنهم سرعان ما عوضوا خسائهم خلال عام. ولم يكن بإمكان اعدائهم استغلال النصر الذى أحرزوه. ومن ناحية أخرى كان انتصار العثمانيين على قبرص التى اعترفت بفقدها للبندقية عندما انسحبت من الحرب فى ١٥٧٣، كان يمثل تقدما عسكريا له مغزاه. وكان الجيش العثماني خلال هذه الحرب مايزال يقوم بوظائفه على أكمل وجه تحت القيادة

القوية لسنان باشا الصدر الأعظم فيما بعد. ويجب ألا ننسى أنه في الوقت الذي كانت هذه الحرب تشتعل في أوروبا كان العثمانيون يحاربون الصفويين في فارس أيضا. وكانت هذه الحرب إيذانا بوباد الاضطرابات التي حدثت فيما بعد مع الجيش .. ففي استانبول تمردت فرق الانكشارية في اعوام ١٥٨٩، و ١٥٩٠، و ١٥٩١. وتمرد فرسان المعاشلية في ١٥٩٣ وهو العام نفسه الذي بدأت فيه «الحرب الطويلة». وقد وقع أول تمرد حقيقي في آسيا الصغرى عام ١٥٩٦ وكان يعرف بتمرد كيلالي Celali (وقد سبقته عدة تمردات). وقد أضعف استمراره في القرن التالي قوة الاناضول كقاعدة للامبراطورية، في الوقت الذي كانت قاعدتها الاوروبية تتفكك أيضا.

على كل حال .. ففي ١٥٧١ كان الجيش العثماني مايزال قادر على القيام بحملات عسكرية والدخول في معارك. أما في ١٥٩٣ فكانت قدرة القوات العثمانية على القتال موضع تساؤل. فرغم ان القوات العثمانية كانت تتمتع بقيادات قوية مثل سنان باشا ثم السلطان محمد الثالث، الا ان «الحرب الطويلة» دللت على حدوث تغيير في قدرتهما على استغلال الظروف .. فطوال عشر سنوات وحتى الهجوم على الفرس في ١٦٠٣، كان العثمانيون يحاربون في جبهة واحدة ضد قوات فقيرة التنظيم. وهكذا .. وحال اتضح ان مساندة الهابسبورج لتحالف بين مولدافيا وولاشيا وترانسلفانيا قد يحرز انتصارا حاسما، وجدنا ان اضطراب زجموند بانورى وعدم استقرار احواله، وتركيز الهابسبورج على هزيمة ترانسلفانيا أكثر من ضرب العثمانيين، وضعف كفاءة قادة الهابسبورج العسكريين .. كل هذا أدى الى تغيير المد لصالح العثمانيين الذين احرزوا نصرا مؤزرا في معركة ميزوكرشتر Mezokeresztes في أكتوبر ١٥٩٦. والحق ان مثل هذا النصر لو حدث قبل خمسين عاما لكان كفيلا بحصول العثمانيين على امتيازات مهمة بمقتضاه. ولكن في نهاية القرن السادس عشر كان الجيش العثماني قد أصبح غير قادر حتى على استغلال او استثمار نجاحاته وانتصاراته. غير ان الحرب طال أمدها لعشر سنوات أخرى أحرز الجانبان فيها انتصارات جزئية هنا وهناك، لكن الامبراطورية العثمانية كانت محمطة اقتصاديا وتواجه حربا على جبهتين. وعندما تمردت الانكشارية في ١٦٠٣ لم يعد العسكر راغبين في مواصلة الحرب أكثر من هذا.

وفي عام ١٦٠٥ لم يعد بإمكان العثمانيين الابقاء على مرشحهم ستيفن بوشكاي Bocskai على عرش ترانسلفانيا. وفي العام التالي اضطروا لعقد صلح زيسشتاتوروك Zsitvatorok على الجبهة الغربية، وتحويل كل اهتمامهم نحو بلاد فارس. وكان من نتائج هذا الصلح تدمير مزيد من الاراضى المجرية وتحويلها الى مناطق خربة، مع مكاسب لا تذكر للعثمانيين، لكنه أنهى دفع الجزية من قبل الهابسبورج. واذا ما استخدمنا التفسير الاسلامي - العثماني المحدد في هذا الخصوص، فان هذا الصلح كان يعنى ان العثمانيين اطلقوا سراح «تابع» وتخلوا عن ارض تعتبر طبقا لتصورهم الفكرى النظرى جزء من دار الاسلام. ومن الملاحظ انه خلال هذه الحرب كانت القوات العثمانية تخارب بشكل جيد الى حد ما من آن لآخر. لكنها في كل الاحوال كانت ماتزال قوات قوية وقادرة دائما. وأكثر من هذا فان الدولة لم تستطع تعويض نفقات الحرب وخسائرها فى الارواح والاقتصاد

باحراز قيمة متساوية لما فقدته. وهكذا ورغم النصر الظاهري الذي احرزته العثمانيون، وحيازة أراضى جديدة اضافية، الا انهم عانوا من خسارة لم يكن بالامكان تعويضها ابدا.

ورغم عقد الصلح، الا ان العثمانيين والهابسبورج استمروا فى الاشتباك فى مناقشات على الحدود من آن لآخر، حيث استطاع العثمانيون فى أحد هذه المناوشات احتلال مدينة فاش Vacz ووضعها تحت حكمهم فى ١٦١٩. لكن ما حدث كان يرجع الى غباء قادة الهابسبورج العسكريين أكثر من كونه راجع لقدرة القوات العثمانية.

على أن اهم نتائج الحرب الأكثر أهمية هو انتهاء العمل بنظام الدفشرمة فى تجنيد الانكشارية، وهو أمر يرجع فى الغالب الى عام ١٦٣٨، ورغم ان استخدام ضريبة الاطفال (أخذ نسبة معينة من أطفال كل قرية كضريبة ويتم تنشئتهم تنشئة اسلامية عسكرية) بشكل متكرر قد قل قبل نصف قرن من ذلك، الا ان الالغاء الرسمى لهذا النظام كان دلالة واضحة على زيادة نفوذ الانكشارية على السياسة العسكرية. وقد ضمن الغاء الدفشرمة عضوية دائمة لعناصرها فى الهيئة العسكرية بالميراث، وكان بداية انتهاء دورها كوحدة من وحدات الحرب وبروزها كعنصر خطر مدمر.

أما العمل العسكرى المهم التالى للعثمانيين فى اوربا فقد بدأ بهجوم على كريت التى كانت فى حوزة البندقية فى عام ١٦٤٥. ولقد عسكت هذه الحرب التى استمرت حتى عام ١٦٧٠ أفول نجم العثمانيين رغم انها انتهت بهزيمة كريت. اذ كانت الحملة تتطلب عمليات حصار ونشاط بحرى كان يستلزم عدد محدود من الرجال. وقبل قرن من هذا الواقعة كان بإمكان العثمانيين توفير القوة المطلوبة لمثل هذه العملية دون اضعاف القوة الرئيسية للجيش. أما تلك العملية فكانت تستدعى سحب كل القوات ذات الكفاءة التى يمكن حشدھا. وعلى هذا فلم يكن بإمكان القائد البندقى فرانسيسكو موروسيني Morosini ان يحارب فى المورة فقط، بل كان من السهل عليه ان يغرى السكان بالتمرد. وبالتالى كان على العثمانيين أن يعتمدوا على قوة أخرى اضافية تسحب من البانيا او يعتمدوا على لوردات المنطقة الاقوياء للاعداد للمقاومة التى يمكن تنظيمھا.

وطوال فترة الحرب عمت الفوضى شبه الجزيرة المهمة هذه. وأدت مع بطء احراز تقدم فى جزيرة كريت وهزائم الاسطول المتكررة إلى أزمة فى استانبول. ففى ١٦٥٦ أرغم السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) على تعيين محمد كوبروللو صدرا أعظما بسلطات مطلقة. وهكذا بدأ عصر أسرة كوبروللو (انظر الملحق رقم ٢)، وهو تعيين جاء فى وقته تماما، فقد كانت مغامرة جورج الثانى راكوتشى الفاشلة فى بولندا (انظر الفصل السابع)، والمظهر الضعيف للقوات العثمانية اثناء محاربة البنادقة مشجعا للهابسبورج على مهاجمة العثمانيين فى ١٦٦٣. وأصبحت اراضى البارتيوم Partium المهمة المكتسبة حديثا (انظر الفصل السابع) وغيرها فى خطر. ولأن العثمانيين كانوا غير قادرين على المقاومة بشكل خطر، فقد أنزلت بهم هزيمة ساحقة فى سانت جوتثارد St. Gotthard فى ١٦٦٤. ورغم ان الهابسبورج حققوا هذا الانتصار العظيم، الا انهم كانوا أغضبى من ان يستغلوا مثل هذه الانتصارات الكبرى شأن العثمانيين بعد معركة ميزوكيرشتز Mezokeresztes. ولقد لعب

غباء الجنرال ريمونديو مونتكيشولى Raimondo Montecucculi دورا مهما في اخفاق قوات الهابسبورج في الافادة من النصر. لكن السبب الرئيسى الذى حال دون ان يدفع العثمانيون الثمن غاليا لعدم استعدادهم للحرب الموقف فى اوربا الغربية آنذاك لأن فيينا كانت مغتربة لعقد هدنة فازفار Vasvar مع العثمانيين فى ١٦٤٤ مما أتاح للعثمانيين فرصة أكمال هزيمة كريت، كما أعطى أسرة كوبروللو الوقت لايقاف تفكيك الامبراطورية بصفة مؤقتة على الأقل.

كانت عائلة كوبروللو والتي أعدت طائفة من الادرايين المتميزين، والجنود، والدراسين لبلدهم منذ منتصف القرن السابع عشر، من أصل ألبانى تنتمى لجماعة من الألبان الذين تم توطينهم قسرا فى آسيا الصغرى منذ فترة مبكرة. وكان محمد كوبروللو أول افراد هذه العائلة شهرة ورفعة، قد بدأ عمله فى «البيرون» فى صناعة الفطائر (فطاطرى)، ومن هذه البداية المتواضعة ارتقى بسرعة فى سلك الخدمات حتى أصبح فى السنوات التالية حاكما لدمشق، وطرابلس، والقدس، وقسطنديل. وعندما عينه السلطان محمد الرابع صدرا أعظما كان قد بلغ السبعين من العمر. وقد طالب محمد باشا كوبروللو بسلطات كاملة قبل توليه المنصب. واستجاب السلطان لطلبه خاصة وان السلطان كان رجلا لعوبا لايهتم الا بحياة اللهو والمتعة. وكان من حسن حظ السلطنة ان حافظ السلطان محمد الرابع على كلمته ولم يتدخل فى شؤون ادارة الصدر الأعظم محمد كوبروللو وابنه احمد من بعده، وهو موقف يحسب له اذ لم يكن هناك مواقف تذكر له فى تاريخ الدولة العثمانية.

ولما كان الصدر الأعظم محمد كوبروللو قد عقد العزم على تغيير مجرى التدهور الذى لحق بالامبراطورية، فقد هاجم بشدة ما كان يعتبره السبب الرئيسى فى هذا التدهور، ألا وهو الفساد وتحقيقا لهذا نسب اليه فى خلال الخمس سنوات التى امضاها فى منصبه، انه أصدر أوامره بشنق حوالي ثلاثين ألفا من المسؤولين والعلماء بتهمة الاختلاس، او بتهمة ارتكاب خطايا وذنوب اخرى، الأمر الذى أجبر الآخرين على الامتثال للفضيلة والاستقامة. وعلى هذا دخلت الخزينة مرة أخرى كافة الايرادات التى كانت تدخل فى جيوب اولئك الموظفين، بالإضافة الى ان الصدر الأعظم محمد باشا أنقص عدد اولئك الذين يتقاضون مرتبات ثابتة من الدولة، ويفضل هذه الاجراءات انخفض العجز فى ميرانية الدولة بشكل واضح من ١٦٠ مليون آقجة فى ١٦٥٣ الى ١٢ مليونا فقط فى ١٦٦٠^(١) لقد كان محمد كوبروللو مهتم أساسا باستعادة كفاءة الجهاز الادارى للامبراطورية العثمانية، وانتهاء مظاهر انحراف وفساد الموظفين والمسؤولين باختلاف مستوياتهم. وقد عهد بمسئولية العمليات العسكرية الى ابنه أحمد وخليفته فى منصب الصدارة العظمى الذى كان قائدا عسكريا قديرا جدا.

والجدليز بالذكر ان أحمد كوبروللو هذا الذى خسر معركة سانت جوتشارد التى سبقت الاشارة اليها، هو نفسه الذى قاد حملة كريت الى النصر فى النهاية، وهو ايضا الذى بعد ان اصبح

(1) Gibb and Bowen, Islamic Society and The West, Vol. pt. 1, p. 26, n.1.

وقد أشار هذان المؤلفان الى أن أرقام العجز المتوفرة بين عامى ١٦٥٣، ١٦٦٠ لا يمكن الاعتماد عليها.

صدرا أعظما بعد أبيه، انتهز فرصة فترات الهدوء النسبي لمواصلة العمل الذى بدأه أباه، كما حاول باعتباره عسكريا، إعادة تنظيم الجيش بتشكيل وحدات عسكرية جديدة من فلاحى الاناضول لموازنة القوة المتنامية للانكشارية. وفى هذه الخطوات تكمن بداية مستقبل الجيوش العثمانية. غير ان هذه القوات الجديدة التى عرفت باسم «الغونوللو» اى المتطوعين، لم تصبح ابدا قوية بالدرجة التى تفى بالغرض الذى كان فى ذهن أحمد باشا الصدر الاعظم. وعندما تهافت الأيدى القوية لعائلة كوبروللو أصبحت الانكشارية مرة أخرى قوة شيطانية.

انتهت الحرب مع بولندا (١٦٧٢ - ١٦٧٦) التى وقعت فى آخر سنوات فترة أحمد كوبروللو فى الصدارة العظمى بحصول الامبراطورية العثمانية على آخر مكسبها من التوسع الاقليمي فى تاريخها. وقد بدأت هذه الحرب عندما تمرد القوزاق ضد بولندا وتحالفوا مع تاتار القرم وطالبوا بالحماية العثمانية. وقد تم لهم ما أرادوا حيث قاد أحمد باشا بنفسه القوات العثمانية التى أحرزت النصر النهائي. وفى صلح زورافنو Zurawno الذى عقد بعد الحرب، تنازل البولنديون عن بودول Podole وغرب أوكرانيا للعثمانيين، ووافقوا على دفع جزية سنوية مقدارها ٢٢٠٠٠٠ دوكية. وهناك انتصار آخر احرزه العثمانيون ويتمثل فى الاستيلاء على جزيرة تينوس Tenos فى ١٧١٥ لكنه لم يكن ذو مغزى أو أهمية.

على كل حال.. لقد كان النصر أمرا عابرا اذ كان على العثمانيين بعد ان تمركزوا فى أوكرانيا ان يواجهوا لأول مرة قوة روسيا المتنامية. وقدر لخليفة أحمد باشا فى منصب الصدارة العظمى (قره مصطفى كوبروللو) ان يبدأ عهده بأول حرب عثمانية مع الروس فى ١٦٧٧، وهى الحرب التى استمرت أربع سنوات، وانتهت بأول خسارة دائمة لاراضى الدولة عندما تنازلت فى صلح رادزين Radzyn عن غرب أوكرانيا لقبصر روسيا.

لقد اختار كارا مصطفى اللحظة المواتية لتجديد الحرب ضد الهابسبورج. والسؤال الذى يطرح نفسه الان .. لماذا لم يكن واضحا تماما ان هذا الرجل كان أمينا على الرغم من انه لم يكن موهوبا مثل محمد واحمد كوبروللو، أول اثنان توليا منصب الصدر الاعظم. كما كان رجلا طموحا جدا وغير آمن الى حد ما فى منصبه لأنه لم يكن ينتمى الى الفرع الرئيسى لعائلة كوبروللو، ومدين بمنصبه الى صداقته للسلطان، ولا شئ غير ذلك.

وعلى هذا، وفى ضوء كل الاعتبارات، وهزيمة العثمانيين فى أوكرانيا يبدو ان الرجل كان يريد احراز نصر كبير يدعم به وضعيته الوظيفية. ومهما يكن من أمر، فقبل بدات المشاحنات بين الطرفين فى ١٦٨٢ حيث قاد الصدر الاعظم جيشا ضخما قواته مائتى ألف مقاتل، فضلا عن جيش الاتباع الذى يصاحب دائما الجيوش العثمانية فى المعارك الى ابواب فيينا. وقد استطاعت قوات الكونت روديه فون ستارهمبرج Rudiger Von Starhemberg القليلة العدد الدفاع عن المدينة. لكن مصير المعركة تحدد بالقيادة السيئة لقره مصطفى الذى اتاح الفرصة لقوات المانية اضافية بقيادة تشارلز اللورينى، وجيشا بولنديا كبيرا بقيادة الملك جون الثالث سوبيشكى (Sobieski ١٦٧٤) -

١٦٩٦) لأخذ مواقع حول الجيش العثماني فقط دون تحرش أو اعتداء. وعندما قام الاعداء بمهاجمة الجيش العثماني في ١٢ سبتمبر أرتكب قره مصطفى عدة أخطاء تكتيكية أصبحت الهزيمة معها أمرا لا مفر منه. وهنا قرر الامبراطور ليوبولد الاول (١٦٥٧ - ١٧٠٥) ان ينتهز الفرصة لاستغلال هذه النصر، رغم انه كان ما يزال منغمسا في مشكلات اوربا الغربية، حيث وضع قواته تحت قيادة ثلاثة من أبرع الجنرالات وهم : شارلز اللوريني، ولويس أوف بادن، ويوجين أوف سافوي.

وفي تلك الاثناء كان السلطان العثماني قد أمر بشنق الصدر الاعظم قره مصطفى لقيادته السيئة أمام ابرناب فيينا، ومن ثم واجه الجيش العثماني الذي فقد كثيرا من رجاله، العدو القادم دون قيادة قوية. وبناء على هذه التطورات انضمت البندقية الى بولندا والهابسبورج، وتكون الحلف المقدس الثالث. وبهذا انشطرت القوات العثمانية وسارت قوات الهابسبورج وقوات البندقية من نصر الى نصر. ففي المجر سقطت بودا في ١٦٨٦، واحرز تشارلز اللوريني نصرا حاسما في العام التالي في معركة موهاكز الثانية. في الوقت نفسه كان البنادقة يتقدمون في المورة، وفي نهاية عام ١٦٨٧ كان موروسيني على رأس الجيش مرة أخرى تعاونه وحدات المانية بقيادة مكسميليان البرونزويكي، قوات سويدية بقيادة أوتو فون كوينجماركس Koengsmarks، وبعث وحدات ايطالية حيث استطاع تحقيق نصر على كل المنطقة، وفي العام التالي استولى الحلفاء على اثينا (وكانت مدافعهم قد حطمت البارثينون). وكان عجز العثمانيين الواضح عن الحرب، دافعا للروس لكي يعودوا الى معمة القتال حيث استطاعوا حصار آزوف في ١٦٨٧.

لقد أهاجت كل هذه الاحداث وخاصة الهزيمة في موقعة موهاكز، الجنود العثمانيين الذين أزعوا السلطان على التنازل عن العرش، بينما كانوا يتظاهرون في استانبول وبيرون الشغب، بل وحطموا أجزاء من المدينة. وبعد هذا ظهر السلطان الجديد سليمان الثاني (١٦٨٧ - ١٦٩١) من «قفصه الذهبي» دون ان تكون لديه أية معلومات عن الموقف أو اى فكرة عما يجب عمله، بل ان الادارة المركزية توقفت عن القيام بوظائفها من الناحية العملية. وفي العام التالي واصلت قوات الهابسبورج انتصاراتها داخل المجر حيث قامت بتطهيرها من القوات العثمانية، وعبرت نهر الدانوب وهزمت بلجراد، وواصلت زحفها بمحاذاة النهر حتى فيدين Vidin التي سقطت في ١٦٨٩. وفي العام نفسه وفي طريقها الى الجنوب دخلت نيش. ومن الطبيعي والحال كذلك ان ينتج عن تحريك هذه القوات تخريب مساحات أخرى من البلقان وتشجيع كثير من أهل الذمة لتقديم المساعدة للغزاة. لقد كان الموقف حرجا لدرجة ان العسكر المشاغبين مثلا كانوا متحمسين للخضوع لقيادة قوية مرة أخرى وهي القيادة التي توفرت في مصطفى كوبروللو الصدر الأعظم الجديد.

والحق ان استعاده مصطفى لمدينة فيدين وبلجراد في ١٦٩٠ والذي انتهى بهجرة جماعية للصربيين الى المجر سوف تناقشها في الفصل التالي. وكان من سوء حظ العثمانيين ان فقد الرجل حياته في العام التالي في معركة نوئي سلانكمن Novi Slankamen. ولم ينقذ العثمانيين هذه المرة الا انشغال الهابسبورج في حروب حلف أوجزبرج، حيث لم يكن بإمكانهم مواصلة الهجوم

الشامل. على ان الحروب استمرت وكان ينقص العثمانيين مرة أخرى القيادة. وخلال الاعوام التالية سقط ما تبقى من القلاع العثمانية فى المجر، وسقطت آزوف فى يد الروس فى ١٦٩٦، وواصل البنادقة احتلال المورة، كما احتلوا عدة جزر أخرى. وعندما أحرز يوجين أوف سافوى انتصارا حاسما آخر فى زنتا Zenta عام ١٦٩٧، لجأ العثمانيون الى قيادة كوبروللوية أخرى، تمثلت هذه المرة فى شخص حسين كوبروللو الذى شرع يعمل من اجل الصلح.

وهكذا وفى ٢٦ يناير ١٦٦٩ عقد افدح صلح فى تاريخ العثمانيين، ألا وهو صلح سرمسكى كلوروفتش (Sremski Karlovci) (كارلوفيتز Karlovitz، كارلوشا Karloca)، حيث أرغم العثمانيين على التخلي عن كل المجر وترانسلفانيا، والاحتفاظ فقط ببنات Banat فى تميزفار Temesvar، والاعتراف بانتصارات البندقية فى المورة ومعظم ساحل دلماشيا، واعادة بودول Podole الى البولنديين. وقد حاول الروس الحصول على مزيد من المكاسب لكنهم عقدوا صلحا هم الآخرون فى ١٧٠٢، حيث احتفظوا بأزوف. وبعد توقيع الصلح مع الروس اعتزل حسين كوبروللو الصدر الاعظم. وبعتراله يكون عهد حكم كوبروللو قد حقق أغراضه، اذا ما صرفنا النظر عن فترة الشهور القليلة من عام ١٧١٠ عندما تولى نعمان كوبروللو منصب الصدر الاعظم كأختر واحد من هذه الأسرة.

والحق ان عهد أسرة كوبروللو (١٦٥٦ - ١٧٠٢) خضع لكثير من التفسيرات .. فقد قيل انه يرغم مرور الامبراطورية العثمانية بفترة من التدهور استغرقت نحو تسعين عاما ابتداء من وفاة السلطان سليمان الاول، الا انها كانت مازال تحتوى على مقومات الحياة فى وقت تولى محمد باشا كوبروللو منصب الصدر الاعظم، ولم تكن بحاجة الا الى قيادة قوية وأمينة لاعادة تأكيد نفسها كقوة عظمى. ويؤكد أولئك الذين يشاركون هذا الرأي على أن القيادة العسكرية السيئة لكارا مصطفى كوبروللو، هى التى أنهت قبل الاوان محاولات استعادة الدولة العثمانية لنشاطها أو تجديده. وعلى النقيض من هذا رأى هناك خبراء يشعرون ان عهد كوبروللو لم يكن أكثر من شهادة لامعة على قدرات وقوة محمد وأحمد كوبروللو وهما من أعظم من تولى منصب الصدارة .. فى ذلك الوقت لم يكن السلطان يهتم كثيرا بشئون الدولة لدرجة ان المؤامرات داخل القصر لم تكن تخفل به، وان أول اثنان توليا منصب الصدارة العظمى من آل كوبروللو (أحمد ومحمد)، انتهزا فرصة هذا الموقف للاستحواذ على سلطات مطلقة لم تكن من حقهما فى الواقع، وقد أدت هذه السلطات مع ماكان يتمتعان به من قدرة وأمانة وقسوة، الى وجود صحوة ظاهرية مصطنعة كان من السهل انهيارها حتى بدون هزيمة عسكرية كبرى، وذلك فى حالة نجاح الموظفين العثمانيين فى تنويع سلطان على العرش ممن يتأثرون بما يحاك عادة فى القصر من مؤامرات ودسائس ومعارك المجموعات المتصارعة. ومن الملاحظ ان كلا هذين التفسيرين يقدران الموقف من وجهة نظر الحكومة المركزية ودورها، ورغم ان تقدير أو تقييم عهد آل كوبروللو فى ضوء كفاءة الادارة المركزية له وجاهته، الا أنه يجب البحث عن معيار آخر للوصول الى تقويم صحيح وهذا ما سوف نحاوله.

فى الفترة بين صعود محمد كوبروللو الى منصب الصدارة العظمى (١٦٥٦) والهجوم على

فينا (١٦٨٣)، ظهر جيل جديد من الإداريين. ومن المفترض نظريا ان شباب ذلك الجيل لا بد وانهم تعلموا وتربوا كموظفين عثمانيين طبقا للمبادئ الصارمة التي فرضها آل كوبرولو، فاذا لم يكن بإمكان الصدور العظام السيطرة على أوجه الحياة العثمانية، فان هذا يعنى ان الجيل الجديد قد وقع تحت تأثير المدرسة القديمة الفاسدة اداريا والتي كانت قادرة على شغل المواقع الادارية المهمة فى الدولة برجالها. وعلى هذا كان ينبغى ان تكون الادارة قوية وأمنية بالقدر الذى يجعلها تواجه بنجاح أزمة كبرى مثل تلك التى نشأت فى أعقاب الهزيمة أمام أبواب فيينا. لكن هذا لم يحدث فيما يبدو .. فعلى حين كان آل كوبرولو قادرين فعلا على تعيين الرجال الأمناء فى أكثر المواقع الوظيفية أهمية. والغاء العجز فى الميزانية والعمل على توازنها غالبا، الا انهم لم يكونوا قادرين على تغيير أو تعديل جوهر الامراض الاساسية الى تعانى منها الدولة، ومن ثم اعادت تلك المصاعب وخاصة المواقف الناتجة عنها، تأكيد ذاتها حال انهيار مكانة آل كوبرولو، وكان لا بد لها ان تعاود الظهور مرة أخرى عاجلا أو اجلا. دون الحاجة الى تعرض الدولة لهزيمة كبرى، ذلك انهاء كانت أمراضا جوهرية.

على أن التحولات الاقتصادية والديموجرافية الكبرى التى نتجت عن «الحرب الطويلة» لم تتبدل الى العكس، وظلت كما هى خلال فترة حكم آل كوبرولو، وأكثر من هذا فقد استعزت هذه التحولات الكبرى لتغيير الموقف برمته فى اقاليم اوربا العثمانية الأساسية، ولتشد من أزر الاتجاهات التى بدأت فى تسعينات القرن السادس عشر، اذ استمر التدهور السكانى فى تلك الاقاليم فى كل من المدن والقرى، مما أوجد نقصا حادا فى القوة العاملة والانتاج، ومهد الطريق الى تغيير شكل القرية والمدينة. فمثلا كان عدد اصحاب التيمارات يقل بانتظام، ونشأت الحاجة الى اعادة بناء الجهاز الادارى. ومن ناحية اخرى لم تنجح الاصلاحات العسكرية. ولم يقض على نفوذ فرق المعاشية وخاصة الانكشارية. وعلى هذا لم تتغير الاوضاع وخاصة فى الاقاليم التى كانت تجمل من الافعال غير القانونية والشرعية ومن الفساد الادارى أمرا ممكنا. كما لم يتم القضاء ايضا على أسباب الافعال المضادة لآل كوبرولو والمعادية للاصلاح. ولعل هذا يفسر لماذا كان بإمكان اى تمرد عسكرى بعد معركة موهاكز الثانية أن يحطم ليس فقط الكفاءة القتالية للجيش بل يحطم كل العمل الاصلاحى الذى قام به آل كوبرولو. والحق ان افراد هذه العائلة كانوا قادرين فعلا على تطهير الادارة المركزية للدولة من كل المنحرفين والذين يسيئون استخدام سلطاتهم المطلقة، وبالخوف الذى أوجده محمد كوبرولو (أول صدر أعظم من آل كوبرولو) فى نفوس المسئولين بعمليات الشنق والاعدام التى قام بها على نطاق واسع لاولئك المنحرفين. كما كان بإمكانهم ارغام الجهاز الادارى بالاقاليم على الامتثال لأوامر وطلبات استانبول بشكل غير مسبوق منذ وفاة الصدر الأعظم محمد صوقولو (١٥٧٩). كما كان العسكريون يؤدون أعمالهم بكفاءة ملحوظة طالما كانت قياداتهم قوية، ويتقاضون معاشهم بانتظام، ولا يجدون انفسهم فى مواجهة أزمات وكوارث بدرجة عالية. ومن الملاحظ انه فى دولة تتميز بالمركزية الشديدة والارتباط بالتقاليد، توجد فعالية بدرجة عالية فى المركز فقط (العاصمة - الادارة المركزية) مع تحسين فى الاداء بشكل مؤقت ولكن بدون حل لمشكلات الدولة الاجتماعية - الاقتصادية. ورغم ان آل كوبرولو انجزوا الكثير،

الا ان ما قاموا به لم يمس المشكلات العميقة. وعندما أقدموا على ذلك كما حدث في موضوع الإصلاح العسكري، فإن ذلك تم دون نجاح، ومن المعروف انه لا يمكن حل أي مشكلات حقيقية عن طريق استبدال مسئولين باخرين.

ان الاستنتاج الذي يقدم نفسه فيما يتعلق بتقويم فترة حكم آل كوبروللو، عندما يؤخذ في الاعتبار ما هو أكثر من كفاءة الحكومة المركزية، ما يأتي: في منتصف القرن السابع عشر كانت هناك عدة مشكلات أعقد من ان تستجيب لمحاولات الإصلاح والتي كانت تتركز ببساطة على إعادة الحيوية لكفاءة الجهاز الادارى والجيش. وعلى هذا فان وجهة النظر القائلة بان كل ما كانت محتاجه الدولة لتصويب الاخطاء وإعادة ترسيخ الامبراطورية هو قيادة أمنية لا يمكن ان تصمد. ذلك ان الذى كانت محتاجه الدولة هو اجراء تغييرات أساسية لم يكن فى مقدور أي أحد أن يتركها حتى آل كوبروللو الذين نشأوا فى الوسط الوظيفى العثماني، ويقدر ما كانت الانجازات التي حققها آل كوبروللو ملحوظة ومرموقة، بقدر ما كان مصيرها الفشل المطلق. ولعل أعظم اسهام قامت به هذه الأسرة له مغزاه، انها لم تحكم خلال فترة من التاريخ العثماني عندما كان ضعف الدولة الواضح يشجع بسهولة القيام بهجوم ضدها من أي من خصومها القدامى من الهابسبورج أو الروس الاعداء الجدد، وهو الاعتداء الذى اذا حدث لم يكن يمكن التصدى له وكبحه. وهناك عدة أسباب لعدم قيام هاتين القوتين (الهابسبورج والروس) باتخاذ خطوات ايجابية ضد العثمانيين فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، يتلخص أحدها فى أن ادارة آل كوبروللو نجحت فى التغطية على حقائق أمور الدولة. ولهذا وعندما أصبح من غير الممكن فى القرن الثامن عشر اخفاء عجز الامبراطورية العثمانية، لم يعد ممكنا تجسيد الهجوم المشؤم الذى قد يودى بالامبراطورية نظرا لأن القوى الكبرى كانت تعمل ضد بعضها البعض فى محاولة لحل ما أصبح يعرف باسم «المسألة الشرقية».

٣ - حروب ما بعد القرن الثامن عشر

خلال الفترة بين صلح سرمسكى كارلوفيتش Sremski Karlovci وانفجار ثورة الصرب فى ١٨٠٤، دخل العثمانيون فى ستة حروب كان لها تأثيرها على اقاليمها الأدرية، بصرف النظر عن الحروب النابليونية الى أثرت على مجمل تطورات المنطقة وعلى الرغم من عدم اشتراك العثمانيين فى حروب نابليون هذه. وكانت الاقاليم العثمانية ميدان تلك الحروب جميعا، وهى حقيقة تدلل بوضوح على ان ميزان القوة العسكرية قد تحول تحولا جذريا ضد الدولة. فمنذ القرن الثامن عشر كانت الامبراطورية العثمانية فى موقف الدفاع بوضوح، والحرب الوحيدة التي نالت من ورائها أرضا، كانت حربها مع البندقية ١٧١٤ - ١٧١٨، والتي كانت بدورها فى مرحلة التدهور مثلما كانت عليه الامبراطورية العثمانية. وكانت الحرب على أرض شعبها من الارثوذكس الذين كانوا يمتعضون من حكم الكنيسة الكاثوليكية، ومن ثم كانت ترحب بالجهود الحربية العثمانية وتؤيدها. والحقيقة المفاجئة انه خلال هذه القرن كله (١٨ ق) كانت المنطقة الوحيدة التي فقدتها العثمانيون فى اوربا

هي بانات Banat في تميزفار Temesvar (فضلا عن القرم والذي يخرج موضوع سقوطها عن موضوع هذا الكتاب)، وهو أمر يمكن تفسيره بوقوع الغيرة بين القوى العظمى التي كانت كل منها تعمل ضد الأخرى، وكل منها يبدى للعثمانيين «صداقة» معهم ضد الخصوم الآخرين، أو يمكن تفسيره بالأحداث الأوربية التي أرغمت خصوم العثمانيين على مغادرة المعسكر المضاد للعثمانيين للتفرغ لمشكلاتهم.

كانت أول حروب القرن الثامن عشر تلك الحرب مع روسيا ١٧١٠ - ١٧١١، وقد سبق استعراضها في الفصل السادس. كما سبق أن رأينا كيف ان تصرفات قسطنطين برنكوفينو-Brinco veanu وضعت بطرس الأكبر في موقف دقيق حرج كان من الممكن ان ينتهي بموته في أحد سجون استانبول. وقصة هروبة بواسطة رشوة الصدر الأعظم معروفة ولا تحتاج الى تكرار. ومسألة امكانية رشوة مسئول كبير بهذا الشكل يدل على المستوى الذي هبطت اليه الامبراطورية العثمانية بعد بضع سنوات قليلة فقط من اعتزال حسين كوبروللو منصبه (الصدر الاعظم) في ١٧٠٢. وهو يفسر أيضا لماذا كان القرن الثامن عشر ومن وجهة نظر العثمانيين والشعوب التي خضعت لهم أسوأ قرن في السنوات الطويلة التي شاركوا فيها الدولة، وعندما ندرك ان سبعين عاما من التغلب على المصاعب تفضل بين أسر بطرس الأكبر وبين اعتلاء تسليم الثالث العرش العثماني (١٧٨٩). يمكننا فهم مدى جنتامة المشكلة التي واجهها رجل مصلح.

لقد بدأ العثمانيون الحرب مع جمهورية البندقية، وكانوا يريدون استعادة المورة. والحقيقة انها كانت حربا سهلة لأن البندقية لم تكن فقط ضعيفة، بل لأنها كانت تعتمد في الدفاع عن كثير من المواقع الحربية المهمة على المرتزقة الذين لم يكونوا على استعداد للموت في سبيل الجمهورية بطبيعة الحال. وأكثر من هذا كان بطريك الارثوذكس في استانبول يقوى من مشاعر اهالي المورة المعادية للكاثوليكية، والذي أصدر قرارا بحرمان كل الارثوذكس الذين يساعدون قوات البندقية. غير ان البندقية وكانت تدرك تماما ضعفها، ومحاوّل تدعيم قواتها، بدأت الحرب بإخلاء عدة حصون وقلاع كانت تحتلها، مما يثبط عزيمة انصارها، وبما اضعف من معنويات الجند الذين كان يسيطر عليهم كثيرا من القادة العسكريين، والذين استسلموا دون معارك بدلا من الدفاع عن مواقعهم كما هو مفروض. وهكذا.. وفي خلال ثلاثة شهور من عام ١٧١٥ تم للقوات العثمانية استعادة معظم شبه جزيرة المورة، ولوان القتال استمر في منطقة ماينا Maina وعدة جزر أخرى.

وقد رأى الهابسبورج في انشغال العثمانيين في الجنوب، فرصة سانحة فانضموا الى البندقية في ١٧١٦ حيث حققوا انتصارا مهما في العام نفسه عند بتروفارادين Petrovaradin (بيتر فارادين Peterwaradin، وبيتر فاراد petervarad). واحتل جنود الامبراطور (الهابسبورج) يلجراد، وبانات تميزفار، وولاشيا الصغرى (أولتنيا Oltenia) في العام التالي. وكانوا على استعداد للتقدم بعمق أكثر في البلقان. وفي تلك الأثناء قامت بريطانيا العظمى بتقديم خدماتها لكل من البندقية وللعثمانيين. اما السبب في موقف بريطانيا هذا فيمكن تلخيصه في ان المسألة الشرقية أرغمت بريطانيا من وجهة نظر أوروبا الغربية، على انقاذ كل من العثمانيين والبندقية، وتقديم شروط أكثر

من مقبولة للهابسبورج فى الوقت نفسه. وفى صلح بوزارفاش Pozarevac الذى أعقب الحرب، تم الاعتراف بالانتصارات التى حققها البندقية. ورغم انها كانت انتصارات غير ذات مغزى إلا ان العثمانيين وجدوا فيها عزاء وسلوى لأنفسهم بما كسبوه فى جنوبى اليونان. ورغم هذا فقد انقذت البندقية من تدمير وانهايار كامل كان محققا لو انها واصلت الحرب. وهكذا تم انقاذ «التوازن» فى البلقان مؤقتا.

وطوال الثمانية عشر سنة التالية، بقى العثمانيون واعدائهم من الاوربيين فى سلام. ولكن تم عقد معاهدتين مهمتين مع روسيا فى ١٧٢٠، ١٧٤٢. وكانت معاهدة ١٧٢٠ خاصة بتنظيم التجارة والقضايا الدبلوماسية التى لم تكن قد حسمت فى ١٧١١، وكذلك تعيين الحدود بين الدولتين بشكل أكثر تفصيلا. واما المعاهدة الثانية (١٧٢٤) فكانت مجرد وثيقة مؤقتة لرسم خطوط لتقسيم بلاد فارس بين العثمانيين والروس.

وكان المفترض من الناحية النظرية ان هاتين المعاهدتين تنهيان المشكلات القائمة بين الدولتين ولكن من الناحية العملية كانت قوة روسيا تزداد نموا، وكذلك رغبتها تزداد فى الوصول الى البحر الاسود. وقبل ان تتحرك روسيا لتحقيق أغراضها توصلت الى اتفاق مع امبراطور النمسا فى فيينا، وهو اتفاق يبرهن مرة اخرى على انه لم يكن بامكان اى قوة عظمى فى القرن الثامن عشر ان تشعر بالامان فى التصرف على مسؤوليتها. وبعد ان تم عقد تحالف بين النمسا وروسيا. بدأ الروس فى التحرش بالعثمانيين فى ١٧٣٦ حيث سرعان ماغزوا القرم واحتلوا آزوف. وبعد الانتصارات التى حققها الروس طالبوا بنقل كل الاراضى العثمانية الواقعة من مصب نهر الدانوب الى القوقاز شمالى شواطئ البحر الاسود الى السيادة الروسية.

ومن ناحية اخرى وفى مطلع ١٧٣٧ تعرض العثمانيين لتهديد من جبهة أخرى، اذ كانت جيوش الهابسبورج قد احتلت كل من نيش، وبرشتينا ونوفى - بازار Yeni - Pazar جنوب الدانوب وكذلك ولاشيا، واجزاء من مولداڤيا شمال النهر. وقد تطلبت هذه الغزوات الواسعة النطاق توزيع ونشر فرق الجيش فى جهات مختلفة. لكن الهجوم العثماني المضاد فى ١٧٣٨ مع القيادة الضعيفة للهابسبورج أرغمت الهابسبورج على الانسحاب واخلاء البلقان باستثناء بلجراد التى حاصرتها القوات العثمانية.

لكن الامبراطور النمساوى وقد وجد نفسه يواجه هذا الموقف العسكرى السئ فضلا عن اهتمامه بمسألة من يخلفه فى العرش (حيث لم يكن له ابناء وكان كبير السن. معتل الصحة) ، رغب بتدخل كل من بريطانيا العظمى والاراضى المنخفضة وفرنسا الذين كانوا معينين مرة أخرى بتوازن القوى فى الشرق الأدنى. وقد أخذ السفير الفرنسى فى استانبول المركزى دي فينوفيه De Villeneuve على عاتقه مهمة التوصل الى صلح. وقد ركز السفير جهوده على النمسا لأنه كان يدرك ان الاداء السئ لقواتها العسكرية، والخوف من موت الامبراطور تشارلز فى اى وقت يرغمها على قبول صلح باى شروط كما كان يعرف ان انسحاب النمسا من الحرب قد يرغم روسيا التى

لم يكن بإمكانها مواجهة «التحالف الأوربي» منفردة على انتهاء الخصومة والنزاع. وقد كان صلح بلجراد (سبتمبر ١٧٣٩) الذي أنهى الحرب في صالح العثمانيين بفضل فهم السفير الفرنسي لموقف كل من النمسا وروسيا، والذي أراد استغلاله بالكامل لصالح بلده. وبمقتضى الصلح اعادت النمسا بلجراد وولاشيا الصغرى للعثمانيين، بل وفقدت كل شيء حصلت عليه في صلح بوزاريفاش. كما احتفظت روسيا بأزوف بشرط ان تكون مدينة غير محصنة، مع وعد بعدم ابقاء قوات بحرية لها في البحر الاسود، وان تنقل تجارتها في البحر الاسود على مراكب ترفع العلم العثماني.. وعلى حين حارب الجيش العثماني بكفاءة مدهشة في ١٧٣٨ ضد قوات الهابسبورج، فان المحصلة المناسبة للحرب حدوث صراع القوى الكبرى وتدخلهم في مجريات الامور.

أما الحرب التالية المهمة بين عامي ١٧٦٨ - ١٧٧٤ فانها أول حرب من حربين تسبب في قيامها طموحات كاترين الكبيرة قيصرة روسيا (١٧٦٢ - ١٧٩٦). ولم تنته النهاية المرجوة للعثمانيين. وبفضل سياسة فردريك الاكبر حاكم بروسيا (١٧٤٠ - ١٧٨٦) امتنع الهابسبورج عن التورط في هذه الحرب، وحول انتباه كاترين من المشكلة العثمانية الى المشكلة البولندية، فانقذ بذلك العثمانيين من خسائر أكبر مما كونوا يعانون منه في الواقع. لكن النمسا استفادت من الموقف برمته.. ففي ١٧٧٤ وعند انتهاء المنازعات، احتلت بوكوفينا Bukovina التي كانت حتى ذلك الوقت جزء من مولدافيا.

كانت الحرب مع روسيا على مرحلتين، وكان الجيش الروسي يمضى قدما للامام محرزا النجاح تلو النجاح، وسرعان ما احتل امارتى الدانوب والحصون العثمانية الكبيرة في كيليا Kilia و أكرمان Akerman، وأزميل Izmail (اسماعيل Ismail)، وبندر وبرايلا Braila (ايراييل Ibrail) عند مصب نهر الدانوب، كما تقدم داخل القرم. وبعد هذه الانتصارات المبكرة في ١٧٦٨ - ١٧٧٠ انشغلت القوات الروسية في تنظيم المناطق المحتلة وفي مواجهة مشكلات التموين والامراض والايوثة، ولم تتقدم بالتالى الى مناطق أخرى.

ولم تستطع الحملة البحرية الشهيرة التي قادها جريجورى اورلوف ان تحرز تقدما مماثلا او انتصارات مماثلة للانتصارات التي حققها الجيش على الارض. وبشكل عام لم يكن القادة الروس باستثناء الكابتن جون الفنستون Elphinstone على مستوى من المهارة والكفاءة، اذ سرعان ما فقدت قوات القيصر كل ما كانت قد حققتة واكتسبته. والذي حدث ان شبه جزيرة المورة والجزر اليونانية، وكانت مسرح عمليات الحرب، قد انقسمت فيما بينها بالنسبة للموقف من الحرب.. فالناطق التقليدية التي كانت تعادى العثمانيين مثل منطقة ماينا Maina ساعدت روسيا، على حين بقيت مناطق أخرى على ولائها لاسطنبول. والحاصل ان العثمانيين لم يكونوا يحتفظون بقوات نظامية لتواجه هذا التحول في الحملات العسكرية، ومن ثم كانوا يحاربون بمساعدة قوات محلية تم تجميمها وكانت غالبا من المسيحيين، فضلا عن عدد كبير من القوات الالبانية. وكانت هذه القوات كافية لأن تبطل مفعول كل النجاحات التي أحرزها الأعداء على الاراضى العثمانية. وبالتالي لم يأت منتصف عام ١٧٧٠ الا واضطرت معظم القوات الروسية الى العودة لمراكبهم،

وقامت القوات الالبانية بابادة اتباع الروس فى المنطقة.

على ان العمليات البحرية الروسية كانت ماتزال تقدم فرصا للنجاح هنا وهناك خاصة وان قائد الاسطول العثمانى قبطان باشا حسام الدين كان غيبا وجباناً، فهو الذى رغم نصحه، وضع الاسطول مرتين فى موضع صعب ومستحيل فى معركة مضيق شيسم Cesme بين الأرض وجزيرة خيوس Chios (صاكيز Sakis). وبهذا فقد ضمن ابادا اسطوله، كما راقب المعركة من الشاطئ القريب فى ٧ يولية ١٧٧٠. ولم يحل دون حدوث كارثة حقيقية الا قيادة حسن باشا للمعركة الذى أصبح «قبودان» ثم الصدر الأعظم فيما بعد. ولقد أعطت هذه المعركة للروس ميزة هائلة لاستغلالها، فاقترح الفينستون الابحار فى الدردنيل والهجوم على استانبول التى كانت فى هرج ومرج. وتوقعت خطته ان يصاب أهل المدينة بالهلع والرعب خوفا من الطاعون واقتراب الروس. ووقوع الفوضى حتى لا يستطيع أحد أن يعرف ما الذى يقوم به، كمل توقعت الخطة ان يؤدي الظهور المفاجئ لاسطول الروس المنتصر الى تسليم المدينة (استانبول) للقوات الروسية بسهولة. غير ان أورلوف عارض هذه الخطة، وعلى هذا لم يحدث شيئا طوال اسبوعين. ثم تقرر الهجوم على جزيرة ليمنوس Lemnos (ليمنى Limni) فى مدخل الدردنيل. غير ان الجزيرة التى كانت محصنة تحصينا جيدا قاومت الهجوم الروسى عدة شهور، ولم ينجح الروس فى الحصول على شىء. وعلى حين استدعت بريطانيا ضباطها الذين كانوا يخدمون فى الاسطول الروسى، قام فرانسيس دى توت De Tott، وهو رجل فرنسى مجرى المولد ويعمل فى خدمة العثمانيين، بتحسين الدردنيل، وقام حسن باشا بتنظيم الاسطول العثمانى، وفى أواخر اكتوبر استطاع حسن باشا فك الحصار عن جزيرة ليمنوس، فى الوقت الذى تخلى فيه الروس عن كل معداتهم العسكرية ومرافعهم. على الرغم من ان الاسطول الروسى كان يواصل جولاته فى بحر ايجيه حتى نهاية الحرب، الا انه لم يعد مصدر خطر للعثمانيين بسبب نقص الامدادات، وعدم وجود القيادات الجيدة. وهكذا وبفضل غباء أورلوف، أضاع الروس أكبر فرصة تنتظرها أى دولة منذ ١٤٥٣ لاحتلال استانبول.

ولما كانت الامبراطورة كاترين متورطة بشكل ثقيل فى الشؤون البولندية، فقد وافقت على عقد هدنة فى جيرجيو Giurgiu فى مايو ١٧٧٢، وان ظلت مفاوضات الصلح التى تلت هذه الهدنة عقيمة. وبعد الاتفاق الأول على تقسيم بولندا، استأنفت روسيا الحرب حيث تمكنت من عبور الدانوب الى بلغاريا، وأرغم العثمانيين على استئناف المفاوضات، والتى انتهت بتوقيع معاهدة كوتشك فينارجى المشهورة فى ٣٠ يولية ١٧٧٤. ورغم ان روسيا كسبت من هذه المعاهدة مساحة صغيرة نسبيا من الأرض الواقعة بين نهري الدنيستر وبروت Brut، ووافقت على اخلاء كل الاراضى المحتلة الأخرى، الا انها قبلت بتوازن القوى فى البلقان والشرق الأدنى، وأصبحت قوة فرضت على الحكومة العثمانية ان تنتبه لها بشدة، بل ولرعايا الدولة فى الاقاليم الاربية. وقد أرغمت روسيا الدولة العثمانية على الاعتراف بالقره كدولة مستقلة، وأحررت نكاسب السياسية التى سقت الاشارة اليها فى الفصل الخاص بمولدافيا وولاشيا. كما تم تحرير البحرية الروسية والملاحة البحرية الروسية من كل القيود التى كانت مفروضة عليها. ارداد نفوذها أهمية داخل

الدوائر الكنسية الأرثوذكسية في الامبراطورية العثمانية، وكذلك زادت مكانتها في المشكلات السياسية للمسيحيين (رعايا الدولة من المسيحيين)، وخاصة مسيحي امارتى الدانوب.

وبعد ذلك بسنوات قليلة وفي ١٧٨٣ انتهكت روسيا نصوص هذه المعاهدة حين ضمت القرم لها، وارغمت الدولة العثمانية على الاعتراف بهذا الأمر الواقع في معاهدة وقعت في استانبول في يناير ١٧٨٤. على ان هذه المكاسب كانت قاصرة عن تحقيق اهداف الامبراطورة كاترين قيصره روسيا ولهذا فبعد ان توصلت هي وجوزيف الثاني امبراطور النمسا (١٧٨٠ - ١٧٩٠) الى اتفاق على تقسيم الاراضى العثمانية فى اوربا، على ان يخصص جانب من نصيب روسيا الذى يشمل استانبول ليكون دولة يونانية يحكمها دوق القسطنطينية الكبير وعاصمتها استانبول، ظلا يتحيان الفرصة لبدء المنازعات لتففيذ ما اتفقا عليه. وعلى هذا وبمجرد ان احتجت الدولة العثمانية على النشاطات غير المشروعة لقناصل روسيا فى امارتى الدانوب، بادرت روسيا باعلان الحرب فى ١٧٨٧. وخلال تلك الحرب اعتلى سليم الثالث المأساوى (١٧٨٩ - ١٨٠٧) عرش الامبراطورية العثمانية، وواجه أول الحروب المتعددة التى نشبت والتى أرغم على دخولها ضد رغبته وارادته. وأعلنت النمسا الحرب هى الاخرى فى مطلع عام ١٧٨٨ بعد فترة قصيرة من اعلان روسيا. وتمكنت القوات الروسية تحت القيادة المتمكنة للأmirين الكسندر. سوفاروف، ونيقولا ربنين Repnin من الاستيلاء على أوفاكوف (أوزو Ozu)، وشركت الى مولدافيا وولاشيا ودوبروديه. أما القوات النمساوية فقد توغلت فى الصرب والبوسنة، ثم انسحبت فى ١٧٨٨. ولكن فى العام التالى استولت على بلغراد ودخلت ولاشيا مرة اخرى. وفى ١٧٩٠ مات جوزيف الثانى وخلفه على عرش النمسا ليوبولد الثانى (١٧٩٠ - ١٧٩٢) الذى كان يعارض الحرب، و كان يواجه مواقف ثورية فى بلجيكا والمجر، مع احتمال نشوب حرب مع بروسيا، ومن ثم بادر فوراً بالدخول فى مباحثات للصلح انتهت فى ١٧٩١ بتوقيع صلح زيفشتوف Svishtov (زيتوفا /Szisztova / زيتوف Zistov). وعلى هذا اعيد ترتيب ما كان عليه الوضع قبل الحرب، مع تعديل طفيف فى الحدود لصالح النمسا فى المنطقة حول الأبواب الحديدية على نهر الدانوب وحدود البوسنة بمحاذاة نهر سافا. وهكذا انتهت آخر حروب الدولة العثمانية مع جيرانها الكبار التى دارت على حدودها الشمالية الغربية بأن اصبح خط الدانوب - سافا خط حدود.

كان انسلاخ النمسا من الحرب بالاضافة الى التطورات التى حدثت فى بولندا وفرنسا، سببا فى ارغام روسيا على انتهاء الحرب بشروط فى صالح الامبراطورية العثمانية.، ففى يناير ١٧٩٢ حددت معاهدة اياصى IASI الحدود بين الدولتين فى اوربا بمحاذاة نهري الدنيستر وكوبان-KU BAN، ويعتبر خط حدود نهر الدنيستر مهما بالنسبة لموضوع هذه الدراسة، لأنه بهذا أرغمت روسيا على اعادة كل اراضى رومانيا الى الامبراطورية العثمانية. ورغم ان هذه الحرب لم تكن آخر الحروب الروسية العثمانية، الا ان خط الحدود هذا ظل ثابتا خلال القرن التاسع باستثناء منطقة بساربيا التى تأرجحت أكثر من مرة بين الدولتين.

فى كل حروب القرن الثامن عشر هذه نلاحظ ان حظ الامبراطورية العثمانية الطيب لم يأت

فقط من قدرتها على الدفاع عن نفسها من واقع لعبة توازن القوى التي أرغمت كل من أسرة رومانوف (روسيا) وأسرة الهابسبورج (النمسا) على التعامل مع العثمانيين برفق ولين .. لكن الثمن الذى دفعته استانبول كان فى قدرتها على التحرك بحرية وليس فى التنازل عن اراض أخرى . فبعد معاهدة كوتشك قينارجى أصبح للنفوذ الروسى دورا مؤثرا فى عمليات اتخاذ القرار فى الحكومة العثمانية . كما زاد نفوذ فرنسا ايضا خلال عصر الثورة . وفى القرن التاسع عشر تفوق النفوذ البريطانى ثم الالمانى . والجدير بالذكر ان الدبلوماسية العثمانية منذ بداية القرن الثامن ائبتت نجاحا وتوفيقا مثلما كان الحال بالنسبة للقيادة العسكرية قبل ذلك . ولكن لسوء الحظ ان هذه القدرة على ضبط الامور وموازنتها عسكريا ودبلوماسيا، لم تؤثر فى السياسة الداخلية فى القرن الثامن عشر، ففرى ان سليم الثالث دفع جياته لمحاولاته احداث تغيير فى مؤسسات السلطنة . وفى الفصول التالية سوف نناقش أثر جهوده والحركة المضادة التى قام بها اعداؤه فى الولايات الاوربية .

وعندما نقارن بين حجم الامبراطورية العثمانية فى عام ١٨٠٤ وما كانت عليه فى ١٥٧٤ ربما يظهر لنا ان التغيرات الاقليمية التى وقعت فى جنوب شرقى اوربا من حيث فقدانها المجر وترانسلفانيا لا مغزى لها .. فالجزر مثلا لم تكن ابدا ذات قيمة اقتصادية للدولة العثمانية، كما ان ترانسلفانيا كانت تسهم اسهاما قليلا بالنسبة لقوة الدولة العثمانية . ومع هذا فقد كان فقدان العثمانيين لهذه الاراضى له مغزاه، لأنه لم يكن يدل فقط على ازدياد ضعف العسكرية العثمانية، بل لقد أتى بقوات الهابسبورج الى خط الدانوب - سافا، حيث بامكانها، بل لقد فعلت أكثر من مرة، غزو ولايات «اوربا العثمانية» . ولم تؤد هذه الغزوات المتكررة الى تخريب اقتصاد هذه المنطقة المهمة فقط، بل لقد أدى الى انقاص عدد سكانها حيث أوجدت الهجرة الجماعية للصربيين فى عامى ١٦٩٠ ، ١٦٩٤ مركزا ثقافيا ثانيا فى اراضى الهابسبورج بجانب كرواتيا، زاد نفوذه وتأثيره وسط العناصر السلافية فى الجنوب والتى كانت مازال تحت الحكم العثمانى خلال القرن الثامن عشر . وكان تغلغل النفوذ الغربى وأفكاره الذى كان سهلا بالتغير الذى حدث فى الحدود، أمرا مهما لحركات الاحياء القومى التى وقعت فى القرن التاسع عشر فى هذه المناطق، مثلما ساعد تدهور كفاءة الادارة العثمانية والنظام الحاكم عموما .

لقد كان تضعف القدرة العثمانية على الحكم هو الذى جعل من الاوضاع عام ١٨٠٤ تختلف اختلافا جذريا عن اوضاع ١٥٧٤ . فى خلال هذه الفترة التى تزيد على قرنين من الزمان، تحولت الدولة العثمانية من دولة قوية منظمة تنظيما جيدا الى دولة تحكمها الفوضى وتخضع الاقاليم فيها الى شرائعها وتقاليدها واعرافها المحلية، أكثر من خضوعها للقوانين والمراسيم التى تصدرها الحكومة العثمانية . وفى عام ١٨٠٤ كان حجم الامبراطورية العثمانية هو المظهر الرائع الوحيد لها . ولم يكن أحد يعرف ولا حتى رعاياها كيف تدار أمور الدولة . ولم يعد ممكنا تخشى وقوع التغيير لكن القرنين السبعم (١٧ - ١٨) وما حدث من تدهور فيهما، جعل من المستحيل وقوع مثل هذا التغيير . فلم يعد الاصلاح العثمانى أمرا يطلبه أهل الذمة فى أوربا آنذاك، اذ كانوا يريدون ان يحكموا وطنهم بانفسهم على الاقل . لكن هذا امر لم يكن من الممكن للدولة ان تمنحه حتى ولو

كانت تميل الى فعل ذلك، لا لشيء الا لأنها فقدت السيطرة على عناصر الادارة العثمانية في الاقاليم حيث الموظفين العثمانيين الذين كانوا يعارضون منح مزيد من الحقوق للذميين على حسابهم.

ولقد اوضحت ثورة الصرب في ١٨٠٤ وهى أولى الثورات الناجحة ضد الدولة العثمانية، كيف أن مطالب سكان اوربا العثمانية قد صعدت بسرعة ملحوظة من ايجاد حكومة فعالة ، لحكم وطنهم، الى الاعتقاد اخيرا بان الاستقلال يمثل الحد الأدنى لمطالبهم لتأمين حياتهم و ثروتهم. ومع ان الامبراطورية العثمانية غيرت من نفسها فى القرن التاسع عشر، الا ان هذا التغيير لم يؤثر الا فى أقل القليل من رعاياها الاوربيين السابقين الذين حان الوقت بالنسبة لهم من أجل القيام بالثورات القومية وتحقيق الاستقلال.

وكان ميلوس أوبرنوفيتش Milos Obrenovic أول رجل قاد تمردا ناجحا فى الصرب. وقد أطلق عليه الفلاحون الساخطون لقب «الباشا الصربى». ولقد ظل التأثير العثمانى قائما ولسوء الحظ، وكان تأثيرا يتعلق بممارسات عثمانية. فى ذلك القرنين السبعين (١٧-١٨)، بحيث لم يحتفظ أهالى أوربا العثمانية الا بذكرى مريرة عن الحكم العثمانى.



الفصل العاشر

تغير أوروبا العثمانية

١ - مقدمة

خلال الفترة من ١٤١٣ - ١٥٧٤ كانت كافة مؤسسات الدولة تباشر مهامها ووظائفها بشكل جيد، وكان رعايا السلطان من المسلمين وأهل الذمة وسائر الموظفين، مايزالون يرغبون بدرجة أو بأخرى فى الاستمرار داخل الحدود المرسومة لهم. كما كانت الغالبية العظمى من الناس قد أصبحت مرتبطة بأعمالها وبوضعها الاجتماعى الذى نشأت فيه. ولما كانت الاختلافات واضحة بين طبيعة اختصاصات الموظفين وعلاقاتهم المتشابكة، وبين رعايا المجتمع الحضرى والمجتمع الريفى، فلم يكن صعبا علينا عند كتابة تاريخ هذه الفترة ان نعالج العناصر الثلاثة الرئيسية للمجتمع كوحدة متميزة (انظر الفصول من الثانى الى الخامس من هذا الكتاب). ورغم ان اتباع هذه الطريقة من شأنه أن يسهل مهمة القارئ فى متابعة الموضوع، حيث يتيح له الانتقال على سبيل المثال من فصل يختص بالحياة الحضرية الى فصل آخر يتناول زاوية أخرى فى الموضوع نفسه، وبهذا يتابع تاريخ المدينة من البداية الى النهاية، الا اننى شعرت ان هذا الاسلوب المميز قد يسقط عدة نقاط من الاعتبار أكثر مما يبدو من المساعدة التى يقدمها للقارئ، بل ان المعالجة المتزامنة للموضوعات قد تجعل مهمة القارئ فى الواقع أكثر صعوبة.

فمن الملاحظ ان مجموعة التغيرات التى وقعت بعد عام ١٥٧٤ كانت متشابكة تشابكا وثيقا، بحيث يصعب أن لم يكن مستحيلا ان نناقش جزئيات المجتمع الحضرى والريفى بشكل منفصل دون أن ينتهى الامر الى غموض الخطوط الرئيسية لعملية التحول، فمثلا نجد ان التغيرات الاقتصادية التى حدثت فى الريف أثرت بشكل أو بآخر فى الواقع الاقتصادى للمدن، وان أسباب التغيرات فى المدن وفى الريف كانت واحدة. وان التغيرات الاقتصادية متصلة اتصالا وثيقا بالتحولات الديموجرافية والاساليب الادارية الجديدة. وعلى هذا ظننت انه من الافضل تناول كل هذه القضايا على أساس موضوعى فى فصلين من أجل تقديم نظرة تاريخية شاملة لتاريخ المنطقة بعد عام ١٥٧٤. وسوف نتناول فى هذا الفصل وفى الفصول التالية مجموعة التطورات المختلفة فى موضوعات معينة، وفى الوقت نفسه ساحاول قدر الامكان دراسة الظاهرة الحضرية بشكل منفصل عن الظاهرة الريفية، بغرض مساعدة اولئك الراغبين فى متابعة الرواية التى قدمناها فى الفصل الاول.

ولا يعنى اختيارنا لعام ١٥٧٤ كعلامة لنهاية مرحلة أنها مرحلة فاصلة فى التطور، بل يعنى ان كل شىء من الناحية النظرية بقى كما عليه فى القرون السابقة .. فالادارة المركزية بفروعها المتعددة وأقسامها ومكاتبها بقيت دون اصلاح، ورغم حدوث تغيير فى التقسيمات الادارية للولايات وتوابعها، وحصول أصحاب الوظائف على القاب جديدة، الا ان العلاقات بين الادارة المركزية فى استانبول وحكومات الولايات، ظلت كما هى دون تغيير. وكذلك الحال فيما يتعلق بالعلاقات بين مختلف الطبقات الاجتماعية وقطاعات النشاط الاقتصادى. أما الذى تغير تغيرا جذريا حقيقة فلم يكن نوعية أصحاب الوظائف، بل الاوضاع المعيشية للناس، والاهمية النسبية لبعض الوظائف، فمثلا أصبحت وظيفة الملتزم (جامع الضرائب) فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للرعيا. ورغم ان وضع الملتزم وكذلك التزامه (الأرض) كان قائما منذ بداية الدولة العثمانية، الا ان الذى تغير كان عدد الالتزامات والأسلوب الذى كان يباشر به الملتزم واجباته. كما كانت هناك تغييرات اخرى على جانب كبير من الاهمية لعل أكثرها أهمية ما كان يتعلق بحياسة الأرض. ولم تكن هذه التغييرات مجرد نقلة نسبية فى الأساليب التى كانت سائدة قبلا، بل كانت تمثل تصرفات غير قانونية صارخة، حتى فى اطار القانون القائم، والذى لم يتغير أبدا، وهى التصرفات التى نشأت بسبب عجز الحكومة عن كبح جماح هؤلاء الذين تخالفوا على مختلف القواعد والنظم والقوانين. ورغم ان هذه الترتيبات المستحدثة أصبحت مع مضى الزمن «تقاليد ارتضاها الناس»، بل وكانت فى النهاية أمر مسلم به، الا انها لم تكن أبدا شرعية أو قانونية من الناحية النظرية، وكان من الممكن الغائها بواسطة حكومة نشطة وحيوية، مثلما فعل السلطان محمود الثانى بعد قضاءه على الانكشارية فى ١٨٢٦ حين وقف ضد اولئك الذين اقاموا اوضاعهم الاجتماعية على أسس غير مشروعة قانونا، مما أثبت امكانية ازالة المخالفات مهما طال أمدها وذلك من خلال ارادة حاكمة قوية.

ومن اللافت للنظر انه خلال السنوات التى تلت ١٥٧٤ كان آل كوبروللو وحدهم الذين يستخدمون الشرعية لتبرير تصرفاتهم غير القانونية. ولم يكن متيسرا لأى شخص آخر، بل كان الرعب ينتظره اذا ما فكر فى تحقيق مستوى من المعيشة بطريقة غير مشروعة. ولعل هذا يفسر أساليب بعض الرعايا الذين كان هدفهم الأكبر هو كيفية استبعاد أكبر قدر ممكن من حيازاتهم العقارية من دائرة تدخل السلطات، أو البحث عن مشروعات مريحة غير مشروعة كانشاء طوائف حرفية لا يمكن منعها بحجة ما تقدمه من فائدة للمجتمع. وهذه التصرفات بصرف النظر عن الدوافع التى كانت وراءها، سواء أكانت الحاجة أو الطمع، كانت تعنى انتهاك حدود مصالح آخرين، وكان لها ردود أفعال مضادة أدت فى النهاية الى تفتيت النظام الاجتماعى تماما. والصفحات التالية تتناول الوقائع التى أثرت فى الحياة اليومية والتى خلقت أنماطا اجتماعيا - اقتصادية جديدة كانت دائمة المغزى والدلالة، ولا تتناول الشكل القانونى للمؤسسات ثابتة. وكذلك سوف تتناول مجمل العلاقات التى أثر فيها الشكل القانونى للمؤسسات.

ورغم وقوع التغييرات فى كل مكان وإمكانية رؤية نموذجا عاما للتحويل، الا ان «النظام

الجديد» المنبثق كان نسقا واحدا بلا جدال. ولم يكن هذا مما يثير الدهشة لأن النماذج الجديدة كانت انعكاسا للأوضاع المحلية، ولم يكن تغيرا بفعل ضغط السلطة المركزية. وعلى هذا سوف نتناول اولاً الانماط العامة المشتركة، ثم نتناول المتغيرات المحلية المتنوعة ذات الأهمية والتي أضافت ابعاداً اخرى لها دلالاتها في تفتيت صورة جنوب شرقي أوربا، وخلقت مجموعة من التمايزات والاختلافات ظلت قائمة حتى الوقت الراهن (زمن وضع الكتاب). ويربط هذا الفصل بين ثلاثة ملامح متشابكة جدا للحياة العامة المشتركة في المنطقة، وهي الاقتصاد، والديموجرافيا، والادارة.

كان التغير الاقتصادي الأساسى يتمثل في التحول من أسلوب التيمار فى الاراضى الزراعية الى أسلوب نظام الجفلك. ورغم استحالة تحديد أسباب هذا التغير، الا انه يمكن القول ان الاقلال من نظام التيمارات العسكرية تدريجياً، وكذلك انتشار ظاهرة الفساد والجشع الذى صاحب هذا النظام، كان له تأثيره فى هذا التحول مثلما كان الحال بالنسبة لشرائح ومجموعات الموظفين العثمانيين. كما يمكن القول ايضا انه لم يكن من الممكن تخشى وقوع هذا التغير، نظراً لنقص عدد أصحاب التيمارات بشكل كبير بسبب كثرة الأوبئة، وانخفاض معدل المواليد، والخسائر الكبرى فى الأرواح التى وقعت خلال «الحرب الطويلة». بحيث لم يبق العدد الكافى لاستمرار هذا الأسلوب القديم فى ادارة الأرض، او الإبقاء على وضع هذه المجموعة داخل دائرة الموظفين العثمانيين.

ومهما كانت أسباب هذا التحول فى نظام حيازة الأرض، فلا بد انه تضمن تحولا اداريا فى الوقت نفسه، ذلك ان اصحاب التيمارات لم يكونوا فقط جندا، بل لقد كانوا ايضا اداريين، ومن ثم نشأت باختلافاتهم التدريجى حاجة ضرورية لظهور «موظفين مدنيين» آخرين. ومع هذا فلم تحل مجموعة جديدة محل اصحاب التيمارات هؤلاء، اذ تولت عناصر اخرى مهامهم، ألا وهم العلماء، ورجال الدين المسيحيين، والتجار، والملتزمون، وأكثر العائلات قوة، ومجموعات اخرى، بل لقد اكتسب اشخاص معينين أهمية فى المجتمع لم تكن لهم فى السابق، وتغيرت الانماط الاجتماعية والادارية فى الولايات تغييرا كاملاً.

٢ - القرية الجديدة

سبقنا الإشارة فى الفصل الثانى الى النظرية التى اقيم عليها نظام حيازة الأرض الزراعية. وتتلخص فى أن العثمانيين اعترفوا بثلاثة أنماط لحيازة الأرض الزراعية .. فأراضى «الميرى» خاصة بالسلطان، وارضى «الملك» كانت ملكية خاصة، أما اراضى «الأوقاف» وهى زراعية فى الغالب فتعنى ان ريعها يخص لرعاية المؤسسات الخيرية. وعندما كانت الحكومة قوية كان جزءاً كبيراً من الأرض يدخل فى نطاق «الميرى» ومن ثم تتمتع السلطات بما تدره من إنتاج، وبما يدفعه منتفعيها من ضرائب. وكانت كل التيمارات اراضى ميرى ويمكن للسلطات ان تتحكم فى أسلوب الانتفاع بها، اذ كان صاحب التيمار يحصل على قدر معين من ريع الأرض مقابل القيام بالخدمة العسكرية واداء بعض الواجبات التى تكون من اختصاص الموظفين المدنيين فى دول اخرى. وكان لصاحب التيمار سلطات محددة على كل فلاحية من مسلمين وأهل ذمة .. فهم الذين يقومون بتوريد

المنتجات المطلوبة، والقيام بسائر الخدمات المطلوبة، وعليهم طاعته كمسؤول ادارى مدنى. وبصرف النظر عن هذه الالتزامات تجاه اصحاب التيمارات، فقد كان الرعايا أحرارا ولهم حدودهم الخاصة بهم التى تكفل السلطات القانونية حمايتها. وكان صاحب التيمار جنديا اداريا ينتفع من استعداد الدولة فى ان تدفع له حاجة الرعايا الذين يعيشون فى حيازته، ولكنه لم يكن مالكا للأرض بالمعنى القانونى، ونتيجة لهذا لم يكن يهتم بالأرض او البشر الذين يعملون عليها، فاذا ما ابدى اى اهتمام وفكر فى التغلغل فى حياة فلاحيه، تسارع السلطات الشرعية باخباره بحدود سلطانه. وهكذا وباستثناء ملكيات الوقف، احتفظت الدولة بسيطرة كاملة على الأرض وعلى ريعها.

كانت الاوقاف عملا طيبا وواجب الأتقياء الورعين، وكان يتم تشجيعها طالما كانت تتم بالطريق الشرعى وبموافقة السلطات، ولصالح غرض جدير بالخدمة حقا. وكان لكل وقف كما سبقت الاشارة مسئول عن ادارة شؤونه يعرف «بالمتولى». أما ناظر الوقف فهو الذى يشرف على الأمور اليومية للوقف حيث يقوم بتجنيب جزء من ريعه لصالح الغرض الذى أوقف من أجله. ولقد أتاح هذا النص القانونى لخرى الذمة . السطار والمتولين، استغلال نظام الوقف لصالحهم، اذ كان تجنيب جزء كبير من ريع الوقف لصحح جانب بسيط من الجوانب المخصصة للانفاق عليه، من شأنه ان يوفر مبالغ كبيرة لصالح المتولى، أما اذا كان الواقف قد اشترط ان يكون المتولى رأس الأسرة صاحبة الوقف، فان هذا كان يعنى ضمان المستقبل المالى للأسرة. ومن الملاحظ انه قد حدث منذ البداية صور كثيرة من صور اساءة استخدام الوقف عن طريق ذلك الأسلوب. لكن السلاطين الاقوياء استطاعوا تصحيح مسار هذه التصرفات بالغاء الأوقاف صورية وتحويلها الى «ملك ميرى» مرة أخرى. وفى القرنين موضع دراستنا (ق ١٧ - ١٨) زاد عدد الأوقاف التى يستفيد أصحابها بمعظم ريعها، وبالتالى نقص حجم ايرادات الدولة بما يوازى ما كان يذهب الى جيب أسرة الواقف .. ومن ناحية أخرى كانت مثل هذه الترتيبات الزائفة لادارة الواقف مفضلة لفلاحيه، اذ أنها رحمتهم من ابتزاز طبقة لوردات الأرض الجدد والملتزمين. ورغم ان عدد الأوقاف كان فى ازدياد بشكل ملحوظ، الا ان عدد فلاحى الوقف المحميين من التكاليف المختلفة المفروضة على من يعمل فى غير وأراضى الأوقاف، ظل قليلا لأن كل من يريد تخصيص وقف معين لابد وأن يكون من أصحاب «الملك»، أو أن يكون من حقه التصرف فى أراضى ميرى. ولما كان السلاطين فقط هم الذين يتمتعون بحق التصرف فى الأراضى الميرى، فان حجم الذين كانوا يملكون ملكية خاصة كان ضئيلا.

. وعلى الرغم من أن السلاطين طبقا للتقاليد استمروا فى عمليات الوقف، الا ان الخسارة الرئيسة لتدخل والذى تعتبر الحكومة مسؤولة عنه، انبثق من الممارسات المرتبطة بالفساد الادارى، وزيادة نفوذ عناصر «الاندرون». وتقدم مدينة أثينا صورة حقيقية لهذا التطور فى تلك الأمور والاضاع ففى النصف الاول من القرن السابع عشر منحت المدينة بكاملها اقطاعية لرئيس الطواشى السود^(١) (الكزلاز أغاسى) الذى قام بتعيين ممثلية، وكان يحصل على دخل سنوى قدرة ثلاثون ألف دوكية من هذه المدينة^(٢). ورغم ان الدولة كانت تخسر هذا الدخل، الا ان أثينا كانت تتمتع بنوع من

(١) كان الطواشى السود يمثلون أكبر جناح داخل الاندرون.

(٢) هناك عدة تواريخ لمنح هذه الاقطاعية فى القرن ١٧ أقدمها ان المنح تم فى عام ١٦١٠ وأحدثها انه تم فى ١٦٤٥.

الحكومة الذاتية، إذ لم تخضع طويلا لسنجق بك ايوبويا Euboca. وكانت صلاحيات الكزلاز أغاسى ومندوبيه أو ممثليه محددة فقط بتحصيل الإيرادات.

وتمثل أثينا ايضا نموذجا جيدا لكيفية تغير الاقتصاد والادارة عندما تنتقل الادارة من شخص لآخر. فعندما أصبحت أثينا اقطاعية لرئيس الطواشي السود (الكزلاز أغاسى)، فقدت الدولة الإيرادات التي كانت تحصل عليها منها. كما فقد السنجق الذى كانت أثينا تتبعه سلطاته، وظهر على المسرح مجموعتان جديدتان من الاداريين وهما مندوبى الكزلاز أغاسى الذى يعينهم، ورجال الحكومة المحلية التي كانت تتكون من نبلاء أثينا (الأراخنة archons).

ويضاف الى هذه التطورات الاقتصادية والادارية لاثينا تطورا ثالثا ديموجرافيا .. فعندما استولى البنادقة على أثينا أدركوا انهم اعجز من ان يسيطروا عليها، ومن ثم قرروا اخلائها من سكانها. وقد قدر سيمون كابازيلاس Kabasilas وهو مؤرخ معاصر، عدد الذكور الذين كانوا يعيشون فى أثينا خلال الربع الاخير من القرن السادس عشر باثنى عشر ألفا. واتفق باحثون كثيرون على ان عدد سكان المدينة وقت هجوم البنادقة كان يبلغ حوالى عشرين ألف^(١). ورغم ان كثيرا من السكان الذين تم ترحيلهم قد عادوا بعد عام ١٧٥١، الا ان عدد سكان أثينا كان مايزال أقل من عشرين ألف عندما دخل أوتو Otto أول ملك على اليونان الحديثة العاصمة فى ١٨٣٢.

وحيث أن أثينا تستخدم كنموذج لمختلف التطورات والممارسات غير المألوفة التي وقعت بعد انهيار الادارة العثمانية، فيمكن اضافة ظاهرتين أخرتين للصورة العامة توضحان مدى الاخلال بالتمايز الذى كان قائما بين الموظفين العثمانيين والرعايا، وكذلك الاخلال بالميزات الممنوحة للملئ. ويذكر وليام ميللر دون تحديد تاريخ معين، أنه عندما أمر البطريرك المسكونى بعزل أسقف مدينة أثينا، وجدنا ان الكزلاز أغاسى يبطل هذا القرار بناء على طلب الأثينيين.. وقد أورد ميللر ايضا حالة تعيين ديمتريوس باليولوجوس Paleologos فى وظيفة رئيس هيئة ادارة الكزلاز أغاسى فى ١٧١٢ وهو من عائلة تدعى دون اثبات انها تنحدر من البيت الملكى القديم^(٢).

كانت التغيرات التي نتجت عن زيادة عدد الاوقاف والممارسات غير المألوفة كتلك التي أشرنا اليها فيما يتعلق باثينا، لها مغزاها ودلالاتها. ومع هذا فان أهمية هذه التغيرات تعد تافهة فى الغالب اذا ما قورنت بمغزى تحول التيمارات الى چفالك، وهو التحول الذى كان يعنى التغيير غير القانونى لاراضى الميرى لتكون اراضى ملك، وبالتالي ادخال أسلوب الملكية الزراعية بالمعنى العام، واحداث تغيير جذرى فى كل من حياة الفلاحين وانماط الانتاج الزراعى. ولقد أثر هذا الأسلوب الجديد فى الملكية الزراعية والانتاج الريفى فى بعض مظاهر الحياة فى المدن التي كانت ترتبط بشكل أو بآخر بما يحدث فى الريف، بالاضافة الى خلق علاقات اقتصادية جديدة أسهمت بقدر ملحوظ فى اعادة

(1) William Miller, Essays on the Latin Orient (Cambridge: Cambridge University Press, 1921) pp. 377, 387

(٢) نفسه، ص ٣٩٢، ٤١٦

تنظيم اجتماعي وديموجرافي جديد.

لم يكن الجفلك ابداعا عثمانيا حقيقة، فقد كان يمثل امتدادا وتطبيقا غير مشروع لمبدأ كان معترف به لعدة قرون، اذ كان بإمكان الأسر من رعايا المسلمين أو أهل الذمة بمقتضى ظروف معينة، حيازة «جيفت» وهي أصغر وحدة أساسية من الأرض الضرورية لاعاشة أى أسرة. وقد أعطى هذا التصرف. التبرير النظري والأساس الواقعي لاسم «الجفلك» كنظام أو أسلوب فى المستقبل. وكان «الجيفت» كوحدة أساسية هو مركز كل تيمار، ويقوم السباهى بزراعته لنفسه وغالبا ما كان يؤول الى ابنه فى حالة وفاته، حتى ولو كانت مستحقات الوارث تافهة، لدرجة انه قد لا يحصل على شئ فى حالة اعادة توزيع قطعة الأرض. وهكذا كانت تلك الحيازة الأساسية تقليديا ان لم يكن شرعيا، تعتبر ملكية خاصة ويمقتضى هاتين العادتين القائمتين (واحدة قانونية والأخرى تقليدية) كانت الانتاج الزراعى لأصغر حجم للملكية، يتم فى حدود الاكتفاء الذاتى، ويوفر الحد الأدنى للمعيشة لأكبر عدد من الناس. وكان استمرار هذا الأسلوب يعنى نمو اقطاعات الأرض نموا حقيقيا، وهو ما حدث فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

لقد جذبت مشكلة الجفلك الذى كان يعرف فى الاقاليم التى تتكلم اليونانية باسم هيپوستستيكا Hypoststika ويعرف باسم «بيليك» Beylik فى البوسنة، اهتمامات كثير من الباحثين الذين ساعدونى كثيرا بما توصلوا اليه فى هذه الخصوص^(١). وقد حدد بوش - زانتنر «الجفلك» بانه اقطاعية أوضيعة تشبه ما كانت عليه الحيازات الاوربية المعروفة، حيث يملكها شخص واحد ويديرها، سواء بنفسه أو بمساعدة ناظر أو وكيل ينوب عنه، وله مساحة معينة خاصة به حول قصره. وهذا العريف أو التحديد ليس ققطع هو المقبول بشكل عام، بل انه يمت الى الحقيقة والواقع بالنسبة للفلاحين ولسادة الارض من اللوردات. وعلى حين ان تعريفات الباحثين الآخرين مثل شفتكوفا Cvetkova أكثر تحديدا وأكثر صوابا من الناحية الفنية، الا اننا سوف نستخدم تعريف بوش - زانتنر.

وثمة عوامل معينة اسهمت فى انهيار التيمارات ونشأة الجفالك. ومن وجهة النظر العثمانية

(١) أكثر الدراسات شمولا فى هذا الشأن ما كتبه ريتشارد بوش - زانتنر Busch - Zantner Agrarverfassung, Gesellschaft und Siedlung in Sudosteuropa unter besondese Berücksichtigung des Turkeinzeit (Leipzig: Harrassowitz, 1938) وقد نشر كمجلد رقم ٣ فى سلسلة Beihefte Zur Leipziger Vietejahrsschrift fur sudosteurope. وهناك دراسة صغيرة الحجم لها تيمتها وهى التى كتبها عمر لطفى برقان بعنوان 97 - 392: 3, Ciftliks, Islam Ansiklopedisi. وهناك عملين شاملين لمؤلفين بلغاريين وهما: Vera Mutafcieva and Strasimir Dimitrov, Die Agrarverhaltnissim Osmanischen Reich im XV - XVI Jahrhundert, Z" and especially Cvetkova, "Quelques proplemes du feodalisme Ottoman a L'epoque du XVle siecle au XVllle Siecle. Both are in Actes du premier Congres, vol. 3, pp. 689 - 702 - and 706 - 20 respectively. By far the best, short, easily accessible study in English is Traian Stoianovich' Land Tenure and Related Sectors of the Balkan Economy", The Journal of Economic Hconomic History 13 (Fall, 1953): 398 - 411.

هناك سببان رئيسيان لما حدث .. أولاً الفساد الإداري الذي لم يسمح لحائزي التيمار بتحويلها إلى ملكية خاصة، بل باضفاء طابع «الشرعية» على ما قاموا به من إجراءات في الوثائق والمستندات التي صدرت بمعرفة الإدارة المركزية في العاصمة استانبول، وبواسطة قضاة الأقاليم. وبدون هذا النوع من السياسات لم يكن من الممكن لهذا الأسلوب الجديد في حيازة الأرض ان ينتشر على نطاق واسع كما حدث بالفعل. وثانياً: حاجة السلطات المركزية للأموال، والعجز الهائل في الميزانية الذي حدث بسبب التضخم الذي وقع خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر، والتفقات الضخمة التي تطلبتها «الحرب الطويلة» .. كل هذا حرك اتجاهها انتهى بتسهيل إقامة الجفالك.

ولما كانت الدولة بحاجة إلى أكبر قدر من الإيرادات بشكل منتظم، وعدم استطاعتها الاعتماد طويلاً على أمانة موظفي الإدارات المختلفة، بدأت الحكومة في تأخير حق تحصيل إيرادات الدولة بشكل متكرر لأفراد كان باستطاعتهم ان يدفعوا للخزينة هذه الإيرادات فوراً. وهذه الإجراءات قد تكون في شكل مقاطعات أو التزامات حيث استخدم التعبيران بالتبادل في كثير من الأحيان. أما «المقاطعة» فتعني أساساً «قطع» قطعة من الحيازة .. فمثلاً مقاطعة كبيرة خاصة بالسultan يمكن ان يعهد بها لشخص لتزويد ما عليها من أموال في مقابل مبلغ محدد من المال لعدد معين من السنين. وأما الالتزام فلم يكن أكثر من أسلوب لتجميع الإيرادات وبصفة رئيسية الضرائب لصالح جامع ضرائب يقوم بدفع مبلغ مجدّد مقدماً عن فترة معينة يحاول خلالها تحقيق ارباح عما استثمره من المال الذي سبق وان دفعه مقدماً. وهذا النوع من العمل أو الممارسة من الناحية النظرية لم يغير حق الملكية القانوني للأرض أو مصادر الدخل الأخرى، ولكنه كان استمراراً للممارسات القديمة التي كان يركز عليها نظام التيمار نفسه من حيث منح حقوق معينة ومنافع لأفراد مقابل قيامهم بواجبات معينة.

فاذا ماتركنا استانبول وذهبنا إلى الأقاليم، وجدنا الصراع قد نشب بين جامعي الضرائب (الملتزمون) الذين هبطوا على مختلف الأقاليم بشكل سريع، والموظفين العثمانيين هناك، نظراً لتعارض مصالح كل من الطرفين في الغالب. ولم يكن عدد أولئك الأفراد الذين كانوا يعيشون بعيداً عن العاصمة (استانبول) ويملكون من الأموال بما يجعلهم «مقرضين» للحكومة غير ذي قيمة أو اعتبار .. فجماعة كبار التجار والأعيان كما سبقت الإشارة في الفصل الرابع، كانوا يملكون ثروة معتبرة ومستثمرة في كثير من النشاطات الاقتصادية درت عليهم دخلاً إضافياً ضخماً. ولما كانوا رؤساء البييين يهتمون بتوسيع نطاق ارباحهم، فقد انغمسوا في ذلك النمط الجديد من «مجال الأعمال»، أي الاقراض حيث ادعوا انه جزء من حدودهم. وأكثر من هذا فقد اصرروا على ان كثيرا من الملتزمين ليس لهم الحق القانوني للقيام بمثل هذا النوع من النشاطات. وفي هذا المجال ومن أجل الحصول على نصيب من المضاد الجديدة للثروة، فقد لحق بهم البيليوكوات والسنجق بكوات الذين لم يكونوا فقط خريبي الذمة إلى أحمص القدم، بل كانوا قد استهلكوا جانباً كبيراً من ربح حيازاتهم الخاصة.. ولقد حاكى هؤلاء الموظفون الرسميون الحكومة المركزية، حيث قاموا بتقسيم حيازاتهم إلى التزامات، وقاموا بتأجيرها، أو عملوا على ان يكونوا هم أنفسهم ملتزمين. ولم

يمضى الا وقت قليل حتى اندمجت تلك العناصر وتوحدت فى مجموعة واحدة قامت عمليا بدور البنوك بالنسبة للدولة. وقد دخل كثير من أغنياء أهل الذمة صفوف هذه المجموعة.

ومن الواضح ان الاستثمار الزراعى كان مشروعا استثماريا ناجحا ومرربحا وهذا من واقع انتشاره وثمة سببان لذلك .. فان الحكومة بسبب حاجتها الى المال كان عليها ان تمنح الملتزمين شروطا مقبولة، وفى الوقت نفسه كان عليها ان تترك المكلفون بالزراعة والذين كان عليهم استقطاع الايجار من الايرادات لرحمة جامعى تلك الايرادات وعطفهم. وقد أدى هذا الوضع الى حدوث عدة انتهاكات للقانون وبمجاهل امتيازات وحقوق ليس فقط الرعايا، بل وايضا اصحاب التيمارات الذين لم يكونوا أغنياء بالدرجة التى تجعلهم يشاركون فى تلك المشروعات الاستثمارية الجديدة. والذين كانت اقطاعياتهم تقع داخل أو بالقرب من دائرة الاقاليم الى أطلقت فيها يد الملتزمين الاغنياء لهذا العمل الجديد.

ولقد كانت هناك ثلاثة أسباب رئيسية وراء الخطوة التالية للتحويل من نظام التيمار الى الجفلك. أما السبب الاول فهو الخاص بمنح الاقطاعيات الى اشخاص لا يتمتعون بحق ملكيتها بسبب عدم ادائهم الواجبات العسكرية الادارية المنوطة بهم. وتقدم لنا حالة أثينا والجزائر أغاسى صورة واضحة لهذا التطور .. فالملاك الغائبون لم يكونوا يزرعون حيازاتهم، بل أصبحوا بدخولهم صفوف السادة الاقطاعيين مثلا يحتذى شجع الآخرين على المطالبة بحقوق على ما فى أيديهم من حيازات دون اداء الواجبات للإزمة عليهم. ولقد كان من شأن هذا الاتجاه اضعاف المؤسسة العسكرية وتدعيم الاتجاه ايضا نحو الحصول على ادعاءات على الاراضى على أسس شخصية وليس بناء على تأدية الخدمات كما كان يحدث.

والسبب الثانى الذى لا يقل أهمية عن الاول، فانه يتمثل فى رغبة الحكومة المركزية فى زيادة عدد الحيازات الزراعية التى يمكن زراعتها تحقيقا لزيادة الايرادات. وكانت أسهل طريقة لتحقيق ذلك هى زيادة عدد الاراضى السلطانية، اى الاراضى الخاصة، وتوسيع حجم الموجود منها فعلا. وعلى هذا الحقت عدة اقطاعيات كثيرة بالاراضى السلطانية بدلا من اعادة توزيعها أو تكليف الآخرين بها عند وفاة حائزها. وقد أدت هذه الخطوة الى تقليل عدد السباهية من ناحية، واضعاف قوتهم فى مقاومة التعدى على حقوقهم، بل واضعاف المؤسسة العسكرية بطريق غير مباشر من ناحية أخرى.

وأما العامل الثالث أو السبب الذى اثبتق من السببين السابقين فانه يتلخص فى الشعور بعدم الاطمئنان فى الاستقرار الوظيفى. وهذا الشعور لم يصب فقط حائزى الاقطاعيات الذين تم طردهم ببطء من ارضهم، بل لقد امتد ايضا الى اولئك الذين أفادوا من التطورات الجديدة.

ولقد حاول أصحاب التيمارات الذين لم يكونوا أقوياء أو اغنياء بدرجة كافية لكى يصبحوا ملتزمين على ما تحت أيديهم من أراضى، تأمين مستقبلهم المالى وذلك بتحويل اقطاعياتهم الى ملكيات رثائية، أو تحويلها الى أموال سائلة يقومون باستثمارها فى اى شكل من أشكال المشروعات

الانتاجية التي تدر دخلا. ومن الواضح ان أيا من هذين التصرفين كان غير قانوني من الناحية النظرية. وكان يتعين تأمينه بمستندات «قانونية» أصدرها رجال القضاء خريبي الذمة. وثبتت الوثائق الموجودة أن الأمر لم يقتصر فقط على إصدار «حجج ملكية» بمنح الأرض ملكية خاصة، بل إصدار حجج أيضا بتسجيل بيع الاقطاعات الذي تم فعلا⁽¹⁾.

وكان الملتزمون غير أمنين على اعمالهم، اذ استثمروا اموالهم بشكل مكثف حيث كانوا يدفعون أموالا مقدما في مخاطرة قد تحقق لهم أرباحا، ولم يكونوا متأكدين بإمكانية تحقيق المكاسب التي يتوقعونها. غير ان مظاهر الفساد في استانبول وحاجة الدولة المستمرة للاموال السائلة، كان من شأنه ان يقلل مدة الالتزام التي يستطيعون خلالها تحصيل الأيرادات الممكنة من الأرض، أو من اية حيازات أو ملكيات أخرى استأجروها وذات صفة انتاجية وتدر دخلا. كما كانوا (الملتزمون) مهتمون أساسا باطالة مدة الالتزام حتى لقد نجحوا فيما بعد في الحصول على «ايجارة خاصة» حيث تم منح حق الالتزام مدة حياة الملتزم. وبطبيعة الحال كان أى شخص قوى يحصل على هذه «الايجارة الخاصة» يحاول ان يجعلها وراثية فى أسرته. وفى هذا الاطار عمل من تبقى من أصحاب التيمارات والملتزمين على بلوغ الهدف نفسه، اى تحويل حيازة الميرى التي عهد بها اليهم لفترة محددة، الى حيازة من نوع «الملك». وكان هذا التحول بالنسبة للحيازة الزراعية يعنى التحول من نظام التيمارات الى الجفالك.

وما سهل من عملية التحول من نظام معين فى حيازة الأرض (التيمار) الى نظام آخر (الجفالك)، التغيرات الديموجرافية الهائلة التي وقعت، والتي سوف نناقشها فى النقطة التالية من هذا الفصل. ويكفى القول فى هذه النقطة حاليا ان الوضع الديموجرافى كان عبارة عن تدهور فى عدد السكان من المسلمين وأهل الذمة على السواء، مع هجرة خارجية على نطاق واسع من أهل الذمة، ولما كان معظم الرعايا فى الاقاليم الأوربية من أهل الذمة، فإن هجرتهم الخارجية هذه كان لها نتائج اقتصادية خطيرة، وكان لها ارتباط وثيق بتطور نمط الانتاج الجديد الذى نشأ مع اقامة نظام الجفالك.

كانت الاقطاعات القديمة تتكون من قطعة الأرض الخاصة بالمقطع (التابع الاقطاعى)، يزرعها بافضل الطرق التي توفر له المستوى الاساسى للمعيشة، وحيازات الفلاحين المتنوعة الاحجام والتي كانت تنتج ما يكفى لأن يعيشوا، وامداد «السيد/ اللورد» بقدر من الدخل يرفع من مستوى معيشتهم فوق الحاجات الضرورية، وما يسمح لهم بدفع الضرائب عن طريق بيع ما يتبقى لهم من فائض فى المدن والضواحي القريبة. وهكذا فعلى حين كانت الاقطاعات تنتج فائضا، الا ان اقتصادها لم يكن يوجه من أجل السوق. كما ان المقطع نفسه (التابع الاقطاعى) لم يكن يهتم بنمط الانتاج او نوعية الانتاج الذى يختاره الفلاحون. ومن الطبيعى انه فى حالة الجفالك، كما هو الحال فى اى ضيعة كبيرة مملوكة ملكية خاصة، لايمكن اتباع ذلك النمط من الانتاج اذا كان

(1) Cvetkova, "Quelques problemes", p. 713 and Galabov and Duda, protokopllarbucher, Doc. Nos. 815 and 1135 and pp. 234 and 350.

المالك يريد الحصول على دخل وفير. ففي هذه الحالة لا بد من إخضاع الانتاج لادارة مركزية وترشيده وضبطه بما يدر أكبر قدر من الدخل. كما لا بد ان يصبح موجهها من أجل السوق وليس الاستهلاك. وهذا التحول يتضمن بالضرورة ادخال محاصيل جديدة على الانتاج الزراعى مثل القطن، والخضروات، ثم البطاطس والأذرة فيما بعد، فضلا عن زيادة الانتاج الحيوانى. وهذا التطور الذى أشرنا اليه يرجع الى كل من ضخامة حجم الحيازات وندرة الأيدي العاملة. ولقد أثبت السوق المحلى أنه أصغر من اى يستوعب كل هذه المنتجات الجديدة، وخاصة الحبوب نظرا لأن التدهور فى عدد السكان لم يقتصر على المناطق الريفية، ولأن تقلص سكان الحضر من ناحية اخرى لم يكن يسمح باستيعاب المنتج من السلع الزراعية. وعلى هذا فان الحصول على الارباح او المكاسب من حيازة الارض لا يمكن ان يتحقق الا من زيادة الصادرات التى تدر عائدا هائلا، وتحافظ فى الوقت نفسه على مستوى معقول للأسعار المحلية.

ولقد أدى البيع خارجيا (التصدير) الى اضعاف سلطات الادارة المركزية، والى الفساد ونمو استقلالية ولاة الاقاليم الذين اصبح كثير منهم فى حكم الأمراء المحليين فى القرن الثامن عشر. ومن المعروف ان تصدير السلع الاستراتيجية مثل الرصاص والحديد، وكل المنتجات الزراعية، كان ممنوعا فى الامبراطورية العثمانية. ومع هذا فان هذه السلع الممنوع تصديرها، كانت تصدر الى حد ما وأن كان تصدير بعضها قد خضع لبعض شروط معينة مثلما كان يحدث مع ميزوفاروزوك -Mezovaro sok فى الحجر، أو كانت تنظمها معاهدات مثلما كان الحال مع دوبروفنيك، أو كانت تمثل الحد الأدنى من التنازلات الذى كان تفرضه تعاقدات التجارة الدولية لتأمين استيراد مواد معينة مهمة. ولكن من الملاحظ ان هذه القيود التى كانت تنظم تجارة الصادرات على ذلك النحو لم يعد يعمل بها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولعل هذا يقدم نموذجا للفجوة بين النظرية والتطبيق، وكيف ان أوامر وتعليمات استانبول كانت عديمة الأهمية فى الاقاليم بصفة خاصة فى القرون الاخيرة من عمر الامبراطورية العثمانية. وعلى هذا كانت معظم أعمال التصدير غير قانونية من الناحية النظرية، لكن لم يكن أحد يجرؤ على منع البيلريكوات وحتى السنجق بكوات، وكثير منهم يملك جفالك كبيرة، من اصدار تراخيص تصدير محلية مقابل رسوم معينة.

وفى اطار هذه التطورات ظهرت مجموعة جديدة من تجار الصادرات كان أكثرهم من الالبان والسلاف. وقد استطاع هؤلاء مع جماعة كبار التجار التى أصبحت فى القرون الأخيرة تتألف من عدد كبير من أهل الذمة (اليونانيون قبل السيادة العثمانية) وعدد أقل من المسلمين، تغيير التركيب الاجتماعى والسياسى للمدن، وارتفع شأنهم وزادت فاعليتهم فى حركات البعث القومية التى حدثت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان كثير من عائلات التجار هذه قد أصبحت غنية وأكثر أهمية لدرجة أنهم دخلوا فى دائرة الالتزام واصبحوا ملتزمين، بل ومسؤولين محليين فى الادارات الوسطى. وكانوا متشددين مع بنى قوميتهم وصارمين مثلما كان الأتراك معهم وأقل شعبية لأنهم ينتمون الى المجموعة نفسها، كما فعل اولئك الذين اضطروهم وقمعوهم.

وبصرف النظر عما اذا كان سيد الارض الجديد صاحب وقفية أو صاحب تيمار سابق، أو

أحد الباشوات أو البكوات المحليين، أو أحد عناصر حاشية السلطان المقيمين في العاصمة استانبول، أو ملتزم سابق .. فقد كان في الغالب الأعم «مالكا غائبا»، يدير جفلكه بمساعدة ناظر أو وكيل. وعلى عاتق إيهما وقعت مسئولية صياغة العلاقة الجديدة بين السيد والفلاح. وفي التوصل إلى علاقة مؤقتة لتحسين تحقيق تسوية نهائية، كانت هناك عدة علامات في هذا الطريق لتحقيق المراد في النهاية. فمن الناحية النظرية أو على الورق فقط. احتفظ الرعايا بكل حقوقهم وكان عليهم أداء بعض الالتزامات مقابل تمتعهم بالحقوق. وكان من المفترض أنهم أحرارا ومن حقهم ان يرفعوا القضايا امام الدوائر القضائية في المحاكم، أو يهاجروا إلى بلد آخر .. الخ. ومن ناحية أخرى كان سيد الأرض يريد تحقيق أقصى حد ممكن من الرقابة والسيطرة على أفعال الفلاحين وتحركاتهم. وبمعنى آخر كان يريد تجريدهم من حقوقهم وربطهم بالأرض كأقنان Serfs. وعلى الرغم من صعوبة الحيلولة بين هؤلاء الأفراد الأقوياء وبين استرقاق فلاحى جنوب شرقى أوربا بمقتضى القواعد والاعتبارات القانونية، إلا ان ندرة الأيدي العاملة وعدم القدرة على ارغام الفلاح المهاجر إلى أرض أحد النبلاء الأقوياء على العودة إلى مقره مرة أخرى، كفل استمرار عملية الاسترقاق. ومع هذا لم يكن ما حدث يعنى ان وضع الفلاحين لم يتغير، وان الاعتماد على «السيد» لم يزد زيادة ملحوظة.

لقد تولد ضياع أمن العامة من فساد اللوردات الجدد، ومن السلوك المتدنئ للعناصر غير المرغوب فيها» التي كانت قد طردت خارج استانبول واستقرت في الأقاليم. ومن زيادة النشاط المتعصب للمتطرفين الدينيين الذين كانت السلطات عاجزة عن صدهم وكبح جماحهم، أو غير راغبة في القيام بذلك أصلا، مما ترك الفلاحين أمام ثلاثة بدائل: الهجرة إلى أماكن آمنة .. إلى الجبال بصفة رئيسية واقامة مستوطنات جديدة على «أرض حرة»، أو مقابلة العنف بالعنف وتكوين «عصابات وطنية» وروابط من اللصوص وقطاع الطرق للدفاع عن النفس ومن ثم يصبحون من الخارجيين على القانون، أو أن يلجأوا إلى رجل قوى يستطيع توفير الأمان الذى لم تستطع السلطات ضمانه. والحاصل ان الفلاحين اتبعوا كل من هذه الطرق الثلاثة. وبطبيعة الحال فان أولئك الذين اختاروا البديلين الأولين كانوا غير موجودين بالنسبة لسادة الأرض الجدد. أما الذين بقوا في أماكنهم وكانوا راغبين في العمل، اصبحوا ذوى قيمة وأهمية. والحقيقة ان الحاجة إلى الأمن زادت من اتجاه مركزية الأمور، والذى كان الانتاج من أجل السوق يتطلبه. وأصبح قصر الضيعة الذى كان قد بدأ فى الظهور فى الاقطاعات يشبه غالبا قلعة صغيرة تحرسها قوات اللورد الخاصة وتدافع عنها. وحتى يكون هذا الدفاع ممكنا كان من الضرورى نقل الناس إلى أماكن محمية بشكل أو بآخر. كما كان من الضرورى تغيير مواقع كثير من القرى القديمة لتكون قريبة من قصر الضيعة، وبالتالي أصبح سكان هذه القرى وغيرهم من الفلاحين الذين أتلفت قراهم وتحطمت بالخارجيين عن القانون معتمدين اعتمادا كليا على «سادتهم».

ولقد كان هذا الاعتماد مهما لعدة أسباب أهمها بصفة أساسية، أنه كان وسيلة اللوردات (سادة الأرض) للاحتفاظ بفلاحهم ومنعهم من ترك أماكنهم. وكان اللوردات فى معظم الجفالك لا يملكون فقط بيوت الفلاحين، بل كانوا يملكون حتى أدواتهم الانتاجية. وهناك حالات لقرى

تم بناؤها وتجهيزها بكافة الأدوات والمعدات قبل استحضار المستأجرين. وكان يتم تسليف الجيوب والمواشى والمال للرعايا بأسعار ربوية بضمن الوعد بالانتاج. ولقد مكنت هذه العلاقة اللورد من ان يمنع بعض الفلاحين من الهجرة وترك الارض وارغامهم على البقاء بمقتضى «عقد عمل» ملزم أمام المحكمة. والحقيقة ان مجمل العلاقات التى كانت قائمة لم يقض عليها، بل كانت تمارس بتشجيع .. فكل القرى استمرت فى روابط جماعية مع ساداتها الذين كانوا يتناقشون معهم فى أمورهم من خلال مسؤوليهم أوقاداتهم أو كبرائهم - كما كان هناك ميلا للبقاء على العناصر غير المستقرة فى المكان. وقبل كل شئ لم يكن زملاء اللورد يرغبون فى القيام بنصيبهم من المسؤولية بعد وفاته. وقد ذهب بوش - زانتنر الى القول ان نظام الجفلك هو الذى اعطى نظام الزادروجا التقليدية شكله النهائي وكذا السلطة الكاملة على حياة وأرواح سكان الجفلك⁽¹⁾ .. فالقرية فى هذا الاطار تختار «كمتها Kmet» الذى يقوم بعمل رجل شرطة محلى، وبمهمة قاضى صغير تحت إشراف «الكنز» Knes شيخ الجالية. ومن الملاحظ ان الاسلوب الجديد لحيازة الارض، غير نمط علاقات الشرق الادنى الى نمط شرق اوروبى يشبه ما كان قائما فى روسيا وبولندا والمجر ورومانيا. وكثيرا ماتعرض هذا الاسلوب أو النمط الشرق اوروبى للنقد بقسوة باعتباره أسلوبا متخلفا وقمعيًا بمقارنته بنمط غرب ووسط أوروبا. ولكن يجب ان نتذكر أنه كان منبث زعماء الاصلاح والحركات القومية بمختلف الاشكال فى كل من بولندا والمجر، وبدرجة أقل فى روسيا ورومانيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

هل كان الجفلك كنظام ملكية الارض تتوفر فيه الامكانيات نفسها التى كانت تتوفر لنمط ملكية الارض فى شرقى أوروبا ليكون أساسا للتنمية والبناء؟! .. ان الاجابة التقليدية التى تقدم غالبا لهذا السؤال تدور حول ان ادخال نظام الجفلك كان ضارا وأحد الدلالات الواضحة على أن الاسلوب العثمانى الذى كانت زراعته تعتمد على نظام التيمار، قد تدهور وانهار. ولكن هناك عدة أسباب تمنعنا من المشاركة فى هذا الرأى ..

وأول هذه الأسباب أنه على الرغم من ان العثمانيين قد حولوا أصلا وفعلا نمط البلقان فى ملكية الارض من النمط الاوروبى الى النمط الشرق اذنى، عندما استولوا عليه وأخضعوه كسادة، الا أنهم فى عمليات التحويل هذه أوقفوا النمو التام للاقطاع الذى كان فى هذا الجزء من العالم متخلفا بعدة قرون عن الاقطاع الذى كان سائدا فى اوروبا الغربية. فمثلا لم يصبح فلاح الصرب «قنا» Serf اذا احتفظ كما سبقت الاشارة فى الفصل الخامس بعدد من الحقوق والامتيازات التى كانت تكون هى وماعليه من التزامات جزء من حدوده المشروعة. والفجوة بين السيد والفلاح فى اوروبا الغربية لم تكن عميقة ابدا كما كانت فى الاجزاء الأخرى من اوروبا الشرقية.

أما سبب عدم اكتمال تطور الاقطاع فى اوروبا الشرقية، فكان يتمثل فى ان وصول العثمانيين أبعد الطبقات الحاكمة التقليدية من على مسرح الحوادث. ويقدر ما كان هذا الابعاد مفيدا

(1) Busch - Zantner, Agrarver fassung, p. 135.

للفلاح، كان لاختفائه نتائج بعيدة المدى وأليمة وكثيرة. وبتأسيس الجفلك ظهرت على المسرح مجموعة قيادية جديدة فى شكل سادة الارض وزعماء الفلاحين. وارتكز التعايش بين مالِك الجفلك والفلاحين على حقوق مضمونة سلفا. كان فلاحو الزادروجا فى الصرب يتمتعون بحقوق كبيرة فى نظام الجفلك عما كان عليه الفلاحون فى مقدونيا وبلغاريا. وهذا يفسر لماذا كانت بلاد الصرب أول من تمرد على الحكم العثمانى.

والسبب الثانى انه فى اوربا الشرقية ادى نظام الملكية الزراعية الى وجود زعامات وقيادات رغم عزلة الفلاحين عن سادة الارض من الناحية العملية وعدم حق الفلاحين فى الشكوى. وأما امكانات الجفلك الذى كان سادته وفلاحية يشتركون فى بعض الحقوق ولهم مصالح مشتركة ليصبح قوة من أجل التغيير، كانت أعظم مما كانت عليه اقطاعات اوربا الشرقية. ولقد فهم النمساويون هذه الامكانية وأدخلوا عناصر هيئة الرئيس أو الزعيم عندما حكموا الاقاليم السلافية بين عامى ١٧١٨ - ١٧٣٩. ولقد أدرك عدد كبير من اللوردات الاقوياء هذا الأمر (أنظر الفصل الثانى)، لكن استانبول حصرت نفسها فى تثبيت وضع هيئة الرئاسة أو الزعامة المثلثة فى كل من الأوبر - كينز (Ober - Knes) من خلال براءة يصدرها الباشوات المحليون. وهؤلاء الوجهاء الجدد سهلوا التعامل بين كل العناصر المعنية من السلطات، وسادة الارض، والفلاحين. وعندما أدركت استانبول ان هؤلاء الوجهاء الجدد حصلوا على المكائنة والثروة الكافية، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى لأن يكونوا قيادة تمثل قوة اجتماعية، كان الوقت قد أصبح متأخرا. وعندما انتهت استانبول لخطورة هذه العناصر خلال حكم السلطان سليم الثالث، كان الجفلك قد انتهى كنظام.

وثالثا، كان نظام جفلك القرن السابع عشر يملك من الامكانات ما يؤدى الى تغير جذرى بحيث يصبح القوة التى تعيد النشاط والحيوية والطاقة للامبراطورية العثمانية .. فالتاس الذين يعملون فى ظل هذا النظام الجديد للملكية الزراعية، كانوا مايزالون عثماني التوجه وليسوا قوميين. وكان من الممكن ان تنفيذ الامبراطورية العثمانية من امكانيات القوى الاقتصادية والاجتماعية التى تمثلها الجفلك، اذا كانت قد ظلت كما هى ولم يتم القضاء عليها فى القرن الثامن عشر هى الأخرى. وليس هناك ما يدل على هذه الامكانية أفضل من المرحلة الاولى للتمرد الذى وقع فى الصرب فى ١٨٠٤، حيث كانت حقوق الفلاحين هى الأقوى، والجفلك مايزال قويا. وقد أثبت تحول هذه الحركة السريع من حركة فى صالح السلطان الى حركة تستهدف انهاء الحكم العثمانى كل الجدل والنزاعات التى سبقت الاشارة اليها .. كان الجفلك عثمانى التوجه أساسا، ولكن خلال القرن الثامن عشر كان هؤلاء الذين يعيشون فى الريف قد تعلموا درسا قاسيا مريرا مؤداه ان استانبول لم تعد تملك القوة لفرض ارادتها وحمايتها المخلصين.

على كل حال، يمكن تلخيص الملامح المهمة التى تشخص الريف العثمانى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كما يلى:

كان الجفلك المملوك ملكية خاصة يمثل الوحدة الزراعية السائدة، وبالمكها الذى كان

مسلمًا أو ذميا كان مالكا غائبًا، يدير أرضه بمساعدة ناظر. وكان استغلال الجفلك اقتصاديا يتم في إطار اقتصاد السوق بما يشمل زراعة محاصيل جديدة في مجال مبيعات البضائع. وقد تغير الريف تغيرا ماديا ملحوظا، فقد أخلت مساحات كبيرة جدا من السكان واستخدمت مراعى، والتفت القرى حول قصور الضيعة المحصنة. ومن الناحية النظرية كان سكان القرى يحتفظون بحريتهم القانونية. ولكن في الواقع كانوا مقيدين بالأرض عادة، لأن كل شيء كانوا يحتاجونه من أجل الحياة يملكه اللورد، الذى كان أيضا دائنهم، ولأن المجتمع الذى كانوا ينتمون إليه لا يشجع هجرة أعضائه. وقد احتفظت تلك الجاليات المشاعية بدرجة كبيرة من الحكومة الذاتية الداخلية، وتراكت عناصر القوة فى يد زعمائها بمضى الوقت، مما نتج عنه فى النهاية وجود عنصر قيادى جديد بين الفلاحين.

٣ - التغييرات الديموجرافية

لم تقع التغييرات الديموجرافية فى القرية فقط بل حدثت فى المدينة أيضا، وشاعت فى كل بلدان شرقى أوروبا ونتج عنها تحولات لها دلالاتها، لعل أهمها نقص عدد السكان. ورغم أنه لا توجد لدينا بيانات احصائية دقيقة فى هذا الشأن، إلا ان سجلات الضرائب تعكس بوضوح هذا الوضع، وتوضح تضائل عدد العنصر التركى - المسلم، وهو أمر لاحظته الرحالة والمشاهدون المعاصرون. وليس تفسيره بالامر العسير، ذلك ان الطواعين والمعارك العسكرية أدت الى موت كثير من هذا العنصر. وكان من الصعوبة بمكان - كما سبقت الإشارة - تعويض هذه الخسارة فى الأرواح باحلال عناصر أخرى محلها لأن ظهور التيموريين، ثم الصفويين فى بلاد فارس، حال دون سهولة انتقال قبائل وسط اسيا التركية أو هجرتهم الى الاراضى العثمانية. وانتهى الأمر الى ان أصبح العنصر التركى الذى كان غنيا من الناحية المالية وحضرى الى درجة ما، يتوزع فى أسر صغيرة نسبيا شأن العناصر الاجتماعية الأخرى المنتشرة فى أوروبا آنذاك.

ومن ناحية أخرى أدى انخفاض معدل المواليد بين المسلمين الاوربيين وارتفاع معدل الوفيات لأسباب طبيعية أو لأسباب أخرى، وعجز الحكومة عن ملء الفجوة السكانية بالعنصر التركى بصفة مستمرة، أدى الى نقص نسبة الأتراك - المسلمين بين سكان ولايات أوروبا العثمانية. أما نقص عدد المسلمين فى الريف فقد ارتبط بالتحول الذى حدث فى نظام التيمار - الجفلك كما سبقت الإشارة، وزيادة عدد الدمين الذين سعوا الى حيازة الأرض، وزيادة الاعتماد على الرعايا المحليين فى مسئولية ادارة شؤون القرية. على أن قلة عدد المسلمين فى جنوب شرقى أوروبا عما كان عليه الحال من قبل، ليست هى الأمر المهم بقدر أنهم على ضآلتهم قد تركزوا فى المدن الكبيرة والصغيرة على السواء وليس فى الريف. ولعل انتشار الملكية الزراعية الغائبة يفسر هذا التغير الديموجرافى فى المناطق الريفية.

أما سكان المناطق الريفية المسيحية فكانوا يتناقصون هم الآخرون يوما بعد يوما. وكانت

الأسباب الرئيسية لهذا الانخفاض كما سبقت الإشارة هي: الحملات العسكرية وتزايد الارغام غير القانوني للناس على الهجرة الى مناطق آمنة بما فيها المدن، ومعارك انتصار البنادقة على المورة والاستيلاء عليها واستعادة العثمانيين لها كان لهما التأثير نفسه سكانيا، وحملات الهابسبورج المتوالية على القطاع الشمالى الشرقى من الممتلكات العثمانية وحكمهم المؤقت لاجزاء معينة من هذا القطاع ثم اعادة الحكم العثمانى فى هذه المناطق وما أدى اليه من هجرات ضخمة على نطاق واسع منها. وأكثر هذه التحركات السكانية شهرة هجرتان جماعيتان للصربيين فى عامى ١٦٩٠، ١٦٩٤ الى الاقاليم التى اصبححت فى يد الهابسبورج. فقد انتقل حوالى مائتى ألف صربى بقيادة أسقف ايك Ipek (بيك Pec) المتروبوليتانى أرزيبه الثالث كرونوفيتش Arsenije III Cernojevic ناحية الشمال مع تراجع قوات الهابسبورج وتفهمهم فى ١٦٩٠، ثم تبعهم مجموعة صغيرة فى عام ١٦٩٤. وقد تلت هاتين الهجرتين الكبيرتين هجرات جماعية على مر السنين، ولكن فى اعداد صغيرة نسبيا.

وهكذا تسببت هذه الهجرات الجماعية فى آخر الأمر الى حلول أناس جدد محل المهاجرين، وتغيرت بالتالى الخريطة الديموجرافية لمنطقة جنوب شرقى أوروبا تغيرا كاملا. ففى نهاية القرن السابع عشر كان عدد كبير من الصربيين قد نرح الى جنوبى المجر، واستقر الالبانيون فى المنطقة الخالية المعروفة الآن باقليم كوزوفو - ميتوهيا Kosovo - Metohija فى يوجوسلافيا، وفى ايرروس Epirus وحتى فى المورة، وبدأ البلغار يوطنون مناطق أخرى كثيرة وينتقلون من مناطقهم التقليدية تجاه شواطئ بحرايجه والى مقدونيا. ومن الطبيعى ان مثل هذه التحركات السكانية الكبيرة والصغيرة لم تكن تمثل فتوحات قمعية أو تشريد للآخرين من ديارهم، اذ كان يعيش فى تلك المناطق التى تمت الهجرة إليها ولقرون طويلة بعض السكان الذين ينتمون لنفس قومية المهاجرين الجدد. لكن الهجرات الواسعة المهمة التى تمت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أعطت تلك المناطق وجها ديموجرافيا جديدا أصبح مهما عندما ظهرت فكرة القومية الى الوجود. ورغم ان عدد المهاجرين الجدد الى تلك المناطق كان أقل من عدد سكانها الأصليين فى البداية، الا انهم سرعان ما أصبحوا يشكلون الأغلبية.

وهكذا ورغم ان عدد الالبيين اجمالا كان هو الآخر فى انخفاض بشكل دائم كما لاحظنا، الا انهم لم يحلوا محل عناصر اسلامية غالبا، ولكنهم كانوا يحلون محل بعضهم البعض فى مختلف بلدان جنوب شرقى أوروبا. وهذا النوع من التغير السكانى كانت له أهميته وتأثيره فى المدن كما كان مهما أيضا فى المناطق الريفية. ففى المستوطنات الحضرية، حل اليونانيون والسلافيون والالبانيون بدرجة أقل، محل ليس فقط المسلمين، بل محل اليهود بدرجة ملحوظة. وفى القرن السابع عشر وعندما بدأ التعصب الدينى يسود الامبراطورية العثمانية، كانت دولتان أوربيتان على الأقل وهما إنجلترا وهولندا، تسييران فى الطريق المعاكس، الا وهو التسامح الدينى، ومن ثم هجرة عدد كبير من يهود جنوب شرقى أوروبا جماعيا الى هاتين الدولتين. وتقدم تسالونيك كمدينة تضم أكبر عدد من تجمعات اليهود أفضل صورة لما عرضه. فقد انخفض عدد اليهود فيها من أربعين ألف فى ١٦٦٠

الى حوالى أثنى عشر الف فقط فى ١٧٩٢ . وقد حدث انخفاض مماثل لعدد اليهود فى اماكن أخرى مثل سراييفو ، وزيمون Zemun ، وفيدين ، وسكوبيه ، وبلغراد، وبدرجة أقل فى صوفيا، وموناستير، وأدرنة، وكل منها كان يضم جاليات يهودية قوية^(١) . وبالإضافة الى نمو التعصب العثماني ونمو التسامح فى الغرب فى المقابل، أدى الانشقاق الداخلى والذى سوف يناقش فى الفصل الثانى عشر، الى اسراع اليهود بالهجرة الى بلدان أخرى.

والى جانب تضاؤل العناصر العثمانية واليهودية، وزيادة العناصر المسيحية من اهل البلاد المحليين، ظهرت مجموعة مسلمة جديدة فى المدن الكبرى والصغرى قوامها العناصر غير المرغوب فى وجودها باستانبول والذين طردوا منها. ففى تسالونيك حل محل العنصر اليهودى المهاجر عدد قليل من المسيحيين بلغت نسبتهم حوالى ٢٥٪ من سكان المدينة فى ١٧٩٢ ، على حين كانت «الانكشارية» من العناصر غير المرغوب فيها تشكل حوالى ٥٥٪ من السكان^(٢) . وقد وقعت تغييرات مماثلة فى العناصر السكانية فى معظم المدن الأخرى.

ومن الملاحظ ان بعض المدن كانت تعاني من خسارة كبرى فى عدد سكانها من المسيحيين فى القرن السابع عشر. وعلى الرغم من انها استعادت بعض سكانها خلال القرن التالى، الا ان السكان لم يصلوا الى الحجم الأسمى قبل نهاية الفترة موضع الدراسة. فمثلا فقدت بلغراد حوالى نصف سكانها فى الربع الأخير من القرن السابع عشر، وفقدت مدينة سكوبيه حوالى ٨٠٪ من سكانها. أما حالة أينا فقد سبقت الاشارة اليها. وظلت مواقع أخرى كما هى دون تغير كبير فى اجمالى عدد سكانها، بل ان بعضها قد زاد، ولكن التركيب السكانى لتلك المواقع تغير تغيرا جذريا، وخير مثال على ذلك تسالونيك التى ظل عدد سكانها مستقرا عند ستون ألفا تقريبا، وبلوفديف Plovdiv التى زاد عدد سكانها المسيحيين من ٢٤٠ الى عشرة الآف من ثمانينات القرن السادس عشر وثمانينات القرن السابع عشر، وبانياالوكا Banjaluka فى البوسنة التى كانت نسبة المسيحيين فيها ٦٪ فى عام ١٦٥٥، ثم أصبحت ٨٠٪ فى عام ١٨٠٧^(٣) . وتقدم دراسة نيقولاى تودوروف الحديثة نماذج متعددة لهذا النوع من التغير فى التركيب السكانى^(٤) .

وعلى الرغم من خطورة التعميم، الا انه من الملاحظ انه مع نقص عدد سكان المدن زادت نسبة السكان الحضر بالنسبة لاجمالى عدد السكان، مما كان يعنى ان المدن الكبرى والصغرى أصبحت مركزا لسائر النشاطات الاقتصادية عما كانت عليه فى القرون السابقة.

وهكذا وفى خلال فترة البحث (القرنان ١٧ - ١٨) حدثت اعادة للتركيب القومية لمعظم

(1) Traian Stoianovich, "The coquering Balkan Orthodox Merchant", pp.:246 - 47

(٢) نفسه ، ص ٢٥١

(٣) نفسه

(4) Nikolai Todorov, Balkanski Grad, XV -XIX vek. Socialno- Ikanomichesko I Demografsko Razvitie (المدينة البلقانية من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر، التطورات الاقتصادية الاجتماعية والسكانية) 1972, Sofia: Izdatestvo Nauka I Lzkustvo, وهى افضل دراسة فى الموضوع، فقد اتبع المؤلف المدخل الكمي العددي فضلا عن وجود عدد كبير من الاحصاءات الممتازة بالكتاب.

المراكز الحضرية أو المدنية، وحدث اتجاه معاكس للاتجاه الذى أدخله الاحتلال العثماني من الناحية الدينية - الأنتوجرافية .. فالمراكز التى كانت مؤسسات عثمانية فقدت ملامحها التركى الأصلية، وأخذت معها فى هذا الاتجاه الناس الذين كانوا أغلبية المناطق الريفية المحيطة، وأخيرا اكتسبت بعض المدن تركيبة ديموجرافية عكست نماذج الهجرة الداخلية. ولقد أوجدت هذه التغيرات مع التغيرات التى وقعت فى المناطق أو الأجزاء الريفية ما يسمى «بلدان القلب الجسورة الشجاعة» التى أصبحت مركز الحركة القومية فى فترة ما بعد حركة التحرر. كما أوجدت مدنا أصبحت تمثل المراكز الرئيسية للمواجهة ضد العثمانيين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى كل من: شمال ابيروس، والفيوودينا، وباكا Backa، وبانات Banat، وكوزوفو - ميتوهيا، ومقدونيا، وجنوب ثيراس Thrace.

وقد تراكب مع هذه التغير الديموجرافى تحولا اقتصاديا سبق استعراضه فى المناطق الريفية لم يشتمل فقط على ظهور أنماط جديدة فى نظام الحيازة الزراعية، بل شمل ظهور القرية الجديدة، واستخدام المساحات الكبيرة من الأرض الفراغ لتربية المواشى، وادخال محاصيل زراعية جديدة، وتوجيه الانتاج الزراعى بقصد السوق والذى أوجد طبقة تجارية جديدة اكتسبت وضعا اقتصاديا واداريا وسياسيا، وان كان معظمها يعيش فى المدن الكبرى.

٤ - المدينة الجديدة

رغم ان مدينة جنوب شرقى أوربا الجديدة كانت أقل تركية مما كانت عليه فى السابق، الا ان قوام الطبقة العليا من سكانها كما مايزال اسلاميا. وقد استفاد معظم عناصر هذه الطبقة من التحول الذى حدث فى المناطق الريفية حيث اصبحوا ملاكا غائبين، ثم لحق بهم بعض سكان الريف السابقين الذين استفادوا ايضا من التحول نفسه فى حيازة اراضى او اقطاعات، وانتقلوا الى المدن للاستمتاع بحياة الترف والثروة. كما لحق بهؤلاء ايضا آخرون من التجار بصفة رئيسية الذين كانوا غالبا من الذميين، وكانت اعدادهم قد زادت نسبيا بالنسبة لعدد المسامين. ولكن ولما كان المسلمون يمثلون العناصر الغنية القديمة والجديدة على السواء، ويملكون الجفالك بأسهل الوسائل، فقد أصبحوا يتمتعون آليا باعلى مكانة بالمجتمع، وأعطوا طابعا معينا «للمجتمع الراقى». ويبرهن على ذلك الحقيقة القائلة بانه لم يكن أمام غير المسلم اذا كان هو الأغنى، الا ان يتحايل على التقاليد حتى يثبت مكانته فى المجتمع، حتى لقد يرتدى أزياء المسلمين ويبنى منزله على شاكلة منازلهم.

وبصرف النظر عن اختلاف العقيدة الدينية، كان عدد الاغنياء فى المدن يزداد بشكل ملحوظ. ولقد أجرى تودوروف قياسا لهذه الزيادة بالنسبة للقرن عشر على أساس ضريبة المساكن التى كانت تفرض عند التصرف فى المساكن بالبيع او بالابولة، وذلك من واقع سجلات مدن فيدين، وروزيه Ruse، وصوفيا، كما يتضح من الجدول التالى⁽¹⁾:

(1) Todorov, Balkanskiat Grad, p. 161

ومن سوء الحظ ان الأرقام القيمة المتعلقة بالسكان فى هذا العمل تتعلق فقط بالقرن التاسع عشر

السنوات	١٧١٠ - ١٧٠٠	١٧٤٠ - ١٧٣١	١٧٨٠ - ١٧٧١
قيمة المنازل	العدد / النسبة		
أقل من ٢٠٠ قرشا (١)	١٠٠/١٢	٪٨٤,٦ / ٢٠٤	٪٥٥,٠ / ٢٠٩
من ٢٠١ - ٥٠٠ قرشا	٠/٠	٪١٣,٨ / ٣٣	٪٢٩,٥ / ١١٢
من ٥٠١ - ١٠٠٠ قرش	٠/٠	٪١,٢ / ٣	٪١٠ / ٣٨
أكثر من ١٠٠٠ قرش	٠/٠	٪٤,٠ / ١	٪٥,٠٥ / ٢١
أجمالي	٪١٠٠ / ١٢	٪١٠٠ / ٢٤١	٪١٠٠ / ٣٨٠

١٨٠٠ - ١٧٩١

٪٤١,٤ / ١٨٥

٪٣٤,١ / ١٥٢

٪١٦,٤ / ٧٣

٪٨,١ / ٣٦

اجمالي ٤٤٦ / ٪١٠٠

وتوضح هذه الأرقام زيادة عدد المساكن الغالية الثمن خلال القرن الثامن عشر على الأقل في تلك المدن الثلاثة، لأن أرقام البيع والايولة تعد دليلا عادلا على قيمة المساكن بشكل عام. ولقد تأكد هذا الانطباع من المؤلف نفسه الذى ذكر فى عمل آخر له ان «عدد المساكن غالية الثمن تضاعف خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر»^(٢).

ورغم ان جميع المدن الأخرى لم تكن تماثل تلك المدن الثلاثة فى الحجم وفى تركيب السكان مع نقص المعلومات الاحصائية، الا انه فى ضوء المعلومات العامة المتاحة يمكن القول ان عدد الافراد الاغنياء حقيقة قد زاد فى معظم هذه المدن .. فاولئك الافراد الذين كانت ثروتهم تستند

(٢) انظر الفصل الثانى هامش ص ٥٣

(2) Todorov, "Population Urbaine", p. 61.

الى الحياة العقارية بما فيها الجفالك، كانوا يسعون لتولى اعمالا أخرى بما فيها «الوظائف الحكومية» وهى مواقع كانت فى الغالب بشكل وراثى. وبمقتضى هذه الاوضاع ظهرت الى سطح الحياة طبقة عليا جديدة رأسمالية - بيروقراطية كان معظم عناصرها من المسلمين، وان كان عدد الذمين يتزايد ايضا داخل هذه الطبقة، وأصبح غير المسلمين هم أولئك «الجريرجية» وأشياء أخرى ممن أصبحوا زعماء وقيادات فى القرن التاسع عشر.

اما عناصر الطبقة العليا من الذمين فقد نشأت ثروة كثير منهم من تجارة التجزئة، وأصبحوا فى عداد الطبقة التجارية الجديدة. ولم ينشأوا نتيجة للنشاط الزراعى الجديد الموجه من أجل السوق، أو تجارة الصادرات غير المشروعة التى سبقت الإشارة إليها، ولكن لأن تغيرا حقيقيا حدث فى النمط الاقتصادى القائم فى المدينة نفسها.

على ان التحول الجذرى الذى حدث فى المدينة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر قد ارتبط ايضا بالتغيرات التى حدثت فى نظام الحرف .. فحتى نهاية القرن السادس عشر كانت السياسة المركنتيلية العثمانية، وسياسة الحماية الجمركية، وقدرة الحكومة على فرض تنظيماتها المتعددة، قد أدت الى حماية البناء الانتاجى فى المدن. ولكن فى القرون الأخيرة كانت الأوامر التى تصدر من العاصمة بخصوص السياسة الانتاجية أضعف من أن تفرض على قوى الانتاج المحلية. غير انه فى حالة الزراعة مثلا فمن الصعب ان لم يكن من المستحيل العثور على علاقة سببية واضحة بين التغيرات التى وقعت فى نظام طوائف الحرف والنظام الجديد فى المدن.

على كل حال .. لقد حدثت التغيرات فى فترة قصيرة من الزمن يصعب متابعتها حسب وقوعها. فقد أرغمت الظروف الاقتصادية والسياسية الطوائف لوضع ضوابط وفرض تعديلات فى بنائها وسياساتها وكانت هذه التغيرات فى الوقت نفسه سببا لتطورات جديدة مهمة. ولما كانت الاسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما نتج عنها من آثار متشابكة، فانه يصعب كشف غموض العلاقة المشتركة بين الاسباب والنتائج رغم ان النتائج توضح ذلك بشكل ظاهر.

وبالإضافة الى الاتجاهات الجديدة التى سبقت مناقشتها فى هذا الفصل، كان أول تطور مهم تجب الإشارة اليه هو تقلص انتاج طوائف الحرف فى مدن ولايات اوربا العثمانية، بسبب نقص عدد سكانها. ولقد ترافق مع هذا التطور كما سبقت الإشارة تطوران آخران أضعفا من مكانة المنتج فى المدينة، اذ قدمت الاحتمالات الجديدة للاستثمار فى مجال الاراضى الفرصة للاعيان وكبار التجار والرأسماليين الآخرين فى المدن لاستثمار أموالهم فى مختلف المشروعات، بل وتولى الالتزام لتحصيل الضرائب، والاقبال على حيازة الاراضى التى تدر ريعا أكبر مما تدره طوائف الحرف المنهارة بفعل القواعد والتنظيمات الصارمة التى تقيدها. على ان نمو تجارة الصادرات فى ظل حماية الامتيازات^(١)

(١) الامتيازات عبارة عن اتفاقيات تجارية دولية. ولما أصبحت الامبراطورية العثمانية ضعيفة الجانب فقد أصبحت هذه الاتفاقيات تفسر لصالح تلك الدول. وبمقتضاها لم تحدد معدلات الجمارك فقط بل لقد بدأت الدول الاجنبية تحصل على حق «حماية» تجارها الذين كان نشاطهم التجارى موضع اهتمام متزايد.

لم يؤد فقط الى زيادة الأهمية الاقتصادية للطبقة التجارية الجديدة وزيادة نفوذها في المدن، بل لقد جعل الصناع الذين كانوا بحاجة الى منافذ لتسويق منتجاتهم يلجأون اليهم للقيام بهذه المهمة.

كانت طوائف الحرف قد أدركت آليات السوق، ومن ثم حاولت ان تضبط أحوالها وسياساتها بما يتمشى مع هذا الوضع الجديد. لكنها كانت مقيدة تقييدا كبيرا بالتنظيمات والقواعد الصارمة التي كانت تخمئها في الماضي. وعندما زاد الطلب على سبيل المثال على الانتاج بناء على طلب التجار ولم تستطع طوائف الحرف تلبية، كان الحل فيما يبدو يأتي أما بزيادة عدد اسطوات الحرف، أو باقامة طوائف حرف جديدة. لكن السلطات العثمانية كانت تنكر هذه الحلول، ومن ثم كانت النتيجة ظهور مجموعة غير مشروعة من الحرفيين تقوم على نظام بسيط «للانتاج» يموله التجار الذين لم يكن نشاطهم يخضع لأية تنظيمات مثلما هو حال طوائف الحرف التي كان وجودها يضر مجموعة الحرفيين الجدد بشكل ملحوظ. وعندما كشفت فرص العمل الجديدة في الاستثمارات عن نفسها بظهور صناعة الدخان على سبيل المثال. أخذ أمر تنظيم تداول هذه السلعة الجديدة ويبيعها بالنسبة للطوائف التقليدية فترة أكثر من قرن من الزمان، بحيث لم تتأسس طائفة للدخاخنية الا في القرن الثامن عشر فقط .. وحينئذ لم يكن بالامكان ابعادها عن سوق الانتاج الرسمي.

والحقيقة ان العمل في سوق متغير بقواعد وتنظيمات قديمة أخذه في الزوال، يعد أمرا غاية في الصعوبة بشكل عام. غير ان الذي اضر طوائف الحرف بشكل كبير لم يكن هذا السوق المتغير، وإنما تدهور تنظيماتهم الداخلية وتخلفها. وهناك عدة أسباب معقدة ومتشابكة لتدهور تنظيمات الطوائف، ويكفي ان نذكر ثلاثة أسباب فقط تبدو أكثرها دلالة.

- كان أقل تلك الأسباب أهمية التغير الديموجرافي الذي تمثل في زيادة عدد الذميين في المدن وبالتالي في طوائف الحرف. ولم تكن هذه الزيادة تعنى تحولا مهما طالما كان بإمكان الطوائف الاحتفاظ بأسلوب التسامح في بنائها الذي عرفت به من قديم. غير ان التعصب الديني كان يتعاظم عند العلماء المسلمين أصحاب كل التنظيمات بما فيها طوائف الحرف.

أما العامل الثاني فهو التعصب الديني الذي أدى الى تغييرات مهمة. فرغم ان كل طائفة من طوائف الحرف ظلت وحدة واحدة من الناحية الأسمية، الا انه تأسست داخلها أقسام للذميين وأخرى للمسلمين. وبدأت كل من المجموعتين تتباعدان تدريجيا، ومن ثم تتنافران. وما ان أشرف القرن السابع عشر على نهايته الا وكان الذميون ينتخبون «اليغتي باشي» الخاص بهم، مما يدل عمليا على انشطار طوائف الحرف دينيا. وبعد ذلك بحوالي مائة عام تم الاعتراف بهذا الانشطار بشكل رسمي عندما حصلت بعض الوحدات الذمية في الطوائف على حق ان يكون لها «الكخيا» الخاص بها. وفي الوقت نفسه بدأ الذميون يحتفلون باعيادهم بعيدا عن التنظيم الأبوي، وينظمون مؤسساتهم الخيرية الاجتماعية. وهكذا انتهى الأمر الى ظهور تنظيمين متنافسين متعادين في وقت لم يكن بإمكان سوق العمل المتقلص بقادر على استيعاب أكثر من تنظيم واحد. وفي الوقت الذي استمرت فيه السلطات في الوقوف الى جانب طوائف حرف المسلمين وتدعمها، وقفت طبقة التجار الجديدة الصاعدة الى جانب تنظيمات الذميين، مما أدى الى تفاقم الموقف أكثر وأكثر.

أما العامل الثالث فهو الذى خلق أعظم المصاعب وأخطرها، ويتلخص فى الرابطة المتنامية بين طوائف الحرف والانكشارية الذين ظهروا فى مدن الاقاليم سواء فى شكل الحماية العسكرية أو كعناصر غير مرغوب فيها كانت قد أرغمت على مغادرة استانبول كما سبقت الاشارة. أما كيف ولماذا استطاع عسكر الانكشارية ان ينتسبوا الى معظم طوائف الحرف، فانها نقطة بعيدة عن موضع هذه الدراسة. ويكفى القول فى هذا الشأن انه تحقق الكثير من خلال العلاقات المشتركة بين كل من طوائف الحرف والانكشارية مع بعض فرق المتصوفة (الدررايش) من خلال اساليب الضغط والارهاب التى اتبعها هؤلاء العسكر السابقون (الانكشارية). وقد استطاع هؤلاء الاعضاء الجدد فى طوائف الحرف من الانكشارية الذين كانوا أقل اهتماما بحرفة الطائفة بسبب وضعهم العسكرى المروك من سلطات رئيس الطائفة لأنهم «كعسكر» لا يعاقبون الا بواسطة رؤسائهم من الضباط. وعلى هذا أصبح من الصعوبة بمكان ارغام اعضاء الطائفة من غير الانكشارية على الالتزام بالقواعد والطاعة.

والحق ان تدفق الانكشارية على طوائف الحرف، وان زاد من حجم عضويتها، الا أنه لم يزد من انتاجيتها، فضلا عن ان وجودهم أضعف ايضا تنظيمات الفتوة القديمة، وضعضع من نفوذ مسئولى الطوائف الذين تضاءلت سلطتهم الدينية والاخلاقية فى الوقت الذى كانت تنمو فيه طرق الدراويش (المتصوفة). وفى هذا الاطار أدت التغيرات الاقتصادية والديموجرافية والداخلية الى تقييض نشاطات طوائف الحرف الانتاجية والاجتماعية، بالتالى تقليل أهميتها فى حياة المدينة. وانتقل الدور القيادى الذى كان يلعبه رؤساء طوائف الحرف فى القرون الماضية حتى فى ادارة المدينة، إلى الوجهاء المحليين، والتجار، وانكشارية طوائف الحرف الجدد الذين لم يكونوا يقدرون المسئولية حق قدرها، ويستندون فى نفوذهم على مجرد أنهم كانوا اعضاء فى فرق الانكشارية، وانه باستطاعتهم فرض مطالبهم بالقوة.

وبفقدان طوائف الحرف لنفوذها ولتماسكها الداخلى، لم تعد قادرة على العناية بشئون اعضائها ويتضح ذلك بجلاء من مقارنة الأجور بارتفاع سعر القمح الذى كان مايزال القوات الاساسى للانسان العادى فى استانبول. وينبغى ان نتذكر هنا ان الحكومة اهتمت اهتماما كبيرا بالاسعار فى العاصمة (انظر الفصل الخامس) حيث كان سهلا عليها ان تفرض تعليماتها وتنظيماتها بشكل أفضل بالنسبة للاقاليم. وعلى هذا فمن الصحيح ان نفترض ان التوازن بين الأسعار والأجور كان اقل وجودا فى مدن جنوب شرقى أوروبا عما قد توضحه لنا الأرقام. ففى العاصمة استانبول ارتفعت أجور العمال المهرة ٨٠٠٪ على حين زادت أجور العمال غير المهرة ٣٥٠٪ فقط^(١).

أما عدد الاسطوات والملاحظين الذين كان دخلهم يتناسب مع الاسعار فكان قليلا. أما أغلبية اعضاء طوائف الحرف فقد رأوا انخفاض قوتهم الشرائية الى النصف. وبالتالي لم يكن عجيبا أنهم

(1) Traian Stoianovich, "Factors in the Decline of ottoman society in The Balkans", Slavic review w21 (December 1962): 627

حاولوا تنظيم أنفسهم داخل الطائفة وخارجها مما أضعف الطوائف أكثر وأكثر..

ولقد انعكست كل تلك التغيرات اتلاقتصادية على حجم المدن الكبرى والصغرى حيث كان سكان معظمها أخذ في الانكماش، ليس فقط كنتيجة للتدهور العام في عدد سكان الأقاليم الأوربية، بل لأن المدن أصبحت تقدم فرصا معيشية أقل عما كانت عليه الأحوال في أيام ازدهار الامبراطورية. ولقد زاد هذا الأمر وضوحا في الاختفاء التدريجي للضواحي نتيجة زيادة نشاط الخارجيين على القانون ونشاط العصابات الذى جعل سكان هذه المناطق ينتقلون الى أماكن أكثر أمنا. ومن المفارقات المثيرة انه صاحب اقامة الاغنياء للمباني داخل المدن الصغيرة، زيادة في عدد الفقراء الذين يعيشون بجوار هذه المباني الفخمة.

لقد تزايدت مظاهر الفروق بين المسلمين وأهل الذمة في كل مستويات الدخل، رغم التماثل بين أغنياء أهل الذمة وبين المسلمين فى الملبس والمسكن. ومما يدل على زيادة الهوة بين الطرفين، فساد معظم المسؤولين وارتشائهم، وعجز القلة الشريفة عن فرض القانون، وزيادة عدد هؤلاء الذين أصبحوا فوق القانون بحصولهم على براءات الامتياز التى وضعتهم تحت حماية القناصل الاجانب، وتدهور كفاءة طوائف الحرف ونمو قوة الانكشارية فى ادارة الأمور الاقتصادية والاجتماعية للمدن، واخيرا وليس آخرا ضيق سوق التوزيع فى المدن. وقد حدثت هذه التطورات بعيدا عن العاصمة استانبول، وكانت لها دلالتها على المدى البعيد فى المدن أكثر منها فى الريف.

وفى الريف أصبح الفلاحون يعتبرون المالك الغائب وناظره (مندوبه المحلى)، عنصرا أجنبيا يقاومون سلطاتهما المتزايدة بدرجة أو باخرى، ويعيشون كرعايا فى اطار من الترابط فى مواجهة «السيد الاجنبى» .. يقاومونه ويخافونه فى الوقت نفسه. والحق انه لم يكن يوسع سيد الارض ان يضغط على الفلاح أكثر من اللازم حتى لا يفقد كثيرا من قوة العمل التى يحتاجها، فضلا عن أن الفلاح كان مائزلا يتمتع بحق الهجرة قانونا.

أما فى المدن فكان المسلمون والذميون يعيشون معا فى علاقات طيبة وصلات قوية يوميا. وكانت عناصر الانكشارية الخارجة على القانون من القوة بحيث لم يكن بإمكان السلطات الضعيفة وكذا طوائف الحرف كبح جماحها. ولم يكن السادة الجدد، والملاك الغائبون الذين يعيشون فى المدن الصغرى، والتجار، وكذا الانكشارية، يقفون ضد من يريد مغادرة المدينة، ولكن كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بتحقيق أقصى ربح ممكن من سوق يتقلص بشكل سريع، ويتعرض لمنافسة متزايدة. وعلى هذا كان من المستحيل التعايش بينهم وبين العناصر الأخرى من السكان أصحاب المستوى الاقتصادى الأقل. وحتى فى داخل الدائرة الضيقة للطبقة العليا فى المدينة، كانت الانقسامات بين شرائحها من الحدة بحيث لم تكن هناك شريحة تتفق مع الاخرى وخاصة بين المسلمين والذميين.

أما بالنسبة للمسلمين فمن الملاحظ ان العناصر الحاكمة «القديمة» من الأعيان وكبار التجار وموظفى الادارات، اندمجوا فى طبقة عليا جديدة مع الملاك الغائبين والمليئين ومسلمى المجموعة التجارية الجديدة، مكونين ما يمكن تسميته «بالاستقراطية الريفية المسلمة». ولقد واجهت هذه

الارستقراطية الجديدة المسلمين الآخرين مثل الانكشارية الذين يتمتعون بحصانات كافية، ولكن بدون مصالح اقتصادية معينة، وان كانوا قد أخذوا مناصب تدر معاشا دون عمل حقيقي، ثم انتهت تلك المواجهة كما سوف نرى الى مجموعة متنوعة من التسويات والتوفيقات.

كانت الارستقراطية الريفية مهتمة باعادة بناء التوازن الاجتماعى ولو على أسس جديدة. ولقد نجحت فى تحقيق أهدافها بمساعدة نظام الجفلك. أما فى المدن فلم تكن الحالة كذلك نظرا لوجود «البروليتارية المسلمة بوضعها الدينى المتميز» والتي لم يكن من الممكن ترويضها أو استمالتها. وعندما تكاثرت مشكلات المدينة وعمت الريف، أصبح الخارجون على القانون هم الأبطال، وانتهت الامبرطورية العثمانية، وبدأت فى طريقها الى الزوال.

ولقد تعرضت تجمعات أهل الذمة فى مختلف الوظائف والمواقع الى انشقاقات مماثلة لما تعرض له المسلمين. فاليهود كان عددهم قليلا نسبيا وسط أهل الذمة، وكذلك نفوذهم، ولم يتعرضوا للانشقاقات، أما المسيحيون الارثوذكس فقد تعرضوا لانشقاقات جديدة ورغم ان لهذه الانشقاقات اسبابا كنسية صرفه ترتبط ارتباطا وثيقا بمشكلات لغوية، الا انها كانت وثيقة الصلة ايضا بنشأة طبقة تجارية جديدة أرثوذكسية، كان عليها ان تنمى روابط العمل فى مجالات متعددة سبق للعصر التجارى القديم وخاصة من اليونانيين وتجار دوبروفنيك بنائها على مر السنين. ولم يكن غريبا ان يعمل هؤلاء الافراد ذوى الأصول المشتركة والذين يعرف كل منهم الآخر ضد كل من الجماعات القديمة والجماعات الجديدة المتنافسة. وفى محاولتهم الاستحواذ على اجزاء من السوق المحلى وتجارة الصادرات، تعلموا ليس فقط تقنية ووسائل عقد الصفقات الخاصة بالعناصر التى سوف يتنافسون معها، بل درسوا أيضا الحالة التعليمية والثقافية لهؤلاء المنافسين. وقد بدأوا بمحاكاة التنظيمات والمؤسسات التعليمية القائمة حولهم بالمدن، وأضافوا ابعادا ثقافية للقوة المالية التى يتمتعون بها .. فعلى سبيل المثال وفى سبيل تحقيق ذلك أقاموا المؤسسات الثقافية بهدف البعث القومى لمختلف قوميات جنوب شرقى أوروبا.

والحقيقة انه نتج عن كل هذه التغيرات ظهور مدينة جديدة الملامح كانت أصغر من مدينة القرن السادس عشر فى الغالب. وفى هذه المدينة زاد عدد الذميين وخاصة المسيحيين زيادة سريعة، رغم ان هؤلاء الذميين لم يكونوا دائما من الناحية الأثنية هم نفس العناصر التى هزمها العثمانيون، وأزاحوهم قبل قرنين من الزمان. وفى الوقت الذى تراكمت فيه الثروة فى أيدي جديدة كان مستوى معيشة الغالبية يتدهور. وقد ظلت القواعد والاحكام والتنظيمات القديمة من الناحية الرسمية. أما المسلمون الذين كان من المفترض عليهم اقرار هذه الأحكام لم يفعلوا أكثر من الاحتفاظ بمواقعهم. ومع هذا فقد حدث تنظيم للحياة فى المدينة بمقتضى الظروف الاقتصادية والاجتماعية لاصحاب السلطة الجديدة.

ولم يقتصر الأمر على أن الأغنياء زادوا فنى وثروة. وأن الفقراء ازدادوا فقرا ومعاناة، بل ان كل مجموعة اجتماعية واقتصادية أصبحت أقل تماسكا وترابطا. وأصبحت المدينة تدريجيا عبارة عن

حشد من تجمعات من الناس يعيش كل منها في عالمه الخاص وطبقا لتقاليد وقواعده الخاصة. رغم انهم يعيشون جميعا في مكان واحد.

ورغم ان كلا من المدينة والقرية قد تغيرتا الى الأسوأ، الا ان الحياة الريفية والحضرية ظلت محتملة الى حد ما حتى حلت فرق الانكشارية والخارجون على القانون محل السادة الجدد أخيرا. وعند ذلك تم القضاء على هذا الوضع الجديد. وبهذا التحول الأخير الذى حدث فى النصف الثانى من القرن الثامن ضاعت كل الآمال التى كانت تعقدها الامبراطورية العثمانية. ومع هذا فان مجمل التطورات التى حدثت وسبق استعراضها يدل على ان البناء الاجتماعى العثمانى كان قادرا على التواء مع التغير حتى وان كان بشكل غير كامل. على ان الدولة وقوانينها التى ظلت متحجرة أصبحت لا تتماشى مع الزمن ان لم تكن قد أصبحت ضده، وعجزت عن ان تتحكم فى ولاء سكانها. ولهذا الفشل كان اللوم يوجه دائما لعجز العثمانيين الادارى عن ايجاد مجتمع دولة واعتبار نظام الملل الثابت أكبر عقبة أمام ايجاد مجتمع متكامل. وقبل ان نتناول الملامح الأخرى الخاصة بالقرنين الأخيرين (١٧ - ١٨) والتي تدخل فى نطاق هذه الدراسة، ينبغى ان نشير الى أن الدولة أخفقت فى تجميل صورتها أمام سكانها فى وقت الرخاء؛ وكان نظام الملل وراء استحضر هذا الضعف الأساسى للدولة العثمانية.

ويذكر معظم الباحثين ان المؤسسات العثمانية كانت تعمل بكفاءة طالما كانت الظروف الموضوعية- التى وجدت من اجلها المؤسسات قائمة وسائدة. ولكنها كانت تعمل بشكل ردى عندما تظهر ظروف جديدة. وهكذا أتاح نظام الملل للعثمانيين ليس فقط معالجة شؤون هؤلاء الذين لا تنطبق عليهم الشريعة الاسلامية، ولكن أتاح لهم توفير قدرا كبيرا من المال لأن نظام الملل مع نظام التيمار جنبا الدولة حاجة كبيرة من المال كان عليها ان تدفعها للقيام بخدماتها وواجباتها. وعلى هذا أوجد هذا النظام على المدى البعيد تنظيمات منفصلة للمجموعات المختلفة من أهل الذمة. وبمرور الوقت أصبحت هذه الجماعات تنظر الى تنظيماتها المللية كأنها «حكومتها» مما أدى الى نمو ولاءات منفصلة، وكذا أجهزة سلطوية أصبحت قوى طاردة مركزية عندما توقفت الامبراطورية عن القيام بوظائفها بالكفاءة المطلوبة.

وهذا التقييم لنظام الملل رغم صوابه، يفرض تركيزا شديدا على أهمية الملل خلال قرون التدهور ومن المهم ان نعترف ان هذا النظام لم يعمل كما تم التخطيط له .. فمن الناحية النظرية صمم نظام الملل لتحقيق غرضين: تمييز الناس ذوى المصالح المتماثلة وتجميعهم معا تحت رئاسة سلطة معترف بها لديهم. والغرض الثانى ضمان ولاء أهل الذمة تجاه الدولة. غير ان الغرض الأول لم يتحقق لسبب بسيط يكمن فى أن هذا الغرض أقيم على افتراض خاطئ .. فرغم أن أصحاب مله الارثوذكس التى كانت سائد فى أقاليم أوربا العثمانية كانوا يكرهون الكاثوليك وينظرون بارتباب نحوهم، الا ان كلا منهما كان يتحدان معا فى عقيدة واحدة الا وهى المسيحية. ولم يقتصر الامر على بعث الاختلافات القومية الأصلية، والكنسية، واللغوية التى كانت قائمة قبل الغزو العثمانى، وكذلك الخلافات المهنية والأقليمية الطويلة؛ بل لقد زادت الخلافات حدة عندما وضع

الارثوذكس تحت اشراف بطريرك استانبول، وسادت اللغة اليونانية، وكذا العنصر اليوناني. وأما الذى نشأ فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فلم يكن فقط تفكك ملة الارثوذكس الذى فتح الباب ليؤر جديدة للولاء، بل الذى نشأ كان الخلافات والخصومات القديمة والتنافر والبغضاء. والتي لم يكن من الممكن التعبير عنها علانية طالما كانت زعامة الملة تحت حماية سلطة دولة قوية لايمكن تحديها.

وهذا التفتيت الذى حدث داخل ملة الارثوذكس يثبت ان نظام الملل لايمكنه ضمان ولاء أهل الدمة لأن سلطات الذميين لم تعد تعتبر ممثلة لأهل الذمة. والحقيقة انه اذا لم يكن ذميى أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر تقريبا موالين بالضرورة للامبراطورية العثمانية فقد كانوا على الأقل راضين بالحياة بدرجة أو بأخرى داخل حدودها. ولم يكن مبعث هذا الرضا سعادتهم بالتعامل أساسا «مع سلطاتهم رأسا»، ولكن كان مبعثه الحقيقة القائلة ان حياتهم وممتلكاتهم كانت فى أمان، وأنه كان بإمكانهم ان يعيشوا حياتهم الخاصة بكل تقاليدهم وأحكامها داخل الحدود التى رسمت لهم بمقتضى القانون الذى كانوا يعرفونه ويحترم كل شخص الى حد معقول. ومهما يكن من أمر «الولاء» الذى كانت تشعر به شعوب جنوب شرقى أوروبا، وان لم يكن بسبب الرضا عن حالة سلطات الملة، ولكن كان مبعثه حالة «السلام العثمانى» Pax Ottomanica. وعلى هذا فعندما توقف هذا السلام النسبى الداخلى عن فاعليته، تلاشى سبب الرضا. والحقيقة ان فقدان الأمن النسبى للحياة وليس قدم نظام الملل، هو الذى يحسب على حقيقة ان كل الذميين الذين لم تكن ثروتهم الاقتصادية مرتبطة باستمرار بقاء الدولة، تحولوا من حالة الاختلافات الى العداة الظاهر. ولم يكن اخفاق نظام الملل سبب نمو ظاهرة العداة تلك، وانما كانت الأسباب تكمن فى التغيرات التى جلبتها دولة تعانى من حالة شلل ادارى كامل وعجز عن الحيلولة دون النزاع الأهلى.



الفصل الحادى عشر

التفكيك النهائي للنظام الاقليمى

فى جنوب شرقى أوروبا العثمانية

١ - مقدمة

كانت التغيرات التى عرضناها فى الفصل السابق على جانب كبير من الضخامة، ومع ذلك فلم تكن لتؤدى وحدها الى تفكيك الأبنية الأدرية والاجتماعية والاقتصادية لولايات «أوروبا العثمانية» بشكل نهائي لولا عوامل أخرى انبثقت من فساد السلطات المركزية باستانبول وعجزها عن مراقبة ما يجرى فى الولايات رقابة فعالة ومحكمة. ولما كانت التغيرات الجذرية التى حدثت فى المدن والريف لم تحظى بقبول عامة الناس، فقد وقفوا بالتالى ضدها، مما ساعد على اقامة نظام اقتصادى - اجتماعى جديد بتوازن مع تطورات المستقبل.

كانت الحياة فى ولايات أوروبا العثمانية تمثل تشخيصا للحياة فى كل أوروبا الى حد كبير، فالبنسبة لحيازة الأراضى كان معظمها فى حوزة كبار الملاك من «الملاك الغائبين» الذين يعملون على الانتاج من أجل السوق. أما الحيازات الأصغر فكانت فى يد الفلاحين، ورغم ما هو معروف من استبداد سادة الأرض، الا ان سلطاتهم على الفلاحين كانت أقل بطشا بالقياس لما كان يتمتع به النبلاء فى روسيا والمجر أو بولندا، حيث كان الأفتان تحت أيديهم يوفرون الأيدى العاملة الزراعية على عكس «النبلاء» العثمانيون. وكان من شأن اعتماد الاقطاعية العثمانية على السوق الدولى أن تتجه الزراعة العثمانية الى نفس القنوات التى اتجهت اليها الزراعة فى كل شرقى أوروبا على الأقل، ان لم يكن فى أوروبا كلها. ورغم أن علاقات الانتاج الزراعى فى شرقى أوروبا كانت غير مرضية من وجهة نظر الفلاحين الذين كانوا شأن زملائهم العثمانيين ينتمون لعقيدة وقومية تختلف عن عقيدة سادتهم وقوميتهم، الا أن التحولات التدريجية التى حدثت فى تلك الاجزاء من أوروبا فى القرن التاسع عشر كانت من المؤكد أكثر قبولا للفلاحين عما كانت عليه الحال تحت سيطرة الأتراك والباشوات المسيحيين فى جنوب شرقى أوروبا. وأما ان هذا التطور المختلف ذهب أبعد من مجرد مرحلة توجه الاقطاعية نحو اقتصاد السوق، فأمر يمكن تفسيره بالتفكك الكامل لنظام الادارة الأقليمية فى الولايات الأوربية للإمبراطورية، والذى دمر العلاقة المرتبة بين الاقطاعى سيد الأرض والفلاح، والتى كانت قد بدأت تنمو وتتطور بعد أن أصبح نظام الجفلك يمثل المنهج السائد للانتاج الزراعى فى

البلقان أما بالنسبة للمدن فكانت مشكلتها أكثر تعقيدا الى حد ما لأن تفتيت النظام القديم هناك كان ملحوظا بدرجة أكبر. ففي المدن عكس المناطق الريفية ، تطور النموذج الجديد للحياة، لكن لم تتوازي التنمية الحضرية هناك مع ما كان يحدث في بقية أوروبا من حيث الحريات العامة، والحقوق المحلية، والحرك الاجتماعي، والنشاط الاقتصادي، رغم ان الاختلافات الطبقيّة الواضحة بدأت في الظهور. ونتيجة لذلك فليس بإمكان المرء حتى ان يخمن ان تنمية مدن جنوب شرقي أوروبا مع الوقت يمكن ان تقترب من درجة تنمية باقى مدن أوروبا مثلما أمكن في حالة التنمية الريفية. ولاشك فانه من الجائز ان نفترض ان شكلا من أشكال النظام قد انبثق من الفوضى المتنامية. وحتى هذا الفرض لسنا بحاجة اليه .. فمن المعروف سلفا أن هناك شرطان ضروريان لوجود حالة من الاستقرار وهما: قيادة قوية محلية، وبناء مظاهر قوة في أماكن متعددة أوسع من المدينة لتدعيم ومساندة القيادة. ورغم ان الشرط الاول (القيادة) كان يتشكل بالفعل في المناطق الحضرية، الا ان الشرط الثاني كان غير متوفر كلية في القرن الثامن عشر.

لقد كانت المشكلة تتلخص في غياب حكومة فعالة مؤثرة تستطيع في النهاية تحديد الاتجاه الذى تسير فيه المدينة والقرية، وتحتضن القوى التى كانت على وشك اعادة انشاء الدولة المستقلة في جنوب شرقي أوروبا في القرن التاسع عشر. وبعبارة بسيطة أدى غياب حكومة مؤثرة وفعالة الى ترك صناعة القرار فى أيدي مراكز القوة المحلية، وليس فى أيدي رجال الادارة المحليين الذين كانوا بدورهم عديمى الكفاءة شأن الادارات الحكومية المركزية باستانبول. وبطبيعة الحال اختلف هذا الوضع من اقليم لآخر. ولكن كانت هناك ثلاثة قوى رئيسية تواجه كل منها الاخرى فى كل مكان من أوروبا العثمانية خلال القرن الثامن عشر. وهذه القوى الثلاثة هي: الشريحة العليا من المجتمع، «والعناصر غير المرغوب فيها» الذين تدفقوا الى الولايات باعداد كبيرة، والقوى المحلية التى تعارض كل من القوتين الأخرتين. أما المجموعة الأولى من هذه القوى الثلاثة (الشريحة العليا) فكانت غير متحدة، اذ كانت تتكون من رجال الادارة العليا، وسادة الأرض (الاقطاعيون)، والتجار، وعلية القوم من المسلمين والذميين من أصحاب المراكز السياسية وذوى المصالح الاقتصادية الذين كانوا فى عداة ظاهر ومع هذا فكانت تحكّمهم مصالحهم الخاصة، وأحوالهم مستقرة يتمناها الآخرون. وأما خصوم هذه الشريحة العليا الرئيسيين فهم المجموعة الثانية، وهم الذين سوف نعرفهم بالانكشارية من باب التبسيط، فكانوا اما اعضاء فى اجهزة الادارة العثمانية، أو ممن يتمتعون بامتيازات تخلع عليهم حصانات قانونية دون عمل، وتحت أيديهم قوة مسلحة. ولم يكن بإمكانهم الحصول على ما يعتبرونه حقا مشروعاً، الا وهو مستوى من المعيشة يتلاءم مع «الحدود» المفروضة عليهم، دون القضاء على الشريحة العليا القائمة.

وأما المجموعة الثالثة (القوى المحلية) فقوامها «عصابات قطاع الطرق»، وكانت مثل المجموعة الثانية لا تملك الوسائل التى تمكنها من تحقيق مستوى مقبول من المعيشة. وتمثل المجموعتان مطالب الذين لا يملكون فرصة الحصول على نصيب من الفوائد المادية والمميزات القانونية التى يتمتع بها الاغنياء. وكانت مجموعة العصابات هذه تختلف عن الانكشارية ليس فقط فى العقيدة الدينية،

لكن فى عدم أحقيتهم فى ان تشملهم «المؤسسة الحاكمة» بين الموظفين العثمانيين، وغالبا ما كانت تكره الانكشارية أكثر مما كان سادتهم الشرعيون يكرهونهم. ولقد تحول كثير منهم الى رجال العصابات كرد فعل لوجود الانكشارية. والى هذه المجموعة الثالثة (العصابات) تنتمى العناصر اليقظة من طوائف الملل الوطنية والمحاربون من أجل الحرية. ويمكن اعتبار القرن الثامن عشر حقيقة الفترة التى خاضت فيها المجموعتان الأولتان (الشريحة العليا والانكشارية) حربا أهلية فى ولايات أوروبا العثمانية، وناضلتا فى الوقت نفسه ضد المجموعة الثالثة (العصابات). وهذه المواجهة هى التى حددت مستقبل جنوب شرقى أوروبا.

٢ - الحرب الأهلية داخل المؤسسة الحاكمة

لقد نشأت معظم المواجهات التى أدت الى المنازعات الأهلية من عدم رضا العناصر التى لاتشارك فى عمليات صنع القرار السياسى والاقتصادى فى الولايات. ولم يكن هذا هو شأن الحرب الأهلية المرمونة فى الامبراطورية العثمانية، فالذين كانوا يحاربون بعضهم البعض كانوا جميعا اعضاء فى الهيئة الحاكمة مع فارق كبير يتلخص فى ان أحد الأجنحة ينتمى أفرادها الى هذه الهيئة بحكم وضعها وقوتها، على حين ان الآخرين يطالبون بحقهم فى ان يكونوا جزء من الصفوة الحاكمة. والحرب التى يخوضونها كانت صراعا من أجل السيطرة على بقية السكان، وهو الصراع الذى دفع بعنصر ثالث على مسرح الحوادث، وقوامه اولئك الذين يتعاركون نيابة عن السكان. بل لقد بدأ السلطان نفسه يتدخل فى هذه المعارك فى نهاية القرن الثامن عشر.

كان رجال «العصابات» يمثلون اولئك الذين يدفعون ثمن الحرب الأهلية، اذ تفاعلوا ماديا وفكريا مع الحوادث. وعلى حين كانت تفاعلاتهم مهمة شأن صراع القوى داخل المؤسسة الحاكمة فى تقرير تاريخ البلقان من نهاية القرن الثامن عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية على الأقل، فقد كان لهم تأثير لايمكن أهماله أو تجاهله على مجمل تطورات القرن الثامن عشر. والنقطة التالية من هذا الفصل سوف تخصص لمناقشة تصرفات وافعال هؤلاء الخارجين، ونختتمها بكلمات قليلة عن رد فعل السلطان سليم الثالث تجاه الاضطرابات والفوضى فى ولاياته.

والحق ان جناحى الحرب الأهلية اللذان كانا يتعاركان استنادا الى الوضع الرسمى الوظيفى العثمانى، لايمكن وصفهما ببساطة «بالابطال» الذين يحاربون من أجل القانون والنظام وحماية حقوقهم أمام «أوغاد» تقترب تصرفاتهم من أن يكونوا مجرد مجرمين وقتلة. وهؤلاء الذين يحمون «الحقوق» لم يكن لهم فى الغالب مبررات شرعية لما يدافعون عنه، لا لشيء سوى أنهم حصلوا على ثروتهم وموقعهم الوظيفى بطرق غير شرعية. وتوضح الأدلة القانونية أنهم حصلوا على ما حصلوا عليه من امتيازات وبوثائق ومستندات مزورة أصدرها موظفون مرتشون خربى الذمة.

ومن ناحية أخرى كانت لأفراد الانكشارية مطالب شرعية بقدر ما كان القانون، والعادات،

وحدودهم المقننة تسمح بذلك، وحتى اذا كانوا قد توقفوا طويلا عن اداء وظائفهم وواجباتهم المرتبطة بامتيازاتهم. وقد نتج عن هذا الوضع تناقض طريف خلاصته ان الذى يتجاوز القانون كان يقف فى جانب من يحارب من أجل النظام والاستقرار، على حين كان الناس بمطالبتهم الشرعية فى معسكر هؤلاء الذين دمروا الامبراطورية بتصرفاتهم غير القانونية وغير الانسانية. ومع هذا فان هؤلاء الذين حفروا مقبرة الامبراطورية لم يكونوا ثوريين ولا حتى على شاكلة روبن هود، اذ لم يكن يعملون من أجل تقدم النظام السياسى والاجتماعى، بل لقد كانوا أكثر العناصر التى أثرت فى تطور التاريخ العثمانى أنانية وطغيانا. ونتيجة لذلك نلاحظ ان سكان جنوب شرقى أوروبا فيهم أولئك الذين كانوا ثوريين بالفعل ويتمتعون بقدرات فكرية، كانوا يساندون سادتهم ولورداتهم فى حربهم ضد أولئك الذين حاولوا تجريدهم من مواقعهم وامتيازاتهم غير الشرعية التى اكتسبوها.

وهناك تناقض آخر فى تلك الحرب الأهلية، ويتلخص فى انه حيثما كان السادة الجدد يتمتعون بسلطات غير قانونية، أو حيثما كان هؤلاء الذين يتمتعون بسلطات محلية طوال قرون كثيرة، كانوا قادرين خلال القرن الثامن عشر على زيادة أهميتهم بوسائل وطرق غير قانونية ليتكافأوا مع ما يتمتع به اللوردات الجدد.. كان الاهالى يقاسون كثيرا. ومن الملاحظ ان مراكز القوى هذه قد تكون دائمة بشكل أو بآخر، أو مؤقتة، وقد تعتمد على قوة مجموعة أو قوة فرد واحد.

ويعتبر بكوات مسلمى البوسنة خير مثال للمجموعة التى استمرت طويلا فى السلطة، فان هؤلاء البكوات الذين ينحدرون من عناصر اعتنقت الاسلام بعد الغزو العثمانى، كانوا يتمتعون بالسلطة فى البوسنة لقرون طويلة، وقد أمدوا الحكومة المركزية فى استانبول بعدد كبير من الوزراء المهمين، والباشوات، وعناصر أخرى من الوجهاء والمتنفذين. ومع هذا استمر ولاءهم الأول محليا، وقاعدتهم الأساسية محلية ايضا، أى للمكان الذى نشأوا فيه وليس للدولة.. ولأنهم من أهالى الاقليم أصلا، فقد كانوا يتكلمون لغة مواطنيهم من البوسنويين، ويفهمون التقاليد المحلية. والعادات، ويتعاملون مع الخرافات والأعراف، ويحتفظون بقدر كبير من التسامح الدينى عما كان لدى مواطنيهم المسلمين. وعندما بدأت كفاءة السلطات المركزية فى التدهور والانحلال، أخذ هؤلاء البكوات على عاتقهم مهمة المحافظة على النظام فى أقليمهم، وزاد نفوذهم الى الدرجة التى أصبح لايعين اى مشول فى البوسنة خلال القرن الثامن عشر الا اذا كان من أهل الأقليم. ولم يكن حاكم الاقليم غالبا أكثر من ضيف شرف عالى المقام، اذ كان اللوردات المحليون هم الذين أداروا شؤون الولاية على هواهم. ورغم ان الزيادة الملحوظة والمتواصلة فى سلطة البكوات كانت تعنى أنهم يعتمدون بشكل كبير على الفلاحين والرعايا الآخرين عما كان عليه الحال من قبل، فان اتصال البكوات الدائم مع عامة الناس، وفهمهم لهم، جعل التعايش بين المجموعتين (البكوات والعامة) أمرا سهلا وأكثر قبولا. وكان هؤلاء البكوات قادرين على ابقاء الانكشارية بعيدا عن اقليمهم، وبالتالي تجنبوا بعض المصاعب التى كانت تعاني منها المناطق الأخرى. والحق ان الموقع الجغرافى ساعد أولئك البكوات، فقد كانوا بعيدا عن استانبول وقرييين من كرنا جورا Crna Gora الناهضة التى كانت

بمثابة الملجأ ومركزا للمساعدة من آن لآخر، ومن البانيا حيث استعاد زعمائها المحليون كثيرا من نفوذهم السابق على حساب السلطات المركزية فى استانبول. كما ساعدهم أيضا القرب من دالماتيا وكرواتيا. ولكن عندما توضع كل هذه العناصر فى الاعتبار يتضح لنا ان الاستقرائية المسلمة المحلية كانت هى القوة الرئيسية التى أوجدت السلام والاستقرار النسبى الذى تمتعت به البوسنة.

وهناك عدد آخر من «الزعماء» المحليين فى البانيا ووسط اليونان والمورة بصفة أساسية يقدمون أيضا مثالا طيبا لمراكز القوى التى استمرت فى السلطة زمنا طويلا، وان كان بشكل محدود. ففى هذه المناطق لم يستطع العثمانيون مطلقا اقامة سلطتهم بشكل كامل. وعلى حين كانوا يقدمون أسلوبهم الخاص فى الادارة، استمروا فى العمل من خلال الزعماء الموجودين بصفة أساسية. وقد جاء هذا الترتيب فى بعض الحالات بشكل غير رسمى تماما، وفى حالات تحول أصحاب النفوذ المحليين الى سباهية مسيحية مهمة. وقد زادت أهمية هؤلاء المتنفذين اللوردات المحليين بوضوح خلال الحرب مع البندقية ١٦٨٤ - ١٦٩٩، وخلال الفترة اللاحقة لحكم البندقية فى المورة، وخاصة خلال حرب ١٧١٤ - ١٧١٨ التى أدت الى استعادة المورة. وفى الوقت الذى انتهت فيه هذه الحرب، كان ينقص العثمانيين القوة اللازمة للاطاحة بالزعماء المحليين خاصة هؤلاء الذين لم يساندوا السلطان خلال الحرب.

كان تحت يد هؤلاء اللوردات المحليين (الزعماء) جنود مسلحين من أهل الذمة. ورغم عدم شرعية هذا العمل، الا ان استخدم قوات من هذا النوع لم يكن أمرا جديدا. والفارق بين القوات الذمية المسلحة والقوات السابقة كان أمرا له دلالة دون شك. وفى الفترة المبكرة تفاضت السلطات العثمانية عن وجود مثل هذه القوات لأن العثمانيين كانوا غير قادرين على فرض تنظيماتهم وقواعدهم، أو ربما كانوا يشعرون ان تكوين فرق مسلحة بمعرفتهم كان أمرا مكلفا ولم يكن ضروريا حقيقة بسبب التسويات والترتيبات المرضية التى توصلوا اليها مع الزعماء المحليين. وفى مطلع القرن الثامن عشر كانت هذه القوات الذمية تؤلف جيوشا خاصة صغيرة لايملك العثمانيون عليها حكما أو رقابة، وتحارب مع قوات الامبراطورية أو ضدها حسب ما يقرره الزعماء المحليون فى صالحهم. ولقد أصبحت هذه القوات على سوء تنظيمها وتدريبها بجانب ظهور طبقة التجار الجدد، قوة مهمة فى الحركات القومية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر. وكل من يعرف تاريخ هذا القرن يعلم انه فى خلال حرب الاستقلال اليونانية كانت هذه القوات المحلية تحارب كل منها الأخرى مرارا مثلما كانت تحارب العثمانيين.

والفارق بين الموقف فى البوسنة وبين الاقاليم الأخرى ان مركز القوة الحقيقى خلال القرن الثامن عشر كان يكمن فى أشياء أخرى بعيدة عن هذا التناقض الظاهرى بين العائلات والجماعات، ذلك ان لوردات البوسنة كانوا مسلمين وكانوا أنفسهم جنودا وعسكريا بجانب كونهم سادة أرض، على حين كان بعض اللوردات فى البانيا وكل لوردات اليونان مسيحيين وقادة للقوات المحلية. وفى البوسنة كان سهلا على استانبول ان تعين معظم الاهالى المهمين فى المواقع والوظائف القيادية.

ورغم أن بعض جزر بحرايجه كان يحكمها حكام مسيحيون بالوراثة، إلا أنه لم يكن بإمكان الجزر الرئيسية، أن لم يكن مستحياً، أن تعود مرة أخرى إلى هذه النوع من الحكم المسيحي في القرن الثامن عشر عندما احتدم النزاع بشكل مستمر. وعلى هذا كان وضع سادة البوسنة شبه شرعي في الغالب، على حين لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للاقطاعيين المحليين. وهكذا كان بإمكان الانكشارية التحرك بسهولة ضد القيادات المسيحية أكثر من تحركهم ضد البوسنويين. وأكثر من هذا كان مسلمو البوسنة من القوة والكثرة بدرجة كافية لأن تجعل من أي مخاطرة توجه ضدهم نوعاً من المغامرة، إذا المعروف أن مهاجمة قوات محلية محدودة تحت قيادة منعزلة أمر يدعو للاغراء. ومن المعروف أيضاً أن السكان بزعمارة لوردات اقوياء رغم طغيانهم وعسفهم، لم يكونوا يخضعون لأسوأ أنواع الفوضى العامة. لقد كانت الحياة أذن أكثر سلاماً وهدوءاً تحت الحكم الفعلي de facto للسادة المحليين للبوسنة عما كانت عليه الحال في الأجزاء الأخرى من البلقان.

كان اللوردات (الاقطاعيون) الجدد الأقوياء يكونون المتغير الثالث الرئيسي في منظومة الصراع، فقد كانوا أكثر الناس نجاحاً، وقد حققوا الثروة والقوة في الأطار الذي سبقت الإشارة إليه في الفصل السابق، إذ استطاع بعضهم تكوين اقطاعات ضخمة عبر إجراءات بطيئة حتى امتلكوا في النهاية اقاليم صغيرة بأسرها، واستخدم الآخرون دون هواده وضعهم الوظيفي أو قيادتهم لفرقة من الانكشارية لأرقام اللوردات المحليين (الاقطاعيون) لينقلوا لهم ما تحت أيديهم من حيازات أو ممتلكات. وقد حاول الأولون الحصول على وظائف رسمية «لاضفاء الشرعية» على «اقطاعهم»، على حين أضاف الآخرون ممتلكات إلى ما تحت أيديهم فعلاً. وقد عرف هؤلاء باسم «الأعيان»، وعلى حين أن كلمة أعيان كانت مازال تعني النبالة، إلا أنها استخدمت باختلاف كبير عما كانت عليه في القرون الأولى (انظر الفصل الرابع)، وكانت تستخدم لوصف الحكام المحليين. وقد نجح بعض هؤلاء الأعيان في تكوين أسر حاكمة صغيرة، ومن هؤلاء أسرة بوزاتلي Busatlis التي تولى أفرادها بكوية سنحقية شكودر Shkoder (سكوتاري Skutari، اسكودرا Iskodra) لمدة ثمانين عاماً متوالية (١٧٥٢ - ١٨٣٢)، وقد سبقت الإشارة إليها، ولكن الآخرين من أمثالهم كانوا استثناء. وفي معظم الحالات كان الواحد من الأعيان يحقق مكانته وسمعته اعتماداً على ما يملكه من مواهب وإرادة وحشية، وعلى تأييد ومساندة جماعة من الناس يدينون له وحده بالولاء^(١). وعند وفاة هؤلاء الأعيان ينشأ الصراع من أجل الزعمارة التي يمكن لأي دولة ضعيفة أن تستفيد منه لصالحها. كان أكثر الأعيان شهرة اثنان هما: عثمان باشفان أوغلو Pasvanoglu باشا فيدين (١٧٩٩ -

(١) عند نهاية هذه الفترة تعطي القائمة التي وضعها ستانفورد شو مختلف الزعامات المحلية فكرة طيبة عن كيف كان وجودهم ونفوذهم سائداً، وبالإضافة إلى أسرة بوزاتلي، وعلى البانيني (من بانينا Janina)، وعثمان باشفان أوغلو Pasvanoglu، ذكر شو الأسماء الآتية: فيظي أوغلو خليل أرسطي في إقليم ديموطيقا، وغدفرن أوغلو حول أدنة، وتوكتاكلي سليمان أغا في جومولسين، ويملك زاده سليمان أغا الذي حكم سيلستريا وديليورمان والإقليم الواقع بين برالا واسماعيل ويطبع أوامر ناظر أحمد أغا، وتيرسينكلي أوغلو اسماعيل أغا في المنطقة حول نيقوبوليس وريزوتوفا وروشوك وإبراهيم باشا في وسط البانيا. أنظر: Stan-ford Shaw, *Between Old and New: The Ottoman Empire: under Sultan Selim 111, 1789 - 1809* (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1971) PP 227 - 28.

١٨٠٧)، وعلى باشا الايونيني Ioannina (يانينا Janina) (١٧٨٨ - ١٨٢٢)، ولم يكونا ظاهرة متفردة. وهناك شخص آخر باسم على ايضا كان سيد البانيا لفترة وجيزة. وفي شمال البوسنة كان هناك محمد باشا الذى لعب الدور نفسه. وكان إلوك أوغلو Ilukoglu فى سيلستر، وابراهيم فى سيررز Serres، وما يشبه الأعيان خكام مناطق أخرى لفترات طويلة أو قصيرة. والفارق بين الأثنين الأولين (عثمان بشفان أوغلو، وعلى اليانيني) والآخريين، يكمن فى طول المدة التى حكمها فيها، وفى أهمية تصرفات أعمال كل منهما بشكل خاص.

أما عثمان بشفان أوغلو فقد جعل من المنطقة حول فيدين «مجاله الحيوى» يحميه حماية جيدة. ورغم ان مواطنى فيدين كانوا يدفعون ضرائب باهظة لطاغية من الطغاة الا وهو بشفان أوغلو، الا انهم كانوا يعيشون فى سلام نسبي. وكانت المدينة (فيدين) بشكل عام تعيش فى رخاء وازدهار لأن عثمان باشا كان يسيطر على التجارة بطول الدانوب، وأكثر من هذا كان يثرى مدينته التى هى أشبه بالدومين الصغير، بعمليات السلب والنهب. فقد كان واحد من كبار «حماة» الانكشارية وعصابات أخرى، نظم بعضها بنفسه وبمعرفته، واستخدمها فى الاغارة هنا وهناك. وقد تسببت قواته فى احداث خسائر خطيرة فى ولاشيا عام ١٨٠٢. وباعتباره حاميا للانكشارية لعب دورا مهما فى انفجار تمرد الصرب الذى حدث فى ١٨٠٤. وعندما عوقب على تصرفاته هذه بالطرده من وظيفته الرسمية، هدد بالرحف الى استانبول، ولعل أفضل دلالة على الحالة الزرية المؤسسة التى كانت عليها الحكومة المركزية، ماحدث من استجابة الحكومة لتهديد بشفان أوغلو، اذ انها «حققت السلام» باعادة تعيينه فى باشوته. ورغم ان فيدين لم تكن سعيدة بحكمه (وكذلك الحال فى الاماكن الأخرى التى سيطر عليها الاعيان)، الا انها كانت أفضل بكثير من المناطق الأخرى بما فيها اجزاء من ولاشيا وباشوية بلجراد، هى المناطق التى كانت تتعرض باستمرار لغاراته.

أما على باشا اليانيني، فهو شخصية أكثر اثاره من عثمان باشا فيدين^(١).. ولد فى تيبيليني- Tepelene فى جنوب البانيا، ودخل الخدمة العثمانية وعين باشا على يانينا فى ١٧٨٨. وظل فى هذا الموقع حتى وفاته فى ١٨٢٢ وعمره ثمانين عاما. وقد يكون من الصعب العثور على شخص آخر استطاع ان يدرك حقيقة الأوضاع فى الامبراطورية العثمانية عند نهاية القرن الثامن عشر بشكل أفضل مما كان عليه هذا الباشا، وقد استخدم هذا الباشا كل الوسائل الممكنة لتوسيع نطاق حكمه، والحصول على وظائف اضافية، ومكاسب محلية، وقام بضغط لمد مجال هيمنته وسيطرته. وقد سعى لتعيين ثلاثة من ابنائه ككوات وباشوات فى المناطق المجاورة له. وفى هذا الاطار شكل دولة داخل الدولة تحت سيطرته مباشرة أو من خلال «أتباع». وكانت الحدود الغربية لدائرة نفوذه تبدأ من البحر الادرياتي وسواحل أيونيا جنوب دوريس Durres، ويحد البحر المتوسط أراضيها من جهة الجنوب، ومن الشرق جزر بحر ايجه بما فى ذلك كل المورة وبلاد اليونان باستثناء أتیکا - بويوتيا Boeotia وايوتيا Euboea. وأما حدوده الشمالية فتمتد جنوب دوريس ببضعة أميال جهة الشرق الى جنوب بيتولا Bitola حتى بحر ايجه جنوب مصب نهر فاراد ببضعة أميال.

(١) نشرت ترجمتان عن حياة على باشا بين كل منهما أكثر من مائة عام. واحدة فى ١٨٢٢ والأخرى فى ١٩٧٠ وهما: Davenport, The Life Of Ali pasha of Janina (London, Lupton Relfe, 1822); William C.F. plomer, The Diamond of Janina: Ali Pasha, 1741 - 1822 (London, Cope, 1970)

لقد كانت المساحة التي يتحكم فيها هذا الباشا أكبر مساحة خضعت لحكم أحد الأعيان في أوروبا. وهذا الباشا الغادر القادر في الوقت نفسه، عرف كيف يستفيد من حروب الثورة الفرنسية و نابليون ليلعب دورا على المسرح الدولي. فقد تعامل مباشرة مع كل من الانجليز والروس والفرنسيين. وقد حانت نهايته في ١٨٢٢ عندما هاجمته قوات السلطان محمود الثاني بعد ان رفض الذهاب الى استانبول وأعلن نفسه حاكما مستقلا في ١٨١٩. وفي تلك الأثناء كان اليونانيون يحاربون من أجل الاستقلال. وقد أدت هزيمته الى اطلاق سراح الجيش العثماني، وكانت نقطة تحول مهمة في نضال اليونان. وهكذا لم يقدم على باشا فقط نموذجا للتطرف الذي يمكن ان تصل اليه قوة السادة المحليين (الزعماء)، بل لقد كان له تأثيره في الحوادث التي وقعت في الصرب واليونان. كما كان يدرك انه «يحكم» خليطا من السكان، وعلى هذا سعى للحصول على التأييد من كل الجهات وكان المسيحيون والمسلمون يحاربون في جيوشه، ولكنه استخدم كل منهما في محاربة الآخر. ولقد تعلم على يديه عدد لا بأس به من الذين شاركوا فيما بعد في حروب الصرب واليونان الاستقلالية، فنون الحرب والقتال في الحروب التي خاضها.

وهناك أعيان (أو لوردات / سادة) آخرون مسلمون ومسيحيون في كل أجزاء شبه جزيرة البلقان لم يقتصر دورهم على تدريب قطاعات معينة من السكان على استخدام السلاح، بل لقد كانوا قدوة للآخرين بما فيهم بعض رجال الدين والكنزات على مقدار ما يستطيع الرجل القرى الحصول عليه من السلطات الحاكمة في استانبول. وعلى هذا فقد أعد هؤلاء الأعيان المسرح بطريقة أو بأخرى للانتفاضات والحركات الاستقلالية التي نمت في القرن التاسع عشر. لقد كانوا عنصرًا مخربًا ومشكلة خطيرة بالنسبة للسلطات المركزية. ولكن قد يتساءل البعض عما الذي كان يمكن ان تكون عليه ولايات أوروبا العثمانية بدونهم؟!، ومهما يكن من أمر .. فيكفي القول ان هؤلاء الأعيان واللوردات قاموا بعمل سياسي له بعض القيمة.

ومن الممكن النظر الى هذه الزعامات المحلية كنواة ممكنة لميلاد بناء الامبراطورية العثمانية من جديد. فكما سبق أن رأينا ان على باشا البانيني بنى دائرة نفوذه بالحصول على ألقاب رسمية من الحكومة المركزية لنفسه ولعائلته ولأتباعه، وان بشفان أوغلو (باشا فيدين) توقف عن محاربة استانبول عندما أعادت الحكومة العثمانية تعيينه في «باشويته». وربما لم يكونا مواليين للسلطان بالمعنى الذي تعنيه كلمة ولاء اليوم، لكنهما كانا يدركان الحاجة لقاعدة «شرعية» القوة، ويعرفان من باستطاعته توفيرها لهما.

وهذا الاعتراف بالحاجة الى سلطة مهيمنة مع بعض الفروق المحلية هنا وهناك كان مسألة ظاهرة في كل مكان حتى ولو كان الغرض منها المصادفة على الاوضاع والسياسات المحلية. وكان كل زعيم، وكل سيد للاقليم بالوراثة، وكل لورد صغير كان أم كبير، وبصرف النظر عن عقيدته الدينية، كان يواجه الآخرين الذين كانوا يعملون على أخذ أماكنتهم أو مواقعهم. وعلى نطاق أصغر كان الجورباشية ومديرو الادارات المحلية الصغيرة في الوضع نفسه من حيث ان كل منهما يحاصر الآخر ويواجهه للتخلص منه. وكل من هؤلاء كان يقوم بوظائف لم تكن محل عناية الدولة بل ويعبده عن القانون والنظام بما يتعلق بالانتاج وتحصيل ضرائب وسائر مظاهر الحياة للعموم، والتي كانت ترجع الى ما يتمتعون به من مقدرة بدرجة كبيرة أو قليلة. فاذا تخيلنا ان هناك جيلين أو ثلاثة

أجيال على شاكلة هؤلاء الرجال الزعماء، فمن المتصور ان تصبح هذه «الدول» غير الرسمية التي كانت داخل الدولة وحدت أساسية لدولة فيدرالية جديدة البناء. ومثل هذه الدولة الجديدة قد تكون عثمانية في الأسم فقط، وبإمكانها أن تستوعب القوى الاثنية والاقتصادية الحقيقية وغيرها، والتي كانت تنمو بسرعة في شبه جزيرة البلقان.

ولسوء الحظ كان هناك عدد كبير من الأعداء والخصوم المحليين. كما عملت السلطات المركزية باستمرار على اضعاف هؤلاء السادة المحليين في حياتهم، والقضاء على ما أقاموه بمجرد وفاتهم. وكانت النتيجة بقاء عدد قليل من مراكز القوة المحلية سليما دون تخطيط، تاركة هذا التطور المحتمل ومسألة ولاء «الأعيان» لمجال التأمل. لكن الذي ظل صامدا وممتنعا على التحدى، ان هؤلاء الأعيان فقط كانوا يمثلون العناصر الادارية ذات الكفاءة والقدرة في البلقان في القرن الثامن عشر.

كان الادارى المحلى القوى هو ذلك الشخص الأكثر قدرة على ابعاد الأعداء بعيدا عن منطقتهم سواء بتكوين قوات محلية كافية لتكون رادعة، أو كما فعل بشقان أوغلو باستخدام العدو لأغراضه هو. وكان كثير من الانكشارية راضون تماما عن تحقيق مستوى معين من المعيشة بالعمل فى خدمة أحد السادة المحليين (الزعماء). ولكن لم يكن جميع الانكشارية تشعر هذا الشعور بصرف النظر عن حقيقة انه لم يكن يوجد عدد كاف من الرجال يرغبون فى توظيفهم فى هذا النوع من العمل، أو عدم وجود زعماء يقبلون بمخاطرة ادخال العصاة الخارجون على القانون فى دائرة نفوذهم.

وكما هو معروف كان الانكشارية أصلا يجندون من خلال نظام ضريبة الطفل (الدفشمة). وكانوا عبيد السلطان، ويعملون كمسكر مشاة. وقد نمت قوتهم بشكل سريع، وكان لهم دور فعال فى تولية سليم الأول السلطنة، واضطر سليمان الأول أن يدفع لهم «هبة اعتلاء العرش» عندما تباوأ عرش السلطنة. وخلال فترة حكم هؤلاء الحكام العظام كان عدد الانكشارية حوالى اثنا عشر ألف رجل تقريبا، وكانوا يعتبرون أفضل قوة محاربة فى الامبراطورية وربما فى أوروبا. وفى نهاية حكم السلطان مراد الثالث زاد عددهم الى ٢٧ ألف تقريبا. وفى نهاية القرن الثامن عشر وفى فترة حكم سليم الثالث، كان هناك ٥٠ ألف رجل مايزالون يخدمون فى وحدات الانكشارية. ولكن كان هناك حوالى ٤٠٠ ألف يطالبون بالحقوق والامتيازات الخاصة بالعمالين فى الفرق العسكرية.

وحيث أن عدد الانكشارية كان فى ازدياد، فقد انتشر نفوذهم أيضا ليس فقط فى الشؤون العسكرية والسياسية، بل فى أحوال المجتمع بشكل عام. وكانت العملية متدرجة .. فلم يكن مسموح أصلا فى بداية الأمر للانكشارية ان يتزوجوا حتى تنتهى أيام اشتراكهم فى الحرب، ثم منح لهم حق الزواج فى مطلع القرن السادس عشر. وحتى يستطيعوا إعالة أسرهم، بدأوا فى المطالبة «بعطايا» بشكل متكرر. وعندما بدأ التضخم الكبير أثاروا كثيرا من الضجيج والصخب، ونجحوا فى رفع المعاش الأساسى لهم. وخلال قرون تدهور الامبراطورية كان قليل من الناس لديهم دخلا ثابتا، واران الانكشارية الاحتفاظ بما يحظون به من نعم وعطايا لعائلاتهم فقط. وحوالى منتصف القرن السابع عشر ضمنوا أخيرا الغاء نظام الدفشمة، وبهذا تم ضمان مميزات من يخدم فى السلاح لابنائهم فقط.

كان الانكشارية كأعضاء فى طبقة الموظفين العثمانيين يتمتعون بعدة امتيازات الى جانب الحصول على مرتبات محددة والاعفاء من الضرائب. وكان على الناس الآخرين من غير أصول انكشارية من الذين كانوا يريدون التمتع بتلك الامتيازات ان يقدموا الرشاوى للمسؤولين لكي يقيدوا فى سجلات الانكشارية، مما أدى الى تضخم عدد العناصر المنتمية «شرعا» الى هذه الصفوة فى المجتمع. وعلى هذا فان الازمات والمصاعب المالية التى واجهت الدولة أصابت ايضا مصالح الانكشارية. ومع هذا فقد كان بإمكان الانكشارية ابتزاز الحكومة، لكن ما كان بالإمكان الحصول عليه من هذا الابتزاز كان محدود بقدرة السلطات على العطاء. ومن أجل مساعدة الانكشارية لتحقيق مستوى معيشى معين، سمح لهم بالالتحاق بطوائف الحرف، وأن كانوا دمرها (انظر الفصل العاشر). والحقيقة ان معظم هؤلاء «الانكشاريين الجدد» لم يعملوا كعسكر على الرغم من انهم كانوا يحملون السلاح. لقد كانوا أشبه بميليشيا الطوائف أو ميليشيا الحرفة، ويتقاضون مرتبات من الخزينة العامة. وهكذا ومع نهاية القرن السابع عشر أصبحت أمور استانبول بأيديهم، ومن ثم بدأت الحكومة فى تفريقهم وتشتيتهم كحاميات عسكرية كلما أمكن لها ذلك، ومن الملاحظ ان هذه الاوضاع كانت موجودة فى المدن الرئيسية بالاقاليم. والحاصل ان قلة من الانكشارية النشيطين فى الخدمة العسكرية احتفظت بعلاقات وطيدة مع صغار الحرفيين والتجار المسلمين، الذين وضعوا قوتهم المساعدة موضع الاعتبار وكانوا يعرفون «باليمكية».

والحقيقة ان الفرص الضئيلة التى كانت تتيحها تجمعات رجال الأعمال فى عواصم الأقاليم والمدن الرئيسية، لم تكن تقدر على اشباع المطالب الشرهة لهؤلاء اليمكية الذين ما لبثوا ان أغاروا بقيادة زعمائهم المعروفين «بالدواهى» على المناطق الريفية، حيث أصبحوا مصدر رعب وخوف للاقطاعيين والفلاحين على السواء. ولأنهم لم يكونوا يعترفون بسلطان غير سلطان أنفسهم، فقد اتخذوا المسؤولين فى الدولة، وعصوا حتى أوامر السلطان، وأقاموا حكما من الرعب حيث يقيمون. كما أرغموا الفلاحين على دفع أتاوات، وقتلوا زعامات الفلاحين، وعملوا على الفضاء على الاقطاعيين فى منازلهم المحصنة. وكان أتباعهم المسلحين يمثلون القوة الوحيدة التى يمكن ان تعارضهم او تقف فى وجههم. ورغم ان الفلاحين كانوا يقاسون بدرجة أكبر، الا ان الاقطاعيين وكبار الموظفين فى تلك الاقاليم، كانوا يقفون بشكل مستمر تحت تهديد هذه العصابات من اليمكية الذين كانوا يجوبون الآفاق. ففى الصرب وقبل ثورة ١٨٠٤ على سبيل المثال تمكن عدد من زعامات اليمكية الدواهى من تكوين قوات بدرجة أصبحت معها هذه الزعامات سادة كل الاقاليم هناك من الناحية الفعلية. وعلى عكس الاقاليم التى جعل فيها الأعيان من انفسهم حكاما صغارا، فان الاقاليم التى وقعت تحت سيطرة اليمكية لم تكن تعرف السلام أو النظام. ولقد أثبتت عجز السلطات عن ردع هذه العناصر الخارجة على القانون مدى الاحباط والقصور الذى آلت اليه الامبراطورية العثمانية القوية. ومن ناحية أخرى فقد أوجدت هذه الحالة الظروف التى أدت فى النهاية الى التفكيك النهائى للدولة.

نتج عن حالة الفوضى في الاقاليم وحكم فرق اليمكية المميت في أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، زيادة عدد «العصابات المحلية» وزيادة نشاطها. والحق ان هذه العصابات المسلحة التي عرفت محليا باسماء مختلفة حسب المناطق التي ظهرت فيها مثل «الهايديوكيون Hajduks، والكلفتيون Klephts، والأوشكوكيون Uskoks، والمورلاكيون Morlaks، كانت تمارس نشاطها في البلقان منذ ظهور العثمانيين هناك^(١). ثم اتسع نشاطها على نطاق واسع بعد ثلاثينيات القرن السابع عشر، ثم أصبح ضخما وله خطورته بعد ثمانينات القرن نفسه في الوقت الذي تدهورت فيه عناصر الانكشارية وظهرت فيه فرق اليمكية في البلقان^(٢). وعندما نطلق على تلك المجموعات واولئك الرجال لفظ «العصابات»، فلا يعنى هذا اننا نحقر من شأنهم أو نزدريهم، فلم يكونوا مجرمين بالمعنى المتعارف عليه، على الرغم من ان السلطات كانت تعتبرهم كذلك. والحقيقة ان الضرائب العالية والتعسفية التي فرضتها السلطات، وبقاء التنظيمات الاقتصادية على ما هي عليه رغم تغير البناء الاقتصادي، والخراب الذي انتجته الحروب، وعوامل أخرى كثيرة، دفعت هؤلاء الرجال في البداية الى السرقة من أجل العيش. وليس من شك ان هناك عوامل أخرى دينية واجتماعية أسهمت في تولد مشاعر المرارة لدى هؤلاء الرجال، وجعلتهم يفرون الى حياة الجبال. وجعلت شعوب البلقان فيما بعد يرون فيهم أبطالهم ومحرريهم ورواد حروب تحريرهم. وفي هذا الخصوص انتهت الباحثة شفتكوكفا في دراستها الرائعة الى الحقائق التالية^(٣): أن الهايدوكيين كانوا عبارة عن ١ - حركة مقاومة دائمة، ٢ - رد فعل «لمظالم النظام الاقطاعي العثماني»، ٣ - قوة ذات مغزى ملحوظ في معارضة العثمانيين بدأت مع القرن السابع عشر، ٤ - تعبير عن الوعي القومي، ٥ - حركة استندت في قوتها على مساندة الغالبية العظمى من السكان، ٦ - قوة ربطت كل حركات المقاومة في البلقان معا.

ويرى هوبزبون Hobsbawn في شأن اللصوصية وقطع الطرق، تعبيرا عن «مقاومة كل الطوائف والشعوب ازاء تدمير طريقتهم الخاصة في الحياة .. وبمعنى آخر بواذر ثورة»^(٤). فقيما يتعلق بجماعات الهايدوكيين يقول أنهم «كانوا لصوصا محترفين، يحملون في نفوسهم نارا اجتماعيا ضد

(١) يمتن الكتاب الذى وضعته بيتر شيفتوكوفا Bistra Cvetkova وعنوانه Hajdutstvoto v Bulgarskite Zemi prez 15/18 vek, Sofia : Nauka I izkustvo, 1971 (الهايديرية في البلاد البلغارية من القرن ١٥ وحتى القرن ١٨)، الجزء الاول من التاريخ العام للهايديركيين والكلفتيين، ويضم عدد من الوثائق المتصلة بالموضوع. وللمؤلفة بحث باللغة الفرنسية عنوانه "Mouvements anti - feudaux dans les terres Bulgares sous domination Otto-mane du XVI e au XVIII e siecles" Etudes Historiques (Sofia: Historical Institute of the Bulgarian Academy of Sciences, 1965), 2: 149 - 68 وهناك فصل واحد يتعلق بهذه العناصر في كتاب Eric Hobsbawn وعنوانه Bandits (London: G. Weidenfld and Nicolson, 1969

(٢) هذه التواريخ مأخوذة من شيفتوكوفا في كتابها: "Mouvements anti - feudaux", pp. 158 - 160

(3) Cvetkova, Hajdutstvoto, p. 391

(4) Hobsbawn, Bandits, pp. 18 - 19

الأترك، ويمثلون نشاطا بدائيا لحركات المقاومة الفدائية والتحرير». كما يرى ان هذه الجماعة كانت تمثل «أعلى شكل تنظيمي لأعمال اللصوصية، كما أصبحت مركزا دائما لوعى الفلاحين وتمردهم»⁽¹⁾.

ورغم التقارب بين هذين الرأيين، الا انهما يختلفان فيما يرميان اليه، فالاثنان يتفقان على أن جماعة الهایدوکیین ابتداء من منتصف القرن السابع عشر تقريبا كانت تعمل بشكل مستمر. ولكن هناك اختلاف له مغزاه بين قول شفیتکوف ان هذه الجماعة كانت تتصرف كرد فعل «لمظالم النظام العثماني الاقطاعي»، وتأكيد هوبزبون ان هذه الجماعة كانت تعمل ضد محاولات «تدمير طريقتهم الخاصة في الحياة» فاذا كان النظام العثماني اقطاعيا بالمعنى الذي يستخدم لوصف اقتصاديات العصور الوسطى في غرب اوربا، فان هذا النظام كان اقطاعيا في كل من المدينة والقرية في آن واحد. وعلى هذا تكون حركة الهایدوکیین حركة فلاحية فقط. وبصرف النظر عن الأسباب والعوامل الجغرافية والاستراتيجية، فهناك حقيقتان تشرحان ذلك الوضع وهما: ان النظام العثماني غير من «أسلوب الحياة» المعروف في الريف عن المدينة بشكل جذري، وان التحول من نظام التيمار الى الجفلك، والذي تطابق مع تعاضل نشاط جماعة الهایدوکیین، كان يمثل التغيير الحقيقي والذي اعتبره هوبزبون أمرا جوهريا لأعمال «اللصوصية الاجتماعية» بشكل دائم وعلى نطاق واسع.

وعلى عكس شفیتکوف، نلاحظ ان هوبزبون لم يتكلم عن «حركة مقاومة» أو «وعى قومي»، أو عن عمل بلقاني على نطاق واسع عندما يناقش اعمال وحياة جماعة الهایدوکیین. على انه يمكن قبول الحجج الثلاثة الأخيرة من بين حجج شفیتکوف بشئ من التحفظ، فاذا كانت تعني ان «اللصوصية» كانت ظاهرة انتشرت على نطاق واسع وخلقت بوجودها حركات مماثلة في سلسلة ردود الفعل التي حدثت في جنوب شرقي أوربا، فانها في هذا تكون على صواب. ولكن اذا كانت تريد القول ان الحركة كانت تملك مقومات وحدة اقليمية فانها في هذا تكون على خطأ، فليس هناك مايدل حتى نهاية القرن على الاقل، على ان جماعات الهایدوکیین كانت تتعاون بشكل تنظيمي على اى مستوى من المستويات.

ورغم ان النظرة المعاصرة لجماعات الهایدوکیین هؤلاء تعتبرهم ابطالا قوميين، وآباء مؤسسين للحركات الثورية في القرن التاسع عشر، الا ان ارجاع المشاعر والحركات القومية الحديثة لنشاط تلك الجماعات يبدو أمرا متعسفا في ضوء الحديث عن حركة المقاومة بالمعنى الذي يستخدم في وصف ظاهرة القرن التاسع عشر والعشرين. هذا رغم ان كثيرا من الأغاني والقصص الفولكلورية تناولت سيرة هؤلاء الرجال باعتبارهم أبطال المقهورين .. وكيف ان الجماهير المسيحية كانت تعانى من سوء حكم المسلمين. ولاشك ايضا انه مع نهاية القرن الثامن عشر نشأ ما يمكن تسميته وعيا قوميا بين مختلف شعوب البلقان، ورغم ان الاختلاف فيما بينهم في التعبير عن هذا الوعي أصبح واضحا بشكل ملحوظ، ناهيك عن المشاعر التي تعزلهم جميعا عن الأترك. ومع هذا فمن الممكن

(1) Ibid., p. 62

قراءة الماضي فى ضوء التصورات الحالية لارجاع الدوافع القومية الى نشاط جماعات الهايدوكيين فى مطلع القرن الثامن عشر، بصرف النظر عن مسألة حبههم لأرضهم وأرض أجدادهم، أو تعاطفهم مع سكان وأهالى تلك المناطق، أو القول بان نجاح الحركة القومية كان يتطلب وجود تفاهم مشترك بين هؤلاء الناس وبين تلك العناصر المحاربة.

والحق ان مقاومة هؤلاء الفلاحين المحاربين كان أمرا محليا فى الأساس. ونجم كما أشار هوزيون من عدم رغبتهم فى قبول أى تغيير جذرى فى أسلوب وطريقة حياتهم التى اعتادوا عليها. ولقد ولدت هذه المقاومة طاقاتها وفعاليتها على النحو الآتى: اذ أدى تصاعد الثورة والاجراءات القمعية لها الى توطن الحرب الأهلية فى المنطقة، حيث فرضت هذه الحرب على كل السلطات، والأعيان والوجهاء المحليين، وقرق اليمكية - الانكشارية، ومختلف جماعات الهايدوكيين، وفى حالات كثيرة قوات شرطة تم تجنيدها بحكم الأحوال وكانت تعرف «بالارمانتوليه أو الكردزغاليه». وكان من شأن زيادة مظاهر فوضى هذه الحرب الأهلية المتعددة الوجوه، ان زادت بالمقابل درجة التعاون بين عناصر الهايدوكيين ومعظم جماهير الفلاحين، الأمر الذى أكسب الهايدوكيين قاعدة عريضة وقوية لعملياتهم. وفى هذه المرحلة من تطور تلك العمليات أصبحت جماعة الهايدوكيين «نواة للمحررين اعترفت بهم شعوبهم»^(١). وعندما اضطرت السلطات الرسمية للاعتماد على هذا التحالف الهايدوكى - الفلاحى ضد عدوها الرئيسى من عناصر اليمكية - الانكشارية، تمهد المسرح لثورة كبرى.

كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ذلك المصلح التراجيدى، هو الرجل الذى انتج هذا النسق الجديد من القوى المتحالفة. والحق ان هذا السلطان لم يكن «متغريا» بمعنى قبول القيم الغربية، بل كان متعلما لتعليمات تقليديا شأن أى مسؤل عثمانى، وكان يعتقد ان واجبه كسلطان تخليص المجتمع من كل مظاهر العيوب والنقص واعادة الأمور الى ما كانت عليه من كمال منتصف القرن السادس عشر، ومن ثم كان يرى ضرورة تنظيف البيت من الداخل، وازالة كل الممارسات الخاطئة التى لاحصر لها بما فى ذلك مصادرة «الحقوق»، وهى الممارسات التى لم تكن تتفق مع التصورات الفقهية الشرعية العثمانية - الاسلامية. وأكثر من هذا فقد أدرك انه اذا كان مقدر له النجاح فلم يكن فى مقدور الامبراطورية العثمانية مقاومة الاعتداءات الروسية والنمساوية على الحدود، نظرا لتخلف السلطة النسبى فى النواحي التقنية والعسكرية على وجه الخصوص. ومثل هذا الادراك والوعى جعل السلطان سليم الثالث رجلا «عصريا» الى حد ما^(٢).

لم يكن سليم الثالث «ديموقراطيا» يرغب فى اعطاء رعاياه «حقوق متساوية»، وكل من هنالك ان هجماته الاصلاحية كانت تمثل خطرا على اصحاب النفوذ والثروة ذوى المكانة الاجتماعية وأصحاب الامتيازات غير المشروعة، كما كانت تمثل خطرا أيضا على عناصر المؤسسة العسكرية الذين رأوا أن التغيرات التقنية التى بنى ادخالها على الجيش، سوف تؤدى الى فقدانهم وضعيتهم. كما كان من شأنها ان تهدد فرق الانكشارية - اليمكية التى زاد صخبها وضجيجها فى البلقان،

(١) نفسه، ص ٧١.

(٢) أنظر أفضل الكتابات عن سليم الثالث وعصره فى: Stanford J. Shaw, Between old and new

ومن ثم أصبحت الخصم الرئيسي للسلطان من ناحية، والحلفاء الطبيعيين لاعداثة من ناحية أخرى والذين كان بشفان أوغلو أقواهم في حدود المنطقة نفسها.

وعندما تولى سليم الثالث عرش السلطنة كانت الامبراطورية العثمانية في حرب مع كل من روسيا والنمسا. ففي السنة التي تولى فيها زمام السلطة. كانت جيوش قيصر روسيا قد غزت أراضي مولدافيا وولاشيا، كما غزت جيوش امبراطور النمسا أراضي الصرب والبوسنة. وهناك (في الصرب والبوسنة) كانت فرق اليكمية في مقدمة الفارين أمام جيوش النمسا، مما أشعر الأهالي بارتياح هائل. غير ان موت الامبراطور جوزيف الثاني والظروف الموضوعية التي كانت تمر بها فرنسا (حوادث الثورة الفرنسية ١٧٨٩)، اضطرت النمسا الى عقد صلح مع السلطات العثمانى (صلح شيشتوف-Shish-tov في ١٧٩١)، وافقت بمقتضاه على الانسحاب من كل الأراضي العثمانية التي احتلتها. وعندئذ اتفقت مصالح كل من السلطات والأهالي -رغم اختلاف الأسباب- على الحيلولة دون عودة فرق اليكمية الى الصرب والبوسنة، حتى لقد دخلت قوات السلطان سليم طوال السبع سنوات التالية في معارك مع مختلف أمراء الاقطاع وفرق اليكمية في بلاد البلقان. وعلى الرغم من عجز قوات السلطان عن القضاء على اليكمية قضاء نهائيا، الا ان مآثرته من انتصارات، أنعش الأمل بين صفوف الأهالي. وعندما دخلت السلطنة العثمانية الحرب الأوربية العامة ضد نابليون في ١٧٩٨، كان لابد من انسحاب عدد كبير من جنود الدولة من البلقان للمشاركة في تلك الحرب، مما أعطى الفرصة لبشفان أوغلو للترزم في الصرب.

وعندما بدأ بشفان أوغلو عملياته في وجود فرق اليكمية في الصرب التي كان يرى في وجودها باراضيه ملاذا وأمنا، كان هذا ايدانا ببدء سلسلة الحوادث التي أشعلت ثورة ١٨٠٤ في الصرب. ففي ١٧٩٩ استطاعت قوات باشا بلجراد الحاج مصطفى هزيمة اليكمية في ساباك Sabacz (صاباش Sabacz أو بوغورديلين Bogurdelen). ولما كان باشا بلجراد يخشى ان اليكمية الذين فروا الى البوسنة قد يحاولون العودة مرة أخرى، وأن قواته قد تكون غير قادرة على هزيمتهم في كل مرة، فقد توصل الى اتفاق مع كنزات الصرب لكي يقوموا بتسليح رجالهم ويحاربوا تحت قيادة الباشا كقوات فرعية. وكانت هذه أول مرة في التاريخ العثمانى التي يحدث فيها تسليح الرعايا بشكل قانونى مشروع. وكان من الطبيعى في هذه الحالة ان يلجأ الكنزات الى الهايدوكيين فى المقام الاول، إذا ما أرادوا البحث عن محاربين «مدربين». وكان هذا يعنى اذا ما تم، اعطاء هذه العناصر وضعا «قانونيا» وفي العالم التالى تمكنت هذه القوة المسيحية الصربية - الهايدوكية من هزيمة قوات بشفان أوغلو واليكمية أمام بلجراد حيث أنقذت المدينة وحاكمها الباشا.

والحق ان هذه المعركة أمدت اعداء السلطان سليم بالاسلحة والمعدات اللازمة، وهو الذى كان قد اعترض على مبدأ استخدام قوات غير ملسمة ضد مسلمين بتأييد السلطات الاسلامية. وهكذا حاول السلطان وهو وسط حرب خارجية الدخول فى مساومة والتوصل الى حل وسط، وسمح لليكمية بالعودة الى بلجراد بشرط ان يدينوا بالخضوع والطاعة للباشا حاكم بلجراد. غير ان هؤلاء الرجال (اليكمية) لم يحفظوا عهدهم، اذ ما لبثوا ان قتلوا الحاج مصطفى فى أغسطس

١٨٠١، وأصبح قائدهم خليل أغا وبمعاونة أربعة من قادة اليمكية، زعيم الصرب وسيدها، وأقام حكما من الرعب أدى في النهاية الى ثورة ١٨٠٤ .

وهنا تنبغى الاشارة الى أنه خلال المدة من ١٨٠١ - ١٨٠٤ تحولت وحدات الهايدوكيين الى جيوش قومية كبرى للمقاومة، ومثالا للتحول من جماعات «قطاع طرق ولصوصية» الى قوات تحرير قومي. وهذا التحول يفسر جزئيا لماذا تحولت ثورة الصرب في ١٨٠٤ بشكل سريع الى حرب استقلالية، على حين ان الثورة كانت تستهدف في الأصل طرد اليمكية فقط، وإعادة حكم الحاج مصطفى. وكان قرار السلطان الخاص بالتأكيد على حق الهايدوكيين في حمل السلاح، ودخولهم في حرب ضد اليمكية جدير بان يدخل السرور على قلب تلك العناصر قديمة التنظيم. لكن وجود قوات قومية وثيقة التحالف بالزعامات الشعبية القوية وهم الكنزات، لم يكن متمشيا مع قرار السلطان المشار اليها سلفا، والذي كان ثوريا في اطار التقاليد العثمانية. فلما تجاوزت مطالب الصرب مجال شرعية الحكم العثماني نفسه من حيث المطالبة بحق تقرير الأمور المحلية بمعرفتهم، كان على السلطان سليم حماية وحدة امبراطوريته وتكاملها. والذي حدث ان نجاح حرب الاستقلال الصربية قد شجع شعوب البلقان الاخرى على المضي قدما في القيام بانتفاضات أخرى ناجحة، ونشوب حروب تحرير قومية أدت جميعها في النهاية إلى انتهاء الحكم العثماني في جنوب شرقي أوروبا.

ومن الملاحظ أن الحوادث التي وقعت في الصرب وفي بلاد البلقان الاخرى خلال القرن التاسع عشر، كانت نتيجة طبيعية للتدهور المستمر لقدرة العثمانيين على فرض القوانين والسيطرة على اليمكية في ولاياتهم الاوربية، وان لم يقتصر الأمر على هذا التدهور، اذ ان الفوارق الدينية في تلك الولايات بين الحاكم والمحكومين كانت واضحة أكثر من أي جهة أخرى. وفي أوروبا أيضا أحدث العجز في إعمال القانون تغيرا جذريا في نمط الحياة اليومية. وفي أوروبا أيضا واجه العثمانيون «غرب» لم يكن فقط قادر على محاربتهم بنجاح، بل «غرب» كان بإمكانه نقل أفكار جديدة لسكان مناطق الحدود الذين كانوا يشاركون الغرب في مشاعره القومية. ولقد أسهمت هذه الأفكار في تنمية الوعي الذاتي وفي تسهيل تحول الهايدوكيين الى محاربين من أجل الحرية.

أن ما ورد في هذا الفصل والفصول السابقة يلخص مسألة التحول ومسألة تغير نمط الحياة للسكان، والذي جعل الثورة أمرا لا مناص منه، ويؤكد على ان تفكك الامبراطورية العثمانية بدأ على مدى قرن في الأقاليم الأوربية للامبراطورية. لقد بدأ صعود الامبراطورية الخاطف نحو العظمة بغزو جنوب شرقي أوروبا، حيث تمركزت سلطة الدولة على مدى قرون. ومن هذه المنطقة نفسها بدأ تدهور وانحيار الامبراطورية سواء فيما يتعلق بفقدان أراضي أو كنتيجة لمعارضة شعبية شاملة نجحت عن ضعف تطبيق القانون وقرار النظام.

القسم الخامس
نظرات عامة

الفصل الثاني عشر

الحياة الثقافية

١ - مقدمة

من الملاحظ بشكل عام ان المناقشة الوحيدة والمستفيضة التي تمت عن واقع النشاط الثقافي لمثقفى جنوب شرقى اوريا تحت الحكم العثماني، كانت تلك التي تناولت الأحوال الثقافية فى دوبروفنيك والتي كانت أكثر الأراضى الخاضعة للعثمانيين استقلالاً، وتمتع باتصالات متعددة مع مراكز الحضارة الغربية أكثر من أي اقليم عثمانى آخر. وهناك اشارات أخرى قليلة تتعلق بالحياة الثقافية فى الامارات الرومانية، حيث كان بمقدور سكانها الاحتفاظ بملامح معينة لحياتهم الاجتماعية الخاصة. ورغم عدم تمتعهم بالاتصالات مباشرة ببلدان أوريا مثلما كانت عليه دوبروفنيك، الا انهم تأثروا بالأفكار الغربية بطريق غير مباشر من خلال بولندا أساساً، وبدرجة أقل من خلال المجر ورومانيا.

ومع ان اهالى بقية الولايات العثمانية فى أوريا كانوا أقل موهبة بكل المقاييس عن أهالى دوبروفنيك ومولدافيا وولاشيا، الا أن اهالى هذه الولايات الثلاثة اخفقوا فى القيام بأى تنمية ثقافية مزدهرة فى المنطقة لأسباب كثيرة تأتى فى مقدمتها العزلة. أما اليونانيون فقد كان لهم دون شك ميراثاً ثقافياً طويلاً ومتواصلاً دفعهم لجمائته وتنميته وتطويره بالقياس الى أهالى الولايات الثلاثة التابعة (للعثمانيين). وعلى حين ظل بعض اليونانيين على اتصال بأوربا غير العثمانية سواء بخصوصهم لحكم الجنوبيين أو البنادقة لفترات قصيرة أو طويلة أو من خلال التبادل التجارى، كانت الأغلبية مقطوعة الاتصال بالغرب شأن غيرهم من أهالى المناطق التي ليست لها حدود مباشرة مع الدويلات المسيحية، أو الذين لم يحتفظوا ببعض مظاهر الحكم الذاتى. أما الأغلبية العظمى من الأهالى فكانوا يعيشون فى محيط اسلامى - شرقى غريب عنهم، وظلوا منغلقين انغلاقاً شديداً بالنسبة للمناخ الثقافى والفكرى للعالم الذى ينتمون اليه، كأنهم فى زجاجة أحكمت فوهتها حتى طرق العثمانيون أبوابهم. على ان هذه العزلة على خطورتها لم تكن مثيرة لاهتمامات المؤرخين.

ويضاف الى العزلة كسبب رئيسى لخنق الحياة الفكرية فى جنوب شرقى أوربا وابعادها عن العالم غير العثماني، الصرامة والتشدد والمغالاة فى الأمور الشكلية والظاهرية التي كانت عليها السلطات العثمانية. والحق ان العثمانيين ظلوا حكاماً متسامحين طوال قرنين من الزمان، غير ان ثمة

ظروف كثيرة جعلتهم يعادون أولئك الذين كانوا يرون بوضوح ان الاستقلال والاصالة ضروريان لحياة ثقافية حقيقية. ففى الوقت الذى ظهر فيه العثمانيون على مسرح التاريخ كدولة تصنع القوة وتجاهد فى سبيلها، كانت الحضارة الاسلامية لبلدان الشرق الأدنى قد أنهت مرحلة ازدهارها. ومن ناحية أخرى كانت مساحة الاجتهاد وحرية الرأى والفكر قد تقلصت لأسباب سياسية وفقهية أساسا.. فالشعراء والفنانون وحتى المعمارىون ومنهم عدد كبير من الأتراك، لم يخرجوا فى أعمالهم عن نطاق النماذج والأساليب الشائعة آنذاك. ورغم أن أعمالهم كانت على درجة عظيمة من الجمال والابداع والخلود، الا انهم كانوا غير مبدعين، وكانوا مجرد مقلدين فى الأسلوب. وربما يرجع السبب فى ذلك الى أن العثمانيين عندما اعتنقوا المذهب السننى بكل معتقداته ومؤساته أيام أورهان وخاصة مراد الأول، كان هذا يعنى أنهم ورثوا كل الملامح الفكرية للسننة بكل ما تعنيه من روح المحافظة، حتى انه عندما ساد مناخ ثقافى متحرر بعض الشيء، وتجربى الى حد ما، أيام حكم السلطان محمد الثانى، كان له رد فعل حاد فى أيام السلطان بايزيد الثانى. ومن الملاحظ ان تعاطف نفوذ الأراضى العربية الذى جاء مع غزو سليم الأول لهذه الأراضى قد أدى تحت حكم خلفائه الى تعاطف التعصب الدينى واختفاء كل فرص للابداع الفنى وللاصالة الفكرية.

وهناك أسباب أخرى وراء الندرة النسبية للمظاهر الثقافية الحقيقية فى ولايات أوربا العثمانية، من ذلك ان هذه الولايات كانت لها أهمية خاصة لدى الدولة. ولأنها كانت قريبة من العاصمة استانبول، فقد كانت تحت الرقابة بشكل ملحوظ بالقياس الى الولايات الأخرى البعيدة والأقل أهمية. والجدير بالذكر ان الغالبية العظمى لسكان بلدان جنوب شرقى أوربا المهمة هذه (١) كانوا من المسيحيين الارثوذكس، وان العثمانيين كانوا يتشككون فيهم بدرجة ملحوظة بالقياس للطوائف الدينية الأخرى من سكان الامبراطورية. وأكثر من هذا فان أكثر معارك العثمانيين الحاسمة قاطبة فى أوربا كانت مع شعوب هذه الولايات التابعة منذ أيام عثمان الأول. غير ان الطائفة الارثوذكسية كانت دائما الأكثر بقاء ودواما عن الملل الأخرى. ولعل تمتع اليهود بقدر من الحرية عن المسيحيين، يفسر بقاءهم على قيد الحياة، ذلك ان اليهود كانوا موضع ثقة أكبر لأنهم لم يكونوا يشكلون خطرا مخيفا. وهكذا كان المسيحيون الارثوذكس الذين كانوا يمثلون أغلبية، وكان بإمكانهم تنمية الحياة الفكرية والفنية فى الاقاليم وتقديمها، كانوا أكثر العناصر خضوعا لمراقبة السلطات، ولا يتمتعون باى قدر من التشجيع على المضى فى هذا الطريق.

ومن ناحية أخرى لعب الأنشقاق فى صفوف الارثوذكس دورا له مغزاه فى تحديد نشاطاتهم الثقافية. وخلال القرنين الماضيين اعتاد المؤرخون الصربيون والبلغاريون والرومانيون أحيانا، الذين تناولوا

(١) فى مطلع القرن السابع عشر بلغت مساحة الأراضى تحت الحكم العثمانى المباشر فى أوربا ٢٣٢٤٠٠ ميلا مربعا، وبلغت مساحة الولايات التابعة (تعية اقطاعية) ١١٢٦٠٠ ميلا مربعا بنسبة ٤٦,٢١٪، ١٠,٥٪ من اجمالى مساحة السلطنة وقدرها ١٠٧١٠٠٠ ميلا مربعا. ومساحة الولايات التابعة من تقديري، وأما المساحات الأخرى فقد أخذتها من Donald E. pitcher an Historial Georgraphy of the Ottoman Empire (Leiden: E. J. Brill, 1972, pp. 134-135.

هذه الفترة، أن يطلقوا عليها فترة النير التركي - اليوناني، الا ان المؤرخين اليونانيين من ناحيتهم رفضوا هذا القول موضحين ان اليونانيين أنفسهم خضعوا وبدرجة أكبر للقهر العثماني شأن أقرانهم المسيحيين.

ومن المعروف ان الجدل لم ينقطع حول دور الكنيسة وحول دور البطريركية بشكل خاص طوال فترة الحكم العثماني وخاصة خلال فترة حكم الفناريين فى القرن الثامن عشر. ويذكر المدافعون عن سياسة الكنيسة الارثوذكسية وهم على صواب، ان البطريرك والأساقفة قاموا بواجبهم وخاصة بعد تأسيس نظام الملل فى ادارة شؤون رعاياهم الارثوذكس، من حيث التكلم باسمهم أمام السلطان وأمام السلطات العثمانية الأخرى لحمايةهم من الظلم. ومن أجل القيام بهذه الواجبات والتي تحقّق أكثرها بواسطة المسئولين، أقامت الكنيسة بناء اداريا مركزيا توازى مع البناء الادارى للحكومة العثمانية، بل لقد كان أبعد من ان يكون مجرد تنظيم روحى تقليدى. وأكثر من هذا أهمية كان أمام الكنيسة واجب سامى لحماية العقيدة والاحتفاظ بنقائنها فى ظل ظروف معاكسة وغير سوية. ومن ثم أصّر أحد رجالها على ضرورة الامتثال للعقيدة ومباشرة العبادات الدينية وفق مظاهر الطقوس الخالصة من أجل حيوية الكنيسة وحمايتها من الزوال. وحتى اذا ما داخل بعض رجالها مظاهر الغطرسة والترفع من أن لآخر فان هذا لا يجعلنا نشك ولو قليلا فى عدم قيام رجال السلك اللاهوتى بواجباتهم.

لقد نشأت الصعوبة كما سبقت الاشارة من حقيقة ان الارثوذكسية لم تكن مختصة بجماعة أو وحدة عرقية أو لغوية، بل لقد كانت تضم فى صفوفها تنوعات مختلفة من الناس الذين كانوا مصممين فى فترة استقلالهم السابقة على اقامة كنائس قومية على النموذج البيزنطى كلما استطاعوا ذلك. ولم يفهموا ان البطريرك كان ينفذ ببساطة أوامر السلطان باقامة «كنيسة موحدة» تشمل جميع الارثوذكس بصرف النظر عن اختلاف القوميات. وكانت هذه الفكرة العثمانية فى نظرهم تمثل ببساطة عودة للسيادة «اليونانية»، ومن ثم زوال مؤسساتهم الكنسية القومية. ولم تكن هناك الا قلة واعية أدركت تلك الاعتبارات الأساسية فى وجهة النظر العثمانية. والحاصل ان الشعائر اليونانية حلت محل الشعائر السلافية فى الكنيسة تدريجيا. كما حل أساقفة يونانيون محل الأساقفة الصربيين والبلغاريين بشكل سريع مع زيادة العصور. ولو ان هذه الزيادة كانت مسألة لا مناص منها بسبب زيادة معدل التضخم منذ أواخر القرن السادس عشر. أما العيوب الأخرى التى لاحظها الرعايا الارثوذكس فرغم انها حدثت فى أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، الا انها اعتبرت أحد ملامح العصر العثماني كله.

والحق انه من السهل ادانة الكنيسة لاصرارها على استخدام اليونانية فى الطقوس الدينية التى أدت فى النهاية الى عدم فهم الشعائر الدينية لكثير من المؤمنين، والتخلص من كتب الكنيسة السلافية، وتقليص اللهجة المحلية فى مدارس الكنيسة. لكل هذه العوامل فمن الصعب الوصول الى قرار محدد بشأن الجدل الدائر بين اليونانيين والسلافيين أصحاب العقيدة الواحدة. ومع ان تلك الاجراءات قد أدت السلافيين أذى عميقا، الا أنه بالامكان الدفاع عنها باعتبارها اجراءات لم يكن

من الممكن تخايشها. ولم يكن بإمكان رجال الكنيسة مقاومتها، إذ فرض عليهم ارتداء زى موحد تحقيقاً لوحدة الكنيسة أرثوذكسيا بالمفهوم العثماني. ولم يكن أمامهم بالتالي إلا القيام بواجبهم الروحي من أجل حماية العقيدة في ظل ظروف غاية في الصعوبة.

أما الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن أغرقة الكنيسة ومؤسساتها التعليمية (أي تحويلها إلى الطابع اليوناني/الأغريقي) في تلك المناطق، بتر السلافيين من مصادر حضارتهم الأصلية، والتي كانت قد بدأت في النمو والازدهار عندما بدأ الأتراك غزو جنوب شرقي أوروبا. وقد أدى هذا إلى فصل غير اليونانيين الأرثوذكس عن الحياة الثقافية الأوربية بشكل أكبر مما أحدثته العزلة العامة. ومع هذا فقد استطاع هؤلاء الناس تنمية أحوالهم بقدر ما سمحت به الظروف حيث ازدهرت ثقافتهم الشعبية، على حين ضعف التعلم عندهم وكذا سائر الفنون، وأصبحت في يد اليونانيين كلية. ولم يستثنى من هذا إلا دوبروفنيك والامارتان الرومانيتان (موالدنيا وولاشيا) اللتان كانتا المكان الوحيد الذي استطاع فيه غير اليونانيين المسيحيين متابعة نشاطاتهم الفكرية والفنية، بل وتحقيق انجازات فعلية في هذا الشأن.

وأخيراً ينبغي ان نذكر في هذا المدخل بعض الملاحظات عن الأتراك، فقد عاشوا حقيقة في جنوب شرقي أوروبا وتركوا بصماتهم على المجتمع الريفي هناك. ويعتبر مسجد السليمية الفخم في أدرنه هو أعظم الأعمال المعمارية للمعماري التركي سنان باشا (١٤٩١ - ١٥٨٨)، وأفضل الآثار المعمارية الوحيدة المعروفة والباقية من بين العمائر المتعددة التي أقيمت خلال الحكم التركي والتي تشمل مساجد أخرى وأضرحة وشواهد قبور، ومنازل الأثرياء، وأسواق مغطاة (القيساريات)، وحمامات عامة، وبعض القلاع والحصون. وقليل جداً من هذه العمائر والمباني يمكن اعتباره مظهراً من مظاهر الابداع الحقيقي والعبقرية الفذة، أو يمكن القول بأنه يحمل بصمة لأسلوب «أوربي - عثماني» في الأقاليم.

على أن ندرة اسهام المسلمين في ثقافة المنطقة العثمانية من أوروبا لاينبغي ان تكون مثيرة للدهشة، ذلك ان الأتراك كانوا أكثر تقيداً بالأعراف الثقافية لحضارة مسلمي الشرق الأدنى التي كانت قد تجمدت وتجزت بالقياس الى المسيحيين واليهود. وباستثناء اولئك الذين كانوا يعيشون في مناطق البلقان الأكثر شرقية (شرق البلقان والمعروفة الآن بتركيا الأوربية)، كان معظم الأتراك في جنوب شرقي أوروبا من رجال الادارة، والعسكر، وملاك الأراضي، أو من الفنانين، ويعيشون في عزلة نسبية. أما الموهوبون منهم فقد جذبهم المراكز الرئيسية للثقافة العثمانية في استانبول وأدرنة وبورصة، حيث كانت لمواهبهم مجالات واسعة النطاق. وهكذا فإن الأعمال العثمانية والأدبية ذات المغزى والأهمية تم خلقها وابداعها في مناطق خارج مجال هذا الكتاب الذي يعنى بجنوب شرقي أوروبا. لقد كانت منطقة شرقي أوروبا مهمة للعثمانيين اقتصادياً وعسكرياً، لكنها كانت «تربة أجنبية» من الناحية اللغوية، لم تؤد الى خلق اسهامات دائمة أبدية للحضارة العثمانية - التركية ولعل هذه الظروف والاعتبارات تفسر لماذا كانت الانجازات الفكرية للشعوب التي خضعت للحكم التركي في جنوب شرقي أوروبا نادرة نسبياً، كما تفسر أيضاً صغر حجم هذا الفصل من الكتاب نسبياً، والذي

سوف يعرض فقط لملامح الحياة الثقافية الأكثر أهمية. وينبغي ان نتذكر في هذا المقام ان ما تم انجازه بواسطة العقول المبدعة الخلاقة في هذه المنطقة قد تم اعداده في ظل ظروف غير مواتية بالمرّة. وعندما نضع هذه الحقيقة في أذهاننا سوف نكتشف ان النتائج تعد أكثر من عظيمة ورائعة عما توحيه النظرة الأولى.

٢ - اليونانيون

من بين المزايا المختلفة التي تمتع بها اليونانيون بالمقارنة بالرعايا العثمانيين من المسيحيين الأوروبيين، تقاليدهم الثقافية الممتدة، وأن الاجزاء المهمة من بلادهم والتي ظلت لعدة قرون من الزمان تحت حكم دول -المدنية الايطالية، كانت الاجزاء الأكثر أهمية بالنسبة للنشاط الثقافي. وقبيل القرن الثامن عشر كانت أهم مظاهر الانجازات الثقافية اليونانية تأتي من خارج أراضي الامبراطورية العثمانية. ورغم ان هذه النقطة خارج نطاق صلب موضوع الكتاب، الا انه ينبغي الاشارة في عجلة الى تلك الانجازات نظرا لأهميتها في تاريخ الشعب اليوناني.

يمكن تقسيم هذه النشاطات الثقافية خارج الامبراطورية العثمانية الى مجموعتين متميزتين وهما: الأولى وتتعلق باعمال الباحثين والكتاب والرسامين واليونانيين ورجال العلم الذين هاجروا كما هو معروف بالهجرة الى ايطاليا والى الغرب عموما بعد سقوط القسطنطينية. والثانية وتتعلق بالاسهامات الثقافية لأولئك الذين بقوا في الأراضي اليونانية التقليدية، وخاصة قبرص وكريت والجزر الأخرى. أما المجموعة الأولى فسوف لا نناقشها، لأنها تتصل أكثر بتاريخ أوروبا الغربية، وكلها أعمال وانجازات معروفة. ويكفي التأكيد على اسهام اليونانيين العظيم في الرئيسانس كمعلمين للغة اليونانية في مختلف الجامعات والقصور، وكوسطاء و مترجمين ومفسرين ومحققين ومعلقين شارحين للأعمال اليونانية الكلاسيكية العظيمة لبلدان الغرب الأوربي، كما لعبوا دورا ملحوظا كعلماء ومراجعين وناشرين، بل لقد وضعوا بصمة دائمة في تطور أوروبا الحديثة.

وعلى الرغم من أن اسهامات اليونانيين الذين عاشوا في الغرب في التاريخ الثقافي العالمي كانت شيئا مهما، الا ان اسهامات اولئك الذين ظلوا في الوطن الأم تعد أكثر أهمية بالنسبة لتطور وتنمية الثقافة اليونانية^(١). وكان الاتصال بايطاليا وخاصة بالبندقية أكثر مراكز الثقافة اليونانية أهمية، وكذا جامعة بادو Padua الخاضعة لسيطرة البنادقة، يمثل أهمية كبرى كمصدر للمعرفة، ولأنقان الأساليب الادبية الجديدة^(٢). ومن الملاحظ أن العمل الذي انجزه الأدباء اليونانيون في البلدان اليونانية

(١) فيما يتعلق بالاعمال العامة التي تناولت تطور الثقافة اليونانية والتي كتبت في اللغات الغربية انظر- Borje Knos, L, his toire de la litterature neo - grecque. La periode jusqu 1821 (Uppsala: Almqvist and Wihsell, 1962), A. Mirambel, La litterature grecque moderne (Paris: Presses Universitaires de France, 1953), Linos Politis, A History of Modern Greek Literature (Oxford: The Clarendon Press, 1973) والصفحات التالية اعتمدت اعتمادا رئيسيا على عمل بوليتيز.

(٢) فيما يتعلق بأهمية البندقية للثقافة اليونانية في العصر العثماني أنظر العمل الموجز الجيد الذي قدمه وليام مكينيل W.H. Mcneill, Venice, The Hinge of Europe, 1081 - 1797 (Chicago and London: University of Chicago Press, 1974) وهناك كتاب آخر يمكن الرجوع اليه وهو ما كتبه أوليفر =

غير الخاضعة للسيطرة العثمانية، له أهمية كبرى لأن هؤلاء الأدباء هم الذين احتفظوا بثقافة شعوبهم حية وعملوا على تنميتها. أما الذين عاشوا تحت الحكم العثماني فلم يفقدوا فقط تفاليدهم الأدبية ذات التاريخ الطويل، بل لقد فقدوا مجرد معرفة القراءة والكتابة، هذا فضلا عن أن هيئة رجال الدين في معظم الأبروشيات كانوا أميين فعلا. والحق ان النشاط الأدبي لليونانيين في البلدان الرئيسية الخاضعة للسيادة التركية لم يعد له وجود فعلى طوال قرنين من الزمان، ولم يبق الا الأدب الشعبي الذي كان يعبر عن نفسه في الأغاني الشعبية فيما يعرف «بالكلفتيكا» Klephitika، أي القصص الشعبي للأخفاء بأعمال قطاع الطرق (الكلفتيون).

كانت جزيرة كريت بعد سقوط القسطنطينية تعد المركز الأول للآداب اليونانية، ففى خلال النصف الأول من القرن السادس عشر كان بها عدد كبير من الشعراء الذين نشطوا أدبيا، ونظموا أشعارهم طبقا لنماذج الرينيسانس الأدبية.. فنلاحظ ان ستيفانوس سخليكيز Sachlikis وهو محامى بالخيرة، نظم شعرا يصف أساسا الحوادث التي صادفها وعاشها بنفسه. أما معاصرة مارينوس فالبيروس Marinus Faleros كتب فى مختلف الموضوعات ابتداء من الأمور الدينية الى الكتابات الجنسية. وفى خلال الفترة نفسها كتب شاعر آخر يعرف فقط باسم برجاديز Bergadis قصيدة شعرية عنوانها «أبوكوبوز» Apokopos يصف فيها رحلة الى الجحيم، وكانت أول عمل أدبي يوناني حديث يطبع فى البندقية عام ١٥١٩. ويذكر بوليتيز Politis «أنها أعظم عمل شعري فى القرن السادس عشر»^(١). وفى الوقت نفسه نظم أحد الشعراء غير المعروفين فى قبرص قصيدة رائعة على النمط الأبطالى.

ورغم أن أغلب أهم اعمال الأدباء النثرية فى تلك الفترة تم انتاجها فى الغرب، الا ان بعضها قد ترجم فى قبرص الى اللغة المحلية. وفى مطلع القرن الخامس عشر كتب ليونتيوز ماخيراس Leon-tios Machairas تاريخ جزيرة قبرص فى قالب نثر شعبي. على ان المقطوعة النثرية الوحيدة باليونانية الحديثة التى تستحق الذكر والتي تنسب الى الجزر الخاضعة للعثمانيين، هى ذلك الخطاب المرسل من البطريركية الى الباحثين الألمان البروتستنت فى عهد البطريرك جرما نيز الثانى Jeemais II (١٥٧٢-١٧٩٥).

وخلال القرن التالى كثر هذا النوع من الأعمال النثرية وتنوع، فمثلا نلاحظ ان ميليتيوس بييجاس Meletios Pigas (١٥٣٥ - ١٦٠٢)، وهو كريتى متخرج فى جامعة بادو Padua، وأصبح بطريرك الأسكندرية فى ١٥٩٠، كتب عظات باللغة الشعبية. وأسس تلميذه كيريلوس لوكاريس Kyrillos Loukaris (١٥٧٢-١٦٣٩) أول مطبعة للبطريركية، وترجم الأناجيل الى اللغة الديموطيقية (الشعبية)، وبذل جهودا ملحوظة لترقية شؤون التعليم، وكان أول بطريركا للقسطنطينية يشنق تنفيذ الأوامر السلطان. وكان لوكاريس هو الذى دعا ثيوفيلوس كاريايوس Theophilos Karyaleos

= لوجان، Oliver Logan, Culture and Society in Venice, 1470 - 1790, The Renaissance, and Its Heritagga (New Yew York: Scribner, 1972.
(1) Politis, Modern Greek Litertature, p. 42

(١٥٦٠ - ١٦٤٥) لكي يقوم بالتدريس في تلك المدرسة. وسرعان ما ظهرت آثار هذا العالم في احياء أسلوب المدرسة اليونانية في طول الامبراطورية وعرضها.

وعلى هذا ينبغي ان توضع كل هذه الانجازات الثقافية كخلفية لنشاطات الكريتيين الذين سيطروا على المسرح الفكري اليوناني طوال قرن من الزمان ابتداء من سبعينات القرن السادس عشر. ففي خلال ذلك القرن لم يزهو فقط الأدب في كريت، بل ان فن الرسم شهد «عصرًا ذهبيًا»، ويعتبر كل من ميخائيل داماسكينوس Michael Damaskinos (١٥٣٥؟ - ١٥٩١)، ودومينكو ثيوتوكوبولوس Domenico Theotocopoulos (١٥٤٠؟ - ١٦١٤) ويعرفان باسم «الجريكو-El Greco (اليونانيان)، عملاقا المدرسة الكريتيية في فن الرسم .. فقد كان للرسم الأيقونية في الجزيرة سمعة هائلة وتأثير طويل المدى في كل العالم الأرثوذكسي.

ولاشك ان كريت صنعت اسهامها العظيم في الثقافة اليونانية من خلال الأدب. وفي هذا الخصوص هناك جورجيس خورتاتسيس Georgios Chortatsis، الكاتب المسرحي وأعظم الشخصيات الأدبية قاطبة، وقد ولد في منتصف القرن السادس عشر. ويفضل أعماله المسرحية أصبحت الدنيموطيقية لغة أدبية ناضجة، اذ انه صاغ مسرحياته الثلاثة: المسرحية التراجيدية «ايروفيلي Erofilo»، والكوميديا «كاتزوربوس» Katzourbos، والشعرية «جيبارس Gyparis»، على النمط الإيطالي، ولكنها من ناحية الموضوع واللغة والبناء تميزت بقدر كبير من الأصالة بحيث وضعته كفننا خلق موهوب وسط أقرانه. ولعل أكثر الكتاب اليونانيين أهمية الكاتب المسرحي فيتزنتزوس كورناروس Vitsentzos Kornaros، الذي عاش في نهاية عصر الأدب الكريتي العظيم. ورغم انه لا توجد معلومات عنه، الا أن مسرحيته «أضحية ابراهيم» التي كتبها في شبابه، وكذلك مسرحيته «اروتوكريتوس» Erotokritos تعنى انه كان شاعرا ناضجا، فقد نالت المسرحية الأولى التي استخدمت القصة الأنجيلية المعروفة شهرة شعبية طوال قرون كثيرة، اذ أنها كتبت بشكل جذاب ودرجة بالغة من الأصالة دون التزام بقواعد الكتابة المعتمدة للمسرح، وكانت لها مع ذلك وحدة درامية جعلت منها قطعة فنية رائعة. أما مسرحية اروتوكريتوس فانها تدور حول موضوع الفروسية المعروفة، فالبطل وهو فارس بسيط يقع في حب ابنة ملكه، وكان عليه أن يقوم ببعض الخوارق غير المعروفة قبل ان يسمح له بزواجها. ومشاهد ومناظر المسرحية بلقانية تماما، والأبطال أثينيون، والأعداء فلاشيون Vlachs، والناس من الشرق. ولقدنالت هذه المسرحية قبولا رائعا ومديحا من النقاد، ودامت شعبيتها حتى الوقت الحاضر. وهناك مسرحيون آخرون أقل موهبة، كتبوا للمسرح. والحققة ان هذا القرن العظيم من حياة كريت قد انتهى بغزو الأتراك للجزيرة في ١٦٦٩، الا ان تقاليدنا الأدبية ظلت حية لم تمت.

وفي أواخر القرن السابع عشر استمر النشاط الأدبي اليوناني في الأراضي الخاضعة للبنديقية وخاصة في جزر أيونيا، ثم انتشر فيما بعد ووصل الى فيينا. لكن أكثر التطورات أهمية في هذا المجال حدثت في الاراضي العثمانية، وكانت وثيقة الصلة بظهور نجم الفنانيين. بفضل نفوذهم

لدى الباب العالى استطاع جانب من السكان اليونانيين التمتع ببعض الامتيازات. وكان لهذا التطور نتائجه الثقافية، فمن المعروف أن الكسندروس مافروكورداتوس، وهو ثانى شخص فنارى يرأس قلم الترجمة الامبراطورى، كان رجلا متعلما تخرج فى المدرسة البطريركية وكتب عدة دراسات. أما ابنه نيكولاس (١٦٧٠ - ١٧٣٠) أول أمير فنارى فى الولايات الرومانية، فكان مؤلفا موسيقيا، وتعتبر روايته «باريرجا الفيلوتية» Parerga of Philotheos أول مظهر ودليل على حيوية اليونانيين^(١). وتكمن أهمية هذه الأعمال فى مضمونها الذى يعكس افكارا جديدة نشأت فى غرب أوروبا، وليس فى لغتها وأسلوبها الذى يعد متدنيا بالقياس الى ما كتب فى العصور المبكرة. فمثلا نلاحظ ان أفكار قولتير انعكست فى الكتابات الأولى ليوجينوس فولجاريس Eugénios Voulgaris (١٧١٦ - ١٨٠٦)، رغم أن هذا الكاتب أصبح محافظا وخاصة بعد تحوله الى الروسية فى ١٧٠٠.

وهناك كاتبان آخران يستحقان الذكر ظهرا قبل سبعينات القرن الثامن عشر بفعل تأثير حركة التنوير وهما: كونستانتينوس دابونتيز Dapontes، وكوزماس Kosmas. ولا يعرف متى ولد دابونتيز، لكنه ترهب وعاش فى جبل ايثوس Athos فى ١٧٥٧ ومات فى ١٧٨٤. ورغم أنه لم يكن معروفا أو بارزا ككاتب مبدع مبتكر، الا أنه كتب كثيرا فى اى موضوع توفرت له بعض المعلومات. واكتسب أهميته ورواجه لأن كثيرا مما كتبه نشر فى حياته. أما كوزماس (١٧١٤ - ١٧٧٩) وهو تلميذ فولجاريس فيما يعتقد، كان واعظا متجولا، كتب مرثيه ما كان يلقيه من عظات. وكان توليفة مركبة من «أرقى فنون التعليم الروحى والتنويرى والأيمان الدينى والشعور القومى». وربما يعتبر واحد من ارهاصات الصحوة القومية^(٢).

ولقد انتجت هذه الروح المتعاضمة للتنوير والبعث القومى آثارها فى أواخر القرن الثامن عشر فى كتاب ومؤلفين تأثروا تأثرا بالغا بالأحداث التى وقعت فى فرنسا. ومن بين هؤلاء كان يوسيفيوس موزيوداكس Josephus Moisioudax (توفى فى ١٧٩٠) والذى كان يقوم بالتعليم فى قصور الفناريين فى كل من ياصى Iasi وبوخارست. ورغم أنه كان مهتم بشكل أساسى بالعلوم التطبيقية، الا أنه كان شغوف بالتعليم، ويخلق لغة شعبية للأدب. وأكثر منه أهمية بكل المقاييس كان ديمتريوس كاتارتزيس Katartzis (١٧٢٥ ؟ - ١٨٠٧) الذى كتب باللهجة الشعبية لأنه كان يرغب فى أن تكون أفكار ووجهات نظر العالم الحديث معروفة لأكثر عدد من الناس كلما كان ذلك مستطاع. اما عملاق هذا العصر بلا منازع فكان ادمانتىوس كورائس Adamantios Korais (١٧٤٨ - ١٨٣٣)، وكان طبيبا عاش فى باريس بعد عام ١٧٨٨. وكان من أبرز مظاهر التنوير السياسى اليونانى، فقد اعتنق أفكار الثورة الفرنسية ولعب دورا كبيرا فى مولد اليونانية الحديثة. وفى هذا الاطار تنبغى الاشارة الى واحد من أهم انجازاته، فقد كان أول يونانى يتعلم لكى يكون لغويا، وكان قادر على التأثير فى جيل كامل من الكتاب واللغويين اليونانيين. ولاشك أنه يعتبر الأب الروحى للغة الأدب اليونانى الحديث.

(١) نفسه، ص ٧٤ - ٧٥. وقد كتبت فى ١٧١٨ ولم تنشر الا فى عام ١٨٠٠.

(٢) نفسه، ص ٧٧.

وفى نهاية هذا العرض الموجز لنشاط المفكرين اليونانيين تحت الحكم العثماني، يجب ان نذكر شيئا عن ريجاس فيلستينيليز Rigas Velestinlis (١٧٥٧؟ - ١٧٩٨) والذي عمل فى خدمة الأمراء الفناريين والمسؤولين الاتراك قبل ان ينتقل للعيش فى فينيا. وفى فينيا نشرت اعماله من ترجمات ودواوين وطنية وغنائية، وقصص قصيرة، وخرائط، وكتاب موجز فى الطبيعة. لكن هذا النشاط لم يستمر طويلا حيث اعتقله البوليس النمساوى وقامت سلطات أسرة الهابسبورج بتسليمه الى العثمانيين الذين اعدموه. لقد كان وطنيا يونانيا عظيما وبطلا شهيدا، لكنه كشخصية أدبية كان ذو أهمية ثانوية.

٣ - السلافيون

عاش السلافيون أيضا تحت حكم عثمانيين ومسيحيين. وكما هو حال اليونانيين فمن الملاحظ كما سبقت الاشارة ان معظم النشاط الثقافى السلافى تم فى المناطق التى كانت بعيدة عن السيطرة العثمانية. كانت دوبروفنيك الأقليم السلافى الوحيد الذى حكمه أهله وسكانه. أما دلماشيا فكانت تحت حكم البندقية معظم الفترة موضوع هذه الدراسة، على حين خضع أهل سلوفينيا للهابسبورج، ولذا الكرواتيون الأغنياء المتعلمون فى منطقة كرواتيا بحماية احدى مقاطعات الهابسبورج عندما احتل العثمانيون جزء من موطنهم.

أما البلغاريون وكانوا جميعا يعيشون تحت الحكم العثماني وعلى مقربة من مراكز الحكم والادارة الرئيسية فى استانبول وأدرنه، كانت لديهم على الأقل فرصة للتعبير عن أنفسهم بالكلمة المكتوبة أو باللوحه المرسومة، أو فى العمارة والمباني. وكان الصربون فى وضع مماثل للبلغاريين لعدة قرون، ولكنهم تمكنوا خلال المائة عام الأخيرة قبل ثورة ١٨٠٤ من تحقيق تنمية فى اقامة مؤسسة تعليمية فى حجم معقول حولها حياة ثقافية. وكان مركز هذه الحركة الثقافية مطرانية كارلوفيتش Karlovci (كارلوفيتز Karlowitz / كارلوكزا Karlocza) فى سلوفينيا فى حوزة الهابسبورج. وكانت هذه المطرانية قد تأسست تحت حماية الامبراطور ليوبولد الأول (١٦٥٧ - ١٧٠٥) بمقتضى خطابين منه فى ١٦٩٠، ١٦٩١ الى أرسينيه الثالث كرونوفيتش Arsenije Crnojevic بطريرك ايبك (يبك Pec) نصا على ان تكون المطرانية مركزا دينيا وثقافيا وحتى قوميا للصربيين الذين يهاجرون الى اراضى الامبراطورية. ولأن هذا الاحياء الثقافى وهو على جانب كبير من الأهمية لبعث كل الأمة قد حدث خارج نطاق نفوذ السلاطين العثمانيين، فانه لايتصل اتصالا مباشرا بموضوع دراستنا الذى يتعلق بمتابعة النشاطات التى وقعت داخل نطاق الامبراطورية العثمانية.

لكن إذا كنا سوف نهتم فقط بالمناطق التى خضعت للسيادة العثمانية، فسوف يكون من الصعب تبرير الحديث عن السلافيين فى هذا الفصل، اذ بصرف النظر عن الأعاني الشهية فان الشعر الشعبى السلافى يحفل بتمجيد الأبطال الهایدوكيين. وقبل ذلك هناك ملحمة كوزوفو، وهى

ملحمة نمت وتطورت بهدوء عبر مئات السنين بإسهامات كل جيل من الأجيال، حيث صنعوا في النهاية واحدة من أعظم الملاحم الشعرية في تاريخ الأدب العالمي تتعلق بمعركة كوزفو الشهيرة في ١٣٨٩. وطبقا لهذا المقياس فينبغي ان نسقط من اعتبارنا أيضا الحديث عن السلوفينيين الذين لم يكن لهم أبدا أى اتصال بمناطق جنوب شرقى أوروبا. لكن كان للدماشيين خارج دوبروفينك، وكذا الكرواتين، اتصالات كافية مع تلك المناطق مما يبرر استعراض نشاطاتهم الثقافية فى ايجاز هم والصربيون والبلغاريون^(١).

والحقيقة ان معظم الأدب فى دلماشيا وكرواتيا خلال فترة الدراسة كتب بالكرواتية. والجدير بالذكر أنه لم يكن يوجد خلال تلك السنوات لغة واحدة للأدب الكرواتي، اذ ان كل كاتب استخدم اللهجة التى يألفها. والمؤلفون الذين سوف نذكر اسماؤهم وأعمالهم فيما بعد لم يكتبوا فقط بالثلاث لهجات المحلية الرئيسية (الكافسكية Cakavski، والكايكافسكية Kajkavski، والاشتوكافسكية Stokavski)، بل استخدموا لهجة رابعة، وهى اللهجة الاشتوكافسكية البوسنية التى يمكن اعتبارها «لغة» صحيحة. على أن التوصل الى لغة أدبية كرواوية موحدة - مع ترك اللغة الصربية - الكرواوية الحديثة جانبا - أمر لم يحدث حتى القرن التاسع عشر.

ففى دلماشيا كان ماركو ماورليك الأسبلىتى (١٤٥٠ - ١٥٤٢) يعتبر أول كاتب له أهمية حقيقية يعمل خارج دوبروفينك. ورغم أنه كتب باللاتينية والكرواتية الا ان كتاباته باللاتينية هى التى جلبت له سمعة عريضة فى أوروبا. كان ماروليك مؤلف خصص الانتاج شديد الايمان والتدين، كما كان كاتب انساني أدرك حقيقة المشكلات التى أوجدها الاحتلال العثماني لأهالى بلاده، ومن ثم كانت أفضل أعماله تلك التى تناولت حياة هؤلاء الناس. وكانت قصيدته الشعرية القصيرة «صلاة ضد الأتراك» من أفضل أعماله وأشهرها. أما عمله الرئيسى فكان ملحمة «يوديتا» Judita التى نظمها فى ١٥٠١ وطبعت فى البندقية بعد ذلك بعشرين عاما. ورغم ان موضوع الملحمة هو القصة الانجيلية «يوديت والهولوفيرنيون Judith & Holofernes، الا أنه يمكن التعرف بسهولة على أن العدو فى القصة هم الأتراك. ومع ان ماروليك هذا الشاعر لا يحتل مكانة مرقومة فى كتابة الشعر وفق القوالب المعروفة، الا أن ادراكه لمشكلات شعبه مكنه من التعبير بنظرة ثاقبة وشعور عميق.

وتجدر الإشارة الى كاتبين آخرين عاشا فى جزيرة هفار Hvar وهما: هانيبال لوسيتش Lucic (١٤٨٥ - ١٥٥٣) لرواوية الدرامية «الأمة» (العبد). والقالب الشعرى للقصة عبارة عن محاكاة للنموذج الإيطالى وخاصة بتراكي. ولكن هناك أشكال وصياغات مشتقة من الشعر الشعبى أيضا فى مسرحيته. وموضوع القصة تقليدى معروف.. فهناك فتاة من أصل عريق أسرها القراصنة وباعوها فى سوق النخاسة ثم أنقذها حبيبها. أما التفاصيل فتعكس بوضوح الأحوال المضطربة والأوضاع فى ساحل دلماشيا خلال حياة الشاعر. أما الكاتب الثانى فهو بيتار هكتوروفيتش Petar Hektorovic

(١) تعتمد الصفحات التالية فى هذه النقطة بشكل أساسى على كتاب أنطون باراك: Antun Barac, A History of Yugoslav Literature وانظر التعريف الكامل بهذا المرجع فى الفصل رقم ٨ النطقة رقم ٣.

(١٤٨٧ - ١٥٧٢) الذي كان أول كاتب يستخدم الشعر الشعبي بكثافة كقالب لكتاباتنه. وقد نظم أشعارا للحب أساسا، وأخرى تتناول حياة الناس المحيطين به مثل «أحاديث الصيد والصيدان»، وهي أفضل أشعاره المعروفة (نشرت في عام ١٥٦٨).

وفي مدينة زدار Zadar ظهر بيتار زورانيتش Zoranic (١٥٠٨ - ١٥٥٠؟) صاحب أول رواية كرواتية «الجبال» التي نشرت في ١٥٦٩ بعد وفاته، وهي عبارة عن وصف واقعي لحياة أناس من مختلف الطبقات الاجتماعية في دلماشيا اثناء حياة المؤلف. وهناك برنو كرناوتيتش-Bрно Krnarutic (تاريخ مولده ووفاته غير مؤكدة ولكنه ظهر في منتصف القرن السادس عشر) الذي نظم قصيدته «أسر شيجتفار Szigetvar» (نشرت في ١٥٨٤)، وموضوعها تكرر كثيرا في أعمال شعراء كرواتيا والمجر، وتتعلق بأسر العثمانيين لشيجتفار في ١٥٦٦ حيث فقد كل من السلطان سليمان الأول والكونت نيقولا زرنسكى Zrinski حياتهما^(١).

على كل حال فخلال القرن التالي وهو أعظم فترة في تاريخ دوبروفنيك الثقافي، لم تقدم دلماشيا أي كاتب من الدرجة الأولى. ومع ذلك فتجدد الاشارة الى اثنين من هؤلاء الاقل شهرة وهما: بارتول كاشيك Kasic (١٥٧٥ - ١٦٥٠) من جزيرة باج Pag، وهو من رجال حركة الاصلاح الديني المضاد (الاصلاح الكاثوليكي ضد البروتستنتية)، كان شغوقا بقراءة الكتب لكي يحسن من أعماله. وفي محاولته الحصول على أكبر حجم ممكن من القراء، اكتشف ان الاشتوكافسكية أكثر اللهجات استخداما بين الناس، ومن هنا كتب بها. وهو واضع أول كتاب لقواعد لغة السلاف الجنوبيين وعنوانه Institutiones Linguae Illyricae الذي نشر في ١٦٠٤. أما غرض كاشيك في نشر الكاثوليكية فقد حقق فيه نجاحا ملحوظا من خلال أحد رجال الدين من البوسنة، وهو ماتيا دفكوفيتش Matija Divkovic (١٦٥٣ - ١٦٣١)، الذي لم يكن مفكرا أصيلا أو مبدعا، بل كان يستمد أفكاره من عدة مصادر مختلفة. لكن أهميته تكمن في أنه يعتبر نموذجا لعدد كبير من رجال الدين الكتاب، الذين مزجوا التعاليم الدينية بالقصص الشعبية، وكان أول من استخدم اللهجة الاشتوكافسكية البوسنية في كتاباته.

وفي القرن الثامن عشر عندما كان أعظم أبناء دوبروفنيك روديه بوشكوفيتش-Rudjer Boskovic (١٧١١ - ١٧٨٧) عالما طبيعيا وليس كاتباً أديبا، كان هناك كاتبان على درجة من الأهمية لهما نشاط بطول ساحل دلماشيا، وكلاهما من الفرنسيين المهتمين بالعمل التبشيري في الامبراطورية العثمانية. وأولهما فيليب جرابوفاك Grabovac (١٦٩٥ - ١٧٥٠) لم يكن كاتباً مرموقاً، لكنه وهب نفسه للعمل من أجل الوطن. كما كان ملاحظاً ممتازاً للاحوال الاجتماعية، اذ

(١) تعتبر عائلة زرنسكى مثالا جيدا لوضعية نبلاء كرواتيا الرفيعة داخل أراضي الهابسبورج، فلم تكن هذه العائلة تكتب اسماءها بثلاث طرق مختلفة فقط (الكرواتية والمجرية والألمانية) بل كانت تتكلم هذه اللغات الثلاثة بطلاقة، وكذا اللغة الألمانية. ولم تكن هذه العائلة متأكدة من شخصيتها العرقية ورغم انها تعتبر نفسها ألمانية الأصل، الا ان مشاعرهما تجاه كرواتيا والمجر كانت متناقضة كالذي يجمع بين الضلدين. وكل من هذين الشعبين (كرواتيا والمجر) يعتبران افراد هذه العائلة أبطالا قوميين وقادة عظام لأسباب ومبررات معينة.

كان وصفه لحياة الناس شيئا له قيمته. لكن حماسه للأصلاح الاجتماعي أغضب البنادقة الذين سارعوا باعتقاله، وظل بالسجن حتى مات فيه. أما الثاني وهو اندريه كاشيك ميوسيتش Andrija Kasic Miosic (١٧٠٤ - ١٧٦٠) فكانت أعماله أكثر أهمية، إذ عمل في عدة أبرشيات في دلماشيا والبوسنة. ولما كان ديموقراطي النشأة فقد أحب كل الناس، وشعر بانه قريب الصلة بالجميع، وتعرف على فنونهم وأشعارهم. لكنه أصبح مقتنع بان القصص التي يرويها هؤلاء الناس غير صحيحة. ولأنه كان يعتبر كل السلافيين في الجنوب شعب واحد فقد نوى أن يذكر لهم «الحقيقة» في شكل مفهوم للجميع. ومن ثم فقد كتب عملين «تاريخيين» وهما: «القصة المحببة للأمة السلافية» (١٧٥٦)، و«الصندوق الصغير» (١٧٦٠). أما القصة الأولى «فانها أكثر أهمية لأنه حاول من خلالها بيان التاريخ العام للسلافيين الجنوبيين مع التركيز على الفترة العثمانية. والعمل من الناحية اللغوية بسيط لأنه كان يرغب في ان تصل أفكاره الى أكبر عدد من القراء. أما أشعاره فقد كانت في قالب شعري كرواتي حقيقي، ومن ثم أصبح شعبيا وله تأثيره.

أما في كرواتيا - السلافونية فكان يوراي هابدليتش Jurai Habelic (١٦٠٩ - ١٦٧٨) أول كاتب له مغزى تعليمي في مدارس الجزويت في زغرب. ولم يكن يعتبر نفسه كاتبا بالمعنى المعروف، لكن مجموعتي عظاته (مرأة مريم، وخطيئة أبانا آدم الأصلية) كتبت في لغة كرواتية ممتازة، وتشتمل على ملاحظات قيمة وصحيحة ودقيقة عن الحياة في مجتمعه.

وعلى النقيض من ذلك كانت اسهامات اثنين من معاصريه من أبناء كبار النبلاء وهما: بيتار زرنسكي (١٦٢١ - ١٦٧١) وأخاه غير الشقيق فران كرستو فرانكوبان Fran Krsto Frankopan (١٦٤٣ - ١٦٧١)، وكلاهما تعلم تعليما عاليا على النمط الغربي، وكلاهما على دراية بالأدب الدلماشي والشعر الشعبي حيث مزجا كل هذه العناصر في كتاباتهما.

كان بيتار زرنسكي جندي وممنوع من دخول كرواتيا نظرا لاشتراكه في المؤامرة الجرية الكبرى التي دبرها أخاه الأكبر نيقولا حفيد البطل شيجتفار، والذي شاهد اليوم الذي كان فيه طرد العثمانيين من المجر - كرواتيا - سلوفينيا وشيكا. ولكنه تنبأ هو والمتآمرون الآخرون في الوقت نفسه ان حكم الهابسبورج لن يكون أفضل من العثمانيين. والعمل الوحيد الذي كتبه «جنية الأدياتي» يتعلق بمعركة مقتل شيجتفار، ويعتبر مجرد تفسير كرواتي للمحمة المعركة التي خاضها أخوه، وتعرف كعمل مجرى كلاسيكي باسم Szigeti Veszedelem، وتكمن أهميتها في لغتها فقط.

أما فرانكوبان الذي أعدم كمتآمر مع بيتار رغم أن دوره كان هامشيا في المؤامرة، فقد كان كاتبا ذو موهبة عظيمة، إذ ترجم موليير لكنه لم يكن معروفا لعامة لقراء. وقد صادرت السلطات أعماله ولم تنشر الا في القرن التاسع عشر. ومن أعماله مجموعة أشعار غنائية باسم «واحة الراحة» تتناول موضوعات مختلفة مثل الحب، والحرب، ووصف زمانه. أما «أحزان شاب تعس» فانها تعد أكثر أعماله اعتبارا. وقد نظم معظم أشعاره وهو في السجن. وقالبه في التعبير، وكذا لغته جعلت منه واحد من أعظم شعراء القرن السابع عشر.

وقد قدمت كرواتيا شخصيتين أكثر أهمية خلال القرن نفسه وهما: يوراي كريزانيتش Juraj Krizanic (١٦٨٣ - ١٦١٨)، وبافار ريترفيتزوفيتش Pavao Ritter Vitezovic (١٧١٢ - ١٦٥٢). أما كريزانيتش فقد ولد قرب مدينة زغرب وانضم لسلك الجزويت وتعلم في روما. وفيما يتعلق باهتمامه بتضميد «الانقسام الكبير»، ذهب الى روسيا مرتين. كما سافر الى عدة أماكن يسكنها السلافيون، حيث جعل من وحدة هذا الشعب ووحدة كنائسه هدفا في حياته، ومن ثم أصبح أول «جامعة سلافية» Pan - Slav وفي أثناء زيارته الثانية لروسيا اعتقل وأرسلته السلطات الى سيبيريا. ولم يعرف على وجه الدقة متى أفرج عنه، لكنه وجد ميتا مع البولنديين عند أسوار فيينا في ١٦٨٣. وفي كل أعماله الكثيرة كان يبشر بمثله وأفكاره لكل السلافيين بوضوح. ولكنه كان ناقدا ومحذرا للروسيين بشكل خاص وداعيا السلافيين نحو المجد والعظمة، وله أهميته «كمُنظر سياسي»، ولا يمكن تجاهل مواهبه ككاتب.

أما فيتزوفيتش فقد ولد في سيني Senj، ولكنه عمل في زغرب أساسا. ولم يكن من النلاء أو رجال الكنيسة، بل كان أول كرواتي حاول ان يعيش من الكتابة. وكان غزير الانتاج ومتعدد المواهب الفكرية. لكنه مات فقيرا في فيينا. كان «يوجوسلافيا» يحلم بتوحيد كل سلاف الجنوب تحت حكم الهابسبورج، ومن هنا امتدت اهتماماته بقواعد اللغة والاملاء. وحاول ايجاد لغة كتابة موحدة لكل سلاف الجنوب. وكانت قصيدته الشعرية الطويلة تدور حول التيمات القديمة وتصف «مقاومة شيجتفار» على حين كان كتابه «الصر» أول تاريخ كتب من واقع الوثائق مع استخدام أدوات وتقنيات المؤرخ الحديث.

ومن بين أولئك الذين كتبوا بالكرواتية في القرن الثامن عشر، كان تيتو برزوفاشكي-Brezo vacki (١٧٥٧ - ١٨٠٥) من زغرب، الذي كان أعظم الموهوبين، وكان في الأصل راهبا بولونيا (من أتباع القديس بول)، ثم تحول الى عالم الكتابة بعد تصفية المذهب الذي كان يتبعه. وكان ناقد اجتماعي وقف ضد الفساد والخرافات وعارض الوضع السياسي في كرواتيا وكان يكتب لتعليم الآخرين. وقدم في كتاباته شخصيات تمثل مختلف الطبقات الاجتماعية وأوجه عيوبها بقدر كبير من الوضوح. ثم أصبح مهتما ككاتب مسرحي لفرقة من الهواة في زغرب. وهناك مسرحيتان من أعماله وهما «تلميذ الساحر» Sorcerer's Apprentice، و«ديوجينز» Diogenese تصلحان للتمثيل في كل عصر حتى اليوم (المسرحية الثانية عبارة عن قصة خادم يقوم بخدمة شخصين لايعرفان أنهما شقيقين).

أما المؤلف الوحيد الآخر الذي كان له مغزاه خلال ذلك القرن فهو ماتيا رليكوفيتش-Reljkovic (١٧٣٢ - ١٧٩٨) ابن سلوفينيا. وقد اشترك في حرب السنوات السبع ضابطا. ومن هنا تعرض للاعتقال والتنقل بين مختلف المدن الألمانية حيث أنبحت له الفرصة ليقارن الحياة هناك بالحياة في بلده. ولما تجررت سلوفينيا من الأتراك عاشت في وضع بائس تحت سيطرة الدوائر الكنسية، أو تحت سيطرة حكام علمانيون لم يكونوا يفهمون فيما يبدو مشكلات الشعب الذي يخضع لهم. وقد انتهت المقارنة التي عقدها رليكوفيتش الى ان ينظم «السايطر»^{*} The Styr، وهي قصيدة في قالب

* الساطير مخلوق أسطوري نصفه الأعلى بشري والأسفل حيواني (الترجم).

الشعر الشعبي نشرت في درسدن عام ١٧٦٢. وقد خصصها ريكوفيتش لت نقد مشكلات سلوفينيا وأوضاعها العامة، لكنه كان يقدم ما يفيد قضية البناء أيضا. وسرعان ما اكتسبت هذه القصيدة شعبية في أوساط المتعلمين وغير المتعلمين، لكنها أغضبت السلطات. وعلى كل حال فإنها تستحق الاهتمام وجديرة بالإشارة لما تقدمه من شكل شعري ومضمون أيضا. غير ان أعمال هذا الرجل الأدبية الأخرى لم ترق الى مستوى قصيدته الأولى التي نشرها.

أما فيما يتعلق بالصرب، فمن الملاحظ ان خضوعهم للحكم العثماني فترة طويلة من الزمن منهم من ان يخلقوا ابداعات بالمقارنة مع الكرواتيين. وفيما عدا الأشعار الشعبية فقد انحصر النشاط الأدبي لهذا الشعب في أعمال الرهبان في الأديرة المختلفة، وهي أعمال غير ذات قيمة أدبية مهمة. ويعتبر بايزيه Pajsije (١٥٥٠؟ - ١٦٤٧) الشخصية الثقافية الوحيدة المهمة خلال الفترة قبل الهجرة الى بلاد الهابسبورج. وهو أحد رعايا أسقفية ايك Ipek بعد أن أعاد العثمانيون تأسيسها في ١٥٥٧. والعمل الوحيد الذي قدمه وهو سيره ذاتية عن اصطفان الرابع الأوروسى (١٣٥٥ - ١٣٧١) آخر حكام الصرب، عمل لا قيمة له. لكن جهوده ونشاطه في جمع المخطوطات وتشجيعه الرهبان على ان يقوموا بمثل مايقوم به، ونسخ نسخ أخرى، كان عملا له مغزاه وكانت له نتائج بعيدة. ولقد تغير الموقف بعد الانتقال الى اراضى الهابسبورج حيث ظهر عدد كبير من الكتاب وكان معظمهم من رجال الدين الذين بدأوا يستخدمون لغة مصطنعة الى حد ما عبارة عن مزيج من لغة الكنيسة السلوفينية والتعبيرات الشعبية مع استعارة كثيفة من الروسية. وقد أصبحت هذه «اللغة الأدبية» الجديدة واسطة للنماذج المبكرة للأدب الصربى الحديث. وكانت مفهومة فقط داخل دائرة رجال الدين وحفنة متناثرة من المتعلمين في المدن من غير المتخصصين في شئ معين، وقلة من سكان المناطق الريفية.

كان دير شنتندر Szentendre وشمال بودا على الدانوب، أول مركز لهذه اللغة الأدبية الصربية الجديدة. وقد أسسه رهبان مدينة راشا Raca (على نهر سافا الى الغرب من بلجراد) من أتباع الراهب أرسينيه الثالث في عام ١٧٩٠. وقد كتب كيبريان Kiprijan أحد هؤلاء الرهبان أول دراسة عن أشكال وقوالب الشعر الصربى. أما المركز الحقيقي للثقافة الصربية بما في ذلك الأدب، فقد كان في جهة الجنوب في حى فويفودينا Vojvodina حيث بدأ ثلاثة من الكتاب الذين تستحق أعمالهم الذكر وهم: زهاريا أورفلين Zaharija Orfelin (١٧٢٦ - ١٧٨٥)، ويوفان رايتش Jovan Rajic (١٧٢٦ - ١٨٠١)، ودوزيتى أوبرادوفيتش Dositej Obradovic (١٧٤٢ - ١٨١١).

كان أورفلين رجلا مدنى علمانى، وعلى درجة كبيرة من التعليم تحصل عليه بمجهوداته الذاتية أساسا. وتولى عدة وظائف متنوعة في حياته التي قضائها في كل من المدن الرئيسية لفويفودينا وفي فيينا والبندقية. وكان إنتاجه الأدبي متنوعا شأن وظائفه ويتناول أمور كثيرة ابتداء من الكتابة للمدارس الابتدائية الى دراسة أصول زراعة العنب. وقد نشرت معظم أعماله بدون توقيع أو نشرت باسم مستعار. وكل منها يستهدف التعليم بشكل أو بآخر. ومن المؤكد انه كان أفضل شعراء الصرب في ذلك القرن. وقد نشر سيرة ذاتية عن بطرس الأكبر، ورأس تحرير المجلة السلافية -

الصربية في البندقية عام ١٧٦٨ حيث كانت تنشر مقالات في موضوعات متنوعة، وكانت أول جريدة من نوعها .

أما زايتش فقد كان قسا تعلم في كيبف، وارتحل الى جهات متعددة يجمع معلومات لدراسة تاريخية بعنوان «تاريخ الأمم السلافية وخاصة البلغاريين والكرواتيين والصرب»، حيث نشر أخيرا في أربع مجلدات بينينا ١٧٩٤ - ١٧٩٥ . ولم يكن زايتش، عكس الأب بايزي Poissi البلغاري اللذان تصادقا معا في جبل آثوس Athos، مهتم كثيرا أو شغوف بشعبه «كمحاولة لرؤية تاريخ مختلف السلافيين الجنوبيين كشعب واحد»^(١). وقد استخدم في كتاباته اللغة الادبية المصطنعة الجديدة، وبالتالي لم يقرأ له الا قلة من القراء فكان تأثيره محدودا جدا. ومع هذا فان كتابه الذي انفق فيه سنوات من البحث الوثائقي يظل أول محاولة لتاريخ العلمى للسلافيين الجنوبيين.

وأما أورادوفيتش فكان أعظم الكتاب الصربيين قاطبة، فقد تعلم كيف يقرأ وهو في سن غضة، ثم أصبح وهو في شبابه راهبا لكي يتعلم أكثر وأكثر، ولكي يصبح قديسا. غير أن حياة الرهبنة في الدير أصابته بالاحباط، اذ اكتشف جهل الرهبان، وبدأ يكرس نفسه للمعرفة، ومن ثم قضى أكثر من ثلاثين عاما في رحلات مختلفة عبر أوروبا، من إنجلترا الى استانبول ثم إلى آسيا الصغرى، وأصبح على دراية واسعة ليس فقط بعدة لغات، بل بالفلسفة والرياضيات والعلوم والأدب. كان أول كاتب يشيع أفكار التنوير، ويدافع عن مبادئ الوحدة والأخوة والتسامح الديني بين السلافيين الجنوبيين. وكان أورادوفيتش يريد، شأن أورفلين، محاربة نفوذ الرهبان الديرين عن طريق تعليم المناهج الحديثة، وبهذا يحقق التقدم في تنمية شعب بلاده. لقد كان لديه الكثير لكي يقوله، ولأنه كان يكتب بلغة شعبه وليس باللغة المصطنعة الجديدة، فقد كان تأثيره عظيما. علي أن التيمات التي كان يكتب فيها لم تكن أصيلة، فقد اقتبس بشكل واضح موضوعاته من الأدب العالمي ابتداء من قصص ايسوب الخرافية Aesop's Fables الى الأعمال الحديثة، لكنه كان يتمتع بأسلوب أصيل ومهارة ملحوظة. وقد أصبح نموذجا للأدب الصربي الشعبي الحديث الذي ارتفع الى المستوى الأدبي اللائق حتى لقد حاكاه كثيرون. وقد نشر عمالان من أعظم أعماله شعبية في القرن الثامن عشر في عامي ١٧٨٣ - ١٧٨٨، وهما : الحياة والمغامرات (سيرة ذاتية)، وأساطير (وهي على نمط قصص ايسوب، وتحتوي على نصائح عملية في وقتها)، فضلا عن عدة أعمال أخرى أقل شعبية. ولقد كسبت الصرب بوجود أورادوفيتش عملاقا أدبيا له تأثير قوى، وتجاوزت نشاطاته مجال الكتابة الى السياسة في نهاية حياته حيث جعلت منه أحد الرجال العظام في تاريخ الصرب الحديث.

وإذا كنا لا نجد الا القليل لنذكره عن الكتاب الصربيين بالقياس للكرواتيين، فان ما يتعلق بالكتاب البلغاريين أقل من هذا بكثير، ذلك ان الاحتلال العثماني قضى بسرعة على بدايات مدرسة أدبية ذات قيمة أدبية جيدة كان تأثيرها يتجاوز الأراضي السلافية الى الامارات الرومانية عشية

(1) Hans Kohn, The Idea of Nationalism (New York: Macmillan , 1961)n ; P. 550

الغزو^(١). فلقد عانى البلغاريون كثيرا شأن الصربيين من الحكم العثماني المباشر طوال عدة قرون، لكنهم كانوا قريبين من أدرنه وإستانبول بدرجة أكثر من اقتراب اقترانهم السلاف بالغرب. وكان لقرب البلغاريين من العواصم العثمانية نتيجتين: أن الأغلبية البلغارية كانت الأكثر رقابة تقريبا على سكان الامبراطورية العثمانية كلهم، وفي الوقت نفسه كانت أمامهم فرصا كثيرة للتعاون مع الغزاة. ومن ناحية أخرى لم يحدث لأي شعب من «شعوب ولايات أوروبا العثمانية» ان وتوصل في تطوره الى أن يكون طبقة شبه وسطى، مثلما حدث بالنسبة للجورجية البلغار، الذين تمتعوا بامتيازات اقتصادية معينة، بل وتولوا وظائف ادارية صغيرة في القرن الثامن عشر. وعلى هذا، فبالرغم من انه لم يكن باستطاعه الأغلبية البلغارية ان تعبر عن نفسها، استطاعت الأقلية الصغيرة المتمثلة في شريحة الجورجية. وكانت هذه القلة لسوء الحظ تنظر الى مصالحها فقط وتتعاون مع العثمانيين، ولم تكن تربطها بالجماهير الا اللغة التي يتحدثون بها.

وفي ظل هذه الظروف يمكن فهم نوعية الثقافة القائمة وراء أسوار الأديرة، في كل من بلغاريا ومقدونيا وجبل أتوس، حيث حفظت الوثائق وتم نسخ صور منها، وبدأت «المدرسة - الصومعة» لتعليم صغار الرهبان بصفة أساسية. ومن أن لآخر تلقى أناس آخرون بعض التعليم في تلك المدارس، التي قدمت نموذجا لمراكز صغيرة للتعليم العلماني (المدني)، والتي تجاوزت مناهجها التعليمية المتطلبات الأساسية لتعلم القراءة والكتابة التي يحتاجها المهنيون من طوائف الحرف، والذين عملوا مدرسين وطلاب في هذه المؤسسات المدنية. ومع هذا فكل هذه المدارس (بنوعها الديني والمدني) لم تقدم تعليما كافيا ليكون أساسا لحياة ثقافية حقيقية. وكان التعليم البسيط الذي كان في الأديرة ينتمي أساسا للمدرسة العصور الوسطى، واستمد أهميته من كونه فقط أنه حفظ لغة أمكن استخدامها في القرون التالية كأساس لأدب بلغاري حديث.

ومع هذا فثمة تطورات منفردة وقعت خارج الأراضي البلغارية لها أهمية تاريخية أكثر من أهميتها الثقافية. ففي ١٥٠٨ ظهر أول كتاب بلغاري مطبوع في رومانيا يتعلق بالطقوس الكنسية. وفي ١٦٥١ طبع في روما كتاب أباجار Abagar خاص بالصلوات الذي يعتبر أول مطبوع يحتوي على بعض اشارات بلغارية حديثة^(٢).

والواقع أن الرينيسانس الحقيقي في بلغاريا لم يحدث حتى القرن التاسع عشر. ومع هذا فقد ظهر في القرن الثامن عشر الأب بايزي Paisii (١٧٢٢ - ١٧٩٧)، وستويكو فلاديسلافوف Stoiko Vladislavov (١٧٣٩ - ١٨١٥؟) الذي يشخص وجوده ميلاد روح جديدة. وبالتالي تجدر الإشارة اليه في هذا الفصل. ولد بايزي في بانسكو BANSKO

(1) See Peter Dinekov, "L'ecole Litteraire de Tarnavo", Etudes Balkaniques (1972) : 5 - 111

(٢) هناك كتابان باللغة الإنجليزية يحتويان على معلومات عن الحياة الثقافية البلغارية: الأول ألفه ثلاثة: Nikolai Todorov, Lyubomir Dinev, and Lyuben Malnishki, Bulgaria, Historical and Geographical Outline (Sofia Press, 1968) and D. Kossev, H. Hristov, and D. Angelov, (A Short History of Bulgaria (Sofia: Foreign Languages Press, 1963).

(بلاجيوفجارد Blagoevgard) في شمال مقدونيا. وفي سن الثالثة والعشرين أصبح راهبا في دير هيلندر Hilender على جبل آتوس. وأثناء عمله في مكتبات الجبل استطاع ان يجمع معلومات عملية تتعلق باهل بلاده. وبعد حوالي عشرين عام وفي ١٧٦٢ نشر كتابه «تاريخ السلاف - البلغار»^(١). وهذا الكتاب صغير الحجم والذي كتب بالسلافية الكنسية بأسلوب معقد وعتيق بطل استعماله، كان رواية في مداخله، وحيويا جوهريا من الناحية اللغوية. كما كان كتاب يعبر عن وعى بالوطنية البلغارية التي أبأسها القهر السياسى العثمانى، والسيطرة الاكليروسية لليونان، وافتقاد شعبه اليقظة القومية. ولقد قدم الكتاب صورة متألفة زاهية متوهجة لقياصرة بلغاريا العظماء فى الماضى، وعمالقة كل من كايرل Cyril، وميثوديوس Methodius، وكذا انجازات أهل بلاده الثقافية والسياسية. وكان هدفه الرئيسى ان يدرك البلغاريون أنهم شعب له ماض عريق، وأن عليهم ان يعملوا بدأب من أجل مستقبل مزدهر يماثل ذلك الماضى العريق. ويتحدث الكتاب عن بلغاريا وعن حب المواطن الأصلي وعن اللغة المحلية. وعلى الرغم من ان الكتاب لم يطبع الا بعد حوالي ثمانين عاما، الا أنه كان ذا تأثير على البلغاريين الذين اتبعوا نصيحة المؤلف حين قال لهم: انسخوا هذا الكتاب وادفعوا لكل من يعرف لكى ينسخه ويحتفظ به»^(٢)

كان ستويكو فلاديسلافوف، وهو أحد الذين تأثروا بكتاب بايزى واجتهد أكثر من غيره لاشاعة أفكاره فى أواخر القرن الثامن عشر ووائل القرن التاسع عشر، احد البلغاريين القلائل الذين صعدوا الى منصب الأسقف. وقد ولد فى كوتل Kotel، والتقى بايزى فى ١٧٦٥، ثم أصبح أسقف فرايتزا Vratsa باسم الأسقف سوفرونى Sophronii. ولم تكن حياته مريخة بشكل عام حيث انتهت فى منفاه فى ولاشيا. وقد فعلت عظاته، وكتاب الأحد (١٨٠٦)، وسيرته الذاتيه بقلمه «حياة والأم سوفرنىوس المخطى» فعلها لاشاعة أفكار وأهداف بايزى بين الشعب. كما كانت من بين الأعمال المبكرة التى كتبت فى لغة بلغارية حديثة جيدة، ومن هنا كان لها مغزاها. والحقيقة ان كل من بايزى وسوفرونى يمثلان بداية الرينيسانس البلغارى، وكانت لهما أهمية تاريخية وثقافية..

٤ - اليهود^(٣)

عندما بدأ الغزو العثمانى لجنوب شرقى أوروبا كان اليهود الذين يتكلمون اليونانية

(١) أفضل الأعمال التى تتناول بايزى وعمله كتاب: D. Kosev, Al. Buemov, Hr. Hristov, V. paska-leva, and V. Mutafechieva, Paisii Hildendarski I negovata epoha (Sofia: BAN, 1962)

(بايزى الهيلندارى وزمانه) ويعتبر الكتاب مفيد للقارئ العام اذ ينتهى كل فصل من فصوله بملخص باللغات الغربية.
(2) Hans Kohn's translation, The Idea of Nationalism, p. 544.

(٣) تعتمد الصفحات التالية بصفة رئيسية على الكتب التالية: ==

ويعرفون بالروم Romaniois أو الجريج Gregos يعيشون في عدد كثير من المدن المغزوة. على انهم لم يكونوا كثيرين بشكل عام. وبعد وصول اليهود السفارديم الى تلك الجهات، تم استيعاب اليهود اليونانيين ضمن هذه الجاليات التي تتميز بأنها أكثر تقدما وأكثر مهارة. ولم يجد هؤلاء المهاجرون الجدد (السفارديم) يونانيين نظراء لهم في العقيدة فحسب، بل لقد وجدوا أيضا بعضا من جاليات اليهود الأشكنازي الذين قدموا من وسط أوروبا في هجرات مبكرة وأقدم من السفارديم وتعود الى القرن الخامس عشر زادت في أعداد كبيرة في القرن السادس عشر. ولم يأت منتصف القرن السادس عشر الا وكان عدد من الجاليات الاشكنازية النشطة قد استقر في مدن كثيرة، منها استانبول وأدرنه وصوفيا وبلغن Pleven وفيدن وتريكال Trikala وأرتا Arta، وحتى في سالونيك مركز السفارديم القوى. وهذه الجاليات التي يعود وجودها الى أيام حكم السلطان محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١)، وجدت أن الحياة تحت حكم العثمانيين أفضل بكثير من الحكومات التي كانوا يخضعون لها في بلادهم الأصلية، حتى لقد أرسلوا خطابات الى ذويهم في المحيط الجرمانى لكي يلحقوا بهم^(١). وحيث أن الجاليات الاشكنازية ظلت تعيش منفصلة عن سائر اليهود، فقد أصبح السفارديم هم العنصر اليهودى السائد فى الامبراطورية العثمانية.

كان يوسف ناظى (١٥١٥ - ١٥٧٩) أشهر يهودى سفاردى يعيش فى الدولة العثمانية. وقد ولد فى البرتغال باسم ياهوميغوز Joao Miguez حيث هاجر أولا الى انتورب ومنها الى استانبول فى ١٥٥٤ ومعه قدر لا بأس به من مال. وهناك أصبح صديقا لمحمد صوقوللو والسلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤) الذى عينه دوقا لناكسوس Naxos، فضلا عن مصالحه التجارية المتعددة فى العاصمة ونفوذ الهائل فى الشؤون الخارجية، فهو الذى حث بقوة أكثر من غيره على شن الحرب ضد البندقية حيث حصلت الدولة العثمانية بمقتضاها على جزيرة قبرص فى ١٥٧٠. هناك سولومون آبنايش Abenayish (؟ - ١٥٢٠) والذى ولد باسم الفارو ميندس Alvaro Mendes، وهو أقل شهرة من يوسف ناظى، لكنه كان صاحب نفوذ فى رسم السياسة الخارجية للدولة. وقد تولى دوقية ليسبوس (ميتلين Mytilene) هو الذى دعا الى ان تتبنى الدولة العثمانية سياسة بحرية معادية للأسبان.

على أن أكثر الاشكنازيين نفوذا كان سولومون أزكنازى (١٥٢٠ - ١٦٠٣) الطبيب الشخصى لمحمد صوقوللو وصديقه. وقد ولد وتعلم فى ايطاليا، وعمل فى بولندا قبل ان يذهب الى

= Abram Leon Sacher, A History of the Jews (New York: Alfred A. Knopf, 1937), two books by Gershom G. Scholem, Msjor Trends in Jewish Mysticism (New York : Schocken Books, 1941), Sabbatai Zevi , The Mystical Messiah (Princeton University Press, 1973), Israel Halpern, "The jews in Eastern Europe, " and Itzhak Ben " Zvi, " Erets Yisreal under Ottoman Rule, 1517 - 1917," both of which are in Louis Finkelstein, ed., The Jews, Their History (New York: Schocken Books, 1972), H. z. Hirschberg, "The Oriental Jewish Communities, "in A. J. Arberry, ed., Religion in the Middle East, 2 vols. (Cambridge, The University Press, 1969)m, vol. 1 - Judaism and Christianity.

(1) see H. Z. Hirschberg, "The Oriental Jewish Communities," P. 146

استانبول. وكانت معرفته بهذين البلدين (إيطاليا وبولندا) محل تقدير كبير من الباب العالي وكذا خبرته الطبية وقد لعب دورا كبيرا في تشكيل سياسة الدول تجاه بولندا، وعمل سفيرا للدولة العثمانية في البندقية^(١). ورغم وجود عدد كبير من الأطباء ورجال السياسة والتجار والفنانين، إلا أن ولايات أوروبا العثمانية لم تكن تمثل أهمية خاصة بالنسبة لليهودها. على أن الأمان المادي الذي حققه يهود الغرب لم يقابله منجزات ثقافية مماثلة لما قام به يهود الشرق الأدنى، حيث أصبحت القدس (أورشليم في الأصل الإنجليزي) وصفد وغزة وحتى القاهرة مراكز ثقافية مهمة لليهود أكثر مما كانت تمثله سالونيك مثلا. ورغم إحياء الروايات والأغنيات الشعبية بين الجاليات اليهودية، إلا أن نشاطاتهم ظلت مركزة حول معارفهم التقليدية.

وعندما شاع بين الدارسين في ولايات الشرق الأدنى دراسة القبلة* خلال القرن السابع عشر، ظهرت شخصية سباتاي زفي Sabbatai Zevi (١٦٢٥ - ١٦٧٦) التي أثار الجدل حولها. وقد ولد في أزمير، وكان مريضا بشكل عام، وقيل عنه أنه مجنون ومختل، ولو أن ذلك لم يثبت. وقد أعلن في البداية عن أنه تلقى «رسالة» في ١٦٤٨. لكنه لم ينشرها بين الناس. والحقيقة أنه لم يكتب شيئا، وأن شهرته تعود إلى ناان الغزوي (١٦٤٤ - ١٦٨٩) الذي التقى به بعد رحيله إلى القدس في ١٦٢٢ منتقلا بين مدينة وأخرى منذ أبعده من أزمير في ١٦٥١، إذ كان ناان هو الذي اكتشف «شريعة» سباتاي معلنا أنه المسيح المنتظر. كانت الرسالة التي يعظ بها سباتاي وناان رسالة باطنية غير شرعية أساسا، لها طقوسها الغامضة. وفي ١٦٦٣ وكانت الجالية اليهودية في القدس في حاجة شديدة إلى المال، أرسلت سباتاي إلى القاهرة طلبا للمساعدة. وهناك قابل زوجته الثالثة سارة البولندية الأصل، وهي التي أصبحت أكبر متحمس لنشر تعاليمه في الغرب بعد وفاته، رغم أنها لم تكن مؤمنة دائما.

وعلى الرغم من أن تعاليم سباتاي زفي لم توضع أبدا في صيغة واضحة، إلا أن صرفيته المسيحية جذبت أتباعا كثيرين، وكشفت عن عواطف عميقة، وعكرت صفو خاطر التلموديين الأصوليين. ويذكر جرشوم ج شالوم Gershom g. Schalom أن «السباتائية تمثل أول ثورة خطيرة في اليهودية منذ العصور الوسطى، وكانت فكرة باطنية أدت إلى تفكك اليهودية الأصولية «للمؤمنين». كما أدت هرطقتها التي تفجر اتجاهات عدمية كانت متوارية إلى حد ما بين بعض الأتباع. وأخيرا شجعت على نمو عاطفة من الفوضوية الدينية على أساس صوفي»^(٢) ومن ثم فلا عجب أن لجأت الحاخامية إلى السلطان الذي أمر زفاي أن يمثل أمامه في عام ١٦٦٦.

وقبل أن يغادر زفاي القدس كان هذا الذي ادعى أنه سيد العالم قد قسم الكرة الأرضية بين ٢٦ شخصا من أتباعه. وفي استانبول قبض عليه وأرسل إلى سجن أبيدوس Abydos (على الشاطئ

* القبلة بفتح القاف والباء مذهب تصوفي عند اليهود (المترجم)

(1) Cecil Roth, " The European Age in Jewish History, " in Louis Finkelstein, The Jews , pp. 255,56

(2) Gershom G. Scholem, Major Trends, p. 299.

الآسيوى للدردنيل). وهناك عاش كأمير صغير يتلقى الولاء من الآف الأتباع. وعندما مثل أمام السلطان خيره بين الموت أو الارتداد عن دينه. وقد أثر زفاى الارتداد عن يه يهوديته واعتنق الإسلام باسم محمد افندى، وأصبح حارس باب السلطان. ورغم أنه مات مخزيا ملوث بالعار فى مدينة أولشيني Ulcinj (دولشينجو Dulcingo)، الا ان نفوذه وللدهشة ظل قائما مدة طويلة، وأثر تأثيرا عميقا على الجاليات اليهودية فى ولايات أوروبا العثمانية، وشاعت تعاليمه بين العامة.، كما سبب اعتناقه للإسلام امتعاض بين اليهود وانقسام، وأضاف مشكلة أخرى الى المشكلات التى كان يواجهها يهود الامبراطورية العثمانية.

كانت بعض مشكلات اليهود هذه قديمة قدم استيطان السفارديم والاشكنازيين أنفسهم. ولم يقتصر انقسامهم على سفاردى واشكنازى فقط، بل كانت هناك اختلافات كبيرة وحادة داخل كل فريق، وتنحدر من الأصول البعيدة لكل منهم، فالاراجونيون على سبيل المثال (نسبة الى أرجونه باسبانيا) بينهم خلافات حادة بشأن الطقوس والشعائر والوظائف. وبشكل عام فلم يكن اليهود أبدا جاليات حقيقية، بل كانوا جماعة من الفسيفساء من قطاعات صغيرة الحجم، يوحد كل منها الأصل والمهنة والطقس الدينى. وقد تدعم الاتجاه نحو الانشقاق بفضل النظام العثماني والأسلوب الذى جمع كل اليهود معا دون أن يأخذ فى الاعتبار أي فروق بينهم، حتى التقسيم الأساسى بين السفارديم والاشكنازيين.

كما أن نمو التعصب العثماني تجاه غير المسلمين فى أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر قد قوى من مشاعر الكراهية الدفينة والتنافس بين أبناء الجالية اليهودية، وان لم تكن بالدرجة نفسها التى كانت بين المسيحيين، اذ كان بإمكان اليهود فى القرن السابع عشر اذا أرادوا، الهجرة الى هولندا أو إنجلترا، ومن ثم يتغير مصيرهم فى الحياة.

وأمام هذا الانقسام اليهودى كانت رسالة ساباتاي زفاى تعطى أفضل حل لاشكالية المسيح المنتظر، أو الخلاص الفردى. فقد استقبلت التعاليم الساباتاينية فى «ولايات أوروبا العثمانية» بحماس بالغ، ومن ثم أضافت بعدا له مغزاه فى تفكيك الجاليات اليهودية، فقد نظر اتباع زفاى فى البلقان الى اعتناقه الاسلام باعتباره «أرقى تصرف صوفى»، ويتطابق تماما مع اليهودية. وقد حذا حذوه أربعمائة عائلة من يهود سالونيك، وأصبحوا هم وأولادهم وأحفادهم يعرفون حتى اليوم باسم يهود «الدونمة»، اى مسلمى سالونيك اليهود الأصل الذين يعيشون فى تركيا. وبعد وفاة زفاى بدأ عدد اليهود فى جنوب شرقى أوروبا فى التضاؤل بشكل حقيقى.

ورغم هذا التضاؤل، الا أن الاقامة الطويلة لليهود وخاصة السفارديم فى جنوب شرقى أوروبا، ساعدتهم على الاحتفاظ بتقاليدهم وطقوسهم الدينية. ولغتهم، وحياتهم الجماعية فى ظل ظروف كانت أفضل من أى مكان فى أوروبا خلال تلك السنوات الطويلة. ولقد كانت هذه التقاليد مع بعض الثروة، هى التى أخذها معهم اليهود عندما بدأوا فى الانتقال ناحية الغرب. كما حملوا معهم ايضا أفكارا انبثقت من الساباتاينية، وأصبحت مهمة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث

ساعدت على ايجاد يهودية اصلاحية على حد قول شولم^(١).

ورغم أنه كان بإمكان اليهود الاحتفاظ بأفضل ما هو عزيز لديهم للمستقبل، إلا أنهم كانوا يختلفون عن سائر جنوب أوروبا في الدرجة فقط. فقد كانوا أقل عددا بالنسبة للجماعات الاثنية الأخرى، ولم يكونوا محليين أو من أهل البلاد أصلا، ولهم تاريخ منفصل وتقاليد لا ترتبط بالمنطقة كما كانوا أقل نسلا وذرية من السلافيين أو اليونانيين.

ومن الملاحظ أنه حتى بين اليونانيين فقدوا معظم المؤسسات السياسية والادارية والتقاليد، كما هو شأن معظم فنونهم المرئية والمعمارية والتي كانت «تجرح» أذواق العثمانيين - المسلمين وقيمهم، ولم يحتفظوا الا بتقاليدهم وبلغتهم، ونظموا أشعار شعبية تصف حياتهم تحت الحكم العثماني.. أما التقدم الذى صنعه السلافيون فلم يحدث الا فى المناطق التى لم يكن للأتراك رقابة مباشرة عليها. ولم يكن فى مقدرة اليونانيين-العثمانيين الا تطوير ثقافتهم حتى ولو بدرجة بسيطة. وينبغى ان نتذكر أن مساحات كبيرة من المناطق التى عاش فيها اليونانيون. كانت تحت حكم البندقية، أو كان يديرها صفوة من كبار اليونانيين يرضى عن حكمهم العثمانيون. ولقد أوجدت هذه الظروف مع التقدم الثقافى الكبير الذى أحرزه اليونانيون عند الغزو العثماني وسيطرة اليونانيين على الكنيسة الارثوذكسية، ظروفًا مواتية لكي يستغلوها لصالحهم. ورغم ان طبيعة الادارة العثمانية مشحولة الى درجة بعيدة عن بقاء كل شعوب جنوب أوروبا وحيويتهم، إلا أن حب هذه الشعوب لتقاليدها وثقافتها، والتي عبر عنها بعض الكتاب الذين ذكرنا أعمالهم فى هذا الفصل هو الذى كون شخصيتهم القوية والتي ظلت باقية رغم كل ماتعرضوا له.



(١) نفسه، ص ٣٠١.

الفصل الثالث عشر

النتائج

١ - العصر العثماني

ناقشنا في الفصلين الأول والثاني بصفة خاصة طبيعة وتنظيم الادارة والمجتمع العثماني. ولكي نقيم آثار السيادة العثمانية على جنوب شرقي أوروبا، لابد من العودة بإيجاز الى الموضوعات التي أثيرت في هذين الفصلين مع التركيز على بعض الملامح هنا وهناك لاكتشاف ما تقدمه من مغزى.

كانت الدولة العثمانية امبراطورية لكنها لم تكن كالامبراطورية الرومانية القديمة أو امبراطوريات غرب أوروبا، فعندما كان الروماني القديم يعلن في كبرياء «المواطنة الرومانية» Civis Romanus sum لم يكن يعبر بهذا عن الكبرياء الذي يشعر به القوميون هذه الأيام، ولكن ما كان الروماني يشير اليه بكل كبرياء هو مجموعة من الحقوق والامتيازات المقننة التي جعلته يتميز عن الآخرين. وحيث ان تلك القوانين كانت قوانين روما، وان الامبراطورية الرومانية ما هي الا تلك المدينة التي منح مواطنوها حقوق المواطنة، لمسألة توضيح بجلاء معنى محلي شبه قومي لهذا المصطلح، حتى ولو كان الفرد الذي يردد هذه الكلمة لم يكن قد رأى في حياته تلك المدينة الامبراطورية. والحق أنه لم تكن هناك روما واحدة فقط ثم ثانية وثالثة فيما بعد، لكن هناك رومانيون أيضا.

على هذا الأساس يمكن القول ان الامبراطورية العثمانية لم تكن امبراطورية قومية الطابع، كما لم تكن محددة بوحدة محلية لها مواطنوها. وقد انتقلت عاصمة الامبراطورية من سوجوت Sogut الى بورصه، الى أدرنه، ثم الى استانبول في النهاية. ولم يكن لها مواطنون، كما لم يكن لها لغة واحدة مثل اللاتينية واليونانية والانجليزية والفرنسية أو الهولندية، فالعثمانية نفسها وهي لغة الحكم والادارة، كان يتعذر على أغلبية الأتراك فهمها. لقد كانت الامبراطورية العثمانية عبارة عن حكم أسرة تستمد شرعية وجودها من مبررات دينية معينة. وفي هذا المقام يتطلب الأمر مقارنتها بالامبراطوريات العربية وحتى الصينية واليابانية.

لقد كانت الامبراطوريات العربية تستند مؤكدا على مبررات دينية، لكنها وباستثناء فترة الحكم الطويلة للأُمويين والعباسيين، لم تكن حكم أسرات محددة. والحقيقة دون مواربة ان تلك الامبراطوريات، ركذا كل الخلفاء الآخرين كانوا غير شرعيين. ذلك ان الدول العربية بعد محمد (هكذا في الأصل الانجليزي دون اضافة صفة النبوة) كانت اسلامية، لكنها لم تكن محددة في أسرة حاكمة بعينها. أما الأباطرة الصينيون فقد كانوا هم الآخرين يستندون في حكمهم على

«تكليف سماوى». ولكن وبصرف النظر عن ان السماء لم تكن محددة فى اله معين، كان بالامكان نقل التكليف من أسرة حاكمة الى اخرى. ومع هذا فلم يكن الدين أو الأسرة الواحدة الحاكمة أساسان مهمان على قدم المساواة فى الامبراطوريات العربية أو الصينية كأساس لوجود الدولة، مثلما كان الأمر فى حالة العثمانيين. كما لم يكن استناد العثمانيين الى هذين الأساسين المزدوجين (الدين والأسرة) موجود أيضا عند اليابانيين بالقدر نفسه. فالسلطان لم يكن «ابن السماء» كما هو شأن اسرطور اليابان، حيث تعود أصول الشعب، والدولة، والعقيدة، والبيت الامبراطورى، الى الماضى الأسطورى نفسه. والامبراطورية العثمانية كانت دولة متعددة الأصول العرقية، ومتعددة اللغات، وحتى متعددة الأديان، يربط بينها حكم أسرة واحدة، تستمد شرعية حكمها من التقاليد التركية، ولكن تقرر فيها الواجبات والمسئوليات والالتزامات وفق اعتبارات دينية. وقد حدد هذان العنصران (الأصل والدين) اللذان ينتميان لأصول مختلفة، بناء الدولة ومكانة كل فرد فيها.

ويعود مفهوم السيادة فى هذا البناء إلى عنصرين بدونهما لا يكون للدولة وجودا، ألا وهما الحاكم والاسلام. وكل مايمكن اضافته الى هذين الاعتبارين الأساسيين من المؤسسات الادارية والاجتماعية التى أكدت صلاحيتها فى الدولة والمجتمع. ومن المهم أن ندرك أن هذين الأساسيين الرئيسيين الاجتماعى والادارى، لم يكونا متطابقين ومتماثلين فى أسلوب العمل، اذ كان كل منهما مستقل عن الآخر من الناحية العملية.

فمن الناحية السياسية كان السلطان حاكما مطلقا من الناحية النظرية. وقد فوض فى بعض سلطاته هيئة رجال الادارة من الموظفين العثمانيين من الناطقين بالعثمانية ومن العناصر العثمانية التى تناظر عناصر الاقطاع - المسيحي «للقوميات السياسية» الأوربية (النبلاء). وكان هؤلاء يديرون مختلف الوظائف التى عرضنا لها فى الفصلين الأولين من هذا الكتاب. وعلى عكس نبلاء أوروبا لم يكن لطبقة الموظفين العثمانيين أية حقوق شرعية رغم أن التقاليد خلعت عليهم سلطات واسعة النطاق، فهم يعينون، ويمكن طردهم والاستغناء عنهم، أو قتلهم وفق ارادة الحاكم ورغبته. وعندما تصبح هذه العناصر قوية أكثر من اللازم، يقوم السلطان ببساطة بتعيين آخرين من مصادر أخرى بغية اعادة تأسيس كيانه السيادة السياسى الخارجى. فاذا ما تبين عجزه فى هذا الخصوص يصبح هذا مؤشرا لبداية انهيار البناء السياسى للامبراطورية. كان الموظف العثمانى عضوا فى «الأمة السياسية» العثمانية لكن على غير رغبة من السلطان. ويستمد حقوقه وصلاحياته الوظيفية من تعيين السلطان له. ومع هذا فان كل الوظائف السياسية والادارية كانت مركزة فى أيدى هذه الطبقة، التى تفتتت الى شريحتين: عليا ودنيا، داخل كافة التنظيمات الادارية السائدة التى سبقت الإشارة إليها. لقد كان لدى الامبراطورية العثمانية جهاز ادارى يديره موظفون مدرسين من مختلف المستويات، وكان عليهم تنفيذ القرارات السياسية التى ظلت حقا مطلقا للحاكم.

لقد تكونت طبقة الموظفين العثمانيين لسبب محدد، ألا وهو ادارة الشؤون الادارية والسياسية للدولة. وهذه هى أهمية هذه الطبقة الوظيفية، وبالتالي لم يكن الأصل العرقى أو اللغة أو الدين، هو الذى وضع هذه الطبقة على قمة الهرم الاجتماعى. أما الطبقة الدنيا من هذا البناء فقد تكدرت طبقا

للمعيار نفسه ألا وهو الأداء الوظيفي. وكل من يعيش في الامبراطورية العثمانية من فلاحين، وحرفيين، وطوائف تجار وصناع، ورجال دين، وعمال، يؤدي كل منهم واجبا أو عملا ذا فائدة مباشرة أو منفعة للدولة. ومن وجهة نظر الحكومة المركزية كانت الأهمية النسبية لأي وظيفة تحدد المكانة الاجتماعية والطبقية لمن يقوم بها. وكانت كل مجموعة اجتماعية وظيفية منظمة تنظيما صارما، ولكل فرد من أفرادها واجبات وحقوق معينة، ولأن الوظيفة الحقيقية للمجتمع تلتخص في إنجاز هدف واحد ألا وهو دعم الدولة. فقد كان لابد من التأكيد دوما على استقرار التقسيم الطبقي للسكان طبقا للخسوط الاجتماعية المهنية أو الوظيفية. وفي هذا المقام فان الامبراطورية العثمانية بقوانينها وتنظيماتها المتعددة والتي حكمت النشاطات الاقتصادية وحافظت على التقسيم المهني أو الوظيفي لسكانها، استطاعت ان تحقق نمط النظام الامبراطوري الذي يقوم على أعلى درجة من التنظيم والمركزية، والتي حاولت اصلاحات الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) ادخالها في الامبراطورية الرومانية. وكانت التنظيمات تقوم على الافادة من العناصر الهامشية مثل القبائل حتى تكون نافعة على الوجه الأكمل. وبمجرد ولوج أحد تلك العناصر في طبقة اجتماعية مهنية، فان وضعه الاجتماعي هو وأولاده يتأكد الى الأبد.

والجدير بالذكر أيضا أن الخدمة العسكرية تدخل ضمن الواجبات التي يتعين على الطبقة الادارية السياسية القيام بها. وعلى هذا فان طبقة حكام الاقاليم والشريحة الدنيا من موظفي الاقاليم الذين ينتمون الى هذه الطبقة، لم يكن لهم أي حق أو سلطة لتغيير القواعد والتنظيمات التي تحكم حياة اولئك الذين ينتمون الى وظائف أخرى. والحقيقة ان تجزئة المجتمع الى عدة شرائح وأقسام على ذلك النحو، وفرت قدرا معينا من الحرية الداخلية والمرونة داخل اطار القانون. وسمحت للطبقات لتوائم نفسها مع الظروف المحلية. وعندما تحطم هذا التقسيم الحاد للوظائف في القرون الأخيرة، كان اشارة أخرى من اشارات انهيار الامبراطورية، اذ كان بإمكان الأغنياء التبرع من الوظائف بقدر أكثر مما كانت تعطيه ثروتهم. كما كان بإمكان الشريحة الدنيا من الموظفين العثمانيين اكتساب «وضعية» اجتماعية معينة من واقع تحويل بعض موارد خزينة الدولة الى جيوبهم.

فاذا نظرنا الى الأمر من الزاوية الادارية-السياسية، نجد أن الامبراطورية العثمانية كانت منظمة على أساس شرائح أفقية من الطبقات الاجتماعية طبقا لنشاطاتهم المهنية أو وظيفية. وكانت واجبات وحقوق كل طبقة من الطبقات تعكس درجة الأهمية التي تعلقها الحكومة على نشاطاتها الاقتصادية.

ومن ناحية أخرى كان سكان الامبراطورية ينقسمون رأسيا حسب العقائد الدينية المشروعة قانونا. فبالإضافة الى المسلمين كان هناك أيضا الأرثوذكس والأرمن واليهود. وكانت هذه الملل تنظميات موازية، وكل منها مستقل داخل حدود اختصاصه. والحق أنه لم يكن لدى العثمانيين تصورا للتقسيم الاجتماعي الديني يتطابق مع القوميات، أي يصبح التقسيم على أساس اجتماعي - قومي متجانس. وعلى الرغم من أن الاسلام كان دينا أكثر سموا في نظرهم من أي عقيدة أخرى، فانهم لم يخضعوا للعقائد الأخرى للاسلام. فنظام المللة لم يشكل فاصلا بين الواكف والمحكومين.

لكن هذا الفاصل قد تشكل على أساس اختلاف الوظائف بين هيئة الموظفين العثمانيين والرعايا. ولم يكن يستند الى العقيدة رغم ان كل الموظفين العثمانيين من الناحية الفعلية كانوا مسلمين. وكان الغرض من نظام الملة ببساطة خلق ادارة امبراطورية فرعية، وبناء شرعى أساسى لأهل الذمة. ومن خلال النظام يمكن حكم امبراطورية عظيمة وعالمية ذاتيا، دون طبقة الادارة والحكم التى تتغير من حين لآخر. وفى الوقت نفسه ومن خلال نظام الملة هذا تكون الدولة قد أوجدت ظروفًا معيشية مقبولة لأهل الذمة ومؤسسات شرعية قانونية لغير المسلمين. وفى هذا المقام فاننى اتفق مع مقولة كمال كربات Karpat بالنسبة للسلطين الأوائل أنه «لما كانت الحكومة العثمانية قد قبلت فكرة الأقلية - الأغلبية أو توصلت الى مفهوم سياسى للقومية، فقد سهل عليها ازالة الرقع العرقية والدينية من ثوب الحكم، محولة اياها الى ثوب واحد لمجموعة واحدة متجانسة مسلمة أو تركية»^(١) لقد كان نظام الملة اذن، حلا ابتكرته حكومة لم تكن تعرف ماذا تعنى القومية. وعلى هذا فقد كان نظاما غير مألوف مع تصور مفهوم الأغلبية - الأقلية. «لقد ربط نظام الملة الفرد بالسلطة الحاكمة بقدر ما كانت تعنى كلمة الادارة، وأتمت من ناحية أخرى التركيب الطبقي الاجتماعى فى الاطار الدينى - الثقافى»، على حد قول كربات^(٢).

ولقد تعايشت التقسيمات الرأسية والأفقية للمجتمع بشكل متساو، وطبع كل منها الآخر بصورة منه، ونتج عن ذلك فى النهاية شبكة معدنية كل فرد ينتمى الى مربع من مربعاتها، ويمكنه التحرك أو الانتقال بحرية نسبية داخل هذا المربع. والانتقال أفقيا من ملة الى أخرى كان ممكنا للجميع من خلال اعتناق الاسلام، على حين كان الحراك رأسيا داخل أية ملة أمر صعب وندر الحدوث، لأن الانتقال الكثير عبر هذه الحدود قد يضر التوازن الاجتماعى - الاقتصادى الذى يقوم بقاء الدولة ووجودها عليه. وتصور المجتمع على أساس هذه الشبكة يعتبر اداة مريحة للتعرف على آثار الحكم العثمانى فى جنوب شرقى أوروبا.

كان ازاحة الأمراء والنبلاء فى جنوب شرقى أوروبا أحد النتائج الأولى للغزو العثمانى للمنطقة، فقد تم تصفية أغلبية الطبقة الحاكمة القديمة بسرعة بواسطة العثمانيين الذين رأوا ضرورة ازالة المصدر المحتمل للثورة والمقاومة. وأكثر من هذا فلم يكن من الممكن أن يدخل هؤلاء الأمراء والنبلاء فى قالب الشبكة الاجتماعية العثمانية لأنهم لم يكونوا يمارسون أى وظيفة للدولة. والذى حدث أنه اذا لم يكن قد تم تصفية أحد عناصر هذه الطبقة، فقد تم استيعابه على الأقل داخل طبقة الموظفين العثمانيين باعطائه بعض وظائف طبقة الموظفين. وقد قبل اللوردات المحليون هذا النوع من الترتيب لأنه يضمن لهم الاستمرار فى الاستمتاع بحقوق كانت لهم قبل الغزو العثمانى، حتى ولو داخل نظام قانونى مختلف، وتحت رداء لالقب جديدة، بل لقد أصبحوا غالبا بيروقراطيين

(1) Kemal Karpat, An Inquiry into the Social Foundations of Nationalism in the Ottoman State, From Social Estates to Classes, from Milletes to Nations, Research Monograph No. 39 (Xerox) of Center of International Studies of the Woodrow Wilson School of Public and International Affairs of Princeton University (Princeton, 1973), p. 39

(٢) نفسه

عثمانيين ممتازين . على أن هذا النوع من الحالات كان ظاهرة محدودة .

لم يقاوم عامة الناس انهيار العنصر الحاكم القديم (النبلاء) ، فلم يكن هناك ما يربطها بهذا العنصر ، بل كانت تعاني الكثير من طبيعة سياساته التعسفية . ولقد انهيار النظام الاجتماعي - السياسي الذي كان سائدا قبل الحكم العثماني بأبعاد هائلة الذين خلقوا هذا النظام وحافظوا عليه . ومن ثم أصبح ادخال النظام العثماني للمنطقة أمرا ممكنا ، وهو النظام الذي بدأ أنه ينفذ بسهولة ويسر . والحقيقة أن ظهوره على هذه الصورة لم يكن راجع الى طبيعة النظام بقدر ما كان يعود الى اختفاء القيادة المحلية في تلك المناطق طوال قرنين من الزمان .

وهناك عاملان آخران اسهما اسهاما له مغزاه في استقرار النظام العثماني في البداية . فقد رافق ما يسمى بالسلام العثماني استقرار اقتصادي نسبي وبعض التحسن في الأحوال بالقياس الى الفترات السابقة ، حيث زالت بعض العلل ، وزال الخوف وعدم الأمان ، كما زالت بعض المصاعب التي كانت تسبب سخط الناس ، ومن ثم تمردهم وثورتهم . وأكثر من هذا فقد أبقت الحركة المستمرة للناس خلال القرنين الأولين من الحكم العثماني ، البناء السكاني متميما بدرجة كافية بما حال دون تكوين جماعات محلية متماسكة المصالح . وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هذا التغير الديموجرافي : من ذلك تدفق العنصر التركي الى جنوب شرقى أوروبا ، والهجرات الداخلية لأهل البلاد التي عرضنا لها آنفا ، أى الحركة والتنقل من مكان لمكان ، وهجرة اليهود ، ونقل عدد كبير من الناس جبريا من مكان لآخر بأوامر السلطات لتعمير المدن وتوفير الأيدي العاملة الزراعية ، أو نقل العناصر المتمردة من بيئتهم الأصلية الى أماكن أخرى حتى لا يتمكنوا من أحداث اضطرابات وقلاقل . وحتى عندما حدثت هذه النقلات الديموجرافية المكثفة ، فإن كل الذين انتقلوا من مكان لآخر سواء طواعية أو كرها ، بقوا في المربع الخاص بهم داخل الشبكة الاجتماعية العثمانية . وحتى أولئك الذين قدموا من خارج الدولة خصصت لهم أماكن في مربعات الشبكة .

وكان هذا البناء يعتبره أصحابه نظاما ثابتا واسخا لا يقبل التغيير خاضعة بعد ان برهن على أنه يحقق أهدافه . وكانت نقطة ضعفه الرئيسية تتمثل في أن الذين ابتكروه أهملوا معظم المظاهر الأساسية للطبيعة البشرية والحياة الاجتماعية وحتى بين هيئة الموظفين العثمانيين الذين كرسوا أنفسهم للدولة حيث كانت الاعتبارات الذاتية دائما هي القوة المحركة لهم في تصرفاتهم . وقد ثبت هذا من واقع ظهور كثير من الحيازات التي تم ايقافها بمعرفتهم عليهم بصورة غير قانونية . وكان من الصعب انتزاع الرغبة في الاهتمام بالذات وبالأسرة من نفوس «الرعايا» ، وهم أغلب سكان الدولة الذين لم يكن مستقبلهم متفق مع مستقبل الدولة . بالضرورة . ومن أجل ضمان الأداء الصحيح للوحدات الاقتصادية الاجتماعية أوجد العثمانيون قيادات محلية جديدة مثل مسؤولي الطوائف الذين سبقت الاشارة اليهم في الفصل الرابع ، والكنزات ، والكنمات ، والجهورية الذين كانوا يقومون بوظائف مشابهة لوظيفة مسئول الطائفة في القرية .

والحقيقة أن كل أولئك الرجال كانوا قيادات طائفية أضفى عليهم وضعهم مكانة معينة

حملت منهم عنصرا قياديا جديدا على المستوى المحلى، وهم لم يكونوا أعضاء فى «أرستقراطية جديدة» لكنهم كانوا الاوائل ضمن أقرانهم، ولم يكونوا يتحدثون نيابة عن أتباعهم، بل لقد بدأت قيادتهم فى القرون الأخيرة عندما كان النظام العثمانى يتهاوى. وعندما بدأت هذه الزعامات المحلية تتعاون فيما بينها، وخاصة خلال القرن الثامن عشر، استعادت شعوب جنوب شرقى أوروبا بعد طول انتظار، القيادة التى كانوا قد انتقدوها باختفاء نبلائهم القدامى. أما النبلاء القدامى الذين ظلوا موجودين طوال العصر العثمانى سواء كزعامات قبلية محلية معترف بها، أو من حاملى الألقاب العثمانية الذين تعاملوا مع الدولة العثمانية، فقد كان عليهم إيجاد أرضية مشتركة مع تلك القيادات الجديدة طالما كانوا يريدون من الحركات الشعبية الصاعدة أن تعتبرهم عناصر أفضل من العثمانيين ولو قليلا.

إن الاستياء الذى عبرت عنه تلك القيادات باسم أتباعها، كان يدل على فرقة الجاليات التى كانوا يعبرون عنها وعدم صلاحيتها وسخطها فى الوقت نفسه. وهذا يبرهن على أن تماسك البناء الاجتماعى العثمانى كان نظريا أكثر منه واقعا.

كان هناك سببان رئيسيان لهذا الاختلاف بين النظرية والواقع. وكان أول هذه الأسباب اقتصادى. فقد كان كان المجتمع العثمانى كما نعرف مفتتا الى طبقات طبقا للوظائف الاقتصادية (باستثناء جماعة الموظفين العثمانيين) وكل وظيفة أو مهنة من حيث الحجم والنشاط ومعدل الانتاج والأرباح وسائر نشاطاتها الأخرى منظمة تنظيما صارما. ولقد نجحت هذه القواعد المنظمة خلال الفترة المبكرة من الحكم العثمانى فى تحقيق حاجات الدولة من الانتاج السلمى اللازم والخدمات المطلوبة والدخل من الضرائب، كما ضمنت مقايلا للمنتجين، لكنها أدت الى تجميد الحياة الاقتصادية فى قالب صارم محدد.

وطالما كان النظام الاقتصادى العثمانى غير مختلف اختلافا كبيرا عن النظام الاقتصادى فى بقية أوروبا وخاصة فيما يتعلق بالنشاطات غير الزراعية، فانه كان يؤدي وظائفه بنجاح دون منافسة. لكن كان هناك فارق له مغزاه بين النظامين العثمانى والغربى آنذاك، فالسياسات المالية لكل الدول الأوربية كانت تعتمد الى حد كبير على رغبة الحاكم فى انتزاع الدخل من الأهالى فى شكل الضرائب والأتاوات والدخول الجمركية واختلاف قيمة العملة عند التعامل، بالإضافة الى الدخل الذى يحصل عليه من أراضي الخصوصية (الدومين).

وكانت الجهود من أجل الحصول على دخل اضافى، جزء من نظم تلك الفترة وخصوصية من خصائص المرحلة الانتقالية من العصور الوسطى الى الدولة الحديثة. أما بالنسبة للإمبراطورية العثمانية فكان الموقف مختلف جدا حيث كانت اراضى الحاكم هى نفسها اراضى الدولة على الأقل نظريا، وكانت الحكومة المركزية (استانبول) تفترض ببساطة أن أموال الأهالى بمثابة أرباح لها، وبالتالي فانها لم تقدم أبدا سياسة مالية حقيقية.

وبعد اكتشاف الأمريكتين عانت الدول الأوربية من التضخم ومن ثورة الاسعار لفترة طويلة،

لكنها استطاعت ضبط سياساتها المالية. وانماط انتاجها بشكل أو بآخر لكى تتلائم مع الظروف الجديدة، وذلك خلال الفترة من القرن السادس عشر الى الثامن عشر، رغم الحروب المستمرة مع العثمانيين. أما الامبراطورية العثمانية، فقد كانت غير قادرة على التوصل الى ضوابط مماثلة. ولما لم يكن لديها سياسة مالية معينة، فلم يكن أمامها سوى تكرار تخفيض قيمة عملتها عندما تكون في مأزق مالي، وظل الأمر كذلك حتى القرن التاسع عشر عندما بدأت تأخذ بالسياسات المالية الحديثة وبنظام الميزانيات.

ولم يتوقف الأمر على عدم قيام السلطات العثمانية بتغيير القواعد التي تحكم الانتاج والتجارة، بل لقد حالت دون ضبط هذه القواعد بما يتمشى مع ظروف السوق المتغيرة. وعندما أُجبر ضعف الامبراطورية المتنامي الحكومة العثمانية على الاستجابة للمطالب الاقتصادية المتنوعة لدولة أوروبا الغربية، فإن التنافس مع البضائع الأجنبية قضى على طوائف الحرف. ولقد حاول قطاع الزراعة ضبط منتجاته بما يتمشى مع المتغيرات الجديدة، باستحداث نظام الجفلك وزراعة محاصيل جديدة. ولكن في الوقت الذي حدث فيه هذا التحول، كانت الدولة تفتقد عناصر القوة اللازمة لحمايته، فضلا عن عدم ادراك مغزى النظام الجديد. ومن ناحية أخرى بدأت طوائف وطبقات المجتمع تضيق بالحدود الأفقية المرسومة لكل منها في مربعات الشبكة العثمانية، وأخذ كل منها ينقل ولاؤه من السلطات العثمانية الى نفر من كبار قومهم بحثا عن قيادة.

ومثلما أصبح الحاجز الذي أوجده التنظيم الاجتماعي الوظيفي المهني في الامبراطورية لا يتلائم مع وقائع الحياة اليومية كلما مضى الزمن، كذلك أصبحت الحواجز التي أوجدها نظام الملل، حيث كان الخلل بين النظرية والواقع قائم منذ البداية، ولم يكن نتيجة لعجز العثمانيين عن التلائم مع الظروف المتغيرة. وقد كان من المفترض من لحظة ايجاد طوائف الملل، ان كل منها تدافع عن وحدة قائمة بذاتها لها مغزى مختلف عن الأخرى، مثلما هو الحال بالنسبة لوحدة «طائفة» المسلمين السنة التي كانت أقل توحدا في الواقع العملي عما هو مفترض نظريا، وان كانت أكثر تماسكا وتقاربا عما كانت عليه أحوال الملل الأخرى. فالنسبة للمسلمين أصبح الاسلام مولاهم الأول، بل لقد أصبح بإمكان الغرب ولدرجة كبيرة ان يعتبروا الدولة العثمانية - الاسلامية قبلتهم ودولتهم. وقد كان الموقف مختلف جدا بالنسبة لطوائف الملل الأخرى رغم أنها التنظيمات التي كان يفترض أنها أوجدت لتكون محل ولاء المنتمين اليها.

وتمثل طائفة الأرمن أوضح مثال لهذا الاختلاف بين الوحدة المفترضة نظريا والواقع الفعلي. فرغم أن كل ابناء هذه الطائفة كانوا من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، الا ان الخلافات كانت هائلة بين الاقباط والأرمن وبين الخلقدونيين (نسبة الى مجمع خلقدونيا - المترجم)، والجيورجيين كأبناء «وحدة» واحدة. ومن حسن الحظ ان هذه المجموعات كانت صغيرة نسبيا ولا تمثل غالبية الا نادرا، وتعيش في مناطق لا تمثل أهمية خطيرة اقتصاديا أو استراتيجيا، باستثناء مصر فقط. وأكثر من هذا فان بطريك الأرمن وكان يدرك ان «رعاياه» يتوزعون بين كنائس مختلفة ومتنوعة، لم يحاول السيطرة عليهم، واكتفى بالتعامل معهم من خلال قيادتهم المعترف بها. وهكذا

كانت مشكلات العثمانيين مع هذه الطائفة (الأرمن) قليلة نسبيا طوال فترة الدراسة.

أما الطائفة اليهودية فكانت من الناحية اللاهوتية أكثر اتحادا فيما بينها عما كانت عليه طائفة الأرمن. ولكن كما رأينا في الفصل السابق كانت هناك اختلافات حقيقية بين أبناء هذه الطائفة ليس فقط بين أتباع الشعائر المختلفة، ولكن بين أتباع الشعيرة الواحدة تبعا للجهات التي وفا أصحاب كل شعيرة منها. ورغم أن عددا لا يستهان به من أبناء هذه الملة كانوا يعيشون في جنوب شرقي أوروبا حيث كانت أهميتهم الاقتصادية ملحوظة، إلا أن العثمانيين لم تكن لهم أية مشكلات معهم هناك. ولما لم يكن اليهود محل ترحيب في أي مكان يحلون فيه، فقد عاشوا منعزلين عن طوائف أهل الذمة الآخرين. وعندما تخرجت أمور الامبراطورية العثمانية، بدأ اليهود في مغادرتها في أعداد لا يستهان بها.

على أن أهم مشكلة واجهت العثمانيين في هذا الخصوص، كان وضع طائفة الأرثوذكس الذين كانوا يشكلون أغلبية سكان جنوب شرقي أوروبا. فقد كانت وحدتهم المذهبية حقيقة واقعية، لكن مسألة الولاء الأول كانت تمثل لهم مشكلات. فرغم أن العقيدة الدينية لم تكن تعنى شيئا كبيرا للغالبية العظمى من الأرثوذكس الذين كان اعتقادهم أساسا من نوع المعتقدات الشعبية المتنوعة، إلا أن الكنيسة كانت رمزا لهويتهم الذاتية متمتزة باعتبارات أخرى.

وقبيل وصول العثمانيين إلى جنوب شرقي أوروبا كانت الامبراطورية البيزنطية في حروب مع الدويلات السلافية الناشئة لمدة ثمانية قرون تقريبا. ورغم أن أباطرة بيزنطة تحت ضغط الاعتبارات السياسية والعسكرية، كانوا يمنحون هذه الدويلات الاستقلال بدرجات متفاوتة، ويحللوا على حكامها ألقابا رفيعة، إلا أن السلطات الكنسية تحت رئاسة بطريرك القسطنطينية كانت معنية دائما بالحفاظ على وحدة المؤسسة الدينية. ولما لم يكن الايمان الصحيح قضية سياسية أو قومية عند السلافيين. فقد اعتبروا الأرثوذكسية كنيسة بيزنطية - يونانية. ولأن روما الشرقية كانت تمثل نموذجهم في شكل الدولة، فقد ناضل حكامهم الأقوياء فعلا لايجاد كنائس وطنية يرأسها بطاركتهم أنفسهم. وفي هذا الاطار أصبحت الكنيسة رمزا لشعب بلغ مرحلة النضج والأهلية لتحمل المسؤولية السياسية والدولية^(١) وأصبحت بيزنطة الضعيفة تمثل فرصة سهلة لرجال الأكليروس المحليين والنخبة العلمانية في تلك الدويلات لتأكيد استقلالهم، وإن كانت معظم تلك الادعاءات الاستقلالية على المستوى الديني أمر غير مشروع أو غير قانوني تماما. ومن السخرية أن الدولة الاسلامية العثمانية هي التي أعادت تأسيس وحدة الكنيسة الأرثوذكسية. ولكن هذه الخطوة من جانب العثمانيين لم تحو من الذاكرة الحروب الطويلة بين اليونانيين والسلافيين. كما لم تحو أيضا الدور الذي لعبته المؤسسات الأكليروسية في هذا النضال. ومع ازالة دويلات جنوب شرقي أوروبا، بقيت الكنيسة فقط لتمثل استمرار وجود الولاءات السابقة، ولكن باختلافات حادة فيما بين

(١) راجع أفضل شرح للعلاقات السياسية والأكليروسية بين بيزنطة والدويلات السلافية في Dimitri Obolensky, The Byzantine Commonwealth, Eastern Europe, 500 - 1453 (New York and Washington : Preger, 1971).

الفرق الكنسية المختلفة. على أن العثمانيين لم يفهموا أبدا ان الكنيسة كانت بالنسبة للارثودوكس أكثر من مؤسسة روحية. وعلى هذا كانوا غير قادرين على التعامل مع المشكلات الخاصة نساء هذه الملة.

لقد دمر الغزو العثماني أكبر الوحدات التي كانت تمثلها دويلات جنوب شرقى أوروبا، وبشأ مكانها عدد هائل من الوحدات المستقلة نظريا، والتي كانت صغيرة بدرجة تجعلها عاجزة، وكبيرة بدرجة تجعل لها وظيفة مفيدة. وكان ذلك بفعل البناء الاجتماعى الوظيفى بكل ما كان يمثل من تمييز وتفريق واضح فى المدن من خلال «المحلات»، وفى الريف من خلال القرية الملحقة بالتيمار فقط. وقد احتفظت معظم هذه التجمعات الجديدة بشئ قليل من مظاهر الماضى، ونقلوا الى ارثودوكسيتهم كل ما ظل قائما وحييا من تقاليد ومعتقدات وقيم ذاتية.

وقد أضافت هذه المجموعة الجديدة قيما جمعية وتقاليد ذات معنى للقيم الروحية الكنسية لغالبية الأرثودوكس. ومن هنا وقفت السلطات الاكليروسية تلك موقفا متشددا ضد هذه القيم الوافدة، دافعا عن القيم اللاهوتية الأساسية والوظائف الروحية. ومثلما جاء الفناريون للسيطرة على البطريركية، بدأت الكنيسة تتصرف ازاء هذا مثلما فعل اليونانيون تجاه السلاف، اذ لاح فى الأفق مرة أخرى موقف غامض للصراع حول الشؤون الكنسية بين اليونانيين والسلافيين الذى كان دائرا قبل الغزو العثماني. ومثلما أضطرت الأزمة الاقتصادية السكان للتحوّل عن قياداتهم العلمانية المعية واستبدالها بزعامات محلية، كذلك فعل اختلاف التفسير لمغزى الكنيسة من حيث انفصال كبار رجال الدين عن العامة فى معتقداتهم. وأصبح الحليف الرئيسى للزعيم المحلى هو أسقف الأبروشية المنتخب من جاليتة والذى يفهم قيمهم ويشاركهم فيها. لقد كانت هذه «الكنيسة الشعبية» التي ساعدت على جمع قادة مختلف الجاليات وأعدت تشكيلهم فى القرن الثامن عشر، أساسا لوحدة قومية جديدة أكبر بالمقارنة بتلك التي اختفت بوصول العثمانيين

كان تنظيم الامبراطورية العثمانية يتطابق تماما مع سمة التصور الذاتى التي اسمها الرسمى يعبر عنها بأنها: «المملكة المطلقة لآل عثمان المزدهرة محمية السماء» وكلمة «محمية السماء» تعطى بدهاء السمة الاسلامية للدولة، وليس من حق أحد أن يناقش الحق المطلق للبيت الحاكم فى منكنية وإدارة ممتلكات الدولة، وكيف أن البناء الاجتماعى بالكامل تم تصميمه لكى يجعل الامبراطورية «زاهرة مزدهرة». ومن أجل ضمان بقاء هذا الازدهار، كان لابد من تنظيم السكان تنظيمًا صارمًا، ونقلهم من مكان لآخر اذا دعت الحاجة لذلك. وفيما عدا هذا فالدولة لم يكن لها اهتمام كبير بشعوبها طالما بقيت هذه الشعوب بطبيعة هادئة لاتتمرد، وتؤدى ما عليها من واجبات ومسؤوليات. وقد نتج عن ذلك كله بناء اقتصاديا اجتماعيا غاية فى التنظيم والصرامة سرعان ما تحجر، وان كان فى الوقت نفسه لينا متسامحا، وهذا ما يثير الدهشة والاعجاب. فقد حال هذا التسامح دون استرقاق فلاحى جنوب شرقى أوروبا، وسمح للسكان فى المدن والريف باعادة تنظيم أنفسهم فى شكل حياة جماعية (كوميونة) بسيطة تحت قيادة مسؤوليهم الذين اختاروهم. ورغم ان الحياة السياسية والحياة الثقافية الى حد ما توقفت توقفا تاما لفترة طويلة منذ هبط العثمانيون الى جنوب شرقى أوروبا،

وصعوبة احداث تقدم اقتصادى بسبب القواعد الصارمة التى فرضتها الحكومة، الا أن امكانية ان تحتفظ الشعوب ببعض جوانب من حرياتها، على الأقل فى ان تنتظم فى جاليات تنظم نفسها بنفسها (كومونات)، كان يؤكد وجودهم وحيويتهم، وسهل اعادة بعثهم فيما بعد فى شكل «القومات» الحديثة.

ومن الواضح ان هذا التقييم الذى قدمناه ينطبق أكثر على سكان الأجزاء السلافية واليونانية والألبانية من «ولايات أوروبا العثمانية». ولأسباب ذكرناها فى الفصل الخامس كان العثمانيون غير قادرين على ادخال نظام الشبكة الاجتماعية الذى اصطنعوه إلى الأراضى المجرية - الكرواتية، لأن الميزوفاروشوك ومجتمعات الحدود انتجت نظاما اجتماعيا لم يكن عثمانيا، لكن فرضته ظروف خارج نطاق رقابة حكومة السلطان. وعلى هذا فان القضايا الخاصة بتلك الأراضى سوف يأتى ذكرها فى القسم الثانى من هذا الفصل.

اذا انتقلنا من «ولايات أوروبا العثمانية» الى المناطق التابعة، سوف نجد أن دوبروفنيك تحتل مقاما منفردا فى هذا الشأن، اذ كانت نماذج التنمية المحلية فيها غريبة الطابع وايطالية بصفة أساسية، دون تأثير عثماني. ومع هذا فلا ينبغى ان ننسى أن دوبروفنيك كانت مدينة فى ثرائها وفى درجة كبيرة من أمنها، الى ارتباطاتها بالامبراطورية العثمانية. ومن هنا أدرك أعداء دوبروفنيك أن أى هجوم من جانبهم على تلك الجمهورية سوف يورطهم بسهولة فى حرب مع الامبراطورية العثمانية، ومن ثم أخدمت هذه المعرفة رغبة أعداء دوبروفنيك فى الاستحواذ على هذه القطعة العقارية المزدهرة. وهكذا كانت دوبروفنيك الاقليم الوحيد الذى لم يعانى من «الميادة» العثمانية، بل لقد استفاد منها.

وعلى حين كان استقلال دوبروفنيك محميا باتصالها مع العثمانيين، كانت امارة ترانسلفانيا مدينة باستقلالها الى العداة القائم بين العثمانيين والهابسبورج. والحقيقة ان «الحماية» العثمانية لتلك الامارة لم تكن تامة كما هو الحال بالنسبة لدوبروفنيك، ومن ثم فكثيرا ما عانت ترانسلفانيا من غزو جيوش الهابسبورج لأراضيها. وكان تدفق الجيش العثماني على اراضى الامارة نتيجة لسياسات بعض أمرائها الذين كانوا متهورين، ولم يكونوا مستنيرين أبدا ومتفهمين مثلما كان شيوخ دوبروفنيك. ورغم أن امارة ترانسلفانيا ظلت غريبة التوجه ومشاكلها الاجتماعية تنبثق من «السبع خطايا القاتلة» الخاصة بها أكثر من انبثاقها من ادخال النظام العثماني، الا ان اتصالها مع العثمانيين أدخل الى أراضيها بعض التغييرات ذات المغزى ايضا. وأعظم هذه التغييرات أهمية اعادة توجه التجارة الى الشرق، وخاصة تجاه امارتى الدانوب، والتي أدت الى ايجاد روابط أبدية بين هذه المناطق الثلاث. وقد أدت سنوات الاستقلال التى هى من فعل العثمانيين الى زيادة الاختلافات والفروق بين ترانسلفانيا وبقية المجر اجتماعيا وسياسيا، وهو تطور لم يكن من الممكن حدوثه تحت ظروف أخرى. وفى حالة ترانسلفانيا كان التأثير العثماني غير مباشر ولكن له مغزى عظيم ونتائج دائمة.

ومن الصعوبة بمكان تقدير العلاقة بين امارتى الدانوب والعثمانيين خلال الفترة السابقة على عصر الفناريين، اذ كانت علاقة التبعية تحول دون ادخال النظام الاقتصادى الاجتماعى العثمانى فى كل من مولدافيا وولاشيا. على أنهما لم تشبيا من الاسهام بنصيبهما فى تحسين مظهر الدولة العثمانية، اذ كان مبلغ الضرائب المحصلة من تلك الأراضى الرومانية، وكذلك حجم الرشاوى التى كانت تدفع، وحجم البضائع التى كانت تشحن بالمراكب الى مقر الامبراطورية، أمر لا يستهان به. ويمكن القول كذلك انه كان بإمكان الحكم العثمانى المباشر لهاتين الامارتين أن يفرض أعباء اقتصادية أكبر من التى تم فرضها فى اطار التبعية. وعلى حين احتفظت مولدافيا وولاشيا بطبقاتها الاجتماعية القيادية والحرية فى اختيار امرائها، الا أنه كان عليها الدفاع عن أراضيهما ضد المحجرين والبولنديين دون مساعدة عثمانية. وفى مقابل هذا العبء العسكرى كان بإمكانها الاحتفاظ باتصالات اقتصادية وثقافية مع العالم المسيحى، حيث توصلنا الى انتاج شئ مماثل لرئيسانس رومانى ثقافى وخاصة فى القرن السابع عشر. ومع هذا ففى القرن نفسه أصبحت الحياة السياسية نوعا من الفوضى، وتم استرقاق الفلاحين، وعاشوا فى أسوأ ظروف من التى عاش فيها فلاحى «ولايات أوروبا العثمانية»، وأصبحت المدن أكثر اعتمادا على النبلاء أكثر من أى مكان آخر فى أوروبا.

وفى تقديرى فان مولدافيا وولاشيا (امارتا الدانوب) دفعنا ثمنا اقتصاديا واجتماعيا باهظا من أجل حكم ذاتى سياسى وثقافى شبه مستقل. ومن هنا يثور السؤال الذى لم يجب عليه وهو: الى أى حد كان الاتصال بالعثمانيين مسئولا عن التطور الرخيم غير الضحى الذى تفشى كالوباء فى رومانيا حتى بعد أن استعادت وحدتها واستقلالها .. ابتداء من أصحاب القاب الامارة (الأمراء) على قمة الهرم الاجتماعى الى الفلاحين الأرقاء فى سفح الهرم؟؟. وهل كان من الممكن حدوث هذه التطورات حتى بدون السيادة العثمانية وبالدرجة ذاتها؟! يبدو من الخطأ لوم العثمانيين كثيرا بالقول أن جشع العثمانيين وفسادهم شجع المتطلعين الى تولي المناصب والوظائف، واضطربهم - كما هو حال النبلاء- الى معاملة الفلاحين بقسوة متناهية، ذلك ان الاتجاهات المرضية فى الامارتين قد بدأت «قبل» عصر الفساد الادارى العثمانى. ولاشك انه بمجرد ظهور أى مظهر من مظاهر الفساد فى استانبول، كانت التطورات الأئمة والرديئة فى مولدافيا وولاشيا تتدعم ويشند أزرها

وأيا ما كانت الاجابات على هذه الاسئلة فالملاحظ أن بلاد رومانيا البائسة كانت رومانية عندما اعتلى أول الأمراء الفناريين العرش فى مولدافيا وولاشيا. لقد كان عصر الفناريين هو الذى أدخل الممارسات العثمانية الاستانبولية فى حياة الرومانيين (أنظر القسم الرابع من الفصل السادس). وكانت العاقبة وخيمة على الحياة السياسة للامارتين، وعلى الشخصية الرومانية العليا مثلما فعلت التطورات السابقة بالنسبة لاقتصاد هذه البلاد ولحياة الطبقات الدنيا. وليس هناك من شك فى ان السلطة التى منحت للهوسبوداريين الفناريين على مولدافيا وولاشيا كانت من فعل الحكومة العثمانية. وعلى هذا فانه يمكن تحميل هذه الحكومة نتائج انتقال هذه السلطة. ومع هذا فينبغى ان نتذكر أن

النظام الذى ادخل فى بلاد الدانوب لم يكن هو النظام العثمانى الذى شرحناه فى هذا الفصل، لكنه كان نظاما خاصا لم يكن يتلائم مع هذه البلاد، ولم يبق ويستمر الا بوجود حكومة غير كفؤة وجامدة تماما لا تستطيع ادارة شؤونها دون مساعدة عنصر سياسى مؤثر والذى برهن وجوده على أن نظام الحكم العثمانى اجتماعيا وسياسيا توقف عن القيام باداء واجباته. لقد كان قرار نقل الفناريين الى الامارتين اجراء دفاعى بحث ويبين حالة الضعف التى وصلت اليها قوة الدولة التى كانت تعتبر اقوى قوة عسكرية فى أوروبا. وعلى هذا وبادخال الهوسبوداريين فى مولدافيا وولاشيا كان العثمانيون يأملون مواجهة النفوذ الروسى المتزايد فى تلك البلاد. ومن السخرية مقارنة تلك التطورات التى وقعت فى امارتى الدانوب عندما كانت الامبراطورية العثمانية قوية بتلك التغييرات المشابهة التى وقعت هناك عندما اصبحت حكومة استانبول ضعيفة وليس لها قوة عملية.

والحق أنه لا يمكن لوم العثمانيين صراحة على التيارات المرضية فى مولدافيا وولاشيا قبل القرن الثامن عشر، لكنهم كانوا مسئولين مسئولية كاملة عن تلك التى ظهرت بعد العقد الأول من القرن الثامن عشر رغم أنها كانت من فعل تصرفات المسئولين المسيحيين وليس الأتراك.

٢ - الشركة العثمانية

غالبا ما يستخدم مصطلح «التخلف» لوصف نتيجة الحكم العثمانى فى جنوب شرقى أوروبا. ولقد وجه اللوم للعثمانيين لأنهم قطعوا الولايات الأوربية عن التيارات الثقافية العظمى فى بقية القارة الأوربية منذ عصر الرينيسانس وانتهاء بعصر التنوير. كما أنهم العثمانيون باعاقبة التغييرات التعليمية والاقتصادية، وعرقلة التقدم فى هذه المجالات. كما أدبنوا لحرمانهم محكومهم من وسائل التعبير الذاتى والحكم الذاتى. ورغم أنه فى كل واحدة من هذه الاتهامات بعض الصدق، الا انها بحاجة الى براهين قوية خاصة اذا ما سألنا أنفسنا الأسئلة التالية: كيف كانت أهمية آثار الاصلاح فى البلاد الارثوذكسية غير العثمانية؟ وما الذى كان عليه مستوى التعليم ومعدل الأمية بين جماهير الفلاحين فى أى مكان فى أوروبا عشية القرن التاسع عشر؟ وما هى حقوق التعبير الذاتى التى تمتع بها أتنان القارة الأوربية؟ وإلى أى حد كان عامة الناس يشاركون فى الحكم قبل الثورة الفرنسية؟.

ان الاجابة على هذه الاسئلة تبين ان معظم البلاد غير العثمانية كانت أقل سوء من البلاد التى حكمتها استانبول، وأن معيار تقييم «التخلف» العثمانى أمر مبالغ فيه عندما نسجبه على آخر القرن الثامن عشر. واذا ما أخذنا فى الاعتبار التطورات الأخيرة نحو الاختلافات والفروق، تصبح رائعة حقا. فمثلا كان أهالى البلقان متأخرين خلف «أوروبا المتحضرة» ثقافيا واقتصاديا وحتى سياسيا، وبدوا أكثر «تخلفا» فى عام ١٨٨٠ عما كانوا عليه فى ١٧٨٠. وفى هذا المقام فان القرن التاسع عشر هو الذى اصبح «القرن الحرج» بالنسبة لمستقبل شعوب جنوب شرقى أوروبا، سواء أكانت

الحكومات القومية فى الحكم أو العثمانيون. على أن بعض العوامل التى حالت دون تحقيق تطورات مرضية كانت بالفعل نتائج للسيادة العثمانية السابقة.

وفى تقديرى ان أهم تغير أحدثه الحكم العثماني فى جنوب شرقى أوروبا هو التغير الديموجرافى فى المنطقة على نطاق واسع، والذى مازالت نتائج تحكم علاقة شعوب المنطقة بعضها ببعض. ففى خلال فترة الحكم العثماني استقر الصربون باعداد كبيرة شمال وطنهم التقليدى فى المنطقة المعروفة الآن ببنات Banat، وفويغودينا، وحتى فى شمال الصرب فى مناطق معينة من سلوفينيا، وبشكا Bacska وانتقل الرومانيون باعداد ماثلة للصربيين الى بنات ومناطق قريصانا Crisana. وتوسع الألبانيون فى ضواحي كوسوفو- متوهييا Metohija (يوغلاسلافيا قبل التفكيك)، وفى ايبيروس Epirus، وحتى فى مقدونيا. ورغم عدم تغير نموذج المسكن اليوناني تغيرا يذكر، إلا أن اليونانيين استقروا فى مدن كانوا فيما مضى يعتبرون قطاعا صغيرا من سكانها، أو لم يكن لهم وجود فيها. وحيثما حدث تداخل بين نماذج الهجرات المختلفة، نراهم قد أوجدوا مشكلات «حديثة» مثل القضية المشهورة لمقدونيا. كما اضافت المستوطنات التى فرضها العثمانيون والهاسبورج بعد عام ١٦٩٩ فى المناطق التى تم الاستيلاء عليها كنتيجة لصلح كارلرفيتش، أضافت كثيرا الى التغيرات الديموجرافية التى حدثت بفعل انتقال الناس من مكان لآخر، وهى هجرات كانت نتائج الاجراءات العثمانية وعلى هذا يجب اعتبارها جزءا من التركة العثمانية.

ورغم أن الأراضى الرئيسية لكل شعب من شعوب بقيت كما كانت، إلا ان المساحات التى عاش فيها كل فرد من أفراد كل شعب من الشعوب كانت أكبر من التى كانوا يعيشون فيها قبل وصول العثمانيين. على أن المناطق التى انتقلت اليها شعوب مختلفة كانت تسكنها شعوب أخرى على مر التاريخ، ومن هنا وبمجرد أن استعادت هذه الشعوب استقلالها كان من الطبيعى ان تطالب بهذه الأراضى التى أقام فيها الآخرون. وكان الاستناد الى الحق التاريخى فى عصر حكمته القومية مسألة بسيطة تقوم على أساس أن كل قومية تطالب بالأقاليم التى كانت تسكنها أو تحكمها قبل السيادة العثمانية. وكثيرا ما وصمت الحجة التاريخية بأنها غير واقعية وخالية وقديمة على لسان شعوب أخرى أقاموا ادعاءهم المضاد على أساس نظرية «حديثة» فى تقرير المصير للقوميات تقول «بارادة» اولئك الذين يسكنون اقليما معنا فى وحدة واحدة مهما كان بينهم من اختلافات. وعلى هذا فان المشكلة تكمن فى أن الادعاءات غير الواقعية التاريخية المفترضة بشأن أي مكان، لم تأخذ فى الحسبان الحقائق والوقائع الديموجرافية. فان الهجرات الداخلية خلال العصر العثماني لم تنتج مناطق إثنية متجانسة، بل انتجت فسيفساء من نماذج سكانية متداخلة فى ضفيرة يائسة، تتطابق مع التنظيمات الكوميونية الصغيرة التى انتجتها نظام الشبكة الاجتماعية العثمانية. وحتى اذا كان النموذج الشامل قد انتج التغيرات الرئيسية التى سبقت الاشارة اليها، فان تلك الوحدات الصغيرة وليس الجماهير الكبيرة هى التى تحركت وانتقلت فى اى وقت من الأوقات. وهكذا كان التنظيم الاجتماعى الذى أقامة العثمانيون، ونماذج الهجرات الداخلية الى احدثوها سياساتهم كانت جميعها مسؤولة عن ظهور أكبر مشكل دولية حديثة لجنوب شرقى أوروبا، ألا وهى وجود مساحات

كثيرة تسكنها شعوب مختلطة إثنيا.

أما النتائج الاقتصادية للحكم العثماني فهي أقل وضوحا، ففي القطاع الزراعي كانت مشكلة السهوب المجرية التي عرضنا لها في الفصلين الرابع والخامس، أكثر أهمية نظرا للمساحة الكبيرة التي كانت تشتمل عليها. وليس هناك شك في أن هذه المنطقة الكبيرة أصبحت صحراء في القرن السادس عشر، وتلفت تربتها لدرجة لم تعد خصبة في الوقت الحاضر كما كانت في الماضي، وتقع مسئولية هذا التطور على الحملات العثمانية التي بدأت منذ ١٥٢٦ من ناحية، وعجزهم عن الاعتراف بهذه الأراضي بمجرد أن أصبحت «إيالة» عثمانية. ذلك ان الفترة الطويلة من الحروب المتصلة بين عامي ١٥٢٦ (معركة موهاكز Mohacs) وعام ١٦٠٦ (صلح شيتفاتوروك Zsitvatorok) كانت لها آثارها التدميرية على السهوب المجرية لا يمكن الجدل بشأنها. ومن المؤكد ان اكراه السكان على ترك الأراضي التي كانت مسرحا للجيش العثماني لم تكن سياسة عثمانية، اذ تمت الهجرة مع بداية مشاحنات وصلت ابعادها الى وسط المجر. ولا يمكن ان يلام العثمانيين على هذا، اذ لا بد وأنهم كانوا يفضلون أن يحكموا بلادا مأهولة بعدد من السكان يناسب تكوين التيمارات. على أن لوم عملية تفرغ السهوب من السكان يجب أن تقع على نبلاء المجر الذين لم يفروا وحدهم أمام العثمانيين بل أغروا فلاحهم على الفرار مثلهم. وبمعنى آخر أصبحت تلك الأراضي في ١٥٢٦ أراضى هامشية حدية لا يقبل على زراعتها أحد، بل أن أراضي وسط المجر التي لم تتعرض لحالة حرب دائمة لم يقبل الناس على زراعتها خشية تعرضهم للمعزك، ومن ثم أكرهوا على الانتقال الى مناطق أكثر خصوبة. ولأن الصراع كان حادا بين النبلاء والفلاحين في السنوات التي سبقت ١٥٢٦ مباشرة، فان حدية الانتاج تمثل التفسير الصحيح للتغيرات الأساسية التي وقعت في وسط المجر في السنوات التي تلت هذا التاريخ (١٥٢٦).

فاذا كان ذلك التفسير مقبولا، يصبح من الواضح ان النكبة التي أصابت الأقليم الواقع بين نهري الدانوب والتيسا Tisza كان يمكن ان تقع حتى ولو لم يحدث الغزو العثماني لسهوب المجر. ولم يكن بوسع النبلاء، ولا الفلاحين، ايقاف التدهور المستمر للتربة التي كانت قد وصلت الى مرحلة حرجة في مطلع القرن السادس عشر. أما ما الذي كان يمكن ان يتم اذا ماحدث هذا الاجهاد الأخير للتربة والبلاد تحت حكم السادة غير العثمانيين، فامر يخضع للتخمين. ولكن الذي حدث تحت الحكم العثماني هو نمو مجموعة الميزوفاروشوك Mezovarosok، والتي مازالت أكبر المدن في هذه السهوب، وادخال تربية الحيوانات في المراعي كنشاط اقتصادي رئيس للأقليم. وهي حرفة بقيت أساس اقتصاديات سهوب المجر في القرن التاسع عشر.

ويبدو ان حرفة الزراعة في باقي «ولايات أوروبا العثمانية» لم تتغير تغيرا اساسيا بمجرد توقف الحروب واستئناف نمط الانتاج المعتاد، اذ اختفى لوردات الأرض القدامى، وتغير أسلوب فرض الضرائب، لكن الفلاح استمر يعمل كما كان من قبل. ولا بد أنه كان يعمل بشكل جيد ويتضح هذا من حجم الضرائب التي كان قادر على دفعها، وكمية الانتاج الذي كان مطلوبا للورد الاقطاعي، وللسوق ولتاجر التجزئة. كما كان قادر على تعلم الوسائل التقنية اللازمة لزراعة محاصيل

جديدة ثم انتاجها في وقت تحول الجفلك الى نظام السوق.

كما لا يمكن البرهنة أيضا على أن الحكم العثماني أدى الى التخلف التكنولوجي في قطاع الاقتصاد الزراعي. فرغم أن الأدوات الزراعية المستخدمة كانت بدائية، إلا أنها كانت الأدوات نفسها التي كان يستخدمها المزارعون في كل أنحاء أوروبا. ففي عشية الثورة الفرنسية كان المحراث الخشبي مثلا ما يزال مستخدما في كل احواء القارة الأوروبية، ولم تمسه يد الثورة الزراعية التي كانت قد بدأت في إنجلترا. على أن الاحصائيات ليست متوفرة للبرهنة على هذه الحجة، لكن تقارير الرحالة والبيانات العامة الخاصة بالقرن الثامن عشر تشير الى أن الأراضي الزراعية العثمانية كانت أسوأ من نظيرها في بلاد غرب أوروبا، فيما عدا توفر حيوانات الجر. ومرة أخرى نؤكد على أن تخلف جنوب شرقي أوروبا في الزراعة بالقياس الى بقية أجزاء أوروبا حدث خلال القرن التاسع عشر.

والحق أن الذين حكموا المنطقة بعد العثمانيين كان لا حول لهم ولا قوة في مجالات النقل وخاصة الملاحة ومجالات التصنيع، فحتى أواخر القرن السابع عشر كانت البحرية التجارية العثمانية بقيادة اليونانيين في الغالب ما تزال تقوم بدورها، لكنها ما لبثت أن تدهورت بسرعة بسبب الاعتبارات نفسها التي أشرنا إليها فيما يتعلق بالصناعة والتجارة، ألا وهي قدرة القوى المختلفة على فرض ارادتها على العثمانيين في الأمور الاقتصادية. وقد أسهم تدهور البحرية التجارية في تدهور عملية صناعة السفن. وعلى هذا فالصناعة لم تكن تعاني فقط من المنافسة الأجنبية بل أيضا من عجز العثمانيين وعدم رغبتهم في تغيير أسلوبهم في الانتاج. وما أن جاء القرن السابع عشر الا وكان نظام طوائف الحرف قد أصبح في حالة يرثى لها، ولم يعد ملائما، ولم يحدث أن تحول الى اسلوب انتاج صناعي حديث يقوم على الآلة. ورغم ظهور مصنع من آن لآخر^(١)، الا ان العصر العثماني يعد مسؤولا عن توريث صناعة غير ملائمة بالمرّة وتنتمي الى العصور الوسطى الى اقتصاديات الدول التي خلفت الامبراطورية العثمانية. وفي هذا المقام يمكن القول أن تركة الحكم العثماني أوجدت المصاعب الخطيرة لشعب جنوب شرقي أوروبا.

أما بالنسبة للمصاعب السياسية والخاصة بكيفية أن يقوم الشعب بحكم نفسه بنفسه بعد فترة طويلة ظل فيها مبعدا عن عمليات اتخاذ القرار، وعن الاعمال الادارية، فان النتائج التي خلصت لها هذه الدراسة تختلف عما سبق من دراسات الى حد ما. فالحقيقة ان «القومية السياسية» للشعوب التي وقعت تحت الحكم العثماني لم يعد لها وجود من الناحية الواقعية، وان بقيت الأوليغاركية الراجوزية (نسبة الى مدينة راجوزا - دوبروفنيك)، وطبقة اقطاعي رومانيا. غير أن عدد الأقوياء منهم في كل من اليونان والبانيا والبوسنة وفي أي مكان آخر، لم يكن يكفي لأن يحلوا محل «القيادة» السابقة على الغزو العثماني، برغم أنه في اقاليم معينة وخاصة البانيا والبوسنة لعبت هذه الطبقة دورا له مغزى. ومن ناحية أخرى لم يكن ينقص شعوب قوميات القرن التاسع عشر لتكون دول جهاز اداري للقيام بمسؤوليات الحكومات الجديدة على ما يظن البعض. ومن الغريب أن روسيا وهي قوة

كبرى آنذاك لم تدرك هذه الحقيقة البسيطة بدليل أنه عندما أقام البلغاريون دولتهم وكانوا آخر شعب يقيم دولته، أرادت شغل وظائف الدولة الجديدة بالروس، اعتقاداً منها بعدم وجود عناصر بلغارية مؤهلة لذلك، وسرعان ما أدركت روسيا خطأ افتراضاتها.

وهذا يعنى أن هؤلاء الذين عاشوا قرونا طويلة تحت الحكم العثماني كان بإمكانهم إدارة شؤون أنفسهم بأنفسهم، إذا ما اتبحت الفرصة لهم. ذلك أن نظام الشبكة الاجتماعية العثماني لم يقسم السكان الى عدة مربعات جديدة فقط، لكنه ترك كل وحدة مهنية - مليّة حرة في إدارة شؤونها الداخلية، حيث قام نفر معين بمهمة التكلم نيابة عن جماعتهم، والتفاوض مع القوى الخارجية، فاكسبوا بذلك الخبرة الادارية والتنفيذية اللازمة، فضلا عن بعض المعارف الأساسية للتنظيمات الحكومية والأداء الوظيفي التي تتصل بشؤون حياة تلك الجاليات. على أن هؤلاء الموظفين المسؤولين عن الادارات في تلك الجاليات (الكوميونات) ومن بينهم رجال دين محليون في حالات كثيرة لم يقوموا باصدار القرارات السياسية، لكنهم اكتسبوا دراية جيدة بالممارسات السياسية في كل ادارة حكومية. فقد تعلموا الكثير عن الادارة المحلية والشؤون المالية الأساسية، ومشكلات طوائف الحرف والملل، وأصبح لهم دور في القيادة وفي اتخاذ القرار وتولى المسؤولية.

لقد كانت عناصر هذه الجاليات الاجتماعية هي التي تولت القيادة السياسية بدرجة ما قبيل أو بعيد قيام مختلف دول جنوب شرقي أوروبا المستقلة. وكانت هذه القيادة الجديدة بالمقارنة مع «القوميّات السياسية» التقليدية التي تلاشت، أو النبالة الرومانية التي أزيحت، أكثر عدداً، وتختلف فيما بينها اختلاف كبير في التكوين والمصالح، فضلا عن انها كانت بسيطة ولم تكن متعلمة تعليماً جيداً. ومع هذا فقد كان بإمكانها ان تكون قيادة شعبية حقيقية نظراً لما تتميز به ببعض المميزات، وفي مقدمتها قدرة دبلوماسي القوى العظمى على استغنائهم، وهو أمر كان أسهل من التعامل مع الاقطاعي الروماني أو التاجر اليوناني الذي يتميز كل منهما بالغش والتدليس. ولما كان للتراث العثماني محاسنه وعيوبه فإنه لا يمكن التوصل إلى تقويم نهائي لاكتشاف اهميته في الادارة الحكومية السياسية دون الاشارة الى المجازات هذا العنصر القيادي وادائه.

وخلال القرون الماضية والحاضرة وعندما كان الناس من مختلف المهن والبيئات يتكلمون بحدّة عن «أوضاع البلقان» وعن «البلقنة» فانهم لم يكونوا يشيرون كثيراً الى الاوضاع الاقتصادية في جنوب شرقي أوروبا بقدر ما كانوا يشيرون الى الطريقة التي تؤدي بها تلك القيادات واجباتها ومسئولياتها. وفي هذا الخصوص هناك فرق بين رومانيا المحكومة بقيادتها التقليدية من الطبقة العليا، وبين الدوليات الأخرى التي انبثقت قياداتها السياسية والادارية من مجموعة القيادة التي أوجدها العثمانيون. ولم يكن نقص التدريب السياسي والاداري كما كان يفترض غالباً هو الذي اضطر قيادات دول البلقان على التصرف بأسلوب أكسبهم ازدياء بقية أوروبا، لكنه التراث العثماني وما تعلموه الذي انعكس في افعالهم. ولعل هذا الملمح من الماضي العثماني هو الأكثر تدميراً من كل التركات الموروثة لشعوب جنوب شرقي أوروبا من سادتهم السابقين.

ومن دواعي السخرية ان الامبراطورية العثمانية وهى دولة نظمت تنظيمًا صارمًا وجادًا لدرجة لا يمكن تخيلها، ترك الشعوب التى حكمتها فى فوضى. ومن الأسف أن خلفاء الموظفين العثمانيين وهم مجموعة من العناصر الجادة غير الأساسية من أهالى المنطقة من أصبحوا سياسيين واداريين بعد الاستقلال، عرفوا بين الناس بالكسل والأنانية والرشوة. ومن المؤلم أيضا أن الدولة التى كان فيها القانون مهما الى الدرجة التى تطور بها نظام الملة تنظيمًا قانونيًا دقيقًا، حل محله قانون لحكام آخرين، ليس له قيمة واقعية فى التطبيق والالزام، ولا يحترم الا فى الخطب والخطبات. وهذه الأمور وغيرها هى ملامح الحياة العامة التى يجب أن نضعها فى الاعتبار عندما نتحدث عن «أوضاع البلقان».

وليس هناك من شك فى أن جنوب شرقى أوروبا أصبح «مبلقنا» تحت الحكم العثماني. وقد بدأت عملية البلقنة مبكرًا خلال الفترة التى كانت فيه الادارة العثمانية مثالية ونموذجًا يحتذى. وعلى حين كان أفراد كل ملة يعيشون جنبًا الى جنب، وليسوا تابعين أو ملحقين بالسكان المسلمين، وعلى حين كانت المعاملة الرقيقة نسبيًا لمختلف مجموعات الطوائف معاملة مثالية بالنسبة للفترة الزمنية، الا انه كان هناك دون شك فروق واضحة بين المسلم والذمن من ناحية، وهيئة الموظفين العثمانيين والرعايا من ناحية أخرى. ولما كانت شعوب جنوب شرقى أوروبا من الذمة ومن الرعايا، فانها كانت تعاني من مساوئ كثيرة، وان كانت قليلة نسبيًا، الا انها كانت كافية فى مظاهرها لتشجيع الشعب على التحايل عليه، ومن ثم أصبح النفاق والمراوغة والكذب الأبيض جزء من الحياة اليومية.

كما أصبح ضروريا التصرف بمراوغة، ان لم يكن بخيانة، عندما تحولت الدولة العثمانية المنظمة أحسن تنظيم الى حالة فوضوية فاسدة كما سبقت الإشارة فى القسم الرابع من هذا الكتاب، حتى لقد كان الأكثر فسادًا وأنانية وخروجًا على القانون، هو الذى حقق فى حياته الكثير. وكان يمثل فى الوقت نفسه نمط «السياسى» الذى حل محل الموظفين العثمانيين. ومن سوء الحظ أن «النظام» الذى كان من فعل الموظفين خربى الذمة فى العصر العثماني المتأخر، وليس النظام الدقيق الذى كان سمة العصر العثماني فى بداياته، هو الذى أصبح التراث السياسى - الادارى للنظام البشع الذى عرف تحت عنوان «أوضاع بلقانية».

ولم تكن هذه الأوضاع تعنى استمرار الحكم السع بواسطة «الباشوات المسيحيين»، لكنها جعلت جنوب شرقى أوروبا بلدانا متخلفة فعلا بالمقارنة مع باقى أنحاء أوروبا فى القرن التاسع عشر، كانت بلدان الغرب الأوروبى وحتى بلدان المجر التابعة للهابسبورج وروسيا قد مرت بتغييرات سريعة وأحرزت تقدما فى التصنيع وفى المدنية والابتكار الزراعى. كما مرت بتغييرات أساسية فى المؤسسة التعليمية. وكانت البلاد التى خضعت للعثمانيين سابقا «البلقان» هى فقط التى استمرت تعيش فوق كل الاعتبارات الأخرى. ولأن قيم هذه النخبة ومنهجها فى الحكم كانت استمرار لما كان يتسامح العثمانيون بشأنه فى أواخر حكمهم فى شرقى أوروبا، فلا بد من أن تعتبر تراث الحكم العثماني أعظم مشكلة واجهت شعوب أصبحت مرة أخرى سادة مصيرها.

مقالة فى بليوجرافية البحث

١ - مقدمة

حتى وقت قريب ألى حد ما اعتاد المؤرخون من أبناء شعوب جنوب شرقى أوروبا الذين عاشوا تحت الحكم العثماني لفترة طويلة أو قصيرة أن ينظروا الى فترة السيادة الأجنبية نظرة سلبية وعدائية الى حد ما. وقد أشار هؤلاء المؤرخون بوضوح الى ان شعوبهم تحت الحكم العثماني قد عزلت عن بقية أوروبا، وعن التطورات المهمة التى وقعت هناك، كما حيل بينهم وبين التعبير عن أنفسهم وعن تنمية مظاهر حضارتهم ومؤسستهم الخاصة. وعندما يتناول هؤلاء المؤرخون فترات ازدهار الحكم العثماني وكفاءته، نراهم يركزون على صرامة وشدة فرض القواعد والتعليمات التى كانت فى صالح الغزاة والتي كانت من شأنها استغلال الأهالى. أما عندما يتناولون الفترة الأخيرة من الحكم العثماني نراهم يركزون على تجاوز الولاة للقانون وتحكمهم فى الأمور وقسوتهم على الناس. ومثل هذا التناول يمكن فهمه من جانب مؤرخين من أمم تحررت حديثا، ومن دول جديدة نشأت خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حيث يكون هؤلاء المؤرخون تحت تأثير الحرية المكتسبة حديثا، وتحت تأثير روح القومية العارمة التى شملت أوروبا القرن التاسع عشر، وكانوا يبحثون عن سيكولوجية معينة لتعليل فترة الاحباط القومى الطويلة، وكيفية الابتعاد عن التطورات السيئة التى صاحبت الدول القومية المستقلة حديثا، والتي تعزى أسبابها عادة الى الميراث العثماني الأليم.

ومن الملاحظ أن عملية التأريخ فى هذه البلاد خلال الفترة بين الحربين العالميتين انصفت بالطابع القومى، ومن زاوية ضيقة جدا، اذ انها تركز على مجمل التاريخ السياسى على حساب التحليل الاجتماعى - الاقتصادى - الديموجرافى، فضلا عن تخطى المؤرخ السياسى للعصر العثماني برمه باعتبار أن أهالى المنطقة لم يكونوا يمارسون العمل السياسى، وكان «شيئا لم يحدث». وأما أن يتم تقييم الفترة العثمانية سلبيا على أساس أن الناس لم يكن لهم تجرية فى الحكم تؤهلهم للمشاركة فى المجتمع المتحرر.

على أن الموقف قد تغير منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وخاصة منذ أواسط الخمسينات، اذ بدأ المؤرخون فى جنوب شرقى أوروبا يستخدمون أرشيفهم بما يحوى على مصادر وثائق بشكل أكثر تكثيفا عما كانت عليه الأحوال فى الفترات المبكرة. كما قللوا من التركيز على التاريخ السياسى. وقد نتج عن ذلك ظهور أعمال أكثر علمية وموضوعية ألفت ضوءا جديدا على الفترة العثمانية. ولا يعنى هذا التخلى عن التقييم السلبى للفترة العثمانية، ذلك ان هذه الدراسات الجديدة تعتبر

العثمانيين مصدر الكارثة الحقيقية لشعوب شرقي أوروبا استنادا الى الوثائق والسجلات والوقائع الحقيقية، لا الى التخمين والبحث عن نيات غير انسانية لتفسير السلوك التخريبى لقبائل آسيوية بربرية.

والحقيقة أنه عندما انتهى العثمانيون من مرحلة تسجيل تاريخهم تسجيلا حوليا، وبدأوا فى مرحلة دراسة التاريخ وكتابة نجد أنهم كتبوا تاريخهم شأن كل مؤرخى الامبراطوريات، ومن وجهة نظر مركزية أساسا. فالحوادث التى وقعت فى العاصمة أو فى أى مكان آخر تم تقييمها من وجهة نظر السلطات المركزية. ومن ناحية أخرى كان المؤرخون الأتراك الأوائل بعد تأسيس الجمهورية التركية، أكثر قومية وأكثر اهتماما بالزاوية السياسية فى تناولهم للتاريخ، بالقياس الى مؤرخى جنوب شرقي أوروبا. والحقيقة أن تحول الامبراطورية العثمانية - التى لم تكن أبدا دولة قومية - إلى قومية تركية، واختفاء الامبراطورية نفسها، والتحول الجذرى من دولة اسلامية الى دولة علمانية، أدى الى صدمة نفسية تطلب التغلب عليها بالتبرير الذاتى والشرح والتفسير وقوع بعض التجاوزات فى الكتابة التاريخية التركية الأولى. وعند نهاية فترة ما بين الحربين، أصبح من الممكن رؤية التغيرات وادراك حقيقتها، وبالتالي قام باحثون أتراك باعداد دراسات جيدة منذ ١٩٤٥.

وبعض الدراسات الغربية فى هذا الموضوع التى أجريت فى فترة مبكرة، دراسات عظيمة فعلا وماتزال مفيدة. لكن جاءت فترة أخرى. لم يكن باستطاعة من كتب فى هذا الموضوع الاطلاع على المصادر العثمانية، أو كان غير قادر على استخدامها بسبب عائق اللغة. ومن ثم اعتمد هذا النفر من المؤرخين على المادة المتاحة فى أرشيفات دول غرب أوروبا المكتوبة باللغات التى يعرفونها، حيث استطاعوا تقديم دراسات متماسكة ولكنها محدودة. وفى دول غرب أوروبا بدأ باحثون مؤهلون تماما فى الكتابة عن هذه المنطقة عند نهاية ما بين الحربين، حيث بدأ عددهم فى الازدياد منذ ذلك الوقت.

وكانت أعمالهم اما بحوث وترجمات ذاتية أو بحوث ذات طابع سياسى وادارى، وتكتب من وجهة نظر عاصمة الامبراطورية. ولم يحدث أن كتب تاريخ عام للامبراطورية العثمانية من وجهة نظر الأقاليم التابعة لها. ورغم أن هذا الكتاب ليس تاريخا تفصيليا لجنوب شرق أوروبا تحت الحكم العثمانى، وأنه ببساطة عرض عام للحياة فى هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية، الا أنه يحمل تقييما عاما للملامح الرئيسية للسيادة العثمانية ونتائجها، اعتمادا على المادة العلمية التى عثرنا عليها.

٢ - مصادر أساسية

أن المجموعات الرئيسية للوثائق الخاصة بالحكم العثمانى فى جنوب شرقي أوروبا موجودة بدور الأرشيف العامة أو أرشيف البلديات فى كل اقليم من أقاليم الدولة. وباستثناء أرشيف البانيا واليونان

فقد بحثت في الأرشيفات الرئيسية بكل بلد من البلاد، كما ذهبت إلى أرشيفات تركيا قبل أن تبدأ العمل في هذا الكتاب، ورغم أنه لا توجد إشارات في الهوامش إلى المادة الأرشيفية، إلا أن دراسة هذه الوثائق هي التي كونت وجهات نظري، وكانت أساسا للتقييم العام للحكم العثماني وآثاره على شعوب المنطقة موضع دراسة هذا الكتاب.

على أن أعظم دور الأرشيف أهمية داران وهما: أرشيف باشفيكالت، وأرشيف «توب قابي سراي» في استانبول. ولما كان جزءا مهما من ملايين الوثائق ما يزال غير مفهرس فهرسة ملائمة، فقد جعل البحث أمرا صعبا لسوء الحظ. على أن هناك عملاق يقدمان معلومات طيبة لا بأس بها عن محتويات ومضمون هذين الأرشيفين وهما: كتاب مدحت سرتوغلو وعنوانه «محتويات أرشيف باشفيكالت» (أنقرة ١٩٥٥)، والعمل الثاني هو الكتالوج الذي أعده تخمسين أوظ بعنوان «أرشيف قبالافوظو» في مجلدين (استانبول ١٩٣٨ - ١٩٤٠) وهو خاص بأرشيف توب قابي سرايا.

ويلى ذلك في الأهمية الوثائق المكتوبة بالتركية في بلغاريا، ويقدر الباحث الروماني ميهال جوب أوغلو، أن هناك «حوالي مليون وثيقة عثمانية- تركية مع ملايين النصوص والمخطوطات الشرقية» في بلغاريا^(١) وتعتبر وثائق المجموعات المختلفة الموجودة في القسم الشرقي لمكتبة كيريل، وميتوديريس العامة "Kiril Metodii Orientaliski Otdel Kin Narodnata Biblioteka" أكثر الوثائق أهمية وفي عام ١٩٦٦ أصبح من الممكن الاطلاع على الوثائق، حيث تبين أن هناك ١٣٨٣٩٩ وثيقة بهذا القسم تم حصرها وتصنيفها^(٢). واننى على يقين أن عدد هذه الوثائق قد تضاعف الآن إذا ما وضعنا في الاعتبار قدرة الباحثين البلغار المهتمين بالعصر التركي وحيويتهم في العمل.

وفي يوغوسلافيا نجد أن أكبر مجموعة من المادة الوثائقية التركية مودعة بالمعهد الشرقي بالمتحف القومي في سرايشو، مع مجموعات أصغر في دوروفنيك وسكوبيه ومدن أخرى. أما مجموعة سرايشو فهي منظمة تنظيما جيدا ومفهرسة، وتحتوى على مادة غنية على جانب كبير من الأهمية. وهذه المجموعة مع وثائق أرشيف الغازى أشرف بك في المدينة نفسها، والذي يضم مادة أساسية تتعلق بمسلمي البوسنة، فإن محفوظات المعهد الشرقي تجعل سرايشو أهم مركز للدراسات العثمانية في يوغوسلافيا. على أن دور المحفوظات القومية في مختلف جمهوريات يوغوسلافيا تضم

(1) Mihail Guboglu, " Les Documents Tures de la Section Orientale de la Bibliotheque V. Kolarov de Sofia et leur importance pour L' Histoire des Pays Roumains, "Studia et Acta Orientalia (Bucharest), 3 (1960 - 61): 93. وتعتبر المقالة على حاتب كبير من الأهمية في مساعدة

أى باحث مهتم بهذه المكتبة التي أعيد تسميتها إلى " Kiril I Metodii " Narodnata Biblioteka لأنها تقدم وصفا لتنظيم المجموعة الوثائقية وثبتت قوائم الكتب والمراجع التي كتبها عدة متخصصون بلغاريون.

(2) Etica Savova, ed., Les Etudes Balkaniques et Sud - est Europeennes en Bulgarie, Guide de Documentation (Sofia: BAN, 1966), p. 40 وهناك معلومات في الصفحات من ٣٦ - ٤٧؛

عن كل الأرشيفات البلغارية، ويحتوى كثير منها على مواد تتعلق بالعصر التركي.

معظم الوثائق العثمانية الباقية، ولكن لا يوجد بأحدها أى مادة لها أهمية حقيقية فى موضوعنا.

أما أعظم المجموعات الوثائقية أهمية الخاصة ببلدان خط شمال الدانوب - سافا، فتوجد فى رومانيا. وهذه المجموعات لا تحتوى على مادة باللغة التركية فقط، بل تحتوى على عدد كبير من الوثائق بالرومانية، وتختص بفترة الدراسة، وهى محفوظة فى مختلف دور الأرشيف الرسمية العامة، وكذلك فى دور أرشيف معظم المدن الرئيسية. وتبلغ المادة التركية المتاحة فى رومانيا حوالى ٢٢٥٠٠٠ وثيقة و ٦٠٠ دفتر. وقد نشر ميهايل جوب اوغلو كتالوج الوثائق التركية فى مجلدين (بوخارست ١٩٦٠ - ١٩٦٥) يصف فيها ٥٠٤٨ وثيقة من الوثائق المحفوظة فى كل من: دار محفوظات الدولة، ومكتبة أكاديمية العلوم، وأرشيف أكاديمية العلوم، ومتحف الآثار والتاريخ فى بوخارست، وكلها فى العاصمة بوخارست. وبكل من المجلدين فهارس ممتازة وذات فائدة كبيرة للباحثين.

وفى المجر فان معظم الوثائق المتصلة بالموضوع توجد فى الأرشيف الوطنى المجرى فى بوداست. ولا توجد الا قلة قليلة نسبيا من الوثائق مكتوبة بالتركية والباقي بالمجرية واللاتينية والألمانية. ويضم هذا الأرشيف أيضا مادة غنية خاصة بترانسلفانيا. ووثائق هذا الأرشيف مصنفة فى مجموعات متنوعة ومفهرسة فهرسة جيدة وفى متناول أيدي الباحثين. ويوجد عرض ممتاز لكل تلك المجموعات فى كتاب دوموكوس كوزارى Domokos Kosary وعنوانه: مقدمة لمصادر تاريخ وأدب المجر Bevezetes Magyarorszag tortenetenek forrasaiba es irodalmaba، ويقع فى ثلاثة مجلدات (بودابست ١٩٥١ - ١٩٥٨). وفى المجلد الأول (الذى لم يطبع غيره حتى الآن - زمن تأليف الكتاب) وهو جزء من خطة لنشر خمس مجلدات، دراسة موسعة بقلم المؤلف نفسه تحت العنوان نفسه نشرت فى بودابست فى ١٩٧٠.

وأخيرا هناك مادة وثائقية تتصل بالموضوع فى عدة لغات متنوعة منها التركية محفوظة فى دار المحفوظات القومية فى فيينا، ويمكن بسهولة تحديد المجموعات الوثائقية الخاصة ببلدان جنوب شرقى أوروبا فى تلك الدار بمساعدة لودفيج بيتنر Bittener ومانشره فى خمس مجلدات بعنوان Gesamtinventar des Wiener Haus, - Hof und Staats - archives, (١٩٣٦ - ١٩٤٠). وهناك مصدر أقدم بالنسبة لوثائق فترة الحكم التركى ولكنه على جانب كبير من الجودة من اعداد جوستاف فلوجل Flügel بعنوان Die arabischen, persischen und turkischen Handschriften der Kaiserlich - Koniglichen Bibliothek zu Wien فى ثلاث مجلدات (فيينا ١٨٦٥ - ١٨٦٧)، ويتعلق بالوثائق المحفوظة بالمكتبة العامة فى فيينا.

والحقيقة أن عملية نشر الوثائق المحفوظة بدور أرشيف مختلف بلدان جنوب شرقى أوروبا قد بدأت فى القرن التاسع عشر. ورغم أن هذه العملية لم تتم وفق أسلوب منظم وجهود متصل، إلا أنها نجحت فى طبع عدد كبير من المادة الوثائقية أصبحت فى متناول يد الباحثين. على أن المشكلة الرئيسية التى تواجه المهتمين بهذه الوثائق أنها مطبوعة فى عدة سجلات باهتة وغير واضحة، ومعظم

الوثائق نشرت كملاحق لبحوث أو لمقالات أو في إصدارات خاصة في عدد هائل من الدوريات التي نشرتها مختلف أكاديميات العلوم والجامعات والأرشيفات والمتاحف. واننى على يقين أنه بالرغم من اهتمامى بالمنطقة، فانا لا أعلم عن كثير من الوثائق المهمة المطبوعة فى أى مكان والتي تتصل بالموضوع، وأن مجرد ذكر قائمة بعناوين هذه السجلات الممكنة مسألة قد تأخذ صفحات كثيرة، وقد لا تفيد الغرض من هذه المقالة الخاصة ببيوجرافية البحث. وكل ما أوده، أن ألفت نظر القارئ الى أن البحث عن وثائق مطبوعة يتطلب مراجعة عدد كبير جدا من السجلات ومعظمها غير مفهرس. وحتى عدد المجلدات الخاصة والمتخصصة فى نشر المادة الأصلية أصبحت من الضخامة والكثرة بحيث لا يسمح الحال بوضع قائمة كاملة بها. وسوف أذكر فقط ما اعتبره أكثر أهمية وكنموذج للوثائق المتاحة.

ففى بلغاريا بدأ نشر وثائق تاريخ بلغاريا Dokumenti za Bulgarskata Istrorria من اعداد عدد مختلف من الباحثين ويختص المجلدان الثالث والرابع بوثائق المادة التركية. ومنذ ١٩٥٨ نشرت فى صوفيا سلسلة أخرى بعنوان Fontes Historiae Bulgaricae، والمجلدان الرابع والخامس منها هما نفس المجلدان الأول والثانى من Fontes Turcici Historiae Bulgaricae التي أعدها خريستو جاندف Christo Gandev وجلاب جالابوف Galab Galabov (صوفيا ١٩٥٩ - ١٩٦٠). وجالابوف هو الذى أعد «المصادر التركية للتاريخ القانونى لبلاد بلغاريا (صوفيا ١٩٦٢). وهناك مانشرته مجموعة من المعدين بعنوان «وثائق تركية خاصة بتاريخ بلغاريا»، وهى وثائق مهمة وان كانت أقل تخصصا. وهناك مجموعتان أخرتان على جانب كبير من الأهمية أعدها بيتور بتروف Petur K. Petrov بعنوان «سياسة الاستيعاب للغزو التركى: مجموعة من الوثائق تتعلق باعتناق الاسلام والتتريك فى القرنين التاسع عشر والعشرين (صوفيا). وما أعده نيقولاي تودروف بعنوان «وضع القومية البلغارية تحت النير التركى: وثائق ومعلومات (صوفيا ١٩٥٣).

وفى يوجوسلافيا كان معهد الدراسات الشرقية فى سرايفو هو الذى قاد العمل فى نشر الوثائق التركية فى سلسلة مطبوعاته المهمة جدا بعنوان Monumenta turcica historiam Slavorum meridionalium illustrantia بدءا من عام ١٩٥٧. هناك نشرة «اللحظة Monumenta» التي تغطى مجموعة هائلة ومتنوعة من الوثائق ومعدة بشكل جيد ورائع وتستحق الاشادة. كما أن هناك مؤسسات بحثية أخرى فى المدن الأخرى تنشر وثائق تركية. وفيما يلى امثله قليلة توضح مختلف الموضوعات الوثائقية التي أهتم باعدادها الباحثون اليوجوسلافيون وهى: مصادر تركية ابيخ بلغراد لحازم شابانوفيتش Hazim Sabanovic (بلجراد ١٩٦٤)، ومقدونيا فى القرنين ١٦ - ١٧. وثائق من أرشيفات استانبول ١٥٥٧ - ١٦٤٥ لدوشانكا شوبوفا Dusanka Sopova (سكوبيه ١٩٥٥)، وأقدم وثائق الوقف باللغة العربية فى يوجوسلافيا لحسن كلشى Hasan Kalesi (برشتينا ١٩٧٢).

أما رومانيا فيوجد بها ثلاثة مجموعات وثائقية رئيسية أغلبها باللغة الرومانية. وأول هذه المجموعات تحتفظ باسم معدها الأصلى يوكسوديو هورموزاكي Euxodiu Hurumzaki بعنوان «وثائق عن تاريخ الرومانيين فى أربع وعشرين مجلد (بوخارست ١٨٧٦ - ١٩٦٢)، ويعتبر مستودع

معلومات. وعلى قدم المساواة فى القيمة تقف السلسلة التى بدأت فى الظهور فى عام ١٩٢٩ من اعداد أندريه فيريس Andrei Veress بعنوان «وثائق عن تاريخ ترانسلفانيا ومولدافيا وولاشيا» فى أحد عشر مجلد (بوخارست ١٩٢٩ - ١٩٣٩). وأعظم هذه الاعمال طموحا المغامرة التى بدأت تحت اشراف أندرية اوتيتيا Otetea، ودافيد برودان Prodan فى ١٩٥١ حيث نشرا فى بوخارست أكثر من ستين مجلد بعنوان «وثائق تاريخ رومانيا». على أن هذه السلسلة لم تنقسم فقط الى سلاسل فرعية (أ) لمولدافيا (ب) لولاشيا، و(ج) لترانسلفانيا، بل ان كل مجلد يختص بوثائق معينة لموضوع معين لفترة محددة فى التاريخ الاقتصادى والزراعة .. الخ وهذه المجموعة أكثر المجموعات الوثائقية نفعا للباحثين من حيث ما تمثله من كمية فى المعلومات. وهناك مجموعات أصغر تم نشرها أذكر منها على سبيل التوضيح ما أعده فيليتي I.C. Filitti بعنوان- Letters et extraits concernant les relations des principautés Roumaines avec la France, 1728 - 1810 (بوخارست ١٩١٥) . وما أعده فورنيشا D. Z. furnica بعنوان «وثائق عن تجارة رومانيا ١٥٧٣ - ١٨١٠» (بوخارست ١٩٣١)، والمجموعتان الخاصتان ببوخارست من اعداد فلوريان جورجيشكو Florian Georgescu، وبول شيرنوفوزينو Paul I. Cernovodeanu، ويانا بانايت Iana C. P anait بعنوان «وثائق عن تاريخ مدينة بوخارست (بوخارست ١٩٦٠)، وما أعده جيورجيه بوتراس Gheorghe Potras بعنوان «وثائق عن تاريخ مدينة بوخارست (بوخارست ١٩٦١)».

أما المجر فقد نشرت وثائق أكثر من أي بلد آخر من بلاد المنطقة. ففي ١٩٣٠ رصدت ايما بارتنيك Emma Bartpniek فى كتابها «مصادر منشورة لتاريخ المجر (بودابست ١٩٣٠) ٣١٠٩ عنوان لمادة وثائقية مفهومة. ومنذ ذلك التاريخ نشرت مجموعات وثائقية كثيرة. أما أكبر مجموعة وثائقية قام باعدادها عدد كثير من الباحثين فهى مجموعة Monumenta Hungariae Historica التى نشرت فى خمس أجزاء. وتشتمل على سلسلة تتناول ترانسلفانيا خلال الفترة من ١٥٤٠ - ١٦٩٩ أعدها ساندر شيلاجى Sandor Szilagyى بعنوان- Monumenta comitalia regni Transylvaniae, 1540 - 1699 فى اثني عشر مجلدا (بودابست ١٨٧٥ - ١٨٩٢). ولقد بدء نشر هذه السلسلة فى ١٨٥٧ حيث وصلت الى عدة مئات من المجلدات. كذلك الحال بالنسبة لنشر الوثائق التركية الذى بدأ فى فترة مبكرة وكان كل من آرون شيلادى Aron Szilady، وساندر شيلاجى محررين عامين لنشر سلسلة من الوثائق بعنوان «آثار تاريخية للمجر تحت الحكم التركى» التى نشرت فى بودابست بين عامى ١٨٦٣ - ١٩١٦. وتحتوى المجموعة الأولى فى هذه السلسلة وهى من تسع مجلدات على وثائق. والمجموعة الثانية وهى من خمس مجلدات، تشمل أعمال المؤرخين الأتراك التى تتصل بالموضوع. وقد نشر كل من لايش ثالوكشى Lajos Thaloczy، ويانوس كريشماريك Janos Krecsmarik، وجيولا شيكفو Gyula Szekfu فى بودابست عام ١٩١٤ ترجمة مجرية لعدد كبير من الوثائق التركية فى كتاب «الأرشيف التركى - المجرى ١٥٣٣ - ١٧٨٩». وقد أعد المجلد الأول من مشروع متعدد الأجزاء، كل من ساندر تاكاتس Takats، وفيرنس اكهارت Eckhart، وجيولا شيكفو بعنوان «مراسلات باشوات بودا بالمجرية ١٥٣٣ - ١٥٨٩» (بودابست ١٩١٥). كما نشر أندروفيريس الذى سبقته الإشارة اليه فى معرض الحديث

عن المطبوعات الرومانية، كتابه بعنوان *Fontes Rerum Transylvanicarum* في خمس مجلدات (بودابست ١٩١١ - ١٩١٢). كما يعتبر المجلد الذي أعده كل من لا يوش فيكيتيه، Lajos Fekete وجيلولا كالدئى - ناجى بعنوان *Rechnungsbucher Turkischer Finanzstellen in Buda* (١٥٥٠ - ١٥٥١) (Ofen) (بودابست ١٩٦٢)، ذو قيمة كبيرة، حيث نشر النصوص الأصلية وتفسير ممتاز لها. وكما سبق القول فإن المادة الوثائقية المنشورة ضخمة جدا، والعناوين التي اخترناها تحدد فقط أهمية المشروع. وتضم المطبوعات الأخرى مجموعات وثائقية صغيرة من أرشيفات المقاطعات والمدن والعائلات، وأيضا مذكرات الرحالة هنا وهناك.

وهناك عدة مجموعات وثائقية خاصة ببعض الأشخاص الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب، وهي لا تشكل أهمية أساسية للمهتمين بالموضوع الرئيسى لهذه الدراسة، ولهذا سوف أذكر ثلاثة أعمال على سبيل المثال وهي: كارولى شابو Karoly Szabo بعنوان «أرشيف صقليه ١٢١١ - ١٧٥٠» في سبع مجلدات (كولشفار ١٨٧٢ - ١٨٩٨)، ويحتوى على مادة مهمة تتعلق بالوقائع المتصلة بالسكيلييين. والمجلد الرابع من العمل الذى أعده كل من فرانز زيمرمان، وكارل فيرنر، وفردريك موللر، وجوستاف جوندش بعنوان *Urkundenbuch zur Geschichte der Deuts- chen in Siebenburgen* (١٨٩١ - ١٩٣٧) ويتعلق بالألمان الترانسلفانيين.

أما الوثائق التي نشرت خارج بلاد المنطقة التي ندرسها، فتشمل كتاب فرانز بابينجر Babinger بعنوان *Das Archiv des Bosniaken Osman pascha* (برلين ١٩٣١)، والكتاب الذى أعده جالاب جالابوف، وهربوت دودا بعنوان *Die protokollarbucher des Kadiamtes Sofia* (ميونيخ ١٩٦٠)، وكتاب I. Hudita, ed., *Repertoire des documents concernants les negotitions diplom- atiques entre la france la Transylvanie au XV11 e* (باريس ١٩٢٦)، وكتاب جوستاف بايرل بعنوان *Ottoman Diplomacy in Hungary, Letters from the pashas of Buda, 1590 - 1593* (بلومنتون ١٩٧٢). ويحتل كتاب فرانز بابينجر أهمية خاصة وعنوانه: *Sultanische Urkunden zur: Geschichte Herrschaft Mehmeds 11, des Eroberers* (ميونيخ ١٩٥٦) والذى ألحق به كتاب نيكورا بيلدشينو Nicoara Beldiceanu وعنوانه: *Les actes des premiers sultans conserves* : عنوانه: *Nicoara Beldiceanu* dans les manuscrit de la Bibliotheque Nationale a Paris. 1 - Actes de Mehmed 11 M.J. et de Bayezid 11 du MS fond turc anicien 39 (Paris 1960) ولقد أجاد بلاشكوفيتش Arabische, turkische und persis-: عمله المعنون فى *Blaskovic* شرح انتشار المخطوطات التركية فى *Bratislava* (براتيسلافا ١٩٦١).

ان الكتب السابقة ينبغي اعتبارها مؤشرا على ضخامة الوثائق والمصادر الأصلية الأساسية الأخرى المطبوعة. ورغم أنه ليس من الممكن دائما العمل فى تلك الأرشيفات نفسها، الا أنه بإمكان الباحثين المهتمين اعداد بحوث على أساس المادة الوثائقية المنشورة فى تلك المطبوعات، وكذا السجلات الكثيرة.

٣ - المراجع العامة والبيبلوجرافيات

من المعروف أن فترة الحكم التركي لبلدان جنوب شرقي أوروبا قد تم تغطيتها بواسطة المؤرخين الوطنيين. وقد تكون المساحة المخصصة للفترة العثمانية طويلة جدا كما هو الحال في المجلدين الثالث والرابع من كتاب «التاريخ المجري» الذي اعده كل من بالينت هومان Balint Homan، وجويلاشيكفو (بودايست ١٩٢٨)، وأيضا في المجلدين الثاني والثالث من العمل التجميعي «تاريخ الرومانيين» الذي أعدته لجنة من أربع مجلدات (بودايست ١٩٦٠)، وأيضا في الأربع مجلدات الأولى من «التاريخ العثماني» وهو من ثماني مجلدات (أنقرة ١٩٦٠) الذي كتبه اسماعيل حقي أوزنصارشيلي، والذي يحتوي على عرض روائي مفيد وهوامش غزيرة وقوائم بالمراجع. ومن الملاحظ أنه في كل عمل من هذه الأعمال نجد أن التاريخ يروى كلية من وجهة نظر بلد المؤلف.

وحتى أوزنصارشيلي وابتداء من المجلد الخامس الذي كتبه انقر ضياء قرال الخاص بيداية التاريخ العثماني، فإن أفضل الروايات التاريخية العثمانية هي الأعمال القديمة التي قام بها جوزيف همر - بورجستال Hammer - Purgstall بعنوان: Geschichte des osmanischen Reiches في عشرة مجلدات (بست ١٨٢٧ - ١٨٣٥)، وما كتبه زنكينز J. W. Zinkeisen بعنوان Ges- chichte des Osmanischen Reiches in Europa في سبع مجلدات (جوتا - هامبورج ١٨٤٠ - ١٨٦٣)، وما كتبه نيقولاى بيرجا Nicolae Iorga بعنوان Geschichte des Osmanischen Reiches في خمس مجلدات (جوتا ١٩٠٨ - ١٩١٣). ويعتبر كتاب همر - بورجستال أفضل الكتب من حيث ماله وقيمه العلمية. ويعتبر كتاب رنكينس أكثر الكتب الثلاثة اتصالا بموضوع كتابنا. كتاب يورجا وه أودا الثلاثة من حيث الصياغة، ولكنه يحتوي على رؤى عميقة، فضلا عن شروح وتفسيرات ورغم أن أوزنصارشيلي اعتمد على الأرشيفات التركية، إلا أنه ولسوء الحظ لم يهتم بالتفاصيل إلى حد ما، فضلا عن أنه تناقض مع نفسه في غالب الأحوال.

وبالنسبة للقارئ العادي وخاصة الذي لا يعرف الامبراطورية العثمانية، فإن أفضل الكتب المناسبة له، كتاب خليل انالجيك بعنوان- The Ottoman Empire, The Classical Age, 1300-1600 من ترجمة نورمان تشيكوفيتش Norman Itzkoitz، وكوليم ايمبر Colim Imber عن التركية (نيويورك - واشنطن ١٩٧٣). وأما فيما يتعلق بالتواريخ العثمانية الأخرى بما فيها الكتب الآتية: E. Creasy, History of Ottoman Turks from the Beginning of the Empire to the present Time, 2 vols, (London 1854 - 56), George J. Eversely, The Turkish Empire, its Growth and Decay (London 1917), A. de la Jonquiere Histoire de L' empire ottman, rev. ed., 2 vols. (Paris, 1914), Harry Luke, The Old Turkey and the New, From Byzantium to Ankara, rev. ed. (London, 1955) فإن الكتب الثلاثة الآتية أفضل الكتب جميعا

William Miller, *The Ottoman Empire and its Successors*: دون تمييز بين أى منها وهي (Cambridge, 1927), Charles Eliot, *Turkey in Europe*, new ed. (London, 1908), Leon Lamouche, *Histoire de la Turquie* (Paris, 1934). ومازلنا بحاجة كبيرة لمجلد أو اثنين شاملين للتاريخ العثماني فى إحدى اللغات الأوربية الرئيسية.

والحق ان خليل انالجيك قدم دراسة هائلة فى كتابة المشار اليه سلفا عن الحكومة العثمانية المركزية. ولكن ما زال هناك عدة دراسات ممتازة حول هذا الموضوع. وفى هذا الخصوص هناك ملاحظات أوجييه غيرلين بوشبيك Ogier Ghiselin de Busbeeq التى اشتملتها رسائله التى كتبها من الامبراطورية العثمانية بين عامي ١٥٥٥ - ١٥٦٢ أعدها للنشر كل من فورستر، ودانيال بعنوان (London, 1881) *The Life and Letters of Ogier Ghiselin de Busbeeq*، التى اعيد اصداؤها بمعرفة دار نشر كلارندون فى ١٩٨٦. على أن العمل الميكرو والجدير بالاشارة فى هذا الموضوع والذي اعاد كتابته جوزيف همر - بورجستال بعنوان *Staatsverfassung und Staatsverwaltung des Osmanischen Reiches*, 2 Vols (Vienna, 1815) ما يزال مفيدا لهذا النوع من الدراسة. ويضاف الى هذه الدراسات عملين حديثين مهمين ولا يمكن الاستغناء عنهما وهما: كتاب A. D. Alderson, *The Structure of the Ottoman Dynasty* (London, 1956), H. A. R. Gibb and Harlod Bowen, *Islamic Society and the West*, one volume in two (London, New York, and Toronto, 1957) أما كتاب أوزنار شيلي: مقدمة لادارة الدولة العثمانية (استانبول ١٩٤١) فانه يعرض المحاسن ونقاط الضعف التى أشرنا اليها فى حديثنا عن كتابه السابق.

فأذا ما انتقلنا من المؤسسات التركية الى مؤسسات أهل الذمة، وجدنا ان الموقف لا يدعوا للاطمئنان. ورغم أن الكتابات عن الكنيسة الأرثوذكسية كثيرة، الا أن معظمها تركزت على البطريركية والكنيسة الروسية. وهناك بعض أعمال متخصصة قليلة عن الأرثوذكسية فى البلقان تحت الحكم العثماني، ومنها كتابا B. J. Kidd, *The Churches of Eastern Christendom from A. D. 451 to the Present Time* (London, 1927), A.K. Fortescue, *The Orthodox Eastern Church* (London, 1927) ولا بأس بهما. وهناك ايضا كتاب N.J. Pantazopoulos, *Church and Law in the Balkan peninsula during the Ottoman Rule* (Salonika, 1967) وهو كتاب مفيد ولو أن ترجمته رديئة جدا. وهناك T.H. Papadopoulos, *Studies and Documents relating to the History of the Greek Church and People under Turkish Domination* (Brussels, 1952) ولو أنه منحاز ضد السلافيين. وكتاب آخر أكثر تخصصا من وضع هـ. شيل H. Scheel, *Die Staatsrechtliche Stellung der okumenischen Kirchen Verfassung und Verwaltung* (Berlin, 1942). تحت الحكم العثماني، كتاب Laszlo Hadrovics, *Le peuple serbe et son eglise sous la domination turque* (Paris, 1947) وكتاب ايفان سينجاروف بعنوان «بطاركة أرشيدوقية أوهريد من سقوطها فى يد الأتراك حتى الغائها ١٣٩٤ - ١٧٨٧ (صوفيا ١٩٣١)»، وكتاب ستيفن

رئيسمان، Cambridge University press (Cambridge: The Great Church in Captivity 1968) وكتاب ميركو مير كوفيتش بعنوان «الوضع القانوني وشخصية الكنيسة الصربية تحت الحكم العثماني ١٤٥٩ - ١٧٦٦ (بلغراد ١٩٦٥).

وأول الأعمال التي ما تزال قيمة عن اليهود في الامبراطورية العثمانية كتاب: Moise Franco Essai Sur L'histoire des Israelites de L' Empire Ottoman depuis les origines jusqu a nos jours (paris, 1897) وهناك كتاب سولومون روزان بعنوان «تاريخ اليهود في تركيا» من ستة مجلدات (صوفيا ١٩٣٤ - ١٩٤٤، أورشليم ١٤٥) وهو كتاب شامل، ولو أنه مكتوب باهمال الى حد ما. وهناك الكتابات الكثيرة لاسحق ايمانويل ولابراهام جالانت عن اليهود تحت الحكم العثماني، وهي كتابات محل تقدير. وكتاب الأول نشر ضمن أعمال أخرى بعنوان Histoire des Juifs d' Israëlites de Salonique (Paris, 1935) والآخر نشر ضمن كتاب: Histoire des Juifs d' Israëlites de Salonique (Paris, 1935) tanbul (Istanbul, 1941)

وبالإضافة الى أعمال زنكيزين، وميللر، واليوت، هناك عدة أعمال أخرى يمكن اعتبارها «تواريخ اقليمية»، منها ما كتبه ايلنج بعنوان Geschichte des Osmanischen Reiches in Europa (ليبنج ١٨٥٤)، ويعد أحد الأعمال المبكرة في هذا الخصوص، وبعده ما كتبه روث بعنوان Geschichte der Christlichen Balkanstaaten, Bulgarian, Serbien, Rumanien, Montenegro, Griechenland: History of the Balkan peninsula from Earliest Times to the Present Day (نيويورك ١٩٢٢)، وما كتبه نيقولاى يورجا بعنوان Histoire des etats Balkaniques jusque a 1924 (باريس ١٩٢٤)، والفصول الأربعة الأولى من هذا الكتاب تتصل بموضوعنا، وما كتبه چاك آنسل بعنوان L' unite de la civilization balkanique (باريس ١٩٢٧)، وكتاب جورج ستادمولر بعنوان Geschichte Sudosteuropas (ميونخ ١٩٥٠). وكل هذه الكتب قديمة باستثناء كتاب ستادمولر عن المجر، ولو أنه تجاهل الفترة العثمانية. ومن حسن الحظ هناك عمالان يمكن اعتبارهما أعمالا كلاسيكية وهما: كتاب فرديناند برودل بعنوان La Mediterranee et le monde mediterranean a la epoque de philippe 11, 2 vols (باريس ١٩٤٩) وكتاب ليفتن ستافريايوس بعنوان The Balkans since 1953 (نيويورك ١٩٥٨). ويفظى عمل برودل المشهور كل بلدان حوض البحر المتوسط، وهو كتاب على درجة عظيمة من سعة الخيال، ويعتمد على البحث العلمى الجاد. كما أن الأفكار العامة التي وردت به، وكذا النظريات والنتائج التي توصل اليها بشأن العالم العثماني على جانب كبير من القيمة. ويعتبر كتاب ستافريانوس بمثابة «التاريخ الاقليمي» للبلقان. ولأن هذا الكتاب بحث جيد ومنظم ومكتوب بعناية، فانه يعتبر أفضل دراسة مطبوعة. وقد زاد من قدره احتوائه على قائمة جيدة من المراجع.

وهناك مصنفات أخرى كثيرة يمكن ذكرها، ومن ضمنها أخبار وروايات الرحالة، والتراجم الذاتية والموضوعات التاريخية. لكن محدودية المساحة تحول دون ايرادها كلها، كما أن ذكر بعضها

سوف يجور على الأعمال الأخرى دون عدل. ومع ذلك فقد يكون من المفيد ذكر بعض المراجع المهمة وغير المعروفة بدرجة كبيرة، والتي من شأنها أن تقود الباحث الى هذه المادة. وفي مقدمة هذه الأعمال ما كتبه جيرهارد نيخ بعنوان: Bibliographie der Bibliographien Sudosteuropas. Wirtschaftswissenschaftliche Sud- osteuropa forschung (1963), pp. 177 - 213 حيث يقدم قوائم كاملة للمراجع المتصلة بالموضوع. وما كتبه ليون سافديان بعنوان: Bibliographie balka- nique, 1920 - 1938, 8 vols. (باريس ١٩٣١ - ١٩٣٩)، وهو عمل نافع وشامل. وبالنسبة للأعمال المبكرة يمكن التعرف عليها من العمل الذي أعده كل من بيرسون، وجوليا أشتون بعنوان: Index Islamicus, 1906 - 1955 (كيميريدج ١٩٥٨)، وكتاب بيرسون بمفرده بعنوان Index Islamicus Supplement, 1956 - 1960 (كيميريدج ١٩٦٢) مفيد أيضا. ويمكن العثور بسهولة على عدد كبير من هذه القوائم في معظم المكتبات. وتعتبر قوائم الكتب التي أعدها باحثون من بلدان جنوب شرقي أوروبا أكثر أهمية بالنسبة للأعمال التي تهتم بالتفاصيل.

وقد قام الرومانيون بعبء اعداد القوائم الأكثر أهمية وشمولية. وتحت اشراف كل من ابوان لوبو، ونستور كاماريانو، وافيديو باباديا، بدأ نشر العمل المهم وعنوانه Publication of Bibliografia Analitica a Periodicelor Romaesti ابتداء من عام ١٩٦٧. وتغطي الستة مجلدات التي ظهرت وقائع السنوات من ١٧٩٠ - ١٨٥٨. ولا يترك الجهد والجدية التي بذلت لاعداد هذا العمل المنظم مجالاً لطلب المزيد اذ يعتبر مرجعا أساسيا للمطبوعات الرومانية الدورية. ويقف على قدم المساواة مع هذا العمل ما تم في بوخارست في عام ١٩٧٠، عندما صدر المجلد الأول من «مراجع تاريخ رومانيا» ويغطي السنوات من ١٩٤٤ - ١٩٦٩ بأشراف كبل من ستيفان، ويواقيم كراشيون، ويور سورديو. وعلى حين أن هذا المجلد الأول عبارة عن قائمة مراجع مختارة، فإن المجلد الثاني وهو الأول من عدة مجلدات تتناول مطبوعات القرن التاسع عشر التي ظهرت في ١٩٧٢ بأشراف كورنيليا بوديا، يعتبر عملا شاملا ومنظما تنظيما جيدا ومفهرسا فهرسة كاملة بعناوين فرعية باللغة الفرنسية مما يجعله كتاب غاية في الأهمية.

أما أعظم قوائم المراجع البلغارية المعاصرة وأكثرها فائدة، ملاحق المجلد الثاني والخامس من Etudes Historique, La Science Historique Bulgare 1960 - 1964, Bibliographie La من Science Historique Bulgare, 1965 - 1969, Bibliographie (صوفيا ١٩٧٠). وقد أعد الجزء الأول من هذه المجلدات ليليا كيركوف، واميليا كوستوفا - يانكوف، والثاني من اعداد ليليا كيركوف. وقد كتبت العناوين الرئيسية في كلا العملين بالحروف اللاتينية مع ترجمة فرنسية لكل مدخل.

وبأشراف يوروتاديش نشر Ten Years of Yugoslav Historiography, 1945 - 1955 في بلغاريا ١٩٥٥. ونظمت هذه المقالة البيولوجرافية الطويلة على أساس الحوليات - الموضوعية، مما يجعل استخدامها صعب الى حد ما. وقد كتبت عناوين المراجع فيها بالانجليزية وباللاتينية أيضا. وقد كان المؤلف - المعد نفسه، مستول عن نشر المجلد التالي باللغة الفرنسية في بلغراد عام ١٩٦٥

بعنوان: Historiographie Yougoslave, 1963 - 1955 حيث اتبع شكل المقالة السابقة، لكن من السهل العثور على العناوين لأنها مثبتة في الهوامش أسفل كل صفحة وليست مثبتة مع النص وفي المتن. وفي بودابست نشر في عام ١٩٦٠ عمل لمؤلف مجهول بعنوان Bibliographie d'oeuvres choisies de la science historique hongroises, 1945 - 1959 حوليا مع عناوين فرعية باللغة الأصلية، ويحروف فرنسية، وشرح موجز بالفرنسية لـ ٢٠٥٩ مادة بحثية. وتحت إشراف جيفشان، وماكاي ظهر عام ١٩٧٠ كتاب: Bibliographie d'oeuvres choisies de la science historique hongroise, 1964 - 1968 باعتباره المجلد الثاني من «دراسات تاريخية»، وتضم ٢٣٠٩ مادة بحثية مرتبة بنفس نسق الجزء الأول.

وفي ١٩٦٦ نشر مجلد مشابه في أثينا تحت إشراف ديماراس بعنوان: Quinze ans de bibliographie historique en Grece, 1950 - 1964، والكتاب مزود بملحق عن عام ١٩٦٥. وهو مرتب ترتيبا موضوعيا بعناوين حولية لكل موضوع. وقد كتبت العناوين باليونانية ويحروف فرنسية لـ ٥٥٠٠ مادة.

وهناك نشرة على جانب كبير من الأهمية والقيمة يصدرها معهد الدراسات البلقانية التابع للاكاديمية البلغارية للعلوم. وقد بدأ نشرها سنويا ابتداء من ١٩٦٦ تحت إشراف كل من: تودوروف، وجيورجيف، وترايكوف، بعنوان Bibliographie d' Etudes Balkaniques. وتغطي مجلدات هذه النشرة كل المطبوعات التي صدرت عن شبه جزيرة البلقان في أي مكان من العالم. كما أن فهارس هذه المجلدات مهمة أيضا ومتنوعة، فهناك فهرس باسماء المؤلفين، وآخر بالموضوعات والبلدان، وثالث باسماء الدوريات التي تم الرجوع إليها. وينتهي هذا القسم بقائمة بالأعمال الجماعية وقوائم المطبوعات الحديثة. وهذه الملاحق وحدها تجعل النشرة البلغارية لا غنى عنها. وتستخدم القائمة البليوجرافية التي سبق ذكرها مع المجلد الرابع من بليوجرافيا جنوب شرق أوروبا الصادرة في ميونيخ ١٩٤٣ - ١٩٧٣. وكل مجلد من جزئين ويتناول كل شئ مهم في مجال جنوب شرقي أوروبا. وقد أعد المجلد الأول من تلك الدورية الألمانية فريتز فاليفتش. أما الأجزاء التالية فقد أعدتها جرتروود كرالرت - ساتلر. وفي هولندا ظهرت حديثا بليوجرافية متخصصة على جانب كبير من الأهمية تحت إشراف هانزيورجن، ويوتا كورنمف بعنوان Osmanische Bibliographie mit besonderer Berücksichtigung der Türkei in Europa (لايدن ١٩٧٣). ومن الصعب استخدام هذا المجلد الضخم الى حد ما، لأنه رتب ترتيبا موضوعيا حسبما رأى المؤلف ودون فهرس. وما لم يكن الباحث مهتم بموضوع محدد متصل بقسم أساسي من المجلد أو بقسم فرعي، فمن الصعب عثوره على ما يبحث عنه من عناوين المؤلفات والمواد.

وسوف أنهى هذا القسم بإشارة مختصرة الى بعض الأعمال الجماعية وخاصة تلك التي صدرت لتقدمها المؤتمرات C. I. S. H و A. I. E. S. E. E. ورغم أن عناوين المطبوعات في هذه القوائم مضطربة، إلا أنها تحتوي على مقالات مهمة، وبليوجرافيات تتناول جنوب شرقي أوروبا تحت الحكم التركي. وبالنسبة للمؤتمرات C. I. S. H التي عقدت في اعوام ١٩٥٥، ١٩٦٠، ١٩٧٠،

أصدر المجريون مجموعات خاصة بعنوان Etudes Historiques، ول مؤتمر عام ١٩٦٥ تحت عنوان Nouvelles Etudes Historiques وقد حدث بعض الاضطراب لأن الخمس مجلدات التي أصدرها البلغاريون لمؤتمرات ١٩٦٥، ١٩٦٥، ١٩٧٠ أخذت نفس العنوان Etudes Historiques، وكذلك الأربع مجلدات التي أصدرها الرومانيون لمؤتمرات ١٩٥٥، ١٩٦٠، ١٩٦٥، ١٩٧٠ أخذت أيضا عنوان Nouvelles Etudes d Histoire.

ورغم أن تلك المجلدات تحتوي على دراسات مهمة فأنها ليست ذات معزى لدارسى الفترة العثمانية مثل المجلدات Acts du premier congres International des Etudes Balkaniques et Sud- est Europeennes (صوفيا ١٩٦٧ - ١٩٧٠). ففي المجلدين الثالث والرابع هناك ٥٠٠ صفحة عن الدراسات التاريخية الخاصة بالفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، مع بعض دراسات أخرى لها أهمية رئيسية. كمل تحتوي على أسهامات من جهات أخرى. ولا بد لأى باحث يدرس الحكم العثمانى فى أوروبا من أن يرجع الى هذه المجموعة. وقد أعدت المادة الوثائقية التي قدمت فى المؤتمر الثانى للنشر.

ولا يكتمل أى تلخيص للأعمال العامة المتعلقة بهذا الموضوع دون أن نذكر أربع دراسات جلية القيمة وهى: الدراسة الأولى أعدها باكالين بعنوان: قاموس مصطلحات وتعبيرات التاريخ العثمانى فى ثلاث مجلدات (أنقرة ١٩٤٦ - ١٩٥٥)، والثانية، الطبعة القديمة لدائرة المعارف الاسلامية فى ثمانية أجزاء فى أربع مجلدات (لايدن - لندن ١٩١٣ - ١٩٢٩)، والطبعة الجديدة لدائرة المعارف التي صدرت فى لايدين - لندن ١٩٦٠، والتي تبدأ من حرف ka فى ٦٦ مستلة، وأخيرا دائرة المعارف الاسلامية التي صدرت فى استانبول ١٩٤٠ والتي وصلت الى كلمات Tug فى عام ١٩٧٤ فى ٢٥ مستلة.

٤ - الصحف والمجلات

عادة لانشمل المقالات الخاصة بالتعريف بالبيبلوجرافيات قسما عن الدوريات الصحافية. ومع هذا فانتى أرى ضرورة ذكر بعض الكلمات عنها فى هذا المقال، لأنها تحتوي على مادة بحثية مهمة، كما أن أغلبها مجهول بالنسبة لنوعية قارئ هذا الكتاب.

ومن الملاحظ ان المجلات التاريخية الأمريكية والأوربية الغربية قليلة الاستخدام نسبيا من جانب الباحث المهتم بجنوب شرقى أوروبا تحت الحكم العثمانى رغم أنه من آن لآخر تنشر هذه المجلات مقالة مهمة عن هذه الفترة. وهذا أمر مفهوم لأن مثل هذه المجلات تخصص صفحاتها أساسا لتاريخ البلدان التي تصدر فيها. وهناك بعض المجلات المهمة الى حد ما التي تهتم بموضوع بحثنا، وتكرس صفحاتها لدراسة العالم السلافى مثل The Slavic Review, the East European Quarterly, Canadian Slavic Studies, Slavic and East - European Studies, Slavonic and East Europe-

وتتناول an Review, Jahrbucher fur Geschichte Osteuropas, Revue des Etudes Slaves هذه المجلات المتخصصة التاريخ الكلى للمنطقة بما فيها روسيا/ الاتحاد السوفيتي. ومن النادر أن تجد في هذه المجلات مقالات عن مشكلات التاريخ العثماني. والحال نفسه بالنسبة لمختلف المجلات المتخصصة في الدراسات الاسلامية والشرقية. ومع هذا فلا بد من مراجعة هذه المجلات بعناية لأنها تحتوي على مقالات تتصل بموضوعنا بشكل أكثر من المجلات التاريخية الرئيسية. ولعل أعظم هذه المجلات أهمية مجلة. The International journal Of Middle East Studies

وعلى هذا اصبح من الضروري التعرف على الأقل على أعظم المجلات أهمية التي تصدر في البلدان التي كانت تحت الحكم العثماني لفترة ما. وحتى عام ١٩٦٥ كانت مجلة Universiteti Shtetror Buletin أهم مجلة البانية. ولكن ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المجلة الأكثر تخصصا مجلة Studime historike هي الأكثر أهمية. أما اليونان، فلا يوجد لديها حقيقة مجلة تاريخية رئيسية متخصصة، ومعظم المادة البحثية المتعلقة بالموضوع توجد في القسم التاريخي من Praktika tis Deltion tis Istorikis Kai Ethnologikis Etairias tis Ella أو في مجلة- Akademies Athenon dis. ومن المجلات اليونانية التي تصدر بلغات أوروبا الغربية، فان مجلة Balkan Studies تعتبر أكثر المجلات أهمية.

وهناك بعض المجلات ذات الأهمية، وان كانت قليلة نسبيا في تركيا. وأكثر هذه المجلات أهمية مجلة Turkish Historical Society والتي حلت في ١٩٣٧ محل مجلة- Turki tarih encu meni mecmuasi، والمجلة القديمة تستحق وقفة خاصة. ويضاف الى هاتين المجلتين (القديمة والجديدة) مجلة كلية اللغة والتاريخ والجغرافية بجامعة أنقرة، حيث تضم عددا كبيرا من المقالات المهمة. وأخيرا هناك مقالات تتصل بالموضوع في مجلة الأوقاف، والتي تنشر وثائق ومقالات على حين أن «وثائق أنقرة» تتخصص فقط في نشر الوثائق، وفي الآونة الأخيرة ظهرت مجلة جديدة بعنوان Archivum Ottomanicum، وهي الوحيدة التي تصدر بلغة غربية، وتتخصص كلية في تاريخ العثمانيين. ولسوء الحظ لا توجد مجلة علمية حقيقية بلغة غربية تصدر في تركيا.

فاذا ما انتقلنا من الثلاثة بلاد هذه إلى الأربعة الأخرى الخاصة بمنطقة بحثنا (جنوب شرقي أوروبا)، سوف نجد أن عدد المطبوعات المهمة في ازدياد. ففي بلغاريا عدة مجلات تاريخية وأكثرها أهمية» المجلة التاريخية، ومجلة الأكاديمية البلغارية لمعهد العلوم والتاريخ. وأكثرها قيمة مجلة دراسات بلقانية التي تصدر في صوفيا منذ ١٩٦٤، والمجلة التاريخية البلغارية التي تصدر بالانجليزية والفرنسية منذ ١٩٧٣. فضلا عن بعض مقالات مهمة نشرت في المجلات البلغارية الأخرى.

والمجلة التاريخية الرئيسية الرومانية مجلة «دراسات: مراجعة للتاريخ». والمجلتان التاريخيتان الأخرتان اللتان يجب وضعهما في البال هما: الكتاب السنوي للمعهد التاريخي في مدينة كلوى Cluj ودراسات علمية وتحقيقات: القسم التاريخي والتي تصدر في اياصى Iasi. أما مجلة Studie et acta orientalia فانها أكثر تخصصا وتتناول بدرجة كبيرة المادة البحثية الخاصة بالعثمانيين. ومجلة Revue

roumaine d' histoire وتصدر باللغات الأوروبية الغربية، حيث تنشر في غالب الأحيان مادة بحثية نقلا عن المجلات التي تصدر باللغة الرومانية. وهناك مجلة أكثر تخصصا كما يبدو من اسمها وهي مجلة Revue des etudes sud -est europeennes التي تنشر مقالة في الموضوع في كل عدد على الأقل. ومنذ ١٩٦٣ صدرت في بوخارست مجلة Bulletin de L' association Internationale des Etudes du Sud- Est Europeen حيث تنشر مقالات مع أخبار الرابطة.

وفي يوجوسلافيا فان لكل جمهورية من جمهورياتها دورية تاريخية. ففي مدينة سكوبييه تصدر مجلة «التاريخ»، وفي تيتوجراد تصدر «مذكرات تاريخية»، وفي سرايفو يصدر الكتاب السنوي للجمعية التاريخية للبوسنة - هرسل، وكذلك مجلة «مراسل المتحف القومي في سرايفو». وفي ليبيا تصدر مختارات كلية الفلسفة. كما تصدر أكبر جمهوريتين في يوغوسلافيا أقدم مجلتين وهما: المجلة التاريخية في بيوجراد، والمجلة التاريخية في زغرب. وهناك عدد كبير من المختارات والدوريات تصدرها مختلف الجامعات والاكاديميات، وتعتبر مجلة دراسات في فقه اللغة الشرقية والتاريخ التي تصدر في سرايفو، أكثر المجلات اتصالا بموضوعنا. كما يجب الرجوع أيضا الى مجلة «حوليات المعهد التاريخي لأكاديمية العلوم والفنون اليوجوسلافية في دوبروفنيك». ومنذ ١٩٧٠ بدأت تصدر في بيوجراد مجلة ممتازة بلغات اوربا الغربية وهي «شؤون بلغائية».

وفي المجر كما هو الحال في يوجوسلافيا عدد هائل من المجلات التاريخية وأكثرها أهمية «القرن»، والمجلة التاريخية. ورغم ان هذه المجلات تركز أكثر على القرون الأخيرة، الا أنها تنشر أيضا مقالات عن المجر تحت الحكم العثماني. وبالإضافة الى هاتين المجلتين الرئيسيتين، هناك مجلات أخرى مهمة وهي -Annales Universitatis Scientiarum Budapestinensis de Rolando Eotvos nominatae, Sectio Historica, Acta Universitatis Debreceniensis, and Acta Universitatis Szegediensis أما مجلة Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungariae فانها أكثر تخصصا وأكثر أهمية. وهناك مجلتان تصدران باللغة الأوروبية الغربية وهما Acta Historica، والثانية لا تعد مجلة علمية بالمعنى الاصطلاحي، لأنها تنشر مقالات للقارئ العام المتعلم، وتنشر كل من المجلتين من آن لآخر مقالات ممتازة عن العصر العثماني.

وهذه القائمة التي ذكرناها عن المجلات المتصلة بموضوعنا تعتبر ناقصة. وأنا لا أرغب في أن أطيلها بذكر قائمة بالمجلات الروسية والايطالية وغيرها. ولكن سوف أضيف لهذه القائمة خمس مجلات أخرى نظرا لاهميتها الخاصة، فهناك المجلة الهولندية-Journal of the Economic and Social History of the Orient، ومجلة Archiv Orientalni التي تصدر في براج، والمجلتان البولنديتان في كل من كراكاو (Folia Orientalia) ووارسو (Przeład Orientalistyczny)، ومجلة Naroda Asii I Afriki التي تصدر في موسكو. وعلى الذين يرغبون في مزيد من التعرف على مختارات معينة أن يرجعوا الى فهرس تلك الدوريات.

٥ - اشارات الى بعض المؤلفين ومؤلفاتهم

ان ذكر قائمة معينة بالبحوث والمقالات لبعض المؤلفين المختارين والمنشورة في بعض المجلات والدوريات، يعد أمراً مستحيلاً لأن ذلك من شأنه استبعاد عدد من الباحثين الممتازين. وعلى هذا وبدلاً من أن أقدم قائمة عشوائية لمقالات من عدة مئات من المقالات، فأننى أكتفى بذكر قائمة من الباحثين الذين أفدت من أعمالهم بشكل أكبر. وحتى هذا الأسلوب سوف يغفل أسماء أخرى لها مكانتها ولاشك. ولهذا فانا مدين لهم بالاعتذار.

ويأتى فى المقام الأول بالنسبة للمؤلفين الأتراك عمر لطفى بركان، فهو الذى بدأ استخدام ارقام احصائية تركية ومادة علمية لدراسة التطورات الديموجرافية والاقتصادية فى الامبراطورية العثمانية. وقد نشر حسب معلوماتى كتابا واحدا بعنوان «المبادئ القانونية والمالية للاقتصادية الزراعية للامبراطورية العثمانية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (بالتركية، استانبول ١٩٤٣). غير ان عدد المقالات المهمة التى نشرها تجعله اهم الباحثين قاطبة فى مجاله. ومن بين مقالاته: «القوانين المنظمة لتثبيت ومراقبة أسعار البضائع والمواد الغذائية فى بعض المدن الكبرى فى نهاية القرن الخامس عشر» فى مجلة «الوثائق التاريخية» (١٩٤٣)، و«الموازنة العثمانية عن العام المالى ١٠٧٩ هـ - ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ - ١٦٧٠)، و«سجل الموازنة العثمانية لعام ١٠٧٠ - ١٠٧١ هـ (١٦٦٠ - ١٦٦١) بالمقارنة، فى مجلة كلية الاقتصاد جامعة استانبول (عدد عامى ١٩٥٥ - ١٩٥٦). كما نشر بركان «ثبت بالأنصبة الوراثية للعسكرية فى أدرنه ١٥٤٥ - ١٦٥٩ فى مجلة Belgeler (عام ١٩٦٨)، وأيضا «دفتر أرصدة ضريبة الجزية لعام ٨٩٤ هـ (١٤٨٨ - ١٤٨٩) فى ١٩٦٤. وفى المجلد الرابع عشر من مجلة Sosyalsiyaset Konferanslarn (استانبول ١٩٦٣) نشر «الوضع القانونى للأعمال الانشائية فى تركيا من القرن السادس عشر الى الثامن عشر. وبالامكان اطالة هذه القائمة من مقالات بركان. ومن المعروف ان القائمة البيلوجرافية التى أعدها كورنر ميف Korn-rumph والتي سبقت الإشارة إليها تضم ٣١ دراسة من دراسات عمر بركان. وماتزال القائمة غير كاملة. وعلى هذا سوف أضيف الى هذه القائمة ثلاثة أعمال مهمة لبركان تتعلق بدراساته بلغة غير التركية وهى: Quelques observations sur L' organisation economique et sociale des villes ottomanes des XVIe et XVIIe siecles "in Recueils ١٩٥٦ Societe des Jean Bodin , VII" Essai sur les donnees statistiques des registres de recensement dans L' Empire Ottoman aux Xve et XVIe siccles" in Journal of Economic and Social History "Reesearch on the Ottoman Fiscal Surveys" in Michael E. Cook, (١٩٥٧) of the Orient Studies in the Economic History of the Near East (لندن ١٩٧٠).

أما خليل انالجيك فهو المؤرخ التركى الرائد فى الدراسات البلقانية، وإنتاجه من الكتب والمقالات، وإسهاماته فى الموسوعات تبلغ مايقرب من مائة عنوان. وكل شئ كتبه انالجيك له قيمته، ودائرة اهتمامه واسعة. ودراسته المثيرة «السباهية المسيحيون فى روم ايلي فى القرن الخامس عشر واصولهم من ستيفان دوشان الى الامبراطورية العثمانية» التى نشرها فى كتاب «دراسات مقدمة

لفؤاد كوبروللو» تتناول بداية الحكم العثماني، على حين ان بحثه الأساسي الذي ألقاه في المؤتمر الدولي الثاني A.I.E. S. E. E. J. d. hedkh ونشره منفصلا في ١٩٧٠ بعنوان The Ottoman De- cline and its Effects upon the Reaya هذا فضلا عن مقالات ودرسات كثيرة تتناول الفترة بين موضوع هاتين الدراستين.

أما أوزنصارشيلي Uzuncarsili الذي ورد اسمه في هذه المقالة الببليوجرافية فهو مؤرخ تركي آخر غزير الانتاج، يرد اسمه في كل قوائم الببليوجرافيات. وكتابه في غاية الأهمية وعنوانه «من تنظيم الدولة العثمانية: فرق عبيد السلطان» في مجلدين (أنقرة ١٩٤٣ - ١٩٤٤)، يتناول المشكلة المهمة الخاصة بتجنيد وتنظيم عمالة العبيد. وهي مشكلة نوقشت في كتاب بازيليك بابوليا Baslike Ursprung and Wesen der "Knabenlese" im Osmanischen Reich وعنوانه D. Papoulia (ميونيخ ١٩٦٣). وهناك عمالان تناولوا عملية تجنيد الدفشمرة من وجهات نظر مختلفة يجب ذكرهما في هذا السياق وهما كتاب أحمد رفيق عن صوقوللو (الصدر الأعظم) ٩١١ - ٩٨٧ هـ (استانبول ١٩٢٤)، حيث يرى هذا الصدر الأعظم من وجهة نظر مختلفة جدا عن التي كتبها كاتب السير الذاتية اليوغوسلافي رادوفان زماردشيك Radovan Samardzic في كتاب «محمد باشا صوقولوفيتش» (بيوجراد ١٩٦٧).

وبين البلغاريين يحتل نيقولاس تودوروف، وبيزترا شفتيكوفا المكانة نفسها التي يحتلها برقان واناالجيك بين الأتراك من ناحية الكم والكيف في كتاباتهما، وقائمة أعمال تودوروف خلال المدة من ١٩٥١ - ١٩٦٤ تضم ١٠٧ مؤلفا. وينبغي ان نتذكر أنه بعد عام ١٩٦٤ نشر معظم أعماله الرئيسية.. فبين عامي ١٩٦٤ - ١٩٦٩ نشر ٣٤ مؤلفا اضافيا. ورغم أن مجال كتاباته يتدرج من الدراسات المعتمدة على المصادر الأرشيفية الى المقالات العامة، ومن عصر تاريخي الى آخر، الا أن مجال اهتمامه الرئيسي هو العصر العثماني، وتخصصه الرئيسي التاريخ الاقتصادي والحضري. ومع أنه اقتصادي بالدرجة الأولى، الا أن أعماله لاغنى عنها لأي دارس للحكم العثماني لجنوب شرقي أوروبا، بحيث يكون من الصعب بل من المستحيل اختيار أفضل مقالاته وكتبه من بين كل أعماله. ومن الواضح أن الأعمال التي أثبتتها في هوامش هذا الكتاب وفي هذا الفصل الببليوجرافي، استخدمت بكثرة في كتابة هذا الكتاب أكثر من مؤلفاته الأخرى.

أما مجال اهتمامات بيزترا شفتيكوفا فانها أضيق من مجالات اهتمامات تودوروف، اذ أنها متخصصة في العثمانيات. وقائمة مؤلفاتها هائلة بدرجة لاتصدق، وتتضمن كتابات وثائقية وبحوث، ومقالات طويلة نشرت مسلسلة، وعدد هائل من مقالات قصيرة، وتتناول في دراساتها الادارة، والاقتصاد الحضري والريفي، وكل ملامح ومظاهر الحكم العثماني. ولكن مجال اهتمامها الرئيسي أهلها البلغاريون وحياتهم تحت الحكم العثماني. واستطيع أن أرشح كل دراساتها للباحثين دون تحفظ ودون تحديد للمؤلفات بعينها.

أما أعمال جلاب جلابوف، وفيرا موتافيتشيفا، وهما بلغاريان، فانها أعمال متماسكة ومفيدة

ولكنها لا ترقى الى مستوى أعمال تودوروف وشفتيكوفا. كما أن كتاب ايفان شنيجاروف في تقديرى مهم جدا لأنه يركز على التاريخ الثقافى والدينى. وقد وجد بعض أشخاص من بلاد ايفان اسهامات قيعة فى أعماله. ومن ثم قام كل من انجيلوف، ونيكولوف فى عام ١٩٦٤ بنشر أعماله تحت عنوان «الأعمال العلمية للأكاديمى ايفان شنيجاروف فى مجلة Izvestiia na Instituta Za Istoriia pri BAN وكان آنذاك فى الثمانين من عمره. كما نشر بالمجلة نفسها قائمة بأكثر أعماله أهمية. والمقال التالى يعتبر نموذجا لاسهاماته وهو: عقبة الحكم التركى للحياة الثقافية للأمة البلغارية ولشعوب البلقان الأخرى (صوفيا ١٩٥٨).

ومن المستحيل ذكر كل المؤرخين البلغاريين من لأعمالهم قيمتها. ولكن هناك بعض النماذج لارضاء القارئ .. فمن بين أعمال خريستو جانوف «أسباب النهضة البلغارية سنوات ١٦٠٠ - ١٨٣٠» (صوفيا ١٩٤٣). وقد اخترته كنموذج لكتابات لأنه يشير بكثرة الى التاريخ الثقافى. وعلى الباحثين الذين يهتمون بالتاريخ الاقتصادى أن يقرأوا الجزء الأول من كتاب زاك ناثان بعنوان: تاريخ التطور الاقتصادى البلغارى (موسكو ١٩٦١). وفيما يتعلق بتاريخ منطقة البلقان كلها هناك مشروع بدأ تحت اشراف آشركانانيل، وابلى اشكنازى، وهو بعنوان: مصادر يهودية للتطور الاقتصادى - الاجتماعى لبلدان البلقان فى القرن ١٦ (صوفيا ١٩٦٠).

ولا يبقى سوى أن نذكر شيئا ما عن المنح الدراسية التى قدمت لمحاولات كتابة تاريخ بلغاريا تحت الحكم العثمانى، وأول هذه المحاولات ما كتبه يوردان جيورجيف بعنوان: البلغاريون تحت الحكم التركى من نهاية القرن الرابع عشر الى نهاية القرن الثامن عشر (صوفيا ١٩٠١)، ثم ثانيا كتاب آلو هايك بعنوان: بلغاريا تحت الأتراك (شتوتجارت ١٩٢٥). وفى الثلاثينيات نشر أحمد رفيق كتابه: بلغاريا تحت الحكم التركى ٩٧٣ - ١٢٢٥ هـ (١٨٤٠ - ١٨٤٠) استانبول ١٩٣٣. وفى العقد التالى (الأربعينيات) نشر مايكل ليو كتابه La Bulgarie et son peuple sous la domination ottoman, tels que les ont vus les Voyageurs anglo - saxons (1589 - 1878) (صوفيا ١٩٤٩). وهذه الكتابات تصور تنوع وثراء الأعمال التى أجريت على بلغاريا تحت الحكم العثمانى بواسطة باحثين بلغاريين أساسا.

ومن الصعوبة بمكان أيضا اختيار باحثين معينين من بين الباحثين اليوغوسلافيين. وتجدر الإشارة الى أن معظم الدراسات موضع الاهتمام من القراء لهذا الكتاب قد نشرت فى شكل مقالات لاحصر لها، قدمت بملخصات فى الغالب باللغات الأوربية الغربية الرئيسية. ومن ثم فإن مراجعة الجغرافية أمر مطلوب قبل الشروع فى اعداد بحث تفصيلى عن هذا الموضوع. وهذه المقالات فى الغالب عبارة عن بحوث دراسية صغيرة الحجم. وهناك مثالا يوضحان أهمية هذه الدراسات بالنسبة للموضوع والتفاصيل التى يذخران بها وهما: ما كتبه برانيسلاف ديورديف بعنوان «عن الفونك: تطور الاقطاع التركى ومسألة أغوات البوسنة» المنشور فى-Glasnik Zemaljskog muzeja, 2 (1947): 75 - 137 وما كتبه نديم فيليوفتش بعنوان: مراجعة للاقطاع العثمانى مع دراسة خاصة للعلاقات الزراعية، المنشور فى-Godisnjak Istoriskog drustva Bosne I Herecego-

146 - 1 : vine, 4 (1953). ومن بين اعمال فيليبوفتش الكثيرة هناك دراسة شيقة عن فترة الحرب الأهلية التي أعقبت هزيمة العثمانيين في أنقرة ١٤٠٢، وهي فترة لم تدرس دراسة مكثفة، فضلا عن أن الاهتمام بها قليل، ونشرها في Princ Musa I sejh Badreddin (سرايفو ١٩٧١).

والحق أن الباحثين اللذان ذكرتهما آنفا هما من بين دارسين رئيسيين للعصر العثماني في بلدان يوغوسلافيا. وديورديف غزير الانتاج في الحقيقة، وله وجهات نظر ماركسية تطبع معظم كتاباته. ورغم أننا لسنا مضطرون الى قبول كل تفسيراته واراته، الا أن الأساس العلمى لبحته ممتاز وجدير بالانتباه. ومن المستحيل الحكم بعدالة على سعة اهتمامات ديورديف، فمقالته سالفة الذكر تختص بالاقتصاديات، ولكنه نشر أيضا «دور الكنيسة في التاريخ القديم لأهالى الصرب (سرايفو ١٩٦٤). وهي الحقيقة تاريخ أسقفية بيك Pec (بيش) حتى ١٧٦٦. كما أنه نشر عدة مجموعات وثائقية، فقد نشر على سبيل المثال بالاشتراك مع بعض زملائه: الشرائع ومجموعات القوانين الخاصة بسناجق اليوسنة - هرسك، وزفورنيك، وكليش، والجيل الأسود، وسكوتارى، كمجلد أول من سلسلة بعنوان Monumenta turcica (سرايفو ١٩٥٣). ونتيجة لجهود ديورديف فى الاشراف والاعداد فقد وضع فى تصوره طريقا أصيلا لتقديمه المادة الوثائقية العثمانية لعامة الناس، ومن ثم فقد نشر بالاشتراك مع ميلوبا فازيتش «الأراضى اليوغوسلافية تحت الحكم التركى حتى نهاية القرن الثامن عشر» (زغرب ١٩٦٢)، حيث شكلت الوثائق والشروح والمقالات المتصلة بالموضوع جزءا من عمل متكامل أو رواية متكاملة. ولم تقتصر اهتمامات ديورديف على يوغوسلافيا، بل انه نشر دراسة بعنوان الحكم التركى فى الجبل الأسود فى القرنين السادس عشر والثامن عشر (سرايفو ١٩٥٣)، وهو الموضوع نفسه الذى كتب فيه جليجور ستانيفيتش الذى نشر أيضا: عن تاريخ الجبل الأسود فى القرنين ١٦ - ١٧ (نيتوجراد ١٩٥٩)، وأيضاً ما نشره توميكانيكسيفتش، وبرانكو بافيسفتش بعنوان: وثائق الجبل الأسود من القرن ١٤ - ١٩ (سيتفيا ١٩٦٤).

لقد كان ديورديف بالنسبة للباحثين اليوغوسلافيين يماثل عمر لطفى برقان كنموذج رئيسى للباحثين الأتراك فى هذا الشأن. وهناك باحثون كثيرون تمثل بحوثهم أهمية كبرى، ومنهم نديم فيليبوفيتش، وتحقق كتاباته الغرض نفسه من مقالتنا هذه. غير أن المساحة تسمح بذكر قلة قليلة فقط.

أما ايفان بوزيش فقد كتب «تركيا ودوبروفنيك فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر» (بيوجراد ١٩٥٢)، وهو كتاب يتصل بالموضوع. وبالإضافة الى ما ذكرناه من مؤلفين فى هوامش الفصل الخامس عن دوبروفنيك، فان هناك موضوعات أخرى تثبت تنوع الدراسات المتصلة بهذه الجمهورية - المدينة، من ذلك على سبيل المثال ما كتبه دراجان رولر بعنوان: صناعات دوبروفنيك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (زغرب ١٩٥١)، وكتاب جوزيف لويتش عن: بحرية جمهورية دوبروفنيك (دوبروفنيك ١٩٦٢)، فضلا عن مقالات فوك فينار الغزيرة التى تتناول كل ما يمكن تخيله أو تصوره من ملامح أو مظاهر اقتصاد دوبروفنيك. وهناك ثروة من المؤلفات الأدبية عن

النشاطات الثقافية لديبروفنيك. وإذا ما فكرنا في الحديث عن هذا المجال فسوف يقفز الى الذهن أليا أعمال يوروتاديش، ومن بين مؤلفاته الكثيرة هناك «اسهامات مدرسة ديبروفنيك من الرسامين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» في مجلدين (بلغراد ١٩٥٢)، ويعتبر أفضل الأعمال المعروفة في هذا الخصوص. وأما فيما يتعلق بالقرون الأخيرة فهناك كونوبرياتيلي عن «الفن في دلماشيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر» (زغرب ١٩٥٦). كما أن هناك عرض موجز للأدب قدمه بافلوفيتش في كتابه «اسهامات ديبروفنيك في الأدب والثقافة» (سرايفو ١٩٥٥).

وهناك باحثون آخرون أفدت من أعمالهم افادة كبيرة، منهم حازم شعبانوفيتش، وحمدية كرشفلياكوفتش، وجليشا الزوفيتش، وحمد حاجيجيتش. ومن أعمال شعبانوفيتش المنشورة «باشوية البوسنة: تكوينها وتنظيمها الإداري» (سرايفو ١٩٥٩). أما كتاب كرشفلياكوفتش عن «الزعماء والرؤساء في البوسنة والهرسك» (سرايفو ١٩٥٤) فقد تمت مناقشته في هذا الكتاب. وللمؤلف كتاب آخر شيق عن «طوائف الحرف والصناعات في البوسنة والهرسك» (سرايفو ١٩٥٧). ولقد نشر هؤلاء الباحثون الثلاثة وكثيرون غيرهم أعمالا كثيرة جيدة في شكل المقالات الطويلة أساسا.

وبعد هذا ينبغي الإشارة الى عدد آخر قليل من المؤلفين والكتابات الخاصة بالتاريخ الاقتصادي. وأقدم المؤلفات والتي مازال مفيدة، كتاب ننشيك «تاريخ العلاقات الزراعية القانونية: الفلاحون الصرب تحت حكم الأتراك» (بلجراد ١٩٠٢). كما كتب كونستانتين باستايش في المشكلة نفسها بعنوان «حيازات التيمار في نظام الاقطاع العثماني التركي من القرن الخامس عشر الى القرن السابع عشر» (زغرب ١٩٥٨). والحق أن عدد الأعمال وخاصة المقالات الطويلة والتي تتناول كل مظاهر الاقتصاد في العصر التركي من الناحية التطبيقية أعمالا مثيرة وهائلة. ورغم أن كتاب ميومير كوفيتش عن تاريخ يوغوسلافيا الاقتصادية (زغرب ١٩٥٨) أكثر الكتب استخداما، الا أنه مجرد كتاب جامعي عام ولا يهتم كثيرا بالفترة العثمانية.

ويعتبر كتاب اميلي سيكار عن الزادورجيين بعنوان La Zadruga Sud- slave dans l' evol- tion des groups domestiques (باريس ١٩٤٣). أبسط كتاب لمدخل في هذا الموضوع. وقد عرض ميلنكوفيليفوتش حالات خاصة مثيرة وشيقة في هذا الموضوع في كتابه عن «الزادورجيين من غير الأقارب والمنشقين منهم» (بيوجراد ١٩٤٥).

وهناك عدة أعمال تتناول باهتمام الهجرة الكبرى لعام ١٦٩٠ والتي أثرت على كل مظاهر تاريخ الصربيين واليوغوسلافيين، وتاريخ الكنيسة، وحتى تاريخ البحر. ومن هذه الاعمال كتاب دوشان بروفيتش «الهجرة الصربية الكبرى عام ١٦٩٠» (بيوجراد ١٩٥٤)، وكذلك كتاب الكسايفيتش عن هجرة الصربيين الى كرواتيا خلال القرون السادس عشر والسابع والثامن عشر (سابوتيكيا ١٩٢٦)، وهو أقدم من العمل السابق وأكثر شمولا.

وأخيرا ينبغي أن أذكر ان ديورديف لم يكن الباحث الوحيد الذي تناول تاريخ الكنيسة، فهناك

كتاب ايلاريون روفارك الذى نشر بعد وفاته عن «بطريركية بيش (بيك) من ١٥٥٧ - ١٦٩٠» (سرمشكى كارلوفيتش ١٩٣١). وقبل ذلك وفى القرن التاسع عشر ظهر كتاب ميلينكوفوكشفيتش عن «أمة الصرب والكنيسة ورجال الدين داخل الامبراطورية التركية ١٤٥٩ - ١٥٥٧» (بلغراد ١٨٩٦). على أن أكثر الأعمال تخصصا كتاب شفيتسلاف دافيدوفيتش عن «الكنيسة الارثوذكسية الصربية فى البوسنة والهرسك ٩٦٠ - ١٩٣٠ (سرايفو ١٩٣١).

أما فيما يتعلق بالتأريخ لرومانيا والمجر فانه يختلف اختلافا واضحا عن المؤلفات والكتابات التى عرضنا لها سابقا الى حد بعيد. ومن المفهوم أنه رغم ارتباط امارتى الدانوب (ولاشيا ومولدافيا) بالامبراطورية العثمانية، الا أنهما عاشتا تحت حكم حكاهما. والحال كذلك فقد تمتعا بتاريخ سياسى متصل. ورغم أن جزء كبيرا من المجر كان تحت الحكم العثمانى قرابة قرن ونصف من الزمان، الا أن المجرين أيضا كان لهم ملكهم ومجلسهم (الدايت). وبالتالي تمتعوا بتاريخ سياسى متصل. وعلى هذا فقد تم التركيز على التاريخ الوطنى لهذين البلدين (رومانيا والمجر) بشكل اساسى. أما الدراسات التى تتناول الحكم العثمانى بمختلف مظاهره فهى ضعيفة.

لقد كتب تاريخ رومانيا بواسطة باحثين عظام، وهذا التقليد الذى بدأه المؤرخون العظام فى القرنين التاسع عشر واستمر وازدهر بعد الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، وانتج فيضا هائلا من الكتب والدراسات حيث تم تناول أكثر القضايا جزئية فى عدة مقالات قليلة على الأقل. وركز المؤرخون المحليون على المشكلات الوطنية حتى لقد ذكر اسم كل شخص أسهم فى أي مجال من النشاط الانسانى. ومن الطبيعى ان ينتج عن هذا النشاط الضخم الهائل ليس فقط مطبوعات وثائقية نموذجية وقوائم بيلوجرافية ممتازة وفهارس أرشيفية ومواد علمية أصيلة، بل أيضا أنتج عددا هائلا من المقالات والأعمال الجماعية المشتركة والتى ذكرنا عددا منها فى هوامش هذا الكتاب. وفى السطور التالية أركز أساسا على الموضوعات المتصلة بالتأثيرات العثمانية ومن خلال البحوث الكبيرة على قدر الامكان. وهذا التناول من شأنه ان يؤدى بنا الى عدم الاشارة الى بعض الأسماء المهمة فى عالم التأليف والبحث مثل: أندريه أوتيتيا، وستيفان سيتفانشكو، وكونستانتين جيرشيكو، وميهائل بيرزا، وكذلك ماريا الكسندرشكو - ديرسكا المؤرخة الاقتصادية المتميزة للفترة العثمانية، أو الاشارة لهم بين حين وآخر رغم ما تعلمته منهم، ليس فقط من خلال كتاباتهم، وانما من واقع الحديث معهم طويلا، ولأن هذه المقالة (هذا الفصل) تستند على معيار «الفائدة لتعليمي» فانه يجب ان اذكر اسماءهم بكل امتنان واعتراف بالفضل.

لقد ناقش كونستانتينشكو العلاقة بين العثمانيين ومولدافيا فى كتابه «أصول وتأسيس السيادة التركية على مولدافيا» (بوخارست ١٩١٤). كما تناولها أيضا جيرشكو فى كتابه «اتفاقيات الامتيازات بين مولدافيا والسلطان العثمانى» (بوخارست ١٩٠٨). وهناك عملاق يتصلان اتصالا وثيقا بالمشكلة العثمانية، وهو الكتاب الذى وضعه سيرونى بعنوان «لوردات رومانيا لدى السلطان العثمانى» (بوخارست ١٩٤١)، وكتاب جورج موللر بعنوان Die Turkenherrschaft in Sieben-

burgen., Verfassungsrechtliche Verhältnisse Siebenburgens zur pforte (بوخارست ١٩٣٨).

وفيما يتعلق بالدراسات العثمانية هناك مؤلفان رومانيان بارزان وهما: ميهاليل جوبأوغلو، وكارل جولنار. أما جوبأوغلو فقد نشر الفهارس التي أشرنا إليها آنفاً، وفهارس أخرى، ووثائق، ودليلاً للخطوط العثمانية، وعدة مقالات كثيرة، وهو متخصص لانظير له في كل ما يتعلق بالأترك. وقد ترجم بالاشتراك مع زميله الصغير مصطفى محمد الكتاب المثير «المؤرخون الأتراك لبلاد رومانيا - الجزء الخاص من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر» (بوخارست ١٩٦٦)، وهو أول كتاب في مشروع سلسلة طويلة.

وأما كارل جولنار فقد أصبح عن جدارة معروفاً على نطاق واسع بكتابه الذي طبع من مجلدين في ١٩٦١ في بوخارست، وفي ١٩٦٨ في بوخارست - بادن عن Turcica, die euro-paischen Turkendrucke des XVI Jahrhunderts. ورغم أن اهتماماته وكتاباته فيما بعد تتناول موضوعات مختلفة ومتنوعة، فإن مقالاته التي تتناول العصر العثماني تستحق انتباه خاص.

ومن الطبيعي أن تكون الشخصيات البارزة في تاريخ رومانيا مثل مايكل براف، وستيفن الأكبر، وديمتري كانتمير، موضوعاً لعدة كتابات من السير والترجمات شأن الشخصيات الأقل شأنًا. ولكن هناك بعض دراسات قام بها أشخاص صنعت أسماءها خارج رومانيا. ومن هؤلاء على سبيل المثال كاميل مورشان الذي كتب عن جون هونيادي (الطبعة الثانية - بوخارست ١٩٦٨)، وكتاب الكسندر ستروودشا عن عائلة مافروكوردات المهمة بعنوان I Europe orientale et la Role Histo-rique des Mafrocordato (1660 - 1830)

وهناك ثلاثة كتب تعتبر نماذج للأعمال الغنية التي تتناول التاريخ الاقتصادي، وكل واحد منها يختص بأحد البلدان الرومانية الرئيسية: فكتاب «الحياة الاقتصادية في ولاشيا ومولدافيا من القرن الرابع عشر إلى السابع عشر (بوخارست ١٩٥٧) ألفه كل من فالريا كوستاشل، وبناتشكو، وكازاشو. والكتاب الثاني بعنوان: الأحوال الزراعية في مولدافيا في القرن الثامن عشر (بوخارست ١٩٦٨) من تأليف ميهورديا. أما الكتاب الثالث فهو أحد أعمال صمويل جولدنبرج المؤرخ الاقتصادي العظيم لترانسلفانيا بعنوان «مدينة كلوى في القرن السادس عشر: إنتاج وتبادل السلع» (بوخارست ١٩٥٨).

وهذا الكتاب الأخير دليل على وجود توارخ للمدينة لكل الأماكن ذات المغزى. وهناك عملاق يتناول تاريخ مدينة بوخارست، يدلان على تنوع الموضوعات التي تم تناولها: أولهما كتاب ميلان بوبوفيتش بعنوان «ملاحم التاريخ المالي لمدينة بوخارست» (بوخارست ١٩٦٠)، والثاني كتاب بانايت بعنوان «ملاحم من معارك شعب بوخارست ضد الحكم الفناري - التركي» (بوخارست ١٩٦٢). على أنني شخصياً أرى أن أفضل الكتب التي تناولت تاريخ المدن، الكتاب الذي ألفه دان بيرندي بعنوان «مدينة بوخارست: مقر ولاشيا وعاصمتها ١٤٥٩ - ١٨٦٢» (بوخارست ١٩٦٣)

لأنه يحتوى على أفضل بيلوجرافية.

وتاريخ ترانسلفانيا تمت دراسته من كل الزوايا الممكنة. وفيما يتعلق بتاريخها الاقتصادى، فبالإضافة الى كتاب جولدنبرج الذى سبق ذكره، هناك الدراسة الضخمة التى قام بها دافيد برودان بعنوان «القنية فى ترانسلفانيا القرن السادس عشر» وهو من ثلاثة مجلدات (بوخارست ١٩٦٧ - ١٩٦٨)، وهى تمثل أفضل الكتابات فى هذا الموضوع. وأما بالنسبة للتاريخ الدبلوماسى الخاص بالفترة الحرجة التى أعقبت معركة موهاكز فى ١٥٢٦، هناك دراسة جيدة كتبها روديكيا كيوكان بعنوان: سياسة الهابسبورج تجاه ترانسلفانيا أيام شارل الخامس ١٥٢٦ - ١٥٥٦ (بوخارست ١٩٤٥). كما كتب ستيفان باشكو عن تاريخ الامارة المستقلة بعنوان «ترانسلفانيا فى فترة الامارة: عصر السيادة التركية ١٥٤١ - ١٦٩١» (كلوى ١٩٤٨).

أما أفضل الدراسات التى تعد مدخلا للتاريخ الدينى والثقافى فهى الدراسة المشتركة التى نشرتها جمعية تعلم الانجيل والارسلية الارثوذكسية بعنوان «تاريخ الكنيسة الرومانية» فى مجلدين (بوخارست ١٩٥٧ - ١٩٥٨)، وكتاب باناتيسكو بعنوان «مدخل للتاريخ الثقافى للرومانيين» (بوخارست ١٩٦٩).

وأخيرا سلسلة المطبوعات باللغة الأجنبية التى سبق ذكرها وعى بعنوان Bibliotheca Historica Romaniaica والتي نشرت حتى الآن مجلدات تتعلق بالفترة موضوع هذا الكتاب. والكتاب السابع فى تلك السلسلة الذى ألفه سيتفان باشكو الذى أشرت اليه أنفا بعنوان Der Transsilvanische Volksaufstand, 1437 - 38، يليه الكتاب رقم ٣٦ وهو من تأليف ميهورديا بعنوان Maitres du sol et Paysans dans les Principautés Roumaines au XVIIe siecle (بوخارست ١٩٧١)، والكتاب رقم ٤١ وهو من تأليف بول كرونوفودينو بعنوان England's Trade Policy in the Levant, 1660 - 1714 (بوخارست ١٩٧٢)؛ ويركز على التجارة مع بلدان رومانيا.

وفى كثير من الأمور تتوازى كتبات الباحثين المجريين مع نموذج الكتابات الرومانية التى عرضنا لها، فهناك كمية ضخمة من الأعمال سواء فى شكل مقالات أو بحوث، ولا يمكن ذكرها كلها أو اثباتها لانها على الرغم من أهميتها فانها تتناول موضوعات بعيدة عن مجال بحثنا. والحق ان ضيق المساحة لايسمح الا بذكر كل من زجموند بال باش، وكالمان بندا، ولاشلو مكاي، وكلارا هييجى، وآخرون كثيرين أفدت كثيرا من أعمالهم.

لقد اهتم المجريون منذ مدة طويلة بالشؤون التركية، وابتداء من ارمين فامبرى هناك عدة باحثين يتمتعون بسمعة دولية. منهم جويلا نيتمث، ولايوفيكيتيه، وجويلا كالدى - ناجى. وكانت معظم أعمالهم فى الشؤون التركية البحتة، والمنهج، ونشر الوثائق قبل اصدار عدد من المادة البحثية التى تتعلق بالمقاطعات والمدن بجانب تلك التى تتناول المنطقة المحتلة بشكل عام. كما ظهرت عدة مقالات ممتازة تتناول تلك الموضوعات أيضا. كما تم تمشيط ما تحتفظ به العائلات من أوراق للبحث عن معلومات تركية تم نشرها فيما بعد.

وهذه الأعمال على جانب كبير من القيمة لكن الدراسات التي تتناول موضوعات تاريخية بحثة نادرة الى حد بعيد. وقيل ان يتم تبيان أهمية ميزوفاروشك، وبعض قضايا أخرى، لم يكن المؤرخون المجرينيون يهتمون الا قليلا بموضوع تاريخ البلدان التي في حوزة الأتراك، عندما يقارنون حياة تلك البلدان وتطورها بما حدث في المجر وسلوفاكيا وترانسلفانيا تحت حكم الهابسبورج. وهكذا ركز عدد قليل من المؤرخين على دراسة فترة الحكم التركي، ومن هؤلاء ساندور تاكازر الذي كتب ثلاثة مجلدات عن «لحاحات من الأيام التركية» (بودايست ١٩١٥ - ١٩١٧). وقد تفوقت عليه ماريا شيفاب في كتابها: تطور اقرار العدل في مدن السهل الكبير خلال فترة الاحتلال التركي (بودايست ١٩٣٩)، وكذلك زولت باكاي في كتابه «تاريخ مقاطعة فيزيرم تحت الحكم التركي من خلال سجلات سيزي ١٥٣١ - ١٦٩٦» (فيزيرم ١٩٤٢). والى هذه المجموعة من الدراسات التي تركز على الفترة التركية ينتمي بال زابو الذي كتب «بيش التركية (بيك)» (بيش ١٩٥٨). ولا يمكن التأكيد هنا على أهمية الموضوعات المنشورة في الدوريات لأنها تضم ثروة كبيرة من الدراسات الجيدة، وتعتبر مقالة جويلا كالدي - ناجي بعنوان «مادة احصائية عن تدفق البضائع تجاه الغرب من الاقليم تحت الحكم التركي - الكتاب السنوي للاحصاءات التاريخية ١٩٦٥ - ١٩٦٦»، ص ٢٧ - ٩٧، نموذجاً لمثل هذا النوع من المقالات.

أما البحوث الأدبية فانها تركز على المجر تحت حكم أسرة الهابسبورج وعلى ترانسلفانيا. ولقد سبقت الاشارة الى عدة مجموعات وثائقية صدرت تتعلق بدراسة هذه الامارة (ترانسلفانيا). وهناك عمل واحد على الأقل صدر عن كل شخصية تاريخية رئيسية أو سياسات رئيسية لمختلف الأمراء الحكام التي تم عرضها سابقا. كما تم وصف الحملات العسكرية وتشريح كل منها. وباختصار فهناك من قام بدراسة كل مظهر من مظاهر الحياة العامة في ترانسلفانيا. وسوف نقدم بعض الأمثلة التي تكفي لتوضيح تنوع الموضوعات التي تم تناولها: فقد كتب لايش زاديكي - كارديوس عن مشكلة السكييليين في كتابه «تاريخ الشعب السكييلي وتكوينه» (بودايست ١٩٢٧)، على حين ناقش جيورجي بونيش الثنائية الغربية لهذا الشعب في كتابه «القانون السكييلي والقانون المجرى» المنشور في كولوشفار ١٩٤٢. وأكثر الدراسات التاريخية التي تناولت بتفصيل تاريخ السكييليين ماقام به ستيفان روجونفالفي كيس في كتابه «صورة الشعب السكييلي النبيلة» في ثلاث مجلدات (دبرسين ١٩٣٩ - ١٩٤٠).

وهناك دراسة شيقة تناولت مشكلة الشعوب والعقائد المقبولة في ترانسلفانيا كتبها ميكلوش اندز بعنوان «تاريخ الحكم الذاتي في ترانسلفانيا القائم على ثلاثة قوميات وأربع عقائد دينية» (بودايست ١٩٣٥). وبالنسبة لتاريخ ترانسلفانيا خلال فترة هذا الكتاب هناك الكتب المهمة التالية: ماكتبه كارولي لام بعنوان «تنظيم الدابت الترانسلفاني ١٥٤١ - ١٨٤٨ المنشور - في كولوشفار ١٩١٨ وكتاب جويلا فايدا بعنوان «علاقة ترانسلفانيا بالسلطان العثماني والامبراطور الالماني بوصفه ملكا مجريا خلال فترة الامارة الوطنية ١٥٤٠ - ١٦٩٠» (كولوشفار ١٨٩١)، وكتاب يوهان ليتاك عن «تاريخ الضرائب التركية في امارة ترانسلفانيا» المنشور في كزمارك ١٩١١، وكتاب فنسل

بايرو عن «سفراء ترانسلفانيا لدى السلطان العثماني» (كولوشفار ١٩٢١)، وكتاب اميرى لوكينيتش عن «التغيرات فى اراضى ترانسلفانيا خلال فترة الغزو العثماني ١٥٤٠ - ١٧١١» (بودابست ١٩١٨)، وماريا شنتجيوروجى فى كتابها «التزامات الأتقان فى ترانسلفانيا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر» (بودابست ١٩٦٢)، وكتاب جابريل جازبار «محاولة أمراء ترانسلفانيا لتولى عرش بولندا» المنشور فى دبرسين ١٩٤٣، وهو بحث جيد لكن النتائج التى توصلت اليها تخضع للمناقشة والتساؤل.

والحقيقة أن معظم تلك الكتب قديمة، ولأن الباحثين المحدثين يركزون فى بحوثهم على موضوعات أخرى، فينبغى ألا ننسى تلك الكتب القديمة. ورغم أن الدراسات الأكثر حداثة على جانب كبير من الأهمية، إلا أنها متخصصة جدا بحيث لا أجد مبررا لذكرها هنا، أو أنها تتناول قضايا ومسائل خارج دائرة هذا الكتاب .. وقد يكون مفيدا لوقام مؤرخون مجريون معاصرون باعداد دراسة لتصحيح محاولة الباحث الفرنسى ليفيفر A. Lefavre غير الناجحة فى كتاب، Les Magyars pendant la domination ottomane en Hongrie (1526 - 1622), 2 vols. (paris, 1902)

وللتشيك تاريخ قديم فى الكتابة عن جنوب شرقى أوروبا ابتداء من المؤرخ المشهور يوسف كونستانين يرشيك الذى كتب «تاريخ الأمة البلغارية» المنشور فى براها ١٨٧٦. وأيضا الكتاب المعروف عن «التشيك فى الصرب» فى مجلدين (جوثا ١٩١١ - ١٩١٨). وقد ترجم كل من الكتابين وأعيد نشرهما. وقد كتب خليفته المتميز يوسف كابرذا عدة مقالات تتعلق بالدراسات التركية والبلغارية، فضلا عن دراسته الممتازة بالفرنسية La systeme fiscal de l' Eglise orthodoxe dans l' Empire ottoman d' apres les documents turcs (Brno, 1969). ويقوم الباحثون الجدد فى تشيكوسلوفايا الآن باعداد دراسات رائعة جدا ..

وفى بولندا أيضا عدد من دارسى الشؤون العثمانية ذائعى الصيت والشهرة، وفى مقدمتهم المؤرخ المشهور يان ريخمان الذى نشر بالاشتراك مع انانياش زايشكوفسكى كتاب Zarys Dy ploma tyki Osmanko - Tureckiej (وارسو ١٩٥٥)، والذى ترجمة أندرو ارنكروتش الى الانجليزية بعنوان Hand book for Ottoman - Turkish Diplomats (The Hague, 1968). كما أعدت زايشكوفسكى بالاشتراك مع زجمونت ابراهاموفيتش «فهرس الوثائق العثمانية: وثائق عن بولندا والدويلات المجاورة لها ١٤٥٥ - ١٦٨٢»، المجلد الأول نشر فى وارسو ١٩٥٩. ويضاف الى هذين المثلين ماكتبه فالديسلاف كونوبشنسكى بعنوان «بولندا وتركيا ١٦٨٣ - ١٧٩٢» (وارسو ١٩٣٦)، لأوضح أنه فى بولندا مايزال البحث مستمر لمزيد من الدراسات عن الموضوعات التركية.

وفى الختام لا بد من الاشارة فى ايجاز الى عملية البحث فى العالم الغربى بشأن هذا الموضوع. ومن المعروف ان الباحثين الذين كتبوا فى هذا المقام معروفون جيدا، وما كتبوه فى متناول اليد، ومن ثم فأننى أأمل ان يعذرنى القارئ على هذه المعالجة الموجزة لاسهامات الباحثين الغربيين.

بدأت الرغبة فى فهم ودراسة حياة العثمانيين منذ فترة طويلة عن طريق الرحالة وفى مقدمتهم

دى بوسبك De Busbecq الذى ورد ذكره فى هذه المقالة البليوجرافية. وبالعمل الذى أعده همر - بورجستال، بدأ الباحثون الغربيون كتابة التاريخ العثماني. وقد استمر هذا التقليد حتى الوقت الحاضر. ويمكن تصنيف الذين كتبوا عن العثمانيين من الباحثين الغربيين الى مجموعتين: الاولى تضم المتخصصين الحقيقيين، والثانية تضم هؤلاء الذين أصبحوا مهتمين بموضوع عثمانى ما، وكتبوا شيئا له قيمته رغم أن معظم ما كتبوه فى الحقيقة قد تم بحثه فى موضوعات أخرى من التاريخ.

ومن بين المتخصصين فى العثمانيات هناك باحثون مثل كلود كاهن، أو بول فيتيك، والتي كانت اهتماماتهم الرئيسية عن الأتراك قبل العثمانيات، أو بدايات الامبراطورية العثمانية. وهناك آخرون تناولوا موضوعات متنوعة ومختلفة تشمل مختلف فترات التاريخ العثماني مثل فرانز باننجر، وهارولد بوون، والكسندر بننجسن، وبرتولد سيلر، وكارل بروكلمان، وجوئارد ياشك. وأعمال هؤلاء الباحثين لاغنى عنها لمن يتناول أى موضوع من موضوعات التاريخ يرد فيه ذكر العثمانيين. لكن ما ورد فى هذه الأعمال عن مشكلات جنوب شرقى أوروبا تحت الحكم العثماني جاء هامشيا. والأمر كذلك بالنسبة للمتخصصين الروس. فمثلا فازيلى بارتولد (والذى يعرف أيضا باسم فلهلم بارثولد)، وهو من بين هؤلاء الباحثين، يبحث فى الفترة المبكرة للأتراك، واناتولى ميللر من الباحثين الذين يكتبون عن الامبراطورية العثمانية فى أواخر أيامها.

أما كل من بارنيت ميللر، وسيدنى فيشر، والبرت ليبير، وهارولد لامب، وهستريكينز، وروجر ميريمان، وآخرون فقد كتبوا عملا أو أكثر من عمل قيم من خلال مراجع باللغة الغربية فى بعض الأحيان، وفى كل الاحيان. أما الباحثون الجدد ويمثلهم ستانفورد شو، وسيروس فريونس الأبن، فانهما أفضل نموذجين لأنهما مزجا بين التدريب على الأمور العثمانية ومعرفة لغات المنطقة مع الاهتمام الواسع العريض باحوالها، وأجروا دراسات لها قيمتها عند المهتمين بالعثمانيات، أو عن الشعوب التي عاشت تحت الحكم العثماني.

إذا انتقلنا من دارسى العثمانيات الى دارسى البلقانيات، سوف نجد أن معظم الباحثين الذين ذكرتهم فى هذه المقالة (مثل جيفر أو شيفيل) اعتمدوا فى بحثهم على المصادر والمراجع المكتوبة باللغات الغربية بشكل أساسى. وأما الباحثون مثل هوف سيتون - واتسون، أو المجرى اميل نايد - هوسر، واللذان يجيدان كل اللغات الضرورية للكتابة عن جنوب شرقى أوروبا تحت الحكم العثماني، وأيضا على دراية بحركة التاريخ للمنطقة، فان كتاباتهم فى هذا الخصوص ليست كثيرة، وتركز الى حد بعيد على القرنين ١٩ - ٢٠. ورغم وجود عدد كبير من المتخصصين المعتادين فى تاريخ المنطقة والذين يعرفون أكثر من لغة من لغاتها، مثل تشارلز وبربارا يلافيتش، وفاين فوشنيك، وميشيل بتروفيتش، وجمال ستوكس، وجورج قسطلانى، وجورج هويت، وآخرون معهم، إلا أنه ينقصهم معرفة الأتراك العثمانيين، أو أنهم ركزوا كتاباتهم على القرنين الاخيرين من تاريخ الامبراطورية العثمانية. وأما الباحثون أمثال لفتن ستافريانوس، وترايات ستويانوفيتش، فانهما نادرين فى الغرب الأوروبى، وهذا هو السبب الذى يجعل من الأهمية بمكان التعرف على أعمال الباحثين من جنوب

شرقي أوروبا نفسها. وينبغي الإشارة مرة أخرى الى اننا نجد بين الباحثين الشبان ممن تدرّبوا تدريبا جيدا ولهم اهتمامات وقدرات ملحوظة، مما يدل على أن العمل المتخصص في تاريخ جنوب شرقي أوروبا تحت الحكم العثماني سيمضي قدما الى الامام. وتشتمل قائمة الباحثين الشبان هذه على كل من: جون فاين في الولايات المتحدة الامريكية فضلا عن عدد كبير من الأوربيين

والجدير بالذكر أنه في مقابل كل اسم ورد في هذه المقالة اضطرت الى حذف اثني عشر اسما، وأنه في مقابل عنوان كتاب ذكرته ضحيت بذكر خمسة وعشرون كتابا. ولما كان هذا الكتاب نفسه يعد مسحا عريضا للموضوع فكذلك هذه المقالة البيليوجرافية التي حاولت توضيح ان هناك ما يكفي من المصادر الأساسية والمراجع الثانوية المنشورة لاجراء دراسة عميقة لمعظم القضايا التي لمسناها في هذا الكتاب. وإذا كان من السهل التوصل الى أرشيفات ومكتبات جنوب شرقي أوروبا واستخلاص المادة العلمية منها، فيمكن تحقيق الكثير من الدراسات حول هذا الموضوع، لكن المادة العلمية المتاحة فيما هو منشور، تسمح للباحث الذي يعيش خارج المنطقة لدراسة معظم الموضوعات بتفصيل كبير.



المطلق رقم (١)

بيت آل عثمان

تاريخ الميلاد	تاريخ تولي العرش	تاريخ نهاية الحكم	الاسم
١٢٥٨	١٢٨١ / ١٣٠٠	(١) ١٣٢٤	عثمان الأول
١٢٨٨	١٣٢٤	١٣٦٠	أورهان
١٣٢٦	١٣٦٠	١٣٨٩	مراد الأول
١٣٦٠	١٣٨٩	١٤٠٢	بايزيد الأول
خلو العرش (٢)			
١٣٨٩	١٤١٣	١٤٢١	محمد الأول
١٤٠٤	١٤٢١	(١) ١٤٤٤	مراد الثاني
١٤٣٢	١٤٤٤	(ب) ١٤٤٦	محمد الثاني
١٤٤٨	(٣) ١٤٥١	١٤٨١	بايزيد الثاني
١٤٧٠	١٤٨١	(ب) ١٥١٢	سليم الأول
١٤٩٤	١٥١٢	١٥٢٠	سليمان الأول
١٥٢٤	١٥٢٠	١٥٥٦	سليم الثاني
١٥٤٦	١٥٧٤	١٥٩٥	مراد الثالث
١٥٦٦	١٥٩٥	١٦٠٣	محمد الثالث
١٥٩٠	١٦٠٣	١٦١٧	أحمد الأول
١٥٩٢	١٦١٧	(ب) ١٦١٨	مصطفى الأول
١٦٠٤	(٣) ١٦٢٢	(ب) ١٦٢٣	عثمان الثاني
١٦٠٩	١٦١٨	(ج، ب) ١٦٢٢	مراد الرابع
١٦١٥	١٦٢٣	١٦٤٠	ابراهيم
١٦٤٢	١٦٤٠	(ج، ب) ١٦٤٨	محمد الرابع
١٦٤٢	١٦٤٨	(ب) ١٦٨٧	سليمان الثاني
١٦٤٣	١٦٨٧	١٦١٩	أحمد الثاني
١٦٦٤	(ج) ١٦١٩	١٦٩٥	مصطفى الثاني
١٦٧٣	١٦٩٥	(ب) ١٧٠٣	أحمد الثالث
١٦٩٦	١٧٠٣	(ب) ١٧٣٠	محمود الأول
١٦٩٩	١٧٣٠	١٧٥٥	عثمان الثالث
١٧١٧	١٧٥٤	١٧٥٧	مصطفى الثالث
١٧٢٥	١٧٥٧	١٧٧٤	عبد الحميد الأول

١٧٨٩	١٧٦١	سليم الثالث
١٨٠٧	١٧٧٩	مصطفى الرابع
١٨٣٩	١٧٨٥	محمود الثاني
١٨٦١	١٨٢٣	عبد المجيد
١٨٧٦ (ب، ج)	١٨٣٠	عبد العزيز
١٨٧٦ (ب)	١٨٤٠	مراد الخامس
١٩٠٩ (ب)	١٨٤٢	عبد الحميد الثاني
١٩١٨	١٨٤٤	محمد الخامس رشاد
١٩٢٢ (ب)	١٨٦١	محمد السادس فهد الدين
١٩٢٤	١٨٦٨	عبد المجيد الثاني (هـ)

(أ) أصبح لوردا اقطاعيا في ١٢٨١ وحاكما مستقلا في ١٣٠٠. (ب) انتهى حكمه بالعزل.

(ج) قتل. (هـ) حمل لقب خليفة فقط

(١) تاريخ التنازل عن العرش. (٢) فترة خلو العرش الكبيرة ٢٨ يولية ١٤٠٢ - ٥ يولية ١٤٢١.

(٣) استئناف الحكم.

شغل المنصب

اسم الأمير	مقر الحكم	من	الى
عيسى	بالكيشير / بورصة	١٤٠٢	١٤٠٣
موسى	بورصة	١٤٠٣	١٤٠٤ (أخذ بورصة من عيسى)
محمد	أمازيا	١٤٠٢	١٤٠٤
	أمازيا / بورصة	١٤٠٤	١٤١٣ - أخذ بورصة من موسى موحد الأناضول)
سليمان	أدرنه	١٤٠٢	١٤١١
موسى	أدرنه	١٤١١	١٤١٣ (انتقل الى أوريا وأخذ أدرنه من سليمان)

وفى ١٤١٣ قام محمد بهزيمة موسى وأخذ أدرنه واعاد توحيد الامراتورية

ملحق رقم (٢)

الصدر العظام

طبقا للتقاليد التي لاتسندها أدلة وثائقية قام السلطان أورهان بتعيين أخيه وأحد أبنائه فيما بعد، كأول صدرين أعظمين. فاذا حسبنا هذين الأثنين، فإن الملاحظ ان ١٧٨ شخصا تولوا هذا المنصب الى أن الغاه السلطان عبد العزيز في نوفمبر ١٨٦٢. وقد تولى عدد كبير من هؤلاء الصدر العظام المنصب أكثر من مرة.

ولهذا المنصب مكانة براقه، ويمثل سلطة عظيمة، لكنه كان محفوفًا بالمخاطر أيضا. فبالإضافة الى خضوع الصدر الأعظم الى التقلبات العاطفية والمزاجية للسلطان واختياراته، فإنه تعرض لعدة مخاطر وصعاب. فمن الملاحظ أن ستة من الصدر العظام ماتوا في معارك حربية، وثلاثة اغتيلوا، وواحد وعشرين أعدموا بأمر السلطان. ولم يمت مئة طبيعية الا ٢٢ منهم وهم يؤدون واجبهم الوظيفي.

ومعظم الصدر العظام تولوا المنصب لفترة قصيرة. ولم يكن أمر غير عادى أن يبقى الصدر الأعظم فى منصبه أقل من عام، بل فى بعض الحالات القليلة لم يبق الا ساعات قليلة. والذين تولوا المنصب أطول فترة ممكنة دون انقطاع هم:

- قره - خليل قندرلى (تحت حكم مراد الثانى) لمدة ٢٥ سنة.
 - على قندرلى (تحت حكم مراد الثانى وبايزيد الأول) لمدة ١٨ سنة
 - محمد صوقوللو (تحت حكم سليمان الأول وسليم الثانى ومراد الثالث) لمدة ١٥ سنة.
 - احمد كوبروللو (تحت حكم محمد الرابع) لمدة ١٥ سنة.
 - ابراهيم (تحت حكم سليمان الأول) لمدة ١٣ سنة.
- وقد تمكنت أسرنا قندرلى وكوبروللو من تأسيس مايمكن تسميته بالعائلات
الوزارية على النحو الآتى:

الصدر العظام من عائلة قندرلى:

- قره - خليل ١٣٥٩ - ١٣٨٥
- على (ابن قره خليل) ١٣٨٦ - ١٤٠٤
- أبراهيم (بن على) ١٤١١
- بايزيد ١٤١٨
- خليل (ابن ابراهيم) ١٤٢٩ - ١٤٥٣
- ابراهيم (ابن خليل) ١٤٩٧ - ١٤٩٩

الصدور العظام من عائلة كوبروللو

- محمد ١٦٥٦ - ١٦٦١ .
- أحمد (أبن محمد) ١٦٦١ - ١٦٧٦
- كارا مصطفى (ابن أخ محمد) ١٦٧٦ - ١٦٨٣
- مصطفى (ابن محمد) ١٦٨٩ - ١٦٩١
- حسن (ابن أخ محمد) ١٦٩٧ - ١٧٠٢
- نعمان ١٧١٠

ملحق رقم (٣)

الحملة العسكرية الرئيسية، ومعااهدات الصلح، والأراضي التي كسبتها وخسرتها الامبراطورية العثمانية في أوروبا ١٣٤٥ - ١٨٠١

- ١٣٤٥ الحملة العثمانية الأولى في أوروبا.
- ١٣٤٩ الحملة العثمانية الثانية في أوروبا.
- ١٣٥٢ الاستيلاء على شيمب.
- ١٣٥٤ الاستيلاء على جاليولي.
- ١٣٥٤ - ١٣٥٦ الاستيلاء على شرقي ثراس بمحاذاة الشواطئ الغربية لبحر مرمرة بما فيها مدن وجورلو، وديديموتيكوس.
- ١٣٦٠ - ١٣٦٦ الاستيلاء على ثراس شرق نهر ماريتشا الأدنى بما فيها ستارا زاجورا.
- ١٣٦٥ الاستيلاء على أدرنه، وبلوقديف.
- ١٣٦٦ هزيمة العثمانيين في قيدين وخسارتهم جاليولي.
- ١٣٦٦ - ١٣٦٩ الاستيلاء على وسط بلغاريا بين رودوب والبلقان.
- ١٣٧١ انتصار العثمانيين في القرم، وما تبعه من الاستيلاء على الخوفو، وبامبول، وآيتوز.
- ١٣٧١ اعلان كرنا جورا (الجبل الأسود) استقلالها.
- ١٣٧٢ قول حاكم بلغاريا وضع التبعية للسلطان العثماني.
- ١٣٧٦ البيزنطيون يعيدون جاليولي للعثمانيين.
- ١٣٨٠ عبور نهر فاردار والاستيلاء على بيتولا.
- ١٣٨٣ الاستيلاء على سيرز.
- ١٣٨٥ الاستيلاء على صوفيا.

- ١٣٨٦ الاستيلاء على نيش.
- ١٣٨٧ الهزيمة على نهر تويولنكا، والاستيلاء الأول على تسالونيك.
- ١٣٨٨ الهزيمة فى بلوشنك، وعبور البلقان والاستيلاء على كولاروفجراد، وبروفاديا، ونوفى بازار.
- ١٣٨٩ معركة كوزوفا الأولى وأول الغارات داخل المجر.
- ١٣٩٠ - ١٣٩١ أول الغارات البحرية على جزيرة خيبوس، وهالكيس، وأتيكى.
- ١٣٩١ الاستيلاء على سكوبيه.
- ١٣٩١ - ١٣٩٨ الحصار الأول للقسطنطينية.
- ١٣٩٣ الاستيلاء على سيلبسترا.
- ١٣٩٤ الاستيلاء على تورنوفو، ونيقوبوليس، والغارات على المورة.
- ١٣٩٥ معركة على نهر أرجز، وولاشيا توافق على دفع الجزية، والغارات داخل المجر.
- ١٣٩٦ معركة نيقوبوليس.
- ١٣٨٩ الاستيلاء على فيدين.
- ١٣٩٧ - ١٣٩٩ الغارات على تساليا، ودوريس، ولوكريس، وشمال شرق المورة، وجنوب البانيا وايروس.
- ١٤٠٣ فقدان تسالونيك.
- ١٤١٦ حرب غير حاسمة النتيجة مع البندقية
- ١٤١٩ الحرب مع ولاشيا وأسر جيرجيو Giurgiu.
- ١٤٢٠ أول هجوم على ترانسلفانيا.
- ١٤٢١ الهجوم على ترانسلفانيا مع تدمير براصوف.
- ١٤٢٢ الحصار الثانى للقسطنطينية.
- ١٤٢٣ - ١٤٣٠ الحرب مع البندقية.
- ١٤٣٠ إعادة الاستيلاء على تسالونيك والاستيلاء على معظم ايروس وجنوب البانيا، وغارات جديدة على المورة.
- ١٤٣٢ غارات على ترانسلفانيا.
- ١٤٣٧ الحرب مع المجر.
- ١٤٣٨ غارات على ترانسلفانيا؛
- ١٤٣٩ الاستيلاء على سميدريفو، والبوسنة توافق على دفع الجزية، والانتصار فى المعركة الأولى فى شالانكيمن.
- ١٤٤١ هزيمة العثمانيين فى بيوجراد.
- ١٤٤١ - ١٤٤٢ غارات على ترانسلفانيا.
- ١٤٤٢ الهجوم على المجر وهزيمة العثمانيين فى يالوميتا.

- ١٤٤٣ الهجوم المجرى المضاد يصل الى قيدين وصوفيا، وهدنة شيجد تعطى المجرين حرية العمل فى ولاشيا والصرب.
- ١٤٤٤ المجرىون يخرقون الهدنة، والانتصار العثمانى الكبير فى فارنا.
- ١٤٤٦ غارات على المورة.
- ١٤٤٨ هزيمة المجرىين فى معركة كوزوفا الثانية، والعثمانيون يغزون الصرب ويهاجمون وسط البانيا.
- ١٤٥٠ هجوم على البانيا.
- ١٤٥٣ الاستيلاء على القسطنطينية.
- ١٤٥٤ الهجوم على الصرب.
- ١٤٥٥ الاستيلاء على نوفي برود، وكروشيفاك، ومولدافيا توافق على دفع الجزية.
- ١٤٥٦ الهجوم على بلجراد.
- ١٤٥٩ الهزيمة النهائية للصرب
- ١٤٦٠ الاستيلاء على دوشى Duchy الأثينية، وجزء كبير من المورة.
- ١٤٦١ الاستيلاء على ممتلكات جنوة فى بحرايجه.
- ١٤٦٢ غزو ولاشيا.
- ١٤٥٦ - ١٤٦٣ حروب مع سكندر بيچ (جورج كاستريونى) فى البانيا.
- ١٤٦٣ الاستيلاء على جنوبى ووسط البوسنة (شمال البوسنة مجرى)، وخسارة المورة لحساب البندقية.
- ١٤٦٤ اعادة هزيمة المورة.
- ١٤٦٥ الاستيلاء على الهرسك.
- ١٤٦٧ الاستيلاء على البانيا فيما عدا القلاع التى فى يد البنادقة.
- ١٤٦٣ - ١٤٧٩ حرب طويلة مع البندقية.
- ١٤٦٨ غارات على دلماشيا وكرواتيا.
- ١٤٧٠ الاستيلاء على نجرىوتيه.
- ١٤٧١ غارات على كرواتيا.
- ١٤٧٣ غارات على كرواتيا.
- ١٤٧٤ حصار شكودر، وغارات على ترانسلفانيا.
- ١٤٧٥ تثار القرم يصبحون اتباعا للعثمانيين.
- ١٤٧٦ حملات ضد المجر وولاشيا، وولاشيا تصبح ولاية تابعة.
- ١٤٧٧ - ١٤٧٨ غارات على ايطاليا والاستيلاء على حصون وقلاع البندقية فى البانيا: كروبا ، ولىش، ودرىشتى.
- ١٤٧٩ الصلح مع البندقية والعثمانيون يواصلون انتصاراتهم ويستولون على شكودر وجزيرة ليمنوس، والغارات على المجر والهزيمة الترانسلفانية - العثمانية فى كينرميزو.

- ١٤٨٠ النزول فى أوترانتو.
- ١٤٨٠ - ١٤٨١ حصار رودس.
- ١٤٨١ الجلاء عن أوترانتو.
- ١٤٨٣ الاستيلاء على الهرسك.
- ١٤٨٤ الحرب مع مولدافيا، والاستيلاء على كيلىا، وبلهورود دنستروفنسى.
- ١٤٩٤ الهجوم على الجبل الزسود.
- ١٤٩٧ الاخضاع النهائي لألبانيا.
- ١٤٩٩ الاستيلاء على الجبل الأسود، واستيلاء البندقية على قبرص من آخر ملوكها أدى الى:
- ١٤٩٩ - ١٥٠٣ الحرب مع البندقية التى انتهت بالاستيلاء على نافباكتوس، وميثونى، وكورونى، ونافارينو.
- ١٥١٢ مولدافيا تصبح ولاية تابعة للعثمانيين.
- ١٥٢٠ الاستيلاء على اجزاء من شمالى البوسنة.
- ١٥٢١ الاستيلاء على بلجراد والاغارات على المجر والنمسا.
- ١٥٢٢ الاستيلاء على رودس وأورصوفا.
- ١٥٢٦ معركة موهاكز الأولى والاحتلال الأول لبودا.
- ١٥٢٧ الاستيلاء على يايك، وكل شمالى البوسنة.
- ١٥٢٨ الاستيلاء على بودا للمرة الثانية.
- ١٥٢٩ الحصار الأول لفيينا.
- ١٥٣٢ الاستيلاء على كوشيج، والانسحاب من المجر.
- ١٥٣٣ هدنة استانبول، وفرديناند وزابولياى يوافقان على دفع الجزية.
- ١٥٣٥ التحالف العثمانى - الفرنسى (اتفاقية الامتيازات - المترجم).
- ١٥٣٧ - ١٥٤٠ الحرب مع البندقية.
- ١٥٣٨ الحلف المقدس الأول (شارل الخامس والبابا ينضممان للبندقية).
- ١٥٤٠ البندقية تتنازل عن نافبليون وكل ممتلكاتها فى المورة.
- ١٥٤١ الاستيلاء الثالث على بودا، وتأسيس الباشوية فيها.
- ١٥٤٣ العثمانيون ينتصرون على بيك (بيش)، وسيكلوش، واشترجوم، شيكسفرفار.
- ١٥٤٤ العثمانيون ينتصرون فى فيشجراد، ونوجراد، وهاتفان، وسيمونتورنيا.
- ١٥٤٧ فرديناند يعترف بالباشوية، ويستمر فى دفع الجزية.
- ١٥٥١ - ١٥٦٢ الحرب مع النمسا.
- ١٥٥١ الاستيلاء على زرنينين، واوراديا، وشاناد، وليوفا.

- ١٥٥٢ الاستيلاء على تيموشورا، وفيشبريم، ودريجلى، وشولنوك، ولكن يهزموا فى ايجر.
- ١٥٥٤ الاستيلاء على كوبوشفار، وفيلاكوفا.
- ١٥٥٦ الهجوم الأول على شيجنفار.
- ١٥٥٧ الاستيلاء على تاتا.
- ١٥٦٠ هزيمة نكسوس.
- ١٥٦٢ الصلح: النمسا تعترف بكل انتصارات العثمانيين، واستقلال ترانسلفانيا تحت السيادة العثمانية ، والاستمرار فى دفع الجزية.
- ١٥٦٥ حصار مالطة.
- ١٥٦٦ الاستيلاء على جويلا، وشيجنفار، وخسارة فيشبريم، وتاتا، والاستيلاء على خيبوس.
- ١٥٧٠ الحرب مع البندقية (تؤيدها اسبانيا) والاستيلاء على قبرص.
- ١٥٧١ - ١٥٨١ الحرب مع الحلف المقدس الثانى.
- ١٥٧١ معركة ليبانتو البحرية.
- ١٥٧٣ البندقية تنسحب من الحرب وتعترف بخسارة قبرص ، وتدفع تعويضات عن الحرب، والعثمانيون يهاجمون ناجيكانيشا.
- ١٥٩٣ - ١٦٠٦ الحرب مع النمسا.
- ١٥٩٣ اعادة الاستيلاء على فيشبريم.
- ١٥٩٤ الاستيلاء على جيور، وخسارة عدة قلاع صغيرة.
- ١٥٩٥ ضياع اشترجوم.
- ١٥٩٦ انتصار العثمانيين فى ميزوكرشتش، والاستيلاء على ايجر.
- ١٥٩٨ ضياع فيشبريم، وتعرض بودا للهجوم.
- ١٦٠٠ الاستيلاء على ناجيكانيشا.
- ١٦٠١ ضياع شيكسفرفار.
- ١٦٠٢ النمساويون يهاجمون بودا، والعثمانيون يستعيدون شيكسفرفار.
- ١٦٠٣ النمساويون يهاجمون بودا.
- ١٦٠٥ استعادة اشترجوم.
- ١٦٠٦ صلح شتفانوروك، والجانبان يحتفظان بما استوليا عليه، لكن النمسا تتوقف عن دفع الجزية.
- ١٦١٩ الاستيلاء على فاش.
- ١٦٣٨ انتهاء العمل بنظام الدفشرمة تقريبا.
- ١٦٤٥ - ١٦٧٠ الحرب مع البندقية.
- ١٦٤٥ العثمانيون يهاجمون كريت.

- ١٦٥١ هزيمة العثمانيين فى معركة باروس البحرية .
- ١٦٥٦ هزيمة العثمانيين فى معركة بحرية قرب الدردنيل ، والبندقية تنتصر فى ليمنوس وبوشكا آدا .
- ١٦٥٨ العثمانيون يهاجمون القوات النمساوية فى ترانسلفانيا .
- ١٦٦٠ الاستيلاء على ناجيفاراد .
- ١٦٦٣ النمسا تنضم الى البندقية فى الحرب .
- ١٦٦٤ هزيمة العثمانيين فى سانت جوثارد ، وعقد هدنة فازفار مع النمسا لمدة عشرين سنة .
- ١٦٦٩ العثمانيون يهزمون ايراكيلون فى كريت .
- ١٦٧٠ الصلح : البندقية تعيد كل شىء استولت عليه ، والعثمانيون يأخذون كريت باستثناء ثلاثة حصون .
- ١٦٧٢ - ١٦٧٦ الحرب مع بولندا .
- ١٦٧٣ هزيمة العثمانيين فى خوتين .
- ١٦٧٦ هزيمة العثمانيين فى ليفوف ، وانتصار العثمانيين فى زورافنو ، وصلح زورافنو يعطى العثمانيين شرقى أوكرانيا وبودوليه . وعند هذه اللحظة وصلت الامبراطورية العثمانية الى أقصى اتساع لها فى أوربا .
- ١٦٧٧ - ١٦٨١ أول حرب مع روسيا .
- ١٦٨١ صلح رادزين ، والعثمانيون يتخلون عن شرقى أوكرانيا ، ويعد هذا أول مرة يخسر فيها العثمانيون أرضا خسارة نهائية لارجعة فيها .
- ١٦٨٢ - ١٦٩٩ الحرب مع النمسا .
- ١٦٨٣ الحصار الثانى لفيينا .
- ١٦٨٤ الحلف المقدس الثالث (البندقية وبولندا تنضمان للنمسا) ، والعثمانيون يحسرون فيتشجراد وفاش .
- ١٦٨٦ العثمانيون يفقدون شيكلوش ، وبيك ، وبودا ، وفيشيريم ، وشيكد ، وكذلك معركة زنتا لصالح النمسا ، والبندقية تستولى على معظم المورة .
- ١٦٨٧ العثمانيون يفقدون ايجر ، ومعركة موهاكر الثانية لصالح النمسا ، وحصار روسيا الأول لأزوف .
- ١٦٨٨ العثمانيون يتخلون عن شيكشفرفا ، ولينا ، وبلجراد .
- ١٦٨٩ العثمانيون يتخلون عن شيجتفار ، وفيدين ، ونيش .
- ١٦٩٠ العثمانيون يتخلون عن ناجيكانيشكا ولكنهم يستعيدون بلجراد وفيدين ، ويهزموا النمساويين فى ترانسلفانيا .
- ١٦٩١ العثمانيون يخسرون معركة شالانكامين .
- ١٦٩٤ ضياع جويلا من العثمانيين .
- ١٦٩٦ استعادة العثمانيين لليبا ، وخسارتهم ازوف للروس .
- ١٦٩٧ هزيمة العثمانيين مرة أخرى فى زنتا .
- ١٦٩٩ صلح زرمسكى كارلوفيتش ، والبولنديون يستعيدون بودوليه ، والبندقية تستعيد المورة ومعظم دلماشيا ، والنمسا تأخذ كل المجر باستثناء بانات تميزفار .

- ١٧١٠ - ١٧١١ الحرب مع روسيا.
- ١٧١١ العثمانيون يكسبون معركة بروت، ويستعيدون آزوف مرة أخرى في صلح بروت.
- ١٧١٤ - ١٧١٨ الحرب مع البندقية والعثمانيون يستعيدون المورة وبلنوس وتندوس وكورنثا.
- ١٧١٥ الاستيلاء على تنوس (آخر انتصارات العثمانيين).
- ١٧١٦ الحرب مع النمسا وهزيمة العثمانيين في بتروفارادين.
- ١٧١٧ النمساويون ينتصرون في بلجراد.
- ١٧١٨ صلح بوشارفاش مع النمسا، والعثمانيون يفقدون بانات التيمزوفارية وولاشيا الصغرى.
- ١٧٣٦ - ١٧٣٩ الحرب مع النمسا وروسيا.
- ١٧٣٦ الروس ينتصرون في آزوف.
- ١٧٣٩ الروس يفزون مولدافيا.
- ١٧٣٩ معاهدة بلجراد مع النمسا، والعثمانيون يستعيدون بلجراد، واضطرار روسيا لذلك حصون آزوف، وتعد بعدم الاحتفاظ بأسطول في البحر الأسود.
- ١٧٦٨ - ١٧٧٤ الحرب مع روسيا.
- ١٧٦٩ الروس ينتصرون في ياصى، وبوخارست.
- ١٧٧٠ الروس يستولون على نافارينو ولكن يتخلون عنها ويكسبون معركة بحرية كبرى قرب خيبوس، ويستولون على ثمانية عشرة جزيرة في بحر ايجة، ويحتلون مدن كيليا وبلهورد، ودنستروفسكى، وأزميل، وبندر، وبرايلا.
- ١٧٧٤ معاهدة كوتشك قينارجا، والروس يحررون آزوف وشبه جزيرة كيرش، وحصون كينبيرن، وينيكاليه في القرم، ومصب نهري الدنيبر والبوج، وبلاد التاتار تصبح محمية روسية، واعادة الأراضي التي بحوزة الروس الى العثمانيين، والنمساويون يحتلون بوكوفينا.
- ١٧٨٣ روسيا تضم بلاد خان التتار.
- ١٧٨٧ - ١٧٩٢ الحرب مع روسيا.
- ١٧٨٨ النمسا تنضم الى الحرب.
- ١٧٨٨ الروس يستولون على أوشاكوف.
- ١٧٨٩ الجيوش النمساوية تغزو البوسنة وسرفيا، والجيوش الروسية تغزو مولدافيا وولاشيا.
- ١٧٩٠ الروس يستولون على أزميل.
- ١٧٩١ صلح زيفشتوف مع النمسا يعيد اقامة حدود عام ١٧٨٨.
- ١٧٩٢ صلح ياصى مع روسيا، والعثمانيون يتخلون عن الأرض شمال شاطئ البحر الأسود جاعلين نهر الدنيستر يمثل الحدود الروسية - العثمانية

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب فترة الوجود العثماني في جنوب شرقي أوروبا طوال أكثر من أربعة قرون أي في منطقة البلقان التي تكونت فيها دول بلغاريا والباينا ورومانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وذلك من حيث طبيعة الحكم العثماني هناك، وعلاقات التبعية التي أقامها العثمانيون مع امراء المنطقة، ومجمل النظم السياسية - الادارية والاقتصادية - الاجتماعية، والمناخ الثقافي آنذاك.

والكتاب يعد نافذة يطل منها القارئ العربي علي تاريخ شعوب البلقان التي خضعت لذات الحكم الذي خضعت له الشعوب العربية زهاء ثلاثة قرون ونصف (الحكم العثماني)، وله ان يعقد ما يشاء من مقارنات بحثا عن أوجه الشبه أو أوجه الاختلاف.

والكتاب الذي يبحث في فلسفة الحكم العثماني الاسلامية لمجتمعات مسيحية أوروبية يلقي اضواء على أصول الصراع العرقي الذي اختلط بالاختلافات المذهبية والذي انفجر في الصرب والبوسنة في مطلع التسعينات من القرن العشرين.